

نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام

الجزء الثاني



دار المعارف

نشأة الفكر الفلسفى
فى الإسلام

الجزء الثانى

نشأة التشيع وتطوره

تأليف
دكتور على سامى النشار

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الإهـــداء

إلى علامة العراق الشاب

الذى أشرق فى سماء العالم العربى : بعلمه وخلقه

إلى الأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشيبى

أهدى كتابى هذا

٢٨ شعبان ١٣٨٨ .
١٩ نوفبر ١٩٦٨ .

دكتور على سامى النشار

فهرس الموضوعات

صفحة

الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

صفحة

الباب السادس

الباب السابع

قائمة الأئمة الإسماعيلية

١ – على بن أبى طالب
٢ – الحسن
٣ – الحسين
٤ – على زين العابدين
٥ – محمد الباقر
٦ – جعفر الصادق
٧ – إسماعيل بن جعفر (المتوفى عام ١٤٥ هـ)
أو محمد بن إسماعيل (المتوفى عام ١٨٣ هـ)

الأئمة المستورون

١ – محمد بن إسماعيل بن جعفر
٢ – عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل
٣ – أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل
٤ – الحسين بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل
٥ – على بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل
٦ – سعيد الخير (عبيد الله المهدى القداحى)

قائمة الأئمة الاثنى عشرية

١ – على بن أبى طالب	(المتوفى عام ٤٠ هـ)
٢ – الحسن	(المتوفى عام ٥٠ هـ)
٣ – الحسين	(المتوفى عام ٦١ هـ)
٤ – على زين العابدين	(المتوفى عام ٩٤ أو ٩٥ هـ)
٥ – محمد الباقر	(المتوفى عام ١١٣ هـ)
٦ – جعفر الصادق	(المتوفى عام ١٤٨ هـ)
٧ – موسى الكاظم	(المتوفى عام ١٨٣ هـ)
٨ – على الرضا	(المتوفى عام ٢٠٣ هـ)
٩ – محمد الجواد	(المتوفى عام ٢١٩ هـ)
١٠ – على الهادى	(المتوفى عام ٢٥٤ هـ)
١١ – الحسن العسكرى	(المتوفى عام ٢٦٠ هـ)

١٢ – الإمام محمد – الإمام المنتظر (المولود عام ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة السابعة

أقدم للقارئ الطبعة السابعة من الجزء الثانى من كتابى نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام – نشأة التشيع وتطوره – ولقد كان عملى فى هذه الطبعة من أدق الأعمال .

لقد رأيت أن أقف موقف الناقد من منهج البحث فى الكتاب أولا . ثم من مادته .

أما عن المنهج ، فإننا جميعاً – الباحثون فى تاريخ الفلسفة – إنما نستخدم المناهج التجريبية – مطبقة فى نطاق العلوم الإنسانية . وهو ما يسمى فى علم المناهج – بالمنهج الاستردادى . نقوم بعمليتى التحليل والتركيب – ننظر فى الوثائق ، ونطبق عليها طرق التحقيق ، من نقد خارجى ونقد داخلى ، ثم نقوم بتحليلها ، وبعد ذلك – نضعها فى نسق مذهبى تركيبى . لا أشك أن هذا منهج معظم مؤرخى الفلسفة . ولكن يأتى الاختلاف بيننا فى التفسير والرؤى . وقد ظهرت رؤى جديدة وتفسيرات متعـددة للفلسفة عامة وللفلسفة الإسلامية خاصة . ومن العجيب أن هذه التفسيرات سميت لدى بعض الكتاب بمناهج ، بينما هى مجرد رؤية أو تفسير كما قلت وأهم هذه التفسيرات الحديثة هى التفسير المادى التاريخى – والتفسير البنيوى والتفسير الفيولولوجى والتفسير الظواهرى . علاوة على ما كان من قبل – من تفسيرات – التفسير الغيبى واللاهوتى ، والتفسير التاريخى البحت . . . إلخ من تفسيرات قديمة . وقد كنا نعانى نحن من قبل تفسيرات المستشرقين للفلسفة الإسلامية ، وكانت فى معظمها تفسيرات ورؤى ذاتية ، ليس فيها على الإطلاق ، ما نسميه بالحياد العلمى . أو بمعنى أدق بالموضوعية .

ولقد حاولت – فيما كتبت – عن الفلسفة الإسلامية – أن أكتب التاريخ النزيه ، أن أحقق إلى أكبر حد – الموضوعية العلمية ، أنا أعلم تماماً أن الموضوعية المطلقة عسيرة التحقيق . ولكنى جهدت جهداً كبيراً أن أقترب خطوات منها ويتبين – واضحاً – من خلال هذا الجزء من سلسلة نشأة الفكر – إلى أى حد خلصت الشيعة من إلزامات خصومهم ، لكى يتبين لنا وجه المذهب الشيعى خالصًا . وتبين لى – أنه كان هناك دائماً شيعة مقتصدة ، وشيعة غالية ، ثم ننتهى إلى مذهب متوسط ، مقتصد فى مجمـوعه ، ولكن تعلق به شوائب من الغلو . ولكن ليس هذا ما أريد الخوض فيه فى هذه المقدمة ، ما أريد توضيحه هو أن لا نقتصر فى بحثنا لنشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام وتطوره على تفسير واحد .

فلم ينشأ الفكر الفلسفى فى الإسلام عن صراع طبقات فقط ، كما لم تكن هناك عوامل بنيوية داخلية وخارجية فحسب ، ولا نستطيع أن نقول إن تفسيراً فيلولوجياً وحده يوضح لنا حقيقة التشيع مثلا – ولا يمكننا أن ندعى أن العامل السياسى كان وحده الدافع إلى قيام الشيعة أو المعتزلة . أو أن نظرة ظواهرية نستطيع الإحاطة الشاملة بنشأة الشيعة وتطورها .

إن النتيجة الحاسمة التى أريد أن أصل إليها : أن لكل مذهب فلسفى ، جوانبه المتعددة . وأساليبه الخاصة والعامة . إن المذهب الفلسفى قد يظهر ذاتياً ،وقد ينبثق من باطن الجماعة ، ويعبر عنها . ويمكن تفسير . بعض جوانبه أيضاً تفسيراً دينياً أوسياسياً . وقد يأتى من بنية المجتمع ، داخلية أوخارجية . وقد يأتى من تفسير فيلولوجى . قد يكون نتيجة لكل هذه العلل مجتمعة . ولكن من الخطأ الكبير كما قلت أن نقصر التفسير على جانب واحد . ونسجن أنفسنا فى رؤية واحدة .

كل هذا جعلنى أتحقق عن يقين : أن النظرة الموضوعية هى الطريق الوحيد لمعرفة تاريخ الفلسفة معرفة واضحة .

هذا عن المنهج ، أما عن مادة الكتاب ، فقد راجعت الفصول المختلفة للكتاب . وغيرت كثيراً من الألفاظ والعبارات .

وأرجو من الله التوفيق .

الرباط فى : ٥ شعبان عام ١٣٩٧
الموافق : ٢٣ يولية عام ١٩٧٧

دكتور : على سامى النشار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

رأيت أن أقدم فى هذه الطبعة الرابعة بعض الزيادات والإضافات التى توصلت إليها عن التاريخ الباطنى للشيعة الغلاة . وقد رأيت أن للكبالا اليهودية التأثير الكبير فى عقائد الشيعة الباطنية الغالية ، وفى الحق إنه من الواجب على الباحثين أن يتجهوا نحو هذه الناحية الخطيرة من تاريخ الفكر الإسلامى لكى يكتشفوا خفاياها .

إن الأفكار الفلسفية للشيعة الاثنى عشرية هى فى مجموعها إسلامية بحتة ، ولكننا إذا تجاوزنا هذه الطائفة من الطوائف الشيعية ، لوجدنا مسالك متعددة للعناصر الأجنبية الدخيلة على الفكر الإسلامى . وكان من أخطر هذه العناصر على الفكر الشيعى بل على الفكر الإسلامى عامة هى الكبالا أو القبالا اليهودية .

ولا شك أن الكبالا اليهودية قد عاشت فى الشام ، كما عاشت فيما بين النهرين . ولكن كان لها موطن خفى فى اليمن . وفى اليمن ... كانت اليهودية مترسخة .. ومن اليمن جاءت عناصر غريبة كثيرة . جاء الغلو الشيعى من اليمن متغلفاً بعناصر يهودية قبالية ، ومن اليمن أيضاً جاءت علوم الصنعة والنجوم . ومن اليمن جاءت أسطورة عبد الله بن سبأ . وفى الشام وفى المعسكر المضاد عاش كعب الأحبار.

ينبغى أن نتوقف كثيراً ... وقفات متعددة ، وأن نلجأ إلى النقد الباطنى للنصوص كى نرسم الصورة الكاملة للعناصر الأجنبية الوافدة ، والتى وجدت لها مرعى خصيباً فى أفكار الغلاة .

ولست أدعى أننى قمت بهذا فى هذه الطبعة الجديدة . ولكننى وجهت الأبصار إليها ، وسأحاول إن شاء الله استكشافها فى أبحاث أخرى .

كما أنه لا بد لنا أيضاً أن نستكشف العلوم السرية من ناحية والعلوم الطبيعية والكيميائية والفلكية من ناحية أخرى ، وصلة هذه العلوم بالمذهب الشيعى . ولقد تهافتت أسطورة تلمذة جابر بن حيان الكيميائى الشيعى على إمام الشيعة جعفر الصادق . ولكن إذا تفحصنا النصوص لوجدنا أن أباه حيان العطار كان شيعياً ولكن من شيعة مخالفة وهى الشيعة العباسية .

كما ينبغى أن نستكشف أيضاً ، صلة التصوف بالتشيع . وكان للعلامة العراقى الممتاز الدكتور كامل مصطفى الشيبى بأبحاثه الرائعة ، فضل توضيح هذه الصلات ، غير أنه لا بد أن يسير الباحثون فى أثره

وهديه فى هذا الطريق حتى نوضح الصورة جلية من جميع نواحيها وبدون إغراق وبدون غلو.

ثم أخيراً – ينبغى أن نبحث الآثار الاجتماعية والفوكلور الذى تركه التشيع فى أعماق الحياة الإسلامية – سنية كانت أو شيعية – وما زالت هذه الآثار حية حتى الآن فى حياتنا المعاصرة.

والله ولى التوفيق.

دكتور على سامى النشار
أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية
كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

٢٨ شعبان ١٣٨٨.
١٩ نوفمبر ١٩٦٨.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

كان نفاد الطبعة الثانية من هذا الكتاب فى مدة وجيزة دليلا على تلهف القارئ على تفهم نشأة فلسفة التشيع وتطور هذه الفلسفة خلال العصور المتعاقبة وكانت محاولتى – فيما أعلم – الأولى من نوعها ، فقد عنى الباحثون من قبل بتاريخ الشيعة السياسى ، كما كتبت أبحاث متعددة عن موضوعات متناثرة من فلسفة الشيعة . أما أنا فقد حاولت أن أضع عقائد الشيعة ونظرياتهم المتعددة فى نسق فلسفى متكامل . وأن أبين فى كل فصل من فصول الكتاب نشأة النظرية . ثم تكاملها فى إطارها الفلسفى ، ثم تطورها .

وعدت إلى الكتاب توطئة لطبعته الثالثة هذه . وقد وضحت لى المشكلات الشيعية الفلسفية وضوحاً تاماً . وأمدتنى وثائق – لم تكن قد وصلت إلى يدى وأنا أكتب الكتاب فى صورته السابقة – بمعلومات أكثر وثوقاً ودقة فكتبت الكتاب فى صورة جديدة ، وإن اتفقت الطبعتان فى بعض المسائل .

وقد تبينت لى ظاهرة لا تخلف فيها كل عصور التشيع وهى ظهور نظرية معتدلة مقتصدة ، ونظرية غالية مسرفة ، ثم يعقب كلا من هذه وتلك نظرية تأخذ عناصر من هذه وعناصر من تلك . ولكل نظرية أتباعها ورجالها . وإن كان الإطار العام للتشيع واحدًا ، إلا أن التشيع يختلف ، وتتباين فرقه أكبر تباين ، وقد وضحت توضيحاً موضوعياً الاختلاف التام بين عقائد الإمامية وهى : الفرقة التى أنشأها جعفر الصادق وتلامذته ، وعقائد الاثنى عشرية وهى : الفرقة التى أنشأها المجتهدون من علماء الشيعة بعد غيبة الإمام الثانى عشر . فلكل فرقة من هاتين الفرقتين فلسفتها الخاصة بها التى تميزها تمييزاً كاملا عن فلسفة الأخرى . كما أن ثمة خلافاً صارخاً بين فلسفة الإسماعيلية الأولى الساذجة وبين فلسفة الغلاة من الخطابية ، تجتمع الفلسفتان فى فلسفة واحدة فى دور الستر . وتظهر الإسماعيلية مقتصدة فى دور الظهور ، ولكن تبقى النظرية الغالية فى الخفاء ، ثم تعلن نفسها فى عهد الحاكم ، وينسق فيلسوف الإسماعيلية المتأخر حميد الكرمانى النظريتين معاً ، الغالية والمقتصدة .

وقد لاحظت فى عجب تجاور الغنوص والاعتزال العقلى فى المذهب الشيعى عامة ، على ما بين الاثنين من خلاف عميق . أثر الاعتزال فى الأبى هاشمية – الكيسانية ، كما أثر فى الزيدية . وحارب الإمام جعفر الصادق وتلامذته الكبار من أمثال هشام بن الحكم وهشام بن سالم ومؤمن الطاق

وغيرهم ، الاعتزال أكبر محاربة ، ولكن ما لبثت الاثنا عشرية أن احتضنت جوهر المذهب المعتزلى كاملا ، وسيطر الاعتزال على عقائد الإسماعيلية – غلاة ومعتدلين .

إننى حاولت – كما قلت – أن أضع النظرية العامة الفلسفية للشيعة ، وأن أتتبعها حيثما كانت . ولعلى أكون قد وفقت فى وضعها فى النسق الفلسفى ، وأن يكون كتابى هذا حافزاً للعلماء الشبان بالجامعات العربية على القيام بدراسات أوسع لفلسفة الشيعة من حيث هى فلسفة .

وأسأل الله التوفيق فى ظواهر أعمالنا وبواطنها .

دكتور على سامى النشار

أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية

بكلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الرابع عشر من جمادى الأولى عام ١٣٨٥ هـ .

العاشر من سبتمبر عام ١٩٦٥ م .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

هأنذا أقدم للباحثين فى الفلسفة الإسلامية الجزء الثانى من كتابى نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . وقد حاولت فى الجزء الأول منه أن أعرض لنشأة الفلسفة الإسلامية المعبرة عن روح إسلامى خالص لدى دوائر أهل السنة والجماعة والمعتزلة ، وفى هذا الجزء الثانى محاولة لتفسير هذه النشأة لدى الشيعة.

ولقد صدر أهل السنة والجماعة والمعتزلة عن الإسلام أو تكلموا باسمه . وكذلك فعل الشيعة المعتدلون. غير أن الموقف الفكرى يختلف هنا وهناك . ولقد شغل أهل السنة والجماعة من ناحية معتزلة من ناحية أخرى بالموضوعات العليا للفكر الإنسانى ، شغلوا بالموضوع ، من حيث هو موضوع ، بينما شغل الشيعة « بالذات» و« بالشخص » فمركز الدائرة لديهم « شخص أعلى » أضاف إليه الشيعة إن حقا وإن باطلا ، كل علم ، وقدحوا فيه كل حقيقة . وبينما أدرك المعتدلون منهم حقيقته ،وصوروه فى غالب الأمر كما صورته مجموعة أهل السنة – أى الخلف – فى صورته الحقيقية ، أضفى عليه الآخرون – أى الغلاة منهم ، كما أضفوا على أولاده من بعده كل ملامح الغنوص ، وصبغوه كما صبغوا أولاده المتتابعين بكل العناصر الفلسفية القديمة . واعتبروه وأولاده عناصر كونية – كوز مولوجية – وعناصر معرفة – إبستمولوجية – وأثر هذا الغلو حتى فى المعتدلين ، ودخل فى أعماق المذهب الاثنى عشرى ، كما فاض بقوة فى دوائر الإسماعيلية .

ولقد حاول أهل السنة والجماعة الأوائل ، أن يستندوا على النقل والعقل فى فكرهم الفلسفى ، وحاول أهل الاعتزال أن يقيموا فلسفتهم على العقل والنقل .

أما الشيعة فقد عرفوا فقط فى نشأتهم الأولى – النقل فقط ، والنقل بطريق خاص ، وعن مجموعة خاصة من أئمة أهل البيت وبعض حوارى محمد ﷺ وأتباع ابن عمه على بن أبى طالب . ولذلك تميز فكر الأولين – أهل سنة ومعتزلة – بمسحة عقلية ظاهرة بينما تميز فكر الآخرين – أهل التشيع الأول ، بعاطفة تتجه نحو القلب وتحرك آفاقاً شفافة فى النفس الإنسانية .

وتميز المذهب الشيعى بأنه أثار الحب والكره ، وأعلن التولى والبراءة . أما أهل السنة والجماعة فقد أعلنوا الحب ، وتولوا الجميع . وتفرق أهل الاعتزال مذبذبين بين أولئك وهؤلاء .

وكانت الفكرة السائدة أن أهل السنة والمعتزلة وحدهم قاموا بالدفاع عن فلسفة الإسلام المعبرة عن

أصالته تجاه أهل الفلسفات الأخرى من مسيحيين ويهود وثنوية وفلاسفة ، بينما كان عمل الشيعة أن تهاجم فقط المجموعة الإسلامية ، وأن تناقض آرائها . وهذا خطأ كبير . كان علماء الشيعة المعتدلة فى عصرهم الأول ، كما كانوا فى عصرهم الأخير–مشاعل مفسرة لروح الإسلام تجاه أعدائه ، فوقفوا بالمرصاد للثنوية والمسيحية واليهودية والفلاسفة وغلاة الشيعة أنفسهم وشاركوا علماء أهل السنة والمعتزلة فى إقامة البناء العقائدى الإسلامى متكاملا متناسقاً . ومن الثابت تاريخيًّا أن مدرسة جعفر الصادق – وعالمها الكبير هشام بن الحكم – قد قامت بالدور الأكبر فى هذا السبيل .

ولكن كان خطأ الشيعة الأكبر أنها تعلقت «بالذات» «وبذات واحدة» ، وكان لهذه «الذات الواحدة» عند مخالفيهم أهل السنة قداسة كبرى ، ولكن أهل السنة رأوا أن ثمة قداسة أكبر من قداسة هذا الإنسان الواحد ، وهى الجماعة ، الجماعة لا تجتمع على ضلالة ، بينما أعلن أهل الشيعة أن الجماعة قد تخطئ وقد تصيب .

وأن الرأى قد يخطئ وقد يصيب ، ولكن «الإنسان» و «الفرد» ذا السلطة لن يخطئ أبدًا ، فأضافوا لهذا الإنسان الفرد العصمة اللامتناهية .

وهنا دخلت الأسطورة ، والأسطورة تتبع «الفرد» دائماً ، إنها تتبع صاحب المذهب–كما هو معلوم ، ولا تتبع المذهب أول الأمر ، ثم تصبح بعد جزءاً من المذهب . وهذا ما حدث فى أغلب فرق الشيعة ، أن حاكت الأسطورة–والأسطورة تتنوع– شباكها حول ابن عم الرسول .

وقد كان على بن أبى طالب خليقاً بكل محبة وإجلال وبكل صورة للهيام والعشق فى قلوب المسلمين ، وقد كان علي بن أبى طالب أنشودة الإسلام الكبرى–منذ مطلع الإسلام– فى جبال فاران ؛ حتى مصرعه العنيف فى الكوفة فى عام نحس أغبر ، فى عام ظلام حالك مدلهم ، كتب السواد والفرقة على المسلمين لأحقاب طوال تعاقبت بعده .

كان الفتى الصغير أول أصحاب الرسول الأعظم ، وأول حوارييه ، لقد مد يده الصغيرة الجميلة فى موالاة حرة أبية ، معاهداً محمد بن عبد الله على تفديته بالنفس ، وبيعته بالموت ، ومشيخة بنى هاشم ، والشيخ الكبير أبو طالب بينهم ، ينظرون .

وتتابعت الأحداث فى مكة ، والحوارى الصغير يخطو للشباب ، وحين هاجر الرسول وصاحبه العظيم أبو بكر الصديق ، كان الحوارى الصغير– صامتاً– فى فراش الرسول ، وهو يعلم أن سيوف شياطين قريش ستنوشه بعد قليل ، ولكنه لم يكن يأبه ولم يكن يرتاع ، بل كانت روحه فى مسرى الرسول الأكبر وصاحبه ، وبعد أيام قلائل يستعد الفتى الصغير لهجرته إلى الله ورسوله–غير هياب قريشاً ولا أعداء الرسول فى الطريق الشاق إلى يثرب الطيبة . ويحمل معه وديعة الرسول الكبرى فى

مكة – فاطمة الزهراء ، زهرة الدنيا اليانعة ، وروح الحياة المتفتحة ، والتى انبثقت منها دوحة محمد الوارفة . كانت هى وعلى يسريان فى صحراء العرب الكبرى ، يخترقان الوهاد والنجاد والسهول ، والرسول الأعظم وأصحابه فى المدينة فى صلاة ابتهالية أن يبعث الله عليهما سكينته وسلامه .

وهاهما على وفاطمة فى المدينة ، فى مهجر النبوة آخر الأمر ، ويرد على وديعة الرسول ، ثم تكون له بعد . ويعيش على فى رحاب النبوة . . . وأخيراً يموت صريعاً على يد خارجى .

تلك حقيقة على ، آمن بها أهل السنة ، كما آمن بها الشيعة ، ولكن الشيعة – كما قلت – آمنت به وحده ، وآمن به أهل السنة ، كما آمنوا بالصاحبين القديمين الشيخين أبى بكر وعمر وتولوهما ؛ ولكى تكبر الصورة ، أبدعت الأسطورة . ولو عاد الأمر – بعد على إلى المسلمين الخلص . لكى يحكموا المسلمين ، وحرم منه ابنا فاطمة الزهراء ، لما تضخمت المسائل ، وكبر الحب وعظم ، وكبرت السخيمة وعظمت .

ولكن الأمر عاد إلى معاوية بن أبى سفيان . ولم يكن المسلمون بعد قد تناسوا أباه هذا الغنوصى القائم ، هذا الثنوى المجوسى الذى لم يؤمن أبداً . وسرعان ما أطلقوا على معاوية الطليق ابن الطليق ، والوثنى ابن الوثنى . ومهما قيل فى معاوية ومهما حاول علماء المذهب السلفى المتأخر . وبعض أهل السنة ، من وضعه فى نسق صحابة رسول الله . فإن الرجل لم يؤمن أبداً بالإسلام ، ولقد كان يطلق نفثاته على الإسلام كثيراً ، ولكنه لم يكن ليستطيع أكثر من هذا . وبدأ أبناء فاطمة يكتبون بدمائهم أكبر الملاحم .

ومات الحسن مسموماً ، ثم معاوية وقتل يزيد الحسين بن على بن فاطمة مقتلة لم يعرف الزمان لها مثيلا ، وتولى آل مروان أعناق المسلمين بالسيف ، وهم فرع آخر من أمية ، أكثر ضراوة وأشد قساوة . وقتل زيد بن على فى ملحمة أخرى قاسية وعنيفة ، وتتابعت الملاحم الواحدة بعد الأخرى . والمذهب الشيعى يتشعب ويتكثر ويتضخم . ويتولى العباسيون الحكم ، ويذيقون أبناء فاطمة أشد مما أذاقه إياهم الأمويون . ويجرعونهم كأس الذل والموت أكثر مما جرعهم الآخرون .

والمجامع الشيعية تقاوم وتقاوم وتنتشر وتنتشر ، آخذة صوراً متعددة ، فأحياناً هى شيعة مقتصدة معتدلة ، وأحياناً هى مذهب كلامى بحت . وأحياناً أخرى هى مذهب غنوصى فلسفى ؛ وأحياناً رابعة هى تصوف وزهد . وأحياناً خامسة هى مذهب باطنى متزندق ، وأحياناً سادسة ، هى مذهب باطنى وظاهرى .

ولقد عاشت الشيعة حتى الآن فى التاريخ ، ومازال فى العالم الإسلامى الملايين من الشيعة . اثنى عشرية وإسماعيلية وزيدية ثم فرق الغلاة المنتشرة فى شمال العراق وسوريا ولبنان وبعض أطراف الجزيرة العربية ثم الهند وباكستان . وأكبر فرقها المعاصرة الاثنى عشرية ، وهى فرقة إسلامية بحتة ، وهى لا تمثل

أبداً المجتمع المغلق الذى تمثله فرق الشيعة الأخرى المعاصرة كالإسماعيلية أو العليائية أو الدروز أو النصيرية . وإن كانت تحيا فى قلق وتردد ، وينتشر فى أوساطها أساطير وفوكلور ينأى بها أحياناً عن السير متعاونة مع الخلف– جمهور المسلمين الكبير– فى الموكب الإسلامى العظيم .

وأحب أن أقول إنه لاتكاد تختلف الاثنى عشرية المعاصرة فى عقائدها عن عقائد الخلف من أهل السنة ، ومذهب الخلف هو عقيدة الملايين من جمهور أهل السنة ، وأتمنى ألا تشغل «المشكلة التاريخية» مشكلة موالاة الإمام والبراءة من أعدائه عقول مجتهدى ومفكرى الاثنى عشرية ، وأن يعمل هؤلاء المجتهدون والمفكرون من الشيعة على تعميق النظرية الروحية الشيعية– محبة آل البيت وعترة الرسول التى تنبثق فى أعماق هذا المذهب وتصبغه بصبغتها .

وهذا الكتاب– محاولة لتأريخ ظهور العقائد الشيعية ، مبيناً ما فيها من فلسفة وكلام ، واضعاً كل عقيدة فى إطارها ، مظهراً أصالته أو مصدره الإسلامى أو غير الإسلامى .

ولقد ناقشت كثيراً من موضوعات هذا الكتاب مع صديقى الأستاذ الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم وأستاذ الفلسفة الإسلامية بها . وقد كان له فضل توجيه نظرى إلى الغنوصيات الأوائل فى الجزيرة العربية ، ولقد تبين لى غنوصية مسيلمة المتنبى الكذاب ؛ كما ثبت لى غنوصية أبى سفيان . كما أنه وجه نظرى أيضاً إلى فكرة «تبادل الأسلحة» وهى فكرة صائبة إلى حد كبير– فيما يخص مفكرى الشيعة المعتدلين من أمثال هشام بن الحكم ، فلم يكن الرجل معتزليًّا ولكنه استخدم أحياناً بعض أسلحتهم ؛ وعلقت بمذهبه ، كما علق بمذهبه أيضاً كثير من عناصر رواقية أخذها خلال مناقشته مع الغنوصية الديصانية . كما أن الإسماعيلية المعتدلة لم تكن أبداً غنوصية خالصة ، بل هى مذهب كلامى علق به بعض الغنوصيات . أما غلاة الشيعة فكانوا بلاشك غنوصيين ، على أشد صور الغنوصية .

وأسأل الله التوفيق .

٢١ ربيع الأول ١٣٨٤ هـ
٢٩ يولية ١٩٦٤ م

دكتور على سامى النشار
أستاذ الفلسفة الإسلامية
كلية الآداب– جامعة الإسكندرية

الباب الأول

مقدمات التشيع

لن نحاول هنا – ونحن نبحث فى نشأة التشيع فى الإسلام ، أن نخوض خوضاً كاملا فى تاريخ الشيعة السياسى ، وإن كانت السياسة ، أو الإمامة ، إذا تكلمنا بلغة فقه الشيعة . هى الحجر الأساسى فى نشأة الشيعة وظهورها فى الإسلام . ومن العجب أن يبدأ التشيع بعقيدة مؤداها : أن على بن أبى طالب هو الإمام بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلى أو الخنى ، وأن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده – وإن خرجت فبظلم أو تقية منه ومن أولاده – عجباً أن تبدأ هكذا ، ثم تنتهى إلى مذاهب فلسفية وسياسية معقدة تمام التعقيد ، مركبة من مختلف المذاهب . أو بمعنى آخر : إن عقيدة فى حب آل البيت – تتطور خلال التاريخ وتبعاً لحوادث السياسة إلى مذهب فلسنى يبطن الاعتزال أحياناً ، والغنوص أحياناً . ويتستر خلفها مجموعات من أشد أعداء محمد ﷺ ضراوة . ويحاولون بكل الوسائل القضاء على رسالته ، وعلى العقيدة التى حارب ابن عمه على لأجلها بكل قواه .

ومن الخطأ الكبير القول : إن هناك تشيعاً واحداً خلال التاريخ ، كان لكل عصر نوع من التشيع : ولكل طائفة شيعية نوع من التشيع . وما أشد الخلاف بين حب مجموعة من الصحابة لعلى فى عهد الرسول وفى عهد الشيخين وبين حب أنصار على الملتفين حوله فى طرقات الكوفة والبصرة ، وما أشد الخلاف بين هذا الحب وبين جرأة الترابيين من أصحاب حجر بن عدى وفداء التوابين من أصحاب سليمان بن صرد . ويعظم الخلاف بين عاطفة كل من سبق وبين الشيعة الحقيقية فى عهد جعفر الصادق ، حين نشأ المذهب الكلامى للشيعة ، وفتق المتكلمون من تلامذة جعفر بن محمد الكلام فى الإمامة وخاضوا الفلسفة فى جميع نواحيها . وما أشد الخلاف ثالثة بين كل هذا وبين عقيدة الاثنى عشرية ، بعد وفاة الإمام الثانى عشر : وليست هذه هى كل صور الشيعة بل هناك الزيدية ، يقتربون من أهل السنة ، وهم بعد شيعة . وإسماعيلية يبتعدون عن أهل السنة وعن الاثنى عشرية ، وهم بعد شيعة . والكيسانية – وهم أتباع محمد بن الحنفية أو شيعته . والغلاة من قرامطة وعليائية وبيانية وخطابية ودروز ، إلخ ، وهم كلهم شيعة والتشيع الأول كان مجسماً والتشيع الأخير كان معتزليًّا ، وهم جميعاً شيعة .

فالتشيع إذن ظاهرة مركبة معقدة ، وبين طوائف الشيعة قديماً وحديثاً من الاختلاف ما لا نجده بين طوائف أهل السنة قديماً وحديثاً ، وليس بين الخلف والسلف ، وهما فريقا أهل السنة الكبيران الآن ، ما بين الإسماعيلية والاثنى عشرية –وهما فريقا الشيعة الكبيران الآن– من خلاف كبير وتنافر شديد .

ويلاحظ جولد تسيهر أن من الخطأ الكبير أن نطلق لفظ الفرق على طوائف أهل السنة من مرجئة وكلامية وأشعرية وما تريدية ومشبهة أو أن نطلق لفظ الفرق على المعتزلة ، ويحاول أن يفرد هذا الاسم «فرقة أو فرقاً» على الطوائف التى اختلفت مع جمهرة المسلمين فى مسألة الإجماع.(١) ، فالخوارج مثلا فرقة لأنها لم تتفق مع المسلمين فى إجماعهم على خليفة من الخلفاء ، وكذلك الشيعة ، وهى الطائفة التى تشيعت لعلى خاصة ، وأفردت الإمامة والخلافة له ولمن بعده من بنيه فخرجت عن إجماع المسلمين فالتقابل الكبير الحاسم بين طوائف المسلمين إنما كان بين الشيعة وأهل السنة والجماعة (٢) . فقد تولى الأولون الخلفاء الثلاثة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الآخرون فقد اعتبروهم غاصبين أخذوا الخلافة قسراً وخداعاً من الإمام الوصى الذى عينه النص الإلهى فى مواضع متعددة .

الشيعة إذن هى الطائفة التى تقابل بالتضاد أهل السنة والجماعة ، واختلفت معهم فى إجماعهم اختلافاً بيناً . ولكن كيف حدث هذا الاختلاف وانتهى إلى قتال مرير وأحقاد وسخائم وانتهى إلى تفرق كلمة المسلمين حتى عصورنا الحديثة .

---

(١) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة فى الإسلام (ترجمة الدكتور محمد موسى وزميليه) ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر: ص ١٧٤ .

الفصل الأول

النص الإلهى والإمام

نشأ محمد ﷺ فى بطن من بطون قريش ، بنى المطلب من بنى هاشم بن عبد مناف . وكان محمد ﷺ فى الصدارة العظمى نسباً فى هذه القبيلة العربية العجيبة الشأن . وكانت هذه القبيلة تنتسب إلى إبراهيم الرسول ، بل كان يطلق على سيد قريش ، وجد الرسول ﷺ « إبراهيم الثانى »[1] وجاءت الرسالة الإلهية محمداً ﷺ فى فترة كف فيها الوحى الإلهى بعد أن أشرف فى المرة الأخيرة على المسيح عيسى بن مريم ، وأعلن الوحى الإلهى إعلاناً لا محيص عنه ، أن محمداً ﷺ خاتم النبيين « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» سورة ٢٣ آية ٤٠ — ويعتقد المسلمون أن الدورة الكبرى ، دورة الأنبياء قد انتهت بمحمد رسول الله انتهاء أبدياً . ولكن اختلفوا فى أمر الدين والدنيا . أما فى أمر الدين ، فقد رأى جمهرة المسلمين أنه إذا كان ثمة حاجة لهداة يتابعون الرسالة ويعلنونها للناس ، فإن هؤلاء الهداة إنما ينبعثون ويظهرون فى صورة أولياء أو أئمة مصداقاً للحديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد شباب دينه » وحاول أهل السنة والجماعة فيما بعد ، أن يحددوا أسماء هؤلاء الأئمة الذين ظهروا فى رأس كل مائة عام ، فقاموا بالجهاد إما فكرياً وإما بالقتال والجهاد . أما فى الدنيا ، فقد رأى الجمهور من المسلمين أن عليهم أن يبايعوا خليفة يخلف الرسول فى القيام بأمر دنياهم ، وحددوا شروط هذا الخليفة ، واتفقوا على أن الرسول لم ينص على واحد بعينه نصاً صريحاً وإنما اجتهدوا فى الأمر بعقولهم» .

أما الطائفة الأخرى التى تقابل بالتضاد جمهور المسلمين ، أو بمعنى أدق أهل السنة والجماعة ، فهى طائفة الشيعة ، التى اعتقدت اعتقاداً جازماً حاسماً أن الإمام أو الخليفة ، إنما يعينه النص ، ثم يستتبع تعين النص له أن يكون معصوماً ، وتستدعى العصمة منه ، أن ينص على من يخلفه من الأئمة ، إذ لابد للأرض من قائم يدعو إلى الحق ويدافع عنه .

وقد انتقل النبى محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة بعده الصاحب الأول وهو أبو بكر بن قحافة المشهور بأبى بكر الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ثم

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى (طبعة النجف ١٩٥٨) حـ ٢ ص ٧ .

على بن أبى طالب . وبينما يذهب أهل السنة إلى أن عليًّا قد قبل الخلائف الثلاث وأطاع الخلفاء الثلاثة وأحسن لهم المشورة ، يذهب الشيعة إلى أن على بن أبى طالب إنما كان مكرهاً وحين تولى آخر الأمر ، لم يبق فى خلافته إلا زمناً يسيراً ثم قتل غيلة ، ثم قتل ابنه الحسن مسموماً وقتل أبو عبد الله الحسين ابنه الآخر فى سهل كربلاء ، وقتل أولاده معه ، ولم يبق إلا ولدان تناسلت منهما الأسرة العلوية ، وتتابع القتل على أغلب رجالها ، بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة حقًّا مأساة من أكبر المآسى فى تاريخ الإنسانية ، ولقد صور الشيعة تلك المآسى تصويراً أخاذًا ، وبكى شعراء الشيعة أهل البيت وعترته بكاء مريراً ، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الحزينة . وبقى البكاء سمة الشيعة حتى قيل « أرق من دمعة شيعية » ورأى أئمة أهل البيت أنفسهم ، أن « المحن والعذاب » كأس كتب عليهم تناوله ، ونرى فاطمياً منهم فيما بعد ، وهو العزيز بالله (المتوفى عام ٢٨٦) يبكى فى يوم عيد توفى فيه ابنه فيقول :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها فى الحياة كاظمنا
عجيبة فى الأيام محنتنا أولنـــا مبتـــل وآخرنـــا
يفرح هذا الورى بعيدهم جميعاً وأعيادنا مآتمنا[١]

إن المسلمين أجمعين – اللهم إلا السلف – من الحنابلة المتأخرين رأوا فى أهل البيت جميعاً ملاذاً لهم فى أدعياتهم وتوسلاتهم وقد أمروا فى صلواتهم بالدعاء لهم ، والصلاة عليهم . ويجد المسلمون جميعاً سنة وشيعة فاطمة الزهراء واعتبروها سيدة نساء العالمين ، ومنها بقى الدم النبوى فى آفاق الأرض . وفاطمة الزهراء العقب الوحيد الباقى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عاشت فى أحضان الرسول ، وذاقت مرارة اليتم – بعد وفاة أمها ، وتحملت مع أبيها – وهى طفلة غضة – عذاب قريش والقرشيين واضطهادهم ، وكانت مثلا من أمثلة الفداء ، ولم تهن على الإطلاق . وقد هاجرت مع ابن عمها على بن أبى طالب فارس الإسلام من مكة إلى المدينة ، يسيران ليلا ويختفيان نهاراً ، ولما نضر عودها زفت إلى ابن عمها ، وحوارى أبيها ، ثم حملت حفيدا محمد صلى الله عليه وسلم ، الحسن والحسين ، زهرتا بنى هاشم ، وسيدا شباب أهل الجنة ، كتب عليهما الموت شهادة فى الميلاد .

وحين أتى وفد نجران إلى الرسول وسألوه عن حقيقة المسيح ، نزل القرآن « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » ثم دعا إلى المباهلة « فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ورضى الوفد بالمباهلة – فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلى بن يديه وألقى عليهم الرسول صلى الله عليه

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤ .

وسلم بكسائه ، وقد عرفت هذه الحادثة بحادثة الكساء وعرف الحديث الواحد فيها بحديث الكساء ثم جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وركع ، فانسحب الوفد النجرانى — هارباً ورفض المباهلة . وسنرى بعد ذلك كيف ألهمت فكرة المباهلة القرآنية حماس المباهلة عند فرق الغنوصية الشيعية المخمسة .

وحين مرض الرسول صلى الله عليه وسلم — وذهبت فاطمة لتعوده ملتاعة خرجت ضاحكة لتعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشرها بأنها ستلحقه فى رياض الله قريباً . وحين تولى أبو بكر خلافة المسلمين ، غضبت فاطمة وقد رأت أن لعلى الحق الأكبر فى الخلافة ، واجتمع جماعة من المهاجرين والأنصار مع على بن أبى طالب فى منزل فاطمة — وعلم أبو بكر وعمر بالأمر فذهبا مع جماعة من المهاجرين ، وهجموا على الدار فخرجت فاطمة فقالت « والله لتخرجن أو لأكشفن شعرى ولأعجن إلى الله » وخشى الصحابة دعوتها فخرجوا .

وبعد سبعين ليلة من وفاة الرسول أحست فاطمة بالموت . فقالت لصديقتها أسماء بنت عميس : ألا ترين إلى ما بلغت ، أفأحمل على سرير ظاهرا . لقد خشيت فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله أن تحمل على سرير يظهر جسدها المسجى للناس فقالت لها أسماء : لعمرى يا بنت رسول الله ، ولكنى أصنع لك شيئاً فقالت فاطمة : فأرينيه فأرسلت إلى جريد رطب فقطعته ، ثم جعلتها على السرير نعشاً . وهو أول ماكانت النعوش . وتبسمت الزهراء الظاهرة وما رؤيت مبتسمة إلا يومئذ . وحضرت نساء من قريش فى مرضها وقلن لها : كيف أنت يا ابنة رسول الله —قالت : أجدنى كارهة لدنياكن مسرورة لفراقكن ، فما حفظ لى الحق ، ولا رعيت منى الذمة ، ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة ، وبعد سبعين يوماً من وفاة الرسول ﷺ — كما قلت — أسلمت الروح وبين يديها طفلاها الصغيران الحسن والحسين ، وكان سنها ثلاثا وعشرين سنة .

كانت حياة فاطمة الزهراء القصيرة عظة كبرى للمسلمين جميعاً ، المهاجرة الصغيرة فى ظلام الليل الدامس ، مع ابن عمها الفتى ، تسير فى دروب جبال مكة متخفية ، ثم تخترق الصحراء الكبيرة فى طريقها إلى يثرب ، وأعداء أبيها اللدد فى إثرها وإثر ابن عمها ، ثم هجرتها الأخيرة فى رحلة الموت إلى الله ورسوله — أفعم كل هذا المسلمين جميعاً بالأسى ، وقد كان أبو بكر يتذكر فاطمة ويبكى ، بل أعلن حين موته ندمه أن اقتحم منزلها بالرجال . وكانت فاطمة الزهراء تؤمن بلا شك بحق على فى الخلافة ، ولم يكن هذا منبثقاً عن أمل فى مشاركة ابن عمها حكم المسلمين ، لقد كانت تعلم عن يقين أنها تاركة الدنيا سراعاً ، ولكن عن إيمانها بأحقيته وأهليته للمهمة الكبرى التى تركها الرسول صلى الله عليه وسلم . وإذا كان المسلمون أجمعين اعتبروها « زهرة الوجود » و « عطر الحياة » و « الأنثى الخالدة »

فإن الشيعة من بين المسلمين ، قد اعتبروها البرهان الأكيد على عقيدتهم فى الحق الإلهى لعلى ، بل يؤمنون بأنها الشهادة الكبرى من رسول الله على أحقية على بن أبى طالب فى خلافة الرسول ديناً ودنيا ، ولقد تحرزوا عن دعوتها بالأنوثة ، ودعوها « بفاطم » وشغلت أم الإمامين والأئمة جميعاً فى أفكار الشيعة وفى عقائدهم مكاناً قدسياً وحرماً طاهراً .

ولئن احتلت فاطمت من ناحية ، وعلى من ناحية أخرى المكان الكبير عند أهل السنة والجماعة ، إلا أنهم قرروا قراراً حاسماً أن النبى صلوات الله عليه لم ينص على ولاية على أى نص ، وأما عن ولاية أبى بكر – فقد اختلف أهل السنة والجماعة هل هى بالنص الخفى أو بالنص الظاهر ، أو أنه ترك الأمر لاجتهاد المسلمين .

أما من يرون أن ولاية أبى بكر بالنص الخفى – فيذكرون الواقعة المشهورة : أن الرسول – فى أثناء مرضه – أمر أن يؤم أبو بكر المسلمين فى الصلاة – والصلاة هى الإمامة الصغرى . فأولى به أن يكون هو صاحب الإمامة الكبرى ، إمامة المسلمين دنيا وديناً . أما من يرون أن الرسول صلوات الله عليه نص على أبى بكر وقطع البيان على عينه حتماً ، الحديث المشهور أن امرأة أتت إلى النبى صلى الله عليه وسلم لتسأله أمراً من الأمور . فأجابها وطلب منها أن ترجع إليه متى أرادت ، فقالت : « أرأيت إن جئت فلم أجدك » كأنها تريد الموت . قال : « إن لم تجدينى فأتى أبا بكر » والحديث الآخر : « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر » . وأسند البخارى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيتنى على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبى قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفى نزعه ضعف ، والله يغفر له ضعفه ، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب ، فلم أر عبقريًّا من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » وذلك نص فى الإمامة عند أهل السنة والجماعة ، والفئة الثالثة–وهى ترى أن رسول الله ﷺ ترك الأمر لاجتهاد المسلمين ، ورأى المسلمون أن أبا بكر هو ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، وأول من آمن من الرجال ، ثم رجل الصحبة الطويلة . وأخيراً– عهد إليه الرسول بالصلاة– الإمامة الصغرى ، فقاسوا الأمر ، بأن تكون له الإمامة الكبرى– أى الخلافة .

أما الشيعة فترى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد نص على إمامة على للمسلمين من بعده فى مكة منذ بدء الإسلام ، فحين نزل الوحى عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب فى دار أبى طالب – وهم أربعون رجلا ، وبلغهم رسالته – ثم سألهم : « من الذى يبايعنى على ماله » فبايعته جماعة من المسلمين ، وسخر منه من لم يؤمنوا به ، ثم سألهم « من الذى يبايعنى على روحه وهو معينى وولى هذا الأمر من بعدى . فلم يبايعه أحد . وقام على ومد يده إليه فبايعه

على ماله وروحه — وصاحت قريش معيرة أبا طالب « إنه أمر عليك ابنك » .

أما العلامة الحلى صاحب منهاج الكرامة وعلم الشيعة الكبير، فقد أوردها على الشكل الآتى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بنى عبد المطلب فى منزل عمه أبى طالب وقال لهم : « يا بنى عب المطلب إن الله بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة فقال: « وأنذر عشيرتك الأقربين » وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين فى الميزان تملكون بهما العرب والعجم ، وتنقاد لكم بهما الأمم ، وتدخلون بهما الجنة وتنجون من النار شهادة أن لا إله إلا الله وأننى رسول الله ، فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به يكن أخى ووزيرى ووصيى ووارثى وخليفتى من بعدى ، فلم يجبه أحد منهم . فقال أمير المؤمنين (أى على) أنا يارسول الله أؤازرك على هذا الأمر فقال : اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا فقال على : فقمت فقلت مثل مقالتى الأولى فقال : اجلس . ثم أعاد القول ثالثة ، فلم ينطق أحد منهم بحرف . فقمت فقلت : أنا أؤازرك على هذا الأمر . فقال : اجلس فأنت أخى ووزيرى ووصيى ووارثى وخليفتى من بعدى . فنهض القوم وهم يقولون لأبى طالب : ليهنك اليوم أن دخلت فى دين أخيك فقد جعل ابنك وزيراً عليك[1] .

رأى الشيعة فى هذا الحديث الذى ورد بصيغ مختلفة سنداً كبيراً لفكرتهم فى النص الجلى على إمامة على بن أبى طالب وخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف أهل السنة والجماعة فى صحة هذا الحديث ، فبينما ذهب إلى صحته البعض جرحه البعض الآخر ، ولكن أهل السنة والجماعة ، لم يروا فيه على الإطلاق مساساً بخلافة أبى بكر .

ثم هناك الحديث الهام حديث الغدير والذى اتخذه الشيعة سنداً لأحقية علىّ الكاملة فى خلافة المسلمين بعد رسول الله . فقد خرج النبى صلوات الله وسلامه عليه من مكة بعد حجة الوداع ، وفى الطريق نزل عليه الوحى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته » . آية ٦٧ سورة ٥ ، وكان النبى عند غدير خم ، فأمر بالدرجات وجمع الناس فى يوم قائظ شديد القيظ ودعا عليًّا إلى يمينه وخطب فقال « لقد دعيت إلى ربى وإنى مغادركم من هذه الدنيا وإنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، ثم أخذ بيد على ورفعها وقال « يا أيها الناس ألست أولى منكم بأنفسكم . قالوا : بلى ! قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار . فقال عمر بخ بخ : أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة . ثم عاد الرسول إلى خيمته ونصب لعلى أخرى بجانبها ، وأمر المسلمين

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ٤ ص ٨ .

أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا له بإمرة المؤمنين جميعاً رجالا ونساء[١] .

هذا هو حديث غدير خم الذى اعتقده الشيعة سنداً صريحاً لهم فى القول بإمامة على وقد اعترف أهل السنة جزئياً بصحة هذا الحديث ـ وأولوه بأن المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية . بل إننا نرى الحسن البصرى – إمام التابعين يعلن أن عليًا ربانى هذه الأمة ، أما السلف من الحنابلة المتقدمين فقد أولوا الموالاة بعدم الكراهية ، وأنكر السلف المتأخرون الحديث إنكاراً تاماً . ومن العجب أن السلف الذين يكرهون التأويل وينكرونه ، يؤولون هنا .

ثم أورد الشيعة أحاديث أخرى مثل « أنت منى بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى . . . إلخ » .

وذكروا نصوصاً أخرى من القرآن ، وفسروها تفسيراً مجازياً إلى حد كبير ، وكلها تنصب على النص على إمامة على بن أبى طالب. وأوردوا أيضاً جملة من حوادثه تثبت إمارته ، ومنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر عليه فى الغزوات أميراً ، ومنها أنه تركه فى كثير من المواضع أميراً ، وطلب من المسلمين دعوته بإمارة المؤمنين ، ومنها أيضاً أنه بعثه إلى مكة ليقرأ سورة براءة بدلا من أبى بكر .

وفى إيجاز آمن الشيعة إيماناً عميقاً بإمامة على ، ولعنوا من على منابرهم إلى يومنا هذا الغاصبين الثلاثة . وهنا نقطة البدء فى مذاهبهم – فلسفية كانت أو غير فلسفية ، والتى عرفت فى العالم الإسلامى باسم الشيعة وما اتصل بها من مذاهب. وتشمل الشيعة فى عصورنا الحاضرة فرقاً ثلاثة هى : الاثنى عشرية . والإسماعيلية ، والزيدية .

أما الاثنى عشرية أو الجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر الصادق فهى التى تقول – كما سترى بعد – بإمامة على ثم الحسن ثم الحسين ثم على بن الحسين (زين العابدين ثم محمد بن على بن الحسين (محمد الباقر) ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر ثم على الرضا ثم محمد بن على الجواد ثم على الهادى ثم الحسن العسكرى ثم الإمام محمد المنتظر . ويعيش الشيعة الاثنى عشرية الآن فى العراق ، وينتشرون حول المشاهد الشيعية المقدسة فى بغداد والنجف وكربلاء ، ثم فى إيران ثم منهم جاليات كبيرة العدد فى القوقاز ، ثم العاملون فى جبل بنى عامل فى لبنان وفى سوريا أيضاً عدد قليل من الشيعة الاثنى عشرية ، وبعض سكان الكويت والأحساء والبحرين ، ثم عدد كبير فى الهند وباكستان ، وليس فى مصر ولا شمال أفريقية شيعة على الإطلاق . وعدد الشيعة الإثنى عشرية فى العالم الآن ثمانون مليوناً .

أما الإسماعيلية ، وهم الذين قالوا بإمامة سبعة من الأئمة . والإمام السابع عندهم هو إسماعيل بن جعفر . وينقسمون الآن قسمين – طائفة الإسماعيلية يتزعمها سلطان بوهرا ، وينتشرون فى الهند وفى

(١) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٨١ والمجلسى : حياة القلوب ص ٣٣٩ .

اليمن . وطائفة الإسماعيلية النزارية ويتزعمها كريم خان وهى منتشرة فى الهند وباكستان وشرق أفريقيا وجالية قليلة العدد فى سوريا وتمتاز تلك الطائفة عن الطائفة الأولى بأنها أكثر فلسفة وعمقاً فى البحث النظرى . وكان دعاتها يدرسون الكتب الفلسفية دراسة وافية وبخاصة الفلسفة اليونانية ثم الفلسفة الغنوصية . ويقال إن ابن سينا نشأ إسماعيلياً ، وإخوان الصفا إسماعيليون ، ويقدر عدد الشيعة الإسماعيلية من الفريقين – بسبعة عشر مليوناً . أما الزيدية – وهم أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة ، وهم الذين تابعوا زيد بن على ، حين رفض التبرأ من الشيخين . . . فينتشرون فى اليمن . وأغلب القبائل اليمنية الجبلية زيدية . ومن الصعوبة بمكان تحديد عددهم .

أما الغلاة : فنهم الدروز فى لبنان وسوريا وشمال فلسطين ، ومنهم العليائية والشبك والصارولية وطوائف أخرى صغيرة – عربية وكردية ، فى شمال العراق وإيرانية فى الشمال الغربى لإيران . فما زال للشيعة إذن كيانهم العددى وقوتهم المادية والمعنوية . فكيف نشأ المذهب إذن ، هذا ماسنحاول أن نلقى عليه الضوء فى الفصل المقبل .

الفصل الثانى

نشأة الشيعة

متى نشأت الشيعة وظهرت فى التاريخ ، ومتى ظهر مصطلح « الشيعة » أو التشيع كمصطلح يدل على الاعتقاد المطلق الكامل بأن علياً هو صاحب الحق الأول فى الخلافة ، وأن الخلفاء الثلاثة الذين جاءوا قبله غاصبون لإمامته الروحية وخلافته منذ اليوم الأول الذى مات فيه النبى بغض النظر عن كونه تولى الخلافة فعلا أو لم يتولها ، وجعل الإيمان بالإمام أو بالوصى جزءاً من الإيمان الدينى ومتمماً للشهادتين ، ثم الاعتقاد المطلق بأن علياً هو مستودع العلم اللدنى وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة وأنه خاتم الأوصياء جميعاً .

يحاول بعض علماء الشيعة – ما وسعتهم المحاولة بل الحيلة أحياناً – أن يثبتوا أن الشيعة تكونت مع مطلع الرسالة وترعرعت فى أحضانها ، ونودى بها منذ نادى الرسول بكلمة التوحيد وحين صاح الوحى فى الرسول « وأنذر عشيرتك الأقربين » وأنذرهم ، فما استجاب له فى قوة وفداء سوى على أولا ، والعترة الطيبة المؤمنة من آله ، ومجموعة من رجال قريش ثانياً ، والتف حول علىّ منهم « شيعة على الحكماء العلماء الذبل الشفاه الأخيار الذين يعرفون بالرهابنة من أثر العبادة » هؤلاء هم عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبو ذر الغفارى والمقداد بن الأسود وسلمان فى المدينة فيما بعد . ويحاول علماء الشيعة أن يثبتوا أن لكل من هؤلاء الصحابة وجهة تمثل ناحية من النواحى الروحية فى الإسلام.

والخطأ الأكبر فى هذه المحاولة أنه لم يكن بين يدى الرسول شيعة وسنة وقد أعلن القرآن « أنَّ الدين عند الله الإسلام » لا التشيع ولا التسنن ، وأتى الإسلام لكى يرفع الحجز بين الناس ، فلا هاشمى ولا قرشى ولا تيمى ولا غيره ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ومن الصحابة الأوائل بعد على وأبى بكر وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ، فهل كان عثمان يكره عليًّا أو هل كان أبوذر وعمار بن ياسر يكرهان عثمان . ونحن لا ننسى أبداً أن أبا بكر هو الذى عتق عمار بن ياسر وأنه استخدمه بعد ذلك أميراً . لم يكن هناك شيعة لا روحية ولا سياسة بين يدى النبوة ، ولم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح على الإطلاق إبان ذلك الوقت .

وإذا انتقلنا إلى ولاية أبى بكر ، فلا نرى على الإطلاق الشيعة تلتف حول على بالمعنى المفهوم الآن

من مصطلح الشيعة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى على فراشه ، وقارئ من وراء الغيب يقرأ « السلام ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز فوزا وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

وكان على بن أبى طالب والعباس بن عبد المطلب وأسامة بن زيد يغسلون الجسد العظيم ، ويكفنونه ، ثم حملوه إلى قبره فى حجرته ، ونادت الأنصار « اجعلوا لنا فى رسول الله نصيباً فى وفاته ، كما كان لنا فى حياته ، فدعا على بن أبى طالب أوس بن خولى أحد الأنصار فنزل معهم إلى القبر ، ووسد الرسول التراب بينما على يفعل هذا ، إذ بالأنصار يجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة ، ويعلنون إمارة سيد الخزرج ، والصحابى الكبير سعد بن عبادة على المسلمين وبلغ الأمر أبا بكر وعمر وبعض المهاجرين فأتوا مسرعين ، فنحوا الناس عن سعد وخطب أبو بكر وقال : يا معشر الأنصار منا رسول الله فنحن أحق بمقامه ، وقالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير : فقال : أبو بكر : منا الأمراء وأنتم الوزراء : وتلاحى القوم بالكلام وما لبث الأنصار أن تراجعوا حين دعا أبو عبيدة الجراح إلى مبايعة أبى بكر ، وبايعه : وقال والله ما كنا لنتقدمك وأنت صاحب رسول الله وثانى اثنين ، ثم نادى فى الأنصار « يا معشر الأنصار : إنكم كنتم أول من بايع ، فلا تكونوا أول من غير وبدل . وبايع الأنصار جميعاً .

وغضب بنو هاشم أن تم الأمر فى غيبتهم ، ووقف عتبة بن أبى لهب ينشد شعراً فى على . يقول اليعقوبى « فبعث إليه على عليه السلام فنهاه »[1] وتخلف مع على جماعة لم يبايعوا ، فهل كان هؤلاء شيعته ، إننا نرى من بينهم الزبير بن العوام ، وقد حارب علياً فيما بعد ، ونرى فيما يقول اليعقوبى « وكان فيمن تخلف عن بيعة أبى بكر أبو سفيان بن حرب وقال : أرضيتم يا عبد مناف أن يلى هذا الأمر عليكم غيركم . وقال لعلى بن أبى طالب . امدد يدك أبايعك .

بنى هاشم لا تطعموا الناس فيكم ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم وليس لها إلا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم فإنك بالأمر الذى يرتجى ملى
وأن امرءا قصيا وراءه عزيز الحمى والناس من غالب قصى

وإننا نعلم أن أبا سفيان كان أعدى أعداء محمد ﷺ وعلى .

ولقد كان أبو سفيان زنديقاً أى ممن يؤمنون بالمجوسية الفارسية ، ولعله رأى بعينه الغادرة أن هذه

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ، ١٠٣ .

فرصة نادرة لإلقاء بذور الفتنة بين المسلمين . ومن المرجح أيضاً أنه غضب لعشيرته القديمة – بنى عبد مناف ، وأن يسلب الحق منها . ولكن علياً كان أحكم من أن يدع يد أبى سفيان تتلاعب بصالح الإسلام .

ويقول اليعقوبى « واجتمع جماعة إلى على بن أبى طالب عليه السلام يدعونه إلى البيعة له ، فقال لهم : اغدوا على غدا محلقين الرؤوس ، فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفر »(١) ونحن نعلم أن اليعقوبى وهو من أقدم مؤرخى الشيعة (توفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥م) ، لم يذكر كلمة الشيعة على الإطلاق حتى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وكذلك فعل المسعودى وهو مؤرخ شيعى قديم .

غضب لعلى – كما رأينا – بنو هاشم ، وبنو أمية ، غضبوا أن تولاها رجل من تيم ، كما غضب قلة من الناس أحبوا علياً ، ثم ما لبث الجميع أن ساروا فى ركاب الخليفة ، فعملوا له فى كل نواحى الحياة ، وذلك حين سار الخليفة على هدى رسول الله وسنته ، وحينما تولى الخلافة الصاحب الثانى عمر ابن الخطاب ، رجل من عدى بن كعب ، لانسمع همساً ولا علناً . ولم تكن هناك شيعة أو تشيع ، وعمل الجميع لعمر وكان على بن أبى طالب نفسه وزيره وقاضيه ولم نر أيضاً لكلمة الشيعة كمصطلح ذكرا .

وللمرة الثالثة بايع المسلمون عثمان بن عفان المشهور بذى النورين ومن بنى عبد شمس . ورضى عنه المسلمون جميعاً ، وكان رجلا حيياً خجولا ، عاش فى نعمة سابغة قبل النبوة ، ثم آمن برسول الله فى مكة ، وعادى أهل بيته جميعاً من بنى أمية ، ثم هاجر فيمن هاجر ، ولم يكن يرقى مقام أبى بكر أو عمر فى حسن السياسة وحزم الأمور ، ولم يكن يرقى مقام على بن أبى طالب فى علمه أو شجاعته ، ولكن المسلمون أجمعوا عليه وبايع على أيضاً عثمان ولكن عثمان ضعف أمام أهله ، واجتهد ، وأصاب فى كثير وأخطأ فى كثير .

ولقد أغضب عثمان كبار الصحابة – كحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . ولكن خلافه الأكبر مع أبى ذر الغفارى . وقد بايع أبو ذر عثمان أول الأمر ، ولكن حين كره من عثمان بعض أفعاله ، أخذ أبو ذر يقعد فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ويجتمع إليه الناس ، ويهاجم عثمان . ونقل إلينا اليعقوبى بعض أقواله التى كان يرددها على باب مسجد الرسول « أيها الناس من عرفنى ، فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى ، فأنا أبو ذر الغفارى « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » محمد الصفوة من نوح ، فالأول من إبراهيم ، والسلالة من إسماعيل والعترة الهادية من محمد أنه شرف شريفهم ، واستحقوا الفضل فى قوم هم فينا

(١) اليعقوبى تاريخ ج ٤ ص ١٤٧–١٤٨ .

كالسماء المرفوعة ، وكالكعبة المستورة أوكالقبة المنصوبة أوكالشمس الضاحية أوكالقمر السارى أوكالنجوم الهادية أوكالشجرة الزيتونية أضاء زيتها وبورك زبدها ، ومحمد وارث علم آدم وما فضلت به النبيون ، وعلى بن أبى طالب وصى محمد ووارث علمه : أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله ، وأخرتم من أخر الله ، وأقررتم الولاية والوراثة فى أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولى الله ولا طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان فى حكم الله ، إلا وجدتم علم ذلك عندكم من كتاب الله وسنة نبيه ، فأما إذا فعلتم مافعلتم ، فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وإذا كان هذا النص منسوباً حقًّا إلى أبى ذر الغفارى—وإن كنت أشك فى هذا—فهو أول نص صريح يذكره صحابى فى حق على المطلق فى الخلافة . ولكن من العجب أن اليعقوبى نفسه يذكر « وبلغ عثمان أن أبا ذر يقع فيه ويذكر ماغير وبدل من سنن رسول الله ﷺ وسنن أبى بكر وعمر ، فسيره إلى الشام إلى معاوية (١) » وهذا أيضاً نص واضح يثبت أن أبا ذر كان يتولى الشيخين أبا بكر وعمر . وأنه كان يأخذ بسننهما ، ويعيب على عثمان أنه غير وبدل فيها .

وقتل عثمان ولم يقتله أنصار على ، بل إن اليعقوبى يذكر « وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة » ويجمع أيضاً أهل السنة والجماعة ، أن علياً حاول أيضاً الدفاع عن عثمان ، وأرسل الحسن والحسين ليذودا عنه بأنفسهما .

وتولى على بن أبى طالب الخلافة ، وبايعه أقوام وتخلف عنه أقوام ، ووقف مالك الأشتر يقول « أيها الناس هذا وصى الأوصياء ووارث علم الأنبياء » (٢) ويذهب ابن النديم (المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) إلى أنه لما خالف طلحة والزبير علياً وأبيا إلا الطلب بدم عثمان ، وقصدهما على عليه السلام تسمى أتباعه حينئذ بالشيعة ، وكان هو يقول شيعتى . وأنه سماهم أيضاً بالأصفياء والأولياء ، وشرطه الخميس ، والأصحاب . ولكنى أرى فى كلام ابن النديم وهو شيعى بعض الغلو(٣) . . . إنه حين اختلف معاوية مع على وأبى المبايعة . وقامت الحرب ، لم يظهر مصطلح الشيعة حتى ذلك الوقت دلالة على اتباع على بالذات ، ذلك أن معاوية يستخدم أيضاً فى هذا الوقت كلمة شيعة منسوبة إليه ، فيقول لبسر بن أبى أرطاة حين وجهه إلى اليمن « أمعن حتى تأتى صنعاء فإن لنا بها شيعة » (٤) ويذكر المسعودى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧) أيضاً « سفيان بن عون » وكان من شيعة معاوية (٥) وحين

(١) اليعقوبى : تاريخ ... ج ٤ ص ١٤٧–١٤٨ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٤ ص ١٥٥ .
(٣) ابن النديم : الفهرست : ص ٢٦٣ .
(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٧٣ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩ .

مات على وتولى معاوية ، نرى كلمة الشيعة تظهر ، وذلك حين توفى الحسن ، وبلغ الشيعة ذلك واجتمعوا فى دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين بن على يعزونه على مصابه بالحسن ، ولكن الخطاب نفسه يذكر شيعته وشيعة أبيه ، ولا يذكر الشيعة . وحين قتل معاوية حجر بن عدى وأصحابه قال ساخراً للحسين بن على : « يا أباعبد الله – علمت أنا قتلنا شيعة أبيك فحنطناهم وكفناهم وصلينا عليهم ودفناهم »فقال الحسين : حججتك ورب الكعبة لكنا والله إن قتلنا شيعتك ، ماكفناهم ولا حنطناهم ، ولا صلينا عليهم ولا دفناهم (١) » ونستخلص من هذا أنه حتى هذا الوقت لم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح عرفناه ، فيما بعد ، يسم فرقة معينة بنظام معين .

كان المسلمون فى ذلك الوقت مسلمين فقط ، لاسنة ولا شيعة ، وكان الاختلاف بينهم حول أحقية الأشخاص . فلم تظهر فكرة « الوصاية والإمامة » فكريًّا أوأساسيًّا فلم تتكون النظريات السياسية اللهم إلا فى فرقة الخوارج – وهى الفرقة الوحيدة التى خالفت إجماع المسلمين فى فكرتهم عن الخلافة .

وحين مات معاوية وأراد الحسين بن على الخروج إلى الكوفة ، لم يستخدم كلمة الشيعة ولا نرى ابن عباس يستخدم كلمة الشيعة أيضاً . إن ابن عباس – حين ينهى الحسين عن الخروج إلى الكوفة يقول له « اشخص إلى اليمن ، فإنها فى عزلة ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعاتك . »(٢)وذهب الحسين إلى الكوفة ، وقتله أهل الكوفة أنفسهم . ومن المهم أن نلاحظ أيضاً أن فكرة الإمامة أو الوصاية نفسها لم تظهر عنواناً على طائفة معينة فى هذا العصر أيضاً .

ولقد بكى المسلمون جميعاً الحسين بن فاطمة وابن على ، بكاه المسلمون إبان ذلك الوقت اللهم إلا أهل الشام ، ويبكيه المسلمون سنيهم وشيعيهم حتى الآن ، ويلعنون قاتله ، ويرون فى موته صفحة الشهادة العظمى .

وتكونت الشيعة حقًّا بعد مقتل الحسين عليه السلام، فرقة دينية تتدبر الأمر، يقول المسعودى «وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسن فلم يغيثوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا كثيراً بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ؛ ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعى . . . إلخ (٣). ووصلوا إلى موضع بالعراق يقال له عين الوردة ، يطالبون بدم الحسين بن على ، ويعملون بما أمر الله به « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم . فتاب

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ .

عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » وقتلوا جميعاً فيما تجمع المصادر ، غير أن الكلمة التي غلبت عليهم هي « التوابون » .

وظهرت كلمة الشيعة الحسينية على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهي الشيعة التي تنتسب إلى محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية . وقد اجتمعت عليه الشيعة في الكوفة ، وقتل قتلة الحسين جميعاً حتى قتل .

وفي الكوفة بعد مقتل المختار بن أبي عبيد. أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينية كلامية ، تضع أصول التشيع ، ولكن لم تصل الشيعة إلى وضع مذهبها النهائي إلا في عهد إمامة جعفر الصادق .

من هذا يتضح لنا أن اسم الشيعة كمصطلح ظهر بعد استشهاد الحسين ، وأن الكلمة كانت تطلق في أول الأمر على أية مجموعة تلتف حول صحابي من الصحابة ، وأبو خلف القمي يذكر أن أول الفرق الشيعية المسمون شيعة علي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، المعروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته ، المقداد وسلمان وأبو ذر وعمار ، « وهم أول من سموا باسم التشيع من هذه الأمة » ولكنه يتناسى أن معاوية – عدو علي – أطلق أيضاً على أنصاره كلمة الشيعة . وقد أرادت الشيعة أن تمجد اسمها ، وذهبوا إلى أنه قديم ، ذكره القرآن ، شيعة نوح وابراهيم وموسى وعيسى والأنبياء [١]. وهذا تمجيد للفظ فقط ، وهيام فيه . وستفعل الإسماعيلية هذا أيضاً ، حين تحاول أن تثبت أن مصطلح الإسماعيلية قديم أيضاً ، أقدم من الإسلام بكثير .

---

(١) أبو خلف القمي : الفرق . ص ١٥ .

الفصل الثالث

قداسة على عند الشيعة الأوائل

السبئية

أضفى الشيعة جميعاً على على بن أبى طالب قداسة خاصة تأرجحت بين كونه وصياً وولياً وإماماً ومهدياً ونبياً وإلهاً . وسنحاول أن نعرض فى هذا الفصل متتبعين المنهج التاريخى ، لظهور العقائد المختلفة الشيعية فى على بن أبى طالب . ولعل من المهم أن نشير هنا إلى الحديث النبوى الذى يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى « يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال » :

وأول صورة نجدها للغلو فى على هى صورة السبئية . ونحن نهمل تماماً تلك الآثار الكثيرة التى وضعها الشيعة – معتدلة وغلاة – على لسان الصحابة من أنصار على والتى تعلو به إلى مراتب القداسة العظمى ، والتأليه . ومن المؤكد أن تلك الآثار موضوعة ، وهى تساوى تماماً فى تفاهتها الروايات المختلفة عن قداسة معاوية نفسه أو حتى إخلاصه للإسلام كدين ، فقد دعا النواصب معاوية « خال المؤمنين » وذلك لأن أخته أم حبيبة بنت أبى سفيان كانت زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن نضرب صفحاً عن تلك الموضوعات كلها : لنتفحص السبئية ونعرض لآرائها .

نسبت السبئية إلى عبد الله بن سبأ . وتجمع المصادر السنية والشيعية أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً يمنياً فأظهر الإسلام ، ويرى الطبرى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .) أنه أسلم فى السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفان (١). وأخذ ينتقل بين الأمصار – من صنعاء إلى الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ، ثم استقر فى مصر . ويقول ابن كثير « إن سبب تألب الأحزاب على عثمان أن رجلا يقال له عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، مضمونه أنه يقول للرجل أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ فيقول الرجل : بلى ! فيقول له : فرسول الله ﷺ أفضل منه ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى بن مريم عليه السلام . ثم يقول : وقد كان أوصى إلى على بن أبى طالب . فمحمد خاتم

(١) الطبرى : تاريخ ... ج ١ ص ٢٨٥٩ .

الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . ثم يقول : فهو الأحق بالإمرة من عثمان ، وعثمان معتد فى ولا يته ماليس له ، فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» فهنا يظهر عبد الله بن سبأ فى مصر ينادى بمهدية محمد ﷺ وبالوصاية (وصاية الرسول ﷺ لعلى) وينادى بعزل عثمان لأنه إمام ظالم ، أى ينادى بالأمر بالمعروف وبالنهى عن المنكر ، أى أنه ينادى بمبدأين يهوديين وبقاعدة إسلامية .

وعبد الله بن سبأ يدعى أيضاً بابن السوداء وهنا يظهر ابن السوداء روميا . فيقول ابن كثير « خرج أهل مصر على عثمان فى أربع وفاق على أربعة أمراء . . . ومعهم ابن السوداء وكان أصله روميًّا ، فأظهر الإسلام [١] » ويرى البغدادى (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أن ابن السوداء كان روميا من أهل البصرة وكان يعين السبأية على قولها [٢] ، ثم يذكر أنه أظهر الإسلام « وأراد أن يكون له فى الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد فى التوراة أن لكل نبى وصياً وأن علياً رضى الله عنه وصى محمد ﷺ وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء . فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا لعلى ؛ إنه من محبيك فرفع على قدره وأجلسه تحت منبره [٣] » . ونرى هنا صورة شخصية أخرى كوفية أو بصرية ، بينما من الثابت أن عبد الله بن السوداء وعبد الله بن سبأ هما شخصية واحدة . ويحاول الطبرى أن يجعل من عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية ، وأنه هو الذى أثر فى أبى ذر ، وأنه قابله فى الشام وقال له « يا أبا ذر — ألا تعجب إلى معاوية يقول — المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله ، كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين [٤] » وهنا تصوير لابن سبأ بأنه هو الذى ألهم فكرة « الكنوز » لأبى ذر . ثم يذكر الطبرى أن ابن سبأ استطاع أن يؤثر فى محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، كما أن عمار بن ياسر قد وقع أيضا فى حبائله وأثار الجميع على عثمان ، ويحاول البغدادى أيضا أن يضع عبد الله بن سبأ فى إطار تاريخى محدد فيقول : « وقد روى عن عامر بن شراحيل الشعبى أن ابن سبأ قيل له إن علياً قد قتل . فقال : « إن جئتمونا بدماغه فى صرة لم نصدق بموته ولا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها » وهذه الطائفة تزعم أن المهدى المنتظر إنما هو على دون غيره [٥] » وهنا محاولة لربطه برواية عن أحد كبار التابعين . ويذكر أيضا إمام المذهب الأشعرى ومؤرخ العقائد الإسلامية السبأية أصحاب عبد الله بن سبأ ، وأنهم يزعمون أن علياً لم يمت ، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، بل إن السبأية تقول إنه قال لعلى عليه السلام . أنت أنت ، وأن السبأية تقول بالرجعة وأن الأموات يرجعون إلى الدنيا [٦] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦٨ .
(٢) نفس المصدر السابق ج ص ١٧٣ .
(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٤ .
(٤) الطبرى ، تاريخ . . ج ١ ص ٢٨٥٩ .
(٥) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .
(٦) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥ .

وسنرى فيما بعد أن نداء « أنت أنت » ينقلب نداء غنوصيا ، ويعتبر نداء تلبية ، حين يرى الغنوصيون من الشيعة صورة على فى مظاهر كونية يتجلى لهم فيها وتتوالى ظهوراته ، فى مظاهر كونية كالقمر ، العرجون القديم ، حين ظهوره للخلائق .

ويظهر اسم عبد الله بن سبأ مرة ثانية فى مشارف الكوفة مع قتلة عثمان .

ثم يذكر البغدادى أنه حين بلغ على غلو ابن سبأ أو ابن السوداء هم بقتله ، ولكن ابن عباس نهاه عن ذلك خوفاً من أن يقال إن عليا يقتل أتباعه وخوفاً من الفتنة ، فنفاه على إلى المدائن(١) وإننا لنعلم فعلا أن المدائن كانت فيما بعد من مراكز الشيعة الغالية .

أما مؤرخو الشيعة الأقدمين ، فقد اعتبروا عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية لاشك فيها . ويذهب سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعرى القمى (المتوفى سنة ٣٠١ هـ) إلى أن أول من قال بالغلو فى على هو « عبد الله بن سبأ » ويذكر أن اسمه عبد الله بن وهب الراسبى الهمدانى ، وأن مما ساعده على نشر آرائه عبد الله بن حرس وابن أسود ، وأن هذين الأخيرين كانا من جلة أصحابه . ويذكر أبو خلف أن ابن سبأ كان أول من أظهر الطعن على أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة ، وأعلن التبرأ منهم ، وأن الإمام علياً نفسه أمره بهذا . وأن التقية لاتجوز ولا تحل ثم أظهر الغلو بعد ذلك فى على ولما بلغ الأمر عليا ، استدعى ابن سبأ وسأله فأقر ، فأمر على بقتله ، فاجتمع الناس من كل ناحية وصاحوا : يا أمير المؤمنين أتقتل رجلا يدعو إلى حبكم أهل البيت ، وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك فسيره على إلى المدائن . ويذكر أبو خلف القمى نصاً آخر أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى عليا . وأنه كان يقول فى يهوديته أن يوشع بن نون وصى موسى ، فقال فى إسلامه بعد وفاة الرسول فى على بمثل هذه المقالة . وهو أول من شهد بالقول بفرض إمامة على وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه وكفرهم . ويرى ابن خلف أن من خالف الشيعة استنتجوا من هذا أنه الرفض — ويبدو أن الرفض هنا بمعنى رفض الشيخين — مأخوذ من اليهودية .(٢) ويذهب معاصره النوبختى(٣) (المتوفى بين عام ٣٠٠ و ٣١٠) إلى نفس الرأى . ويكاد ينقل نفس النصوص ، وهى كلها ، تؤيد ثبوت شخصية عبد الله بن سبأ كشخصية تاريخية واقعية .

أود أن أنتهى من كل هذا ، وقبل أن نحدد تحديداً منهجياً آراء ابن سبأ أن ابن سبأ يظهر فى كتب أهل السنة والجماعة كما يظهر أيضاً فى كتب الشيعة كشخصية تاريخية حقيقية ، ولكن كاتب الشيعة

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٤٤ .

(٢) سعد بن عبد الله أبى خلف الأشعرى . كتاب المقالات والفرق (نشرة الدكتور محمد جواد مشكور ١٩٦٣) ص ٢٠ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة . ص ٢٢ ، ٢٣ .

الكبير المعاصر الأستاذ الدكتور على الوردى يقدم لنا فى براعة نادرة تحليلا بارعاً لقصة عبد الله بن سبأ وينتهى إلى إنكار وجود هذه الشخصية إطلاقاً ويحاول أن يثبت أن ابن سبأ ، هو هو عمار بن ياسر ، ثم حمل النواصب من أعداء البيت العلوى ابن سبأ تلك الشخصية الوهمية – تلك العقائد الناشزة المنتشرة فى كتب العقائد والتى لعنها أهل السنة والجماعة جميعاً ، كما لعنها الشيعة الإمامية أيضاً(١) وكذلك فعل الدكتور كامل مصطفى الشيبى فى بحثه الرائع «الصلة بين التصوف والتشيع» . وقد أبرز وثائق جديدة تبين التطابق التام بين شخصيتى عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر(٢). ثم إن نسب أعداء الشيعة – من الأمويين إلى شخصية ابن سبأ أو بمعنى أدق شخصية ابن ياسر تلك الآراء الغالية ، التى لم ينطق بها أبداً .

ومن المحتمل أن تكون شخصية عبد الله بن سبأ شخصية موضوعة ، أو أنها رمزت إلى شخصية ابن ياسر، كما فعل الأمويون بكلمة أبى تراب والترابيين، وقد كان كنية أبى تراب إحدى كنى على ، وخدع معاوية الطليق والأمويون معه أهل الشام بدعواهم أنهم يحاربون أبا تراب والترابيين . ومن المحتمل أن يكون عبد الله بن سبأ هو مجرد تغليف لاسم عمار بن ياسر وبخاصة أننا نرى زياد بن أبيه يصم حجر بن عدى وأصحابه بالسبأيين فى رسالته إلى معاوية . وليس من المعقول قطعاً ، أن يكون حجر بن عدى الصحابى الكبير من أتباع يهودى يفسد على المسلمين دينهم . أرى أن كل هذا محتمل ، وأن الأمويين أخفوا اسم عمار بن ياسر الصحابى الكبير تحت اسم ابن سبأ حتى لا تثور ثائرة أهل الشام ، حين يعلمون أن ابن ياسر والملتفين حوله هم أتباع على ولكن لا شك أن آراء السبأية المتغالية وجدت ووجدت صدى لدى الطائفة التالية لها فى الغلو وهى الكيسانية . ولا يمكن أن تظهر الآراء فجأة فى مجتمع من المجتمعات ، بل لابد لها من أرض تنمو فيها ، وتزدهر ، وتورق . وهذا ما حدث تماماً فى الآراء السبأية . أو بمعنى أدق إنى أقول – إنه من المرجح أن يكون عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر ، ومن المرجح أن النواصب حملوا كذباً عمار بن ياسر كل تلك الآراء التى لم يعرفها قط ولم يقل بها قطعاً . ولكن من المؤكد أن كثيراً من آراء السبأية قد ظهر إبان ذلك الوقت ووجدن بيئة صالحة للنمو . ولا يعنينا أبداً إذا كانت هذه الشخصية قد ظهرت أم لم تظهر . وإنما ما يهمنا أن نقرره أن المجامع اليهودية من ناحية والغنوصية من ناحية أخرى وجدت فى انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت فرصة لا تعوض لإلقاء بذور الفتنة بينهم ، فألقت فى مجتمع الكوفة والمدائن بآراء ، يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبأية ، سواء أكان صاحب الاسم حقيقة أم أكذوبة .

---

(١) الدكتور على الوردى : وعاظ السلاطين ص ٢٧٤–٢٧٨ .

(٢) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، الجزء الأول ص٢٦–٣٩.

أما الآراء السبأية فهي أولا : الوصية ، أى أن عليا وصى للرسول ، فالإمامة له نصاً « وكان فى اليهودية يقول فى يوشع بن نون وصى موسى »[١] ثم أعلن ألوهية « على » وذهب أتباعه إلى على فى الكوفة وقالوا له « أنت أنت » « فلما سألهم جلية الأمر ، قالوا له أنت الله ، فأوقد على ناراً لهم ودعا مولاه قنبرا واستتابهم ، فلم يتوبوا ، فأمره بإلقائهم فى النار . وكانوا يصيحون : أنت الإله حقاً . فإنه لايعذب بالنار إلا الله . وكان على يردد .

ولما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت نــــاراً ودعوت قنبراً[٢]

ثانياً : معراج على الروحى – أى الصعود إلى السماء يقول البغدادى « لما قتل على ، زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً تصور للناس فى صورة على وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم عليه السلام ، وكما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى ، كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل على ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهوه بعيسى . كذلك القائلون بقتل على رأوا قتيلا يشبه عليا . فظنوا أنه على ، وعلى قد صعد فى السماء وأنه سينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه[٣] » . ويذكر أبو خلف القمى أنه حين اتصل خبر موت على بعبد الله ابن سبأ وجماعته فى المدائن ، قالوا لمن أخبرهم بوفاته : كذبت يا عدو الله لوجئتنا بدماغه فى سبعين صرة فأقمت على قتله سبعين عدلا ما صدقناك : ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ، وأنه لايموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض ، ثم ذهبوا إلى الكوفة واستأذنوا فى الدخول عليه ، فأخبرهم من حضر من أولاده وأهله «سبحان الله ما علمتم أن أمير المؤمنين قد استشهد » قالوا : « إنا لنعلم أنه لم يقتل ولا يموت ، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه ، كما قادهم بحجته وبرهانه ، وأنه ليسمع النجوى ويعرف ما تحت الديار العتل ! ويلمع فى الظلام ، كما يلمع السيف الصقيل الحسام » ويعلق القمى[٤] بأن هذا مذهب السبأية ومذهب الحربية أصحاب عبد الله بن عمر بن حرب الكندى فى على .

ثالثاً : ومن آراء السبئية أن علياً إله العالمين ، وأنه توارى عن خلقه سخطاً منه عليهم وسيظهر . ويرى البعض منهم أن علياً فى السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وإذا سمعوا صوت الرعد أو رأوا السحاب يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين . بل ويضعون على لسان إسحاق بن سويد العدوى أنه قال :

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الملطى التنبيه ص ٢٥ .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٤) ابن خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٠ ، ٢١ والنوبختى : فرق ص ٢٣ .

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب
ولكنى أحب بكل قلبى وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا به أرجو غداً حسن الثواب (١)

ويبدو أن هنا أيضاً أول بذور لأفكار التوقف والمهدية والغيبة والرجعة ، والقول بتناسخ الجزء الآلهى فى الأئمة بعد على . ومن المحتمل أن تكون هذه الآراء متأخرة ، وأنها ظهرت من الحربية كما سنرى بعد .

ويذهب الإسفرايينى أخيراً إلى أنه بعد قتل على قام عبد الله بن سبأ يقول لأهل الكوفة « والله لينبطن لعلى فى مسجد الكوفة عينان ، تفيض إحداهما عسلا والأخرى سمنا » ويغترف منهما شيعته (٢).

هذا مجمل لآراء السبأية . فما هو الحكم الصحيح على تلك الآراء . إنها لا تمثل فى أول الأمر فرقة ، ولكن هى الآراء الفوكلورية محملة بالحشو اليهودى والغنوصى والتى تنتشر ممجدة الأبطال الكبار ، حين يموتون ، ويشعر أتباعهم بالحسرة ، وقد كاد الصاحب الثانى عمر بن الخطاب أن يقع فى نفس الأمر حين علم بانتقال النبى صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى : فأعلن أن محمداً لم يمت ، وأنه إنما رفع إلى السماء ، وأنه سيعود ثانية . قائلا : والله ما مات رسول الله ولا يموت ، وإنما تغيب كما غاب موسى بن عمران عليه السلام أربعين ليلة ثم يعود ، والله ليقطعن أيدى قوم وأرجلهم ، ولكن أبا بكر أسكته وقال « من كان يعبد محمداً فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت ثم قرأ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » فرجع الناس إلى قول أبى بكر : وقال عمر : والله لكأنى ما قرأتها قط . ثم قال . لعمرى لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدى الذى قلته الجزع (٣).

لا جرم أن يظهر بعد ذلك وقد اختلط العرب بعلوج الفرس حينئذ وببعض أحبار اليهود وعدد من اليهود المستسلمة وفى أوساط الكوفة تلك الآراء السبأية أو بعض منها ، ثم أضافت النواصب ، الكثير ، منسوباً إلى عبد الله بن سبأ أو عمار بن ياسر.

---

(١) الشهرستانى (المتوفى سنة ٥٤٨-١١٥٣م) الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١-٢٩٣ .
(٢) الإسفراييني ، التبصير فى الدين ص ٨٥ .
(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٥ ؛ واليعقوبى تاريخ- ج ٢ ص ٦٥ .

الفصل الرابع

صورة على
عند أهل السنة والجماعة والشيعة المعتدلة

لم يتنازع أبا بكر وعمراً طائفتا المسلمين الكبيرتان ، فبينما تولى أهل السنة والجماعة الشيخين ، أنكرهما الشيعة إنكاراً كاملا ولعنوا من على منابرهم الغاصبين عليًّا إمامته ، حتى يومنا هذا . أما على بن أبى طالب ، فقد تنازعه أهل السنة والجماعة كما تنازعه الشيعة ، تدعيه أهل السنة لهم وبدعيه الشيعة لهم . وأورد هؤلاء على لسانه – إن حقًّا وإن باطلا – أحاديث تؤيد سنيته ، بينما حمله هؤلاء الشيعة مايطيق ومالا يطيق من أحاديث وآثار وآراء تؤيد وجهة نظرهم ، وتثبت ما ارتأوه هم فيه . وسنعرض بإيجاز لرأى كل منهم فيه .

أما أهل السنة فيعلنون أن أسلافهم الأول قد رأوا فى على بن أبى طالب أول غلام آمن ، وقد عاش فى حجر النبوة ورعاه الرسول قبل بعثته ، كما رعته أم المؤمنين الأولى – خديجة – برعايتها وحبها وحدبها ، ووقف الطفل المكى – منذ اللحظة الأولى للنبوة – بجانب صاحبها فى الكبير وفى الصغير . ولا يقل إعجاب أهل السنة عن إعجاب الشيعة به حين تركه الرسول فى فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكة ، وهو يواجه قريشا العاتية . ثم هاجر إلى المدينة مع فاطمة الزهراء . وبدأت الحروب ، وفتى بنى هاشم يحمل بسيفه المنايا ، يحطم بها عتاولة القرشيين ، ويكلم كل بيت من بيوتهم . وكم فدى الرسول بنفسه فى معظم مواقع القتال . وهو إذن تلميذ محمد صلى الله عليه وسلم الأول .

ويعلن أهل السنة أيضاً أن علياً عالم المسلمين وفقيههم ، مصداقاً للحديث « أنا مدينة العلم وعلى بابها » فقه القرآن كما فقه السنة ، وغاص فى أعماق كل منهما وكان فقيه أبى بكر – فيما بعد – كما كان فقيه عمر : ويذهب أهل السنة بلاشك إلى أنه أفقه من الصاحبين ، بل من الصحابة جميعاً وقد عاش عند أهل السنة والجماعة عيشة إيثار وإنكار لذاته فى حياة كل من الشيخين .

ويرى أهل السنة والجماعة أنه رابع الخلفاء الراشدين . وأن الخلفاء الثلاثة قد سبقوه بفضل إمارة المؤمنين بعد الرسول ﷺ . ويعلن أهل السنة أيضاً أنه كان على حق فى قتاله أصحاب الجمل ومعاوية

وأخيراً – إنه الوحيد من بين الصحابة الذى احتفظ بكلمة الإمام فى كتب أهل السنة . ودعاه الحسن البصرى « ربانىّ هذه الأمة » وبرغم كل ما قام به الأمويون من دعاية ، وما أعلنه النواصب من عداوة لعلى ، فقد احتل ابن عم الرسول وصهره عند أهل السنة والجماعة المكان الأول فى الحياة الروحية للمسلمين . رفعه أهل السنة والجماعة – على جميع الصحابة بلا استثناء – روحياً على مقام كل من أبى بكر وعمر ، ولكن سياسياً وضع فى النسق رابع خلفاء محمد ﷺ .

أما الصوفية ، وهم فى مجموعهم أهل سنة وجماعة ، فكان الإمام على رأس سندهم وقمة سلسلتهم ، وإليه نهاية الطريق . ووضعوا على لسانه آثاراً وسنناً كثيرة ، ونسبوا إليه أسرار العلم الباطن ، وإليه يتشوف الصوفى السنى .

إن ما نستخلص من هذا أن أهل السنة والجماعة – اللهم إلا السلف المتأخرون ، رأوا فى أبى بكر الصاحب الأول – وصاحب الصلاة على الخصوص ، وفى عمر مؤسس الدولة الإسلامية وواضع الأسس الحقيقية لها ومنشؤها ، وفى على صاحب الروح .

أما الشيعة – فقد أطلقوا أيضاً على لسان بعض أسلافهم – من كبار الصحابة الأحاديث النبوية التى تثبت إمامته بعد الرسول ﷺ وبعض تأولات الشيعة صحيحة وبعضها غير صحيح ، كما فسروا أيضاً كما قلت من قبل بعض الآيات القرآنية تفسيراً خاصاً يؤدى إلى القول بإمامة على وخلافته منذ اليوم الأول . ثم أثبتوا له الوصاية ، « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » والحديث الآخر « السابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب ياسين حبيب النجار ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب وهو أفضلهم » أى أفضل أوصياء الأنبياء جميعاً .

وذهب الشيعة الأوائل إلى ولاية على وعصمته وأنه وارث العلم النبوى الخاص الذى لم يطلع عليه النبى غيره حين أدركته منيته . وفى الكوفة أيضاً آمن الشيعة أن الرسول ﷺ ترك لعلى كتباً خاصة ، ثم حددت الشيعة المتأخرة هذه الكتب بالكتب الآتية : مصحف فاطمة ، وعلى هامشه علم ما كان وما يكون وما هو كائن . وقد أملاه النبى على وصية صاحب الأمر بعده ، وكتاب الجفر الجامع أو الجامعة وفى هذه الجامعة صحف الأنبياء ففيه صحيفة آدم أورثها لابنه شيث ، فأضاف إليها ، ثم إدريس ، ثم صحف إبراهيم وموسى وعيسى ثم خاتم النبيينْ محمد صلى الله عليه وسلم وصحفه ، وقد أورث محمد ﷺ هذا إلى على خاتم الأوصياء ، ثم كتابان آخران هما – الجفر الأبيض والجفر الأحمر ، أما الجفر الأحمر فهو خاص بالقائم ، كيف يقضى بالسيف على أعدائه ، أما الأبيض ، ففيه جزءان – كتب الأنبياء وصحفهم ، ثم الحلال والحرام ، ثم تفسير الاسم الأعظم وأسراره والصحيفة .

وصور الشيعة عليا وبيده كرامات لا تقل عن المعجزات ، وعددوا هذه الكرامات ، بل تكلموا

عن بدء وجوده «كنت أنا وعلى بن أبى طالب قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام فقط ، فلما خلق الله آدم ، انتقل النور فى الأصلاب لطاهرة والأرحام الزكية حتى صار فى عبد المطلب ، فانقسم النور قسمين : قسم فى عبد الله وقسم فى أبى طالب ، فكان لى النبوة ولعلى الوصية» .

وعين الشيعة موضع على فى تلك الحادثة الممتازة ، حادثة المعراج . فقد سأل محمد ﷺ – بأمر ربه – النبيين عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة ، فشهدوا جميعاً «بأننا رفعنا بفضل نبوتك وإمامة على بن أبى طالب والأئمة من صلبك» فجاء النداء أن انظر إلى يمين العرش – فنظرت فإذا بأشباح على وبنيه وحفدته وهم يصلون فى بحر من النور فقال الله تعالى «هؤلاء حججى وأوصيائى وأوليائى ، وينتقم آخرهم من أعدائى ، «وفى السماء الرابعة رأيت ملك الموت ، فأخبرنى أنه مأمور بقبض أرواح الكائنات إلا روحى وروح على ؛ فإن روحيكما سيقبضها الله بنفسه بيد القدرة» ورأيت ليلة المعراج أنه قد كتب على كل حجاب من النور وكل قائمة من العرش – أن لا إله إلا الله – محمد رسول الله ، على ابن أبى طالب أمير المؤمنين ، وقد أعطى الله آدم خمسة عشر حرفاً من حروف الاسم الأعظم ، ونوحاً ثمانية ، وإبراهيم حرفا ، وموسى أربعة ، وعيسى اثنين ، وأعطى محمداً اثنين وسبعين فسلمها علياً .

هذه نظرية الشيعة المعتدلة ، فى أوساط الكوفة ، والمدائن ، وفى العراقين على العموم .

وبات على ليلة اغتياله ، وهو يعلم تماماً أنه مغادر الدنيا ، ولم يزل يمشى بين الباب والحجرة ، وهو يقول «والله ماكذبت ولاكذبت وأنها الليلة التى وعدت (١)» . وكان يردد «مايحبس أشقاها ، فو الذى نفسى بيده لتخضبن هذه من هذه» ، «وخرج على فى الغلس للصلاة – فتبعه أوز – كن فى الدار فتعلقن بثوبه فحاول بعض أهله منعهن . فقال ويحك – دعهن – فإنهن نوائح» وهجم عليه عبد الرحمن بن ملجم وقتله (٢) ، ولما مات قام الحسن عليه السلام خطيباً ثم قال «ألا إنه قد مضى فى هذه الليلة رجل لم يدركه الأولون ولن يرى مثله الآخرون» من كان يقاتل وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله – والله لقد توفى فى الليلة التى قبض فيها موسى بن عمران ورفع فيها عيسى بن مريم «وأنزل القرآن» ألا وإنه ما خلف صفراء ولا بيضاء . ثم قام القعقاع بن زرارة على قبره وقال «رضوان الله عليك يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد كانت حياتك مفتاح خير ، ولو أن الناس قبلوك لأكلوا من فوقهم ولكنهم غمطوا النعمة وآثروا الدنيا على الآخرة (٣)» ودفن على فى النجف قريباً من الكوفة .

وأعلن الشيعة الإمامية المعتدلة أن النبى إبراهيم ذكر «أنه سيكون فى هذا المكان قبر عليه مشهد عظيم يفوز به سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم . وهذا المكان هو وادى السلام وهو

---

(١) اليعقوبى : تاريخ . . ج ٥ ص ٢٦٧ / ٥٣٨ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ١٩ .
(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٥ ص ١٥٥ .

جزء من جنة الله الباقية ، وإليه تحشر أرواح الشيعة ، وكأنى بهم قعود يتحدثون » .

وإلى هذا القبر يجمع الشيعة الإمامية من كل فج ، ويقفون أمامه باكين الإمام المعصوم ، أول الأئمة الصابر على الغصب ، المقتول ظلماً وعدواناً ويلتمسون منه الشفاعة فى اليوم الآخر ، ومن قبره الشفاء فى هذه الحياة الدنيا ، وينادون صاحب العصا والميسم ، وقسيم الجنة والنار ، ووارث النبيين ويهتف الشيعى منهم « أشهد أنك كلمة التقى والأصل الثابت » .

ومن العجب ، أن هؤلاء الشيعة ، قبل أن يخطوا باب المشهد يتجهون نحو يثرب مدينة الرسول محمد ﷺ ويصيحون « أتأذن يارسول الله أن أدخل على علىّ ابن عمك وزوج ابنتك » ولكن حين يتخطون الباب الخارجى ويقفون أمام جدث الإمام يرددون « السلام على ذات الله العليا ، السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، السلام على المن والسلوى » ،

الفصل الخامس

المختارية والكيسانية

مقدمات الشيعة الحنفية

تولى «معاوية الطليق» وابن «آكلة الأكباد» -كما دعاه على وشيعته من بعده- الخلافة بعد مقتل على بن أبى طالب ، وتنازل الحسن بن على له عن الخلافة مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ «إن ابنى هذا سيد ولعل الله يصلح به فئتين كبيرتين من المسلمين» وصالح معاوية الحسن على أن يكون الأمر له من بعده . ولكن معاوية لم يكن يهدأ له بال وحسن حى ، وبيعته له قائمة بعده ، ولذلك قرر قتله وتخلص منه بالسم (عام ٤٦ هـ)- فيما يقول الشيعة - ولست أبرأ معاوية . فلم يكن الرجل أبدا مسلماً تام الإسلام كان جاهليا بمعنى الكلمة وكان على استعداد لارتكاب كل موبقة فى سبيل ولده يزيد ، غير أن أقدم مصدر شيعى بين أيدينا يقرر أن الحسن مات من جراحته التى أصيب منها فى مظلم ساباط بعد عودته من محاربة معاوية ولم يذكر أبداً قصة سمه (١). وبكت الشيعة فى الكوفة إمامها الثانى ، سيد شباب أهل الجنة وإحدى ريحانتى رسول الله وابن فاطمة الزهراء .

ومات الطليق آخر الأمر بعد أن قتل جماعة من كبار الصحابة صبرا -كحجر بن عدى وأصحابه . مات بعد أن بايع الناس بالخلافة لابنه يزيد ، وانتهى الأمر إلى ملك غاشم جاهلى يتوارثه الأمويون واحداً بعد واحد . ولم يقبل الحسين بن على بيعة يزيد وخرج إلى الكوفة ، إلى أنصاره وأنصار أبيه من قبل . ولكن مالبث القوم أن خدعوه وتخلوا عنه ، بل إن عبيد الله بن زياد أمير يزيد على الكوفة أرسل من أهل الكوفة أنفسهم من قام بقتله وقتل أولاده وأغلب الهاشميين معه . وكانت مذبحة (عام ٦١ هـ) لم ير المسلمون لها مثلا ، وقد لعن المسلمون جميعاً يزيد .

وخرجت نساء بنى هاشم حواسر يبكين الحسين .

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بشر فى ذوى رحمى (٢)

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٣-٢٤ .

(٢) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٩٥ .

وقد بكى المسلمون الحسين بن على حتى يومنا هذا ، واعتبروه سيد الشهداء جميعاً .

أما الشيعة المعتدلة ، فقد ذكروا أن الرسول ﷺ أخبر بمصرعه ، وأن الملائكة جاءت بتّرب بيت المقدس إلى كربلاء ليدفن فيه الحسين ، وأنهم هيئوا قبره قبل استشهاده بألف سنة ، وذكر الإمام الأول على حين مرّ بكربلاء « أن مائة نبى ومائة وصى ومائة من أبناء الأنبياء يشتاقون لأن يدفنوا هنا » .

ولقد كان مقتل الحسين أكبر حادث فى تاريخ الإسلام السياسى والروحى . ولقد أصاب خلص المسلمين ذلة رانت عليهم أمداً طويلا ، وأطلقت الأشعار فى هذا فيقول سليمان بن قبة :

فإن قتيل الطف من آل هاشم   أذل رقاب المسلمين فذلت

ولكن ما لبث الشعور العارم أن انطلق فى الكوفة حين قام التوابون بحركتهم الفدائية الكبرى وهم يقولون « أقلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا » . وقد قتل التوابون – كما قلنا من قبل – فى عين الوردة ، وتركوا للمسلمين حتى الآن أعظم المثل فى الدفاع عن العقيدة والفناء فيها .

وفى ذلك الوقت ظهر المختار بن أبى عبيد (المتوفى سنة ٦٧ هـ) وكون الشيعة الحسينية . كان يزيد قد مات ، وابن الزبير على مكة يتحكم أيضاً فى أعناق المسلمين ويلحد فى آيات الله فى البيت الحرام ، ولا يصلى على الرسول نكاية فى آل بيت رسول الله . وكان الإمام الرابع على زين العابدين بن الحسين قد اعتزل الناس وكذلك فعل محمد بن الحنفية الابن الثالث لعلى بن أبى طالب من غير فاطمة الزهراء . وكان محمد بن الحنفية صاحب راية على يوم صفين ، وعلى جانب كبير من العلم والدين .

ظهر المختار بن أبى عبيد إبان هذه الحوادث كلها . وقد حاول الزبيرية والأموية أن يشوهوا حركة المختار ابن أبى عبيد تشويهاً دينيًّا ، وأن يتبعوا أخبار الرجل بكل نقيصة ، وأن يصبغوا عليها صبغة سبأية بل أشد ونسبوه أو خلطوا بينه عن سوء قصد وبين الكيسانية ، كما خلطوا من قبل بين أنصار على المخلصين وبين السبأية .

أما عن نسبه فهو ابن أبى عبيد الثقفى ، وكان أبو عبيد من كبار الصحابة ، وكان يسكن الطائف ، ثم انتقل إلى المدينة فى زمن عمر بن الخطاب ، وكان أبو عبيد من محبى على ، وقد ذهب بابنه إليه ووضعه بين يديه فمسح علىٌّ على رأسه وقال «كيس ، كيس » فلزمه هذا الاسم [1] . ثم استشهد أبو عبيد وكان قائد المسلمين فى واقعة الجسر . أما عن المختار فقد بقى فى المدينة منقطعاً إلى بنى هاشم . ثم انتقل إلى البصرة . وقد ذكر ابن كثير عنه أنه كان خارجياً ثم زبيرياً ثم شيعيًّا من أنصار على زين العابدين ، ثم تركه إلى محمد بن الحنفية ونادى بإمامته وكل هذا خطأ تاريخى . فالرجل كان من محبى البيت العلوى – كما رأينا – خرج على رأس جماعة من السلاح فى البصرة يريد نصر الحسين بن على عليه

(١) المجلسى : بحار الأنوار ج ٩ ص ١٧١–١٧٧ .

السلام فأخذه عبيد الله بن زياد وضربه بالقضيب على عينه فشترها ثم سجنه وكان يقول فى سجنه . . «حتى إذا أقمت عمود الدين وشفيت صدر المؤمنين ، وأدركت ثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى»[١] . وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب زوج أخت المختار فى أمره وأرسل إلى يزيد بن معاوية فيه ، فأمر يزيد عبيد الله بإطلاق سراحه وإخراجه من البصرة . وعاش المختار فى الطائف . فلما وجد الأمر قد آل إلى عبد الله بن الزبير فى أرجاء الحجاز ، شخص إلى الكوفة فوصل إليها وقد خرج سليمان بن صرد يطلب بدم الحسين عليه السلام واجتمعت إليه الشيعة فى الكوفة ، ولم تكن لتجتمع عليه لو لم تعلم أنه من أكبر المخلصين لآل البيت فقال لهم : إن محمد بن على ابن أبى طالب بعثنى إليكم أميراً وأمرنى بقتال المحلين ، والطلب بدماء أهل البيت المظلومين — وإنى والله قاتل ابن مرجانة والمنتقم لآل رسول الله ﷺ ممن ظلمهم[٢] .

ويذهب اليعقوبى — وهو أقدم مصدر تاريخى بين أيدينا إلى أن طائفة من الشيعة صدقته ، ولم تصدقه طائفة وإنما خرجوا إلى محمد بن الحنفية ليسألوه عن حقيقة الرجل . فقال لهم «ما أحب إلينا ممن طلب بثأرنا وأخذلنا بحقنا وقتل عدونا» فانصرفوا إلى المختار وبايعوه[٣] . وهذه دلالة على أن المختار بن أبى عبيد كان رجل محمد بن الحنفية ويقول ابن طباطبا «كان المختار رجلاً شريفاً فى نفسه عالى الهمة . كريماً»[٤] واستولى المختار على الكوفة ، وأخرج عامل عبد الله بن الزبير عنها سنة ٦٦ . ونادى قائده المشهور إبراهيم بن مالك الحارث بن الأشتر «يالثأرات الحسين» وتوجه بأمر المختار إلى الموصل لإنقاذها من جيش عبد الملك بن مروان وكان يقود جيش هذا الأخير «عبيد الله بن زياد قاتل الحسين» ومعه من عاونه فى قتل الإمام الشهيد . وانتهت الموقعة بانتصار جيش المختار وقتل قتلة الحسين جميعاً . وأرسلت رؤوسهم إلى محمد بن الحنفية وتتبع المختار بن أبى عبيد كل من شارك فى قتل الحسين وقتله .

وكان الذئب الغادر عبد الله بن الزبير يحكم مكة فى ذلك الوقت . وقد تحامل على آل الرسول ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء — بل إنه — فى قلب البيت الحرام ترك الصلاة على رسول الله ﷺ فى خطبته . فقيل له : لم تركت الصلاة على النبى ؟ فقال : إن له أهل سوء يشرأبون لذكره ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به .

ويذكر اليعقوبى أن عبد الله بن الزبير أخذ محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بنى هاشم وحبسهم فى حجرة زمزم . وأقسم ليبايعن أو ليحرقنهم بالنار . وكتب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٣ ، ١٠٨ .
(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٥ .
(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٧ .
(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٩ .

لمحمد بن الحنفية إلى المختار بن عبيد من سجنه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن على ومن قبله من آل رسول الله إلى المختار بن أبى عبيد ومن قبله من المسلمين . أما بعد : فإن ابن الزبير أخذنا فحبسنا فى حجزة زمزم وحلف بالله الذى لا إله إلا هو لنبايعنه أو ليضرمنها علينا بالنار فياغوثاه » فأرسل المختار بن أبى عبيد جيشاً بقيادة أبى عبد الله الجدلى – فى أربعة آلاف راكب ، فقدم مكة ، فكسر الحجرة ، وأنقذ آل بيت رسول الله . وقال لمحمد بن على : دعنى وابن الزبير . أى أنه أراد قتل ابن الزبير ، ولكن محمد ابن الحنفية أبى أن يدع أبا عبد الله الجدلى يقتل ابن الزبير وقال : لا أستحل من قطع رحمه ما استحل منى (١) . وأورد المسعودى نفس الواقعة (٢) . وخرج محمد ابن الحنفية إلى رضوى وأقام بها . بل إنه فى موسم الحج ، وقف محمد بن الحنفية فى عرفات وقفة أمير المؤمنين .

وتم الأمر لابن الزبير فى الحجاز وأرسل أخاه مصعب بن الزبير لقتال المختار بن أبى عبيد – ودافع المختار عن الكوفة دفاع الأبطال حتى قتل شهيداً فى محبة آل البيت العلوى عام (٦٧هـ – ٦٨٦ م) . وقتل مصعب بن الزبير سبعة آلاف من أتباعه من الشيعة الحسينية (٣) غدراً بالسيف وكانت إحدى الغدرات الكبرى فى تاريخ الإسلام ، بل قتل أيضاً زوجة المختار أسماء بنت النعمان بن بشير الصحابى حين رفضت أن تتبرأ من زوجها بعد موته وتلعنه : وقالت : إنه كان تقيًّا نقياً صوّاما ، كيف أتبرأ من رجل يقول ربى الله ، كان صائم نهاره ، قائم ليله قد بذل دمه لله ورسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس » وحين قدمت للقتل ، قالت : شهادة أرزقها فأتركها كلا إنها موتة ، ثم الجنة ، والقدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون آت مع ابن هند فأتبعه ، وأترك ابن أبى طالب ، اللهم اشهد أنى متبعة لنبيك وابن بنته ، وأهل بيته وشعيته » وقدمت للموت فقابلته بشجاعة نادرة .

كل هذه دلائل واضحة على أن المختار بن أبى عبيد كان رجلاً تقيًّا ممتازاً فى دينه . مقاتلاً فى سبيل أهل البيت . بل إن المختار يعلن فى آخر مواقفه بعد أن قتل محمد بن الأشعث الكندى – وكان أيضاً من قتلة الحسين « طابت نفسى بقتله ، إن لم يكن قد بقى من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالى بالموت بعد هذا (٤) .

وقد مدح أهل البيت جميعاً المختار بن أبى عبيد . مدحه شيخ بنى هاشم عبد الله بن عباس فيما يروى ابن الأثير (٥) بل تجمع المصادر السنية أنه كان يرسل المال من خراج العراقيين إلى

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٧ .
(٢) المسعودى : مروج ج ٢ ص ١٠٠–١٠١
(٣) نفس المصدر : مروج ج ١ ص ٣٥ .
(٤) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .
(٥) ابن الأثير : تاريخ ج ٤ ص ٨٣–٨٤ .

عبد الله بن عمر وابن عباس وابن الحنفية وغيرهم فيقبلونه منه . وكان الإمام على زين العابدين يقبل هداياه ومنها أم ولد ولدت له الإمام زيد بن على (١) وقد دعا له الإمام زيد . كما شكره الإمام محمد الباقر على أخذه بثأر الحسين وترحم عليه هو والإمام جعفر الصادق . وليس من المعقول قط أن ينتسب إلى محمد بن الحنفيــة وفى الآن عينــه يضع نفسه فى مرتبة أعظم من مرتبة الإمام . إن الشهرستانى نفسه يذكر أنه انتظم له ما انتظم بأمرين : أحدهما انتسابه إلى محمد بن الحنفية علماً ودعوة والثانى قيامه بثأر الحسين عليه السلام واشتغاله ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين (٢).

هذه حقيقة المختار بن أبى عبيد وقد تنكب الحقيقة الكثيرون من الباحثين، لقد ملأت الزبيرية أولاد الزبير بن العوام الدنيا بالدعاوى الكاذبة حول المختار . وقد كانوا طلاب دنيا أكثر من الأمويين ، بل من الثابت أنهم أفسدوا أباهم ودعوه إلى حرب اقتتل فيها المسلمون قتالاً عنيفاً ، وذكر على بن أبى طالب نفسه أن الزبير بن العوام كان على الحق حتى غيره أبناؤه ،كذلك قامت الأموية بما كان لها من قوة الحكم والسلطان والمال ببث الدعوة ضد المختار بن أبى عبيد فقد حارب الرجل الاثنين حرباً عنيفة وقاتلها فى سبيل حب آل البيت أشد قتال . وتابعه عظماء الكوفة من أمثال عبد الله الحر وإبراهيم بن مالك الأشتر . وهما من عيون رجال الكوفة ، ويقول صاحب الفرق بين الفرق «ودخل فى بيعته عبد الله بن الحر الذى لم يكن فى زمانه أشجع منه وإبراهيم بن مالك الأشتر ، ولم يكن فى شيعة الكوفة أجمل منه ولا أكثر منه تبعاً (٣) » .

إن الخطأ الذى وقع فيه بعض مؤرخى العقائد من الشيعة وأهل السنة أنهم خلطوا بين المختار بن أبى عبيد وبين شخصية أخرى معاصرة له — وهى شخصية كيسان . فيذهب مؤرخ شيعى قديم كأبى خلف القمى ويتابعه النوبختى إلى أن الكيسانية إنما سموا بذلك لأن رئيسهم الذى دعاهم إلى ذلك المختار بن أبى عبيد الثقفى وكان لقبه كيسان . ثم يذكر أيضاً فى فقرة أخرى أنه لقب بكيسان وهو لقب صاحب شرطته (٤) ومرة ثالثة أن محمد بن الحنفية «استعمل المختار بن أبى عبيد الثقفى على العراقيين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدم الحسين وثائره ، وقتل قتله ، وطلبهم حيث كانوا ، وسماه كيسان لكيسه ، وما عرف من قيامه(٥) وذهب مؤرخو السنة جميعاً إلى نفس الرأى ، وإن كان البغدادى قد

(١) أبو الفرج الأصبهانى : مقاتل الطالبين ص ٩٢ .
(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٢٢ .
(٣) البغدادى : الفرق ص ١ .
(٤) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ٢١ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٢٣ .
(٥) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٦ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٢٧ .

تنبه إلى حد ما إلى حقيقة الأمر فقال «وكان المختار يقال له كيسان وقيل إنه أخذ مقالته عن مولى لعلى رضى الله عنه كان اسمه كيسان (١)» .

ومن هذا نرى أننا أمام شخصيتين مختلفتين ، المختار وكيسان ، ومن الواضح أن البغدادى يحاول أن ينسبه فى النص السالف لكيسان مولى على ، وهذا خطأ فإن كيسان مولى على كان قد مات قبل حركة المختار ، فنحن إذن أمام كيسان آخر متأخر عن عصر الإمام على أو بمعنى أدق أمام شخصية تسمت باسم كيسان مولى على بن أبى طالب .

وقد كشف لنا ظهور كتاب المقالات والفرق لأبى خلف القمى عن حقيقة كيسان هذا . فهو أبو عمرة السائب بن مالك الأسعدى المتوفى سنة ٦٧ هـ وكان يجاور المختار بن أبى عبيد فى سكنه وكان صاحب سره ومؤامراته فلما قام المختار بن أبى عبيد بحركته ، جعله صاحب شرطته (٢) ويذهب الطبرى إلى أنه كان مولى غزينة أو مولى بجيله (٣) . وهو أعجمى فيما يقول الشعبى (٤) . وجاور المختار بن أبى عبيد ، وأنه كان يزكى الشيعة ويهاجم عثمان وضرب لذلك بالسياط(٥) ، ويبدو أنه هو الذى عاون المختار على الطلب بثأر الحسين وقتل أعدائه ، وأنه دله على قتلته ، وتتبعهم بنفسه واحداً فواحداً ويقول الدينورى «إن المختار ولى الشرطة كيسان أبا عمرة ، وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول ، ويتتبع دور من خرج إلى قتال الحسين بن على فيهدمها ، وكان أبو عمرة بذلك عارفاً ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار فى لحظة . فمن خرج إليه منهم قتله ، حتى هدم دوراً كثيرة . وقتل أناساً كثيرين ، وجعل يطلب ويستقصى ، فمن ظفر به قتله ، وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه (٦) ويرى المؤرخون أنه تجاوز المختار فى القول والفعل والقتل ، أى أنه غلا فى عقيدته أكثر من المختار ، كما أنه أيضاً غلا فى قتل أعداء الحسين بن على وقاتليه . وكان يقول إن المختار وصى محمد بن الحنفية وعامله ، وكان يكفر من تقدم علياً ، ويكفر أهل صفين وأهل الجمل . بينما كان المختار لا يكفر من تقدم عليه ولكنه كان يكفر أهل صفين وأهل الجمل (٧) وهذه المقارنة بين الاثنين تستدعى النظر ، كان المختار ابناً لصحابى كبير ، نشأ فى رحابه ، ورأى كيف استشهد أبوه فى عهد الشيخين فتولاهما ، ولكنه أحب عليا ، فكفر كل من حاربه منذ ولايته الفعلية ، بينما أحب أبو عمرة عليا حبا ملك عليه كل نفسه ، وجعله ينكر إمامية الشيخين وعثمان من قبل . وأخيراً يذكر

---

(١) البغدادى : الفرق ص ٣١ .
(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) الطبرى : ج ٣ ص ٦٣٤ .
(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٥) الطبرى : تاريخ ... ج ٢ ص ٦٣٤ .
(٦) الدينورى : الأخبار . ص م ٢٩٣ .
(٧) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ .

أبو خلف والنوبختى أن أبا عمرة كان يزعم أن جبريل يأتى المختار بالوحى من عند الله . فيخبره بذلك ولا يراه . وأن جبرائيل وميكائيل يتزلان عليه بالوحى (١) فكان كيسان إذن هو الذى صور المختار بهذه الصورة ، إن صحت هذه النصوص التى أوردها مؤرخو الفرق . ولكننا نرى البغدادى يذكر بأن المختار– بعد أن تمت له ولاية الكوفة والجزيرة والعراقيين إلى حدود أرمينية تكهن وسجع كأسجاع الكهنة وادعى نزول الوحى إليه (٢) ولكنه ما يلبث أن يقول بأن السبأية هى التى خدعت المختار ، وأنهم قالوا له : أنت حجة هذا الزمان ، ثم حملوه على دعوى النبوة فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحى يتزل عليه ، وسجل بعد ذلك (٣). ولم يذكر البغدادى هنا الكيسانية ، بل ذكر السبأية الغلاة من الروافض . والرافضة لم تظهر فى أيام المختار ، والشهرستانى – لا يذكر أبداً أن المختار قد أعلن نبوته ونزول الوحى إليه ، بل ذكر أنه كان يدعو إلى محمد بن الحنفية ، ويظهر أنه من رجاله ودعاته . ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به (٤) ، أى أنه غلا إلى حد ما فى حب محمد بن الحنفية ، وأن محمد بن الحنفية لما وقف على هذا تبرأ منه ، وتفسير هذا أنه نسب إلى محمد بن الحنفية علوماً كثيرة سرية ، وأن محمد بن الحنفية أنكر هذا . وهذا خطأ ، فلم يكن المختار بن أبى عبيد من رجال السحر والنيرنجات ، ولم يكن غنوصياً ، إنما كان رجلاً مقاتلاً لسناً فصيحاً ، تولى الشيخين أبا بكر وعمر ، ولكنه أحب أهل البيت وآمن بأحقية على بن أبى طالب وابنه الحسين ، فقاتل قتالاً عنيفاً فى هذا السبيل ، ونراه يقتل زوج أخته عمر بن سعد وابن أخته جعفر بن عمر ، ولا يأبه بقرابتهما له . ثم نراه بعد ، يؤمن بمحمد بن الحنفية ، ويدعو له .

أما إذا كان هناك غلو فى عهد ولاية المختار للكوفة ، فقد قام به كيسان أو أبو عمرة ، وإن كان هناك شك أيضاً فى أن الآراء الغالية قد ظهرت منه . كان أبو عمرة من محبى أهل البيت ، فلما واتته فرصة الانتقام من أعدائه ، انتهزها بكل قواه ، فكان يقاتل ويقتل كل من شارك فى قتل الحسن ، ويهدم داره ، ويقتل كل ما فيه من ذى روح . وقد خرب دوراً كثيرة ، وقتل الكثيرين من أعداء الحسين ، وبقيت ذكراه فى الكوفة أمداً طويلاً بحيث كان أهلها يضربون به المثل ، فإذا أصاب الفقر إنساناً قالوا دخل أبو عمرة بيته ، وخلد الشاعر ذكرى أبى عمرة فيقول :

إبليس بما فيه خير من أبى عمره   يغويك ويطغيك ولا يعطيك كسره

---

(١) نفس المصدر السابق والنوبختى : فرق : ص ٣٣ .

(٢) البغدادى : الفرق . ص ٣٩ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ٣١ .

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

عاون أبو عمرة المختار بن أبى عبيد ، فى الكوفة ، ويبدو أنه كان أعجمياً ، ولذلك نراه يجمع العجم الحمراء ، وأرسلهم مع إبراهيم بن الأشتر حيث قتلوا قتلة الحسين [١] وقد قتل أبو عمرة فى واقعة المذار عام ٦٧ للهجرة [٢].

وهنا نتساءل : هل كان أبو عمرة حقًّا غنوصيًّا ، وهل كان على صلة بجماعات ثنوية ومسيحية ويهودية ، نفثت سمومها فيه ، ثم حملها هو وأتباعه إلى شيعة الكوفة . ومن ثم نسبت للمختار . ليس لدينا نصوص قاطعة تثبت هذا ، إن كل ما لدينا من وثائق تثبت أنه كان مولى لقبيلة بجيلة ، وأنه عاش فى هذا الوسط القاتم من الأحزان على على وبنيه ، وقد تبنت هذه القبيلة الغلو فيما بعد ، ولكن هل كان أبو عمرة منشئه ، وزارعه ، إننى أستبعد هذا . وأرى أنه كان أيضاً رجلاً من محبى أهل البيت ، ولو عرف المختار زيغه ، لما ولاه شرطته . وعرض حركته لدعايات الأمويين والزبيريين ، وإن كان لم يسلم منها فى نهاية الأمر .

ولكن إذا لم يكن المختار بن أبى عبيد ولا صاحب شرطته أبو عمرة هما مؤسسى هذه العقائد الغالية فى بيت رسول الله بعد السبأية ، فمن الثابت ، أن هذه الآراء قد وجدت فى الكوفة ، ووسمت باسم المختارية أحياناً والكيسانية أحياناً أخرى . وكانت الكيسانية هى المسئولة الأولى عنها . إن فى مجامع الكيسانية وبعد وفاة المختار وأبى عمرة . ورجوع الكيسانيين إلى دورهم ، بدأ الغنوص العنيف يلتف حول عنق الشيعة فى الكوفة يعتصرها اعتصاراً ، وينشب مخالبه فيها بحيث لم تخلص الشيعة – فى أقسامها المختلفة غلاة وعباسية واثنى عشرية وإسماعيلية وقرامطة – من الآراء الكيسانية . ومن العجب أن هذه العقائد لم تتركز فى أول الأمر حول إمام فاطمى ، بل تركزت فى محمد بن الحنفية وهو إمام علوى ، ولكنه ليس من نسل فاطمة . ولعلنا من هنا نستطيع أن نصور منحنى كل من المختارية والكيسانية ، كانت المخترية ، شيعة حسينية عربية فى مجموع آرائها ، أعلنت انتماءها بمحمد بن الحنفية للانتقام للحسين بن على ، وأدت مهمتها على أحسن وجه ، وكتبت ملحمتها رائعة ناضرة ، بينما نرى الكيسانية – وهى فارسية هى فى عقائدها حنفية تنادى بإمامة محمد بن الحنفية المطلقة ، ثم بإمامة ابنه أبى هاشم ، وأخلافهما من بعدهما ، أو نادت بمهدية محمد بن الحنفية فقط .

ولقد كان لمحمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم أكبر الأثر فى تكوين العقائد الشيعية الحقيقية . حقًّا لقد انقسمت الشيعة سواء أرادوا أم لم يردوا إلى فاطمية وحنفية . ولكن شيعة محمد بن الحنفية وشيعة ابنه أثرتا أكبر الأثر فى كل فرق الشيعة بعدهما ، وهذا ما يجعلنا نفرد لهما فصلاً خاصاً .

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٩٣ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ١٦٦ تعليقات الدكتور مشكور.

الفصل السادس

الشيعة الحنفية

الإمام محمد بن الحنفية

تذكر الشيعة الحنفية أن النبى ﷺ قد بشر بميلاد محمد بن الحنفية، فقد أخبر عليا أنه «سيولد لك من بعدى غلام وقد نحلته اسمى وكنيتى ولا تحل لأحد من أمتى بعده» وماتت فاطمة الزهراء وتزوج على عليه السلام الحنفية «خولة بنت جعفر من بنى حنيفة»، وولد له محمد؛ وقد أجمع كتاب أهل السنة أن محمد بن الحنفية كان واسع العلم شديد الورع شديد القوة. وكان محمد بن الحنفية يقول «الحسن والحسين أفضل منى وأنا أعلم منهما» وقد خرج محمد مع أبيه فى حربه يوم الجمل ودفع أبوه إليه رايته وقال له:

أطعنهم طعن أبيك تحمد لا خير فى حرب إذا لم توقد
بالمشرفى والقنا المشرد (١)

ومع أنه قد تردد فى حمل هذه الراية، فقد عرف باسم «صاحب راية أبيه» وكان هذا سنداً فيما بعد — للكيسانية من أتباعه فى القول بإمامته. وقد تردد فى حمل هذه الراية، لأنه رأى أنه قتال المسلمين. وكان يردد «هذه والله الفتنة المظلمة العميـــاء». وهنا يرد عليه أبوه قائلاً «هل عندك فى جيش مقدمه أبوك شىء» (٢) وفى رواية أخرى «أتكون فتنة أبوك قائدها» وحمل ابن الحنفية الراية. وخاض الحرب — فيما يبدو — كارها. وحين انتهت الحرب وقتل الإمام على عاش مع أخيه الحسن حتى مات، ثم استقر فى المدينة وعاش فيها متنقلاً بينها وبين مكة، وبايع يزيد لولاية العهد فى حياة معاوية. وزاره فى دمشق بعد توليه الخلافة، وقبل هداياه.

وفى المدينة بالذات أنشأ مكتباً للتعليم، وقد كان هذا المكتب إحدى الحلقات الكبرى العلمية فى تاريخ الإسلام. ولم يتنبه الباحثون إلى أهميته من قبل، من هذا المكتب خرجت كل الآراء المتعارضة فى الإسلام فالإرجاء ينسب إلى ابنه الحسن والاعتزال إلى ابنه أبى هاشم وحول شخصية

---

(١) الإسفرايينى: التبصير فى الدين ص ١٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٠.

محمد بن الحنفية وفى هذا المكتب أيضاً ظهرت فيما أعتقد الآراء الكيسانية ومن تلامذة هذا المكتب أيضاً المختار بن أبى عبيد ، كما أن من تلامذته واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . إنها مدرسة تشبه مدرسة الحسن البصرى بل أعظم منها بكثير ، منها ظهرت الفرق المتعارضة والآراء المتناقضة والأفكار الغريبة .

أما عن محمد بن الحنفية نفسه ، فقد خاض مع أبيه –كما قلنا من قبل– غمار الحرب ، وكان لها كارهاً . وذلك أنها فرقت بين المسلمين ، ثم نراه – فيما بعد يعلن فكرته فى هذا «لو اجتمع الناس على كلهم إلا إنساناً واحداً لما قاتلته» وأعتقد أنه كان من المؤيدين للحسن فى تنازله عن الخلافة لمعاوية . لقد رأى أن لأهل البيت مهمة أسمى ، وهى نشر العقيدة والمساهمة فى تدعيمها ، وترك أمر المسلمين لمن أراد ، طالما لم يجتمع المسلمون على واحد من أهل البيت . بل رأى المسألة كلها مسألة عصبية وقوة ومنعة ، وليست أمراً من أمور الله . فقال «أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمنا هؤلاء . يعنى بنى أمية» ومرة أخرى يقول «نحن أهل بيتين من قريش نتخذ من دون الله أنداداً – نحن وبنو أمية [1] » فلم يكره محمد بن الحنفية الغلو فقط ، فى بنى هاشم وبنى أمية ، بل إنه عبر بقوله هذا أو بقوليه هذين أن الأمر أمر عصبية ، يأخذها من غلب .

ومات معاوية وولى الأمر يزيد ، وقتل الحسين ، وبكاه محمد بن الحنفية أشد بكاء . ولكنه بايع يزيد بن معاوية ، ورفض تماماً أن يخلع بيعته . وحصر عبد الله بن الزبير بنى هاشم فى شعاب مكة ، كما فعل من قبل مشركو قريش مع الرسول وبنى هاشم . وأعلن ابن الحنفية «لو أن أبى على أدرك هذا الأمر لكان هذا موضع رحله ، فهو إذن يتبع سنة أبيه أو السنة التى أرادها لأبيه . ولكنه يضيق بهؤلاء العرب الذين سلبوه الحق هو وآل بيته «أما آن لكم أن تعرفوا كيف نحن ، مثلنا فى هذه الأمة مثل بنى إسرائيل فى آل فرعون «كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم» وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا وينكحون نساءنا بغير أمرنا ، فزعمت العرب أن لهم فضلاً عن العجم [2]. . . » وتتضح روح الإيثار عنده وحدبه على شيعة أهل البيت حين يقول «وددت لو فديت شيعتنا هؤلاء ولو ببعض دمى[3] » . وهو يريد لهم الأمن والسلام فيقول لأحد أتباعه «الزم هذا المكان . وكن حمامة من حمامات الحرم . . حتى يأتى أمرنا . فإن أمرنا إذا جاء فليس به خفاء . كما ليس بالشمس إذا طلعت خفاء» ويزعجه حوادث ابن الزبير وطمعه فيقول «إن هذه لصاعقة لا يقوم لها شىء» .

ويأتيه أحد أتباعه من خراسان ، وطلب منه أن يكلمه سرًّا وقال له . . «فما زال الشين فى حبكم

---

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٦٩ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٧١ .

حتى ضربت علينا الأعناق وأبطلت الشهادات ، وشردنا فى البلاد وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه . لولا أن يخفى على أمر آل محمد» ثم يسأله هل يقاتل مع الخوارج أمراء بنى أمية . وأجاب محمد بن الحنفية : أما قولك : لقد هممت أن أذهب فى الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه وأجتنب أمور الناس فإن تلك البدعة الرهبانية . ولعمرى لأمر آل محمد لأبين من طلوع هذه الشمس» ثم ينهاه عن القتال مع الخوارج ، ويطلب منه التقية «اتق هؤلاء القوم بتقيتهم» فبدأ التقية يتقرر هنا كمبدأ شيعى على يد محمد بن الحنفية . ثم يعلن مبدأ الولاء لآل محمد فيقول «من أحبنا ، نفعه الله ، وإن كان فى الديلم [١]» .

ولقد حظى محمد بن الحنفية فى كتابات أهل السنة والجماعة بالمكانة السامية ، فقد آثر اعتزال كل الفتن ، وبايع الخلفاء الغاصبين من بنى أمية حقناً للدماء وحفظاً للمسلمين ، وعاش فى فتنة الزبير ، وحاول تجنبها وتبرأ فى رأى أهل السنة والجماعة أيضاً من الآراء الغالية التى نادت بها الكيسانية . ومن الثابت أن محمد بن الحنفية لم يكن على الإطلاق رجل فتن وقلاقل ، ولكنه لم ينس واجبه ، وحق آل البيت ، ومن الواضح أيضاً أنه هو الذى استعمل المختار بن أبى عبيد على العراقين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدمه والثأر له وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا [٢] . وقد فعل المختار هذا .

أما الآراء الشيعية التى ظهرت فى عصر محمد بن الحنفية ، وبعد شهادة الحسين فهى :

(ا) المهدية : وهنا نجد أول ظهور حقيقى لفكرة المهدى . واعتبر محمد بن الحنفية أول مهدى فى الإسلام . وكان أتباع محمد بن الحنفية يسلمون عليه «سلام عليك يا مهدى» ويورد ابن سعد فى طبقاته أنه رد عليهم بقوله «أجل : أنا مهدى أهدى إلى الرشد والخير ، واسمى اسم نبى الله ، وكنيتى كنية نبى الله ، فإذا سلم أحدكم فليقل سلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أبا القاسم [٣]» .

ويذكر البغدادى أن عامر بن واثلة الكنانى صاحب محمد بن الحنفية – كان يسير فى مقدمته وهو فى طريقه إلى عبد الملك بن مروان يقول لأتباعه :

يا إخوانى : ياشيعتى لا تبعدوا — وآزروا المهدى كيما تهتدوا
محمد الخيرات يا محمد — أنت الإمام الطاهر المسدد
لا ابن الزبير السامرى الملحد — ولا الذى نحن إليه نقصد [٤]

وسواء أكانت هذه تقية من محمد بن الحنفية – أى سيره إلى عبد الملك بن مروان أو غير تقية – فإنه اعتبر أول مهدى فى الإسلام ، وكان له ملامح المهدى تماماً ، ونحن نعلم أنه وقف على عرفات فى

---

(١) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠ .
(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢٧ .
(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨–٦٩ .
(٤) البغدادى : الفرق ص ٤ .

لواء يدعونه بأمير المؤمنين . بل إن فرقة من الفرق اعتبرته الإمام المهدى الوحيد . وأنه هو وصى على بن أبى طالب الوحيد أيضاً «وليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا أن يشهر سيفه إلا بإذنه ، وإنما خرج الحسن بن على إلى معاوية محارباً له بإذن محمد ووادعه وصالحه بإذنه وأن الحسين خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغير إذنه هلكا وضلا وأن من خالف محمد بن الحنفية كافر مشرك (١) فهو إذن الإمام الحقيقى ، وصاحب الحق بعد الإمام على فى الخلافة عند طائفة من الكيسانية .

(ب) البداء : والبداء له معان فيما يقول الشهرستانى : البداء فى العلم وهو أن يظهر لله صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبداء فى الأمر وهو أن يأمر بشىء ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، ومن لم يجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة فى الأوقات المختلفة متناسخة . وقد جوزت الشيعة فى عهد محمد بن الحنفية البداء على الله ، ونسبتها كتب أهل السنة للمختار بن أبى عبيد . ويرى الشهرستانى أن المختار لجأ إلى القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم الحوادث المستقبلة ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، يخبره فيها بما سيحدث . فكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن حدثت الحادثة كما ذكر قوله ، جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم تحدث قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء . فقال إذا جاز النسخ فى الكلام جاز البداء فى الأخبار (٢) . ويبدو أن القول بالبداء يستند عند الشيعة على قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . والبداء ظهور الرأى بعد أن لم يكن ، والبدائية : هم الذين جوزوا البداء على الله عز وجل بأن يعتقد شيئاً ، ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقد ، غير أنه من الواضح أن المختار لم يلجأ إلى هذه الحيل ، وإن كانت فكرة البداء قد ظهرت فعلاً فى مجتمع الكوفة فى عهده ، وعلى يد أتباعه .

والملطى لا ينسب البداء إلى المختارية أو الكيسانية بل إلى السبأية ، ويقرر أنهم يقولون . إن الله تبدو له البدوات (٣) أما مؤرخ العقائد وشيخ السنة أبو الحسن الأشعرى ، فإنه ينسب فكرة البداء إلى الرافضة ، وهو لفظ أطلق على الشيعة فيما بعد ويرى الأشعرى أنها افترقت فى جواز البداء على الله ، هل يجوز أن يبدو له إذا أراد شيئاً أم لا ، إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : ترى أن الله تبدو له البدوات ، وأنه يريد أن يفعل الشىء فى وقت من الأوقات ، ثم لا يحدث لما يحدث له من البداء ، وأنه إذا أمر بشريعة ثم نسخها ، فإنما ذلك لأنه بدا له فيها ، وأن ما علم أنه يكون ولم يطلع عليه أحداً من خلقه فجائز عليه البداء فيه . وما اطلع عليه عباده فلا يجوز عليه البداء فيه (٤). من هذا النص نرى أن للبداء معنى آخر يتصل بقدرة الله وبعلمه ، فما يقدر

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٦ ، ٢ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٣) الملطى : التنبيه .. ص ٢٦ .

(٤) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

عليه الله ولم يطلع أحداً عليه ، فله أن يفعله أولا يفعله ، وأما ما علم الناس أنه كائن ، فلا بداء فيه .

والفرقة الثانية : وهى تقرر البداء لله إطلاقاً ، فهو جائز على الله فيما علم أنه يكون حتى لا يكون ، وجوزت ذلك فيما أطلع عليه عباده وأنه لا يكون كما جوزوه فيما لم يطلع عليه عباده .

والفرقة الثالثة : وهى تقرر أنه لا يجوز على الله البداء [1]. فالبداء إذن فكرة نشأت ساذجة فى عهد المختار ، وفى أوساط الغلاة ، ثم انقلبت إلى فكرة من «جليل الكلام» فيما يرى الأشعرى .

(جـ) العلم السرى : وبدأت فى عهد محمد بن الحنفية فكرة العلم السرى منسوباً إلى الأئمة . وقد ذكر الشهرستانى : » والسيد كان كثير العلم غزير المعرفة وقّاد الفكر ، مصيب الخاطر فى العواقب ، قد أخبره أمير المؤمنين عن أخبار الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم . وهذا ما يؤمن به أهل السنة ولكن الشيعة فى عصره أضافوا . «أنه كان مستودعاً علم الإمامة حتى سلم الأمانة إلى أهلها ، وما فارق الدنيا حتى أقرها فى مستقرها ، فإنه يعرف الأسرار بحملتها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس [2] . وهذا تصوير« متأخر» . ظهر من الإمامية حين بدأت نظريات الإمام المستقر والمستودع ، وتظهر فى محيط الشيعة الغلاة المتأخرين ثم الإسماعيلية فيميزون بين إمام مستقر وإمام مستودع . فالإمام المستودع من تنتقل إليه الإمامة – وديعة لكى ينقلها إلى إمام مستقر أو تكون الإمامة فى عقب المستقر ، ولا تكون فى عقب المستودع ، فالحسن كان إماماً مستودعاً والحسين هو الإمام المستقر . وتستخدم الشيعة الغلاة ، ثم الإسماعيلية هذه المصطلحات أسوأ استخدام .

ويبدو أن محمد بن الحنفية لم يشغل بمسألة الإمام المستودع والإمام المستقر . لأنه لم يعرفها ولم تظهر فى عهده . ولكن ما شغله هو نسبة العلوم السرية إليه . وقد كره أن يعلم عنه أنه يحوى هذه العلوم فيفتتن الناس فيعلن «إنا والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين [3] » ويقصد بهذا القرآن الكريم .

هذه الأفكار الفلسفية الثلاث التى ظهرت فى عهد محمد بن الحنفية . منسوبة إلى المختارية أحياناً وإلى الكيسانية أحياناً . وقد ظهرت فى الكوفة بالذات ، وعاون عليها بلا شك السبئية التى انتشرت لدى بعض القبائل التى اتخذت التشيع عقيدة لها ومبدأ – كقبيلة عجلة وقبيلة بجيلة وقبيلة كندة . وغلت فى التشيع أشد غلوًّا ، وقد دخلت هذه العقائد فى صورة مخففة فى عقائد الإمامية الاثنى عشرية .

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الشهرستانى : الملل ح ١ ص ١٤١ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٣٢ .

وقد ساد الكوفة – إبان ذلك الوقت–الأساطير الكبرى عن ملحمة قتل الحسين عليه السلام ، ثم عن قتل قتلته ، فالملائكة على الخيل البلق تحارب معهم والحمامات البيض التى تظهر فى الهواء والملائكة تنزل على صورة الحمامات [١] . أساطير ظهرت فى هذا المجتمع الغريب . وكان مع المختار السبأية أى محبو على بن أبى طالب . وهم عرب أقحاح ، والكيسانية . وهم عبيد أهل الكوفة أى الموالى من الفرس «لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال سادتهم» [٢] ، ولابد أن تظهر كل تلك الأساطير فى هذا الجيش الثائر ، وأن يعاون عليه ثقافات عدة وأفكار متباينة . ولكن لم يكن المختار بن أبى عبيد صاحب هذه الأساطير أو منشئها .

أما تطور العقائد الكيسانية بعد ذلك – إلى أن الدين طاعة رجل ، وتأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها على رجال . . .والتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت . . . فلم تظهر فى عهد محمد بن الحنفية . ولم يعرفها المختار .

أما مصادر الأفكار الشيعية الثلاث فى هذا الوقت فهى : المهدى . ويستند الشيعة على الحديث «لا تنقضى الدنيا حتى يخرج رجل من أمتى يواطئ اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجورا» . ولكن من الثابت أن المهدى فكرة تتنازعها الأديان الثلاثة وأتت بها اليهودية والمسيحية والإسلام فهى حظ مشترك بينهم جميعاً . ومن المحتمل أن يكون كعب الأحبار ، كما سنرى بعد . هو الذى أدخلها فى التراث الإسلامى . أما البداء ففكرة يهودية . والعلم السرى فهو فكرة غنوصية .

وأخيراً مات محمد بن الحنفية بشعب رضوى عام ٨١ هـ .

---

(١) الشهرستانى : الملل . . ج ١ ص ٢٤ .

(٢) البغدادى : الفرق . . ص ٢٢ .

الفصل السابع

الشيعة الأبوهاشمية

الإمام أبو هاشم بن محمد بن الحنفية

انتقلت الإمامة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم وللإمام أبى هاشم من المكانة العظمى فى تاريخ الفكر الإسلامى ، ما لا يدانيه أحد من رجالات أهل البيت فى عصره أو حتى من التابعين ، والكشف عن شخصيته من أعقد الأمور وأكثرها إشكالاً : هل كان أبو هاشم رجلا ذكياً من رجال البيت العلوى ، أم كان غنوصياً قائماً .

أما أهل السنة والجماعة فقد اعتبروه إماماً من أئمة المسلمين ، سار على هدى أبيه ، وأخذ يعمل معه فى نشر العقيدة ، وكان له دور فعال – فيما يبدو – فى المكتب الذى أنشأه أبوه لنشر العلم . ثم كان محدثاً كبيراً . أخرج له أصحاب الصحاح الستة ووثقه ابن سعد والنسائى وغيرهما (١). وفى الوقت نفسه يعتبره طاش كبرى زاده – كما قلنا من قبل – شيخاً من شيوخ واصل بن عطاء ، أى يعتبره أول من نادى بالاعتزال . يقول طاش كبرى زاده « أول ما ظهر مذهب الاعتزال وشاع ، إنما ظهر من واصل بن عطاء . أخذ الاعتزال عن الإمام أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب . قيل كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه . كان الإمام أبو هاشم المذكور »(٢) بينما كان أخوه الحسن بن محمد بن الحنفية أول المرجئة وله تصنيف فيه . فنحن إذن أمام محدث ثقة فى رأى المحدثين ومنشئ الاعتزال فى رأى مؤرخى علم الكلام ، وأخوه الحسن منشئ الإرجاء .

أما الشيعة الحنفية فقد رأت طائفة منها أن الإمامة الروحية قد انتقلت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم معلنين أن محمد بن الحنفية « أفضى إلى أبى هاشم بأسرار الكلام ، وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن ، قالوا إن لكل ظاهر باطنا ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العلم حقيقة فى ذلك العالم ، والمنتشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى ، وهو العلم الذى استأثر به على

---

(١) تعليقه (٣) لمحمد بن زاهد الكوثرى على التبصير فى الدين ص ٢٧ .

(٢) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٤٣ .

عليه السلام ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السر إلى ابنه هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم ، فهو الإمام حقاً»(١) نص من أخطر النصوص إن صح فعلا أنه ظهر فى عهد أبى هاشم ، ويبدو منه أن المجامع الغنوصية – فى نواحى الكوفة بدأت تعمل عملها الكبير الذى سيؤدى فى تاريخ الإسلام العقائدى إلى أخطر النتائج ، ولا شك أنه كان هناك فرس كثيرون فى جيش المختار بن أبى عبيد ، بل إن المحمرة كانوا سواد جيش إبراهيم بن الأشتر فى حربه مع عبيد الله بن زياد ، ولا شك أن العقائد الثنوية بدأت تستشرى فى هذا الوسط الغريب . إن انتقال العلم السرى من على إلى محمد بن الحنفية إلى أبى هاشم ، ثم إلى كل من اجتمع فيه هذا العلم سيؤدى إلى نتائج خطيرة فى تاريخ الشيعة ، وسنرى بعد قليل أن هذا العلم – سيخرج من دائرة العلويين إلى دائرة أناس آخرين وبخاصة فى قبيلة عجلة أو قبيلة بجيلة ، يدعم الفكرة بعض الموالى ، وهم يحملون عقائد قديمة كامنة فى نفوسهم . وأخيراً نرى فكرة تطبيق الآفاق على الأنفس . وظهور مصطلحى الظاهر والباطن ، وأن الظاهر لا يفسر ولا يؤول إلا باطناً ، وأيضاً نلمح لأول مرة فكرة الشخص الروحانى ، وأن إليه جماع الدنيا . وستخرج من هنا فكرة أن الدين طاعة رجل ، طالما اجتمعت الآفاق فى نفس رجل ، ثم نرى الفكرة الأفلاطونية التى تقرر أن لكل شىء مثالا ، والتى دخلت ببراعة نادرة فى العقائد الغنوصية ، تدخل أيضاً فى قلب المذهب الشيعى . وكما أخذت الشيعة المعتدلة فيما بعد بكل العقائد التى أعلنها الشيعة فى محمد بن الحنفية ونسبوها إلى الأئمة الاثنى عشر ، دخلت أيضاً العقائد الغنوصية بعد عهد أبى هاشم فى عقائد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية فى صورة معتدلة وفى عقائد الشيعة الإسماعيلية فى صورة مغالية . بل إن منهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وأن لكل مثال فى العالم الآخر مثالاً فى هذا العالم . سيصبح نظرة ميتافيزيقية تكون أساس المذهب الإسماعيلى الميتافيزيقى فى نظرية المثال والممثول ، كما أن فكرة الظاهر والباطن والتأويل والتنزيل ستصبح كلها دعائم للمذهب الإسماعيلى ، بل ومن العجب أن نرى «العدل والتوحيد» وهما أهم عقائد المعتزلة ، وهى التى تنسب أيضاً إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية تدخل وتسيطر على عقائد الاثنى عشرية ، كما تسيطر على عقائد الزيدية ، وتسيطر على عقائد الإسماعيلية وينتمى الغلاة جميعاً فى آرائهم إلى تلك الآراء الشيعية التى ظهرت فى عهد إمامة أبى هاشم . وكان القرامطة أيضاً تلاميذ أمناء للأبى هاشمية .

لم تكن تلك الأفكار الغنوصية هى كل ماظهر فى عهد إمامة أبى هاشم الروحية وإنما ظهرت فكرة خلود الإمام ورجعته ، وهى متصلة بالغلاة وسنبحثها فى موضعها .

وأخيراً نرى أبا هاشم يقدم على سليمان بن عبد الملك ، الخليفة الأموى ، فيقول سليمان لخاصته :

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣ .

« ماكلمت قرشيًّا قط يشبه هذا . وما أظنه إلا الذى كنا نحدث عنه[١] » ويبدو أن الأخبار توالت بأن هناك من سيظهر ويعلن الثورة من آل البيت ، وكان أبو هاشم ذا نشاط جم لسناً عالما ، وكان على صلة بأهل خراسان . بل إن أهل خراسان كانوا يعتبرونه « الإمام » وأنه ورث الوصية عن أبيه[٢] وهذا هو سبب تخوف سليمان بن عبد الملك منه . وفى خلال عودته من دمشق إلى المدينة ، وبعد محادثة سليمان له وتبينه خطورة الرجل . أرسل سليمان من أتباعه من ضربوا له أخبية فى الطريق . وحين استقاهم أبو هاشم . حين مرّ بهم . قدموا له اللبن المسموم . فلما استقر اللبن فى جوفه ، وأحس أنه سم قال لمن معه من أصحابه «أنا والله ميت ، فانظر من هؤلاء» أى هؤلاء الذين قدموا له السم . فنظروا فإذا القوم قد قوضوا أخبيتهم ورحلوا فارين ؛ فطلب أبو هاشم من أتباعه أن يحملوه إلى ابن عمه محمد بن على بن عبد الله بن عباس بأرض الشراة ، فأسرعوا به إليه .

ويعلن العباسيون فيما بعد : أن أبا هاشم أوصى إليهم » ويوردون القصة الآتية : « أنه لما قدم — وهو فى نزعه الأخير على محمد بن على بن عبد الله بن عباس . وقال له : يا ابن عم أنا ميت ، وقد صرت إليك ، وهذه وصية أبى إلى وفيها أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك ، والوقت الذى يكون ذلك والعلامة ، وما ينبغى لكم العمل به ، على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبى طالب عليه السلام ، فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعاتك وأنصارك فاستبطنهم ، فإنى قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك »[٣] ثم طلب منه أن يرسل رسله إلى خراسان ، ثم أبان له عن مراكز الشيعة فى رقعة العالم الإسلامى ، وطلب منه آخر الأمر اختيار الدعاة ، وأن يكونوا اثنى عشر نقيباً ، فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بنى إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم . فإن النبى ﷺ إنما اتخذ اثنى عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك .

ومات أبو هاشم بعد أن دفع الوصية وأسرار الدعوة إلى محمد بن على . وذلك عام « ٩٧ » وسأعود إلى مناقشة هذه الوصية حين أعرض لنشأة الدعوة العباسية والغلو العباسى . ومع أن هذه الوصية لم تكن الوحيدة التى تركها أبو هاشم . ولكننا نستطيع أن نستخلص منها الآراء العامة الشيعية التى ظهرت عنها .

يبدو تماما منها أن أبا هاشم كان منظم الدعوة الشيعية فى العراق وخراسان ، حيث اعتبر فى

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) الأصفهانى : مقاتل الطالبين ص ٩١ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ص ٤١ .

خراسان – وستكون هى موطن الحركة العباسية – الوصى والإمام . ثم استخدم الدعاة والحجج . وأصبح مصطلح الداعى والحجة من أهم مصطلحات الشيعة . وأصبح الدعاة والحجج أعمدة هذه العقيدة سواء لدى العباسيين ثم الاثنى عشرية . ثم الإسماعيلية .

وهو أيضاً الذى استخدم «النقباء» أو من أشار باستخدامهم . وطلب من محمد بن على أن يكون دعامة دعوته اثنى عشر نقيباً . وهو أيضاً الذى نادى بفكرة «العلم السرى» الغنوصى المتوارث عن أبيه عن الإمام على . وأخيراً كان أبو هاشم أول من أخرج الوصية فعلاً من البيت الفاطمى . ولم يكن هو نفسه فاطمياً . وأخرجها أيضاً من البيت العلوى إلى بنى عبد المطلب عامة . وسنرى بعد من الشيعة الغلاة : من يخرجها كلية من آل البيت إلى أناس وأشخاص ليسوا من الفاطميين ولا من العلويين ولا حتى من الطالبيين . وسيؤدى كل هذا إلى نفوذ الغنوص . وبخاصة فى تلك القبيلة الغالية – بنى عجل – أو بنى بجيلة . وسيؤدى أيضاً إلى فكرة التبنى الروحى عند الإسماعيلية وستعمل الدوائر الغنوصية من مانداثية ومزدكية ومانوية . وديصانية . عملها الكبير فى تاريخ العقيدة الشيعية . وعلى أية حال كانت وصية أبى هاشم للعباسيين تكأة لهم فى نشر دعوتهم بخراسان وهى التى قام فيها أبو هاشم بنشاطه السياسى الخطير . أو بمعنى أدق أخذت الراوندية العباسية أعمدتها وأساسها من كيسانية أبى هاشم .

ولكن لم تكن هذه الوصية الوحيدة التى تركها أبو هاشم بل كانت هناك وصية أخطر ، وأدق ، وأستر . فقد ذهبت الكيسانية الخلص إلى أن أبا هاشم عبد الله بن محمد مات وأوصى إلى أخيه على بن محمد بن الحنفية . ويذهب هؤلاء إلى أن أبا هاشم ذهب إلى أرض الشراة ليترك الوصية لأخيه على بن محمد بن الحنفية ولكن العباسيين غيروا الاسم إلى على بن محمد العباسى ، وأن أتباع أبى هاشم الذين كانوا معه لم يتبينوا هذا الخطأ . ثم أوصى على بن محمد بن الحنفية إلى ابنه الحسن بن محمد ، وأوصى الحسن إلى ابنه على بن الحسن . وأوصى على بن الحسين إلى ابنه الحسن بن على . ويقول أبو خلف القمى : «والوصية والإمامة عندهم فى ولد محمد بن الحنفية لا تخرج إلى غيرهم . ومنهم زعموا يكون القائم المهدى ، وهم الكيسانية الخلص الذين غلبوا على هذا الاسم . وهذه الفرقة خاصة تسمى المختارية»(١) هذه الفرقة – الكيسانية الخلص – هى أهم الفرق الشيعية فعلا . فيها بقيت الكيسانية الخالصة ، وقد تابعت نظام المختار الاقتصادى ، فأنشأت المجتمع المعروف باسم المجتمع القرمطى ، وهو مجتمع اقتصادى ذو نزعات اشتراكية أو شيوعية ، وإلى هذه الفرقة تنسب النقابات المشهورة فى الحركة القرمطية، كما أن هذه الفرقة التى بقيت فى الكوفة وفى واسط ، ستطور العقائد المختارية والعقائد الكيسانية ، فتختلط أشد الاختلاط بالغنوصية ، وسينتج عنها كتاب بل كتب دينية منسوبة لأحد

---

(١) أبو خلف القمى : المقالات ص ٣٩ والنوبختى ، فرق الشيعة ص ٣١ .

أولاد ابن الحنفية ، وسيكون « القائم المهدى » هو محمد بن الحنفية أو أحد أولاده وهو المنتظر عند القرامطة جميعاً . وسأثبت إثباتاً قاطعاً أن القرامطة لم يكونوا إسماعيلية ، بل هم الكيسانية الخلص .

أما الوصية الثالثة – فكانت لعلى بن الحسين زين العابدين فقد أعلنت طائفة من الأبى هاشمية أن أبا هاشم قال « إن الوصية له مادام حياً ، فإذا مات رجعت إلى أصلها – يعنى إلى أبيه » ولكن البعض قال بأنه جعل الوصية عند موته – أى محمد بن الحنفية إلى أبى هاشم ، فإذا مات ؛ أن ترد إلى على بن الحسين بن على وهذه الفرقة انصهرت بلا شك فى الإمامية . ولكن على أساس أن الوصية انتقلت من أبى هاشم إلى زين العابدين[١].

ولكن ما لبث أن فاض الأمر وضخم . قام عبد الله بن عمر بن حرب الكندى – وهو من السبأية يدعى الوصية من أبى هاشم ، كما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب يدعيها أيضاً ، ثم ادعى بيان بن سمعان وصية أبى هاشم ، وكلهم أدخل فى باب الغلو ، ومن العجب أن الغلاة جميعاً يظهرون فى إثر أبى هاشم ، وباسمه ، ومن العجب ! أن يظهر المعتزلة أعداء الغلاة وأعداء الغنوصية الشداد فى إثر أبى هاشم وباسمه .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٣٥ .

البـاب الثـانى

الغلاة الأولون

ظهر الغلو فى التشيع فى الكوفة فى جنوب العراق ومنها انتشر شرقاً وغرباً، ولعل مما يسترعى النظر أن يكون فى الكوفة بالذات وليس فى البصرة مثلاً . ومن العجب أيضاً أن يكون التشيع الغالى فى الكوفة ولا يكون فى المدينة حيث قضى على بن أبى طالب الشطر الأكبر من حياته . ويفسر ابن أبى الحديد (١) تفسيراً دقيقاً انتشار التشيع الغالى فى العراق وفارس فيقول «ومما يتضح لى فى الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ أن هؤلاء من العراق وسكان الكوفة وطينة العراق مازالت تنبت أرباب الأهوال وأصحاب النحل البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد وشبه معترضة فى المذاهب ، وقد كان منهم فى أيام الأكاسرة مثل مانى وديصان ومزدك وغيرهم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفة ، وخشونة الطبع ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ولا موقع شبهة ولا مبتدع نحلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة وناشئة من حيث سكن على بالعراق والكوفة لا فى أيام مقامه بالمدينة وهى أكثر عمره . ونحن نعلم أنه وفد على الكوفة — وقد اختطها سعد بن أبى وقاص بعد الفتح — الفرس أو الموالى ، وأسلموا — ولكن كانت عالقة بأذهانهم بعض بقايا أو رواسب من عقائدهم القديمة . أو بمعنى أدق ، أسلم الكثيرون منهم عن يقين وعقيدة ، وبقى الآخرون فى رباط قوى بأديانهم القديمة ، ومن هؤلاء تكونت المراكز الغنوصية فى الكوفة ، ومنهم ظهرت — فيما أرجح — الآراء الغالية .

ولكن إذا كانت الأديان الغنوصية قد وفدت إلى الكوفة ، فهل كان لها آثار من قبل ومراكز فى قلب الجزيرة العربية ؟ إن شاهداً من اليعقوبى يوضح المسألة توضيحا كاملا ؛ ويثبتها حين يتكلم عن أديان العرب ؛ إنه يقرر أنه بجانب بقايا دين إبراهيم ، كان هناك قوم من العرب دخلوا فى دين اليهود .

(١) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة مجلد ٣ ج ٧ ص ١٧٦–١٧٧ وقد وجه نظرى إلى هذا النص تلميذى الدكتور أحمد صبحى .

ودخل آخرون فى دين النصرانية «وتزندق منهم قوم فقالوا بالثنوية» (١) ويذكر «وتزندق حجر بن عمرو الكندى» . فالثنوية إذن كانت موجودة فى كندة . وقد سكنت قبيلة كندة بعد ذلك الكوفة ، وفى هذه القبيلة أيضا نشأ الغلو الشيعى وكان من أخطر الزنادقة أبو سفيان الأموى وعدو الإسلام العتيد . بل إن مسيلمة المتنبئ الكذاب قد تأثر بالثنوية أيضاً . وقد كان للدكتور محمد جابر عبد العال فضل توجيه أنظار الباحثين إلى النص الهام الذى أورده الجاحظ فى كتاب الحيوان «أن مسيلمة طاف قبل التنبى فى الأسواق التى كانت بين دور العجم والعرب يلتقون للتسويق والبيعات كنحو سوق الأبلة وسوق حكة وسوق الأنبار وسوق الحيرة يلتمس الحيل والنيرنجات واختيار المنجمين والمتنبئين» (٢) فكان وراء مسيلمة الكذاب إذن حركة غنوصة كبرى لم يتنبه الباحثون إليها من قبل . وقد سكن الكوفة – بعد اختطاطها – كثيرون ممن ارتدوا ، ثم أسلموا ، وبعض من ارتدوا مع مسيلمة ، وبقوا حتى بعد القضاء على الردة ، أتباعاً مخلصين لمسيلمة ، ومنهم عبادة الحارث أحد بنى عامر بن حنيفة والمعروف بابن النواحة وقد كان عبادة الحارث رسول مسيلمة إلى النبى محمد ﷺ . وقد ذهب إلى الكوفة ولما علم الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود «أمير عمر بن الخطاب على الكوفة» أن عبادة الحارث وجماعة معه ما زالوا يدينون بنبوة مسيلمة ، قام بقتلهم (٣) ، فى الكوفة إذن يجتمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم ، وأتى الصحابة كما أتى النصارى واليهود ، وأقبلت القبائل العربية كما أقبل الموالى ، وانتشرت الزندقة والسحر والنيرنجات . وكان فيها العثمانية كما كان فيها حب على وآل البيت ، وانتشرت الحلقات المتعارضة والمجامع المتنافرة ، ولما استفحل النزاع بين العلوية والعثمانية أطلت رؤوس المجامع السرية والمراكز المتغلغلة الخفية ، وبجانب هذا كله كان هناك اليهود ، وفى العراق ، وفى منفاهم السحيق أنشدوا التلمود وكتبوه ، وكان هناك النصارى أيضا ينادون بتجسد الألوهية ، كان هؤلاء جميعا يرقبون بعيون غادرة سيادة الجنس الآتى من الصحراء بعقيدة بسيطة سهلة يملكون بها أرض الأكاسرة والقياصرة ، وبقوا فى انتظار الفرصة السانحة لتمزيق «الجماعة» وتفريق «الكلمة» وكان النزاع بين الهاشميين والأمويين فرصتهم السانحة .

كان مقدمة الغلو فى عقائد التشيع غلوًّا فى الحب ، والحب يستتبع دائما الأسطورة ، تحيط المحبوب بكل غال . وقد أحبت مجموعة كبيرة من العرب آل البيت وأبناءه وانقسمت شيعة آل البيت أيضاً أقساما : الهاشمية وكانت أخطر فرق الشيعة وأقواها : أتباع أبى هاشم بن محمد بن الحنفية والإمامية :

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ١ ص ٢١٤ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٤ ص ٣٦٩ ، ص ٣٧٠ وانظر أيضاً الدكتور جابر عبد العال حركات الشيعة المتطرفين ص ١٧ .

(٣) الدكتور جابر عبد العال : حركات الشيعة المتطرفين ص ١٨ .

أتباع أبناء الفواطم من حسنيين وحسينيين والجعفرية أتباع أبناء جعفر بن أبى طالب والعباسية أتباع أولاد العباس بن عبد المطلب .

والغلو يتناولهم جميعاً ، ويحيك حولهم أساطير وفوكلورا . كل واحد من هؤلاء كان نقطة البدء أو مركز الدائرة ، ثم يظهره الغالى من الشيعة بوجه خطت عليه مجموعة من الأصباغ المسيحية واليهودية والمانداثية والمانوية والمزدكية والزرادشتية . وقد تنبه الشهرستانى إلى هذا فقال لنا فى نص رائع « الغالية هم الذين غلوا فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفى الغلو والتقصير » وهذا تفسير واضح للغلاة ، ثم يبين مصدر هذا الغلو فيقول : «وإنما نشأت تشبيهاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق ، والنصارى شبهت الخلق بالخالق ، فسرت هذه المشبهات فى أذهان الشيعة الغلاة حتى حكمت بأحكام الإلهية فى حق بعض الأئمة . وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة ، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك»[1] فالشيعة إذن رواد التشبيه والتجسيم ثم انتقل التشبيه والتجسيم إلى فريق من أهل السنة والجماعة . ثم يحدد الشهرستانى بدع الغلاة فيرى أنها محصورة فى أربع : التشبيه والبداء والرجعية والتناسخ ، ثم يرجع هؤلاء الغلاة إلى الفرق الآتية : الخرمية والكودية بأصفهان ، والمزدكية والسنبادية بالرى والدقولية أو المحمرة بأذربيجان ، والمبيضة بما وراء النهر[2] ويرى فى نص آخر أن الغلاة على أصنافها ، كلهم متفقون على التناسخ والحلول . ويقرر أن مصدر التناسخ ليس فقط المجوس المزدكية ، بل إن الغلاة تلقوها أيضاً من براهمة الهند والفلاسفة الصابئة وأن مذهبهم : أن الله قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر بكل شخص من أشخاص البشر وهذا مذهب وحدة الوجود — يخلطه الشهرستانى بمذهب الحلول . ولكنه يستدرك فيقول « وقد يكون الحلول بجزء هو كإشراق الشمس فى كوة كإشراقها على البللور ، وأما الحلول بالكل ، فهو كظهور ملك بشخص أو كشيطان بحيوان . ومراتب التناسخ أربعة : النسخ والمسخ والفسخ والرسخ وأعلى المراتب مرتبة الملكية أو النبوة ، وأسفل المراتب الشيطانية أو الجنية »[3] وأيّا ما كان الأمر ، فقد تنبه الشهرستانى إلى الجوانب المتعددة الغنوصية والفلسفية للغلو ، ووضحها وضوحاً أقرب إلى الحقيقة .

وسنحاول أن نعطى صورة لنشأة الغلو ، محاولين بكل وسيلة أن نفصل نوعين من الغلو : الغلو فى

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٨—٢٨٩ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٨٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١—٢٩٢ .

الحب ، والغلو فى العقيدة ، وإن كان الأول قد أدى إلى الثانى ، فى كثير من الأحوال . ولا يضير المجتمع الإسلامى فى شىء أو العقيدة فى شىء أن يغلو إنسان أو مجموعة فى حب آل البيت ، ولكن يهدم العقيدة أن ينسب لواحد من أهل البيت النبوة أو الألوهية أو أن ينحل علم ما كان وما هو كائن وما سيكون . وأن يؤدى هذا إلى تكوين فرق خطيرة علنية وسرية لتقويض الكيان الإسلامى ، وتفتيت الجماعة ، ولم يستنكر علماء أهل السنة والجماعة حركة التوابين ، كما لا يستنكر الكثيرون منهم حركة المختار ابن أبى عبيد ، بل إننا نرى أبا حنيفة عالم الإسلام الكبير يؤيد زيد بن على فى خروجه على بنى أمية ، ويمده بالمال والعون ، ولم يكن أبو حنيفة شيعياً . بل نرى أيضاً الإمام الشافعى – وهو أبعد الناس عن التشيع ، يردد .

لو كان رفضاً حب آل محمد فليعلم الثقلان إنى رافض

فالمحبة والحب لاضير فيها ، وإنما أدت المحبة والغلو فى المدينة ، وفى الكوفة إلى أخطر النتائج فى المجتمع الإسلامى ، كما أدت إلى أخطر النتائج أيضاً فى التصوير النهائى لعقائد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية – وسنبدأ فى شرح آراء الغلاة حول محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم ، فقد كانت هذه الآراء – كما قلت – أول آراء غالية فى المحيط الشيعى .

الفصل الأول

غلاة الكيسانية الأبى هاشمية

كان لابد أن يفرخ الغلو ويبيض فى الكوفة أولاً وفى المدينة ثانياً ثم ينتقل منهما شرقاً وغرباً . وقد بدأ الغلو فى الكوفة ، وفى أوساط النساء بالذات ، وكانت الكيسانية والمختارية تنشر التشيع وتملأ به منتديات الكوفة ومجامعها ، وكان أثر الكيسانية النافذ فى نساء الكوفة .

وقد شغلت نساء الكوفة بالتشيع أكثر من الرجال ، واستجابت لعقيدة الحب الكبرى فى عترة آل البيت ، حبًّا ملك عليهن كل شيء . وقد بدأ الغلو فى بيت امرأتين كوفيتين من الكيسانية هما : هند بنت المتكلفة الناعطية وليلى بنت قمامة المزنية الناعطية . يقول الطبرى : «إن هند بنت المتكلفة الناعطية كان يجتمع إليها كل غال من الشيعة فيتحدث فى بيتها ، وفى بيت ليلى بنت قمامة المزنية . . » ويبدو أن هذين البيتين كانا أول حلقات أو ندوات التشيع الغالى ، ويبدو أن هذا قد حدث بعد مقتل الحسين عليه السلام . ويذهب نص الطبرى إلى أن «أخاها – أخو ليلى بنت قمامة – رفاعة بن قمامة كان من شيعة على وكان مقتصداً فكانت لا تحبه» فكان هناك إذن فى هذا الوقت المبكر شيعة معتدلة وشيعة غلاة . وذهب أبو عبد الله الجدلى ويزيد بن شراحيل – ونحن نعلم أن أبا عبد الله الجدلى كان على جيش المختار الموفد لمكة لإنقاذ محمد بن الحنفية من براثن عبد الله بن الزبير – إلى محمد بن الحنفية وأخبره خبر هاتين «المرأتين وغلوهما فى حب آل بيت رسول الله، وخبر الغلاة الآخرين «وهم أبو الأحراس المرادى والبطين الليثى وأبو الحارث الكندى» (١) .

ولا تخبرنا الروايات التاريخية الشيء الكبير عن هند بنت المتكلفة الناعطية . وكان عبد الله بن نوف من تلامذتها ، وعبد الله بن نوف كان أمير السرية التى خرجت بأمر المختار لقتال مصعب بن الزبير . فهند إذن عاصرت هى وليلى بنت قمامة تلك الأحداث العظمى التى حدثت فى الكوفة من قتل الحسين إلى حركة التوابين إلى قيام المختار – وكانت الشعلة الكبرى فى إذكاء الشعور الشيعى الغالى ، ويذكر الطبرى أن عبد الله بن نوف خرج من بيت هند بنت المتكلفة حين خرج الناس إلى حروراء لقتال مصعب – وهو يقول «يوم الأربعاء ، ترفعت السماء ونزل القضاء ، بهزيمة الأعداء» فلما انهزم قال له عبد الله بن

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٧٣١–٧٣٣ .

شريك النهدى وكان من رجاله وقد سمع مقاله « ألم تزعم لنا يابن نوف أنا سنهزمهم قال : « أوما قرأت فى كتاب الله ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١) . وهنا يتضح لنا أنه أخذ هذا القول وتعلمه فى بيت هند وقد أدى هذا القول إلى فكرة « البداء » إحدى الأفكار الشيعية الكبرى ، والتى أخذت بعد ذلك مكانها الكبير فى عقائد الشيعة الغالية والمعتدلة على السواء . فبيت هند المتكلفة وبيت ليلى بنت قمامة كانا ندوتين لتفسير القرآن على طريقة الشيعة – وأيضاً ميداناً لأفكار غنوصية وغيرها .

ونستنتج أيضاً من كتاب محمد بن الحنفية لشيعته فى الكوفة حين علم بأمر هند وليلى – أن فكرة العلم السرى الغيبى قد نسبت إلى أهل هذا البيت النبوى – يقول محمد بن الحنفية فى خطابه « من محمد ابن على – إلى من بالكوفة من شيعتنا : أما بعد : فاخرجوا إلى المجالس والمساجد ، فاذكروا الله علانية وسرًّا ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة ، فإن خشيتم على أنفسكم ، فاحذروا على دينكم الكذابين وأكثروا الصلاة والصيام والدعاء ، فإنه ليس لأحد من الخلق يملك لأحد ضرًّا ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، وكل نفس بما كسبت فاعملوا صالحا وقدموا لأنفسكم حسنا ولا تكونوا مع الغافلين » والخطاب يدل دلالة واضحة على النهى لما يتردد فى الكوفة وفى بيتى هند وليلى من أفكار لم يرد محمد بن الحنفية أن تنتشر بين الشيعة .

أما ليلى بنت قمامة الناعطية ، فهى كما قلنا ، أخت رفاعة بن قمامة الناعطى ، نسبة إلى ناعط حصن فى رأس حميل بناحية اليمن ، ونحن نعلم أن التشيع فشا فى اليمن ، « وكان الناعطيون من أصحاب على فى الكوفة وطائفة من طوائف جيشه فى اليمن » (٢) وفى هذا الوسط الشيعى نشأت ليلى الناعطية ، وكانت ذا عقل مدبر بحيث اعتقد بشار بن برد فيما بعد ، أنها عادت فى التناسخ إلى نحلة ، والنحلة مشهورة فى سلسلة التناسخية بتعقلها ، ويرد عليه صفوان الأنصارى :

أتجعل ليلى الناعطية نحلة ... وكل عريق فى التناسخ والرد
عليك بدعد والصدوف وفرتنى ... وحاضنتى كسف وزاملتى هند

عاشت ليلى الناعطية وهند المذكورة فى آخر البيت فى عقائد الشيعة حتى عهد بشار (٣) . – بل ويذكر صفوان الأنصارى أيضاً حاضنة الكسف . أى حاضنة أبى منصور العجلى كما سنبين فيما بعد – واسمها الميلاء ويقول أعشى همدان (٤):

---

(١) نفس المصدر السابق ونفس الصحائف .

(٢) الجاحظ : البخلاء – ص ٣٥٠ ، ٣١٠ ، (تعليق ٥٦ لمحقق الكتاب) .

(٣) الجاحظ : البيان والتبين ج ١ ص ٤٠ .

(٤) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٢٦٦ ، ج ٦ ص ٣٨٩ .

إذا سرت فى عجل فسر فى صحابة وكندة فاحذرها حذارك للخسف
وفى شيعة الأعمى خناق وغيلة وقشب(١) وإعمال لجندلة القذف
وكلهم شر على أن رأسهم حميدة والميلاء حاضنة الكسف

وسنعود إلى هذه الأبيات فيما بعد . ولكن يهمنا الآن أنه ذكر حميدة – ويذكر الجاحظ « أنها كانت من أصحاب ليلى الناعطية ولها رياسة فى الشيعة (٢) – والميلاء حاضنة أبى منصور . وهذا يدل دلالة واضحة على أن ليلى كانت قد توفيت – حين قام أبو منصور العجلى بحركته الرهيبة .

ويبدو أن تلميذتى ليلى – حميدة والميلاء – أثرتا فيه أثراً كبيراً – وسنراه أيضاً يفسر « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم » بأنه هو الكسف ، ونحن نعلم أن عبد الله بن نوف من قبل حاول تفسير « يمحوا الله ما يشاء ويثبت » بالبداء ، فالصورة واحدة ، صورة غنوصية لا خلاف فيها . وأخيراً فإن ليلى الناعطية كانت متنسكة زاهدة حاول الجاحظ فى البخلاء أن يسخر من تزهدها وتنسكها فاعتبرها فى محاولة مضحكة من البخلاء « وأما ليلى الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة ، فإنها ما زالت ترقع قميصا لها وتلبسه ، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو ، وذهب جميع الكساء ، وسمعت قول الشاعر :

البس قميصك ما اهتديت لجيبه فإذا أضلك جيبه فاستبدل .

فقالت إنى إذن لخرقاء – أنا والله أخوص الفتق وفتق الفتق ، وأرقع الخرق وخرق الخرق (٣) ، ولعل هذا مدخلا من مداخل التصوف ومنشأ لفكرة المرقعة الصوفية ، أو الخرقة التى أخذت مكانها الكبير فى التصوف بعد ذلك . ولعل الجاحظ فيما بعد – قد أدرك حقيقة ليلى الناعطية فقال فى نص آخر « من النساك والزهاد من نساء الغالية ليلى الناعطية والصدوف وهند » (٤)

وسيؤدى تنسك النساء الكيسانيات إلى ظهور زنادقة الصوفية ، وهم الذين سيلعبون فى أوائل التصوف دوراً هامًّا .

وبعد : فهذا أوائل التشيع الغالى عند النساء الكيسانيات . ولكن ما لبث التشيع الغالى أن يأخذ وجهة منظمة على يد الكيسانية . فيعلن فى الكوفة خلود محمد بن الحنفية ورجعته ، أى يعلن بصورة قاطعة مهديته .

---

(١) قسر عقق الحيوان القشب : يخلط الطعام بالسم ، وجندلة : واحدة الجندل وهو الحجارة .
(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٣٩٠–٣٩١ .
(٣) الجاحظ : البخلاء ص ٣٧ .
(٤) الجاحظ : البيان ... ج ١ ص ١٨٣ .

وأقدم من نادى بالرجعة من فرق الشيعة : هم «أصحاب أبي عمرة من المختارية» ويعنى هذا أن فكرة الرجعة نشأت لدى موالى الكوفة الكيسانية من أصحاب أبى عمرة بعدمقتل كل من المختار وأبى عمرة ، ورأى هؤلاء الموالى أن إمامهم الذى أحبوه وقاتلوا وقتلوا لأجله — محمد بن الحنفية — قد لجأ إلى عبد الملك بن مروان وبايعه . فلجأوا هم إلى دورهم تجمعهم محبته ، وموالاته ، ويمضهم ويقلقهم بايعته لعدوه ولعدوهم . ثم مات محمد بن الحنفية ، فتولوا ابنه أبا هاشم . ثم مات أبو هاشم . فأعلنوا «أنهم فى التيه» لا إمام لهم ولا قيم ولا مرشد . إن عليا — فى نظرهم — أوصى إلى الحسن ، والحسن وصى إلى الحسين وأوصى الحسين إلى محمد بن الحنفية . «فكان العلم والمقنع فى دار التقية» ولكن محمد بن الحنفية أذنب حين لجأ إلى عبد الملك بن مروان الجبار وبايعه . فعاقب الله الإمام وأخرجه من داره بأصحابه وأهله وأوغله فى جبل وعر ، وغار مظلم . إن الله فعل هذا من قبل مع الأنبياء والرسل المقربين عقوبة لهم على معصيتهم . فأخرج آدم من الجنة وأهبطه إلى الأرض عقوبة له على معصيته ، كما عاقب ذا النون حين أذنب فقذف به فى بطن الحوت ، فكانت تلك عقوبته ، وكذلك فعل الله فى محمد بن الحنفية ، فغيبه فى ظلمات شعب رضوى عقوبة على معصيته . وحين حضره الأمر ، وعلم أن الله أراد إخراجه إلى الشعب وإيلاجه فى الكهف ، «نبذ الأمر إلى ابنه عبد الله أبى هاشم» وكان الإمام يعلم أنه لا عقب له ، ولم يكن بحضرته من بنى على سواه . فكانت الإمامة وديعة عند الإمام الصامت أبى هاشم إذ غيب الله الإمام الناطق . فلما مات أبو هاشم ولم يعقب ، ولم يوص بها إلى أحد من رهطه ، لأن الله أراد أن يعيدها إلى محمد بن الحنفية بعد تمام العقوبة وقدر المدة والاستحقاق ، وقد فعل الله هذا من قبل مع ذى النون ، فأخرجه من حبسه — من بطن الحوت ، وأعاده إلى عز نبوته ، «والناس اليوم فى التيه يدخلون فيما يخرجون منه ، ويخرجون مما يدخلون فيه ، لا يعرفون حجة من غيره ، ولا حقا من شبهة ، ولا يقينا من خبرة ، حتى يبعث الله الإمام العالم ، محمد المكنى بأبى القاسم ، على رغم الراغم ، والدهر المتفاقم ، فيملك الأرض جميعاً ، ويقطعها من حماية قطعا» ويقول أبو خلف القمى إنه ينقل إلينا ألفاظهم بنفسها ، ثم يذكر أنهم تغالوا فى على غلوا تجاوزوا به غلو السبأية[1].

ومن الواضح تماماً أن الموالى من أتباع أبى عمرة شعروا بحسرة شديدة بعد فشل حركة المختارية والكيسانية . فعادوا كما قلت يعيشون تحت سياط بنى أمية ، وكان المختار قد سوى بينهم وبين العرب . كما أنهم أيضاً آمنوا بأحقية آل البيت فى الإمامة ، وأصبحت لهم فى عنق محمد بن الحنفية بيعة لم يتخلوا عنها على الإطلاق وبقوا على ولائهم له حتى بعد مبايعته لعبد الملك بن مروان ، كما بايع من قبل

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ / ٢٣

يزيد بن معاوية . فى هذا الجو القاتم ، عاشوا يرسمون الأسطورة حول مهديهم ، وأطل اليهود — كالعادة — يوحون إليهم «أنهم فى التيه» مثلهم مثل اليهود تماماً ، وأن المهدى مختف لا يظهر بسبب معاصيه ، كما أنهم لا يعرفون الحق «من الشبهة» ولا «اليقين من الخبرة» وهنا نداء واضح لرفع التكاليف ، والتحلل من أوامر الشريعة ونواهيها [١] . ثم إننا نرى أيضاً أول ظهور لفكرة الإمام الناطق والإمام الصامت ، تلك الفكرة التى ستلعب دوراً هامًّا لدى الغلاة ، كما ستؤثر أثراً نفاذاً لدى الإسماعيلية .

كانت عقيدة الرجعة — فيما يبدو — تنتشر إذن فى الكوفة وفى المدينة وقد أخذت تتطور فى صورة أسطورية لدى طائفتين — الكربية — أتباع أبى كرب الضرير : وقد ذهب إلى أن محمد بن الحنفية حى لم يمت ، وأنه فى جبل رضوى وعنده عين من ماء وعين من عسل ، يأخذ منهما رزقه ، وعن يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه من أعدائه إلى وقت خروجه وهو الإمام المنتظر [٢] . أما الطائفة الثانية فهى الحربية — أتباع عبد الله بن عمر بن حرب الكندى . كان عبد الله بن حرب من قبيلة كندة الغالية . وكان أول أمره أبا هاشميًّا ثم ادعى أن الوصية خرجت من أبى هاشم إليه . فهو الإمام غير أن أقدم مصدر شيعى يحدثنا بأن ابن حرب هو أول منَ نادى بأن الأئمة أربعة أسباط بهم يسقى الخلق الغيث ، ويقاتل العدو ويظهر الحجة وتموت الضلالة ، من تبعهم لحق ومن تأخر عنهم محق . وإليهم المرجع وهم كسفينة نوح من دخلها صدق ونجا ، ومن تأخر عنها غرق وهوى . وتستند الحربية فى هذا على خطبة على ، عند زوال التقية عنده فى أول خطبة خطبها . أى حينما بويع للخلافة ، فنطق للمسلمين بحقيقة أهل البيت فقال «ألا إن عترتى وأطايب أرومتى أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً . ألا وإنا أهل بيت ، من علم الله علمنا ، ومن قول الله سمعنا ، إن تتبعوا أثرنا ، تهتدوا ببصائرنا ، وإن تدبروا عنا يهلككم الله بأيدينا ، معنا راية الحق ، من تبعها لحق ، ومن تأخر عنها محق ، ألا وبنا تدرك ترة كل مؤمن ، وبنا يخلع الله ربقة الغل من أعناقكم ، ألا بنا تفتح ، وبنا تختم ،

هؤلاء هم الأسباط الأربعة ، عترة أهل البيت . «سبط إيمان وأمن ، وهو على ، وسبط نور وتسنيم وهو الحسن ، وسبط حجة ومصيبة وهو الحسين . وسبط أخير «هو الذى يبلغ الأسباب ، ويركب السحاب ويزكى الرياح ، وينفخ المد ، ويسد باب الروم ، ويقيم أود الحكم ، ويبلغ الأرض السابعة ، ويقرب منه الحق ، وينأى عن الجور ، وهو الإمام المنتظر محمد بن على بن الحنفية إمام الحق» وهكذا أحب هؤلاء الكربية والحربية محمد بن الحنفية ، فلما لم يتحقق لهم شىء من آمالهم فيه فى حياته ، ومات عياناً ، لم يصدقوا بموته ، وقالوا إنه لم يمت . لقد وضع مثله فى مضجعه ، ومضى

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ / ٢٣ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ٢٧ .

مهاجراً . كما وضع الرسول محمد ﷺ عليًا فى مضجعه وهاجر . وهكذا فعل محمد بن الحنفية ، هاجر إلى الله ، فغيبه فى جبل رضوى بين أسدين ونمرين تؤنسه الملائكة ، ويحرسه النمران [١]

وهكذا أعلن الكربية من ناحية والحربية من ناحية أخرى غيبة محمد بن الحنفية ، ونادوا برجعته . وسرعان ما التفت مجموعة من الشعراء حول الكربية والحربية تنادى بآرائهم ، بحيث تكون أدب كيسانى ، ينشر الآراء الكيسانية فى العالم الإسلامى . وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء ، الشاعر الغزلى المشهور كثير بن عبد الرحمن المشهور بكثير عزة (المتوفى عام ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م) ويبدو أنه كان كربيًا وحربيًا ، ولكنه اشتهر بالكيسانية على العموم . وصور لنا فى شعره قصة الأسباط [٢] :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبتــــه كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء

وهنا إعلان بالغيبة الكيسانية ، وستنتقل الفكرة بنفسها إلى الإمامية الاثنى عشرية – ينسبونها إلى الإمام الثانى عشر . ثم يؤكد إمامية محمد بن الحنفية فى أبيات جميلة رقيقة [٣] .

مامت يامهدى يابن المهتدى أنت الذى يرضى به ويرتجى
أنت ابن خير الناس من بعد النبى أنت إمام الحق لسنا نمترى
يابن على سر ومن مثل على سر بنا مصاحبا لا ننثنى
حتى نجاوز ذات كرب وبلى ثم أقبل جارك الله العلى
بين لنا وانصح لنا ياابن الوصى بين لنا من ديننا ما نبتغى

أما قصة الأسباط فقد وردت فى القرآن ، ولكن اقتباسها وتطبيقها على الأربعة من أهل البيت يسترعى النظر فى أوساط الكوفة ، ومن قبل نادى السبأية بمهدية على فى المدائن . فالمنزع يهودى بحت ، ولا شك أن السبأية بدأت تختلط بالكيسانية فى الكوفة . ويبين لنا كثير – المصدر اليهودى ببساطة ، حين يقول [٤] :

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ٤ ص ١٧ / ٢٨ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ٢٢ .

(٣) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٩ .

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٤٣٣ .

هو المهدى خبرناه كعب أخو الأحبار فى الحقب الخوالى
أقر الله عينى إذ دعانى أمين الله يلطف فى السؤال
وأثنى فى هواى علىَّ خيراً وساءل عن بنى وكيف حالى

فكعب الأحبار إذن – تلك الشخصية اليهودية الغريبة فى العصور الأولى من الإسلام ، هى التى أخبرت بمهدية ابن الحنفية ، أنه وجد عنده فى الكتاب مهدية محمد بن الحنفية ، اختفاؤه أو غيبته – ثم رجعته . عبد الله بن سبأ والسبأية . . . قصة الأسباط – كعب الأحبار . لا جرم بعد ذلك أن يعلن أهل السنة أن منشأ الرفض يهودى .

ويرى ابن خلدون أيضاً أن مصدر فكرة الواقعية هم أتباع أبى هاشم بن محمد الحنفية . والوقفية عنده هم القائلون بإمامة واحد بعينه ، والقول بحياته الخالدة فهو حى لم يمت ، ولكنه غائب عن أعين الناس . ويستشهد الواقفية على هذا بقصة الخضر ، وهو الشخصية القرآنية التى أعلن المسلمون خلوده ، وأن الله أظهره لموسى ليعلمه معنى الظاهر والباطن «وما فعلته عن أمرى» ثم ليفسر له الفرق بين «عالم الغيب وعالم الشهادة» ويرى ابن خلدون أن أول إمام اعتقد الشيعة بغيبته هو على بن أبى طالب ، وأن السبأية ، ثم الكيسانية من بعدها اعتقدت أنه فى السحاب والرعد صوته ، والبرق سوطه ، ثم قالوا مثله فى محمد بن الحنفية . أو بمعنى آخر إن السبئية قد انصهرت فى بوتقة الكيسانية ، أو أن الفكرة لم تأخذ صورتها الكاملة إلا ممثلة فى محمد بن الحنفية وأن ملامح المهدى تتضح فيه أكثر من اتضاحها فى أبيه على بن أبى طالب . ونسيت مهدية على بن أبى طالب وعاشت مهدية محمد بن الحنفية . وأخذت تستمد أصولها من القرآن . فليس فى القرآن فقط . قصة الخضر الخالد . بل قصة الكثيرين ممن ماتوا ثم حيوا .

ويستشهد الكيسانية لذلك بما وقع فى قصة أهل الكهف ، أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام . ثم بعثه ، قال كم لبثت قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام» وقتيل بنى إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى أمروا بذبحها . . فأحياه الله وأرشد عن قاتله «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها . والله مخرج ماكنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون»(١) ويعبر عن هذا الرأى السيد الحميرى (الشاعر المشهور المتوفى عام ١٧٣ هـ – ٧٨٩ – ٧٩٠ م) فى شعره :

(١) ابن خلدون : مقدمة ٥٣١–٥٣٩–وانظر هامش (٦٠٢) (٦٠٣) للدكتور على عبد الواحد .

إذا ما المرء شاب له قذال وعلله المواشط بـــالخضاب
فقد ذهبت بشاشته وأودى فقم ياصاح نبك على الشباب
إلى يوم تئوب الناس فيه إلى دنياهمو قبل الحساب
فليس بعائد مافات منه إلى أحد إلى يوم الإياب
مناد أن دين الله حق وما أنا فى النشور بذى ارتياب
كذاك الله أخبر عن أناس حيوا من بعد درس فى التراب

أما هذا الإمام الذى سيعود – عند السيد الحميرى – فهو محمد بن الحنفية :

ياشعب رضوى ما لمن بك لا يرى حتى متى تخفى وأنت قريب
يا ابن الوصى ويا سمى محمد وكنيه نفسى عليك تذوب
لو غاب عنا عمر نوح أيقنت منا النفوس بأنه سيؤوب

بل إن السيد الحميرى ليفتتن أشد الافتتان بمحمد بن الحنفية فيطلق أشعاره .

سنين وأشهرا ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين وحفان تروح خلال ربد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترساً بحد
أمن به الردى فرتعن طورا بلا خوف لدى مرعى وورد

فمحمد بن الحنفية فى رأى الكيسانية خلد على الزمن – يقيم بشعب رضوى بين النمور والأسود ، تحف به الظباء والشياه ، ولا تجرؤ هذه النمور والأسود أن تفترسها ، إنها آمنة طالما كانت تحيا فى رحاب المهدى الوصى وتأخذ فكرة الأسباط فى عقائد الكيسانية مكانها الكبير وتضخم شيئاً فشيئاً ، وتستمد الكيسانية من التراث اليهودى – فهو عند اليهود » لاوى ويهوذا ويوسف وبن يامين ، وبنو هاشم أسباط مثل هؤلاء ، وفيهم الإمامة والملك فى أربعة .

ويفسر الكيسانية التين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، بأنها رموز وكنايات على الأئمة الأربعة ، فالتين على والزيتون الحسن ، وطورسينين الحسين . وهذا البلد الأمين محمد بن الحنفية . إنهم عمد الإسلام وقوامه . فأقسم الله بهم . وجعل الله البلد الأمين محمد بن الحنفية ، لأنه آخرهم فى الوصية ، وأنه المهدى المنتظر ، يخرج من البلد الأمين ، فى عدد أهل بدر ، فيقتل الجبابر ، ويهدم دمشق – بلد الأمويين – ويكون معه الرايات السود ، فإذا خرج من الغار ، تقدمه الأسد ، وتأخره

النيران ، والملائكة على يمينه وشيعته على يساره . . . آمال أسطورية ترددت فى حلقات الكيسانية .
ويعلنها السيد الحميرى فى شعره :

ألا حى المقيم بشعب رضوى — وأهد له بمنزله السلاما
ألا قل للوصى فدتك نفسى — أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا — وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا — مقامك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت — ولا وارت له أرض عظاما
وإن له به لمقيل صدق — وأندية تحدثه كراما
لقد أمسى المجاور شعب رضوى — تراجعه الملائكة الكلاما
تمام مودة المهدى حتى — ترى راياته تجرى نظاما
ترى راياته بالشام سودا — وبين النقع تحسبها قتاما
فيهدم ما بنى الأحزاب فيه — ويلقى أهله منه غراما[1]
جزاء بالذى عملوا وتفنى — جبابرهم وينتقم انتقاما

ضخمت أسطورة المهدى إذن ، وتناقلها شعراء الكيسانية فى أرجاء العالم الإسلامى . ويبدو أن الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية كانوا يدعون بالمهديين بمعنى هداة . أو بمعنى من وضعهم الله فى طريق الهدى ، ثم وضعت لها الكيسانية معنى خاصًا هو خلود الإمام ورجعته .

ولقد عاشت الرجعة كما قلنا قوية صارخة لدى الكيسانية وبخاصة حين تنتقل إلى القرمطة ، وقد انتقلت إلى طوائف الشيعة المختلفة . وأصبحت ركناً من أركان التشيع – بل ديناً – غير أن أبرز آثار الكيسانية إنما كانت فى تصوير فكرة الغيبة عند الشيعة الاثنى عشرية . وقد تنبه ابن خلدون من قبل إلى هذا فقال « مثله غلاة الإمامية فيهم وخصوصاً الاثنى عشرية ، يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم . وهو محمد بن الحسن العسكرى ويلقبونه المهدى دخل فى سرداب بدارهم بالحلة ، وتغيب حين اعتقل مع أمه ذهاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً[2] » وهكذا أثرت عقائد الكربية فى الشيعة الاثنى عشرية ، إنها أخذت نفس الفكرة وصبغت بها قصة الإمام الثانى عشر ، وكما ينتظر الكربية الموتى ، تنتظر الشيعة الاثنى عشرية .

وقد انتقلت عقائد الكربية إلى المدينة ، وقام بأمر هذه الطائفة حمزة بن عمار البربرى ، ولكنه

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٣٠–٤٣ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ج ٢ ص ٥٣١ .

ما لبث أن خرج عليها حين غلا فى محمد بن الحنفية ، وذهب إلى نوع من ألوهيته ، كما أعلن أنه هو - أى حمزة - نبى وبهذا يكون إمام الشيعة الأبى هاشمية . وقد أدى به إعلانه لنبوته - وأنه يتزل عليه سبعة أسباب من السماء يفتح بها الأرض ويملكها - بأنْ نسخ بعض أحكام الشريعة الإسلامية - فتزوج ابنته ، وأحل جميع المحارم (١). وقد تبعه فى دعوته بعض أهل المدينة والكوفة . وكان حمزة البربرى يعاصر الإمام محمد الباقر . وقد علم بأمره ولكن ما لبث رجلان من أهل الكوفة أن آمنا بكلامه ونشر آراءه وهما «صائد النهدى ، وبيان بن سمعان» . وقد تبرأ منهما أيضاً الإمام جعفر الصادق فيما يذكر الكشى والحلى - وكانا أيضاً من جملة السبعة الملعونين ، كما كان منهم حمزة البربرى .

أما صائد النهدى فقد اعتبره الإمام جعفر الصادق من جملة ممن تنزل عليهم الشياطين من قوله تعالى «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم» وهم سبعة فى رأى الصادق . أحدهم : صائد النهدى ، وقد أعلن الصادق أيضاً أن صائداً ممن كذب عليه (٢).

أما بيان بن سمعان التيمى ، فهو الشخصية الأخرى ، والتى نالت أهمية أكثر من أهمية صائد فى تاريخ العقيدة الشيعية الغالية ، ويذكر المؤرخون أنه بيان بن سمعان النهدى (٣) ويقول الإيجى صاحب المواقف إنه بيان بن سمعان التيمى النهدى اليمنى (٤) فهو إذن من تميم من اليمن . ويذكر ابن حجر العسقلانى أنه ظهر فى العراق بعد المائة . وكان بيان تباناً يتبن التبن فى الكوفة (٥) . كان بيان - كما قلت - تلميذاً لحمزة البربرى . أخذ منه فكرة قدسية الإمام ، ونبوة وكيله . ومن الخطأ القول بأن الغلاة اعتبروا الأئمة آلهة . وإنما قالوا بحلول جزء إلهى فى الإمام فهو شخص مقدس مصون . وقد ذهب بيان إلى تجسد نوع من القداسة فى أبى هاشم ، فلما مات أبو هاشم أعلن أن أبا هاشم نبى بياناً» أى أعلنه نبياً . وتأول فى ذلك قول الله عز وجل «هذا بيان للناس وهدى» فهو إذن البيان المذكور فى القرآن والمبشر به بوصاية أبى هاشم . ونحن نرى أن التفسير الغنوصى للقرآن - الذى بدأ فى بيت كل من ليلى الناعطية وهند المزنية يعود ثانية ، وسيفعل أبو منصور العجلى نفس الشيء ، ويستمر هذا النوع من التفسير لدى الإمامية الاثنى عشرية ولدى الإسماعيلية ونراه لدى البابية والبهائية فى عصورنا الحديثة .

أعلن بيان نبوته ، وأرسل إلى الإمام الباقر أبى جعفر محمد بن على بن الحسين يدعوه إلى نفسه وإلى

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة : ص ٢٨ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٧٥ .

(٣) البغدادى : الفرق : ص ١٣٦ والرازى : اعتقادات ص ٥٧ .

(٤) الإيجى : المواقف ج ٥ ص ٣ .

(٥) ابن حجر العسقلانى : لسان الميزان ج ٢ ص ٦٥ .

الإقرار بنبوته . ويقول له «أسلم تسلم ، وترتق فى سلم ، وتنتج وتغنم ، فإنك لا تدرى أين يجعل الله النبوة والرسالة ، وما على الرسول إلا البلاغ ، وقد أعذر من أنذر»(١) .

وبدأ خطر بيان يشتد ويكبر فى المجتمع الإسلامى فى الكوفة ، ويبدو أنه نسخ بعض شريعة محمد ﷺ (٢) ولما رأى خالد بن عبد الله القسرى حاكم الأمويين على الكوفة أن أمر بيان قد استفحل وأن طائفة اجتمعت عليه ودانوا بمذهبه (٣) ، قبض عليه هو وخمسة عشر رجلا من أتباعه ، وشدهم فى أطناب القصب وألهب فيهم النار ، وقد أفلت منهم بيان ، ثم التفت فرأى أصحابه يحترقون ، فكر راجعاً إلى أن ألقى نفسه فى النار(٤). وبعد مقتله ادعى أتباعه ألوهيته .

آراء بيان بن سمعان :

اتخذ بيان بن سمعان - كما قلت - التفسير الباطنى للقرآن أساساً لدعوته ، ففسر «هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين» بأنه هو البيان ، وقال : أنا البيان وأنا الهدى والموعظة وسنرى هذا التفسير فيما بعد على صورة أوسع لدى الباطنية فى تفسيرهم للقرآن . وسيتأثر به «الباب» مؤسس البابية فى العصور الحديثة ويسمى كتابه «بالبيان» . غير أن أهم فكرة نادى بها بيان هو التشبيه ثم التجسيم ، أما التشبيه فيرى الرازى «كان بدء ظهور التشبيه فى الإسلام من الروافض مثل بيان (٥) بن سمعان الذى كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح ، ثم شبه الله بإنسان نورانى ذى جسد «إن الله الأزلى رجل من نور ، وهو على صورة إنسان عضواً فعضواً جزءاً فجزءاً وهو يهلك كله إلا وجهه . كل شىء هالك إلا وجهه (٦)» وقرر أن على بن أبى طالب قد حل فيه جزء إلهى واتحد بجسده وهذه فكرة مسيحية ، ثم جعل فى على عنصراً إبستمولوجيا ، أنه كان يعلم الغيب ويخبر عن الملاحم وصح خبر ما أخبر به ، وأنه كان يحارب الكفار بعلمه الغيبى وله النصرة والظفر . ويذكر قصة خلع على لباب حصن خيبر . ويورد حديثاً لعلى يقول فيه ، والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركه غذائية ولكن بقوة ملكوتية بنور بها مضيئة(٧)» .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٣٣ وص ٣٧ النوبختى : فرق الشيعة ص : ٣
(٢) البغدادى : الفرق ص ١١٥.
(٣) الشهرستانى : الملل ٢٤٧
(٤) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٨
(٥) الرازى : اعتقادات ص ٦٣ ، ٦٤
(٦) الشهرستانى : الملل حـ ص ١٤٢ والبندارى الفرق ص ١٤٥
(٧) الملطى : التنبيه ص ١٤٨

ويفسر بيان بن سمعان القوة الملكوتية فى نفس على كالمصباح فى المشكاة ، والنور الإلهى كالنور فى المصباح ، وبهذا يفسر تفسيراً غنوصياً – فكرة نور المشكاة القرآنية المشهورة . ويمضى فى التفسير مؤيداً للتجسد . فعلى الذى حل فيه جزء إلهى ، يظهر فى بعض الأزمان ، وهو الذى يأتى فى ظلل الغمام ، والرعد صوته والبرق تبسمه ، ويؤيد قوله بالآية القرآنية «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام» .

ثم ادعى بيان الحلول أو بمعنى أدق ادعى هذا أتباعه من بعده «وكذلك البيانية زعمت أن روح الله دارت فى الأنبياء والأئمة حتى انتهت إلى على ثم دارت إلى محمد بن الحنفية ، ثم صارت إلى ابنه أبى هاشم ثم حلت بعده فى بيان بن سمعان (١)» ولعل فكرة التناسخ بعد ذلك أدخلت فى عقائد البيانية ، فانتقل إلى بيان الجزء الإلهى بنوع من التناسخ ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة ، وذلك الجزء هو الذى استحق به آدم سجود الملائكة .(٢)

فبيان إذن حلولى يدين بدورة الحلول ، وهى فكرة مسيحية غنوصية ، وهو يفسر بهذه الفكرة الغنوصية قصة سجود الملائكة لآدم وهى القصة القرآنية المشهورة . ثم تكونت الفرقة السمعانية بعد ذلك وقالت بنبوته أو بألوهيته واعتنقت التناسخ (٣) .

وتظهر فكرة الاسم الأعظم على يد بيان ، وكان يزعم أنه يعرفه وأنه يهزم به الجيوش ويدعو به الزهرة فتجيبه (٤) . ويؤكد هذا أيضاً الأشعرى «وادعى بيان أنه يدعو الزهرة فتجيبه ، وأنه يفعل بالاسم الأعظم (٥)» وستأخذ فكرة الاسم المعظم وأسراره مكاناً كبيراً لدى الصوفية من بعده وبخاصة حين يخلطون التصوف بالكيمياء وهذا واضح لدى سهل بن عبد الله العسكرى والحلاج وذى النون المصرى وغيرهم . ويذكر البغدادى أنه حين ظفر به خالد بن عبد الله القسرى قال له «إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذى تعرفه ، فاهزم به أعوانى عنك» (٦) . وحين قتل بيان بن سمعان عام ١١٩ هـ ، أعلنت السمعانية ألوهيته كما قلت ، وأن الوصية باقية فيه ، وأنه لم يكن له أن يوصى بها إلى عقبه (٧) .

وينبغى قبل أن نختم حديثنا أن نذكر ملاحظة قيمة للدكتور جابر عبد العال عن خطأ نسبة نظرية تجسد الألوهية إلى بيان بن سمعان ، وأن هذه الفكرة نشأت متأخرة لدى الخطابية ، وإحدى فرقها : وهى العميرية – أصحاب عمر بن بيان العجلى . ويرى أن الرواة خلطوا بين بيان بن سمعان وبين عمير

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٥٤
(٢) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ٢ ص ٢٤٦
(٣) الملطى : التنبيه ص ٣٠
(٤) البغدادى : الفرق ص ١٥٤
(٥) الأشعرى : مقالات حـ ١ ص ٦٠٥
(٦) البغدادى : الفرق . ص ١٤٦
(٧) الأشعرى : مقالات حـ ١ ص ٢٣

ابن بيان هذا ، وأن عمير بن بيان هو الذى نادى متابعة لشيخه أبى الخطاب الأسدى بالتناسخ وألوهية الأئمة ، وقد قتل عمير بن بيان على يد يزيد بن عمر بن هبيرة فى كناسة الكوفة بعد أعوام قليلة من مقتل بيان بن سمعان (١) . فتشابه ظروف الرجلين ومقتلها أدى إلى هذا الخلط بين آراء الرجلين . من المحتمل هذا ، ولكن الدكتور محمد جابر عبد العال يذكر أن من الجائز أن تكون البيانية بعد منشئها قد تأثروابفرق الخطابية لا بعدها ، وهذا ما يهمنا ، فسواء صدرت الآراء عن بيان بن سمعان أو عن أتباعه ، فإنها تكون الإطار العام للفرقة ، ثم إن من الصعوبة أن نبين الفروق الدقيقة بين عقائد هذه الفرق وكلها تتصل بفكرة واحدة : هى قداسة أهل البيت أولاً ومن والاهم ثانياً .

ومن المحتمل أن تكون الأفكار ظهرت بادئ ذى بدء فى دائرتهم ، ثم انتقلت إلى العميرية أو المغيرية أو المنصورية أو الخطابية ، أو أن تكون الآراء قد ظهرت أولاً عند هؤلاء الأخيرين — ثم انتقلت إلى البيانية . وكل حاكها حول إمامه ومن الثابت أن البيانية أو السمعانية قد عاشت بعد بيان .

---

(١) دكتور محمد جابر عبد العال : حركات الشيعة المتطرفين ص ٣٣ ، ٣٤

الفصل الثانى

غلاة الإماميين

١ - المغيرة بن سعيد البجيلى

وعاد الغلو ينسج خيوطه حول أبناء فاطمة عليها السلام على يد المغيرة بن سعيد البجيلى أبو عبد الله الكوفى. والمغيرة مولى لبجيلة فهو إذن على الأرجح فارسى الأصل. وقد نشأ فى الكوفة فى قبيلة بجيلة الغالية، وقيل إنه كان مولى «لخالد بن عبد الله القسرى[1] أمير الأمويين على العراق ولكن هذا بعيد، فالرجل من موالى بجيله وهم من أحباء بيت الفواطم. وفى هذا الوسط الغالى نشأ وتشرب حب على وقد سأله الشعبى : ما فعل حب على. قال : فى العظم والعصب والعروق.

وتردد الرجل على الإمام محمد بن على بن الحسين المعروف بالباقر وكان أول الأمر من خاصة مريديه وأخلص أتباعه. ويقول المغيرة : سألت أبا جعفر كيف أصبحت . . . ؟ قال : أصبحت برسول الله خائفا، وأصبح الناس كلهم برسول الله آمنين. ثم بدأت مرحلة الغلو والابتعاد عن الباقر شيئاً فشيئاً. يقول الأعمش «أول من سمعته ينتقص أبا بكر وعمر – المغيرة المصلوب» فكأنه أول من استن البراءة من الشيخين، وأعلن لعنهما، وأخذ يفسر الآيات على طريقة الغنوصيين الباطنية، فذكر أيضا أن الآيات كناية عن رجال : فالآية : إن الله يأمر بالعدل والإحسان «أى فاطمة» وإيتاء ذى القربى : «الحسن والحسين» وينهى عن الفحشاء «أبى بكر» والمنكر «عمر» وسنجد تأويل هذه الآية بهذه الصورة نفسها لدى غلاة الإسماعيلية، بل إننا نجد أيضا لدى الإسماعيلية المعتدلة ما يشبه هذا التفسير. ثم أخذ يغلو فى على أشد غلو فقال : كان على يحيى الموتى. وسئل عن هذا فقال : لو شاء أحيا عادا وثمود وقرونا من ذلك كثيراً، وكذلك زعم أن عليا رد البصر حين مسح على عين أعمى [2] فلم ينسب إذن المغيرة لنفسه إحياء الموتى، كما ذكر بعض المؤرخين بل نسبها للإمام على، وسنرى أنه ينكر قدرته هو على إحياء الموتى أمام خالد بن عبد الله القسرى [3]. إنما تضخمت الأسطورة فى هذا

(١) الجاحظ : الحيوان جـ ٢ ص ٢٦١ وكذلك الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٩٥.

(٢) لسان الميزان جـ ٦ ص ٧٥ – ٧٨ ابن قتيبة عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٩.

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ٥ ص ٦٧.

الوقت حول علي ، وعمل الرواة من الشيعة على نشر فضائله وأعماله الخارقة .

وكان يدعى العلم الغيبي وقد سأله الأعمش عن هذا فقال : أتيت بعض أهل البيت فسقاني شربة من ماء فما بقي شيء إلا علمته[١] ويذكر ابن الأثير أن المغيرة ذهب إلى محمد الباقر وقال له : أقرر أنك تعلم الغيب حتى أجبي لك العراق . فنهره وطرده ، وجاء ابنه بعد ذلك إلى جعفر الصادق فقال له مثل ذلك فقال : أعوذ بالله[٢] .

ويقال إنه ادعى بعد خلافه مع جعفر الصادق أن الإمام بعد محمد بن علي بن الحسين هو محمد بن عبد الله بن الحسن الخارج بالمدينة ، ولما قتل عام ١٤٥ زعم أنه حي لم يمت[٣] وهذا خطأ فقد قتل المغيرة قبل مقتل محمد بن عبد الله بن الحسن ولكن يبدو أن أتباعه فعلوا هذا من بعده . ثم يقال : إنه ادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد الباقر ثم ادعى النبوة[٤] وأنه قتل على ادعائها[٥] ويذكر المؤرخون أنه تعلم السحر وكان ساحراً[٦] . وقال الأعمش : وكان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور[٧] . ويقول ابن قتيبة ، وكان سبأيا وصاحب نيرنجات[٨] . وأنه تعلم السحر من يهودية تعيش بالكوفة . وكان اليهود أصحاب سحر ونيرنجات .

وأسعر المغيرة النيران بالكوفة – كما يقول ابن حجر – بالتمويه والشعبذة . وخرج في سبعة نفر – وكانوا يدعون بالوصفاء[٩] وأجابه خلق كثير . وكان خالد يخطب على منبر الكوفة حين بلغه خروج المغيرة وصحبه فارتاع وهو يخطب ، وصاح : أطعموني ماء ، فعيره يحيى بن نوفل وقال :

وقلت لما أصابك أطعموني ... شراباً ثم بلت على السرير

لأعلاج ثمانيـــــة وشيخ ... كبير السن ذي بصر ضرير[١٠]

والأعلاج الثمانية هم الوصفاء السبعة والمغيرة ، وقد كان المغيرة أعمى البصر ، وقد قبض عليهم خالد بن عبد الله القسري – وقتل أحدهم – ثم طلب من المغيرة أن يحييه ، فقال والله ما أحيي الموتى . ثم استتابه خالد فأبى ، بل على العكس دعاه إلى الإيمان به ، فأحرقه خالد بن عبد الله عام ١١٩ .

وينسب بعض المؤرخين – كالنوبختي[١١] – مصطلح الرفض إلى المغيرة بن سعيد . وذلك لقوله بمهدية محمد بن عبد الله بن الحسن وأنه القائم وأنه حي لم يمت . يقول النوبختي « وأظهر المغيرة بن

---

(١) ابن حجر : لسان الميزان جـ ٦ – ص ٧٥ – ٧٨

(٢) ابـن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٦٧

(٣) الشهر ستاني : الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٥ – ٢٨

(٤) الشهر ستاني : الملل والنحل جـ ٢ ص ٢٩٥

(٥) ابن حجر : لسان الميزان جـ ٦ ص ٧٥ – ٧٨

(٦) نفس المصدر ونفس الصحائف

(٧) الطبري : جـ ٣ ص ١٤٩

(٨) ابن قتيبة . عيون الأخبار جـ ٢ ص ١٤٩

(٩) الطبري : تاريخ جـ ٢ ص ١٦٤

(١٠) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٦٧

(١١) النوبختي . فرق الشيعة ص ٦٣

سعيد المقالة بذلك ، فبرئت منه الشيعة – أصحاب أبى عبد الله جعفر بن محمد – ورفضوه فزعم أنهم رافضة وأنه هو الذى سماهم بهذا الاسم (١). وهذا خطأ لتقدم مقتل المغيرة على مقتل كل من محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن . لكن من الثابت أن المغيرية بقيت بعد مقتل مؤسسها ، ويبدو أنها هى التى رفعته إلى مقام النبوة بعد وفاته ، وأنها هى التى قالت بمهدية محمد بن عبد الله ، وأنها احتضنت فكرة التناسخ .

آراء المغيرة :

ادعاء النبوة : ذهب كثيرون من مؤرخى العقائد إلى أن المغيرة ادعى النبوة ، ودعواه علمه بالاسم الأعظم وأنه يحيى الموتى به ويهزم الجيوش (٢) والعقيدة كما رأينا بدأت لدى بيان ، ولكنها غير واضحة لدى المغيرة ، بل يبدو أنه لم ينسب النبوة حتى لعلى بن أبى طالب . إنه غلا فى حق على عليه السلام غلوًا لا يعتقده عاقل ، كما يقول الشهرستانى ، ولكن تراقى الأمر به إلى زعمه أنه رسول نبى وأن جبريل يأتيه بالوحى (٣)– فلا يثبته النقد الداخلى للنصوص . وقد سأله الأعمش عن فضائل على فقال : إنك لا تحتملها . قلت : بلى . فذكر آدم صلوات الله عليه – فقال : على خير منه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء . فقال : على خير منهم . حتى انتهى إلى محمد ﷺ فقال : على مثله . فقلت : كذبت عليك لعنة الله : قال قد أعلمتك أنك لا تحتملها .

التجسيم : إن الله تعالى عنده جسم هو «صورة رجل من نور ، وعلى رأسه تاج من نور وله أعضاء وجوف وقلب ينبع منه الحكمة . وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء ، وأن الألف منها مثال قدميه أو موضع قدمه لاعوجاجها ، والعين على صورة عينه ، وشبه الهاء بالعورة قائلاً : لو رأيت موضعها منه لرأيتم أمراً عظيماً . وهذا أثر واضح للكبالا اليهودية . وأعلن المغيرة أنه رأى الله .

وتكلم المغيرة عن بدء الخلق . فقال إن الله كان وحده لاشىء معه ، فلما أراد أن يخلق العالم ، نطق بالاسم الأعظم ، فطار ذلك الاسم فوق رأسه ، ووقع تاجا عليها وذلك قوله «سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى» وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج ، ثم إنه بعد وقوع التاج على رأسه ، كتب بإصبعه على كفه أعمال عباده من المعاصى والطاعات ثم نظر فيها ، فغضب من معاصيهم فعرق ، فاجتمع من عرقه بحران أحدهما مظلم مالح ، والآخر عذب نير ، فاطلع فى البحر النير ، فأبصر ظله ،

(١) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٩٥
(٢) الشهرستانى . الملل والنحل جـ ١ ص ٢٩٥
(٣) النوبختى فرق الشيعة ص ٦٣

فانتزع عينى ظله ، فخلق منها الشمس والقمر ، وأفنى باقى ظله ، وقال . لا ينبغى أن يكون معى إله غيرى ، ثم خلق الخلق كله من البحرين ، فخلق المؤمنين (الشيعة) من البحر النير العذب ، والكفرة (وهم أعداء الشيعة) من البحر المظلم المالح ، وأن الله خلق الناس قبل أجسادهم ، فكان أول ما خلق فيها ظل محمد ، وذلك قوله «قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين» ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس ، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظالمه ، فأبين ذلك ، فعرض ذلك على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يحتمل ظلم على وضمن له أن يعينه على الغدر به على شرط أن يجعل له الخلافة من بعده ، ففعل أبو بكر ذلك . فذلك تأويل قوله «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً» والظلوم الجهول فى تفسيره هو أبوبكر ، وتأول فى عمر قول الله تعالى «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك» والشيطان عنده عمر[1] .

هذه هى آراء المغيرية ، يكاد المؤرخون أن يذكروها فى صورة متشابهة . وسياقها : غلو فى حب على بن أبى طالب عليه السلام . ثم تصوير أسطورى له ، اتخذ الغنوصية مادة لآرائه وبالأخص المانوية والماندائية : فنرى النور والظلمة واضحتين فى تفسيره للأعمال الإنسانية ، وردها إلى هذين المصدرين الثنويين . ثم يكاد يكون المغيرة بن سعيد أول من أثار النزاع حول الحديث المشهور «كان الله ولا شىء معه» فيستخدمه فى بدء الخلق ، ثم يصور البدء هذا التصوير الماندائى المشهور . ويمزجه باليهودية القبالية «ويفسر حقيقة على تفسيراً مسيحياً ، فعلى هو المسيح الثانى . ويضع أصول «الحقيقة المحمدية» أوكلمة التكوين أو الإنسان الأول . وهى ذات آثار بعيدة فى التصوف الإسلامى فيما بعد . ونجد فكرة الاسم الأعظم عنده . وقد آمن كثيرون من صوفية الإسلام بعد ذلك بفكرة «الاسم الأعظم» ونسب إلى الخضر معلم موسى الكبير .

فعل المغيرة كل هذا فى ضوء تأويل قرآنى ، فاتحاً هذا الباب الكبير ، فاتحاً له بشدة وعمق . متخذاً حروفية الفيثاغورية الجديدة – مختلطة أيضاً بالغنوصية – أداة له . ثم نراه يرمز للرسول ولعلى ولأبى بكر ولعمر بآيات قرآنية – وبهذا فتح الطريق للحروفيين ، كما صور الله على صورة حروف الهجاء وسيتتبع الصوفية هذا فيما بعد ، فالألف ، والباء ، والهاء لها معان خاصة ومصطلح معين عندهم . ثم فتح الطريق أيضاً للعدديين ، فاعتبر حوارييه سبعة وهو ثامنهم . ويبدو أن المغيرة لم يكن رجل إباحة . فلم يبطل المحرمات ، بل كان أقرب إلى الزهد ، وهو يختلف فى هذا عن بيان معاصره ، وعن أبى منصور

(١) الأشعرى . مقالات الاسلاميين جـ ص ٧ ، ٨ والبغدادى : الفرق ص ١٤٦ ، والشهرستانى الملل والنحل حـ ١ ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

العجلى ، وأبى الخطاب الأسدى وغيرهم ممن تلوه،وقتل المغيرة بن سعيد عام ١١٩هـ بعد أن أثار المجتمع الإسلامى فى العراق كله . ولكن المغيرية عاشت قوية . إذ تولاها من بعده جابر بن يزيد الجعفى – فيما يذكر الأشعرى[١] ـ وأنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة . ومن العجيب أن ينسب جابر بن يزيد الجعفى إلى المغيرية . وكان جابر بن يزيد من أصحاب أبى جعفر الباقر وأبى عبد الله الصادق وهو عند الشيعة الإمامية المعتدلة محدث ثقة جليل بل إن صاحب شذرات الذهب يذكر أنه كان من كبار المحدثين بالكوفة ، وأن البعض وثقوه والبعض ضعفوه[٢] كما ذكره أيضاً ابن سعد فى طبقاته والذهبى فى ميزان الاعتدال . وأخرج له أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه . وأيا ما كان الأمر فإن مؤرخى الفرق يذكرون «وكان جابر الجعفى على هذا المذهب وادعى وصية المغيرة إليه بذلك» [٣] فلما مات جابرادعى وصيته أبو بكر الأعور الهجرى القتات وأخبرهم أن جعفراً لا يموت . فنحن إذن قد عرفنا أسماء اثنين من أوصيائه . ولكن يبدو أن المغيرة بن سعيد قبل قتله كان يأمرهم أنه فعل هذا بعد موت الإمام الباقر . وقال المغيرة لأتباعه : إن جبرائيل وميكائيل يبايعانه بين الركن والمقام ، ويحيى له سبعة عشر رجلاً من الشيعة ، يعطى كل رجل منهم حرفاً واحداً من حروف الاسم الأعظم ، فيهزمون الجيوش ويملكون الأرض . فلما خرج محمد بن عبد الله وقتل ، قال بعض أصحاب المغيرة ، ومنهم أبو بكر القتات : لم يكن الخارج محمد بن عبد الله وإنما كان شيطاناً تمثل فى صورته ، وإن محمداً سيخرج ويملك. تحقيقاً لنبوءة المغيرة[٤] مع أن النوبختى يذكر أن المغيرية – أصحاب المغيرة بن سعيد – يتوقفون فى مسألة الرجعة فيقولون «لا ننكر لله قدرة ولا نؤمن بالرجعة ولا نكذب بها . وإن شاء الله تعالى أن يفعل فعل» [٥] ويذكر النوبختى أيضاً أن المغيرية نزلوا إلى القول بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن وتولوه وأثبتوا إمامته ، فلما قتل ، صاروا لا إمام لهم ولا وصى ، ولا يثبتون لأحد إمامة بعده [٦] وهذا يدل أيضاً على اختلاف المغيرية فيما بينها ، فالبعض ثبت على إمامة الباقر والبعض تولى محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية . ودخل فى نطاق فرقته المحمدية [٧]. وهذا يعنى أن المغيرية بقيت حتى عام ١٤٥ هـ وهى السنة التى قتل فيها محمد بن عبد الله بن الحسن فى المدينة . فعقائد المغيرية

(١) الأشعرى . مقالات الإسلاميين حـ ١ ص ٨

(٢) ابن العماد ، شذرات الذهب حـ ١ ص ١٧٥ وانظر النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٥

(٣) البغدادى . الفرق ص ١٤٨

(٤) الأشعرى : مقالات حـ ٢ ص ٩ ، والبغدادى : الفرق ص ١٤٨ والاسفراييني التبصير فى الدين ص ٢١
وانظر النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٥

(٥) النوبختى . الشيعة ص ٥١

(٦) نفس المصدر ص ٥٩

(٧) الاسفراييني . التبصير فى الدين ص ٢١

كانت منتشرة فى المدينة وينسب إلى المغيرية أيضاً القول بالتناسخ (١) وهذا ما لم يقل به المغيرة فى حياته .

ودخل أتباع المغيرة بعد ذلك فى عداد الخناقين من أصحاب أبى منصور العجلى وشاركوا فى قتل مخالفيهم بالخنق ، وستتكلم عن هذا فيما بعد . وذكرهم أعشى همدان فى قصيدته :

إذا سرت فى عجل فسر فى صحابة وكندة فاحذرها حذارك للخسف
وفى شيعة الأعمى خناق وغيلة وقشب وإعمال لجندلة القذف (٢)

والأعمى المشار إليه فى البيت هو المغيرة بن سعيد . وسنورد الأبيات نفسها ونقوم بشرحها حين نتكلم عن المنصورية والخناقين . ولكن ما يهمنا الآن أن أتباع المغيرية استمروا فى نشاطهم زمناً طويلاً ، ينشرون فكرة الخنق التى نادى بها أبو منصور العجلى ويتبنونها ، نكاية فى أعدائهم ، وانتقاماً لإمامها المقتول .

٢ – أبو منصور العجلى (المقتول عام ١٢١هـ)

ينتمى أبو منصور العجلى إلى قبيلة عجلة أيضاً . وهو ليس بمولى ، بل هو عربى . نشأ فى حضانة الميلاء صاحبة ليلى الناعطية . وغذته بالتشيع والغلو . وليس لدينا ما يؤكد صلته ببيان ، ولكن من المرجح أنه اتصل بالمغيرة بن سعيد ، غير أنه لا يذكر بين « الوصفاء السبعة » الذين خرجوا مع المغيرة ، وقتلهم خالد بن عبد الله القسرى . فلم يكن إذن أحد الحواريين المقربين للمغيرة . وكان هو أيضاً من المقربين للإمام محمد بن على الباقر ، فهو إذن من غلاة الشيعة الإمامية المنتسبين إلى الفواطم . ولا شك أنه تأثر بالمغيرة ، ويذكر الرازى أن أتباع أبى منصور العجلى كانوا على مقالة المغيرية . وزادوا عليهم بأن أباحوا الزنا واللواطة (٣) أما النوبختى فيقول « إن أبا منصور هذا من أهل الكوفة من عبد القيس وله فيها داروكان منشؤه بالبادية ، وكان أميا لا يقرأ » (٤) ونحن لا نقر القول بأميته ، فقد نشأ فى بيت الميلاء ، وهى امرأة شيعية من تلامذة ليلى الناعطية ، علاوة على أن التفسيرات المتعددة التى قدمها لنا أبو منصور العجلى تدل على سعة اطلاعه بالتراث الإسلامى وبالتراث الفلسفى غنوصياً كان أو مسيحياً أو يهودياً . ثم إنه كان يتقن اللغة الفارسية .

---

(١) النوبختى . الشيعة ص ٦٣
(٢) الجاحظ : الحيوان حـ ٢ ص ١٦٦ وحـ ٦ ص ٣٨٩
(٣) الرازى : اعتقادات . . ص ٨٥
(٤) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٨

اتصل أبو منصور بالإمام الباقر ، ولكن يبدو أنه اختلف مع الإمام جعفر الصادق بعد وفاة الباقر . وتذكر المصادر الشيعية أن الإمام جعفر قد لعنه ثلاثا (١). وأداه اختلافه مع الإمام جعفر الصادق إلى إعلان إمامته هو.

يرى أبو منصور العجلى أن آل محمد هم السماء ، والشيعة هم الأرض . وأنه هو الصلة بين الاثنين . عرج به إلى السماء فمسح الله على رأسه ، وقال له بالسريانية أى بنى – أنزل فبلغ عنى ، ثم أنزله الله على الأرض ، وهو الكسف الساقط من السماء «وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مكروم» وهو الكلمة . ويمين أصحابه إذا حلفوا – ألا والكلمة . وهذا يدل على تأثير المسيحية فيه . ومما يؤيد هذا أنه قال : إن عيسى أول من خلق الله من خلقه ثم على .

وأعلن أبو منصور أن النبوة لا تنقطع أبداً بل هى متجددة دائماً . وأن على بن أبى طالب كان نبيًّا ورسولاً ، وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وأنه هو أيضاً نبى ورسول ثم «النبوة فى ستة من ولدى يكونون بعدى أنبياء آخرهم القائم» .

وذكر أبو منصور العجلى أن الوحى يأتيه ، وأن الله بعث محمداً بالتنزيل وبعثه بالتأويل . وبدأ يتأول التصورات الدينية فى القرآن فالجنة «رجل أمرنا بموالاته وهو إمام الوقت وأن النار رجل أمرنا بمعاداته وهو خصم الإمام ، وتأول المحرمات كلها على أسماء رجال أمرنا الله تعالى بمعاداتهم وتأول الفرائض كلها على أسماء رجال أمرنا الله تعالى بموالاتهم . ويرى الشهرستانى «إنما مقصودهم هو حمل الفرائض والمحرمات على أسماء رجال . وإن ظفر بذلك الرجل وعرفه ؛ فقد سقط عنه التكليف . إذ وصل إلى الجنة وبلغ إلى الكمال»(٢) .

ويذكر الأشعرى أنه استحل النساء والمحارم ، وأحل ذلك لأصحابه . وزعم أن الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر والميسر – وغيرها – من المحارم والآثام حلال ولم يحرمها الله ، وإنما هذه الأشياء أسماء رجال ، حرم الله ولايتهم ، وتأول فى ذلك قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» .

وأخيراً – أعلن أبو منصور العجلى الجهاد الخفى . وهو خنق واغتيال من يخالفه فى مذهبه ، يقول . «من خالفكم فهو كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفى» وقد أخذت حركة الخنق مظهراً عنيفاً كما سنبين فيما بعد .

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٨ وانظر الكشى ص ١٩٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٩٩ والأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٩ / ١٠ والبغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٤٩ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٣٨ والأسفرايينى التبصير ص ٧٣ وابن تيمية منهاج السنة : جا ص ٢٣٨ / ٢٣٩ .

وبعد : فقد كانت لآراء أبى منصور العجلى أكبر الأثر فى المجتمع الكوفى فى زمنه ثم فى المجتمع الشيعى عامة . لقد أعلن فتح باب الوحى وعدم انقطاعه بعد محمد ﷺ ، فالوحى متجدد دائماً ، والنبوة مستمرة غير منقطعة ، ومهد السبيل بفكرته هذه لغلاة الإسماعيلية من بعده ، ثم البهائية فى العصور الحديثة . فأعلنوا أن الوحى لا ينقطع أبداً وهذه فكرة غنوصية ترى أنه لا ينغلق باب الغنوص أبداً .

وفتح أبو منصور العجلى باب التأويل ؛ وقد ولج منه الإسماعيلية والقرامطة فيما بعد . وقد نسخ الشريعة الإسلامية بتأويل ، وأقام المجتمع المتحرر المتجرد من كل الشرائع . وقد تابعه الإسماعيليون أيضاً ، ونادى بقدم الكلمة ، وبأولية عيسى بن مريم فى الخلق ، وهذا تفكير متأثر بالغنوصية المسيحية . ثم إنه أيضاً كان عددياً » .

وكما لاحظ الدكتور كامل الشيبى أن عدد أنبيائه هو اثنا عشر . وبهذا أثر فى المذهب الإمامى الاثنى عشرى الذى حدد عدد الأئمة باثنى عشر . والاهتمام بالعدد هو أثر للفيثاغورية الحديثة .

وضع أبو منصور فكرة المعراج الروحى ، وسيأخذه الصوفية ويصبح جزءاً من طقوسهم .

وأخيراً – نادى أبو منصور العجلى بنفسه مسيحاً ثانياً ، فقد عرج به إلى السماء ومسح الله على رأسه ، ولعل هذه الفكرة هى التى أوحت إليه بأن المسيح هو أول خلق الله . وأخيراً – كانت دعوته إلى خنق مخالفيه مؤدية إلى أفظع النتائج فقد تكونت فرقة الخناقين من أتباعه ومن أتباع المغيرة – كما سنرى فيما بعد . وحين ظفر به يوسف بن عمر الثقفى والى الكوفة من لدن هشام بن عبد الملك قتله ، وقتل من أصحابه عدداً كبيراً . وانقسم أصحابه إلى فريقين : الحسينية : وقد نقلوا الوصاية إلى ابنه الحسين بن أبى منصور العجلى ، واعتبروه الإمام بعده (١) ، وقد قام الحسين بن أبى منصور بقيادة الخناقين قيادة عنيفة ناشراً الذعر فى العالم الإسلامى ، وأعلن هو أيضاً نبوته واستجاب له بشر كثير ، حتى تمكن منه عمر الخناق أحد رجال الخليفة المهدى ، وأرسله للخليفة المهدى ، وقد استتابه المهدى فأبى ، بل أقر بعقيدته وبمهديته ، فعذبه المهدى وصلبه ، بعد أن استولى على أمواله الكثيرة . ثم تتبع الكثيرين من أتباعه ، فقتلهم (٢). أما الفرقة الثانية – من أتباع أبى منصور العجلى ؛ فيقال لها المحمدية ، فقد مالت إلى تثبيت إمامة محمد بن عبد الله بن الحسن وقالوا : إنما أوصى أبو جعفر إلى أبى منصور دون بنى هاشم . كما أوصى موسى إلى يوشع بن نون دون ولده – ودون ولد هارون . ثم الإمامة بعد أبى منصور

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٣٤

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٨ ، ٣٩

راجعة إلى ولد على مرة أخرى ، كما رجع الأمر بعد يوشع بن نون إلى ولد هارون . وقالوا : وإنما أوصى موسى إلى يوشع بن نون دون ولده ودون ولد هارون لئلا يكون بين البطنين اختلاف فيكون يوشع هو الذى يدل على صاحب الأمر . فكذلك أبو جعفر أوصى إلى أبى منصور . ونقلوا عن أبى منصور أنه قال : إنما أنا مستودع ، وليس لى أن أضعها فى غيرى . ولكن القائم هو محمد بن عبد الله (١) ، ونحن نتساءل هل ظهر حقاً مصطلح الإمام المستودع فى عهده ؛ هذا الاصطلاح الذى سيأخذ مكانه لدى الشيعة الإسماعيلية ، وهل ظهر كذلك مصطلح «القائم» وهو مصطلح أيضاً يظهر لدى الإسماعيلية .

ويبدو أن دعواه التى نادى فيها بالوكالة دعت إلى قيام فرقة مشهورة هى الكاملية نسبة إلى أبى كميل الشيعى تجادله جدالاً عنيفاً . إن الكميلية لا تجيز الوكالة فى الإمامة وتقول بأنه لابد من إمام صامت وناطق ولابد من علم يمد الناس أعناقهم إليه .

وقد أنكر أبو منصور هذا . وقد ذكر هذا النزاع أبو السرى معدان الشميطى – فيقول :

إن ذا الكسف ضد آل كميل وكميل رذل من الأرذال
تركا بالعراق داء دويا ضل منه تلطف المحتال
منهم جاعل العسيب إماما وفريق يرضى زند الشمال
وفريق يقول إنا براء من على وجندب بلال
وبراء من الذى سلم الأمر على قدرة بغير قتال
وفريق يدين بالنص حتما وفريق يدين بالإهمال (٢)

وقد أدت دعوة أبى منصور العجلى إلى خنق مخالفيه ؛ إلى قيام أتباعه الكثيرين بهذه الحركة على نطاق واسع ، وخلقت ذعراً كبيراً فى العالم الإسلامى وبخاصة فى العراق وفارس وبادية الشام . واشتهرت قبائل بجيلة وعجل وكندة بهذا الأمر ويقول سفيان بن عيينة :

إذا مـــــا سرك العيش فلا تمرر على كنـــــده

وكان أكثر الخناقين من المنصورية بالكوفة ، وقد اشتهر فيها رجل من بنى كندة بالخنق هو أبو قطنة أو قطبة الخناق من المنصورية ، وكانت داره بالكوفة ، وكان يدعى أنه مولى لهم وقد كان أحد شخصيات الفرقة المنصورية المشهورين بالخنق ، وقد قتل أبو قطنة وصلب ، وقد شبه باليربوع – ويقول الشاعر :

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٥

(٢) الجاحظ : الحيوان جـ ٢ ص ٢٦٩

انزل أبا عمرو على حد قرية تزيغ إلى سهل كثير الخلائق
وخذ نفق اليربوع واسلك سبيله ودعني إلى ناطق وابن ناطق
وكن كأبى قطن على كل زائغ له منزل فى ضيق العرض شاهق (١)

وانتقلت الخناقية أيضاً إلى المدينة . ويقول الجاحظ «وممن كان يختنق الناس بالمدينة عدية المدينة الصفراء (٢) ، وفى نص آخر «وكان بالكوفة ممن يأكل لحوم الناس عدية المدنية الصفراء «وانتشرت الحركة فى البصرة يتزعمها قصاب غالى ورادويه (٣) » .

وقد ذكر أعشى همدان فى شعر نقله إلينا حماد الراوية المرمين بالخنق من القبائل وأصحاب النحل والتأويلات ، وكيف يصنع الخنادق . ويقول :

إذا سرت فى عجل فسر فى صحابة وكندة فاحذرها حذارك للخسف
وفى شيعة الأعمى زيار وغيلة وقشب وإعمال لجندلة القذف
وكلهم شر على أن رأسهم حميدة والميلاء حاضنة الكسف
متى كنت فى حيى بجيلة فاستمع فإن لهم قصفاً يدل على حتف
إذا اعتزموا يوماً على خنق زائر تداعوا عليه بالنباح وبالعزف (٤)

ونلاحظ هنا أنه حدد القبائل التى تقوم بالخنق وهى بنو عجل وبنو بجيلة وكندة — وهى القبائل التى اشتهرت بالغلو ، وحدد الغالية من هؤلاء — وهم أتباع الكسف أبى منصور العجلى والأعمى « المغيرة بن سعيد البجيلى » وأضاف إلى قائمة الخناقين امرأتين — هما حميدة والميلاء . وأما عملية القتل نفسها : فقد حددها بالسم والخنق ورضخ رؤوس الناس بالحجارة .

وقد ذكر أبو معدان الأعمى الشميطى طرق الخناقين فقال :

خشبى وكافر سبائى حربى وناسخ قتال
تلك تيمية وهاتيك صمت ثم دين المغيرة المغتال
خنق مرة وشم بخار ثم رضخ بالجندل المتوالى (٥)

---

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٦ ص ٣٨٨ ، ٣٨٩ وابن قتيبة ، عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٧ .
(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٦ ص ٣٨٨ .
(٣) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٦٣٧٪ ج ٦ ص ٣٨٨ .
(٤) الجاحظ : الحيوان ج ٦ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ج ٢ ص ٢٦١ .
وابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٦ . وقد شرح الأستاذ عبد السلام هارون كلمات الشعر . فالقشب : خلط السم بالطعام وزيار الخنق. وإعمال لجندلة القذف : أى رضخ رؤوس الناس بالحجارة .
(٥) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٧٠ .

خشبي أى أنهم كان يقتلون بالخشب – وقد عرف ابن حزم الخشبية بأنهم فرقة من المنصورية تقتل بالخشب فقط . ثم هم عنده سبأية ينسخون الدين ويقتلون . أما معنى تيمية – أى أنهم كانوا يقتلون من يتولى التيمى – أى أبا بكر – فيقتلون مدعين أنه تيمى ويقتلون الآخر لأنه صامت لا يدلى برأيه . ثم إنهم أيضاً مغيرية ، وهذا يدل على أن المغيرية قد انطوت تحت لواء المنصورية . ثم يذكر طرق القتل – وهى إما بالخنق وبالتشميم «أى يستخدمون البنج» ، وقد كان البنج معروفاً لدى الأطباء فى هذا العصر ، ثم الرمى بالحجارة . ويقول الجاحظ «إن من الخناقين من يكون جامعاً» إذ أجمع الخنق والتشميم ، وحمل معه فى سفره حجرين مستديرين مدملكين وململمين فإذا خلا برجل من الرفقة – أى من المسافرين معه – استدبره «أى تأخر خلفه» ثم رمى قمحدوته بأحد الحجرين . والقمحدوة : ما فوق القفا وأعلى خلف الأذنين ، وإصابة هذا المكان قاتلة ، وكذلك إذا كان ساجداً . فإن قتله لأول مرة سلبه ، وإن رفع رأسه طبق بالآخر وجهه ، وكذلك إن ألفاه نائماً أو غافلاً (١)» وكان الخناق لا يسيرون إلا معاً ، ولا يقيمون فى مكان إلا مجتمعين ، وإذا عزم أهل دار منهم على خنق زائر ممن ليس على مذهبهم ، كانت العلامة بينهم الضرب على دف أو طبل على ما يكون فى دور الناس ، وعندهم كلاب مرتبطة ، فإذا تجاوبوا بالعزف ، لإخفاء صراخ المخنوق ، ضربوا تلك الكلاب فنبحت – يقول الجاحظ «إن الخناقين يظاهر بعضهم بعضاً ، فلا يكونون فى البلاد إلا معاً ، ولا يسافرون إلا معاً ؛ فربما استولوا على درب بأسره أو على طريق بأسره . ولا ينزلون إلا فى طريق نافذ ، ويكون خلف دورهم إما صحارى وإما بساتين ، وإما مزابل وأشباه ذلك . وفى كل دار كلاب مربوطة ، ودفوف وطبول ، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم ، فإذا خنق أهل دار منهم إنساناً ، ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلاب . فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا ، وأجابهم أهل كل دار بالدفوف والصنوج – كما يفعل نساء أهل القرى – وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حماراً ، لما شعر بمكانه أحد» ويذكر لنا الجاحظ – قصصاً مريعة عن محاولة قتلهم لأحد الحمالين فى الرقة وكيف اكتشف الأمر وقتلوا عن آخرهم . وكذلك فى الرى . وغيرهما من بلاد (٢) .

كانت حياة المنصورية حياةِ مجتمع مغلق سرى بشع ، منظم تنظيماً دقيقاً ، وله تقاليده وقواعده ، ويبدو أن المجتمع المنصورى نساء وأطفالاً ورجالاً آمنوا بعقيدة أبى منصور ثم ابنه الحسين بعده ، وكانت غايتهم الكبرى من القتل والاغتيال جمع الخراج للإمام . ولا نعجب بعد ، إذ قام يوسف بن عمر الثقفى أولاً بتتبعهم وقتل أبى منصور ثم قيام المهدى بنفس الأمر ، ونرى أيضاً

---

(١) الحيوان : الجاحظ ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٦٥ و ج ٦ ص ٣٩٠ .

استخلاصه لأموال كثيرة من الحسين بن منصور ، وهى أموال حصل عليها من أتباعه خلال الاغتيال والقتل الذريع وتهديد المسافر الآمن ممن لم يدخل فى غنوصيتهم الحاقدة ، لقد انقلبوا على المجتمع الإسلامى كوحوش كاسرة يعيثون فى الأرض فساداً ، ولا عجب بعد ذلك أن يدعوهم الشهرستانى بأنهم « صنف من الخرمية » أى أتباع بابك الخرمى الذى ظهر فيما بعد يقاتل المسلمين أعنف قتال ؛ حتى قتل ، ومن المحتمل أن يكون المنصورية — بعد قتل أبى منصور — قد لجأوا إلى الخرمية يحاربون معها المسلمين من السنة ، كما أن المنصورية كانت أيضاً فى كثير من عقائدها ووسائلها باكورة وسلفا للحشاشين فيما بعد .

الفصل الثالث

غلاة الجعفريين

عاش آل جعفر بن أبي طالب في رحاب النبوة أولاً ، ثم في شيعة علي ثانياً ، وشيعة الحسن والحسين مخلصين لآل البيت ، وقد قتل جعفر بن أبي طالب شهيداً يوم مؤته وبكاه النبي أشد البكاء ، وقتل ابنه محمد بن جعفر بن أبي طالب تحت راية علي في صفين . وفي كربلاء استشهد مع الحسين ثلاثة من أبناء عبد الله بن جعفر هم عون ومحمد وعبيد الله . فأسرة جعفر إذن قدمت للمذهب الشيعي بعض أبنائها ، وسفك دماء بعضهم على المسرح الشيعي . ولكن لم يعلن واحد من آل جعفر أحقيته في الإمامة . حتى أعلن جعفري منهم هو عبـــد الله بن معاوية بن عبيد الله بن جعفـــر أنه تلقى الوصية من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأن الامامة انتقلت إليه هو ... والأخبار التي وردتنا عن عبد الله بن جعفر متناقضة . هل كان الرجل حقيقة من الغلاة ، أم كان رجلاً من بني هاشم ، ذا قوة وكفاءة ، فقام محاولاً أن يعيد الأمر إلى أصحابه ، وبخاصة أن دعوته كانت للرضا من آل محمد . ؟ هل هو صورة من المختار بن أبي عبيد ، قام مثله بحركة عنيفة لإعادة الأمر إلى أصحابه ، واستخدم الغلاة ، كما استخدم المعتدلين ، ولكنه لم ينجح . ثم أسلمته الحركة العباسية إلى الأمويين ، خوفاً من قوة الرجل وسطوته وذكائه ، ونفوذه . . ؟ وقد دعا كل هذا «الباحث العراقي الممتاز الدكتور كامل الشيبي» إلى بحث تركيبي لحياة الرجل وآرائه ، وألقى عليه ضوءاً جديداً . وسيظهر البحث قريباً . وإلى أن يظهر هذا البحث ، سنعالج حياة الرجل وحركته وآراءه طبقاً للنصوص التقليدية التي بين أيدينا : يبدو أنه نشأ في المدينة ويذكر الأصفهاني «أنه كان جواداً فارساً شاعراً ، ولكن كان سيء السيرة رديء المذهب ، قتالاً مستظهراً ببطانة السوء وممن يرمي بالزندقة [1]» بل إن الأصبهاني ود ألا يؤرخ له . والظـاهر أن عبد الله بن معاوية نشأ في المدينة مترفاً خلي البال وأنه عاش في وسط كان يموج بالغلو فلم يخالط سوى الغلاة أو أنه حاول استخدام كل الحاقدين على الحكم الأموي . يقول الأصبهاني «كان عمار بن حمزة يرمي بالزندقة ، فاستكتبه عبد الله بن معاوية ، وكان له نديم يعرف بمطيع بن إياس وكان زنديقاً . . . وكان له نديم يعرف بالبقلي ، وإنما سمي كذلك لأنه كان يقول الإنسان مثل البقلة ، فإذا

---

(١) الاصبهاني : مقاتل الطالبيين ص ١١٨ .

مات لم يرجع » وإذا ذكرنا من قبل أن حمزة بن عمارة البربرى كان كربيًّا ، ثم غلا وهو أحد السبعة الذين لعنهم الصادق . عاش إذن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر فى وسط الزنادقة والإباحيين . ويقول الأصبهانى «كان هؤلاء الثلاثة خاصته وكان له صاحب شرطة يقال له قيس وكان دهريًّا لا يؤمن بالله »(١) وقد دفعه هؤلاء إلى ابتداع فكرة انتقال الوصاية إليه من أبى هاشم ، وقد مات أبو هاشم وعبد الله بن معاوية غلام صغير . فادعى أصحابه أن أبا هاشم دفع الوصية إلى صالح بن مدرك وأمره أن يحفظها حتى يبلغ عبد الله بن معاوية فيدفعها إليه ، فهو الإمام وهو العالم بكل شىء (٢) وقد عرف عبد الله بن معاوية بالفصاحة وبالقسوة هذا مع ادعائه بأن الوحى ينزل عليه «إن ابن معاوية كان يغضب على الرجل فيأمر بضربه بالسياط ، وهو يتحدث ويتغافل عنه حتى يموت بالسياط ، وأنه فعل ذلك برجل فجعل يستغيث ، فلا يلتفت إليه فناداه : يا زنديق أنت الذى يزعم أنه يوحى إليك» .

وقد رأينا من قبل اتهام المختار بن أبى عبيد بادعاء الوحى ، وبينا تهافت هذا الاتهام ، فهل كان اتهام عبد الله بن معاوية من هذا القبيل أيضاً .

وقد كان عبد الله بن معاوية كالمختار أيضاً ذا أطماع عنيفة ، ولكنه انتظر الفرصة السانحة ، كما فعل المختار بن أبى عبيد حين كانت الدولة السفيانية تلفظ أنفاسها الأخيرة . أما فى أيام عبد الله بن معاوية فقد كانت الدولة الأموية تتخبط تخبطها الأخير ، فلما بويع يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص ، تحرك عبد الله بن معاوية بالكوفة . ودعا الناس إلى بيعته «على الرضا من آل محمد» إذن إن الرجل لم يدع هو إلى بيعته ، بل كان يقوم بنفس الأمر الذى كان يقوم به العباسيون . كانوا يدعون إلى «الرضا من آل محمد» وتذكر المصادر أن عبد الله حاول خديعة أهل الكوفة «فلبس الصوف وأظهر سيماء الخير» . ولكن أهل الكوفة هم شيعة أبناء على من الفواطم ، فرفضه جمهورهم الأكبر وتعللوا له بأن «ما فينا بقية ، فقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت وأشاروا إليه بالانتقال إلى فارس ونواحى المشرق» ويقال إن قتالاً حدث بينه وبين عبد الله بن عمر والى الكوفة الأموى ، وأنه هرب بعد هزيمته إلى أصبهان ، وأنه أخذ يجمع من الأطراف والنواحى من أجابه ، حتى غلب على فارس أى «أن الرجل قد أقام دولة فعلاً» كما لاحظ الدكتور كامل الشيبى» ، ويبدو أن من استجاب إليه من أهل الكوفة جماعة الحربية ، كانوا آمنوا برجل من قبيلة كندة الغالية — هو عبد الله بن عمر بن حرب الكندى ، كان بيانيًّا ثم ادعى أيضاً وصية أبى هاشم ، وأن الإمامة خرجت من بنى هاشم إليه ، وتحولت روح

---

(١) نفس المصدر ص ١١٩ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٢ .

أبى هاشم إليه ، وكان الرجل مخرقاً ، فأدرك بعض أتباعه خيانته وكذبه فأعرضوا عنه ، وقالوا بإمامة عبد الله بن معاوية [١] وكان يعاونه رجلان مخارق بن موسى مولى ابن يشكر ، وقد دخل دار الإمارة ، وطلب البيعة من الناس فقالوا : علام نبايع ؟ فقال على ما أجبتموه وكرهتموه . فبايعوا [٢] ثم وجد ضالته فى رجل يقال له عبد الله بن الحارث من أهل المدائن ومن شذاذ الشيعة [٣] وسيصبح هذا الرجل فيما بعد رئيس فرقة الحارثية .

وكان عبد الله بن معاوية يدعو إلى الرضا من آل محمد ، ثم ما لبث أن دعا إلى نفسه [٤] . وبهذا أعطى مثلاً للعباسيين من بعده ، ونلاحظ أنه لم يتبعه عرب الكوفة ، فقد كانوا كما قلت إمامية ، بل إن الغلاة منهم كانوا يلتصقون بالبيت العلوى الفاطمى ، ولكن سرعان ما استجاب له أهل فارس كما قلنا ، ويبدو أن عبد الله بن الحارث – وكان من غلاة أهل المدائن – كان داعية ممتازاً له ، عرف أهل فارس ، وكان أبوه نفسه زنديقاً ، فادعى أن الله نور وهو فى عبد الله بن معاوية ، ثم قال : من عرف الإمام فليصنع ما يشاء . وكانت هذه آراء تجد صدى فى قلوب الكثيرين من الفارسيين المستسلمة . وفى إيجاز – التف حول عبد الله بن معاوية «شذاذ صنوف الشيعة» [٥] فأقام مجتمعاً إباحياً ، سيطر على فارس حقبة قصيرة من الزمن ، واستولى على إصطخر وشيراز وكرفان وقم ، وقصدته بنو هاشم جميعاً ومنهم السفاح والمنصور ، فمن أراد منهم عملاً قلده ، ومن أراد صلة وصله ، وحين تولى مروان بن محمد أرسل إليه جيشاً ، حتى إذا قرب من أصبهان ، تخلى أتباعه عنه . فهرب إلى خراسان ، وفى الطريق نزل على رجل من التناذى مروءة وفى خلال الحديث نرى لماذا لم يتابعه الشيعة الحقيقيون ؛ فقد سأله : أأنت من ولد رسول الله ؟ فأجاب عبد الله : لا . فسأله مرة أخرى : أفأنت إبراهيم الإمام (الإمام إبراهيم والد الخلفاء العباسيين) الذى يدعى له بخراسان ؟ قال عبد الله بن معاوية : لا . فقال الشيخ : فلا حاجة لى فى نصرتك . وانتهى أمر عبد الله بن معاوية إلى خراسان وسلم نفسه إلى أبى مسلم الخراسانى ويقال : إن أبا مسلم سلمه إلى والى الأمويين ابن هبيرة فقتله وأرسل رأسه إلى مروان بن محمد عام ١٢٩ هـ .

وقد عرف أتباع عبد الله بن معاوية بالجناحية نسبة إلى جعفر بن أبى طالب جدهم الأعلى والمشهور بذى الجناحين ، وعرف أتباع عبد الله بن الحارث بالحارثية ، وهذا هو مجمل آرائهم :

---

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين .. ص ١٢١ .

(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٤ .. والبغدادى : الفرق ص ١٤٩ والأشعرى : مقالات ج ١ ص ٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢٢ .

(٤) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٢ .

(٥) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٤ .

١ – إن الله نور ، وإن الأرواح تتناسخ من شخص إلى شخص وإن روح الله تناسخت ، كانت فى آدم ثم فى شيث ، ثم دارت فى الأنبياء إلى أن انتهت إلى على ثم دارت فى أولاده الثلاثة حتى وصلت إليه وحلت فيه . ففيه الإلهية والنبوة معاً . وأنه يعلم الغيب [١] . وأن العلم ينبت فى قلبه كما تنبت الكمأة [٢] .

٢ – أن الثواب والعقاب فى الأشخاص ، إما أشخاص بنى الإنسان وإما فى أشخاص الحيوانات . وأن التناسخ يكون فى الدنيا والعقاب فى هذه الأشخاص . وتأول قوله تعالى «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج فى جميع ما يطعم ؛ ووصل إلى الكمال والبلاغ . ويشير الشهرستانى إلى أصل المذهب المانوى القديم ، ويذكر أيضاً أن الخرمية والمزدكية الحديثة فى العراق إنما نشأت عن دعوة الجناحية [٣] .

ويشرح النوبختى المذهب شرحاً وافياً – فيذكر أن أصحاب عبد الله بن معاوية يدّعون أنهم يتعارفون فى كل جسد صاروا فيه على ما كانوا عليه ، مع نوح عليه السلام فى السفينة فهم «أصحاب السفينة» ومع كل نبى فى عصره وفى زمانـــه ، ثم عادوا أيضــاً فى أيام محمد ﷺ ، ويسمون «بأصحاب الرسول» ، ويزعمون أن أرواحهم فيه» ، وقد نسبوا مذهبهم إلى الصحابى جابر بن عبد الله وإلى التابعى جابر بن يزيد الجعفى ، ويتأولون الحديث «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ؛ فيدعون «فنحن نتعارف» كما قال على عليه السلام وكما روى عن النبى ﷺ [٤] » .

ثم يشرح النوبختى فكرة التناسخ والأظلة والدور عند الجناحية ، وهى صدى للغنوصية الفارسية «للتناسخ والأرواح مدة ووقت . وهو أن كل دور فى الأبدان الإنسية فذلك للمؤمنين خاصة» ثم هم يتحولون إلى ذواب النزهة مثل الأفراس والشهارى ،وفى غيرها مما يكون لمواكب الملوك والخلفاء وذلك على قدر أديانهم وطاعتهم لأئمتهم ، فيحسن إليها أصحابها فى علفها وإمساكها وتحليها بالديباج ، وغيره من الحلال النظيفة المرتفعة والسروج المحلاة وأما من لم يسم بإيمانه إلى إيمان المؤمنين ؛ فيكون فى دوابِ لأوساط الناس والعوام» وتمكث الأرواح فى هذا الانتقال ألف سنة ، ثم تحول ثانية إلى الأبدان الإنسية عشرة آلاف سنة . وهذا امتحان لها ، لكيلا يدخلهم العجب فتزول طاعتها لأئمتها .

أما الكفار والمشركون والمنافقون والعصاة فينتقلون فى الأبدان المشوهة عشرة آلاف سنة ما بين الفيل

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) البغدادى : الفرق ١٥٠ والاشعرى : مقالات ج ١ ص ٦ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٥ . (٤) النوبختى : الشيعة ص ٣٩ .

والجمل إلى البقة الصغيرة . والتأويل ثانية يأخذ مكانه فتأولوا قول الله «حتى يلج الجمل فى سم الخياط » ، وليس من المعقول أن الجمل يستطيع أن يلج فى سم الخياط ، والله لا يكذب . إذن لابد من أن يكون ذلك ولا يتحقق هذا إلا بنقصان جسمه وتصغيره ، فى كل دور ، حتى يرجع الفيل والجمل إلى حد البقة الصغيرة فتدخل حينئذ فى سم الخياط ، فإذا خرج من سم الخياط ، رد إلى الأبدان الإنسية ألف سنة ، فصار فى الخلق الضعيف المحتاج فى عوام الناس،وكلف بالأعمال المضنية والتعب والمشقة والصناعات المذمومة القذرة – كل على حسب معاصيهم ويمتحنون فى هذه الأجسام بالإيمان والرسل والأنبياء والأئمة ومعرفتهم ، فإذا لم يؤمنوا وكذبوا ولم يعرفوا إمامهم ، فلا يزالون متنقلين فى هذه الأبدان الإنسية على هذه الحال – ألف سنة ، ثم يردون بعد ذلك إلى ذلك العذاب ، إلى الأمر الأول عشرة آلاف سنة . وينتهى النوبختى إلى القول « فهذه حالهم أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، هذه قيامتهم وبعثهم ، وهذه جنتهم ونارهم وهذه الرجعة عندهم . لا رجوع بعد الموت – والقوالب تفنى وتتلاشى ولا تعود ولا تريد أبداً [١]» . ومن ثم أباحوا المحرمات وعاشوا عيشة من لا تكليف عليه .

* * *

قتل عبد الله بن معاوية – كما قلت – وبقى عبد الله بن الحرث مدة يحل لهم الخمر والميتة والزنى واللواط وسائر المحرمات ، ويسقط العبادات ويتأولها على أنها كنايات عمن تجب موالاتهم من أهل البيت، والمحرمات على أنها كنايات عن قوم يجب بغضهم كأبى بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة[٢]

وأخيراً – ما مصير الجناحية والحارثية فى فارس ؟ يرى النوبختى أنهم انقسموا إلى فرق ثلاث وكان عبد الله بن الحارث نفسه حياً بعد قتل عبد الله بن معاوية ، ونقلت إليه الألوهية ، وتذكر بعض المصادر أنه رجع عن أقواله ، وحاول ما استطاع أن يبين لأتباعه كذب ما ادعاه ، ولكنهم لم يصدقوه .

أما الفرقتان الأولى والثانية : فقد آمنتا بمهديته ، وأنه حى لم يمت ، مقيم فى جبال أصفهان خالداً ، وأنه هو القائم المهدى الذى بشر به النبى ﷺ وأنه يملك الأرض ويملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً ، ثم يسلم الأمر عند وفاته إلى رجل من بنى هاشم من ولد فاطمة .

والفرقة الثالثة : قالت إن عبد الله مات ولم يوص وليس بعده إمام ، فتاهوا وصاروا مذبذبين بين صفوف الشيعة وفرقها لا يرحلون إلى أحد[٣] وقد استعر النقاش بين الجناحية والحارثية من ناحية ،

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٩–٤١ .

(٢) البغدادى : الفرق . . ص ١٥٠ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢٥ ، ٣٦ .

وبين الراوندية من ناحية ، يقول الشهرستانى : إن النزاع والجدل استقر بين أصحاب محمد بن على وأصحاب عبد الله بن معاوية ، كل يدعى الوصية من أبى هاشم إليه ، «ولم يثبت الوصية على قاعدة تعتمد [١] » وأخيراً — رضى الجناحية بأحد زعمائهم حكماً وهو أبو رباح وكان من رؤسائهم وعلمائهم . فشهد بأن أبا هاشم عبد الله بن محمد الحنفية أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فرجع معظم أصحاب عبد الله بن معاوية إلى القول بإمامة محمد بن على وقويت الراوندية بهم . والحق أن عقيدة الراوندية ستوافق هوى فى نفوس الجناحية ، إننا سنرى فيها نفس الأساطير . ولكن . . إن الجناحية مع الأسف الشديد مهدت السبيل لبابك الخرمى ولأفكاره — ولكل حركات الإباحية واستحلال قتل المسلمين التى سادت فارس فيما بعد — حقبة من الزمن طويلة فى عهد العباسيين .

* * *

والزيدية — كما سنرى بعد — هم أتباع زيد بن على بن الحسين — وكان زيد تلميذ واصل بن عطاء ، فى عقيدته ، فهو معتزلى — وكان أبو حنيفة تلميذ زيد فى الفقه ، فزيد إذن من أصحاب الرأى فى فقهه . والمعتزلة أعداء الغنوص ، والأحناف أصحاب الرأى والقياس ، أعداء التقليد . فكيف يحدث إذن غلو بين أتباعه ؟ وسمة الغلو هى الارتفاع بالأئمة إلى مرتبة القداسة والعصمة ، وهذا مالا نجده فى الزيدية .

لكن بعض الباحثين اعتبروا فرقة من الزيدية — هى الجارودية — من الغلاة بنسبتهم العلم الإلهى إلى آل البيت جميعاً ، وبهذا دخلوا فى عداد الغنوصية ، ثم بتكفيرهم الصحابة جميعاً لتركهم بيعة على ، ثم قالوا برجعة الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن وقد اعتبر إماماً زيدياً أيضاً . والجارودية حقاً من الغلاة ، ولكنى أفضل أن أضع الجارودية فى إطار الزيدية العام . ذلك أن الزيدية بدأت عقلية معتدلة أقرب إلى السنة ، ولكنها انتهت إلى فولكلور أسطورى فى الأئمة ؛ ارتفع بهم إلى مرتبة القداسة ، ولعل هذا التطور يكون أثراً من آثار الجارودية ولذلك أوفر بحث الجارودية إلى الفصل الخاص بالزيدية .

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٣٧ .

البَابُ الثَالِث

الإمامة الروحية

الفصل الأول

على زين العابدين

لاشك أن الشيعة الإمامية قد بدأت عقيدتها فى الإمامة الروحية بالإمام على بن أبى طالب . بل إن المسلمين عامة — شيعة وسنة — يرون نفس الأمر فى على ، ولكن عليا كان بجانب خصائصه الروحية الكبرى مقاتلاً ، كما كان ابنه الحسين من بعده . بل إن ابنه الحسن أراد القتال أيضاً أول الأمر . ثم إذا اتجهنا إلى الابن الثالث محمد بن الحنفية ، نراه من طرف خفى ، يدفع المختار إلى حركته العنيفة ، فيقتل قتلة الحسين جميعاً وإن كان هو نفسه قد أبى أن يبايعه المسلمون حتى تجتمع الأمة جميعاً عليه . ولكن بقى العقب الوحيد الباقى من أبناء الحسين «على بن الحسين» يخط للشيعة بل للمسلمين جميعاً سنة أخرى . وقد أجمع أهل السنة والجماعة والشيعة على تلقيبه بزين العابدين وبالسجاد ، وبذى الثفنات ، وغلب عليه اللقب الأول ؛ بل نرى عالم الخلف العظيم محمد بن زاهد الكوثرى يدعوه «بالإمام الذى يجل عن الوصف [1] » .

ولد على بن الحسين بالمدينة عام ٣٨ هـ . ومات جد على وهو فى السنة الثانية من عمره ، وقتل أبوه فى سهل كربلاء ، وهو فى الثالثة والعشرين ، وكان مريضاً فلم يشترك فى المذبحة التى قتل فيها أبوه وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه . وأراد عبيد الله بن زياد قتله ، ولكن عمته زينب بنت على قامت دونه تحول بينهم وبينه ، وأرسله عبيد الله إلى يزيد مع أهل بيت الحسين عليه السلام من النساء . وحين وصلت قافلة آل الرسول من النساء إلى دمشق ، أراد الأمويون قتله حتى لا يبقى من آل الرسول أحد على وجه الأرض . ولكن زينب بنت فاطمة الزهراء حالت دون هذا مرة أخرى ، ويقرر يزيد آخر الأمر ان يوجه بعلى بن الحسين إلى المدينة مع نساء آل البيت . ووصل على بن الحسين إلى المدينة ، واستقر فيها لم يبرحها — على الإطلاق — مدى حياته [2] .

كانت الحوادث قد صقلته صقلاً نهائياً ليكون أول عابد رسمى من عباد الإسلام . وأن يأخذ بحق لقب زين العابدين والسجاد وذى الثفنات . رأى بعينيه الصفوة من آل رسول الله يتساقطون الواحد بعد

(١) هامش كتاب التبصير . للإسفرايينى .

(٢) ابن العماد – شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٤ .

الآخر أمام سيوف أهل الكوفة الغلاظ ، ثم رأى ما نزل بالصفوة من نساء بنى هاشم من مهانة ، من ابن مرجانة ، ثم من يزيد ، رأى نفسه وقد أمره يزيد أن يصعد المنبر فى دمشق «لكى يعذر إلى الناس مما كان من أبيه» ليعلن للناس أن أباه كان على الباطل ، وهو موقن أن أباه كان على الحق ، ويصعد الشاب الفتى إلى المنبر فيصيح «يأيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا على بن الحسين ، أناابن البشير النذير ، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه ، أنا ابن السراج المنير[1]» رأى كل هذا ، وأخيراً يجد نفسه ثانية عائداً إلى المدينة ، هو وآل بيته من النساء مشعثاً مغبراً ، وبالأمس القريب كان يترك المدينة مع أبيه وأهل بيته ، مستجيبين لدعوة أهل العراق وكلهم أمل فى نصرتهم لأبيه . فلجأ إلى العبادة ، وإلى كثرة السجود ؛ وإلى المقابر يلوذ بها . ولكن الأحداث تترى ، وتصبح المدينة مرة أخرى مسرحاً لأعظم الحوادث فى العالم الإسلامى . فقد أعلن أهلها من الأنصار الثورة ضد يزيد خليفة دمشق الغارق فى لهوه وفجره ولعبه وسكره ، وأخرجوا عامله عليها . فأرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة إلى الأنصار ، فهزمهم فى واقعة الحرة ، ثم دخل مسلم بن عقبة المدينة ، وكان يؤتى إليه بالرجل من الأنصار فيطلب منه أن يبايع على أنه عبد ليزيد . وكان الأنصار يأبون هذا ، فقتلهم مسلم واحداً بعد واحد . وكان على بن الحسين قد لاذ بالقبر النبوى ، فلما رأى فشو القتل فى المسلمين ، ذهب إلى مسلم فقال له : علام يريد يزيد أن أبايعك ؟ فأجاب مسلم الجبار ، وقد ارتعد من السجاد وقام له قائلاً : على أنك أخ وابن عم . فقال : وإن أردت أن أبايعك على أنى عبد قن فعلت . فقال مسلم : ما أجشمك هذا . فلما رأى أهل المدينة إجابة على بن الحسين . قالوا : هذا ابن رسول الله ﷺ بايعه على ما يريد ، فبايعوه على ما أراد[2] » وبهذا أنقذ على بن الحسين الكثيرين من أهل المدينة من القتل . وكانت هذه أول قدوة قدمها على بن الحسين لإنقاذ المسلمين من سيف يزيد القاسى .

ومات يزيد . وأقبل العراقيون إلى على بن الحسين يحاولون جذبه إليهم ، وينادون بإمامته ، فقال لهم ، وقد ذكر جده وعمه وأباه «ما أكذبكم وأجرأكم على الحق ، نحن من صالحى قومنا وبحسبنا أن نكون من صالحى قومنا[3] » فلا عجب إذن . إن رفض دعوة المختار إليه ليبايعه ، يقول المسعودى : «وكتب المختار كتاباً إلى على السجاد يريد أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالاً

---

(١) أبو الفرج الاصبهانى : مقاتل الطالبيين . . ص ٨٩ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ وأيضاً المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٥٨ .

كثيراً ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، وأن يجيبه على كتابه (١) » ، بل نصح عمه محمد بن الحنفية أن يفعل ذلك ، ولكن محمد بن الحنفية أبى ، وأرسل بعده إلى المختار ، ويبدو أن على زين العابدين خشى أشد الخشية أن تؤدى حركة المختار إلى قتل الشيعة فى الكوفة ، وهو أمر حاول بكل الوسائل أن يتجنبه ولكن مالبث أن رضى عن المختار حين قتل عبيد الله بن زياد . يذكر اليعقوبى «أن المختار وجه برأس عبيد الله بن زياد — قاتل الحسين عليه السلام — إلى على بن الحسين عليه السلام إلى المدينة مع رجل من قومه ، وقال له : قف بباب على بن الحسين ، فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل الناس ، فإذ ذاك الوقت الذى يوضع فيه طعامه ، فأدخل إليه . فجاء الرسول إلى باب على بن الحسين عليه السلام ، فلما فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام ، نادى بأعلى صوته : يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة ومنزل الوحى ، أنا رسول المختار بن أبى عبيد ، معى رأس عبيد الله بن زياد ؛ فلم تبق فى شىء من دور بنى هاشم امرأة إلا صرخت . ودخل الرسول ، فأخرج الرأس» فلما رأى على زين العابدين رأس قاتل أبيه وقاتل إخوته وأولاد أعمامه ،ومذل نساء الرسول ، أشاح بوجهه وقال «أبعده الله إلى النار» ويروى اليعقوبى : «أن على بن الحسين لم ير ضاحكاً منذ قتل أبوه إلا فى ذلك اليوم ، وأنه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشام إلى المدينة . فلما أتى برأس عبيد الله بن زياد أمر بتلك الفاكهة ففرقت فى المدينة . وفى هذا اليوم ايضا اختضبت نساء آل الرسول ﷺ ، وما اختضبت امرأة منهن منذ قتل الحسين »(٢) .

وعاش على بن الحسين الأحداث العظمى التى مرت بالعالم الإسلامى إبان ذلك الوقت ، عاصر حركة ابن الزبير ، ولكنه لم يكن — فيما يرجح — ممن حصرهم عبد الله بن الزبير فى شعب مكة . فاسم زين العابدين لا يظهر فى تلك الأحداث ، كان معه محمد بن الحنفية هو صاحبها . وحين أعلنت الكيسانية مهدية محمد بن الحنفية ، لم ينازعه زين العابدين الأمر ، بل حين أعلن كعب الأحبار ، أن محمد بن الحنفية ، هو المهدى ، لم ينبس على زين العابدين ببنت شفة ، بل يقوم الشعراء — ككثير ينادى واصفاً محمد بن الحنفية :

هو المهدى خبرناه كعب   أخو الأحبار فى الحقب الخوالى (٣)

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . ج ٣ ص ٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥ .

يسمع كل هذا فلا يعترض على ، وتعلن الكيسانية أن الأئمة من قريش أربعة على والثلاثة من بنيه ، ولا يقدح زين العابدين فى عمه لا من بعيد ولا من قريب ولقد اندفعت الإمامية فيما بعد إلى المقارنة بين على زين العابدين ، وبين عمه محمد بن الحنفية ، ولجأوا إلى وضع أسطورة الاحتكام إلى الحجر الأسود حين تنازع الاثنان الوصية وحكم الحجر الأسود لعلى زين العابدين ، فقبل محمد بن الحنفية إمامة ابن أخيه . وكل هذه أخبار لا ظل لها فى الحقيقة ، فلم يختلف الاثنان قط ، بل كان محمد بن الحنفية كشيخ بنى هاشم ! إبان ذلك الوقت أكبر مدافع عن بنى الفواطم ، ولقد وقف يقارع عبد الله ابن الزبير الحجة ويعرض نفسه للقتل حين وقف هذا الأخير يخطب ويقول : إنى لأكتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة ، ثم هاجم عليًّا وأبناء فاطمة ، وقد نفاه عبد الله بن الزبير إلى منى وحبس ابنه الحسن بن محمد بن الحنفية ، ثم ادعى ابن الزبير — وهو يلحد فى حرم الله — أنه العائذ بالبيت ويرد عليه كثير :

تخبر من لاقيت أنك عائذ بل العائذ المظلوم فى سجن غارم
ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى نبى الله وابن وصيه وفكاك أغلال وقاضى مغارم

بل عمد ابن الزبير — بعد أن حصر محمد بن الحنفية وبنى هاشم — إلى حطب كبير لو وقعت فيه شرارة من نار ، لم يسلم من الموت أحد [1] . فعل ابن الحنفية كل هذا لأجل أبيه على وإخوته من بنى الفواطم فما كان إذن لزين العابدين أن يختلف معه . ومات محمد بن الحنفية فى المدينة عام ٨١ هـ . ولم يختلف أبداً مع ابن أخيه .

كان لعلى زين العابدين طراز فى الحياة أغناه عن الخلاف مع الناس . كان يتعبد بلا انقطاع ، فسمى بزين العابدين ، ويكثر السجود ، فقيل له السجاد ، وصهر نفسه فى العبادة حتى ثفنت جبهته — وورمت ركبتاه وراحتاه — فسمى بذى الثفنات وكان يقول « إن لله عباداً عبدوه رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرين عبدوه رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وآخرين عبدوه شكراً ، فتلك عبادة الأحرار [2] . وسن للشيعة البكاء على الحسن بل اعتبره الشيعة أحد البكائين الخمسة . فقد بكى آدم ثلاثمائة سنة بعد ارتكابه المعصية ، وبكى نوح قومه ، ويعقوب يوسف ، ويحيى خوف النار ، وبكت فاطمة النبى صلوات الله عليه ، وزين العابدين الحسين والذى استشهدوا معه . وقد طبع زين العابدين التشيع عامة بالحزن المقيم ، وشارك فيه على السواء الغلاة والمقتصدون من الشيعة . ولقد طبعت حركة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣ .
(٢) ابن العماد : شذرات ج ١ ص ١٥٤ .

التوابين من ناحية وحركة المختارية والكيسانية من ناحية أخرى بهذا الطابع الحزين ، ولعل هذا ما يفسر إسراع المختار بن أبى عبيد بإرسال رأس عبد الله بن زياد إلى على زين العابدين ، ولم يرسلها إلى الإمام الرسمى للشيعة محمد بن الحنفية ، مع أن المختار كان يقاتل بأسمه وتحت رايته ، ولقد عاش هذا الحزن الذى انبثق من قلب زين العابدين فى قلوب الشيعة حتى يومنا هذا . غير أنه انقلب إلى حقد مقيت وسخيمة قتالة ، ولم يعرف ابن الحسين هذا أبداً . بل إن الحديث الذى رواه عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد عن رسول الله إنما كان يتناول غفران الله للعابدين : كل عين باكية للقيامة إلا أربعة : عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين فقئت فى سبيل الله تعالى ، وعين غفت عن محارم الله تعالى ، وعين باتت ساهرة ساجدة يباهى الله الملائكة يقول : انظروا إلى عبدى روحه عندى وجسده فى طاعتى ، قد جافى بدنه عن المضاجع يدعونى خوفاً من عذابى وطمعاً فى رحمتى ، اشهدوا أنى غفرت له (١) ، لقد كان البكاء على الحسين هو السنة التى استنها على بن الحسين للشيعة وقد نقل الشيعة عنه «أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين ، حتى تسيل على خده ، بوأه الله بها فى الجنة غرفاً يسكنها أحقاباً ، وأيما مؤمن دمعت عيناه على خديه فيما مسنا من الأذى من عدونا فى الدنيا ، بوأه الله منزل صدق ، وأيما مؤمن مسه أذى فينا ، فدمعت عيناه حتى تسيل على خديه من فرط ما أوذى فينا ، صرف الله عن وجهه الأذى وأمنه يوم القيامة من عذاب النار» (٢) ، ولقد كان البكاء على الحسين كما قلت داعياً إلى قيام حركة التوابين ، وإلى ملحمتهم الكبرى فى عين الوردة – فقد نادى التوابون كما قلنا بالتلاوم والتنادم وخرجوا وقد أخذت ذكرى الحسين عليهم أيما مأخذ – ووقف عبد الله بن الأحمر يبكى الحسين :

صحوت وقد ودعت الصبا والعواديا ... وقلت لأصحابى أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى ... وقبل الدعا : لبيك لبيك داعيا
ألا وانع خير الناس جداً ووالداً ... حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعيا
ليبك حسيناً مرمل ذو خصاصة ... عـديم وأيتام تشكّى المواليا
فأضحى حسين للرمــاح دريئة ... وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى ... بغربيـة الطف الغمام الغواديا

---

(١) كاظم جواد الساعدى : حياة الإمام على بن الحسين ص ٣٢٦ و ٣٣٠ .

(٢) انظر الفصل الرائع الذى كتبه أحمد صبحى عمر عن على زين العابدين فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية وهو بحث تحت الطبع . وإنى لأدين له بمعرفة كثير من هذه النصوص عن على زين العابدين ومواضعها .

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبو فأرضوا الواحد المتغاليا [١]

هذه صورة لبكاء على بن الحسين يتردد فى الكوفة ، فيقوم التوابون بحركتهم ويقتل التوابون ، ولكن الشيعة يجددون البكاء على الحسين فى مجالس العزاء الشيعية ويذكرون فيها الحسين على الدوام . وقد بقيت هذه المجالس حتى الآن .

أما القداسة التى نسبت إلى أهل البيت ، والعصمة التى أضيفت إليهم ، فلم تر الشيعة المعاصرة لعلى زين العابدين وضعه فى سلسلة الخالدين أو المعصومين أو الراجعين ، فالغلو أو لا يتركز حول جده على ، ثم ينتقل إلى عمه محمد بن الحنفية ، ثم يضفى على أبى هاشم ، ثم ابنه الإمام الباقر . ويبدو أنه قطع الطريق على كل غال بنوع حياته التى حياها ، وبطراز دعواته . وقد قدم لنا الدعاء الآتى : «إلهى بعزتك وجلالك ، ما أردت بمعصيتى مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك معترض ، ولكن سولت لى نفسى وأعانني على ذلك سترك ، فأنا الآن من عذابك مستجير ، فمن ينقذنى ؟ وبحبل من أعتصم ؟ إن قطعته عنى فوا أسفاً مما ألقاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخففين جوزوا ، وللمثقلين حطوا ، أمع المخففين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ . سبحانك تعفو كأنك لا ترى وتحلم كأنك لم تعط نتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت سيدى الغنى عنهم » فلما قيل له «أنت تفعل هذا بنفسك وأبوك الحسين ، وأمك فاطمة وجدك رسول الله . فقال : هيهات هيهات – دع عنك حديث أبى وأمى وجدى . خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان شريفاً قرشياً ، فإذا نفخ فى الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون» [٢] ، فهو هنا يعلن أنه رجل من قريش ، عليه ما على الناس وله مالهم ، بل ولا فضل لقرشى على عجمى . بل إنه يقول لأهل العراق «ما أكذبكم وما أجرأكم على الله نحن من صالحى قومنا ، وبحسبنا أن تكون من صالحى قومنا [٣] » ويقول الدكتور كامل الشيبى : إن زين العابدين كان حرباً على السبأية والكيسانية ، وكان يقول لهم «أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم» : «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم» . وإنى أعتقد أنه فعل هذا فى مبدأ الأمر ، ولكن صلاته بالمختار كانت على خير ما يكون . وقد قبل هداياه . كما قبل منه أيضاً أم ولده زيد . أما أنه كان يكره الغلو ، فإنه كان يذكر «أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار

---

(١) كاظم حواد الساعدى : حياة الإمام على بن الحسين ص ٣٢٦ ، ٣٣٠ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ... ج ٣ ص ٣٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٠ .

علينا عاراً»(١) ويقول أيضاً «إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء» وأشار بيده إلى أهل العراق . فهذا ما فعله أيضاً ابن الحنفية ، وهذا يمثل الجانب الحقيقى من أهل البيت ، أو الجانب السنى فيهم . ولا عجب أن نراه يتولى أصحاب محمد رسول الله ويدعولهم فى الصحيفة السجادية المنسوبة إليه ، وأن نرى ابنه الإمام زيدا يتابع سنة أبيه ويختلف مع غلاة الشيعة فى الكوفة فيما بعد – حين يتولى الشيخين .

وكان من أصحابه أو بمعنى أدق من مشايخه ، سعيد بن المسيب عالم المدينة الكبير وكان سعيد يقول : ما رأيت قط أفضل من على بن الحسين عليه السلام ، وما رأيته قط إلا مقت نفسى (٢) كما كان أيضاً تلميذاً للتابعى الكبير «سعيد بن جبير» ونستنتج من كل هذا أن عليا زين العابدين وضع نفسه فى تيار السنة العام .

ويقول ابن تيمية «أما على بن الحسين ، فمن كبار التابعين وساداتهم علماً ودينا . أخذ عن أبيه وعن ابن عباس والمسور بن مخرمة وأبى رافع مولى رسول الله وعائشة وأم سلمة وصفية أم المؤمنين ، ومروان ابن الحكم وسعيد بن المسيب وعبد الله بن عثمان بن عفان » ، ويذكر ممن روى عنه عدداً كبيراً من المحدثين . ويذكر أن يحيى بن سعيد قال ؛ هو أفضل هاشمى رأيته وروى عن حماد بن زيد قال : سمعت على بن الحسين يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح حبكم حتى صار علينا عاراً» ، ثم يذكر ابن تيمية أن له من الخشوع وصدقة السر وغير ذلك من الفضائل مما هو معروف . وأنه كان متواضعاً يجالس زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب (٣)

ولا نرى أيضاً فى محيط الغلاة فى عصره نسبة العلم السرى إليه وقد نسب الغلاة هذا العلم إلى محمد ابن الحنفية ، كما نسبوه إلى أبى هاشم ، وهو ابن عم زين العابدين ، حقاً إن ابن عربى وهو الصوفى المتأخر ، ينطق عليا زين العابدين بالأبيات الغنوصية الآتية :

إنى لأكتم من علمى جواهره ... كى لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم فى هذا أبو حسن ... إلى الحسين ووصى قبله الحسنا
يــارب جوهر علم لوأبوح به ... لقيل لى أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمى ... يرون أقبح مايرونه حسنا (٤)

---

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ١٠٤ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . . ج ٣ ص ٤٥ .

(٣) ابن تيمية : منهاج ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤) ابن عربى الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٦٠ .

إن من الثابت أن على بن زين العابدين لم يظهر فى سلسلة الأئمة الغنوصيين لدى الغلاة ، لقد وضح كل نواحى حياته أمام الناس ، فلم يعد ثمة مدخل لغنوصى أولغال أولدساس . وكان يتكلم دائماً وفى أحاديثه الرقيقة الغنية عن جيران الله – هؤلاء الذين كانوا فى الدنيا يتجالسون فى الله ويتذاكرون فى الله ويتزاورون فى الله ، وأهل الفضل ، الذين إذا جهل عليهم حلموا ، وإذا ظلمو صبروا ، وإذا أسىء عليهم عفوا ، وأهل الصبر الذين صبروا على طاعة الله . وصبروا عن معاصى الله ، بل إنه كره أوائل الكلام العقلى ، واعتبره مراءاً [١] . ووضع بهذا سنة لأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل ، ولعل أوائل المعتزلة كانوا قد ظهروا فى عصره وسنرى ابنه زيداً يأخذ على واصل بن عطاء وسينكر عليه هذا الإمام الباقر والإمام الصادق .

ويبدو أيضاً أن على زين العابدين سن للشيعة التقية ، فقد اتقى مسلم بن عقبة يوم الحرة ، كما اتقى الحجاج ، وقد حاول الحجاج ، أن يجرعه الغيظ ، وكان يتهدده دائماً ، ولكن الإمام العظيم لم يهن ولم يرع بل قال له «إن لله فى كل يوم ثلاثمائة لحظة وأرجو أن يكفينيك فى أول لحظة من لحظاته» [٢] وأرسل عبد الملك بن مروان بنفس هذا الكلام إلى ملك بيزنطة حين بعث يتهدد عبد الملك بغزو الشام ، فلما قرأها ملك بيزنطة قال لرسول عبد الملك «هذا ليس من كلامه ، هذا من كلام عترة نبى» ، وقد كتب عبد الملك بعدها إلى الحجاج – وهو أمير على الحجاز – «جنبنى دماء آل أبى طالب ، فإنى رأيت آل حرب لما تهجموا بها لم ينصروا» فما تعرض الحجاج بعدها للإمام ، وفى أيام سليمان بن عبد الملك اتقاه زين العابدين ، وكان يرسل إليه الرسائل يقرظه ويمدحه ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إليه يعظه ويخوفه من الله – فلما سئل عن هذا قال : إن سليمان كان جباراً ، فكتبت إليه بما يكتب إلى الجبارين ، وإن عمر أظهر أمراً ، وكتبت إليه بما شاكله» [٣] ونصائحه بعد ذلك فى «حق السلطان وحق الرعية ، دعوة إلى التقية من السلطان الجائر ، وقد أراد الرجل أن يحفظ دماء الشيعة [٤] .

ثم تأتى مشكلة الزهد ، فهل كان الرجل حقاً رائد الزهد ، كما حاول الزهاد فيما بعد ؟ لقد كان على زين العابدين يقول : «من عف عن محارم الله كان عابداً ومن رضى بقسم الله كان غنياً ، ومن أحسن مجاورة من جاوره كان مسلماً ومن صاحب الدنيا بما يجب أن يصاحبوه كان عدلاً ، وبئس القوم اختلوا الدنيا بالدين وبئس القوم قوم عملوا بأعمال يطلبون بها الدنيا» ، وكان يقول «كلكم سيصير حديثاً حسناً فليفعل . وقد نظمه ابن دريد بعد ذلك :

---

(١) الدكتور كامل الشيبى ص ١٦٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٧ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨ .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

بل يضع على زين العابدين أساس فكرة المحاسبة ، وهى فكرة أخذت جانباً كبيراً من تفكير الزهاد والمتصوفة فيقول : « ابن آدم لن تزال بخيرها ماكان لك واعظ من نفسك ، وما كانت المحاسبة من همتك . وماكان لك الخوف شعاراً والحزن دثاراً » نحن نعلم أن المحاسبة وخوف الموت والحزن كانت كلها شعارات الزهاد الأولين . ولكن من الخطأ القول . إن عليا زين العابدين كان يؤسس « نظاماً معيناً » للزهد وللزهاد . ولم يرد عنه أنه لبس الصوف ، كما كان يفعل زهاد الغلاة الشيعة . كان هؤلاء إما يتزهدون فعلاً فى لباس الصوف كما فعلت ليلى الناعطية ، وإما يظهرون التزهد ، وهو تزهد انتهى بهم إلى الزندقة ، كان تزهد على السجاد ، تزهدا إسلاميًّا ، يشبه زهد على بن أبى طالب نفسه ، إنه تزوج وتسرى بل كان يتاجر بين الشام والمدينة ، وهو ما لم يفعله جده الأعلى على . أما الصحيفة السجادية التى نسبت إليه فإن أغلبها منحول ، وضعها الشيعة المتأخرون ، وحملوه فيها ما لم يقله ، وما لا يثبت صحته أمام النقد الداخلى للنصوص . وحين مات وغسل وجدوا على كتفيه جلباً كجلب البعير ، أى قشرة سميكة كتلك التى تعلو الجرح عند البرء منه فقيل لأهله : ما هذه الآثار ؟ فقالوا من حمله الطعام فى الليل يدور به على منازل الفقراء . وتذكر المسلمون قوله حين دفنه « فقد الأحبة غربة » (١) وقد عاش على زين العابدين غريباً فى الدنيا ، وذهب آخر الأمر إلى جده العظيم حيث الأحبة ، وحيث لا غربة .

واحتل على زين العابدين بن الحسين المكان البارز لدى الشيعتين الاثنى عشرية والإسماعيلية ، فهو الإمام الرابع لدى الفرقتين ، ومنه تناسلت الأئمة . ولكن لعلى زين العابدين فى تاريخ التشيع مكانة أخرى فهو ابن الخيرتين ، ذلك أن أمه هى شهر بانويه بنت يزدجرد ، آخر الأكاسرة . فقد أسرها العرب هى وأختها فوهبهما عمر بن الخطاب – واحدة للحسين بن على والأخرى لمحمد بن أبى بكر – وقد سماها الحسين تكريماً لها – السلافة ، فعلى زين العابدين نسل النبوة والأكاسرة معاً وقد ذكر أبو الأسود الدؤلى الديلمى هذا بقوله :

وإن وليداً بين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمائم
هو النور نور الله موضع سره ومنبع ينبوع الإمامة عالم

وقد وضع الشيعة حديثاً عن رسول الله ﷺ وهو « لله من عباده خيرتان : فخيرته من العرب قريش وخيرته من العجم فارس » وقالوا بأن زين العابدين هو المقصود بهذا الحديث . ولعل هذا يفسر بعد ذلك اتباع الفارسيين للمذهب الشيعى فقد جمع العقب الباقى من الحسين بن على فى نفسه وصية

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٥–٤٧ .

الرسول وارث فارس ، فهو إذن صاحب الحق الإلهى فى ملك العرب والعجم ؛ فعلى على عرش قلبه الإسلام وعلى رأسه تاج الأكاسرة . إن هذا الترميز فى على زين العابدين متأخر كل التأخر ، وما فكر فيه ابن الحسين ، ولا فكر فيه معاصره . إن من المؤكد أن دعوى مثل هذه استخدمت فى عصور متأخرة لنشر التشيع الإمامى الاثنى عشرى فى فارس ، ولكنها لم تعرف أولاً ، ولم يذكرها الغلاة ، وكان الكثيرون منهم من الفرس ، كما أن فكرة النور الفارسية الثنوية الغنوصية لم تنسب إلى على زين العابدين ، كما لاحظ ببراعة الدكتور الشيبى أنها نسبت إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر (١) .

ونأتى أخيراً إلى وفاة زين العابدين ، فقد قرر الشيعة أنه مات مسموماً ، وذلك حين رأى الأمويون ازدحام الناس حوله وبالرغم منه ، ويذكرون دليلاً على هذا قصة حجه حينما حج هشام بن عبد الملك . وأراد الأخير أن يصل إلى الحجر الأسود فحال الزحام دون وصوله إليه ، فلما أقبل زين العابدين انفرجت الصفوف ، حتى استلم الحجر ، وسأل رجل من أهل الشام : من هذا ؟ فقال هشام : أنا لا أعرفه . وأنشد الفرزدق وكان حاضراً :

هذا سليل حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول من انجابت به الظلم
هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا (٢)

وخشى الأمويون آخر الأمر الإمام ، والناس تتبعه من حيث لا يريد ، فدسوا إليه من سمه . ولكننا لا نجد إشارة إلى سمه فى أقدم المصادر الشيعية وعلى الأخص فى تاريخى اليعقوبى والمسعودى . ولقد توفى زين العابدين فى خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩هـ ، ويقول اليعقوبى إن عمر بن عبد العزيز ذكره يوماً فقال : ذهب سراج الدنيا وجمال الإسلام وزين العابدين . فقيل له : إن ابنه أبا جعفر محمد بن على فيه بقية . بل إنه حين وعظه زين العابدين قبل وفاة الإمام بقليل ، قال عمر بن عبد العزيز : إن أهل هذا البيت لا يخليهم الله من فضل (٣) يبدو إذن أن قصة سمه اخترعها الشيعة المتأخرون لإسباغ العطف على الأئمة ، ولتناسق دعوى الشيعة الاثنى عشرية «أن الأئمة الاثنى عشر قد ماتوا جميعاً شهادة» ، ولقد خلف على زين العابدين أولاداً كثيرين يعنينا منهم اثنان هما : محمد الباقر ، وزيد بن على ، وقد كان لهما الأثر الكبير فى تطور العقيدة الشيعية ، كل من وجهة نظره .

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ... ص ١٥٦ .
(٢) انظر القصيدة كاملة فى ابن العماد : شذرات ج ١ ص ١٤٢ .
(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٨ .

الفصل الثانى

الإمـــام محمـــد البـــاقر

ولد محمد الباقر سنة ٥٧ هـ . وقتل جده الحسين وله من العمر أربع سنوات . وكان يقول « إنى لأذكر مقتله وما نالنا فى ذلك الوقت » وقد بشر رسول الله بولادته وقال للصحابى المشهور جابر بن عبد الله الأنصارى : « إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدى أشبه الناس بى – اسمه اسمى إذا رأيته لم يخل عليك ، فأقرئه منى السلام » وورد الحديث فى صورة أخرى « يا جابر إنك ستعيش حتى تدرك رجلاً من أولادى اسمه اسمى يبقر العالم بقراً ، فإذا رأيته فأقرئه منى السلام » ولما كبر جابر ، وخاف الموت ، كان يسير فى طرقات المدينة يصيح « يا باقر يا باقر أين أنت ؟ » حتى ولد محمد ، ودخل الكتاب فأقبل عليه جابر يقبل يديه الصغيرتين ورجليه ويقول « بأبى وأمى شبيه أبيك رسول الله . إن أباك يقرئك السلام[1] . وإذا كانت العبادة قد غلبت على أبيه وأصبحت سمته ، فقد غلب العلم على محمد الباقر ، فكان أول عالم من الأئمة الفاطميين بعد على بن أبى طالب ، وقد عاصر الباقر حتى وفاته عام ١١٩ هـ أهم الحركات العقلية التى أسست التفكير الإسلامى عامة – فيما بعد – كما عاصر أيضاً الحركات السياسية التى سادت فى العالم الإسلامى إبان ذلك الوقت ، وإذا كان قد سار على سنة أبيه فيما يخص السياسة ، فقد اختلف عن أبيه فى أنه أخذ يرسى قواعد « عقيدة الإمام » ويضعها فى أسلوبها المنهجى ، الذى سنراه يتضح عند ابنه جعفر الصادق على أكبر صورة ولقد اعتنى أيضاً بالحديث وروايته ، وقد روى عن أبيه كما روى عن الثقات العظماء من محدثى المدينة كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . ولعله رأى تلك الغنوصية التى أدخلها الغلاة فى الأحاديث ، فوجه اهتمامه إلى هذه الناحية الهامة من التراث الإسلامى . وقد أخرج جماعة من ثقات رواة الشيعة من أمثال جابر بن يزيد الجعفى وزرارة بن أعين وبريد العجلى وسدير الصيرفى . وتذكر الأخبار الشيعية أن أبا حنيفة أيضاً روى عنه .

عاصر الباقر ابن عم أبيه أبا هاشم بن محمد بن الحنفية ، وما أحاطه من حركات الغلوفى الكوفة ، بل فى المدينة نفسها . وقد أهمه كل هذا . وحاول بجهده أن يوقف تيار الغلو فتبرأ من حمزة بن عمار

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦١ .

البربرى ولعنه فى مسجد رسول الله(١) كما فعل هذا مع بيان بن سمعان والمغيرة(٢). وفسر الشيعة بقوله «يا معشر الشيعة : شيعة آل محمد ، كونوا النمرقة (أى الوسادة) الوسطى ، يرجع إليكم الغالى ويلحق بكم التالى «ويفسر الغالى بأنه من يقول فيه ما لا يقال فى نفسه ، والتالى بأنه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه(٣)» وينبغى أن نلاحظ أن كلمة الإمامية لم تظهر على عهد الباقر ، إنما كان أتباعه هم المقتصدين من الشيعة . ويبدو أنهم كانوا فى عهد زين العابدين والباقر قلة فى المدينة وفى الكوفة . أما بقية الشيعة فقد تقاسمهم الكيسانية بفرقها المختلفة ، والغلاة بحركاتهم العنيفة ، بينما كانت العباسية أو الراوندية تثبت أقدامها فى خراسان وفى وسط هذه الحركات المتضاربة المتناقضة،عاش محمد الباقر حياته الهادئة بمنأى عن كل شيء سوى رسالته العلمية ، إن صلته الوحيدة بالسياسة إنما كانت – كما كان أبوه من قبل – ثنايا مدحه للمختار بن أبى عبيد ، وفيما سوى ذلك ، لم يتصل بالسياسة أو يتكلم فيها لا من قريب ولا من بعيد .

ولكن هنا تقابلنا المشكلة التى تقابلنا دائماً فى حقيقة أئمة أهل البيت ، هل دعوا فعلاً إلى نظرية «الإمامة» وهل أرسوا قواعدها ؟ أو «بمعنى أدق : إن أهل السنة والشيعة تتنازعان دائماً آل البيت وكل من ناحية يورد أخباراً تؤكد وجهة نظره» .

وقد جمع تلميذى الدكتور أحمد صبحى فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية جملة من هذه الأحاديث المنسوبة إلى الباقر والتى أوردها رجال الشيعة كالمحلى فى «درر البحار» ، والكلينى فى «الكافى» وقام بتحليلها . وأهم هذه الأحاديث : أنه لما سئل «الباقر» عن الحاجة إلى الإمام فقال ليرفع الله العذاب عن أهل الأرض وذكر قول الله ، «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم» وقول الإمام الباقر أيضاً «لا تبق الأرض يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ خلق آدم وأسكنه الأرض ، وقيل له : أكان على حجة من الله ورسوله على هذه الأمة فى حياة رسول الله ؟ فقال : نعم يوم أقامه للناس ونصبه علماً ودعاهم إلى ولايته وأمرهم بطاعته . وسئل : أفكانت طاعة على واجبة على الناس فى حياة رسول الله وبعد وفاته ؟ قال : نعم ، ولكنه صمت فلم يتكلم فى حياة الرسول ، وهكذا أنطق الشيعة الإمام الباقر بنظرية الإمام الصامت والإمام الناطق . فإن صح حقاً أنه دعا إليها ، فقد دعا إلى نظرية أو وضع أساساً لنظرية من أدق النظريات الغنوصية والتى استخدمت لدى الإسماعيلية والغلاة فيما بعد .

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٤ وابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٣٩٥ .

(٣) الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٧٠ .

ثم يفسر الباقر الآية «واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» وهو ينظر إلى الحجيج يطوفون الكعبة فيقول : هكذا كانوا يطوفون فى الجاهلية ، إنما أمروا أن يطوفوا بها ، ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم» أما أن الحجيج قطعان ، يسيرون حول كعبة الله كسيرهم فى الجاهلية . فما كان يخطر على إمام من أهل البيت يعلن فى كل حين أنه لا يريد نصرة المسلمين له لتولى الأمر لقد اعتبر ولايته ولاية روحية لا صلة لها بمال ولا بجاه . أكان ينظر إلى المسلمين فى حجهم هذه النظرة ؟ إنه أشبه بكلام القرامطة فيما بعد حين خاطبوا الحجر الأسود ، وهم يضربونه «أيها الحجر كم تعبد فى الأرض وآل محمد لا يظهرون» إن النقد الداخلى للنصوص السالفة الذكر يثبت أنها موضوعة أو محرّفة كما أن نظرية العلم السرى التى تنسب جرثومتها الأولى لمحمد الباقر لم تصدر عنه فيما يبدو .

أما أخبار أهل السنة فقد ذكروا أنه سئل : هل من أهل البيت من أشرك بالله ؟ قال : لا . قيل : وهل منكم أهل البيت من يعتقد بالرجعة . ؟ قال : لا . وسئل : هل منكم أهل البيت — من يبغض أبا بكر وعمر ؟ قال : لا ، بل نحبهما ونودهما وندعو لهما[١] . بل إنه يقول لجابر الجعفى : بلغنى أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا وينالون من أبى بكر وعمر ويزعمون أنى أمرتهم بذلك . فأبلغهم أنى والله منهم برىءوالذى نفس محمد بيده لو وليت ، لتقربت إلى الله بدمائهم . لا نالتنى شفاعة محمد إن لم أستغفر لهما ! ![٢] بل إنه يذكر أبا بكر بالصديق فلما سئل وثب واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً فى الدنيا والآخرة . ويقول : من لم يعرف فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة . ويفسر قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله) بقوله : هم أصحاب محمد ﷺ ، فقيل له : هو على : قال : على من أصحاب محمد ﷺ .[٣]

ولقد كانت زوجه وأم ابنه أكبر أئمة الإمامية — جعفر الصادق — هى أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبى بكر الصديق .

وأخيراً نأتى إلى صورة محمد بن على فى كتاب عالم سلفى حارب الشيعة وهو ابن تيمية . يقول : «أبو جعفر محمد بن على من خيار أهل العلم والدين ، وقيل إنما سمى الباقر ، لأنه بقر العلم لا لأجل بقر السجود جبهته» .

ويقول ابن خلكان : وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر فى العلم أى توسع ، والتبقر والتوسع يقول فيه الشاعر :

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبى على الأجبل[٤]

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٣٢٥ .

(٢) ابن نعيم : حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩

(٤) ابن خلكان : وفيات ـ ٢ ـ

وهذا اختلاف ضئيل فى تسمية محمد بن على بالباقر مع الشيعة ، ولكن ابن تيمية ينكر «كونه أعلم أهل زمانه» إنه يرى أن هذا القول يحتاج إلى دليل ، ويرى أن الإمام الزهرى وهو من أقران محمد بن على ، هو عند الناس أعلم منه . ولكن ابن تيمية يعترف أنه أخذ الحديث عن جابر ، وأنه روى عنه عدداً كبيراً من الأحاديث الصحيحة ، ودخل على جابر مع أبيه على بن الحسين بعد ما كبر جابر. وكان جابر من المحبين لهم رضى الله عنهم ، ويرى ابن تيمية أن الباقر أخذ الحديث أيضاً عن أنس بن مالك ، وابن عباس وأبى سعيد وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة ، وعن سعيد بن المسيب وعبد الله بن أبى رافع كاتب على . ثم روى عنه أبو إسحاق الهمدانى وربيعة بن عبيد أبو عبد الرحمن والأعرج وهو أسن من محمد بن على وابنه جعفر وابن جريج ويحيى بن أبى كثير والأوزاعى وغيرهم (١) وعمرو بن دينار (٢).

هذه صورة لمحمد بن على الباقر كتبها عالم من علماء السلف ، بل عالمهم الكبير المتأخر . وهى تدل دلالة واضحة على ما يكنه من احترام كبير له كإمام من أهل البيت ، نشر العلم الإسلامى ، وأخلص لأعظم جوانبه وهو جانب الحديث ، وكان ابن تيمية محدثاً مشهوراً ، فوضعه لمحمد بن على فى نسق المحدثين العظماء العدول يدل دلالة واضحة على ما كان للإمام الباقر من مقام علمى عظيم حتى فى أوساط السلف وأهل السنة والجماعة .

أما إنكار ابن تيمية كون الباقر أعلم أهل زمانه ، فهذا اتجاه سلفى من عالم اشتهر عنه تخطئة الناس جميعاً ، حتى إمامه أحمد بن حنبل ، بل الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان وعلى . ثم هو مزاج ابن تيمية الحار وهو يناقش ابن المطهر الحلى ، من عدم كون على وأولاده دون الناس أصحاب العلم وورثة الأنبياء ، وإليهم مرجع أمور المسلمين . وإذا كان ابن تيمية يذهب فى كثير من أحكامه شططاً ، فإن الشيعة يفعلون نفس الأمر . ودعواهم دعوى عريضة ، ولكن «كون الباقر أحد أئمة الاثنى عشرية» لم يمنع أيضاً ابن كثير الشافعى أن يقول عنه إنه «تابعى جليل ، كبير القدر ، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشرفاً ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثنى عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ولا يدين بما وقع فى أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر . وذلك عنده صحيح فى الأثر» ويذكر ابن كثير أن الباقر قال : ما أدركت أحداً من أهل بيتى إلا وهو يتولاهما ، رضى الله عنهما ويذهب ابن كثير إلى أنه روى عن غير واحد من

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ١٣٢ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

الصحابة ، كما روى عن جماعة من كبار التابعين : أى أنه كان من كبار رجال الحديث من أهل السنة (١) .

ثم نأتى إلى موقفه من المعتزلة ، لقد رأينا موقفه كمحدث ، وأهل الحديث فى المدينة كرهوا «الكلام فى الدين» واعتبروه مراءاً . وأتى واصل بن عطاء إلى المدينة ، وتتلمذ عليه أخوه زيد بل سيطر واصل بن عطاء على زيد كما سنرى . وكره الباقر هذا كل الكراهية . وكان يقول لجابر الجعفى «يا جابر لا تخاصم ، فإن الخصومة تكذب القرآن» وهو يحدد الخصومة هنا بقوله «لا تجالسوا أصحاب الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون فى آيات الله» وكانت مسألة الفاسق شغل المجامع الإسلامية فسأله جابر «أكان منكم أهل البيت أحد يزعم أن ذنباً من الذنوب شرك . . . ؟ قال : لا .(٢)» وهو يرى أن «شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه» ويؤكد ثانية كراهيته للكلام . حين يقول : «إياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق ، الذين يخوضون فى آيات الله هم أصحاب الخصومات (٣) ويورد الشهر ستانى مناظرة جرت بين الباقر وأخيه زيد لأنه «كان يتتلمذ لواصل بن عطاء ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده فى مقال الناكثين والقاسطين ومن يتكلم فى القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت ومن حيث إنه كان يجعل الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً ، حتى قال له يوماً : على قضية مذهبك والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج (٤) وتنسب هذه المناظرة إلى جعفر الصادق ، وبخاصة أن خروج زيد كان بعد وفاة أبى جعفر الباقر ، ومن المحتمل أن الأخوين قد تناقشا بادئ الأمر ، وحاول الباقر أن يرد أخاه عن عزمه على الخروج .

ونرى ابن كثير يذكر أن محمد بن على قال «القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق (٥)» وهذا نص خطير يثبت أن الإمام الباقر أزعجه تماماً الأصل المعتزلى : أن كلام الله مخلوق ولكن القول المنسوب إليه «أنه لا جبر ولا اختيار» فمن الثابت أنه لابنه جعفر الصادق .

وأخيراً نأتى إلى مسألة زهد الباقر وتصوفه ، فقد حاول الكثيرون من المتصوفة والزهاد وضع الباقر فى سلسلة الزهد والتصوف . وحاولوا أن يثبتوا انتقال العلم اللدنى إليه خلال البشارة بمولده . ولكن تحليل كلمة الباقر نفسها يثبت العكس تماماً فقد قيل له الباقر ، لأنه بقر العلم أى شقه ، وعرف أصله وخفيه وتوسع فيه» (٦) والمقصود بالعلم هنا علم الحديث ، واستفاضت الآثار فى أنه محدث ، وتابعى

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩-٣١١ .
(٢) ابن سعد : طبقات .. ج ٥ ص ٢٣ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية .. ج ٩ ص ١١٣ .
(٤) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٥) ابن العماد : شذرات .. ج ١ ص ١٤٩ .
(٦) ابن كثير : البداية ج ٩ ص ٣٠٩ .

مدنى ثقة بل ينقل ابن سعد عنه قوله «إنّا آل محمد نلبس الخز واليمنة والمعصفرات والممصرات [١]» . وقال ابن حنيف : «رأيت أبا جعفر متكئاً على طيلسان مطوى فى المسجد . وقال محمد بن عمر : ولم يزل ذلك فعل الأشراف وأهل المروءة عندنا . الذين يلزمون المسجد يتكئون على طيالسة مطوية سوى طيلسانه وردائه الذى عليه [٢] وقد أوردت هذه النصوص لكى أصل إلى أن محمداً الباقر لم يكن زاهداً ، بمعنى اتخاذه الزهد نظاماً معيناً له قواعده وأصوله ، وقد كره أيضاً زهد الغلاة . إنه إنما كان محدثاً عابداً أو زاهداً على طريقة أهل السنة .

ولكن نرى فى الآن نفسه نصاً يقدمه لنا ابن كثير يقول فيه «وسمى الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم وكان ذاكراً خاشعاً صابراً ، وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب ، عالى الحسب ، وكان عارفاً بالخطرات . كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات» وينبغى أن نفسر النص فى حدوده ، وهى حدود عالم الحديث ، فعالم الحديث الحق – سنياً كان أو شيعياً – له زهده الخاص ، وهو يختلف عن زهد غيره ، فهو يلتزم بالقرآن والسنة ، ولا تنبثق معانى زهده من أى مؤثر خارجى مسيحى أو هندى أو فارسى أو غنوصى على الإجمال . إنه يتحرى الحديث تحرياً علمياً ، ولا يتعبد إلا على ما ثبت له صدقه . فالذكر والخشوع والصبر ومعرفة الخطرات وكثرة البكاء والعويل كانت سمة لمحدثى الإسلام الحقيقيين ، بل كانت سمة للمعتزلة ، وكانوا أيضاً يتحرون الدقة الكبرى فى الأخذ بالأحاديث . فكان زهد الباقر – إذا كان زاهداً – هو الزهد الذى عرفه علماء الحديث فى الإسلام وعرفوا به . وفى ضوء هذا نستطيع بسهولة فهم أقواله فى الفقر والزهد ، فتفسير قوله تعالى «أولئك يجزون الغرفة بما صبروا» الغرفة الجنة ، بما صبروا على الفقر فى الدنيا ، ثم يذكر الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن ولا تصيب الذاكر . وقد يذهب الصوفية بعد ذلك إلى أنه يضع الذكر فوق الصلاة وهذا خطأ . إننا نرى ابن عباس – ولم يكن ابن عباس زاهداً – يقول نفس القول : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر .

ثم يذكر جابر بن يزيد الجعفى عنه أنه قال له : يا جابر إنى لمحزون وإنى لمشتغل القلب . قلت : وما حزنك وما شغل قلبك ؟ قال يا جابر : إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل شغله عما سواه . يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هى إلا مركباً ركبته ؟ أو ثوباً لبسته أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أيسر أهل الدنيا مؤونة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكروك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين

(١) ابن سعد : طبقات .. ج ٥ ص ٢٤٥ . (٢) ابن كثير : البداية ج ص ٣١١ .

بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث نزلها مليكهم كمنزل نزلوه ، ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبته فى منامك ، فلما استيقظت إذا ليس فى يديك منه شىء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته » (١) وينبغى أن نلاحظ أن الكلام يبدو زهداً بلا شك ، ولكنه زهد من نوع خاص يبعده تمام البعد عن حركة الزهد العام التى عاصرته إنه أقرب إلى الحكم وليس صادراً عن زفرة حرى ، كما نراها عند معاصريه من الزهاد ، إنه كلام محدث عابد معلم للمسلمين . ولا نرى كلمة الزهد على الإطلاق فى كلماته أو حتى حكمه . وكذلك نراه يتكلم عن الخطرات ، وهى ليست من نوع خطرات النفس عند الزهاد والصوفية ، بل يفسر بها اليقين فيقول « الإيمان ثابت فى القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب ، فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرجه منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلباً شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر» (٢).

ثم هو يتابع أباه فى سن البكاء للمسلمين فيقول : ما اغرورقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فإن سالت على الخدين ، لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شىء إلا وله جزاء إلا الدمعة فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ولو أن باكياً بكى من خشية الله فى أمة رحم تلك الأمة » (٣) وقد استغل الصوفية فيما بعد كل هذا وأدخلوا الباقر فى تيار الزهد العام . ونرى بشراً الحافى يقول : سمعت سفيان الثورى يقول : سمعت منصوراً يقول عن الباقر : الغنى والفقر يجولان فى قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطفاه(٤) » وأخيراً يقول الباقر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد»(٥) وهو بهذا يضع العلم فوق العبادة والحديث فوق الزهد .

أما ما تذكره كتب الشيعة من ناحية وكتب طبقات الصوفية من ناحية أخرى عن كون الباقر زاهداً ، فلا يثبت أمام النقد العلمى لوضع الباقر فى إطار الزهد والتصوف فليس قوله « قال الله فى الصيد . ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ؛ فقتل الصيد أعظم أم قتل النفس التى حرم الله » (٦) قول متصوف هذا قولى فى كراهة القتل،ولكنه يقول فى نص يذكره صاحب الحلية ، كما يذكره أيضاً ابن كثير « إن الله يلقى فى قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مهدينا ؛ كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف»(٧) وإذا كان النص الأول فى الزهد (وهو ليس كذلك) ؛ فالنص الأخير

---

(١) ابن كثير : البداية . ج ٩ ص ٣٠٩ .
(٢) نفس المصدر : نفس الصحيفة .
(٣) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .
(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ١٨٤ ؛ وابن كثير : البداية ج ٩ ص .
(٥) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .
(٦) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .
(٧) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

ليس زهداً . والنقد الباطنى للنصوص يحتم علينا مع ذلك أن ننكر صدور هذا النص الأخير عنه ، فقد ذكر فيه مصطلح القائم ، وهو ما أنكره على أخيه زيد ، كما ذكر فيه المهدى – وهو مصطلح كان يستخدمه الغلاة من حوله ، وقد أنكر الغلاة ، وكان يقول : «شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه» ، وكان يقول : «اللهم إنى أبرأ إليك من المغيرة بن سعيد وبيان» (١).

وقد حاول الدكتور الشيبي ببراعة أن يثبت زهد الباقر وصوفيته وأورد النصوص الكثيرة التى تؤيد فكرته : منها نص ابن حجر فى الصواعق المحرقة الذى يقول فيه «وله من الرسوم فى مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين ، وله كلمات فى السلوك والمعارف» ، ثم يحاول الشيبى أن يثبت أن بذرة نظرية الحب الصوفى وجدت عند الباقر . ويورد عن فريد الدين العطار فكرة الملك أو السلطان الروحى ، وأن الباقر كان يقضى ليله وهو يردد فى صوت عال «إلهى وسيدى ، حل الليل وانتهت ولاية تصرف الملوك وظهرت النجوم ونام الخلائق» ثم يورد الشيبى حديث عبد الله بن المبارك الصوفى (المتوفى سنة ١٨١ هـ) المشهور عن تجلى محمد الباقر له – كتجلى الخضر لكبار الصوفية ، وأن محمداً الباقر أنشده :

فنحن على الحوض رواده نذوده ونسعد وراده
فما فاز من فاز إلا بنا وما خاب من حبنا زاده
ومن سرنا نال منا السرور ومن ساءنا ساء ميلاده
فمن كان حقاً لنا غاضباً فيوم القيامة ميعاده (٢)

وأرى أن هذا تصوير الصوفية له ، ولكن ليست آراءه هو ، وأحوال الصوفية أنفسهم ينسبونها إليه ، وليست أحواله هو إن نظرية الحب الصوفية لها بلا شك أصولها القرآنية ، ولابن تيمية نفسه نظرية خطيرة فى الحب الإلهى ، ولكن الحب الإلهى أدى عند صوفية الحلول من ناحية وصوفية وحدة الوجود من ناحية أخرى إلى نظريات تخالف الحب الإلهى القرآنى . وهذا ما نأى عنه أهل البيت جميعاً ، وزهاد الصوفية من السنة والشيعة جميعاً ، ولم يكن تطور هذه عن تلك .

وأخيراً – لقد كان لمحمد بن على الباقر أعظم مكان لدى أهل السنة والجماعة ولدى الشيعة . إنه لدى الأولين . إمام أهل البيت «وبقية فاطمة العظيمة فى الدنيا ، ومحدث المدينة الكبير ، وكان هو الإمام الخامس لدى الشيعة الاثنى عشرية والإسماعيلية .

---

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٢) الشيبى : الصلة .. ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

الفصل الثالث

الزيدية

زيد بن على

لم يكن لمحمد الباقر أثر كبير فى تطور العقيدة الشيعية ، لقد كان إماماً كبيراً من أئمة المسلمين . شغل بالعلم والحديث واحتل مكانه العظيم كمحدث ممتاز فى كتب السنة وأهل الشيعة ، ولكن لم يكن له أبداً هذا الحماس الدينى المشتعل الذى ينشئ حوله فرقة أومذهباً أويثير حركة ثورية فى العالم الإسلامى ، كانت حياته رتيبة خالية من الإثارة ، وجاء الشيعة المتأخرون فحاكوا حوله الأسطورة ، ونسبوا له الولاية ، والعلم الإلهى الباطن الذى يستخرج به معانى القرآن الحقيقية ، واعتبروه فى سلك الغنوصين من أهل البيت . ولكن حين ننتقل إلى بحث حياة أخيه الأصغر زيد وعقائده ، نجد سيلاً عارماً من الأخبار ، وحياة ديناميكية قابلت جميع الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية فى عصره ، وقصة مثيرة أشد ماتكون الإثارة ، وحية أشد ما تكون الحيوية .

ولد زيد بن على لأبيه على زين العابدين (عام ٨٠ هـ) عن أم سندية أهداها له المختار بن أبي عبيد . ومات أبوه وهو فى الرابعة عشرة من عمره فكفله أخوه الأكبر محمد الباقر وكان لمحمد الباقر ولد فى سن زيد وهو جعفر الصادق . ويبدو أنه أخذ عن أبيه زين العابدين العلم فى باكورة حياته ، ثم عن أخيه محمد الباقر بعد وفاة أبيه ، ولكن لم تطمئن نفس الفتى العلوى الشغوف الطلعة إلى الحياة المدنية الرتيبة ولا إلى طريقة الحياة التى عاشها أبوه بعد محنة كربلاء ، وعاشها أخوه الباقر أيضاً متبعاً سنة أبيه على زين العابدين . بدأ الفتى رحلاته إلى الكوفة ، ثم زارها مراراً ، ثم مضى إلى البصرة ، يقابل علماءها ، ويناقش مفكريها وما أكثرها فى ذلك الوقت . وفى البصرة قابل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، ويذهب الشهرستانى إلى أن «زيداً تتلمذ على واصل ، حين أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم» ويؤيد الشهرستانى هذا بمناقشة جرت بين زيد وبين أخيه الأكبر محمد الباقر يعتب الباقر فيها عل أخيه أن يأخذ العلم عن واصل بن عطاء وهو ممن يجوز الخطأ على جده الأكبر على فى قتال الناكثين والقاسطين من أهل الشام ، وممن يتكلم فى القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت ، ومن

حيث إن زيداً كان يشترط الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً. فقد قال له الباقر فى أثناء المناقشة «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قط ، ولا تعرض للخروج»[(١)] .

وقد حاول العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة أن يثبت أن الإمام زيداً لم يتتلمذ على واصل بن عطاء ، وإنما ذاكره فى آرائه وزامله فيها ، وبخاصة أن واصل بن عطاء إنما أخذ مذهبه عن رجل من أهل البيت هو أبو هاشم بن محمد بن الحنفية [(٢)]،وسواء أصحت تلمذة زيد لواصل بن عطاء أم مذاكرته له فى المذهب ، فإن آراء المعتزلة كانت هى المرحلة الحاسمة فى تفكير الفتى العلوى . لقد أتى إلى المدينة ، وهو على معرفة تامة بكثير من أصول واصل . وها هو يناقش أخاه شيخ البيت العلوى فيها ، ويكاد يعلن أن أباه لم يكن إماماً ، بل كان فى نظره رجل من صالحى أهل البيت ، كما أن اعتناق زيد المذهب القدرى أقلق محمداً الباقر. ومن الخطأ الشديد القول بأن علـى زين العابدين وابنه الباقر كانا قدريين . إنهما كانا من رجال الحديث ، وإذا صح أن الباقر هو أول من قال : لا جبر ولا اختيار ، وإنما هو أمر وسط وتفويض ، فإنه يكون إذن من سلف أهل السنة ، وهذا الأمر الوسط هو فى نهاية الأمر جبر. وأخيراً إن اشتراط الخروج فى كون الإمام إماماً إنما هو تابع من أصلى المعتزلة الخامس «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» . وقد كان هذا الفتى العلوى مخلصاً لآرائه وعقائده ، فخرج على هشام بن عبد الملك ، وفاز بالشهادة فى طرقات الكوفة ، كما فاز بها من قبل فى الكوفة رأس البيت العلوى «على بن أبى طالب» وقد كان على مثل زيد الأعلى ، وكما فاز بها أيضاً الحسين بن على فى كربلاء على أطراف الكوفة القريبة ، بل مثل زيد بن على مع هشام بن عبد الملك نفس قصة الحسين ابن على مع يزيد بن معاوية . خرج الحسين بن على على يزيد بن معاوية العاتى ، وقتله عامله على الكوفة عبيد الله بن زياد ، ولم يسلم نفسه ، بل مات تحت ظلال السيوف . وخرج زيد بن على على هشام القاسى الظالم المتحجر ، وقتله يوسف بن عمر الثقفى فى كناسة الكوفة ، ومات أيضاً بسهم ، ولم يسلم نفسه . وكما خدع أهل الكوفة حسيناً عليه السلام ، خدعوا – هم أنفسهم – زيداً .

وقد كتب المؤرخون الصحائف الكثيرة عن تعرض زيد بن على فى حياته لأفظع أنواع الإهانات من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث . كان هذا الأخير يندفع فى عداوته ومؤامراته لأهل البيت ، بل كان يدفع أعوانه لسب فاطمة الزهراء فى مسجد أبيها فى المدينة ، بل يدفع بعضا من آل البيت لانتقاص ابن عمهم الكبير زيد بن على[(٣)] . والفتى العلوى ساكت على الضيم ، كاظم للغيظ عاف عن الناس . ويضيق زيد بن على بالوالى وبالناس ، فيذهب إلى دمشق ،

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : الإمام زيد .

(٣) الكامل : ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨–٨٥ .

يطلب مقابلة هشام بن عبد الملك ، يشكو إليه ظلم عامله ، ولكن هشاماً الخليفة العاق – يتذكر كيف حيل بينه وبين الحجر الأسود فى حجه وكيف وقف الناس إجلالاً لعلى بن الحسين زين العابدين والد زيد وأفسحوا له المكان – فيرفض مقابلة زيد ، ولكن زيداً – وهو العالم الفقيه – أراد أن يخلى ضميره من خروجه على هشام ، فأصر على مقابلة الخليفة فلما قابله ، تنابز الاثنان وفقد هشام عقله ، فقال له : «أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة ، وأنت ابن أمه» فرد زيد : «إن الأمهات لا يقعدن بالرجل عن الغايات وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحق صلى الله عليها وسلم . فلم يمنعه ذلك أن بعثه الله نبيا ، وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم . فتقول لى هذا وأنا ابن فاطمة وابن على» وقام وهو يقول :

شرده الخوف وأزرى به كذلك من يكره حر الجلاد
منخـــرق الخفين. يشكو الوجى تذكره أطراف مرو. حداد
قد كان فى الموت له راحة والموت حتم فى رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة يترك آثار العدى كالرماد (١)

ومرة أخرى يستدعيه هشام بن عبد الملك ويأمره أن يشخص إلى والى الكوفة القاسى يوسف بن عمر الثقفى . فلما سأل زيد الخليفة عن سر تسييره إلى هذا الوالى القاسى أخبره هشام أن خالد بن عبد الله القسرى ، والى هشام المعزول عن الكوفة ادعى لدى الوالى الحالى أنه ترك ودائع لدى زيد بن على وداود بن على بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن أبى طالب – أى لدى العلية من بنى هاشم – وأقسم زيد أنه لم يأخذ منه وديعة ولا غيره ولكن هشاماً قال : لا أصدقك . وعجب ابن رسول الله ألا يصدق يمينه رجل من بنى مروان ، وجده الأكبر كان طريد رسول الإسلام . ولكنه تمالك نفسه وقال له : لا توجه بى إلى عبد ثقيف يتلاعب بى . ولكن هشاماً أصر على أن يذهب زيد إلى الكوفة حتى يواجه بخالد بن عبد الله القسرى المسجون . وخرج زيد يقول : «والله إنى لأعلم أنه ما أحب الحياة قط أحد إلا ذل» .

ويذكر اليعقوبى أن هشاماً خشى بعدها من سفر زيد إلى الكوفة فأرسل إلى يوسف بن عمر يقول له : «إذا قدم عليك زيد بن على فاجمع بينه وبين خالد ، ولا يقيمن قبلك ساعة واحدة . فإنى رأيته رجلاً حلو اللسان شديد البيان خليقاً بتمويه الكلام ، وأهل العراق أسرع شىء إلى مثله» وكأن هشاماً أحس بخطورة زيد ، فأرسل إلى عامله يحذره منه .

وقدم زيد الكوفة ، فلما دخل إلى يوسف قال له : لم نقلتنى من عند أمير المؤمنين . . . ؟ فقال

---
(١) المسعودى : مروج الذهب . . جـ ٣ ص ١٨٢ .

يوسف : ذكر خالد بن عبد الله أن له عندك ستمائة ألف درهم . ثم أحضر خالداً وهو فى الحديد فقال له يوسف : هذا زيد بن على فاذكر مالك عنده . فقال خالد : والله الذى لا إله إلا هو مالى عنده قليل ولا كثير ، ولا أردتم بإحضاره إلا ظلمه ، فتبين لزيد وللناس أن إحضاره لم يكن إلا لإهانته وتحقيره، وقد كان زيد حينئذ – وبعد وفاة أخيه – شيخ العلويين وكبيرهم .

وأراد زيد أن يبقى فى الكوفة أياماً ، ولكن يوسف بن عمر قال له : إن أمير المؤمنين أمرنى أن أخرجك من الكوفة ساعة وصولك ، قال : فأستريح ثلاثاً ثم أخرج . فرفض يوسف أن يدعه حتى ساعة واحدة . فخرج زيد فى حراسة جند يوسف حتى وصلوا إلى العذيب ، فانصرف الجند ، ثم انكفأ زيد راجعاً إلى الكوفة . فاجتمع إليه من بها من الشيعة وبلغ يوسف بن عمر ، فوثب بينهم ، وكانت بينهم ملحمة ثم قتل زيد بن على داخل الكوفة ونصبت رأسه على قصبة ثم حين ظهر ابنه يحيى بن زيد فأرسل الوليد بن يزيد إلى يوسف : «إذا أتاك كتابى هذا فانظر عجل أهل العراق فأحرقه وانسفه فى اليم نسفاً» فجمع وأحرق وذرى نصفه فى الفرات ونصفه فى الزرع وقال يوسف : والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه فى طعامكم وتشربونه فى مائكم ، تلك هى القصة التى ذكرها اليعقوبى – أقدم مؤرخ شيعى – ثم ذكرها من بعده المسعودى وأضاف أنه خرج مع زيد القراء والأشراف وأن أهل الكوفة خذلوه وأنه تمثل حينئذ :

أذل الحياة وعز الممات وكلا أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لابد من واحد فسيرى إلى الموت سيراً جميلا

وألاحظ على كلتا الروايتين محاولة تفسير خروج زيد بن على بما لاقاه من عنت واضطهاد ومحن من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ، ثم بما لاقاه من هشام وعامله على الكوفة يوسف بن عمر . وهذا خطأ ، فزيد بن على إنما خرج لإثبات الأصل المعتزلى أولاً : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وثانياً : لكى يثبت للناس جميعاً – ولم يستخدم أبداً كلمة الشيعة – أن العلويين على أتم استعداد للشهادة فى سبيل الله ، ولم يدع علوياً آخر معه بل سار إلى الملحمة وحيداً مع ابنه يحيى ، وقتل هو وحده ، ونجا ابنه لكى يبدأ الجهاد من جديد بعد فترة وجيزة . وقد كان يعلم أنه ميت لا محالة فى هذه المعركة ، وقد بشره أبوه بالشهادة من قبل ، وعرفه أنه المصلوب فى الكناسة أى فى كناسة الكوفة ، وكذلك أخوه محمد الباقر ، ويبدو أن المهدية أيضاً قد نسبت إلى زيد بن على ، وأنه عرف بها ، ويذكر المسعودى أن شاعراً من شعراء بنى أمية ذكر بعد مقتل زيد :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب[1]

(١) المسعودى : مروج جـ ٣ ص ١٨٢ .

ومكث زيد مصلوباً خمسين شهراً بكناسة الكوفة ، فلما ظهر ابنه يحيى فى عهد الوليد بن يزيد – كتب الوليد إلى عامله بالكوفة أن أحرق زيداً بخشبته ، وألاحظ أن المسعودى واليعقوبى لم يذكرا إطلاقاً السبب فى انهزام أصحاب زيد عنه فى المعركة ولكن أبا الفرج الأصفهانى فى مقاتل الطالبيين يقول إن زيداً «قد تعجل الخروج قبل الأجل الذى بينه وبين الناس ، وذلك لانكشاف أمره ، ومعرفة يوسف ابن عمر بموعد بدء الحركة . وقد استطاع يوسف بن عمر أن يحول بين السواد الأعظم من أهل الكوفة وبين زيد ، فلما نادى أبو الجارود بشعار زيد – يا منصور أمت – لم يوافه سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ، فسأل زيد عن الناس وكان قد بايعه من قبل خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان وجرجان والرى . فلما أجيب زيد «هم محصورون فى المسجد ، قال : «لا والله ما هذا لمن بايعنا بعذر» ويذكر أبو الفرج أنه حين اشتد القتال سأل زيد أحد عيون أتباعه من أهل الكوفة وهو نصر بن خزيمة ، فقال «أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية ؟» – أى أنهم دعوه كما دعوا جده الحسين ، ثم انصرفوا عنه وأسلموه لعدوه – فقال نصر بن خزيمة : جعلنى الله فداك ، أما فوالله لأضربن بسيفى هذا معك حتى أموت ، وقاتل زيد مع الفئة القليلة التى تابعته، وهزم جند الخليفة ، حتى وصلوا إلى المسجد وصاح نصر بن خزيمة يناديهم «يا أهل الكوفة اخرجوا من الذل إلى العز وإلى الدين والدنيا : ولكن ما من مجيب بل إن فاطمة الزهراء تسب علناً ، ويسبها أهل الشام . وأهل الكوفة نظارة ينظرون فقط ، ولا يشاركون فى قتال [١]» . فلم يكن إذن حصر الناس فى المسجد هو السبب فى تخلى أهل الكوفة عن زيد ، ولكن أبا الفرج سكت أيضاً عن ذكر السبب ، مع أنه من الواضح تماماً أن هناك سبباً ما دعاهم إلى خذلانه .

أما مؤرخو أهل السنة والجماعة فيرون أن السبب فى تخاذل أهل الكوفة عنه هو مذهبه الرئيسى فى الإمامة «وهو جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل» ومعنى هذا أنه أقر بإمامة أبى بكر وعمر وعثمان بل إن الشهرستانى نقل إلينا نص كلام زيد «كان على بن أبى طالب أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلب العامة فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام لم يجف من دماء المشركين من قريش بعد والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر . كما هى – فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد – وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق فى الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ ، وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائماً فيرجع إليه فى الأحكام ، ويحكم بحكمه فى القضايا [٢] وأورد

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٩٦–١٠٦ . (٢) الشهرستانى : الملل والنحل ٢٥٠ .

نفس القصة ابن كثير(١) وغيرهما من المؤرخين . وقد تبين لشيعة الكوفة وهم فئات ثلاث ، – بقايا الكيسانية والغلاة وأتباع ابن أخيه جعفر الصادق – الخلاف الكبير بين عقائدهم وبين الأصل الذى ينادى به ، إن قوله بإمامة المفضول يهدم نظرية الوصاية وهى التى قام عليها أساس المذهب الشيعى فى مختلف تطوراته . ولذلك رفضوه ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه ، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه فسميت رافضة (٢). وهذا أول ظهور لكلمة الرافضة كمصطلح ينطبق على جمهور الشيعة أو ما عرفوا فيما بعد – بالشيعة الإمامية – أتباع جعفر الصادق كما أطلق على الشيعة المتأخرة الاثنى عشرية .

وهناك دليل آخر يثبت ظهور هذا المصطلح إنما كان فى عهد إمامه جعفر الصادق ، وإن كان أطلق الاسم هنا شخصية من الغلاة ، وهو المغيرة بن سعيد العجلى والنوبختى يذكر أن الشيعة وأصحاب أبى عبد الله جعفر بن محمد تبرأوا من المغيرة ورفضوه ، فزعم أنهم رافضة ، وأنه هو الذى سماهم بهذا الاسم (٣) وسواء أطلق اللقب زيد بن على أو المغيرة بن سعيد فإنه يشير بوضوح إلى أتباع جعفر الصادق أو بالتالى ما يعرفون بالشيعة الإمامية . ومنذ ذلك الحين أطلق اسم الروافض على الشيعة جميعاً – اللهم إلا بعض فرق الزيدية التى أقرت بشرعية خلافة أبى بكر وعمر – فالروافض إذن إبان خروج زيد بن على أنكروا عليه حركته فى صورة نصح أحياناً ، كما فعل جعفر بن محمد فى المدينة ، وكان جعفر بن محمد ينكر على زيد صلته بالمعتزلة أشد إنكار ، ووصل الأمر بينهما إلى حد التلاحى الشديد بالكلام وذلك حين أتى واصل بن عطاء المدينة ، وذهب إليه جعفر بن محمد ينكر عليه آراءه ، بل مجيئه إلى المدينة ، ويشتبك زيد والزيدية مع جعفر الصادق وينسبون معارضة جعفر لواصل ابن عطاء فى آرائه إلى حسده له . أنكر جعفر – متابعاً لأبيه – صلة زيد بواصل ثم أخلص له النصح فى عدم خروجه . لاجرم بعد ذلك أن رفضه أتباع جعفر بن محمد – وأطاعوا دعوة يوسف بن عمر فى الالتجاء إلى المسجد ، وأقاموا فيه لا يلقون أذناً إلى صيحة الحرب يطلقها زيد وفئته القليلة وقد سموا فيما بعد ، بأصحاب المسجد ، وأرسل إليه أيضاً – وهو يعبئ قواه فى الكوفة – عبد الله بن الحسن يثبطه عن الموقعة ويقول له : «فإن أهل الكوفة نفخ فى العلانية ، خور السريرة هرج فى الرخاء خرع فى اللقاء ، تتقدمهم ألسنتهم ، ولا تشايعهم قلوبهم ، ولقد تواترت إلى كتبهم بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم ، وألبست قلبى غشاء عن ذكرهم ، يأسا منهم وإطراحاً لهم ، وما لهم مثل إلا كما قال على بن

(١) ابن كثير : البداية ج ٩ ص ٣٣٠ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ واليعقوبى : تاريخ ج ٤ ص ٨٦٤ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة ص ٦٣ .

أبى طالب : إن أهملتم خضتم ، وإن حوربتم خورتم ، وإن اجتمع الناس على إمامة طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشقة نكصتم » (١) أرسل إليه عبد الله بن الحسن ينصحه وهو فى مستهل المعركة ، يبايع له الناس ، ينصحه فى الظاهر ، وكم جرعه عبد الله بن الحسن الغيظ فى المدينة أمام والى هشام ودعاه بابن السندية وزيد يكظم غيظه ، ولا يظهر لبنى هاشم غير المودة الصافية والإيثار الكامل . وكان عبد الله بن الحسن يكره خروج زيد ، لأمر فى نفسه : هو إعداده ابنه محمداً ليكون مهدى الإسلام ، ولعله كره أن يأخذها زيد ، فيفوت عليه آماله فى ابنه محمد .

ثم تأتى إلى الغلاة الغنوصيين ، وقد كره هؤلاء زيداً أيضاً ، فقد كان زيد على صلات بواصل وواصل والمعتزلة أكبر أعداء الغنوصية . اجتمع كل هؤلاء فى موقف عدائى تجاه زيد . ويرسل هشام إلى واليه يوسف بن عمر يقول له « إنك لغافل . وإن زيد بن على غارز ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح فى طلبه واعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله » .

وأريد هنا أن أصل إلى النتيجة القاطعة فى حقيقة زيد بن على . إنه لم يكن شيعياً على الإطلاق ، ولم تكن حركته للشيعة ، وإنما هى حركة إسلامية ، استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتازعن غيره من العلماء أنه من دوحة النبوة ومن أبناء على عليه السلام . ويدعم رأيى هذا دعوته إلى أصحابه وهو يعلن الجهاد « إنى أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا كان خيراً لكم ولى ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل (٢) » ثم كانت صيغة بيعته هى « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالم والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفىء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ونصر أهل الحق ، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم ويقول : عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ ، لتفين بيعتى ، ولتقاتلن عدوى ، ولتنصحن لى فى السر والعلانية . فإذا قال المبايع : نعم ، مسح يده على يده ، وقال : اللهم اشهد (٣) فلم يكن إذن فى بيعته وجهاده يذكر نصاً أووصية أوحقاً إلهياً، وإنما كان رجلاً من أهل البيت ، ساد علماء المسلمين فى عصره بعلمه وديانته ، «كان وهو شاب يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع إلى الدنيا » (٤) . وذكروا عنه أنه لم يهتك الله محرماً منذ عرف يمينه من شماله ، وكانت أسارير النور فى وجهه « ولذلك تابعه أهل النسك ولا يعدلون به أحداً » ثم أصبح فى العلم فى أوجه ، أخذ أبو حنيفة ، وعدد كبير من العلماء عنه ، ثم كان بعد — فتى بنى هاشم ، أشجع العرب قاطبة ، وابن فاطمة الزهراء ، ويقول عبد الله بن مسلم بن بابل : خرجنا مع زيد بن على إلى

---

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٥ ص ٨٧ .
(٢) ابن كثير : تاريخ ج ٩ ص ٣٣٠ .
(٣) ابن الأثير : ج ٥ ص ٨٦ .
(٤) الاصفهانى : مقاتل . . ص ٦٣ .

مكة فلما كان نصف الليل ، واستوت الثريا فقال : يا بابلى أما ترى هذه الثريا أترى أحداً ينالها؟ قلت : لا . قال : والله لوددت أن يدى ملصقة بها ، فأقع إلى الأرض أوحيث أقع ، فأنقطع قطعة قطعة ، وأن الله أصلح بين أمة محمد ﷺ وكان يدعى بمكة «حليف القرآن» (١).

وأخيراً — رأى عالم الإسلام الكبير أنه لابد أن يخرج على الإمام الظالم وخرج ، ولم يحارب معه أحد من الشيعة .

وهنا نتساءل من كان إذن أنصاره ورجاله . . . ؟ يمكننا أن نعدد هؤلاء الأنصار فيما يأتى :

أولاً : جماعة من عيون أهل الكوفة ممن أحبوا آل البيت . وأخلصوا لهم كل الإخلاص ، لم تمتزج عقائدهم بالغلاة ، ولم تشبهم شائبة الغنوصية المنتشرة فى أرجاء الكوفة ، ولم يؤمنوا بالرجعة ولا بعلم خاص ينسب للإمام ، وفى مقدمة هؤلاء معاوية بن إسحق الأنصارى وزياد الهندى ونصر بن خزيمة العبسى ، كانوا أشراف الكوفة ، بايعوا زيداً وقتلوا بين يديه وصلبوا معه بكناسة الكوفة ، وجماعة آخرون قاتلوا معه ولم يقتلوا ومنهم سعد بن خثيم وسلمة بن ثابت .

ثانياً : التف حوله أهل العلم من الفقهاء ونقلة الآثار والفقهاء . عدد منهم أبو الفرج الأصفهانى : منصور بن المعتمر ، وأبا حنيفة النعمان . بل إن محمداً بن جعفر الصادق ، يقول : «رحم الله أبا حنيفة ، لقد تحققت مودته لنا فى نصرته زيد بن على وفعل ابن المبارك فى كتمانه فضائلنا (٢)» فأبو حنيفة إذن ممن أيدوا زيداً وقد أمده بالسلاح والمال ، وكان يقول ، من يأت زيداً هو من فقهاء الناس . وتراه ينكر على عبد الله بن المبارك الزاهد المشهور إخفاءه لفضائل أهل البيت ، ومن المعروف أن أبا حنيفة تتلمذ على زيد لمدة عامين. وسنراه أيضاً يمد إبراهيم بن عبد الله بن الحسين فى ثورته على أبى جعفر المنصور حين خرج باسم الزيدية فى البصرة فالمرجئية إذن وقفت فى شخص رئيسها أبى حنيفة مع الزيدية (٣).

ثالثاً : المعتزلة : كان زيد بن على يضع فى حيز العمل والتطبيق أصلهم الخامس «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» . وكان زيد من أصحاب واصل بن عطاء وقد أيده واصل كما أيد عثمان الطويل تلميذه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بل إن عثمان الطويل حين سئل : خرج هذا الرجل ، (أى إبراهيم بن عبد الله بن الحسين) وقعدتم عنه. فقال عثمان. ومن أخرجه غيرنا (٤)» . فثورة زيد بن على كانت ثورة إسلامية وخروجاً على خليفة دمشق هشام بن عبد الملك باسم الإسلام ، لا تمت إلى الشيعة

(١) أبو الفرج الاصفهانى : مقاتل الطالبيين. ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧ .

(٣) الاصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

بسبب ، ولذلك وقفوا منها إما موقف الحياد – كموقف جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن شيخي بني هاشم – وإما موقف الخذلان ، كموقف شيعتهم في الكوفة ، وإما موقف الشماتة – كموقف الغلاة – ولم يأبه زيد بن على بل حارب حرباً عنيفة فى طرقات الكوفة ، وكان فى متناول يده أن يقتل يوسف ابن عمر والى هشام بن الحكم ، وهزم جيش هشام مراراً ، ثم أصابه سهم فاستشهد ، ضارباً للمسلمين جميعاً أعظم المثل فى التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة .

ومن الملاحظ أن الزيدية فيما بعد أصبحت علماً على شيئين :

أولاً : جهاد الأئمة لبنى أمية ولبنى العباس بالسيف ، فكل من خرج اعتبر زيدياً .

ثانياً : العلم – إننا نرى أحد أعداء زيد بن على وهو حى – عبد الله بن الحسن – يذكره بعد موته ، لابن زيد الحسين بن زيد . فيقول : «وإن أدنى آبائك زيد بن على الذى لم أرفينا ولا غيرنا مثله» . ويقابله مرة أخرى فى مصلى النبى فيردد له نفس الأمر «إنى أدنى آبائك الذى لم يكن فينا مثله ، لا والله ما كان فينا مثله[1]» لقد قال عبد الله بن الحسن هذا ، بعد وفاة زيد ، وقد كان يسومه كما قلت من قبل الإهانة تلو الإهانة ويدعوه بابن السندية معيرًا لزيد أن أمه هندية الأصل . ثم نرى الفرع الآخر وقد أنكره شيخهم جعفر الصادق ، يعلن على لسان على الرضا «أن زيد بن على كان من علماء آل محمد» . أما العلماء جميعاً فأجمعوا على علمه الفياض وفقهه الواسع وفى مقدمتهم أبو حنيفة وسفيان الثورى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وهؤلاء كانوا من طبقته . أما تلامذته الذين أخذوا عنه ، فنهم الفقيه المشهور منصور بن المعتمر ، وهو أحد رجال الصحيحين ، وهارون بن سعد العجلى ، وكان من شيوخ مسلم ، وسليمان بن مهران الأعمش الفقيه المحدث وغيرهم كثيرون . وقد نقل تلامذته العديدون علمه وفقهه إلى مختلف الأمصار الإسلامية ، غير أن أهم تلامذته هو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى ، وهو الذى روى «المجموع» فى الفقه الزيدى وهو الذى ينسب إلى الإمام زيد ابن على .

آراء زيد بن على فى الإمامة والمهدية :

رأى زيد بن على اختلافات الفرق فى الإمامة : فالكيسانية تنادى بإمامة محمد بن الحنفية ومهديته ، وأنصار أخيه محمد الباقر ينادون بإمامته ، والغلاة تنادى بإمامة بعض آل البيت وبعض الدعاة من غير أهل البيت ، بل تعلن قدسيتهم وألوهيتهم . والعباسية تنادى بإمامة محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . والخليفة الأموى فى دمشق يحكم بالحديد والنار دار الإسلام ،

---

(١) نفس المصدر : ٢٦٢ .

وقد أخذ الملك غضباً . ورأى زيد أيضاً اختلافات الشيعة حول خلافة أبى بكر وعمر ، فمنهم السبابون الذين يسبونهم ، ومنهم المكفرون – الذين كفروا الشيخين لسلبهم علياً خلافة الرسول . ورأى الأئمة – أباه وأخاه – يتولونهم ، إن ظاهراً أو باطناً ، كما يقول أهل السنة والجماعة ، وإن تقية كما يقول شيعتهم . ورحل زيد إلى الكوفة وإلى البصرة يستمع لكل هذا ، ويقابل الناس فى مجامعهم وحلقاتهم ، وانتهى آخر الأمر إلى مثال جده الأكبر على بن أبى طالب وإلى سنته ، واستخرج منها أصل الزيدية الأول فى الإمامة وهو «إمامة المفضول مع وجود الأفضل» فعلىّ أفضل المسلمين بعد رسول الله ، ولكن مصلحة الإسلام استلزمت تولية الإمامة لمن دونه فى الفضل ، وهو أبو بكر ثم عمر . وهنا ينهدم – كما قلت – أصل من أصول الشيعة ، وهو النص على علىّ والوصية له ، وهذا أول اختلاف جوهرى بين آراء زيد بن على والزيدية الخلص من بعده وبين الشيعة على مختلف فرقها ، ولقد رأينا كيف خذله شيعة الكوفة – وهو فى مستهل المعركة – حين أعلن هذا الأصل . وكان شيعة الكوفة يتبرأون من الشيخين ،ويبدو أن زيدًا بن على قد وضع هذا الأصل ونادى به ، لتبرير موقف جده على بن أبى طالب من خلافة أبى بكر وعمر تبريراً واقعياً ، فقد قبل على خلافة الشيخين ، وإن كان قد فعل هذا على مضض – كما تذكر بعض المصادر الشيعية – ومن المحتمل أيضاً أن يكون زيد بن على أعلن هذا الأصل تورعاً ، فقد ثبت له – كما ثبت للمؤرخين جميعا – أن خلافة كل من الصاحبين لم يشبها دنيا على الإطلاق ، بل كانت خالصة للدين .

وأخيراً . . إن علياً هو الخليفة الرابع من خلفاء محمد صلوات الله عليه لا نزاع فى ذلك ولا جدال . وهنا يقدم لنا زيد الأصل الثانى من أصوله وهو «الإمامة فى أولاد فاطمة عليها السلام ولا تجوز إمامة فى غيرهم [١]» . ولكن لا يجوز أن يكون واحد منهم بعينه إماماً ، بل «يجوز أن يكون كل فاطمى عدل زاهد شجاع سخى خرج بالإمامة – أن يكون — إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين» [٢]. فلا وصية إذن ولا نص لا على محمد بن الحنفية ، كما تدعى الكيسانية ولا على أولاد الحسين خاصة ، كما تدعى الإمامية ، ومع أن هذا النص الوحيد من بين قواعد الزيدية ، تفوح منه رائحة التشيع ، إلا أنه لم يوافق هوى فى نفوس فرقتى الشيعة الكبيرتين ، الكيسانية والإمامية ، وأغضب كلا منهما ، فالكيسانية تؤمن بإمامة علوى ليس بفاطمى ، والإمامية تؤمن بإمامة الفاطميين الحسينيين فقط . واشتراط الخروج سيؤدى إلى إنكار إمامة زين العابدين والباقر ، وسيهدم نظرية الاثنى عشرية كما سيهدم نظرية الإسماعيلية فى سلسلة الأئمة لديهم . ولكن إذا كانت المصلحة

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

تقتضى إمامة المفضول من غير آل فاطمة ، فهل يكون هذا الشرط إذن غير واجب التنفيذ فى بعض الأحيان ؟ لقد رأى هذا فى أصله الأول – وهو ولاية المفضول – وهو بصدد والد الفاطميين جميعاً على بن أبى طالب ، ما دامت المصلحة ، فالمصلحة هى الأساس لا الأفضلية ، ولكنه رأى أن يضع بأصله الثانى «إمامة فاطمى عادل وخروجه» موضع التنفيذ ، فخرج ، ووضع بهذا سنة الخروج ، أو بمعنى أدق أصبح الزيدية فيما بعد «خوارج» أيضاً ، لا يؤمنون بعقيدة الشيعة الإمامية ، ومن العجب أن زيداً لم يمثل إجماع أهل البيت فى خروجه ، فأخوه الأكبر نهاه قبل وفاته عن الخروج ، بل تواترت الأنباء أن أباه وأخاه وعمه الأكبر محمد بن الحنفية كانوا ينهونه عن الخروج ، ويعدونه – بعلم غيبى – أن يكون قتيل الكناسة ومصلوبها ، ولكن الفتى الذى يؤمن بالعقل ، كأصل للدين أبى وخرج ، واستن سنة الخروج .

وقدأداه النظرفى حقيقة الأئمةمن قبله إلى الأصل الثالث من أصوله وهو «عدم عصمة الأئمة» ولم يناد الأئمة أبداً بعصمتهم ، ولكن أتباعهم فى الكوفة وفى المدينة فعلوا هذا ، ورأى زيد فى رحلاته إليها كل هذا واستمع لآراء الغلاة وانتهى به الأمر إلى الإيمان بالاجتهاد وبالرأى واجتهد هو وقاس فى فقهه ، وآمن بالعدل والتوحيد فى عقائده ، فالإمام الفاطمى إذن فى رأى الزيدية غير معصوم ولا علم لديه مخزون ، وإن كان تلميذه هرون بن سعيد العجلى هو الذى نقل لنا الجفر – كتاب الشيعة السرى – عن جعفر الصادق ، ولكن زيداً تلميذ المعتزلة كان عدو الغنوصيات وعدو فكرة العلم السرى . وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم اشترط كون الإمام فاطمياً ؟ إن زيداً يرى أن أبناء فاطمة هم أقرب الناس ، بنسبهم الطاهر إلى العدالة والسخاء والشجاعة وأنهم بنسبتهم إلى فاطمة الزهراء سيقيمون أكثر من غيرهم عمود الدين وسنن الإسلام ، ولكن المصلحة أولى بالاعتبار من الأفضلية ، ومصلحة المسلمين أولى بالاعتبار من أولاد فاطمة عليها السلام ، فإذا كان الإمام غير الفاطمى عدلاً ، ولم يخرج فاطمى ، واستقام أمر المسلمين ، فلا ضرر ولا ضرار .

أعاد زيد أمر المسلمين إذن إلى المسلمين أنفسهم ، أهل الحل والعقد منهم ، أن يختاروا إماماً عادلاً ، فإذا تقدم «فاطمى» يتصدى للإمامة بالدعوة إلى نفسه كان على أهل الحل والعقد والموازنة بين من تقدم ، فإذا تقدم الفاطمى ، ولى أمر المسلمين ، وإذا تقدم غير الفاطمى ، كانت المصلحة فى تقديمه . فليس هناك إذن شرط فى الإمام سوى المصلحة ، وهى الأساس لا القرشية ولا الفاطمية . وهذا أيضاً اتجاه خارجى .

وأخيراً . . تأتى إلى الأصل الأخير من أصول الزيدية فى الإمامة وهو «تجويز خروج إمامين فى

قطرين يستجمعان هذه الخصال ، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة » (١) وأعتقد أن هذا النص لم يصدر عن الإمام زيد ، بل وضعه الزيدية الذين تابعوا الإمامين محمداً وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن فى ثورتهما على المنصور ، حين خرجا فى دولة هذا الأخير وقتلا . اللهم إلا إذا فسرنا النص تفسيراً آخر ، وهو تجويز الخروج والطاعة فى الخروج ، بمعنى الثورة على الإمام الظالم ، فيجوز أن يقوم إمام من أئمة أهل البيت بالثورة على الظلم ، ثم يسلم أحدهما الأمر للآخر ، هذا تخريج بعيد ، ومن الأفضل القول بأن هذا الأصل لم يصدر عن زيد ، وهو القائل : والله لوددت أن يدى معلقة بالثريا فأقع على الأرض أوحيث أقع فأنقطع قطعة قطعة دون أن أصلح بين أمة محمد ، والإصلاح لن يكون إلا باجتماعها على رجل واحد .

وأخيراً . . هل نرى فى فقه الزيدية السياسى مصطلح المهدية ؟ أما أن زيداً أنكر المهدية بمعنى الرجعة ، فواضح جداً من هذا الإمام المعتزلى العقلى ، فلا مهدى منتظر ولا رجعة ، ولكن المهدى : هو الخارج على الظلم ، المجدد الفقهى وهو الذى يخرج مجاهداً فى سبيل الله ليملأ الأرض عدلاً ، فإذا كان زيد قد لقب بالمهدى ، ويبدو أنه كان يدعى بالمهدى فى حياته وأشار إلى هذا شاعر بنى أمية حين قال :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

فالمقصود بالمهدى منسوباً إلى زيد ، من يقوم بهداية الناس ، ومجالدة الإمام الظالم .

آراء زيد الكلامية :

يحاول الشيعة المتأخرون – ما وسعهم الحيلة – أن يثبتوا أن « العدل والتوحيد » إنما نشأ فى رحاب البيت العلوى وأنه انبثق من على أولاً ثم من محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم ثانياً ، ثم أخذ به الأئمة جميعاً حتى دخل فى عقائد الأئمة الاثنى عشرية . وهذا خطأ ، فعلى زين العابدين كان على عقيدة رجال الحديث فى مسألة العدل والتوحيد ، كما كان ابنه محمد الباقر . أما الإمام جعفر الصادق فكان على عقيدة أهل السنة والجماعة فى الجبر والاختيار . وكان تلامذته على خلاف مجسمة كما سنرى فى الفصول التالية ، وكان هشام بن الحكم أكبر تلامذته من أشد أعداء المعتزلة . أما الاتصال الحقيقى بين المذهب المعتزلى وأئمة أهل البيت فكان على يد زيد بن على . ولا شك أن زيداً قابل واصلاً وعرفه معرفة وثيقة فى البصرة ، ثم قابله فى المدينة . بل إن صلة واصل بزيد بن على وبعبد الله بن الحسن قسمت البيت العلوى إلى قسمين ، وجعلت القسمين يتلاحيان بالألفاظ . ويقص لنا صاحب المنية

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

وصول واصل إلى المدينة ونزوله على إبراهيم بن يحيى. ومسارعة زيد بن علي وابنه يحيى بن زيد وعبدالله بن الحسن وإخوته لمقابلته والترحيب به . فلما علم جعفر بن محمد الصادق بمسارعة أهل البيت له واجتماع الناس عليه ، اصطحب جملة من أصحابه وذهب إليه والقوم من بنى هاشم عنده ، فقال له جعفر : أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق والبينات والنذر وأنزل عليه ، «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» فنحن عترة رسول الله وأقرب الناس إليه ، وإنك يا واصل أتيت بأمر يفرق الكلمة وتطعن به على الأئمة وأنا أدعوكم إلى التوبة» .

فوقف واصل يرد عليه فقال : «الحمد لله العدل فى قضائه ، الجواد بعطائه ، المتعالى عن كل مذموم ، والعالم بكل خفى مكتوم ، نهى عن القبيح ولم يقضه ، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه ، وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا ، فأصبحت بها كلفاً ؛ وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وآله وصاحبيه وضجيعيه ابن أبى قحافة وابن الخطاب ، وعثمان . وعلى بن أبى طالب وجميع أئمة الهدى ، فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدف عنه تبؤ بإثمك» وتكلم زيد بن على فأغلظ لجعفر أى أنكر عليه وقال : ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا[١]» ، ويقول ابن المرتضى «كان زيد ابن على لا يخالف المعتزلة إلا فى المنزلة بين المنزلتين» ويحاول ابن المرتضى — على عادة أهل الفرق فى تحميل مذاهبهم لآل البيت «لا نقول إن جعفراً أنكر على واصل القول بالعدل بل المنزلة بين المنزلتين» «وسئل جعفر عن القدر فقال : «ما استطعت أن تلوم العبد عليه ، فهو فعله ، وما لم تستطع فهو فعل الله ، يقول الله للعبد لم كفرت ولا يقول لم مرضت[٢]» .

ولكن إذا كان الخلاف بين جعفر وبين واصل هو فى المنزلة بين المنزلتين ، وكان هذا الخلاف هو بين زيد وبين واصل ، فلم أسرع جعفر إلى الحلقة ؟ ولم تلاقى زيد وابن أخيه ؟ إن الواضح تماماً أن الخلاف كان جوهر المذهب ، «وهو العدل والتوحيد» ومهما حمل جعفر من أقوال قدرية ، فالرجل كان على عقيدة أبيه محمد الباقر فى الموقف المتوسط بين الجبر والاختيار ، وهو أقرب المذاهب إلى ما نادى به أهل السنة فيما بعد ، ومهما يكن الأمر ، فإن زيداً تابع المعتزلة فى جوهر عقائدهم مع اختلافات يسيرة .

١ — التوحيد :

ليس هناك نص واضح يثبت بأن زيد بن على ذهب — موافقاً المعتزلة — إلى أن الصفة عين الذات ، ولكن الشيخ المفيد يذهب إلى أن الزيدية تثبت الصفات التى جاءت فى القرآن والسنة على

(١) ابن المرتضى : المنية والأمل ص ٢٠ ، ٢١ .   (٢) ابن المرتضى : المنية .

أنها ليست معانى غير الذات [١] وهذا أصل معتزلى ، وكان واصل بن عطاء أول معبر عنه . ولكن هل تكلم زيد فى «التوحيد» ودعا إليه كما دعا واصل وهل دخل زيد فى مناقشات الفرق ، وهل عنى رجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بهذا الدقيق من الكلام ، أم قالت به الزيدية بعده — حين اعتنقت اعتناقاً كلامياً آراء المعتزلة ؟ إن الأستاذ الشيخ أبو زهرة يصل إلى رأى صائب حين يقول : «وإذا كان زيد يتفق فى جملة من الآراء مع واصل بن عطاء ، وهذا رأى واصل فى الصفات — أن الصفات عين الذات — فإنه يصح لنا أن نقول : رأى زيد فى الصفات كان هو رأى واصل . وتفصيل ذلك الرأى أن الله تعالى يتصف بأنه حى قادر سميع بصير ولكن بذاته ، ومن غير قدرة زائدة على الذات — ولا سمع زائد على الذات — وذلك ليتفادوا قول الحشوية، وليتفادوا قول النصارى الذين ادعوا أن الأقانيم الثلاثة صفات للذات العلية [٢] .

وإذا كان العلم هو الذات ، والذات هى العلم ، والذات قديمة ، والعلم من حيث هو ذات قديم ، فلا بداء إذن فى علم الله ، لأن البداء تغير ، والقديم لا يتغير ، والإرادة قديمة ، ولا تتغير الإرادة بتغير العلم ، كما يذهب من يقول بالبداء .

وقد تفرع عن مشكلة قدم الصفات ، أو حدوثها مشكلة قدم كلام الله أو خلقه وبالتالى فكرة قدم القرآن أو خلقه . وقد آمنت الزيدية بفكرة خلق القرآن ، ولكن لا يرد عن الإمام زيد نفسه شىء يمس هذه المسألة لا من قريب ولا من بعيد ؛ فهل كره الإمام زيد الخوض فيها ، وقد رأى خالد بن عبد الله القسرى — وقد كان على صلات طيبة به — أن يحارب كل من يعتنقها ؟ فقتل بيان بن سمعان التميمى وكان أول من نادى بها ، ثم قتل الجعد بن درهم ، وقد نسبت حركة خلق القرآن إليه [٣]

٢ — العدل :

آمن زيد بن على بالعدل ؛ بأن الله عادل فى حكمه بمعنى أنه لا يجبر الناس على المعاصى ، وقد نسبت عقيدة العدل إلى أبيه على زين العابدين من قبل ، وأنه نادى بها أمام يزيد بن معاوية ، بعد مذبحة أبيه وإخوته وأهل بيته . فقد دعا يزيد بن معاوية على بن الحسين وقال له : ما اسمك ؟ فقال : على . قال : أو لم يقتل الله علياً !؟ فأجاب زيد : قد كان لى أخ أكبر منى يسمى علياً فقتلتموه . فقال يزيد : بل الله قتله . قال على : الله يتوفى الأنفس حين موتها [٤] » . اتخذ القدريون من هذه القصة دليل على أن الإمام على زين العابدين ليس جبرياً . ولكنهم اقتطعوا بقية المناقشة والتى يبدو منها يزيد

(١) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ . (٣) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٨ .
(٢) محمد أبو زهرة : الأمام زيد ص ٢١٨ . (٤) ابن المرتضى : المنية ص ٧ ، ٨ .

قدرياً ، وعلى زين العابدين جبرياً . فإن يزيد يستطرد ويرد بالآية « ما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ويرد على زين العابدين « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » (١) . بل إن أهل العدل يذهبون إلى أن علياً نفسه كان من « أهل العدل » وأنه فسر القدر بمعنى الأزلى « والقضاء بمعنى الحكم التكليفى » ؛ « فلا قدر حتماً ولا حكماً واجباً » ، فالقدر هو أنه يعلم علماً أزلياً ما نفعل ولكن لم يجبرنا عليه وإلا « بطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد » والقضاء هو الحكم ، والإرادة هى أمر تخيير ونهى وتحذير . ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً . وقضاهن سبع سماوات — أى جعلهن سبع سماوات ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » أى أراد ربك ، وواصل أخذ مذهبه فى العدل عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية . وضع المعتزلة إذن آل البيت فى نسق رجالهم وفى سلسلة مشايخهم ؛ ولكن كل هذا تخريج بارع فالمجبرة وضعوا نفس الأئمة فى سلسلة مشايخهم ؛ ولكن من الثابت أن زيدًا بن على آمن بالعدل . فصلته بواصل بن عطاء كانت صلة واضحة ، ولاشك أنه رأى المعاصى فى البصرة ترتكب باسم القضاء والقدر ، فأنكر فكرة الجبر . وقد رأينا واصلاً يرد على جعفر بن محمد بن أخيه ، باسم الله العدل فى قضائه ، بل يبدو أن أبا الخطاب الأسدى سأله عما يذهب إليه فى هذه المشكلة فقال ، أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين طمعوا الفساق فى عفو الله ، فزيد إذن ينكر المجبرة ، وقد دعاهم هنا بالقدرية ، كما ينكر أقوال المرجئة الخالصة الذين قالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية وهو هنا قطعاً لا يقصد « إرجاء السنة » الذى نادى به صديقه وتلميذه أبو حنيفة بل « مرجئة البدعة » كما بينت فى الجزء الأول من كتابى هذا .

٣ — الإيمان ومرتكب الكبيرة :

إن تبرؤ الإمام زيد بن على من المرجئة يدعونا إلى أن نبحث موقف زيد من حقيقة الإيمان وما يستتبعه من رأيه فى مرتكب الكبيرة . فزيد يذهب مع المعتزلة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فالمعاصى لا تنقصه والطاعات لا تزيده . إن الإيمان الصحيح يقتضى العمل حتماً . فالعمل والإيمان متلازمان فمن لا يعمل عاص ومرتكب كبيرة . وهذا يختلف عن رأى أبى حنيفة الذى يذهب إلى أن الإيمان لا تنقصه المعصية ولا تزيده الطاعة . لأنه حقيقة ثابتة فى القلب (٢) . وإذا كان الإيمان

---

(١) ابن المرتضى : المنية ص ١٢ .

(٢) الشيخ أبو زهرة : الإمام زيد ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

لا يزيد ولا ينقص ، فما هو موقف زيد من مرتكب الكبيرة ؟ لقد وضعه واصل بن عطاء فى المنزلة بين المنزلتين المشهورة ، وإرجاء الماصرية – أصحاب عمر بن قيس الماصر – وأبو حنيفة من رأيه ونظرائه [١] الحكم فى مرتكب الكبيرة إلى الله ، إن شاء الله عفا برحمة من عنده ، وإن شاء عذب بما فعله الإنسان بكسبه ، وتغالى مرجئة البدعة وأعلنوا أن « الإيمان عقد بالقلب » وأن ما سوى ذلك لا يضر مع الإيمان ، فرتكب الكبيرة – ما دام مؤمناً – من أهل الجنة . ولكن زيداً يختلف مع كل هؤلاء ، ويختلف تماماً مع المعتزلة ، بل إن صاحب المنية المعتزلى يقول إن الاختلاف الوحيد بين زيد وبين المعتزلة إنما كان فى « المنزلة بين المنزلتين [٢] » لقد ذهب إلى عقيدة الجمهور وهى : أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان ولا اسم الإسلام ، بل يعذب حيناً من الدهر ثم مرده إلى الجنة [٣] .

تلك هى آراء زيد فى المشاكل الكلامية التى كانت تشغل العالم الإسلامى فى عصره . آراؤه بالإجمال مصبوغة بصبغة المعتزلة ، ولكن من المبالغة أن نقول – مع الشهر ستانى – إن زيدًا بن على تتلمذ على واصل وأخذ الأصول عنه ، ونستنتج من هذا أن الزيدية – وكما يستنتج الشهر ستانى أيضاً – صارت كلها معتزلة [٤] فلم يتفق زيد اتفاقاً تاماً مع معتزلية واصل . من المحتمل أن يكون الزيدية بعد زيد اعتنقوا المذهب المعتزلى جملة ، ولكن ليس من دقة القول فى شىء أنهم أخذوا بكل تفصيلات هذا المذهب ، وليس من الصواب فى شىء أن نقول : إن الزيدية أخذت بالفكرة المعتزلية (التحسين والتقبيح العقليين كاملة) واعتنقتها ، إن المعتزلة تعلن أن الأشياء حسنة وقبيحة فى ذاتها ، وأن العقل بذاته يصل إلى الحسن والقبح فى الأشياء فالعقل هو مصدر التكليف أولاً ، والزيدية تذهب إلى أن « العقل قد يحسن ويقبح ويصل إلى ما فى الأشياء من حسن وقبح ، ولكنها ترى أن العقل فى علمه يحتاج إلى السمع ، وأنه غير منفك عن سمع ينبه الغافل على كيفية الاستدلال وأنه لابد فى أول التكليف وابتدائه فى العالم من رسول [٥]

والإمامية تتفق مع الزيدية فى أن العقل أيضاً ليس هو مناط التكليف الوحيد مع أنه قد يصل إلى الحسن والقبح فى الأشياء ، ولكن مناط التكليف هو السمع ثم نرى فكرة وجوب الأصلح على الله المعتزلية . تصادف هوى لدى الإمامية المتأخرة ، ولكن الزيدية ترفضها .

وأخيراً ننتهى من آراء زيد بالقول بأنه لم يؤمن بالتقية الشيعية ، بينما يعلن ابن أخيه على لسان

---

(١) النوبختى . فرق الشيعة ص ٧ .

(٢) ابن المرتضى : المنية ص ٢٠ .

(٣) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٩٤ .

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣ .

(٥) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٤٤ .

الإمامية «أنها دينى ودين آبائى» . وهذا قاعدة أصل الخروج استمده زيد بن على أو تأثر فيه – على الأقل – الخوارج ، ويلزم عنه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . كما لم يؤمن بنسبة المعجزات إلى الأئمة ، وأنكر إنكاراً باتاً قدسيتهم وعصمتهم . وأنكر فكرة الرجعة فى تطوراتها وصورها المختلفة .

ولقد خاض زيد بن على فى الفقه ، وأصوله . وقد ترك لنا كتاب المجموع «مجموع الحديث ومجموع الفقه» ، جمعه تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى . والمجموع هو أساس الفقه الزيدى . وقد تعرض جامعه لهجمات عنيفة من الإمامية ومن أهل السنة . ولكن الزيدية قبلت المجموع ، وإن كان قد خالفه فى بعض المواضع إمام زيدى مشهور هو الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ، والمذهب الزيدى يتسع لهذا ويقرر ضرورة الاجتهاد فى المذهب .

الفصل الرابع

حركات الزيدية السياسية

لم يكن استشهاد زيد بن على فى الكوفة نهاية المطاف للحركة الزيدية ، بل كان هذا الاستشهاد فى سبيل العقيدة ، داعياً إلى حركة استشهاد أخرى كانت العامل الأكبر فى القضاء على الدولة الأموية المروانية ، فقد هرب يحيى بن زيد بعد مقتل أبيه إلى خراسان ، وهناك بقى مستتراً فى خلافة هشام يطلق الأشعار فى أبيه :

خليلى عنى بالمدينة بلغا — بنى هاشم أهل النهى والتجارب
فحتى متى مروان يقتل منكم — خياركم والدهر جم العجائب
وحتى متى ترضون بالخسف منهم — وكنتم أباة الخسف عند التجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه — وليس لزيد بالعراقين طالب [1]

ولما مات هشام بن عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، واستفاض ظلمه وفساده ظهر يحيى بن يزيد بخراسان مجاهداً ، منفذاً لمذهب أبيه «خروج فاطمى عادل سخى زاهد» طلباً للخلافة ، وكما قتل الأب قتل الابن .وكما صلب الأب فى الكوفة ، صلب الابن .وذلك فى عام خمس وعشرين ومائة .

وقد أتى يحيى أناس من المحكمة (فرقة من الخوارج) يسألونه أن يخرج معهم فيقاتلون بنى أمية ، فأراد لما رأى من نفاذ رأيهم وقوتهم أن يخرج معهم ، ولكن أصحابه نهوه أن يفعل وقالوا له «كيف نقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك ، وهم يبرأون من على وأهل بيته ؟» . وفى هذا دلالة على ما يشعر به الخوارج من اتفاق مع الزيدية فى الخوارج على الإمام الظالم [2]

وقد أثر قتله وصلبه فيما بعد فى أهل خراسان ، ويقول المسعودى :

«أظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام فى سائر أعمالها فى حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بنى أمية ، ولم يولد فى تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمى بيحيى أو بزيد لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه [3] » وكانت هذه الملحمة فى أرض خراسان سبباً هاماً فى التفاف الخراسانيين حول أبى مسلم الخراسانى ، وقيام «المسودة» أى شيعة العباسيين الراوندية بالضربة الأخيرة للقضاء على دولة بنى أمية . وأخيراً — تولى العباسيون الخلافة ، وآلت من السفاح إلى أبى جعفر المنصور . وهناك

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٣١ .
(٢) الأصفهانى : مقاتل . . . ص ١١٣ .
(٣) المسعودى : مروج . ج ٢ ص ١٨٥ .

تحرك الزيدية أو بمعنى أدق آل البيت من ذرية الحسن متخذين الزيدية أساساً لقيامهم فى وجه المنصور . إن عقيدة زيد فى الإمامة هى خروج فاطمى عالم سخى . مجاهداً فى سبيل الله . فلم يقصر زيد الإمامة على أولاد الحسين بل أشرك فيها أولاد الحسن ، وسرعان ما تلقف هذا عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، وقد كان على عداوة بيّنة مع زيد بن على فى أثناء حياته ولكنه آمن بآراء زيد بعد استشهاده وكان الرجل قد أعد ابنه محمداً بالمدينة للإمامة وقد تلقب بالمهدى وبالنفس الزكية ، كما خرج ابنه الآخر إبراهيم بالبصرة ، وهم أيضاً ينفذون ما نسب إلى الزيدية من جواز خروج إمامين فاطميين عادلين فى وقت واحد ، وقد قتل الاثنان عام ١٤٥ هـ . وفيهم يقول دعبل بن على الخزاعى :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ نالها صلواتى
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وأخرى بباخمرا لدى الغربات
فأما الممضات التى لست واصفاً مبالغها مـنى بكنه صفات
قبور لدى النهرين من أرض كربلا معرسهم منها بشط فرات

قلت إن عبد الله بن الحسن وكذلك أخاه الحسن بن الحسن قد اعتنقا مذهب الزيدية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر [1] . وقد أعد عبد الله بن الحسن ابنه محمداً كما أعد ابنه إبراهيم للخروج . وكانت المعتزلة قد تكونت فعلاً كحزب سياسى ، وقد أثرت المعتزلة فى زيد بن على – كما قلنا – ، وخرج منفذاً لأصلها الخامس وما لبث المعتزلة أن سيطرت على يزيد بن الوليد ، فخرج يزيد ابن الوليد على أبيه الوليد «وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقه من المعتزلة وغيرهم على الوليد لما ظهر من فسقه وشمل الناس جوره . وكان يزيد يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه فى الأصول الخمسة «ويرى المسعودى أن المعتزلة تفضل يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز» [2] .

ولكن يزيد بن الوليد لم يعش فى خلافته سوى خمسة أشهر وليلتين ثم مات ، ورأى المعتزلة أن يتجهوا إلى آل البيت ، بعد أن عاد الأمر إلى المروانية يحكمون بالنار والحديد ويشيعون الظلم والفسق والفجور فى العـالم الإسلامى . وفى الأبواء اجتمع بنو هاشم وبايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن وبايع معهم أبو جعفر المنصور ما عدا الإمام جعفر الصادق الذى أبى أن يبايع ، وأخبرهم أن محمداً وإبراهيم سيقتلان فى خروجها وأن الأمر لبنى العباس .

ويذكر الأصبهانى أن أبا جعفر المنصور كان قد عقد لمحمد بن عبد الله بن الحسن فى ناس من

---

(١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) المسعودى : مروج ... ج ٢ ص ١٩١ إلى ١٩٣ .

المعتزلة . ولكن يبدو أن المعتزلة انقسمت فيما بعد حول بيعة أبى جعفر المنصور لمحمد بن عبد الله الحسن ، فقد دعا محمد بن عبد الله الحسن عمرو بن عبيد لبيعته فأبى «وكان عمرو حسن الطاعة فى المعتزلة ، خلع نعله ، فخلع ثلاثون ألفاً نعالهم» [١] وكان يقول : «لا أبايع رجلاً حتى أختبر عدله» فالمعتزلة إذن لم يقفوا جميعاً بجانب محمد بن عبد الله بن الحسن فى خروجه على أبى جعفر المنصور [٢] . وقد حفظ أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد هذه المنة . وفى الحقيقة إن حركة محمد بن عبد الله كانت أشبه بحركات الخوارج ، وقد دعا المنصور محمد بن عبد الله بالخارجى فى حديث له مع أبى مسلم العقيلى [٣] . بل إن عبد الله بن الحسن نفسه كان صديقاً ليسير الخارجى [٤] .

فحركة محمد بن عبد الله كانت مزيجاً من عقائد معتزلية ، فمن الثابت أنه تتلمذ هو وجماعة من بنى طالب على أبى أيوب بن الأوبر داعية واصل بن عطاء ورسوله للمدينة [٥] . ثم اعتنق مذهب الزيدية فى الإمامية ، ثم مزج كل هذا بفكرة الخوارج فى الخروج وعدم التقية . وقد أوهمه أبوه وأهل بيته أنه مهدى الزمان وأنه سيخرج فيملأ الأرض عدلاً ، وحاول جعفر الصادق بكل جهده أن ينهاهم عن هذا ، وتنبأ لهم بقتله وقتل أخيه فنسبوه إلى الحسد والمقت لهما .

ومنذ صباه أخذ الفتى يتوارى ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ويعلن أنه المهدى . وأنكر عمرو بن عبيد على محمد دعوته ، وكان هذا سبباً فى انفضاض الناس من حوله ، ويبدو أن محمد بن عبد الله لم يكن قدرياً خالصاً ، بل إنه كان يدعى الاعتزال «لاشتمال الناس» أى لجمع الأنصار [٦] . ثم اختلف الشيعة أيضاً فى خروجه ، فكثير من أتباع جعفر الصادق لم يحاربوا مع محمد بن عبد الله وإن كان موسى وعبد الله ابنى جعفر الصادق قد شاركا فى القتال مع محمد ، وانقسم أولاد زيد بن على قسمين . البعض مع أبى جعفر المنصور والبعض فى رجال محمد بن عبد الله . كما انقسم أيضاً الفقهاء غير أن العدد الكبير منهم مشارك فى الخروج . كابن هرمز الفقيه المشهور وكذلك محمد بن عجلان فقيه المدينة ورائدها ومالك بن أنس . وقد سأله أهل المدينة عن بيعتهم لأبى جعفر المنصور فأفتى «إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين» فأسرع الناس إلى مبايعة محمد بن عبد الله [٧] وعدد كبير آخر من كبار المحدثين والفقهاء كالمنذر بن المنذر وأبو بكر بن أبى سيره وعبد الله بن عطاء وأولاده التسعة وعبد الرحمن بن أبى الموالى وأبو سفيان الثورى وهو القائل «وهل أدركت خيار الناس إلا الشيعة» وقد أعطانا سفيان الثورى سر انصراف الناس عن محمد بن عبد الله «إلا أن قوماً من هذه الرافضة وهذه المعتزلة قد

(١) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٤٨ .
(٢) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٤٥ .
(٣) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٢٣٧ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٦٢ .
(٥) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٦٥ .
(٦) نفس المصدر : ص ١٧٢ .
(٧) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ١٩٥ .

بغضوا هذا الأمر للناس[١] فكثير من أهل السنة إذن الذين كانوا يكرهون حكم العباسيين – كما كرهوا حكم الأمويين – لم تطمئن أنفسهم إلى القتال مع طوائف متباينة التفت حول محمد بن عبد الله، غير أن الاسم الذى غلب على أنصار محمد بن عبد الله بن الحسن هو الزيدية ويقول المسعودى «وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعمائة رجل»[٢].

وكما فشلت حركة الزيدية فى الكوفة أولا وفى المدينة ثانيا – والبلدتان كما نعلم موطنا الشيعة – فإننا نجدها تقوم فى بلد اشتهر بأمويته وبعثمانيته، وهو البصرة. ولعل البصرة وجدت منفذاً لهذا – أى منفذاً من الحكم الهاشمى العباسى، وفى حركة مضادة – وإن كانت أيضا من علوى – وقامت الزيدية فى البصرة مع الابن الثانى لعبد الله بن الحسن وهو الإمام إبراهيم بن عبد الله بل خرج إليه جماعة من الكوفة من أصحاب زيد بن على متنكرين فى زى الحجاج حتى لحقوا به بالبصرة وعلى رأسهم مسلم بن أبى واصل (الحذاء)[٣]. وكان إبراهيم بلا شك أقوى بيانا وأكثر شجاعة من أخيه محمد بن عبد الله وأجابه وجوه أهل البصرة، وفتيان العرب فيها. ووقف إبراهيم يخطبهم فقال: ياأهل البصرة لقيتم الحسنى. آويتم الغريب، لا أرض ولا سماء، فإن أملك فلكم الجزاء وإن أهلك، فعلى الله عز وجل الوفاء» يقول الأصبهانى «فجعلت الزيدية هذه الكلمة ندبة تندبه بها بعد قتله، مشبهينها بالنوح» ولكن إبراهيم أيضا اختلف مع الزيدية، فقد أتى عيسى بن زيد إلى البصرة، ودعى الزيدية إلى إمامته فأجابوه إلى هذا، ولكن أهل البصرة – وهم سنة وجماعة – لم يوافقوا على إمامة عيسى بن زيد فاتفق عيسى بن زيد وإبراهيم على قتال جعفر، حتى إذا تم لهم النصر نظروا فى الأمر. ثم ما لبث أن اختلف الاثنان[٤] فقد صلى إبراهيم على جنازة بالبصرة فكبر عليها أربعا، فاعترض عليه عيسى بن زيد بن على، قائلا «لم نقصت واحدة، وقد عرفت تكبير أهلك؟» فقال: «إن هذا أجمع للناس ونحن إلى اجتماعهم محتاجون وليس فى تكبيرة تركتها ضرر إن شاء الله» فغضب عيسى واعتزله وقتاً ما، وبلغ الأمر المنصور فأرسل إلى عيسى يطلب منه أن يخذل الزيدية عن إبراهيم[٥] ولكن عيسى بن زيد تروى فى الأمر وما لبث أن عاد للقتال مع إبراهيم.

ونستنتج من هذا أن الزيدية كانت فئة قليلة فى البصرة، وأن إبراهيم أراد أن يجذب إليه أهلها، وكانوا أهل سنة وجماعة، فكبر أربعاً، وهى عادة السنة، فاعترض عليه عيسى بن زيد وهذا مافت فى عضد الزيدية ولا شك أن خذلان هذا البعض من الزيدية لإبراهيم – إن صحت الرواية – كانت

---

(١) الأصبهانى: مقاتل الطالبيين ص ٢٠١.
(٢) المسعودى: ج ٢ ص ٢٣٩.
(٣) الأصبهانى: مقاتل... ص ٢٣٩.
(٤) الأصبهانى: مقاتل الطالبيين. ص ٢٢٦، ٢٢٧.
(٥) الأصبهانى: مقاتل... ص ٢٤٩.

عاملاً من عوامل هزيمته ، وكان أيضاً من عوامل هزيمته أن أهل البصرة لم يدافعوا بيقين كامل عن أحقية إبراهيم فى الخلافة والإمامة .

كما أن كثيرين من أهل السنة لم يتابعوه فرفض خالد بن عبد الله الواسطى شيخ أهل السنة والجماعة إعلان بيعته ، كما كان يكره أهل البصرة بعضاً من رجاله وبخاصة الفضل بن محمد الضبى ، وكان يستغل قيام إبراهيم بالدعوة إليه فى بيته ، فيحتال لنشر المذهب الشيعى خلال إقامة إبراهيم لديه ، ولكن إبراهيم كان زاهداً عابداً فتابعه عباد البصرة وقراؤها وفقهاؤها ، ولم يتابعه جمهور البلدة ، وحين قامت الحرب وأصابه سهم غائر ، كما أصاب زيد بن على فى طرقات الكوفة من قبل ، طافت به البقية من الزيدية التى ثبتت معه وأكبوا عليه يقبلون يديه ورجليه ويقاتلون دونه لا يبالون . وقد ترك لنا أبو الفرج الأصفهانى ثبتاً طويلاً بأسماء المحدثين والفقهاء والرواة الذين شاركوا إبراهيم خروجه : وعلى رأسهم أبو حنيفة وزفر بن الهذيل تلميذ أبى حنيفة المشهور ، بل إن زفراً يقول : «إن أبا حنيفة كان يجهز فى أمر إبراهيم جهزاً شديداً ويفتى الناس فى الخروج معه» فقلت له : والله ما أنت بمنته عن هذا حتى توفى ، فتوضع فى أعناقنا الحبال» بل إن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم هو ومسعر بن مكدام ، «يدعوانه إلى أن يقصد الكوفة ويضمنا له نصرتها وإخراج أهل الكوفة معه فكانت المرجئة تعتبه بذلك» [١] وكان يقول : إن القتل مع إبراهيم يعدل القتل (لو قتل الإنسان يوم بدر) ، والشهادة مع إبراهيم خير للإنسان من الحياة [٢] . وكان مسعر بن مكدام زعيم مرجئة الكوفة . وقد عاتبته المرجئة كما عاتبت أبا حنيفة لدعوتها لإبراهيم ويبدو أن الزيدية كانت قد قويت فى الكوفة وقد ذكر أبو حنيفة فى كتابه لإبراهيم أن الزيدية فى الكوفة على استعداد للقضاء على المنصور فيها . وقد قيل إن المنصور لأجل وقوفه مع إبراهيم فى حركته . وأيده أيضاً عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء والأزرق بن تمة من أصحاب عمرو بن عبيد [٣] .

ويصف لنا الأشعرى فى مقالات الإيسلاميين حركة إبراهيم فيقول : «ثم خرج بعد محمد بن عبد الله أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب بالبصرة ، وغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد ، وشخص عن البصرة فى المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن على ، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم فحاربها إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة ين يديه [٤] وهذا يبين حقيقة الزيدية للمرة الثالثة — مجموعة من القراءة والعباد والفقهاء ، مع فئة من الزيدية وفئة من المعتزلة وكان أمر الزيدية بعد إلى عيسى بن زيد ، بنص

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٤٤ و ص ٢٤٦ .
(٣) الأصبهانى : مقاتل ص ٢٥ .
(٤) المصدر السابق : ص ٢٥٧ .

من محمد بن عبد الله ، فإن محمد بن عبد الله جمع إليه وجوه الزيدية ، ومن حضر معه من أهل العلم وعهد إليه إنه إن أصيب فى وجهه ذلك فالأمر إلى عيسى بن زيد وكان عيسى «أفضل من بقى من أهله ديناً وعلماً وورعاً وزهداً وتقا وأشدهم بصيرة فى أمره ومذهبه مع علم كثير وكان محدثاً – طلعة فى كل مكان – وروى عن أبيه وجعفر بن محمد وأخيه عبد الله بن محمد سفيان الثورى والحسن بن صالح ومالك بن أنس وغيرهم من كبار المحدثين»(١) .

وقد اختلف عيسى كما رأينا مع إبراهيم – وفى رواية أنه اعتزل عنه وفى رواية أخرى أنه قاتل معه حتى مقتل إبراهيم ، وأراد الزيدية أخذ العهد له – ولكنه أبى – وتوارى ، يتدارس العلم والحديث والسيرة ، ويقابل فى تواريه أهل الحديث من الزيدية فى الكوفة والمدينة ومكة حين يأتى للحج متنكراً ويعد لحركة زيدية خطيرة وقد عرف باسم «موتم الأشبال» لقوته الخارقة ، ثم طلب منه الزيدية الخروج بعد مدة وفى حكم المهدى العباسى ، وكان الحسن بن صالح من رجال الكوفة وصاحب ديوانه وفى بيته نزل عيسى. وقال له الحسن بن صالح يوماً : «حتى متى تدافعنا بالخروج ، وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل ؟» فقال له عيسى : «ويحك أتكثر على العدد وأنا بهم عارف ؟ أما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل أعلم أنهم يريدون الله عز وجل ويبذلون أنفسهم له ويصدقون للقاء عدوه فى طاعته لخرجت قبل الصباح حتى أبلى عند الله عذراً فى أعداء الله وإجراء أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه» ولكنه رفض . وهو يعلم يقيناً أن قلوب الناس معه وسيوفهم عليه ومع أعدائه . . . وكان دعاته يعملون وكان صاحبه الحسن بن صالح هو الذى ينشر الدعوة مع ثلاثة من أشهر أتباع الزيدية هم ابن علاق الصيرفى ، وحاضر مولى زيد ، وصباح الزعفرانى وطلبهم المهدى ، فتوارى ابن علاق وصباح ووقع حاضر فى يدى المهدى ، فاستجوبه عن مكان عيسى ، فأبى أن يدله عليه ، فقتله ، واختفى الآخران . فلما مات عيسى قال صباح للحسن بن صالح «أما ترى هذا العذاب والجهد الذى نحن فيه بغير معنى ؟ ! قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله وإنما نطلب خوفاً منه ، وإذا علم أنه مات ، آمنوا وكفوا عنا . فدعنى آتى هذا الرجل – يعنى المهدى – فأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا وخوفنا» . فقال الحسن بن صالح : «لا والله لا نبشر عدو الله بموت ولى الله ابن نبى الله فو الله لليلة يبيتها خائفاً منه أحب إلى من جهاد سنة وعبادة بها» وهذا يدل على أن الحركة الزيدية فى الكوفة كانت تعمل عملها فى الخفاء وتستعد لضربتها القادمة وأن الإمامية لم تكن المسيطرة عليها . ولكن قضى على الحركة وفاة عيسى بن زيد – وقد كان عيسى من أخطر رجال الحركة الزيدية – ثم مات صاحبه الحسن بن صالح بعد وفاة

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الأصبهانى : مقاتل : ص ٢٧٢ .

الإمام عيسى بشهرين . وذهب صباح الزعفرانى داعية عيسى بن زيد إلى بغداد – ومعه ابنا عيسى بن زيد «أحمد ، وزيد» – وطلب مقابلة الخليفة المهدى ، وتبين لنا المقابلة إلى أى مدى ذهب زيود الكوفة فى حب زيد وأولاده فقد أخبر صباح الخليفة أنه إنما أتى ليضع ولدى عيسى بن زيد وهو ابن عمها ، لكى ينشآ نشأة طيبة صالحة ، وأنه لا يأبه هو نفسه بعقاب الخليفة ولا يريد جزاء منه ولا مكافأة ، ولولا كبر سنه وفقره لما أتى إليه بهما . وسر المهدى العباسى وعاش الطفلان فى أكنافه. وقد بقى أحمد بن عيسى إلى خلافة الرشيد وتنسك وتزهد وكان الزيدية يجتمعون إليه ، فأخذه الرشيد وحبسه مدة ولكنه تخلص من الحبس ، وتوارى .

وانتشرت الزيدية فى بغداد ، فقد قام فيها أيضاً على بن العباس من ولد الحسن بحركة زيدية ، ولكن المهدى العباس قضى عليها ، وسجن على بن العباس ثم سمه . غير أن المهدى العباسى لم يبلغ مبلغ أبيه فى معاملته القاسية لبنى الحسن فلما توفى وتولى ابنه موسى الهادى بدأ ولاته بإيحاء منه ، يعاملون بنى طالب أسوأ معاملة ، وقام الحسين بن على بن الحسن والمعروف «بصاحب فخ» بحركة زيدية أخرى بعد أن تحمل من عامل الهادى بالمدينة هو وأهل بيته أشد أنواع المهانة والاضطهاد . وخرج الحسين مع جماعة من بنى الحسن إلى مكة يدعون إلى «الرضا من آل محمد» ، وفى فخ قابلتهم جيوش العباسين وقتلتهم واحداً بعد واحد . ومن العجب – أن موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق نهاهم عن الخروج . كما فعل أبوه من قبل مع محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم ، بل أخبرهم : أنهم مقتولون بفخ [1] وحين يذكر عيسى بن عبد الله قصتهم واستشهادهم العظيم فى وادى الحجاز ، يشير إلى أنهم «هيجوا» أى أرغموا على الخروج حين عم ظلمهم وظلم الناس .

فلا بكين على الحسين بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى أثووه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة فى غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هيجوا لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن
هدى العباد بجدهم فلهم على الناس المنن

ثم خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب على الرشيد وكان يحيى أخذ العلم عن جعفر الصادق ، وشارك فى حركة الحسين شهيد فخ . وذهب يحيى إلى الديلم وتابعه بعض زيدية الكوفة من الزيدية البترية ، وهم –كما سنرى بعد – يتولون أبا بكر وعمر . ثم عثمان فى ست سنين من إمارته ،

(١) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٢٨٨–٣٠٥ .

ثم يكفرونه فى باقى عمره وقد اختلفت الزيدية البترية مع يحيى . واضطر يحيى إلى مصالحة الرشيد – بعد أن أعطاه أماناً ولكن ما لبث الرشيد أن حبسه ثم قتله – فى قصة طويلة مؤلمة (١) .

وتظهر الزيدية مرة أخرى مع إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فقد أفلت إدريس من واقعة فخ وهرب إلى المغرب . وهناك تتبعه هارون الرشيد – ويذكر الأصبهانى أن يحيى بن خالد البرمكى دعا إليه سليمان بن جرير الجزرى وكان من متكلمى الزيدية البترية ومن أولى الرياسة فيهم ووعده وعوداً كثيرة أن يذهب إلى المغرب وأن يدس السم لإدريس ، ويذكر أن سليمان بن جرير سافر إلى المغرب واحتمى بإدريس فأنس به واجتباه «وكان ذا لسان وعارضة وكان يجلس فى مجلس البربر فيحتج للزيدية ويدعو إلى أهل البيت ، وقد أعجب به إدريس وقربه إليه ، حتى تمكن سليمان بن جرير من دس السم له (٢) .

وإذا صح هذا ، فيكون الزيدية البترية إذن قد انقلبت على أولاد الحسن بن على واختلفت معهم مرة مع يحيى بن عبد الله ومرة مع إدريس بن عبد الله .

وبقى العباسيون يخشون الزيدية فقتل هارون الرشيد عبد الله بن الحسن بن على بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب بدعوى أنه يجمع الزيدية أيضاً للخروج (٣) .

ثم كتبت الزيدية ملحمة أخرى من الملاحم حين خرج محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين أيضاً هو ومحمد بن إبراهيم – وكان داعيهم الأكبر فى فارس – من أكبر فرسان الإسلام هو أبو السرايا ، السرى بن منصور «وكان علوى الرأى ذا مذهب فى التشيع ، «ولكنه حارب مع الزيدية واستولى على الكوفة وأغلب فارس وانتصر على العباسيين ، ولكن أهل الكوفة خذلوه فى نهاية الأمر ، وقد قتل فيما بعد هو ومحمد بن محمد وفى مكة خرج محمد بن جعفر بمائتى رجل من الجارودية الزيدية وعليهم ثياب الصوف وسيماء الخير عليهم ظاهرة (٤) ثم خرجت الزيدية الجارودية مع محمد بن القاسم ، من أحفاد الحسن بن على – ويذكر الأصفهانى أنه كان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد ، ويرى رأى الزيدية الجارودية ، وقد تفرق عنه أهل الكوفة لما عرفوا زيديته وميله إلى المعتزلة . وقد عرف محمد بن القاسم بصاحب الطالقان ، وقد انتهى الأمر بأسره وسجنه ، ومات فى سجنه (٥) .

ثم خرج فى أيام المستعين يحيى بن عمر من أحفاد زيد بن على ، واجتمع عليه أهل الكوفة أيضاً ، وكان له أنصار كثيرون يقول الشهرستانى : «خرج ودعا الناس واجتمع عليه خلق كثير» ، ويبدو أن

---

(١) الأصبهانى : مقاتل .. ص ٣٠٧ .
(٢) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٢٦ .
(٣) الأصبهانى : مقاتل الطالبيين ص ٣٧٢ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل ... ص ٢٥٣ .
(٥) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٦ .

الشيعة كانت قد استقرت أيضاً فى بغداد . ووافقت دعوته «إلى الرضا من آل محمد» هوى فى نفوس البغداديين . يقول الأصفهانى : «وكان هوى أهل بغداد مع يحيى ولم يروا قط مالوا إلى طالبى خرج غيره» ولما قتل يحيى فى الكوفة وحمل رأسه إلى بغداد ، جعل أهلها يقولون «إن يحيى لم يقتل ميلاً منهم إليه ، وأخذ الناس يصيحون «ما قتل وما فر ، ولكن دخل البر [١] » وهذا يدل على انتشار المذهب الشيعى حينئذ فى بغداد ، وإيمان عدد كبير منهم بالغيبة ، هذا بالرغم من أن يحيى بن عمر كان يقاتل على قاعدة زيدية .

وتعددت الحركات الزيدية ، ولكنها فشلت جميعاً حتى ظهر الإمام الناصر الحسن بن على من نسل الحسين والمعروف بالأطروش يقول الشهرستانى : «ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش فطلب مكانه ليقتل ، فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلق والجبل ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد ، فدعا الناس دعوة الإسلام على مذهب زيد ، وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرين ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة [٢] .

ثم انتقل المذهب الزيدى إلى اليمن على يد الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من أحفاد الحسن ، وقد ولد بالمدينة سنة ٢٤٥ . والإمام الهادى زيدى المذهب معتزلى العقيدة ، وقد بايعه أهل اليمن عام ٢٨٤ ، وأخذ يحارب التشيع الغالى ومذهب القرامطة ، وفى سنة ٢٩٢ اشتبك فى حروب عنيفة مع القرامطة ، حتى مات عام ٢٩٨ . وتولى الأمر بعده أبناؤه .

---

(١) الأصبهانى : مقاتل الطالبين ص ٤١٣

(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٥٤

الفصل الخامس

تطور العقائد الزيدية الكلامية

ألقى الإمام زيد بن على بآرائه فى الإمامة وبعقائده الدينية ، فشغلت بها مجامع المسلمين جميعاً فى ذلك العصر ، وعاشت آراؤه بعده ، وتناولها أتباعه وتلامذته بالتفسير ، واختلفوا عليها . واختلافاتهم وتفسيراتهم إنما استلهمت من حياة زيد وآرائه . وقد قسم مؤرخو العقائد الإسلامية الزيدية إلى فرق متعددة سنحاول أن نعطى فى هذا الفصل صورة لها .

أول فرقة نشأت — فيما يبدو — كفرقة زيدية هى الجارودية نسبة إلى مؤسسها أبى الجارود — ويكنى أبا النجم زياد بن المنذر الهمدانى الخراسانى العبدى ويقال له أحياناً النهدى والثقفى الكوفى (توفى ما بين عام ١٥٠هـ و ١٦٠ هـ) (١) ويبدو أنه أخذ العلم أولاً على محمد الباقر ، ثم فارقه . ولقبه سرحوبا ، وفسر الباقر نفسه سرحوبا بأنه شيطان أعمى يسكن البحر (٢) ، أما جعفر الصادق فقد لعنه وقال «إنه أعمى القلب أعمى البصر» أما أهل السنة فقد اعتبروه رافضياً يضع الحديث فى مثالب الصحابة ويرى فى فضائل أهل البيت عنهم أشياء لا أصول لها . بل اعتبروه من أهل الكوفة الغلاة (٣) ويبدو أنه اتصل بزيد بن على فى الكوفة ، وأصبح من رجاله المعدودين ، وقد شارك ، بالرغم من عماه ، فى المعركة مع زيد هو ورجاله ، وثبت معه ، حين تخلى عنه شيعة الكوفة من الروافض» .

ولقد عادى الإمامية الجارودية عداوة مرة ، ولقد رأينا كيف أن الإمامين محمد الباقر وجعفراً الصادق تبرآ منه . ويتضح هذا من إعلانه للأصل الهام للزيدية وهو «أن الإمامة قد صارت بعد مضى الحسين فى ولد الحسن والحسين فهى فيهم خاصة دون سائر ولد على بن أبى طالب» وبهذا الأصل خرج على إمامة الباقر والصادق . ثم يضيف إلى هذا الأصل شروط الخروج «وهم كلهم فيها شرع سواء ، من قام منهم ودعا لنفسه فهو الإمام المفروض الطاعة بمنزلة على بن أبى طالب واجبة إمامته من الله عز وجل على أهل بيته وسائر الناس كلهم . وهذا شرط يفتقد أيضاً فى الباقر والصادق . ثم يشير إلى قعود كل من الباقر والصادق ويقول «من تخلف عنه فى قيامه ودعائه إلى نفسه من جميع الخلق فهو كافر» ثم يغمز كلا من الباقر والصادق من طرف خفى «ومن ادعى منهم الإمامة — وهو قاعد فى بيته

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٢١ والشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٥٥ .
(٢) النوبختى فرق الشيعة ص ٥٥ .
(٣) تهذيب التهذيب : ص ٢٨٦ .

مرخى عليه ستره ، فهو كافر مشرك» ، «وكل من اتبعه على ذلك وكل من قال بإمامته» وقد دعا هذا إلى كراهية الإمامية للجارود ، وللجارودية وتسميته بسرحوب وفرقته بالسرحوبية ، ويبدو أنه كون عقائده قبل أن يتصل بزيد ، فلما أعلن زيد دعوته . انضم إليه هو وأصحابه وقالوا بإمامته [١] .

ويختلف أيضاً أبو الجارود مع الإمامية فى أنه يرى أن النبى ﷺ نص على على عليه السلام بالوصف لا بالتسمية ، والناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف ، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا . أو بمعنى أدق إن أبا الجارود لم يتول الشيخين –كما فعل زيد بن على– بل كفرهما ، وكفر الصحابة جميعاً . بل ذهب أبو الجارود إلى أن الإمام بالنص سواء من النبى أو من على على الحسن والحسين بعد على ، وقد كفر الناس أيضاً بتركهم الاقتداء بهما بعد أبيهما [٢] ويقص لنا النوبختى – وهو شيعى إمامى نفس الشىء عن الجارودية فيقول «قالوا بتفضيل على عليه السلام ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه ، وزعموا أن من دفع عليا عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت فى تركها بيعته وجعلوا الإمامة بعده فى الحسن بن على عليهما السلام ثم فى الحسين عليه السلام ثم هى شورى بين أولادهما فمن خرج منهم مستحقاً للإمامة فهو الإمام ويرى النوبختى أن من الجارودية تشعبت صفوف الزيدية [٣] فالجارودية إذن هى الزيدية الأولى .

نسبت الجارودية العلوم الخاصة إلى الأئمة من آل البيت جميعاً يلقى فيهم فطرة وضرورة قبل التعلم ، «إن علم ولد الحسن والحسين عليهما السلام كعلم النبى ﷺ ، فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة بل إنهم متساوون فيه من المهد» الحلال حلال آل محمد ﷺ وآله والحرام حرامهم والأحكام أحكامهم وعندهم جميع ما جاء به النبى ﷺ وآله كامل عند صغيرهم وكبيرهم والصغير منهم والكبير منهم فى العلم سواء لا يفضل الكبير الصغير ، من كان منهم فى الخرق والمهد إلى أكبرهم سناً وليس يحتاج أحد منهم أن يتعلم من أحد منهم ولا غيرهم ، العلم ينبت فى صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، والله عز وجل قد علمهم بلطفه كيف شاء . فنحن إذن نعود هنا إلى فكرة الغلاة فى العلم الإلهى ، وأنه ينتقل من إمام إلى إمام ، أو بمعنى أدق أصبح الإمام عنصراً أبستيمولوجياً . يفيض العلم منه وينتقل . ويحاول أن يعلل النوبختى قول الجارودية فكرة فطرية العلم عند الأئمة : وإنما قالوا بهذه المقالة كراهة أن يلزموا الإمامة بعضهم دون بعض ، فينتقض قولهم إن الإمامة صارت فيهم جميعاً فهم فيها شرع سواء [٤] ، قد يكون تعليل النوبختى معقولاً إلى حد ما ولكن يبدو أن السبب العام فى قول

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٥ .

(٢) الاشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٧ . والبغدادى : الفرق ٢٣ والشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة ص ٢١ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٥٦ .

الجارودية بهذا هو ضخامة فكرة العلم السرى المنسوب إلى الأئمة وانتشار هذه العقيدة فى الكوفة ، بل إننا نرى زيدياً معتدلاً – هو هارون بن سعيد العجلى – هو الذى نقل لنا كتاب الجفر المنسوب إلى جعفر الصادق . لقد كان من الشائع فى الكوفة أن لدى أهل البيت جميعاً علم الأولين والآخرين وأنه انتقل إليهم من محمد ﷺ إلى على ثم إلى أولاده من بعده . ومن العجب أن زيداً بن على هو الذى كره الجامع الغنوصية فى الكوفة – ولعل استعانته بواصل بن عطاء وموافقته على منهجه العقلى إنما كان للقضاء على الغنوصية ، ثم يقع أتباعه فى غنوصية كاملة . بل ذهب البعض منهم إلى أن علياً علم ما علمه رسول الله ﷺ من علم الدنيا والآخرة ، وما كان وما هو كائن ، وعلم على بعد رسول الله علماً لم يكن يعلمه ، وأن علياً أعلم من رسول الله ﷺ ، وجعلوا الأئمة بعده يرثون ذلك منه إلى يومنا هذا الأكبر فالأكبر ، وأن العلم يولد معه لا يحتاج إلى تعليم [1] اختلطت إذن فكرة العلم السرى بعقائد الزيدية وأثرت فى أكبر فرقها ، ولكن ما لبثت سائر الفرق الزيدية الأخرى أن أنكرت ذلك ووسعوا الأمر فقالوا : العلم مثبوت مشترك فيهم وفى عوام الناس هم والعوام من الناس فيه سواء . وبهذا فتحوا باب الاجتهاد والاختيار والرأى[2] .

والآن . . . وضحت لنا معالم الجارودية ، مزيج من شيعة غالية وزيدية ، أى رافضة وزيدية .

وأخيراً ، عادت الجارودية ، رافضة بعد أو شيعة غالية فاختلفت فى « التوقف والسوق » وآمنوا بالمهدية وخلود الإمام فشاركوا فى حركة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن . واختلفوا بعد مقتله فنهم من قال : إنه لم يقتل وهو حى ، وسيخرج ويملأ الأرض عدلاً . ومنهم من أقر بموته وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن عمر بن على بن الحسين على صاحب الطالقان . ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر . حدث كل هذا بعد موت أبى الجارود ، والنوبختى يرى « أن هؤلاء الذين وضعوا الإمامة على هذا النسق . على ، ثم زيد بن على بن الحسين ، ثم يحيى بن زيد ، ثم عيسى بن زيد بن على ثم محمد بن عبد الله بن الحسن هم الحسينية من الزيدية . ولا شك أن الفرق تتداخل وينطوى الواحدة منها فى الأخرى . وقد تشتت الجارودية بعد ذلك فى الإمامية والزيدية ، ولم يظفر أبو الجارود بمحبة أى من طوائف الشيعة المختلفة ، وإن كان هو يمثلها جميعها .

وقد ذكر أن من أصحابه فضيل ين الزبير الرسان وأبا خالد عمرو الواسطى ، وقد كان هذا الأخير راوياً لزيد ، وقدم لنا الفقه الزيدى فى كتاب الزيدية المشهور المجموع ، ومنصور بن أبى الأسود ، وقد اعتبرهم النوبختى الأقوياء من الزيدية [3] .

---

(١) الملطى : التنبيه ص ١٥١ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٨ .

(٣) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٦ ، ٥٧ .

أما الفرقة الثانية من الزيدية فهى الصالحية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حى الهمذانى الكوفى ، وكان الحسن بن صالح من أعظم فقهاء الإسلام وعبادهم ومتكلميهم وذكر عنه أنه « اجتمع فيه إتقان وفقه وعبادة وزهد ، وقد طلب منه أن يصف غسل الميت فما قدر عليه من البكاء » وكان هو وأخوه على وأمهما من العبادة أن قسموا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان كل واحد يقوم ثلثاً ، فماتت أمهما فاقتسموا الليل بينهما ثم مات على فقام الحسن الليل كله » وكان من أصحاب سليمان الدارانى عابد الشام الكبير ، وكان الدارانى يقول عنه : « ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه من الحسن . قام ليله بعم يتساءلون ، فغشى عليه فلم يختمها » ويذكر عنه أيضاً أنه كان ممن تجرد للعبادة ورفض الرئاسة . وقد كرهه بعض علماء الفقه من أمثال سفيان الثورى وقال فيه « ذاك رجل يرى السيف على الأمة » (١) . أى أنه يرى الخروج .

ويذكر ابن النديم أن الحسن بن صالح ولد سنة مائة ، وكان من كبار الشيعة الزيدية وعظمائهم وعلمائهم ، وكان فقيها متكلماً ، وأنه كان له أخوان على وصالح وكان الاثنان على مذهب أخيهما ، وكان على بالذات متكلماً ، ويرى ابن النديم أن أكثر علماء المحدثين والفقهاء زيديه .

ثم يذكر أن الحسن بن صالح مات سنة ثمان وستين ومائة ، متخفياً وله من الكتب « كتاب التوحيد . وكتاب إمامة ولد على من فاطمة ، وكتاب الجامع فى الفقه (٢) » . وقد حظى الحسن بن صالح باحترام أهل السنة ، وقد ذكر البغدادى أن الحسن بن صالح وأصحابه أقرب الناس إلى السنة ، وقد أخرج له مسلم ، وذكره البخارى فى التاريخ الكبير وقال الحسن بن صالح بن حى الكوفى : سمع سماك بن حرب ومات سنة سبع وستين ومائة وهو من ثوار همدان وكنيته أبو عبد الله (٣) . فالجمهور إذن على توثيقه كمحدث .

شارك الحسن بن صالح وأهل بيته فى الخروج مع زيد بن على ، ولكن لا يبدو أنه شارك فى خروج إبراهيم بن عبد الله . ثم حين قتل هذا الأخير وتوارى عيسى بن زيد وجد فى دور بنى صالح بن حى ملجأ آمناً . وقد لزم الحسن بن صالح عيسى بن زيد فى تواريه ، وكان صاحبه ووزيره ، ذهب معه إلى الحج ، وكانا يتذاكران العلم ، وقص لنا الأصبهانى صاحب كتاب « مقاتل الطالبيين » مقابلة الاثنين لسفيان الثورى ، وقد دعا الحسن بن صالح سفيان « بالشفاء » وهذا ما يدل على أن الحسن بن صالح لم يتأثر بكراهية سفيان له (٤) . ثم أخذ الحسن بن صالح يجتمع بالزيدية وينظم الدعوة لعيسى

(١) تهذيب : التهذيب ج ٢ ص ٢٨٥ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٢٧ .
(٣) البغدادى : الفرق . . . ص ٢٤ .
(٤) الأصبهانى : مقاتل . . . ص ٢٧٧ .

ابن زيد، وقد أحصى له فى ديوانه عشرة آلاف رجل . وطلب من عيسى بن زيد الخروج ولكن عيسى رفض . وقد مات الحسن بن صالح بعد وفاة إمامه بشهرين ، وقد ذكرنا من قبل – ونحن نتكلم عن عيسى بن زيد – كيف نهى الحسن بن صالح صباح الزعفرانى أن يبلغ خبر وفاة عيسى بن زيد للمهدى العباسى . وحين بلغ المهدى العباسى وفاة الحسن بن صالح سجد وقال : الحمد لله الذى كفانى أمره ، فلقد كان أشد الناس على ولعله لو عاش لأخرج على غير عيسى [١] فالحسن بن صالح إذن كان أخطر رجال الحركة الزيدية على الإطلاق . لقد اختص فيما يبدو بأبناء زيد وبقى مخلصاً لهم دون أولاد فاطمة الآخرين مدى حياته . ويذكر النوبختى أن أحد أبناء الحسن بن صالح بن حى خرج مع جماعة من أهل الكوفة – الزيدية البترية ، مع يحيى بن عبد الله بن الحسن والمشهور بصاحب الطالقان . فاختلف معه ثم فارقه [٢] . وهذا دليل واضح على أن الحسن بن صالح وأولاده أخلصوا لأبناء زيد بن على وهم من ولد الحسين .

والشخصية الثانية من شخصيات الفرقة الصالحية – وتنسب هذه الفرقة إليها أيضاً – هى شخصية «كثير النواء» وهو أبو إسماعيل كثير بن إسماعيل بن نافع النواء ، وسمى أتباعه بالبترية لأن كثيراً كان يلقب بالأبتر [٣] . وكان كثير النواء محدثاً ، وهو من رجال الميزان . ويذكر النوبختى أن البترية هم أصحاب الحديث . وعدّ منهم سفيان بن سعيد الثورى وشريف بن عبد الله وابن أبى ليلى ، بل محمد ابن إدريس الشافعى ومالك بن أنس . ومن الخطأ الكبير أن يعتبر هؤلاء جميعاً زيدية ، وإن كانت تشوبهم فعلاً شائبة من زيدية .

أما آراء الحسن بن الصالح أو الصالحة : فهى تكاد تكون آراء زيد بن على نفسها :

أولاً : إمامة المفضول وتأخير الفاضل والأفضل ، إذا كان الأفضل راضياً بذلك «إن علياً أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة ، ولكنه سلم الأمر راضياً ، وفوض الأمر إليهم طائعاً ، وترك حقه راغباً ، فنحن راضون بما رضى مسلمون لما سلم ، لا يحل لنا غير ذلك ، ولو لم يرض على بذلك ، لكان أبو بكر هالكاً» فالصالحية إذن تتولى الشيخين ، فى صورة من الصور . ولا ضير فى طريق توليهم هذا لها عند أهل السنة والجماعة فإذا انتقلنا إلى رأيهم فى عثمان : وهل هو مؤمن أم كافر ، نراهم مرجئة قالوا : إذا سمعنا الأخبار الواردة فى حقه وكونه من العشرة المبشرين بالجنة ، قلنا : يجب أن يحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة ، وإذا رأينا الأحداث التى أحدثها من استهتاره

---

(١) الأصبهانى : مقاتل . . . ص ٢٨٣ .

(٢) النوبختى : مقاتل الطالبين ص ٣١٢ .

(٣) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ .

ببنى أمية وبنى مروان واستبداده بأمور لم توافق الصحابة . قلنا : يجب أن يحكم بكفره . فتحيرنا فى أمره وتوقفنا فى حاله ، ووكلناه إلى أحكم الحاكمين [١] » . وهذا خلاف بلا شك مع أهل السنة والجماعة ، ولكنه خلاف رقيق ، ويتضح منه قبول الصالحية لأسانيد أهل السنة ، والحديث عن العشرة المبشرين بالجنة ، وقد أنكره الإمامية ثم نرى – كما قلت – روحاً مرجئية ، أو تطبيقاً لمبدأ الإرجاء فى عثمان رضى الله عنه .

أما النوبختى ، فقد اعتبر الزيدية المعتدلة أو الضعفاء هم العجلية : أصحاب هارون بن سعيد العجلى الكوفى ، وهو من أصحاب جعفر الصادق ، وممن نقل عنه كتاب الجفر ، واعتبر الصالحية والبترية فرقة من العجلية ، وعد من أصحاب العجلى – كثير النواء ، وهو الذى يدعى بالأبتر ، وكان أيضاً من رجال الحسن بن صالح ، ثم سالم بن أبى حفص والحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل وأبو المقدام ثابت الحداد .

ويرى النوبختى أن آراء هذه الفرقة سواء سميت بالعجلية أو البترية : هى الدعوة إلى ولاية على بن أبى طالب ثم خلطها بولاية أبى بكر وعمر . ويرى النوبختى « هم عند العامة أفضل الشيعة » وذلك أنهم يفضلون عليا ويثبتون إمامة أبى بكر [٢] » .

ثانياً : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : كانت هذه الفرقة الممثلة حقيقة لهذا المذهب . آمنوا به ، وقد تفرع عنه فكرتهم فى الخروج مع كل من ولد من على عليه السلام عن طريق فاطمة . ويثبتون الإمامة لمن شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين وكان عالماً زاهداً شجاعاً ، أى يثبتونها له عند خروجه ، وعليهم إذن القتال تحت رايته .

ثالثاً : إنكار التقية : ويتفرع عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « إنكار التقية » فلا يكون إماماً من يفتى بالباطل على شىء بوجه من الوجوه ولا فى حال من الأحوال . ولا يكون إماماً من يفتى تقية بغير ما يجب عند الله أو من يفتى على وجه التبخيت ، فيفتى يوماً بوجه ، ويوماً آخر بوجه ، فيفضل صحيحى العزم ممن يتدينو بإفتائه . ولا يكون إماماً من يرخى ستره ويغلق بابه . لا يسع الإمام إلا الخروج [٣] ؛ وفى هذا نقص كبير لمبادئ الإمامية .

أما الفرقة الثالثة الكبيرة من الزيدية فهى السليمانية وقد نسبت إلى مؤسسها سليمان بن جرير الرق [٤] وقد ظهر أيام المنصور ويبدو أنه كان إمامياً أول الأمر ، ثم كون فرقته بعد انفصاله عن جعفر

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ .ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٧ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٩ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٩ .

(٤) النوبختى : فرق ص ٦١ .

الصادق . وهو يوافق الصالحية فى أن الإمامة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين . وأنها تصح فى المفضول مع وجود الأفضل . فإمامة أبى بكر وعمر حق باختيار الأمة ، حق اجتهادى . ومن المرجح أن الأمة أخطأت فى البيعة لهما مع وجود الأفضل – على – خطأ لا يبلغ درجة الفسق . وذلك الخطأ خطأ اجتهادى . ثم يخالف الصالحية فى عثمان . فقد طعن فيه للأحداث التى أحدثها ثم أعلن تكفيره وتكفير أصحاب الجمل – عائشة والزبير وطلحة بإقدامهم على قتال على .

ثم اختلف سليمان بن جرير مع « الرافضة » أى الإمامية من أتباع جعفر الصادق . أومع جعفر نفسه . كان جعفر الصادق قد أعلن ولاية ابنه إسماعيل بن جعفر من بعده ، ولكن إسماعيل مات فى حياة أبيه ، فلما سئل جعفر الصادق – أو من عقائد الإمامية أن الإمام يعلم غيب السموات والأرض ؟ قال : إن الله عز وجل بدا له فى إمامة إسماعيل ، أى أن الأمر داخل فى نطاق البداء ، بدا له أن يموت إسماعيل ولا يكون إماماً ، أى تغيرت مشيئته . فأنكر سليمان بن جرير إمامة جعفر نفسه فأنكر « البداء » « والمشيئة من الله » وقال لأصحابه « إن أئمة الشيعة وضعوا لشيعتهم مقالتين لا يظهرون منهما من أئمتهم على كذب أبدًا ، وهما القول بالبداء وإجازة التقية (١) أما البداء ، فينكره سليمان بن جرير لأن أئمة الإمامية أحلوا لأنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيتها فى العلم « فيما كان ويكون » أى أن الأئمة حاملون للعلم الغيبى . « والإخبار بما يكون فى غد » قالوا لشيعتهم « إنه سيكون فى غد وفى غابر الأيام كذا وكذا » فإن حدث ذلك الشىء على ما قالوه . قالوا لهم « ألم نعلمكم أن هذا يكون ، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل مثل تلك الأسباب التى علمت بها الأنبياء عن الله ما علمت » وإن لم يحدث الشىء على ما قالوه . قالوا لشيعتهم « بدا لله فى ذلك بكونه » أى شاء الله غير ما أراده أولاً . ولهذا أنكر سليمان بن جرير البداء .

أما التقية ، فقد قرر سليمان بن جرير « أنه لما كثرت على الأئمة مسائل شيعتهم فى العبادات من حلال وحرام ، أجابوا على تلك المسائل ، وحفظ عنهم شيعتهم ما سألوه وكتبوه ودونوه . ولم يحفظ الأئمة تلك الأجوبة لتقادم العهد وتفاوت الأوقات ، لأن مسائلهم لم ترد فى يوم واحد ولا فى شهر واحد ، بل فى سنين متباعدة وأشهر متباينة وأوقات متفرعة ، فوقع فى أيديهم فى المسألة الواحدة عدة أجوبة مختلفة متضادة وفى مسائل مختلفة أجوبة متفقة ، فلما وقفوا على ذلك منهم ردوا إليهم هذا الاختلاف والتخبط فى جواباتهم وسألوهم عنه وأنكروه عليهم ، فقالوا : من أين هذا الاختلاف وكيف جاز ذلك ؟ قالت لهم أئمتهم : إنما أجبنا بهذا التقية ولنا أن نجيب بما أجبنا ، وكيف شئنا لأن ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم وكف عدوكم عنا وعنكم » يتساءل سليمان بن

(١) النوبختى : فرق . ص ٤٢ .

جرير «فمتى يظهر من هؤلاء على كذب ، ومتى يعرف لهم حق من باطل ؟ »(١) وهنا أنكر التقية ، ومالت نفسه إلى الزيدية ، فآمن بها . وليس فى الزيدية علم سرى ، ولا إمام معصوم ولا تقية ولا بداء . وكانت لحركة سليمان بن جرير أثر كبير فى الشيعة إذ انفض عدد كبير منهم عن جماعة جعفر ابن على ، وتركوا إمامته .

تلك هى الفرق الهامة من فرق الزيدية ، ولكن المسعودى يذكر «أن الزيدية كانت فى عصره ثمانية فرق»(٢) فيضيف إلى الفرق الثلاثة السابقة الفرق الآتية : المرئية ، والأبرقية . ولا ينسبها إلى شخص من الأشخاص ، ثم اليعقوبية : وهم أصحاب يعقوب بن على الكوفى ، ثم العقبية ثم اليمانية : وهم أصحاب محمد بن اليمان الكوفى . وقد ذكر الأشعرى هذه الفرقة الأخيرة باسم النعيمية : أصحاب نعيم ابن اليمان . ويرى المسعودى أن هذه الفرق قد زادت فى المذهب ، وفرعوا مذاهب على من سلف من أصولهم » ونلاحظ أن معظم تلك الفرق كانت كوفية ، فالكوفة إذن كانت مجالاً لجدل عنيف زيدى ، واختلافات زيدية . ويقول النوبختى «سموا كلهم فى الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم فى القرآن والسنن والشرائع والفرائض والأحكام»(٣) .

أما الملطى — وهو أقدم مؤرخ للعقائد ، وتسود كتاباته روح سلفية — فقد اعتبر الزيدية من جملة الروافض . وعلل تسميتهم بهذا الاسم أنهم «صاروا بطعنهم على عثمان وتقديمهم علياً رافضه يقال لهم الزيدية»(٤) فكل من رفض الخلفاء الثلاثة — فى رأى الملطى — رافضة ومنهم : الإمامية لرفضهم الشيخين ، والزيدية لرفضهم عثمان — وإن كانوا يتولون الشيخين . ثم قسم الملطى الزيدية إلى أربع فرق :

الفرقة الأولى من الزيدية عنده : ولا ينسبها إلى شخص معين وإنما يقول هى أعظمهم قولاً ، وهم «الذين يذكرون الصدر الأول وسائر من يشنئون رأياً إذا خالفهم»(٥) أى أنهم يكفرون من ليس على مذهبهم . ويذكر الملطى أن هذه الفرقة ترى قتل المخالفين وسبى نسائهم ، وأخذ أموالهم وقتل أطفالهم . بل يراهم أشد أنواع الشيعة ضرراً «إنما هو بقدر ما يخرج الواحد منهم يضع السيف والحريق والنهب والسبى ولا يقصدون ولا يرعوون» ويذكر أنه ظهر من هذه الفرقة محمد بن على صاحب ثورة الزنج فى البصرة فقتل مخالفيه وأطفالهم متأولاً «ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» ومما لا شك فيه أن الملطى هنا يبالغ كثيراً فى وصف هذه الفرقة ، ومما لا شك فيه أن فى الزيدية شبهاً بالخوارج — كما قلت — ولكن لا يصل

---

(١) النوبختى : فرق . ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٣ .
(٣) النوبختى : فرق ص ٥٥ .
(٤) الملطى : التنبيه ص ١٥٦ .
(٥) الملطى : التنبيه ٣٨ ، ٣٩ .

إلى هذا الحد العنيف من قتل المخالفين وأطفالهم وسبى نسائهم . ومن العجب أنه يضع صاحب ثورة الزنج بين الزيود . فهل كان محمد بن على زيدى ومن آل البيت ومن الغريب أن النوبختى يعتبر الجارودية : بين الغالية والتناسخية . ويقول : إنهم لا يفصحون بالغلو ، ويرون أن الله نور وأرواح الأئمة والأنبياء منه متولدة ، وينحون نحو التناسخ ولا يقولون بانتقال الروح من جسد إنسان إلى جسد غير إنسان أى أن التناسخ عندهم فى نطاق النوع ، فتنتقل الروح من جسد إنسان ردىء إلى جسد إنسان مؤلم ممرض ، فيعذب فيه مدة بما عمل من الشر والفساد ثم تنقل إلى جسد إنسان متنعم ، فتنعم فيه طول ما بقيت فى الجسد الأول ويرى الملطى . أن الجارودية تذكر أن هذا هو « الكور » فيكون معذباً أو مقيداً فى جسد هرم أو ممرض أو مسقم . أو يكون منعماً فى جسد شاب حسن متلذذ ، وأنهم يستندون فى ذلك لقول الله « أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من خلق جديد (١) » . لا ينسب أحد من مؤرخى العقائد مذهباً فى التناسخ إلى الجارودية فهل أخطأ الملطى ؛ أم أن الجارودية دخلت فى الغلو بعد وفاة مؤسسها وشاركت الغلاة فى آرائهم ؟ . ليس لدينا من المصادر ما يؤكد هذا . إن من المحتمل أن الجارودية قد انصهرت فى الإمامية وشاركتها فى آرائها ولكن من البعيد جداً أن تنتهى إلى مذهب ثنوى بعيد كل البعد عن الإسلام . ثم يذكر الملطى الفرقة الثانية من الزيدية وهى التى تكفر السلف ويتبرأون من الشيخين ويتولون علياً وأبناءه ولكنهم لا يرون السيف — أى وضع السيف فى رقاب المخالفين وقتلهم ، ولا استحلال نسائهم ولا أقوالهم .

أما الفرقة الثالثة عنده فهى فيما أرجح الصالحية وذلك أنه يذكر أنهم يقولون بأن الأمة ولت أبا بكر « اجتهاداً » لا عناداً ، وأن الصحابة قصدوا الحقيقة فأخطأوا فى الاجتهاد غير متعمدين ، وولوا مفضولاً على فاضل . ولم يكفروا أحداً من الصحابة . ويكاد يمدحهم الملطى — مع حدته ومرارة قلمه — فيقول « وهم أصحاب سمت ، ويظهرون زهداً وعبادة وخيراً ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقولون بالعدل والتوحيد » وهذه أوصاف تنطبق تماماً على الصالحية البترية ويهمنا أيضاً أنه يوجه الأنظار إلى معتزلية هذه الطائفة من الزيدية ، ثم يبين بحسم الاتفاق النهائى بين الزيدية وبين المعتزلة أو بينها وبين مدرسة كبيرة من المعتزلة فيقول : إن الفرقة الرابعة من الزيدية — هم معتزلة بغداد يقولون بقول الجعفرية — جعفر بن مبشر الثقفى وجعفر بن حرب الهمدانى ومحمد بن عبد الله الإسكافى وهؤلاء أئمة معتزلة بغداد ، وهم زيدية يقولون : بإمامة المفضول على الفاضل . ويقول : إن علياً عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ لا يسبقه بالفضل أحد من الأمة وزعموا أن إمامة المفضول على الفاضل جائز ، لما ولى النبى ﷺ عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار فى غزوة ذات

(١) الملطى : التنبيه : ص ٣٨ .

السلاسل» (١) .

اختلطت إذن بعض فرق الزيدية ببعض فرق المعتزلة ومن الواضح أن المعتزلة أثرت أثراً بيناً فى الزيدية ، ولكن لم تأخذ كل فرق الزيدية بآراء المعتزلة فى دقيق الكلام وجليله . اقترب البعض منهم من الأشاعرة ، واقترب البعض الآخر منهم من المعتزلة والبعض الثالث مزج بين بعض عقائد المعتزلة والأشاعرة ونعطى بعض الأمثلة على هذا : فجمهور الزيدية – فى رأى الأشعرى – يقولون إن الله شيء لا كالأشياء ولا تشبهه الأشياء . وهذا اتجاه سنى ، ولكنى الأشعرى يورد أيضاً أن فرقة أخرى من الزيدية تقرر أن البارى ليس بشيء ، ومثال آخر : إن سليمان بن جرير – يقرر أن الله عالم بعلم لا هو هو ولا غيره ، وأن علمه شيء . قادر بقدرة لا هى هو ولا غيره وإن قدرته شيء . وكذلك سائر صفات الذات . وفرقة ثانية تقول : إن الله عالم قادر سميع بصير بغير علم وحياة وقدرة وسمع وبصر . وكذلك فى سائر صفات الذات . أى ينكرون الصفات إنكاراً كاملاً . فالسليمانية أصحاب سليمان بن جرير – كما رأينا – وقد كان متكلماً ممتازاً وترك كتاباً فى دقيق الكلام – يقترب إلى حد كبير فى فكرته عن الصفات من أهل السنة والجماعة ، ويختلف إلى حد ما عن المعتزلة ، وتقترب الفرقة الثانية من المعتزلة ، ولكن سليمان بن جرير سرعان ما يتفق مع المعتزلة فى إحالة القدرة : على الظلم لله «فالله عنده لا يوصف بالقدرة على أن يظلم ويجور ، ولا يقال لا يقدر : لأنه يستحيل أن يظلم ويكذب» وهذا اتجاه معتزلى . بل إن الاتجاه المعتزلى يصل أوجه عنده حين يسأل عن قدرة الله على ما علم أنه لا يفعله ، فيجيب : «إن هذا الكلام له وجهان : إن كان السائل يعنى ما علمه أنه لا يفعله مما جاء الخبر بأنه لا يفعله ؛ فلا يجوز القول يقدر عليه ، ولا يقدر عليه ، لأن القول بذلك محال وأما ما لم يأت به خبر ، فإن كان مما فى العقول دفعه ، فإن الله عز وجل لا يوصف به ، وأن من وصفه به محيل ، فالجواب فى ذلك مثل الجواب فيما جاء الخبر بأنه لا يكون وأما ما لم يأت به خبر ، وليس فى العقول ما يدفعه ، فإن القول إنه يقدر على ذلك جائز ، وإنما جاز القول فى ذلك لجهلنا بالمغيب فيه ، ولأنه ليس فى عقولنا ما يدفعه ، وأنا قد رأينا مثله مخلوقاً» وهنا نجد سليمان بن جرير معتزلياً ، بينما فرقة أخرى موافقة للاتجاه السلفى تقول : إن الله يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب ولا يظلم ولا يكذب ، وأنه قادر على ما علم وأخبر أنه لا يفعله أن يفعله (٢) .

ويختلف الزيدية أيضاً فى خلق الأعمال ، ففريق منهم يرى أن أعمال العباد مخلوقة ، خلقها الله وأبدعها واخترعها فهو الفاعل على الحقيقة ، وفرقة أخرى ترى أنها غير مخلوقة لله ولا محدثة وهى أكساب العباد ، أحدثوها واخترعوها وأبدعوها وفعلوها ، وقد أدى هذا إلى بحث الاستطاعة فى المجامع

(١) الملطى : التنبيه . . ص ٣٩ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٥٥ – ٥٦ .

الزيدية : فهى عند البعض «مع الفعل والأمر قبل الفعل» وهذا رأى سنى . بينما يذهب سليمان بن جرير إلى أن الاستطاعة قبل الفعل وهى مع الفعل مشغولة بالفعل فى حال الفعل وإنما يستطيع الفعل إذا فعله ، ويرى أن الاستطاعة بعض المستطيع وأن الاستطاعة مجاورة له ، ممازجة كممازجة الدهنين ، وهذا رأى معتزلى . وفرقة ثالثة ترى أن «الاستطاعة قبل الفعل وأن الأمر قبل الفعل وأنه لا يوصف الإنسان بأنه مستطيع الشيء قادر عليه فى حال كونه» وهذه معتزلية مشوبة بأشعرية [١] . فالزيدية إذن تتردد بين المعتزلة وبين الأشعرية . وتختلف بينهما . هى بلا شك أقرب إلى المعتزلة ، ولكن ليس معنى هذا أنها لم تأخذ بعضاً من عقائد أهل السنة الكلامية . على أن عقائد الزيدية الكلامية تحتاج إلى بحث تركيبى متسع وتتبع لتطورات هذا الفكر وبخاصة لدى متكلم الزيدية الممتاز سليمان بن جرير .

* * *

وبعد : فقد تطورت الزيدية . أما فى الأصول – فيما يقول الشهرستانى – «فيرجعون إلى رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة إلا فى مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى والشيعة» ثم يتكلم الشهرستانى عن زيدية عصره فيقول : «وأكثرهم فى زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد» [٢] وعصر الشهرستانى كان القرن السادس الهجرى . ويبدو أن الزيدية بدأت تفقد خصائصها فى العراق وخراسان وتندمج فى الإمامية أيضاً فى ذلك القرن . فيقول الشهرستانى : «ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول وطعنت فى الصحابة طعن الإمامية» [٣] .

وانقرضت الزيدية فى كل مكان اللهم إلا اليمن فقد بقيت ، وفى مطلع هذا القرن ، انتشرت فيها فكرة عصمة الإمام وقداسته ، وسادها الفوكلور الإمامى على أشد ما يكون . وبذلك قطعت كل صلة بينها وبين المذهب الزيدى الحقيقى .

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٤ .

الباب الرابع

الشيعة الإمامية

الفصل الأول

الإمام جعفر الصادق

لقد كان ظهور جعفر الصادق الحدث الأكبر فى تاريخ الشيعة . لقد نسبت الشيعة الاثنا عشرية – وهم جمهرة الشيعة – إليه فلقبوا «بالجعفرية» ونسب الفقه الشيعى الاثنا عشرى إليه ، فأطلق عليه الفقه الجعفرى وما أبعد آراء جعفر الصادق الكلامية وما أبعد فقهه عن آراء وكلام وفقه الاثنى عشرية بعد وفاة أو اختفاء الإمام الثانى عشر وتكون عقائد الشيعة الاثنى عشرية .

ولم يكن المذهب الشيعى الإمامى هو أبدا المذهب الاثنى عشرى . وإذا كان الشيعة الفاطمية الحسينية لم تختلف قبل الصادق ، ولم تختلف فى عصره ، فقد اختلفت بعده ؛ فقد انقسمت إلى شيعة نقلوا الإمامة إلى ابنه موسى ، ليكون الإمام السابع – بعد أبيه الإمام السادس – فى سلسلة مقدار عدد الأئمة فيها اثنا عشر ، وإلى شيعة نقلت الإمامة إلى ابنه إسماعيل الإمام السابع ، ليختتم دورة من دورات الأئمة عند بعضهم ، ودورة من دورات الأنبياء عند البعض الآخر ، وسمت الأولى اثنى عشرية ، وسميت الثانية ، إسماعيلية . وكما نسب إلى جده الأكبر على بن أبى طالب ، كل علوم الدنيا والدين ، نسب إليه أيضاً كل العلوم سرية وفلسفية وصوفية وفقهية وكيميائية وطبيعية ، وكما اختلف المسلمون فى جده الأكبر على ، اختلف فيه أيضاً ، فكان عند أهل السنة عالماً محدثا ثقة ، وعند الشيعة الاثنى عشرية الإمام السادس ، وعند الغلاة نبياً وولياً وإلها . وعند الصوفية ، شيخها وكبيرها ، وعند أصحاب الكيمياء وعلوم الأوائل معلمها الكبير .

ولقد ولد جعفر بن محمد لأبيه الباقر عام ٨٠ هـ أى أنه ولد فى السنة التى ولد فيها عمه زيد بن على والإمام أبو حنيفة النعمان وواصل بن عطاء شيخ المعتزلة الأول . أما أمه فهى أم فروة بنت القاسم ابن محمد بن أبى بكر ، فهو من جهة الأب ينتسب إلى رسول الله ﷺ ، ومن جهة الأم ينتسب إلى أبى بكر الصديق . وقد أخذ العلم وبخاصة الحديث عن جده لأبيه الإمام على زين العابدين ، وقد توفى زين العابدين وحفيده فى الرابعة عشرة – وعن جده لأمه القاسم بن محمد بن أبى بكر . وكان من فقهاء المدينة السبعة الذين حملوا إلينا الفقه المدنى . وقد مات القاسم بن محمد وجعفر الصادق فى

الثامنة والعشرين من عمره . ولزم جعفر الصادق أباه محمد الباقر ، يأخذ عنه ، ويعيش فى رحابه ، رحاب بيت النبوة ، يرشف من منابعه . ولما مات أبوه ، وهو فى الرابعة والثلاثين ، انتقلت إليه الإمامة الروحية للشيعة الإمامية ، فكان فى نسقها الإمام السادس . وكان عمه زيد يتزعم حركته السياسية التى تكلمن عنها فى الباب السابق . ولم يعاد أحد منهم الآخر . بل أعلن الإمام زيد «من أراد الجهاد فإلى ، ومن أراد العلم فإلى ابن أخى» ، ويقول جعفر الصادق نفسه : «القائم إمام سيف ، والقاعد إمام علم» وقد ترك الصادق القيام لعمه زيد . وبقى هو إماماً قاعداً يمضى بالعلم الإسلامى إلى أوجه ، فبقى حتى وفاته عام ١٤٨ هـ – منقطعاً تمام الانقطاع للعلم ممثلا للإمامة الروحية للمسلمين جميعاً . واعتبره أهل السنة رجلا من صالحى أهل البيت ، وإماماً من أعظم أئمة المسلمين ومحدثاً ثقة أفاض على الناس علمه ، ويصفه الشهرستانى بأنه «ذو علم غزير ، وورع تام عن الشهوات ، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ، ثم دخل العراق ، وأقام بها مدة ، ما تعرض للإمامة قط ، ولا نازع أحداً فى الخلافة ، ومن غرق فى بحر المعرفة لم يطمع فى شط ، ومن تعلى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ، وقيل من آنس بالله توحش عن الناس ، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس ، وهو من جانب الأب ينتسب إلى شجرة النبوة ومن جانب الأم ينتسب إلى أبى بكر رضى الله عنه ، وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه وتبرأ عنه ، ولعنه وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم من القول «بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه» (١) . هذا ما رآه أهل السنة والجماعة فى الصادق رجلا بلغ مرتبة الاجتهاد فى العلم الفقهى ووصل إلى قمة العلم اللدنى . ولا عجب بعد ذلك أن اعتبره صوفية أهل السنة فى سلسلة مشايخهم الكبار اجتمع فيه إلى نهاية مقام العرفان ، الدم النبوى المقدس . وإذا كان البخارى لم يرو عنه حديثه فلم يكن علة هذا ضعف حديثه وإنما السبب فى هذا – ما يقوله شريك بن عبد الله : «إن جعفراً كان رجلا صالحاً مسلماً ورعاً ، فاكتنفه قول جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر ابن محمد ويحدثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون الدراهم» (٢) . وبالرغم من هذا نجد ابن تيمية – وهو عالم السلف المتأخر ، والذى لم يسلم أحد من قلمه حتى الصحابة والتابعين وأئمة المذهب الأشعرى العظماء – يكن لجعفر الصادق أكبر الاحترام ويعتبره هو وأباه وجده خير أهل البيت جميعاً بعد الإمام على . وذهب الذهبى – وهو مؤرخ طبقات الرجال ، وناقد المحدثين – إلى أن جعفراً «هو أحد الأئمة الأعلام بر صادق كبير الشأن» (٣) .

---

(١) الشهرستانى : الملل ح ١ ص ٢٧٢ .

(٢) الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٨٩ .

(٣) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٨٥ .

هذا هو رأى أهل السنة فى الإمام جعفر الصادق : رجلا متعبداً دينيًّا فقهياً محدثاً من أعلام أهل البيت .

أما الشيعة فيقدمون لنا صورة مخالفة لجعفر الصادق . فهو الإمام السادس عند الاثنى عشرية ، انتقلت إليه الوصية ، كما انتقل إليه العلم الربانى جميعه . وينسب الجفر الأبيض إليه . « ويحتوى الجفر الأبيض – فى رأى الشيعة – على زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم وفيه أيضاً الحلال والحرام أى الفقه ومصحف فاطمة ، فيه كل ما يحتاج إليه الناس ، كما يحتوى الجفر أيضاً على أخبار الملوك المتعاقبين وأسمائهم وأسماء آبائهم من ملك يملك إلا وهو مكتوب فيه اسمه واسم أبيه . ونسب إلى جعفر الصادق القول « ورب الكعبة لوكنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنى أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس فى أيديهما . لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ماكان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن ، حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وراثة [1] .

وقد ذكر ابن خلدون أن هارون بن سعيد العجلى هو الذى روى الجفر عن جعفر الصادق . « وفيه علم ما سيتبع لأهل البيت ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص » ويفسر ابن خلدون هذا بأنه وقع ذلك لجعفر كما يقع لنظرائه من الأولياء على طريق الكرامة والكشف . ونحن نعلم أن هارون بن سعيد العجلى زيدى ، أنشد فيما بعد شعراً يتبرأ فيه من الجفر ومن كل غال فى جعفر الصادق . ويبدو أن الجفر وأشباهه من كتب سرية قد وضعت فى القرن الرابع الهجرى – وأنها زيفت بكل أنواع الزيف وأنها دخلت عقائد الشيعة الاثنى عشرية فيما بعد – حين صور الإمام – بأنه مبدأ المعرفة ، كما هو مبدأ الوجود ، ثم أخذت صورتها الكبرى عند الإسماعيلية .

أما حقيقة الأمر فهو أن جعفراً الصادق كان من هذا النوع من المحدثين ، أو الملهمين ، وأنه ألهم وأخبر بقتل محمد بن عبد الله بن الحسن – المعروف بالنفس الزكية – ، وأخيه إبراهيم . بل أعلن فى مجمع الهاشميين فى الحجاز حين اجتمعوا لمبايعة النفس الزكية أنه لن يملك ، بل سيخرج ويقتل . وأن الأمر إلى بنى العباس ، يتداولونه واحداً بعد واحد حتى تملكهم النساء والغلمان . وأنه أيضاً – وعلى طريقة الكشف – أشار إلى أبى جعفر المنصور وذكر أنه هو قاتل الاثنين . وقد نازعه شيخ العلويين عبد الله بن الحسن الآمر حينئذ وأنكر عليه العلم بالغيب وأنه إنما حسد ابنه محمد بن عبد الله ، وحين تم الأمر كما حدث جعفر ، دعاه المنصور بالصادق . هذا النوع من الإلهام الذى عرف عن الرجل فتن الشيعة به فحملوه علم ما كان وما سيكون . وحيكت الأسطورة وكتبت الكتب ونسبت إلى الإمام . وقد أعلن هو نفسه تبرؤه من هذه الدعوى . ولكن هذا « الإلهام » أو هذا « التحديث » الذى عرف به الصادق

(١) الكلينى : الكافى ص ١٥٧ .

انقلب فى عقائد الشيعة الاثنى عشرية والإسماعيلية إلى فكرة العنصر الابستمولوجى فى الإمام ، فالإمام هو منبع المعرفة ومصدرها وواهبها .

ولم يكتف الشيعة بجعل الصادق ينطق بفكرة الإمام الغنوصى ، بل جعلوه ينطق أيضاً بفكرة الإمام الكوزمولوجى – أى الكونى ، فالإمام هو عنصر الوجود ، فعنصر الوجود الأول هو نور ، هو أول ما أبدع الله ، هذا النور هو صورة محمد ﷺ ، ثم انتقل – بعد أن بعث الله الخلق – فى آدم ثم فى الأصلاب الطاهرة ، إلى أن ظهر أخيراً فى محمد الرسول ، ثم فى أعقابه الأئمة . وهذه هى فكرة النور المحمدى التى أثرت أكبر التأثير فى فرق المسلمين المختلفة ، فى أهل السنة والجماعة أنفسهم ، وما زال المؤذنون فى كثير من بلاد السنة ، ينادون من أعلى المآذن بالصلاة على أول خلق الله ، ثم دخلت فى عقائد الصوفية ؛ معتدلة وغلاة .

ويقدم لنا المسعودى الصورة الأولى لفكرة النور المحمدى ، منشأ الوجود ، وظهورهذا النور قبل الموجودات ، وينسبها إلى جعفر الصادق ، ويوردها رواية عنه ، فيقول « إن الله حين شاء تقدير الخلق وذرء البرية وإبداع المبدعات ، نصب الخلق فى صورة كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء ، وهو فى انفراد ملكوته وتوحد جبروته ، فأتاح نوراً من نوره فلمع ، ونزع قبسا من ضيائه فسطع ، ثم اجتمع النور فى وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك نبينا محمد ﷺ . فقال الله عز من قائل : أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نورى ، وكنوز هدايتى ، من أجلك أسطح البطحاء ، وأموج الماء ، وأرفع السماء ، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار » هذا هو النور المحمدى الأول ، أنطق فكرته الشيعة على لسان جعفر كما قلت . ثم تذهب الرواية إلى أن الأرض أو خلق الأرض إنما كان لأجل هذا النور.

ويمضى المسعودى قائلا – على لسان جعفر – إن الله فى القديم خاطب محمداً فقال : « وأنصب أهل بيتك للهداية ، وأوتيهم من مكنون علمى مالا يشكل عليهم دقيق ولا يعييهم خفى ، وأجعلهم حجتى على بريتى ، والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى ، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والإخلاص بالوحدانية » ولقد آمن أهل السنة بالميثاق فى عالم الذر ، وهو أن فطر الناس ، وهم فى أصلاب آبائهم على التوحيد ، وأقر الخلائق وهم فى عالم الذر بالتوحيد ولكن الشيعة ترى الميثاق على غير هذا – إنه قيل إن أخذ ما أخذ جل شأنه ببصائر الناس انتخب محمداً وآله ، وأراهم أن الهداية منه والنور له والإمامة فى آله ، تقديماً لسنة العدل ، وليكون الإعذار متقدماً ، فهم إذن ميثاق الله على البشر ، آمنوا لله بتوحيده خلال محمد وآله ، وهم فى عالم الذر ، ثم أخفى الله الخليقة فى غيبه وغيبها فى مكنون علمه « ثم خلق الله الكون ، نصب العوالم ، وبسط الزمان ، وموج الماء ، وأثار الزبد ، وأهاج الدخان ، فطفا عرشه على الماء ، فسطح الأرض على ظهر الماء ، ثم استجابت الأرض والسماء إلى الطاعة .

فأذعنا بالاستجابة ، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها وأرواح اخترعها ، وقرن توحيده بنبوة محمد ﷺ . فشهره فى السماء قبل أن يبعثه فى الأرض ، فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم ، حيث عرفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء فجعل الله آدم محراباً وكعبة وبابا وقبلة أسجد إليها الأبرار والروحانيين الأنوار ، ثم نبه آدم على مستودعه وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه . بعد ماسماه إماماً عند الملائكة ، فكان حظ آدم من الخير ما أواه من مستودع نورنا . انتقل النور المحمدى إلى آدم ، وكان آدم إماماً مستودعاً .

وأخذ النور ينتقل – وهو مخبوء – « ولم يزل الله تعالى يخبيء النور تحت الزمان إلى أن وصل محمدا ﷺ فى ظاهر الفترات . فدعا الناس ظاهراً وباطناً ، وندبهم سرًّا وإعلاناً » فالنور إذن اختتم النبوة بمحمد ﷺ .

وكانت رسالة الرسول « هى التنبيه على العهد الذى قدمه إلى الذر قبل النسل ، فمن وافقه واقتبس من مصباح النور المقدم اهتدى إلى سيره ، واستبان واضح أمره ، ومن ألبسته الغفلة . استحق السخط » .

ولكن هل توقف النور واختتم بمحمد ﷺ . كما يذهب بعض مفكرى أهل السنة من الذين قبلوا فكرة النور المحمدى ؟ « وانتقل النور إلى غرائزنا ولمع فى أئمتنا ، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض . فبنا النجاة . ومنا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور . وبمهدينا تنقطع الحجج ، خاتمة الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور ، ومصدر الأمور ، فنحن أفضل المخلوقين ، وأشرف الموحدين . وحجج رب العالمين فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض عروتنا » [1] فالنور الأول نور محمد القديم . انتقل فى باطن الأئمة واحداً بعد واحد ولمع فيهم . فهم نور السموات والأرض ومن تولاهم نجا بتوليهم . إن نهايات الأمور إليهم ، ومصير الناجين فى يدهم وهذه هى « ولاية الإمام » المشهورة فى العقيدة الاثنى عشرية لأنه كما لدى الإمام حنايا العلم وخفاياه فبيده أمره الكونى . وينتهى الأمر كله إلى المهدى الأخير ، وهو الحجة البالغة على الخلق وخاتمه أو غاية النور الأخيرة وكمالها .

وهكذا جعل الشيعة جعفرا الصادق يطلق هذه الغنوصيات ويذكر مصطلح الإمام المستودع ، فالنظرية هنا ، تتردد بين غنوص الثنوية الفارسية – وبخاصة وهى تستخدم فكرة النور – وبين الأفلاطونية المحدثة وهى تتكلم عن فكرة الهباء ، وبين غنوص المسيحية فى الكلمة . لقد وضع الشيعة

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

من قبل على لسان الباقر قوله « إن الائمة معصومون وإن أهل البيت خالصون من ارتكاب المعاصى ، والأرض هى ملك للأئمة » والنقد الداخلى لآراء محدث من كبار المحدثين ، وتابعى من أعظم التابعين ، ثم عالم من أهل البيت العظيم ، يقرر عدم صدور مثل هذه الأقوال عن الباقر . فهل الأمر كذلك مع جعفر الصادق ؟ إنى أميل إلى الترجيح بأن هذه النظرية ليست لجعفر الصادق ، وأن من الأولى أن ننسبها إلى الغلاة من بعده ، ولعلها من ابتكارات أواخر القرن الثالث وأوائل العقود الأولى من القرن الرابع . وفيها روح إسماعيلية أكثر منها إمامية أو اثنى عشرية . ولكن الإمامية بعده ثم الاثنى عشرية قبلوها تماماً فى عقائدهم ، وهذا أمر يدعو إلى العجب .

وقد نتج عن التسليم بفكرة النور المحمدى وانتقاله فى الأئمة ، أن أصبح الإمام « معصوماً » على أن يكون « منصوصاً عليه » ، ونتج عن عصمته ظهور المعجزات منه وقد نسب كل هذا إلى جعفر الصادق ، كما نسب إليه البداء – فى صورته الكاملة – ونسب إليه الرجعة والتقية . وهذه آراء تنسب له ، وأجزم بأنها ليست له إطلاقاً . فإن النقد الداخلى والخارجى لها يثبت أنها بعيدة عن نفس الإمام كما أنها بعيدة عن عصره إطلاقاً . وما يهمنا أن نوضحه الآن هو أن عقائد الشيعة الإمامية – كفرقة – تنسب كلها إلى جعفر الصادق كما أن عقائد الشيعة الاثنى عشرية تنسب إليه أيضاً إن حقاً وإن باطلاً . وأخيراً نسبت إليه آراء جابر بن حيان الكيميائية .

وبعد : فلقد تعرض الصادق لمحن متعددة فى عهد هشام والوليد وإبراهيم ومروان – من الأمويين ، وفى عهد المنصور العباسى ، وقد تتبع هؤلاء أهل بيته بالقتل الذريع ، وامتحن الرجل أشد امتحان ، وصبر جعفر بن محمد على كل مانزل به من محن واضطهاد ، وتضييق وتشريد ومهانة . وتذكر المصادر الشيعية أن المنصور أمر بإحراق داره فتخطى النار ثم مشى فيها . وهو يقول : أنا ابن أعراق الثرى . أنا ابن إبراهيم الخليل » .

وأخيراً . وفى عام ١٤٨ مات جعفر الصادق ، ولا تهمنا حياته السياسية ولكن ما يهمنا هو ما ترك من أثر فى الفكر الفلسفى فى العالم الإسلام . إن الاثنى عشرية تنسب عقائدها المعتزلية إليه ، كما تنسب الإسماعيلية عقائدها إليه .

ومن بعده – كما قلت – اختلفت الشيعة ، فالسابع عند الاثنى عشرية ، غيره عند طائفة نشأت ونسبت إلى ابنه الأكبر – إسماعيل – واختلفت فى السياسة أنظار كل من الفريقين ، كما اختلفت أيضاً فى فلسفة العقيدة .

ونسب إلى جعفر الصادق العلم السرى ، كما نسب إليه التصوف – وتعددت المدارس من غلاة ومعتدلين ومقتصدين . وكما ادعته الشيعة ، ادعته السنة .

غير أن أهم مدرسة تعبر عن آرائه ، وعاصرته ، وحظيت منه بالتأييد ، هى مدرسة مجسمة الإمامية ، ورأسها هشام بن الحكم .

الفصل الثانى

مجسمة الشيعة الإمامية

كان لابد أن تظهر حول جعفر الصادق – حول لسان المذهب وواضعه – مدرسة كلامية تفتق الكلام فى الإمامة وتخوض « دقيق الكلام وجليله » تجاه الفرق الأخرى التى كان يضطرم بها العالم الإسلامى إبان ذلك الوقت . ومن العجب أن هذه المدرسة ورجالها الكبار كانوا أبعد فكرياً ومنهجياً عن مدرسة المعتزلة التى اختلطت عقائدها فى وقت متأخر بعقائد الشيعة الاثنى عشرية . لقد كان العمل الأساسى لهذه المدرسة معارضة المعتزلة بالذات ، ومجادلة أهل الاعتزال بكل وسائل الجدل ، وكان أهم ما يميز هذه المدرسة ، كما سنرى فيما بعد – فكرة التجسيم – معارضة لفكرة التنزيه المطلق عند مشيخة المعتزلة . ويرى الأشعرى – وهو مؤرخ العقائد العتيد – أن أوائل الإمامية كانوا ينادون بالتجسيم والتشبيه أما من قالوا منهم بأن الله ليس بجسم ولا صورة ولا يشبه الأشياء ولا يتحرك ولا يسكن ولا يماس ، وأخذوا بقول المعتزلة والخوارج فى التوحيد « فهؤلاء قوم من متأخريهم [1] » بل يؤكد الأشعرى انتشار فكرة الجسمية لدى الشيعة الإمامية ، فيعرض لمذاهبهم فى التجسيم فى فصل خاص . ونحن لا نجد جدالا عنيفاً أو هاماً بين هذه المدرسة وبين مدرسة أهل الحديث ، سلف أهل السنة والجماعة ، فى مجال العقائد ، والسبب فى هذا هو أن التجسيم أيضاً انتشر لدى طائفة من أهل الحديث ، وإن كان مذهب أهل السنة والجماعة ينكر التجسيم والتشبيه ، ونحن نرى أيضاً – فى عصور متأخرة – مفكر السلف ابن تيمية يناقش الإمامية الاثنى عشرية المختلفة بعقائد المعتزلة ، ولا يهاجم إطلاقاً مجسمة الشيعة ، بل يكاد يمسهم برفق . وقد ذكر النوبختى وُجوه أصحاب جعفر الصادق مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم وزرارة بن عين ومحمد بن النعمان أبى جعفر الأحول مؤمن الطاق « وجوه الشيعة وأهل العلوم منهم والنظر والفقه » [2] أما الخياط المعتزلى ، فقد اعتبر هؤلاء الشيعة المجسمة « حشو أهل الإمامية » [3] فهو يضعهم مقابلا لحشو أهل الحديث ، ويبدو أنه كانت هناك صلة بين مشبهة الإمامية ومشبهة أهل الحديث يقول الشهرستانى ، وكان التشبيه بالأصل والوضع فى الشيعة ، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك » فالشيعة إذن أول المشبهة والمجسمة فى العالم الإسلامى وهم الذين نقلوا

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) النوبختى : فريق الشيعة ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) الخياط : الانتصار ص ١ .

هذه الأفكار التجسيمية إلى أهل السنة : والجماعة « ثم تمكن الاعتزال فيهم لما رأوا ذلك أقرب إلى المعقول وأبعد من التشبيه والحلول » (١) بل إن من متأخرى الإمامية أيضاً من بقى على تشبيهه وتجسيمه « ثم لما اختلفت الروايات عن أئمتهم وتمادى الزمان ، اختارت كل فرقة طريقة ، وصارت الإمامية بعضها معتزلة إما وعيدية وإما تفضيلية ، وبعضها إخبارية إما مشبهة وإما سلفية » (٢) .

وفى نص من أهم النصوص يقدمه لنا ابن تيمية ، يثبت تمام الإثبات أن متكلمى الشيعة الأوائل كانوا مجسمة ، يقول ابن تيمية « وكان متكلمو الشيعة كهشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقى وأمثالهم يزيدون فى إثبات الصفات على مذهب أهل السنة ، فلا يقنعون بما يقوله أهل السنة والجماعة من أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله يرى فى الآخرة ، وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث » ويرى ابن تيمية أن قدماء الشيعة غلوا فى الإثبات والتجسيم والتبعيض والتمثيل وقد انتشرت مقالتهم فى هذا بين الناس ، ولكن فى أواخر المائة الثالثة دخل كثير من الشيعة فى أقوال المعتزلة كابن النوبختى صاحب كتاب الآراء والديانات وأمثاله وجاء بعد هؤلاء المفيد بن النعمان وأتباعه . ويقرر ابن تيمية أن مؤرخى الفرق كالأشعرى وغيره لا يذكرون عن أحد من الشيعة أنه وافق المعتزلة فى توحيدهم وعدلهم إلا بعض المتأخرين ، وإنما يذكرون عن بعض قدمائهم التجسيم وإثبات القدر وغيره . أما أول من عرف عنه فى الإسلام أنه قال إن الله جسم ، هو هشام بن الحكم ، بل إن الجاحظ يذكر فى كتابه حجج النبوة : ليس على ظهرها رافضى إلا وهو يزعم أن ربه مثله ، وأن البدوات تعرض له ، وأنه لا يعلم الشىء قبل كونه إلا بعلم يخلقه لنفسه (٣) .

ويذكر ابن تيمية أن الشيعة فيهم طوائف تثبت القدر وتنكر مسائل التعديل والتجوير . ويرى أن المعتزلة هم القائمون بالتعديل والتجوير ، وأن شيوخ الرافضة المتأخرين كالمفيد والموسوى والطوسى والكراجلى وغيرهم إنما أخذوا ذلك من المعتزلة ، وإلا فالشيعة القدماء لا يوجد فى كلامهم شىء من هذا (٤)

وأبرز ممثل لمدرسة الصادق هو هشام بن الحكم (١٣٥) ، وهشام بن الحكم أكبر شخصية كلامية فى القرن الثانى . شغل جميع المجامع العقلية فى عصره وخاض معارك كلامية وفلسفية من أدق المعارك مع مخالفى المذهب الإمامى . أما اسمه فهو هشام بن الحكم ، البغدادى – الكندى مولى بنى شيبان وكنيته أبو محمد أو أبو الحكم « نشأ بالكوفة ، وانتقل إلى بغداد ، وكان يتردد على المدينة ، وعاش بها مدة بجوار الإمام جعفر بن محمد الصادق . ويذكر ابن النديم أنه من أصحاب أبى عبد الله بن محمد

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٨٩ . (٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٧١ .
(٣) ابن تيميه : منهاج السنة – تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم – ج ١ ص ٤٥ – ٤٧ .
(٤) ابن تيميه : منهاج اسنة ج ١ ص ٨٥ .

الصادق وهو من متكلمى الشيعة الإمامية ، وممن دعا له الصادق عليه السلام فقال : أقول لك ما قال رسول الله ﷺ : لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك » ويرى أيضاً أنه هو الذى فتق الكلام فى الإمامة وهذب المذهب وسهل طريق الحجاج فيه ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب (١) .

أما عن دراسته ، فيبدو من ثبت كتبه أنه درس كل ما كان فى عصره من فلسفات ومذاهب ، وأنه تعمق فيها أكثر من جميع معاصريه ، فله كتب فى الرد على الزنادقة والثنوية ، كما أنه له كتاباً فى الرد على أصحاب الطبائع ، ومن المحتمل أن بعض كتب أرسطوطاليس قد وصلته ، فكتب ينقض على أرسطوطا ليس ، ثم من الثابت أيضاً أنه كتب فى نقد نظرية الجزء الذى لا يتجزأ . فالرجل إذن كان على ثقافة واسعة عميقة بالفلسفة والكلام والسياسة ، وأنه بهر الإمام جعفراً الصادق بما لديه من معرفة واسعة . وأنه عاصر حركة الترجمة التى بدأها المنصور ورعاها الرشيد ، ثم بلغت أوجها لدى المأمون وقد كان منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكى ، والبرامكة اعتنوا بالعلم القديم وساعدوا على نقله أيضاً بل ويقول ابن النديم إنه كان القيم بمجالس يحيى بن خالد البرمكى الكلامية والنظرية . ويذكر أنه كان يسكن الكرخ فى بغداد ، ثم توفى بعد نكبة البرامكة بمدة مستترا ، وقيل فى خلافة المأمون .

أما أسماء كتبه فهى على ما يذكر ابن النديم : الإمامة ، الدلالات على حدوث الأشياء ، الرد على الزنادقة ، الرد على أصحاب الاثنين ، كتاب التوحيد ، الرد على هشام الجواليقى ، الرد على أصحاب الطبائع ، الشيخ والغلام ، التدبير ، الميزان الرد على من قال بإمامة المفضول ، اختلاف الناس فى الإمامة ، الوصية والرد على من أنكرها ، فى الجبر والقدر ، الحكمين ، الرد على المعتزلة فى طلحة والزبير ، القدر ، المعرفة . الاستطاعة ، كتاب الثمانية الأبواب ، الرد على شيطان الطاق ، الأخبار كيف يفتح كتاب على أرسطو طاليس فى التوحيد ، المعتزلة وهذا الثبت من كتبه يدل على عمق معرفته أنواع الفلسفات المعروفة فى عصره ، وعلى ما كان للرجل من مكانة كبرى فى دوائر المتكلمين .

وقد نشأ هشام بن الحكم فى الكوفة أولا جهميا ، فتابع آراء جهم بن صفوان (٢) ، ويبدو هذا فى نظريته عن العلم ، ثم قابل على بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار (توفى عام ١٧٩) ، وميثم كان من أصحاب على ، أما حفيده فقد سكن البصرة ، وكان من كبار متكلمى الروافض ، وأول من كتب منهم كتباً ، وقد ناظر أبا الهذيل عند أمير البصرة ، ثم قابله هشام بن الحكم وحضر مجالسه (١) وقد كان

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٥ – ٢٨٣ . (٢) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) الطوسى : الفهرست ص ٧٧ ولسان الميزان ج ٢ ص ٢٦٥ .

على بن إسماعيل هو أول من وجه هشاما إلى المذهب الإمامى ، وسيسير على نهجه فيما بعد – ويناقش المعتزلة نقاشاً عنيفا ، بحيث يقول الشهرستانى : « وهذا هشام بن الحكم صاحب غور فى الأصول لا يجوز أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة فإن الرجل وراء ما يلزمه على الخصم ، ودون ما يظهره من التشيع » كما ذكر الشهرستانى إلزاماته على أبى الهذيل العلاف (١) . كما أن المسعودى أيضاً يذكر مناقشات هشام مع أبى الهذيل العلاف ومع عمرو بن عبيد . « قد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام ابن الحكم الكوفى الخرار . وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة فى وقته ممن وافقه على مذهبه » وهذا صريح من المسعودى الشيعى أن الرافضة كانوا مجسمة . ثم يذكر أن « أبا الهذيل يذهب إلى نفى التجسيم ورفع التشبيه وإلى ضد قول هشام فى التوحيد والإمامة » ثم يورد المسعودى المناقشة : قال هشام لأبى الهذيل : إذا زعمت أن الحركة ترى فلم لا زعمت أنها تلمس ؟ فقال : لأنها ليست بجسم ، لأن اللمس يقع على الأجسام فقال له هشام : فقل أيضاً أنه لا ترى ، لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام . فرجع أبو الهذيل سائلا فقال له : من أين قلت إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره ؟ قال هشام : من قبل أنه يستحيل أن يكون فعلى أنا . ويستحيل أن يكون غيرى ، لأن التغاير إنما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها ، فلما لم يكن فعلى قائماً بنفسه ، ولم يجز أن يكون فعلى أنا . وجب أنه لا أنا ، ولا غيرى . وعلة أخرى أنت قائل بها زعمت – يا أبا الهذيل أن الحركة ليست مماسة ، ولا مباينة ، لأنها عندك مما لا يجوز عليه المماسة ولا المباينة ، فلذلك قلت أنا : إن الصفة ليست أنا ولا غيرى علتك فى أنها لا تماس ولا تنقطع ، فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً .

ثم يورد المسعودى بعض مناقشات هشام مع عمرو بن عبيد . وهذه المناقشات تدور حول الإمامة ، ولكن سرعان ما تدخل فى لطيف الكلام وجليله ، فبينما يذهب هشام إلى أن الإمامة نص من الله ورسوله على على بن أبى طالب وولده ، يذهب عمرو إلى أنها اختيار من الأمة فى سائر الأعصار : ويسأل هشام عمرو بن عبيد لم خلق الله لك عينين ؟ قال : لأنظر بهما إلى ما خلق من السموات والأرض وغير ذلك فيكون ذلك دليلا لى عليه . فقال هشام : لم خلق الله لك سمعا ؟ قال عمر : لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهى . فقال له هشام : فلم خلق الله لك قلباً ؟ قال عمرو : لتكون هذه الحواس مؤدية إليه ، مميزاً بين منافعها ومضارها . قال هشام : فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلباً تؤدى هذه الحواس إليه . قال عمرو : لا . فقال هشام : ولم ؟ قال : لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح له ، فلما لم يخلق الله منها انبعاثاً من نفسها استحال أن لا يخلق لها باعثاً يبعثها على ما خلقت له ، إلا بخلق القلب ، فيكون هو الباعث لها على ما تفعله ، والمميز لها بين

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣١١

مضارها ومنافعها . فقال هشام : ويكون الإمام من الخلق بمنزلة القلب من سائر الحواس ، إذ كانت الحواس راجعة إلى القلب لا إلى غيره ، ويكون سائر الخلق راجعين إلى الإمام لا إلى غيره ، فلم يأت عمرو بفرق يعرف .

وقد جمع هذه المجالس والمناقشات أبو عيسى محمد بن هارون الوراق المتوفى عام ٢٤٧ هـ في كتابه المجالس ، وقد نقل منه المسعودى (١) .

إن ما أود أن أنتهى إليه هو أن هشام بن الحكم كان أكبر شخصية فلسفية فى عصره ، ومن أكبر تلامذته النظام فيلسوف المعتزلة الكبير . يقول البغدادى إن النظام « خالط هشام بن الحكم الرافضى فأخذ عن هشام وعن ملحدة الفلاسفة قوله بإبطال الجزء الذى لا يتجزأ أو بنى عليه قوله بالطفرة وأخذ عن هشام بن الحكم قوله بأن الألوان والطعوم والروائح والأصوات أجسام وبنى على هذه البدعة قوله بتداخل الأجسام فى حين واحد » ويبدو أثر هشام بن الحكم كبيراً جدًّا فى معظم المذهب النظامى ، إن النظام لم يذهب إلى جسمية الله ، ولكنه ذهب إلى جسمية الأعراض ، وبهذا أعطى كثيراً من أجزاء مذهبه وسما هشاميا واضحاً .

وأخيراً نأتى إلى قصة إتصاله بالثنويه والملاحدة . وهذه القصة وضعها المعتزلة . فيتهمه الخياط بأنه كان يعرف بقول الديصانية وبصحبة أبى شاكر الديصانى ، وأن تجسيم هشام بن الحكم إنما هو مأخوذ من الديصانية (٢) . ثم يذكر أيضاً مجادلات هشام بن الحكم وعلى بن ميثم والسكاك مع أبى الهذيل وانقطاعهم ويشير ثانية إلى صلة هؤلاء الشيعة بالديصانية – أبى شاكر والنعمان وابن طالوت وهذه أخبار غير قائمة على أساس علمى ، فقد تعودت الفرق المختلفة نبز بعضها بالبعض بالاتصال والأخذ عن الثنوية والمسيحية واليهودية . إن هشام بن الحكم كان عدوًّا للثنوية جاهدها أشد جهاد ، وكتب المصنفات المختلفة . كما رأينا فى قائمة كتبه – يناقشه ويهاجمها أشد هجوم . وبينما يهاجم المعتزلة هشاما وينبزوه بالزندقة ، لا نرى مفكرى أهل السنة والجماعة يفعلون هذا . إنهم يتهمونه بالرفض والتجسيم والتشبيه ، ولكن لا نرى عالماً منهم ينبزه بالزندقة والإلحاد . وهذا دليل واضح على أنه كان أكبر مناقض للمعتزلة ، بل إنه نجح إلى حد كبير فى قطعهم . وسنحاول الآن أن نقدم صورة من آراء هشام ابن الحكم وفلسفته ، غير أن كثيراً من هذه الآراء وصلت إلينا – مع الأسف – فى صورتها العكسية ، أى فى صورة إلزامات على مذهبه ، ولا نجد عند الشيعة أنفسهم تفسيراً لهذه الإلزامات ، وليس بين أيدينا أى كتاب من كتب هشام ، حتى نصل بيسر إلى قواعد مذهبه ، ولكننا سنحاول أن نخلص عناصر فلسفته من هذه الإلزامات ، حتى يتبين لنا المذهب جليًّا واضحاً .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١ – ٣٨٢ .

(٢) الخياط : الانتصار ص ٤٠ ، ٤١ .

فلسفة هشام بن الحكم

١ – مشكلة الألوهية

(ا) مشكلة الذات . الله جسم :

أجمع مؤرخو الفكر الإسلامى القدامى ، شيعة ، وسنة ، ومعتزلة على أن هشام بن الحكم هو أول من قال إن « الله جسم » وأن مقالة التجسيم فى الإسلام إنما تنسب إليه ، فهو أول من أدخلها أو ابتدعها كما نسب إليه التشبيه أيضاً . وثمة خلاف بين التجسيم والتشبيه . ونحن نعلم أن مقاتل بن سليمان نادى أيضاً بالتجسيم ، كما نادى بالتشبيه ، غير أن مقاتلا وصل إلى آرائه خلال تفسير للقرآن – أى خلال طريق نقلى – فقد حشا تفسيره بإسرائيليات ومسيحيات وثنويات ، انتهى منها إلى تجسيم وتشبيه غليظين . وهذا مالم يفعله ، فيما يبدو ، هشام بن الحكم بل يكاد يكون طريقه فى إثبات الجسمية لله طريقاً عقليًا بحتاً .

وينسب الخياط إلى مشيخة الرافضة هشام بن الحكم وهشام بن سالم وعلى بن منصور والسكاك القول « إن الله عز وجل ذو قد وصورة وحد ويتحرك ويسكن ويدنو ويبعد ويخف ويثقل . أما البغدادى فيذكر أن هشاماً يرى أن الله جسم ذو حد ونهاية وأنه طويل عريض عميق ، وأن طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه . ولم يثبت طولا غير الطويل ، ولا عرضاً غير العريض . وليس ذهابه فى جهة الطول أزيد على ذهابه فى جهة العرض ، وأنه ذو لون وطعم ورائحة ومجسة وأن لونه هو طعمه ، وطعمه هو رائحته ، ورائحته هو مجسته ، ولم يثبت لوناً وطعماً هما غير نفسه ، بل زعم أنه هو اللون وهو الطعم . وقد كان الله ولا مكان . ثم خلق المكان بأن تحرك ، فحدث مكانه بحركته ، وصار فيه ومكانه هو العرش . وزعم هشام أيضاً فى رأى البغدادى أن الله نور ساطع ، متلألئ كالسبيكة الصافية من الفضة وكاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ، ثم ينقل البغدادى حكاية عن هشام أنه قال : إن الله سبعة أشبار بشبر نفسه ، كأنه قاسه على الإنسان لأن كل إنسان فى الغالب من العادة سبعة أشبار بشبر نفسه (١) . ويذكر الشهرستانى نفس هذا الكلام ، نقلا عن الكعبى المعتزلى ، أن هشاما قال : هو جسم ذو أبعاد له قدر من الأقدار ، وأنه سبعة أشبار بشبر نفسه ، وأنه فى مكان مخصوص وجهة مخصوصة ، وأنه يتحرك وحركته فعله وليست من مكان إلى مكان . وهو متناهى الذات غير متناهى القدرة (٢) . وهذا إلزام واضح ، إن هشام بن الحكم كان يخوض فى مساحة الله . وكان هناك من

(١) البغدادى : الفرق ص ٤١ .

(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٣٩ .

يثبت له المساحة ، وأن مساحته على قدر العالم . وأدلى هشام بدلوه ، فقال « إنه فى أحسن الأقدار» وأحسن الأقدار أن يكون ليس بالعظيم الجافى ولا القليل القمى . وهنا ألزم أن يكون سبعة أشبار بشبر نفسه ، لأن هذا هو أحسن الأقدار . ثم نسب الإلزام إليه ، واعتبر مذهبه [1] .

وينقل أبو الحسن الأشعرى آراء هشام بن الحكم فى صورة أدق إجمالا ، ولكن لم يسلم نقله أيضاً لآراء هشام من خلل ويسود عرضه للمذهب صور الإلزامات أيضاً : يقول الأشعرى إن هشاما يزعم « أن الله جسم محدود ، له نهاية وحد طويل عريض عميق طوله مثل عرضه . وعرضه مثل عمقه ، لا يوفى بعضه على بعض ، ولم يعيبوا طويلا غير الطويل ، وإنما قالوا طوله مثل عرضه على المجاز دون التحقيق » ويبدو من هذا النص أن قول هشام بن الحكم الأساسى : إن الله جسم . ثم ألزم أن الجسم له نهاية وحد . . إلخ . ولم يقبل الإلزام فأضيف إلى المذهب ، كما أن للجسم طولا وعرضا . ويبدو أن هشاما أجاب بأن لكل جسم طولا وعرضاً ، ولما سئل إذا كان الله جسماً فلا بد أن له طولا وعرضاً فأجاب بأن طوله مثل عرضه ، وأنه هو الطول والعرض . فألزم بأن لله عرضاً وطولا . وقد لاحظ الأشعرى ، وهو أدق من ينقل لنا أخبار الفرق أن هشاما كان يقول إن طوله مثل عرضه على سبيل المجاز ، ويبدو أن هشاماً كان يقول إن الله نور ساطع ، تفسيراً للآية « الله نور السموات » فألزم بأنه نور ساطع له قدر من الأقدار فى مكان دون مكان ونسب إليه القول بعد ذلك وألزم أنه كالسبيكة الصافية يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ذو لون وطعم ورائحة ومجسة ، لونه هو طعمه ، وطعمه هو رائحته هى مجسته وهو نفسه لون ولم يعين لوناً ولا طعماً هو غيره ، وزعم أن هو الله وهو الطعم ، وأنه كان لا فى مكان ، ثم حدث المكان ، بأن تحرك الله ، فحدثت الحركة بحركته ، فكان فيه . إن من الثابت تماماً أن الأشعرى كان ينقل عن أعداء هشام بن الحكم من المعتزلة وبخاصة عدو هشام الكبير أبى الهذيل العلاف ويصرح الأشعرى بهذا فيقول : « وذكر أبو الهذيل فى بعض كتبه أن هشام بن الحكم قال له : إن ربه جسم ذاهب جاف ، فيتحرك تارة ويسكن أخرى . ويقعد مرة ويقوم أخرى ، وأنه طويل عريض عميق ، لأن ما لم يكن كذلك دخل فى حد التلاشى » ومن الخطأ الكبير أن ننقل أقوال المفكر عن آراء خصمه وهما فى معركة عقلية تتناولها الإلزامات . ولكن يبدو من تعبير « ما لم يكن كذلك دخل فى حد التلاشى » أن هشام بن الحكم أراد أن يضع فكرته عن الله فى صورة حسية ، أى أنه بدون تجسيم الله يكون الله وهما . . « لا حقيقة » .

ونسير خطوة فى محاولة اقتناص فكرته الحقيقية عن الله فإن الأشعرى يعدد أقواله فى الله فهو (أ) كالبلورة (ب) كالسبيكة (ج) أنه غير صورة (د) أنه بشبر نفسه سبعة أشبار (هـ) أنه جسم

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢٠٧ ، ٢٠٩ .

لاكالأجسام . وقد خاطبه بشر بن المعتمر المعتزلى بالبيت الآتى :

تلعبت بالتوحيد حتى كأنما تحدث عن غول ببيداء سملق

لأن الغول عند العرب تقلب نفسها من صورة إلى صورة ، كذلك هشام بن الحكم قال فى الله مقالات كثيرة . فمرة نور يتلألأ ومرة من حيث جئته رأيته نوراً ومرة هو مثل الإنسان (١) ويتضح لنا من هذا العرض لمختلف آرائه أنه ينادى بأن الله جسم لاكالأجسام(٢) ويؤيد هذا الشهرستانى حين ألزم العلاف فى مسألة الجسمية فقال : إنك تقول البارى عالم بعلم وعلمه ذاته فشارك المحدثات فى أنه عالم بعلم ، ويباينها فى علمه ذاته ، فيكون عالماً لاكالعالمين . فلم لا تقول هو جسم لاكالأجسام وصورة لاكالصور وله قدر كالأقدار ، فهو إذن يفسر الجسم بأنه شىء ، ثم ينزهه عن مشاركة غيره من الأجسام والأشياء والشيخ المفيد يعترف أيضاً بأنه قال : إنه جسم لاكالأجسام . ثم حكى رجوعه عنه (٣) » ولكن لايوجد دليل واضح على أنه فعل . إن تعبير أو اصطلاح « جسم لاكالأجسام » كان منتشراً فى الدوائر الكلامية ، وكان ينادى به طوائف من أهل الحديث . ولكن ما الذى دعاه إلى إطلاق اسم الجسم على الله ؟

ينقل إلينا الأشعرى والبغدادى عن ابن الراوندى القول الآتى « وحكى ابن الراوندى فى بعض كتبه عن هشام أنه قال : « بين الله وبين الأجسام المحسوسة تشابه من بعض الوجوه ، ولولا ذلك ما دامت عليه » ولكنه « لا يشبهها ولا تشبهه (٤) » هل أراد هشام بن الحكم بهذا أن يقول : إن الأجسام المحسوسة هى برهان على وجود جسم قديم أزلى لا أول لوجوده ؟ — سيذهب إلى القول بهذا فعلا — أم أن هناك منهجاً صاعداً لديه ، يذهب من المحسوس إلى المعقول ، ومن الصنعة للصانع ، ثم نأتى إلى المعرفة : كيف يعرف الجسم من هو لاجسم ، إن الشبيه يدرك الشبيه ، فالجسم يدرك جسماً ، وإن خالفه فى الحقيقة . هذا تفسير .

غير أن ثمة تفسيراً آخر نجده عند ابن حزم وهو يعرض للمجسمة عامة يذكر ابن حزم « أن المجسمة يذكرون أن الله تعالى جسم » ويضع تفسيراً لهذا القول « أنه لا يقوم فى المعقول إلا جسم أو عرض ، فلما بطل أن يكون الله تعالى عرضا ، ثبت أنه جسم » ولكن هذا تفسير لا ينطبق على هشام . إن هشاماً لا يعترف بالأعراض . ثم يمضى ابن حزم عارضاً لفكرة القائلين بجسمية الله ويرى أن المجسمة تقول إن

---

(١) ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ص ٣١ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣١ – ٣٣ ونفس النص مع تغيير طفيف فى نفس المصدر ج ١ – ص ٢٠٧ – ٢٠٩ .

(٣) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ٣٧ – ٣٨ .

(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣ والبغدادى : الفرق ص ٤١ .

الفعل لايصح إلا من جسم ، والله فاعل ، فوجب أنه جسم » هذا هو التفسير الحقيقي لفكر المجسمة عامة لا لفكر هشام بن الحكم . الوجود عندهم إما جسم وإما عرض ، فالله إذن جسم . ويرى ابن حزم أن الصواب أن يقال « إنه لا يوجد فى العالم إلا جسم أو عرض ، وكلاهما يقتضى بطبيعته وجود محدث له ، فبالضرورة نعلم : «أنه لو كان محدثهما جسماً أوعرضاً ، لكان يقتضى فاعلا فعله ، ولابد ، فوجب بالضرورة أن فاعل الجسم والعرض ليس جسماً ولا عرضاً . وهذا برهان يضطر إليه كل ذى حس بضرورة العقل» ثم يرد ابن حزم أنه لوكان الله جسماً ، لاقتضى ذلك ضرورة أن يكون له زمان ومكان هما غيره » ويؤدى هذا إلى إبطال التوحيد وإيجاب الشرك معه تعالى لشيئين سواء ، وإيجاب أشياء معه مخلوقة .

ويبدو أن هذا هو الإلزام الذى ألزم به هشام بن الحكم ، أنه ما دام الله جسما ، فإن له زماناً ومكاناً ، ثم اعتبر هذا الإلزام أحد آرائه . ويلزم ابن حزم هشاما إلزاماً آخر فيقول « إنه لا يعقل ألبتة جسم إلا مؤلف عريض عميق » .

ويذكر ابن حزم صراحة أن هذا إلزام ثان ونظارهم لا يقولون بهذا ، وهذا يدل تماماً على أن ابن حزم لم يقل إن هشاماً قال هذا وإنما نسب إليه إلزاماً ، ويستطرد فيقول . فإن قالوه لزمهم أن له مؤلفاً جامعاً مخترعاً فاعلا ، فإن منعوا من ذلك ، لزمهم أن لا يوجبوا لما فى العلم من التأليف لا مؤلفا ولا جامعاً ، إذ المؤلف كله كيفما وجد يقتضى مؤلفا ضرورة . ولكن هشام والمجسمة يقولون : إنه جسم غير مؤلف . ويرى ابن حزم أن هذا لا يعقل أبداً من مفهوم الجسم ولا يتشكل فى النفس ألبتة .

وقد تنبه ابن حزم إلى حقيقة تصور الجسم عند هشام . فإنه يذكر أنه يفسر « الجسم بمعنى شيء » إذن فيم الخلاف ؟ . إنه لافرق بين قولنا شيء وبين قولنا جسم . ويرد ابن حزم » هذا باطل ، لأن الحقيقة أنه لوكان الشيء والجسم بمعنى واحد ، لكان العرض جسماً لأنه شيء . وهذا باطل يتعين ، والحقيقة أنه لا فرق بين قولنا شيء ، وقولنا موجود وحق ومثبت فهذه كلها أسماء مترادفة على معنى واحد لايختلف . وليس منها اسم يقتضى صفة أكثر من أن المسمى بذلك حق ولا مزيد » أما لفظة الجسم فهى تعنى الطويل العريض العميق المحتمل للقسمة ذى الجهات الست التى هى فوق وتحت ووراء وأمام ويمين وشمال .

إن المسألة ستنتهى إلى بحث لغوى . وهذا ما يلحظه ابن حزم . ويرى أنه لابد من عدم نقل مفهوم اسم المستخدم إلى مفهوم آخر مستخدم . ويضع هذه الملاحظة النادرة « إنما يلزم كل مناظر يريد معرفة الحقائق أو التعريف بها أن يحقق المعانى التى يقع عليها الاسم ثم يخبر بعد بها أو عنها بالواجب أما مزج

الأشياء وقلبها عن موضوعها فى اللغة ، فهذا فعل السوفسطائية (١) » انتهى النزاع إذن إلى اختلاف فى اللغة . ويتضح هذا أكثر حين يورد ابن حزم اعتراض المجسمة بأنهم يخاطبون أهل السنة بأنكم تقولون إن الله حى لا كالأحياء ، وعليم لا كالعلماء . وقادر لا كالقادرين ، وشىء لا كالأشياء ، فلم منعتم القول بأنه جسم لا كالأجسام . . ؟

ويرد ابن حزم رده المشهور والذى يعبر عن مذهبه الظاهرى بأنه لولا النصوص الواردة بتسمية الله بأنه حى وقدير وعليم ، ما سميناه بشىء من ذلك ، لكن الوقوف عند النص فرض ، ولم يأت إلينا نص بتسميته جسماً ، بل البرهان يمنع من تسميته بذلك ، ولو أتانا نص بتسميته جسما ، لوجب علينا القول بذلك . وكنا حينئذ نقول : إنه لا كالأجسام . كما قلنا فى عليم وقدير وحى ، ولا فرق وأما لفظة شىء . فالنص أيضاً جاء بها ، والبرهان يوجبها (٢) .

إن مانستخلصه من هذا الكلام أن هشام بن الحكم يعلن أن الله جسم بمعنى شىء أو بمعنى موجود وأنه قائم بنفسه . وأن كل ما ذكر منسوباً إليه – فيما سوى ذلك – هو إلزامات . يقول الأشعرى : « وقال هشام بن الحكم : معنى الجسم أنه موجود . وكان يقول : إنما أريد بقولى جسم أنه موجود وأنه شىء قائم بنفسه (٣) .

ويحاول ابن حزم جاهداً أن ينكر قول هشام بأن الله متحرك ، فيرى أن مايبطل وصف الله تعالى بأنه جسم ووصفه بحركة – أن الضرورة توجب أن كل متحرك فذو حركة . وأن الحركة لمتحرك بها ، وهذا من باب الإضافة ، كما أن الصورة فى المتصور لمتصور ، وهذا أيضاً من الإضافة ويستنتج ابن حزم من هذا أنه كان لو كل مصور متصوراً وكل متحرك متحركاً ، لوجب وجود أفعال لا أوائل لها » إذن كيف نتصور وجود الله . وجب ضرورة وجود محرك الحركات ومصور المصورات . وكل جسم فهو ذو صورة وكل ذى حركة ، فهو ذو عرض محمول فيه ، فثبت أنه تعالى ليس جسما ولا متحركاً ، وعجباً أن ينكر هشام بن الحكم على أرسطاطاليس فكرته فى محرك غير متحرك ؛ ولعل كتابه الذى ذكرناه فى قائمة كتبه عن نقده لأرسطاطاليس إنما هو هذا ، بينما يذهب عالم الظاهر الكبير إلى اعتناق رأى أرسطاطاليس » .

ويتابع ابن حزم نقده لمذهب هشام فيرى أن الحركة والسكون مدة . والمدة زمان ، والزمان محدث ، فالحركة محدثة ، وكذلك السكون . والله لايلحقه الحدث إذ لو لحقه محدث ، فإنه يقتضى محدثاً . فالله تعالى غير متحرك ولا ساكن

---

(١) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١١٧ – ١١٨ .
(٢) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١١٨ – ١١٩ .
(٣) الأشعرى : مقالات ج ٣ ص ٣٠٤ – ٣٢١ .

ولم يفهم ابن حزم مفهوم الحركة عند هشام . ولكن الأشعرى يوضحها عن هشام « إن إرادة الله سبحانه حركة وهى معنى ، لاهى الله ، ولا غيره ، وإنها صفة له » (١) .

ويرى ابن حزم أن الجسم إنما يفعل آثاراً فى الجسم فقط ، ولا يفعل الأجسام ، فالله – على رأى المجسمة – هو فاعل آثاراً فى الأجسام فقط لافاعل أجسام العالم ويرى ابن حزم أن المجسمة يقولون : إنكم تسمونه فاعلا وتسمون أنفسكم فاعلين . وهذا تشبيه . ويرد ابن حزم بأن هذا القول لا يوجب تشبيهاً ، لأن التشبيه إنما يكون بالمعنى الموجود فى كلا المشتبهين لا بالأسماء ، وأن هذه التسمية إنما هى اشتراك فى العبارة فقط ، والاشتراك فى اللفظ لايوجب الاشتراك فى المعنى لأن هناك فرقاً بين فاعل متحرك باختيار أو اضطرار أو عارف أو شاك أو مريد أو كان باختيار أو ضمير ، أو اضطرار ، كذلك فكل فاعل منا فمتحرك وذو ضمير ، وكل متحرك فذو حركة تحركه ، وأعراض الضمائر انفعالات ، فكل متحرك فهو منفعل ، وكل منفعل ، فلفاعل ضرورة . وأما الله ففاعل باختيار واختراع لابحركة ولا بضمير . ويرى ابن حزم أن هنا اختلافاً ، لا اشتباهاً . وكذلك العرض ليس جسماً ، والجسم ليس عرضاً ، وليس الله جسماً ولا عرضاً . فهذان الحكمان لايوجبان اشتباهاً أصلا ، بل هذا عين الاختلاف ، لكن الاشتباه إنما يكون بإثبات معنى فى المشتبهين به اشتباهاً ، ولو وجب ما ذكر اشتباهاً ، لوجب أن يكون لشبه الجسم فى الجسمية . لأنه ليس عرضاً ، وأن يكون لشبه العرض فى العرضية ، لأنه ليس جسماً ، فكان يكون جسماً لا جسماً ، عرضاً لاعرضا معاً . وهذا محال فصح أن بالنص لايجب الاشتباه أصلا .

ولكن فيم كل هذه الإلزامات . إن هشام بن الحكم يقول جسم لا كالأجسام (٢). وليس هنا اشتباه ولا مشتبه ، ويقر ابن حزم نفسه بهذا فيقول : «إنه ليس مشتبهاً ولكنه ألحد فى أسماء الله ، إذ سماه بما لم يسم به نفسه . وأما من قال : إنه كالأجسام ، فهو ملحد» (٣) .

أما الخياط فيقرر : » أن هشام بن الحكم يذهب إلى أن الله القديم جسم ، فأبطل دلالة الأجسام على الحدث بحكمه أن منها ما هو قديم . وهو ينسب فكرة هشام إلى الديصانية (٤) . والديصانية – كما نعلم – أخذت بالرواقية . ونستنتج مما تقدم أن الجسم عند هشام بمعنى الموجود ، فكل موجود جسم . أما عن الله فيورد الخياط عن ابن الراوندى قول هشام « إن الله جسم لايشبه الأجسام فى معانيها ولا فى أنفسها ، غير متناهى القدرة ولا محدود العلم لايلحقه نقص ولا يدخله تغيير ، ولا تستحيل منه الأفعال ، لا يزال قادراً عليها ، وهذا هو تفكير هشام بن الحكم . الوجود كله جسم ، والله موجود ،

(١) ابن حرم ج ٢ ص ١١٨ – ١١٩ .
(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢٧ – ٢٠٩ .
(٣) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١٢٠ – ١٢١ .
(٤) الخياط : الانتصار ص ٤٠ – ٤١ .

فهو جسم ،ولكنه لا كالأجسام .ولكن المشكلة تبدو فيا يقول الخياط من أنه «كيف يجوز للرافضة القول بأن الله جسم لايشبه الأجسام مع القول بأنه يتحرك ويسكن ويدنو ويبعد وأنه ذو صوت وقد وهيئة »[١] وليس بين أيدينا من النصوص ما يوضح موقف هشام من اعتراض الخياط هذا .

ويتصل بمشكلة الذات عند هشام بن الحكم مشكلة العرشية. وينقل لنا الأشعرى النص الآتى عن الهشامية فى العرشية « وزعم أبو عيسى الوراق أن بعض أصحاب هشام أجابه مرة إلى أن الله عز وجل على العرش مماس له ، وأنه لا يفضل عن العرش ، ولا يفضل العرش عنه[٢] » وبهذا تكتمل الصورة الجسمية لله ، كما صورها مؤرخو الفرق . ولكننا نلاحظ أن هذا القول نقل عن بعض أصحابه ، ولم ينقل عن هشام نفسه ، ومن المحتمل كثيراً أن يكون أصحاب هشام لم يفهموا المعنى الدقيق لكلمة الجسم عند الأستاذ . ونلاحظ أيضاً أن فكرة الاستواء المادى سادت العالم الإسلامى حينئذ شيعة وأهل حديث . وثمة نص آخر عنه ينقله البغدادى وهو : قد كان الله ولا مكان . ثم خلق المكان بأن تحرك ، فحدث مكانه بحركته فصار فيه ، ومكانه هو العرش .

(ب) صفات الله :

أما عن الصفات ، فيرى هشام بن الحكم أن الصفة ليست هى هو ولا غيره ولا بعضه ، والصفة لا توصف . فالعلم صفة الله ، وليست هى هو ولا هى غيره ولا هى بعضه . ولا يقال لعلمه أنه قديم ولا محدث ، لأنه صفة والصفة لا توصف ، وكذلك فى قدرته وسمعه وبصره وحياته وإرادته .

ويرى هشام — انه محال أن يكون الله لم يزل عالماً بالأشياء بنفسه ، وأنه إنما يعلمها بعلم ، لأنه لو كان لم يزل عالماً ، لكانت المعلومات لم تزل ، لأنه لا يصح عالم إلا بمعلوم موجود ، ولو كان عالماً بما يعلم عباده ، لم يصح المحنة والاختبار ، أى إذا كان عالمنا بعلم قديم بأفعال العباد ، لما كان هناك معنى الثواب والعقاب[٣]

وينقل البغدادى عنه : « لو كان لم يزل عالماً بالمعلومات ، لكانت المعلومات أزلية ، لأنه لا يصح عالم إلا بمعلوم موجود ، كأنه أحال تعلق العلم بالمعدوم[٤] ويقرب هشام فى فكرته عن العلم بجهم بن صفوان . والمصادر تجمع على أنه كان جهنمياً فى مطلع شبابه ، ونلاحظ أنه كان يحاول هنا محاولة

---

(١) نفس المصدر : ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٣ ويذكر النص نفسه البغدادى : الفرق ص ٤١ .

(٣) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨ ص ٤٩٤ .

(٤) البغدادى : الفرق ٤١ .

للتنزيه المطلق . إذا كان الله لم يزل عالماً ، يوجب وجود المعلومات قدماً ، وهذا يستدعى وجود قديم بجانب القديم . فالله إذن يعلم بعلم حادث متجدد . وهو أشبه كما قلت بمذهب جهم .

ومن حسن الحظ أن نقل إلينا الخياط نصوص هشام بن الحكم نفسها عن كتاب فضيحة المعتزلة لابن الراوندى ، وهو – أى الخياط – بصدد مناقشة هذا الأخير ، وسنرى إلى أى حد يضع هشام بن الحكم مذهباً متناسقاً ، كما ترى أيضاً قوة نفسه وعلو عارضته فى الجدل .

يقسم هشام بن الحكم حججه على حدوث العلم إلى قسمين :

(ا) حجج عقلية (ب) حجج نقلية .

أما الحجج الأولى العقلية فيشرحها هشام بقوله : « ليس يخلو من أن يكون لم يزل عالماً لنفسه كما قالت المعتزلة . أو عالماً بعلم قديم . كما قالت الزيدية ، وعالماً على الوجه الذى ذهبت إليه » ويحدثنا هذا النص بأشياء كثيرة ، يكشف عنها النقد الباطنى للنص :

أولها : أنه يستخدم القديم – إشارة إلى الله لا الجسم ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الله عنده هو خارج عن الجسمية العامة المحسوسة التى تملأ الكون .

ثانيها : أنه يقسم الفرق إلى ثلاث : المعتزلة والزيدية والإمامية ، ويبدو أنها هى كبار الفرق عنده ، فلا نجد ذكراً لأهل السنة والجماعة أو أهل الحديث ، ولعله لم يرد جدالها ، وبخاصة أن البعض من هؤلاء سكتوا عن المناقشة ، والبعض يوافقه فى التجسيم والتشبيه .

ثالثها : نلاحظ دقة العرض : فهو يعرض آراء أعدائه ، ثم يتقدم لمناقشتها فيقول : « فإن كان عالماً بدقائق الأمور وجلائها لنفسه ، فهو لم يزل يعلم أن الجسم متحرك لنفسه . لأنه الآن عالم لذلك ، وما علمه الآن ، فهو لم يزل عالماً به » ثم يستطرد فيقول « فإن كان هذا هكذا ، فلم يزل الجسم متحركاً . لأنه لا يجوز أن يكون الله لم يزل عالماً بأن الجسم متحرك إلا وفى الوجود جسم متحرك على ما وقع العلم به ، ولا بد أيضاً من أن الجسم لا يزال متحركاً ، لأنه لا يجوز أن يكون لا يزال عالماً بأن الجسم متحرك إلا وفى الوجود جسم متحرك على ما وقع به العلم ، ولا بد أيضاً من أن يكون لا يزال عالماً بأن الجسم متحرك ، إذ النفس التى لها ومن أجلها علم ، لا تزال موجودة »[1] .

لم يقف المعتزلة أمام فكرة العلم الحادث عن هشام موقف التسليم . إن العلم عند المعتزلة هو الذات فكيف يكون العلم حادثاً . وهنا يلجأ المعتزلة إلى إلزام واه ضعيف ، إن هشاماً وصف الله بأنه جاهل بالأمور غير عالم بها « ولو كان القول على ما قال ، لم يجز أن يقع من القديم فعل أبداً ، لأن الفاعل لا بد من أن يكون قبل فعله عالماً بكيفية فعله ، وإلا لم يجز وقوع الفعل منه ، كما أنه إذا لم يكن قادراً على

(١) الخياط : الانتصار ص ١٠٨ ١٠٩ .

فعله ، لم يجز وقوع الفعل منه أبداً . ويرى المعتزلة أن هذا حكم كل فاعل : لابد من أن يكون قبل فعله عالماً به وإلا لم يجز وقوعه منه فإذا ذهب هشام إلى أن الله كان غير عالم بغيره ، فكيف جاز وقوع الفعل منه ، وهو غير عالم بكيفية فعله . . .

ويرى المعتزلة أنه إذا احتج محتج وجوز وقوع الفعل من الله ، وذلك بأن يحدث لنفسه علماً به ، فكان بحدوث ذلك العلم عالماً بكيف يفعل أفعاله ، فجاز منه عند ذلك وقوع الأفعال ويرد المعتزلة « وكيف يجوز أن يحدث لنفسه علماً ، وكيف يفعل ذلك العلم ، وهل استحالة وقوع ذلك العلم منه مع جهله بكيف يفعله إلا كاستحالة وقوع سائر الأفعال منه مع الجهل بكيف يفعلها ؟ ولئن جاز وقوع الفعل ممن لا يعلم كيف يفعله قبل فعله له ليجوزن وقوعه من غير قادر عليه . لأن « بعد الفعل ممن لا يعلم كيف يفعله ، كبعده ممن لا يقدر عليه »[1] .

ويرى الخياط أن السكاك تلميذ هشام بن الحكم استمر فى اعتناق رأى أستاذه وأنه ناقش جعفر ابن حرب ، وأن جعفراً ألزمه قياس القدرة والحياة على العلم . وحينئذ يكون الله غير قادر وغير حى ، ثم خلق لنفسه القدرة والحياة . وليس لدينا مع الأسف كتب هشام بن الحكم أو السكاك حتى نحكم على رأيهما فى مسألة القدرة والحياة . ولكن مما لاشك فيه أن هشام بن الحكم لم يرض قط أن يؤمن بقدم العلم ، بل قال بحدوثه — كما أنكر أن علم الله هو ذاته — حتى يتجنب خطأ المعتزلة الأكبر فى إحاطة الذات بالمعلومات . إن المعتزلة حين نادوا بأن الله عين الصفة والصفة هى عين الله ، وبالتالى إن العلم هو الذات ، وقعوا فى خطأ عبر عنه ابن الراوندى بقوله « إن الله سيكون متناهى القدرة والعلم » ذلك أن المعلومات متناهية ، محدودة ، محصاة محاط بها ، فهل أحاط بها بعلم محدود ؟ وهذا العلم فى نهاية الأمر عند المعتزلة هو الذات ، فاتهام هشام بن الحكم للمعتزلة صحيح . وإذا أحاط الله بالمعلومات بعلم غير محدود ، فكيف يتفق هذا مع قول المعتزلة وأبى الهذيل إنها محدودة ومحصاة ومحاط بها ؟ . وإن قالوا إن معلومات الله ومقدراته غير محدودة وغير محصاة ، شاركت الذات فى صفاته . لا تعطى نصوص هشام هذا الحل صراحة ، ولكنه هو التفسير الوحيد لآرائه فى هذه المسألة من دقيق الكلام وجليله .

أما أين يحدث العلم : فى نفسه أم فى غيره أم لا فى شىء . يرى الخياط « أنه إن كان أحدثه فى نفسه ، فقد صارت نفسه محلا للحوادث ، ومن كان كذلك فحدث لم يكن ثم كان ، وإن كان أحدثه فى غيره فواجب أن يكون ذلك الغير عالماً بما حله منه دونه ، كما أن من حله اللون ، فهو المتلون به دون غيره ، وكذلك من حلته الحركة ، فهو المتحرك بها دون غيره . وليس يجوز أن يكون عالماً بعلم فى غيره ، كما لا يجوز أن يكون متحركاً بحركة فى غيره . ولا متلوناً بلون فى غيره هذا كله محال . وليس يجوز

(١) نفس المصدر السابق : ص ١٠٩ — ١١٠ .

أن يكون ما أحدثه قائماً بنفسه ، لا فى شىء يحل فيه ، كما لا يجوز أن يحدث حركة قائمة بنفسها لا فى متحرك ، ولا لوناً قائماً بنفسه لا فى ملون » (١) .

إن هذه الاحتمالات التى أوردها الخياط وجدت فعلا صدى فى الفكر الفلسفى الكلامى . سيأتى الكرامية ويعلنون أن الحوادث تحدث فى ذات الله ، وبالتالى أن علم الله يحدث فى ذاته . ولكن يبدو أن هشام بن الحكم يذهب إلى أن العلم يحدث فى لا محل . وهذا متابعة لجهم بن صفوان . ويقول ابن حزم : « قال جهم بن صفوان وهشام بن الحكم ومحمد بن عبد الله بن سبرة أن علم الله تعالى » هو غير الله ، وهو محدث مخلوق (٢) .

ويذكر ابن تيمية عن هشام بن الحكم وهشام بن سالم وغيرهما من المجسمة الرافضة وغير الرافضة كالكرامية بأنهم يجوزون جسماً قديماً أزليًا لا أول لوجوده وأن هذا الجسم خال من جميع الحوادث ، وأما الأجسام المخلوقة فلا تخلو عن الحوادث « ويقولون مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ولكن لا يقولون إن كل جسم فإنه لا يخلو عن الحوادث (٣) » ويصف ابن تيمية جميع هؤلاء السابقين باسم الجهمية فيقول : « إن هؤلاء الجهمية أصحاب هذا الأصل المبتدع – الذى أصله هشام بن الحكم – احتاجوا أن يلتزموا طرد هذا الأصل فقالوا : إن الرب لا تقوم به الصفات والأفعال ، فإنها أعراض وحوادث ، وهذه لا تقوم إلا بجسم ، والأجسام محدثة فيلزم أن لا يقوم بالرب علم ولا قدرة . ولا كلام ولا مشيئة ولا رحمة ولا رضا ولا غضب ولا غير ذلك من الصفات ، بل ما يوصف به من ذلك ، فإنما هو مخلوق منفصل عنه » (٤) فمن الثابت إذن أنه لا يقول بحدوث العلم فى ذات الله ، بل بحدوث العلم فى لا محل .

ثم يقدم لنا الخياط عن ابن الراوندى النصوص الآتية والتى أرجح أنها لهشام بن الحكم « إنه إن كان لم يزل عالماً بدقائق الأمور لنفسه ، فهو لم يزل يعلم أن الجسم متحرك لنفسه . لأنه الآن عالم بذلك ، وما علمه الآن فهو لم يزل عالماً به » . ثم يقول أيضاً فإن زعموا أن الله يعلم لنفسه أن الجسم متحرك إذا تحرك ، ويعلم لنفسه أن الجسم ساكن إذا سكن من غير أن يحدث له علم ، فلما أنكروا أن يكون الجسم متحركاً إذا خلى مكانه وفرغه . ساكناً إذا صار فيه وتثبت من غير أن يحدث له حركة وسكون » ويقول ابن الراوندى : « فهذا بعض ما يحتج به هشام فى القياس » .

---

(١) الخياط . الانتصار ص ١١١ .

(٢) ابن حزم : ج ٢ ص ١٢٦ .

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة (نشرة الدكتور سالم) ص ٢٤٢ .

(٤) ابن تيميه : منهاج السنة ص ٢٤٢ .

ومن الواضح أنه يريد فى النص الأول أن يلزم المعتزلة بأن إنكار حدوث العلم سيؤدى إلى القول بقدمه ، وكما أن المعتزلة تنكر أشد الإنكار حدوث العلم ، فإنها تنكر قدمه . يقول الخياط « إنه لما فسد أن يكون القديم جل ثناؤه عالماً بعلم محدث لما بينا ، وفسد أيضاً أن يكون عالماً بعلم قديم لفساد الاثنين ، صح وثبت أنه لم يزل عالماً بالأمور دقيقها وجليلها على ما هى عليه من حقائقها لنفسه لا بعلم » إذن كيف يرد المعتزلى إلزام هشام بن الحكم ؟ يرى الخياط أن الله كان ولا شىء معه وأنه « لم يزل يعلم أنه سيخلق الأجسام ، وأنه بعد خلقه لها ستتحرك وتسكن » ، وأنه « لم يزل يعلم » أنها متحركة إذا حلتها الحركة ، ساكنة إذا حلها السكون ، « فهو لنفسه » لم يزل يعلم ، أن الجسم قبل حلول الحركة فيه سيتحرك ، وأنه فى حال حلول الحركة فيه متحرك . فعلمه لنفسه إذن غير حادث وغير متغير ولكن المتغير هو حركة الأجسام . . وإنما اختلفت العبارة عن العلم لاتصالها بالعبارة عن اختلاف أحوال الجسم ، فلما كانت أحوال الجسم ، مختلفة ، اختلفت العبارة عنها ، ثم اتصلت العبارة عنها بالعبارة عن العلم بها ، فاختلفت العبارة عن العلم بها ، لاختلاف ما اتصلت به العبارة عنها ؛ أما العلم فلا يختلف ولا يتغاير . « فالله جل ذكره لم يزل عالماً بالجسم ولا يزال عالماً به وبما يحله – وقول القائل يكون الجسم وهو كائن وقد كان ويتحرك الجسم وهو متحرك وقد تحرك – إنما هو عبارة عن الجسم وعن اختلاف أحواله ، ولكن إذا ذكر العلم مع اختلاف الجسم ، اختلفت العبارة عنه لاختلاف ما ذكر معه ، فأما العلم به فى الحقيقة فمتقدم غير حادث .

أما النص الثانى – فيكاد يجيب عليه الخياط بما رد به على النص الأول [1] أما الحجج النقلية ، فينقل ابن الراوندى نصوص هشام نفسه ، أنه احتج من القرآن بالآية « لننظر كيف تعملون » وبقوله « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » . قال : فكما أن التخفيف حدث الآن . فكذلك العلم بضعفهم . لأن الكلام الثانى معطوف على الأول ، هذه دلائل من القرآن . ثم يقدم لنا شاهداً من الإجماع بقول المسلمين « لدينا دار محنة ، وإنما خلقت ليمتحن العقلاء فيها » ويقول هشام « وليس يصح الامتحان فيها ، لمن لم يزل عالماً فى الحقيقة قبل امتحانه إياها » .

ولو جاز أن يمتحن الشىء من يعلمه من جميع وجوهه ، جاز أن يتعرفه من يعلمه من جميع وجوهه فلما فسد تعرفه ممن لم يبق عليه من العلم به شىء ، فسد امتحانه ممن قد أحاط علمه بجميع حقائقه « فإن كان الله لم يزل عالماً بكفر الكافرين ، علماً قديماً فما معنى إرسال الرسل إليهم » وما معنى الاحتجاج عليهم ، وما معنى تعريضهم لما قد علم أنهم لا يتعرضون له . . . هل يكون حكيماً من دعا من يعلم أنه لايستجيب له ومن لا يرجو إجابته . ثم يقول هشام – مستنداً مرة أخرى إلى آية قرآنية

---

(١) الخياط : الانتصار ص ١١١ – ١١٥ .

يدعم بها حدوث العلم – وما وجه قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » هل يجوز مثل هذا الكلام ممن علم أن التذكرة والخشية لا تكون منه ، وهل يصح إلا من المتوقع المنتظر؟ إن علم الله حادث بلا شك .

وقد أثار هشام بن الحكم بآرائه هذه المعتزلة فمضوا يناقشونها أشد النقاش ، وقد حفظ لنا الخياط جملة هذه الآراء الهاشمية وردود المعتزلة عليها (١) .

وأما كيفية علم الله بالأشياء الساترة فإن الجاحظ يورد رأياً له بأن هشاماً كان يقول إن الله إنما يعلم ما تحت الثرى بالشعاع المتصل منه الذاهب فى عمق الأرض ، ولولا ملابسته لما وراء ما هنالك ، لما درى ما هناك ، « وزعم أن بعضه يشوب وهو شعاعه ، وأن الشوب محال على بعضه (٢) لعل هذا الرأى يعبر فعلا عن آراء هشام بن الحكم أو هو إلزام عليه أيضاً . يجوز هذا ويجوز ذاك . فمن المحتمل أنه سؤال عن معرفة الله بما هو فى باطن الأرض وهو ما سماه بالأجسام الساترة ، فأجاب بأن معرفته بشعاع مادى محسوس ، ينفذ خلال الأجسام الكثيفة ويعلم حقائقها . ومن المحتمل أنه مجرد إلزام من المعتزلة ، ثم وضع كرأى من آرائه .

ولكن ما المقصود – فى آخر الأمر – بأصل هشام هذا إذا صح أنه له . . . يبدو لى أنها أيضاً محاولة للتنزيه ، وقد أثيرت مسألة علم الله للشيء أو للموجود ، هل يعلم الله الأشياء من غير ملابسة أو مماسة أو يعلم الله الأشياء على المماسة والملابسة والشوب . . . أراد هشام أن ينزه الله عن كل هذا ، فابتدع فكرة الشعاع المتصل الذاهب فى عمق الأرض .

أما الإرادة فيذهب هشام بن الحكم إلى أنها « حركة » وهى « معنى » لا هى الله ولا غيره وأنها صفة لله . وأن الله إذا أراد الشيء ، تحرك فكان ما أراد الله (٣) فالإرادة عنده هى حركة . وتفسيرها أنها « الخلق » وكلمة التكوين فيما أرى ، فإذا أراد الشيء أحدث حركة وأحدث العلم بعدها . ولم يتنبه المعتزلة إلى ربط هشام للإرادة والعلم . يقول هشام « لا يعلم الشيء حتى يحدث الإرادة ، فإن أحدث الإرادة ، لأن يكون (الشيء) كان عالماً بأنه يكون ، وإن أحدث الإرادة لأن لا يكون كان عالماً بأنه لا يكون (٤) فالإرادة سابقة على العلم ، يريد الله الشيء ثم يعلمه .

أما القرآن ، فقد رأى هشام بن الحكم اختلافات الفرق حوله فى قدمه وحدوثه ، ورأى الزيدية

---

(١) الخياط : الانتصار ص ١١٥ – ١٢٣ .

(٢) الأشعرى مقالات ج ١ ص ٣٣ ، ٢٢١ ، ج ٢ ص ٤٩١ ، والبغدادى : الفرق ص ٤١ .

(٣) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤٠ ، ج ٢ ص ٥١٤ .

(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢٢ .

والمعتزلة والخوارج تقول بخلقه ، وأهل السنة تقول بقدمه ، بل يذهب وكيع بن الجراح الراسبي المحدث المشهور (المتوفى عام ١٩٦) أن القرآن هو الخالق أو بعضه ، أن الله مسمى ، فلما كان اسم الله فى القرآن والاسم هو المسمى كان الله فى القرآن بل هناك من ذهب إلى أن القرآن هو أزلى قائم بالله لم يسبقه ، واختلفوا أيضاً هل هو جسم أم عرض ، فماذا كان موقف هشام بن الحكم من كل هذه الآراء ؟ .

يرى هشام أن القرآن صفة لله لا يجوز أن يقول إنه مخلوق ولا أنه خالق [1] ولا يقال إنه غير مخلوق ، لأنه صفة والصفة لاتوصف . ولم يذكر إطلاقاً أنه جسم .

٢ – الوجود الطبيعى

ونظفر من ابن حزم بهذا النص الخطير عن هشام بن الحكم « إنه ليس فى العالم إلا جسم » فالله ليس جسماً فقط بل لايوجد إلا جسم واحد « والألوان والحركات أجسام » « وأن الجسم إذا كان طويلا عريضاً عميقاً ، فمن حيث وجدته ، وجدت اللون فيه ، فوجب الطول والعرض والعمق للون أيضاً ، فإذا وجب ذلك للون ، فاللون أيضاً طويل عريض عميق ، وكل طويل عريض عميق جسم ؛ فاللون جسم » وكل هذه الأقوال التى أوردها ابن حزم لهشام تثبت تمام الإثبات اتجاه الرجل الفلسفى ، فهو يرى أن الوجود جسم مادى رقيق شفافٍ ، ويدخله هذا الاتجاه فى عداد الرواقيين الإسلاميين ، فهو اسمى النزعة ، حسى مادى . رأى الوجود كله جسماً ، وفسر الوجود كله بأنه جسم شفاف رقيق يتكثف ويتلطف . والله جسم ولولا جسميته ، ما دلت الأجسام عليه ، ولكنه ليس كأجسامنا . وقد أدرك ابن حزم أثر هشام فى النظام فقال « وذهب إبراهيم بن سيار النظام إلى مثل هذا سواء سواء إلا الحركات ، فإنه قال خاصة أعراض » ويرد ابن حزم على هشام بأن الجسم متفق على وجوده ، ولكن الاعتراض موجود أيضاً ، إننا لا نجد فى العالم إلا قائماً بنفسه حاملاً لغيره أو قائماً بغيره لا بنفسه لا محمولاً فى غيره ، ووجدنا القائم بنفسه شاغلاً لمكان يملؤه ، ووجدنا الذى لا يقوم بنفسه ، لكنه محمول فى غيره لا يشغل مكاناً ، بل يكون الكثير منها فى مكان حاملها القائم بنفسه – ويرى أن هذه قسمة حاصرة « لا يمكن وجود شىء فى العالم بخلافها ، ولا وجود لقسم زائد على ما ذكرنا » والضرورة تحتم « أن القائم بنفسه الشاغل لمكانه هو نوع آخر غير القائم لغيره الذى لا يشغل مكاناً ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الجنسين اسم يعبر عنه وقد اصطلحنا على تسمية القائم بنفسه

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٥٨٢ – ٥٨٦ .

الشاغل لمكانه جسماً ، وما لا يقوم بنفسه عرضاً ثم إن الجسم تتعاقب عليه الألوان ، والجسم قائم بنفسه . فبينما نراه أبيض صار أخضر أو أحمر ، وهذا ما نشاهده فى الثمار والأصباغ ، هى أجسام ولكن تتعاقب عليها الألوان ، فبالضرورة نعلم أن الذى عدم وفنى من البياض والخضرة وسائر الألوان هو غير الذى بقى موجوداً لم يفن ، وأنهما جميعاً غير الشىء الحامل لهما . لأنه لوكان شىء من ذلك هو الآخر ، لعدم لعدمه ، فدل بقاؤه بعده على أنه غيره . ولابد إذن من المحال الممتنع أن يكون الشىء معدوماً موجوداً فى حالة واحدة فى مكان واحد فى زمان واحد .

ثم يرى ابن حزم أن الأعراض هى الأفعال من الأكل والشراب والمشى والنوم وغير ذلك ، فمن أنكر الأعراض ، فقد أثبت الفاعلين وأبطل الأفعال ، وهذا محال ، ولا يوجد فرق على الإطلاق بين من أثبت الفاعلين ونفى الأفعال ، وبين من أثبت الأفعال ونفى الفاعلين ، وكل الطائفتين مبطلة لما يشاهد بالحواس ويدرك بالعقل . إنهم سوفسطائيون حتماً .

ويمضى ابن حزم فى حججه ، معتبراً هشاماً وإبراهيم النظام سوفسطائيين يتلاعبان بالأسماء والمسميات أوينكران البداهة والضرورة ، حين ينكران وجود الأعراض .

ويبدو أن هشاماً أنكر وجود الأعراض مستنداً إلى أن فيما يسمى أعراضاً تتحقق فيها خصائص الأجسام فاللون مثلا يوجد فيه الطول والعرض والعمق . وينكر ابن حزم تحقق خصائص الأجسام فى اللون مثلا فليس للون طول وعرض وعمق وإنما هو طول الجسم الملون وعرضه وعمقه فقط وكذلك الطعم والمجسة والرائحة » ويرد ابن حزم على هذا بما يأتى : إنه لوكان للجسم طول وعرض وعمق وكان للون طول غير طول الملون الحاصل له ، وعرض آخر غير عرض الحاصل له وعمق آخر غير عمق الملون الحامل له ، لاحتاج كل واحد منهما إلى مكان آخر غير مكان الآخر ، إذ من أعظم المحال الممتنع أن يكون شيئان طول كل واحد منهما ذراع وعرضه ذراع وعمقه ذراع ، ثم يسعان جميعاً فى واحد ليس هوإلا ذراع فى ذراع فقط ، ويلزمه مثل هذا فى الطعم والرائحة والمجسة ، لأن كل هذه الصفات توجد من كل جهة من جهات الجسم الذى هى فيه ، كما يوجد اللون ولا فرق ، وقد يذهب الطعم حتى يكون الشىء لا طعم له ، وتذهب الرائحة حتى يصير الشىء لا رائحة له ، ومساحته باقية بحسبها » فصح يقيناً أن المساحة للملون والذى له الرائحة والطعم والمجسة لا للون ولا للطعم مكان ولا للرائحة ولا للمجسة « وقد نجد جسما طويلا عريضاً عميقاً لا لون له ، وهو الهواء ساكنه ومتحركه ، وبالضرورة ندرى أنه لو كان له لون ، لم يزد ذلك فى مساحته شيئاً « فالهواء جسم قوى متكثر محسوس » وينتهى ابن حزم من مناقشته بقوله « إن كل أحد يدرى أن الطول والعرض والعمق » لوكان لكل واحد منهما طول وعرض وعمق ، لاحتاج كل واحد منهما أيضاً إلى طول آخر وعرض آخر وعمق آخر ، وهكذا مسلسلاً إلى

مالا نهاية له ، وهذا باطل ، فبطل قول إبراهيم وهشام »[١] .

أليس هذا دليلا على ما أثاره هشام بن الحكم والنظام من حركة عقلية كبرى حين أعلن الأول وتابعه الأخير أن الوجود جسم ! ! ؟

أما تفسير ما يصدر عن الجسم من حركات وأفعال فيفسرها هشام بن الحكم بقوله « الحركات وسائر الأفعال من القيام والقعود والكراهية والطاعة والمعصية وسائر ما يثبت المثبتون الأعراض أعراضاً أنها صفات الأجسام ، لاهى الأجسام ولا غيرها . إنها ليست بأجسام ، فيقع عليها التغاير » إذن كان هشام بن الحكم يميز بين الأجسام والأفعال ، لاكما ذهب ابن حزم عنه . ويوضح هذا نص آخر يقول فيه هشام : « إن صفات الإنسان ليست أشياء لأن الأشياء هى الأجسام عنده ، وكان يزعم أن الحركة معنى وأن السكون ليس بمعنى »[٢]

وهنا يقابلنا السؤال الهام ، من أين استمد هشام بن الحكم فكرة الجسم والجسمية ؟ ، هذه النزعة التى سادت كتابات هشام بن الحكم ومدرسته الشيعية ، وتلميذه المعتزلى إبراهيم بن سيار النظام . . .

لقد حاول الأقدمون الإجابة على هذا السؤال . وقد رأينا من قبل كيف حاول الخياط نسبة آراء هشام إلى الديصانية . ثم نجد الأشعرى يقول « إنه حكى هذا (أى مقالة هشام) عن بعض المتقدمين ، وأنه كان يقول كما حكينا عن هشام ، وأنه لم يكن يثبت أعراضاً غير الأجسام[٣] » ويقصد بالمتقدمين هؤلاء فلاسفة ليسوا أرسطاطاليين ثم يورد الأشعرى أن مذهب هشام بن الحكم «حكاه أبو عيسى عن أصحاب الطبائع »[٤] وأصحاب الطبائع هم فى الغالب عند المسلمين - الفلاسفة الطبيعيون المتقدمون على سقراط أيضاً . ولكن الأشعرى بورد أيضاً عن أبى عيسى أى الوراق أن من أهل التثنية من يزعم أن الأعراض صفات الأجسام لا هى الأجسام ولا غيرها[٥] . وهذه المقارنات الدقيقة حقًّا والإشارات إلى صلات بين هشام بن الحكم وبين الثنوية على جانب كبير من الأهمية . فقد ناقش هشام الثنوية وكتب الكتب الكثيرة فى نقدهم ونقد الفلاسفة . ولكن يبدو أنه علق به بعض آرائهم مما لا يخالف جوهر التوحيد فى نظره . إنها فكرة تبادل الأسلحة .

---

(١) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٦٧ - ٦٨

(٢) الأشعرى : مقالات جـ ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

(٣) الأشعرى : مقالات جـ ٢ ص ٣٤٤.

(٤) نفس المصدر جـ ٢ ص ٣٤٥ .

(٥) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٣٤٤ .

وقد وجه الخياط الأنظار إلى علاقة هشام بفرقة الثنوية الديصانية أتباع برديصان وقد كانت الديصانية – كما يقول برتزل – ميداناً خصباً للفلسفة الغنوصية ، حيث ازدهر التوفيق بين مختلف مذاهب اليونان الفلسفية على نحو لا يوجد فى آراء الفرق . ويثبت برتزل أن هرمونيوس بن برديصان ، والمؤسس الأكبر لفرقة الديصانية ، قد درس فى أثينا حوالى العصر الذى ازدهرت فيه الفلسفة الرواقية آخر ازدهار لها « وأنه أضاف إلى ضلالات أبيه – وهذا لم يكن غنوصيًّا صريحاً ولا رواقيًّا خالصاً – أيضاً ضلالات اليونان التى تتعلق بالنفس وبولادة الأجسام وفنائها وبالخلق الجديد للإنسان بعد الموت . ثم إن المقالات التى رد بها على ابن ديصان تستحق النظر من حيث إنها تبين تأثير أصحاب أفلاطون وتأثير الرواقيين حول مدينة الرها [١] » فالرواقية إذن كانت منتشرة فى مجامع الرها وحلقاتها ، معروفة لدى الديصانية ، وقد حملها هؤلاء إلى المفكرين الإسلاميين فى جدالهم معهم ، ويبدو أن نزعة هشام بن الحكم الحسية قبلت هذا الأصل الرواقى ، كما قبلت أصولا أخرى رواقية خلال الديصانية . ومن الملاحظ أن بعض المؤرخين القدامى تنبهوا إلى رواقية ابن ديصان الرهاوى وقد كان للأستاذ فورلانى فضل تنبيهنا إلى هذا – ففى مقال عن ابن ديصان الرهاوى يذكر ملاحظة لسرجيوس الرأس عينى يقرر فيها موافقة ابن ديصان السريانى للرواقيين فى تجسيمهم كل شىء حتى الألوان والطعوم والروائح والأشكال الهندسية .

ويذكر فورلانى أن سرجيوس الرأس عينى عرف الرواقية عن طريق شراح أرسطو ثم قارن بينها وبين الديصانية ، وانتهى إلى موافقة الأخيرة للأولى [٢] . فلا شك أن آراء هشام بن الحكم وآراء النظام المجسمة إنما أخذت عن هذا الطريق .

وهذا ما يذهب إليه الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده فى كتابه الممتاز إبراهيم بن سيار النظام يقول : « إن تأثير الفلسفة الرواقية فى آراء المتكلمين الفلسفية من هذا الطريق ممكن على الجملة ، لكن ينبغى ألا نسرف فى تطبيق ذلك لعدم وجود مصادر ومعلومات أدق ولأن فلسفة الرواقيين لم تكن وحدها بين العرب وأن دراسة العوامل التى أدت إلى نشوء الفكر الإسلامى من حيث البواعث والمادة فى ذلك لايزال من أهم مايجب أن تتجه إليه جهود الباحثين » وقد وجه هذا العالم الممتاز أنظارنا إلى كتاب يعقوب الرهاوى (وقد عاش يعقوب فى النصف الثانى من القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث الهجرى) كتاب الذخائر وهذا الكتاب الذى كتب فى السوريانية ونقل حديثاً

---

(١) مقالة بريتز : مذهب الجواهر الفرد عند المتكلمين الأوائل ترجمة : الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة : فى كتاب مذهب الدرة عند المسلمين ١٤٤ .

(٢) الدكتور أبو ريده : النظام ص ٦٦ – ٧٧ .

إلى الإنجليزية يشير إلى رأى بعض الفلاسفة المحدثين الذين يقولون بأن الألوان والروائح والعطور والأصوات أجسام وليست أعراضاً . ويذكر يعقوب أنه قابل رئيس هذه الضلالة وناقشه وأبطل أدلته . ويرى الدكتور أبو ريده أن الأقوال المنسوبة للفلاسفة المحدثين فى هذا الكتاب هى أقوال هشام بن الحكم والنظام [١] .

وإذا كان لابد من تلمس مصدر خارجى لفكرة هشام بن الحكم فى الجسمية وإنكار الأعراض ، فإن هناك أيضاً مصدراً خارجيًّا يراه هورتن . وهو الهنود فقد كان الهنود ينكرون الأعراض ، ويرون أن القول بوجودها يؤدى إلى التناقض لأن قيام العرض بجسم ، هو عرض يحتاج أن يقوم بشىء آخر إلى نهاية . ولقد كانت السمنية وآراؤها معروفة لدى المسلمين وبخاصة فى زمن هشام بن الحكم والنظام [٢] .

أما الإسفراييني فيرى أن اليهود هم مصدر أقوال هشام فى التشبيه والتجسيم وأن اليهود من قبل أثبتوا لله المكان والحد والنهاية والمجىء والذهاب [٣] .

كان لابد لمنطق التجسيم أن ينتهى – وهو فى جداله العنيف مع شيخ المعتزلة أبى الهذيل العلاف ، أن ينكر نظرية الجزء لا يتجزأ . وقد نقل إلينا الأشعرى أن هشاماً كان يذهب إلى أن الجزء يتجزأ أبداً ولا جزء إلا وله جزء وليس لذلك آخر إلا من جهة المساحة ، وأن لمساحة الجسم آخراً وليس لأجزائه آخر من باب التجزؤ .

ولقد ذهب المعتزلة والأشاعرة من بعدهم إلى القول بالجزء الذى لا يتجزأ لتحقيق شمول القدرة الإلهية . فالقدرة الإلهية تتناول ما هو متناه فى التجزؤ . ولكن هشام بن الحكم يرى أن الجسم له آخر فى المساحة ، فلا يتعارض هذا مع القدرة الإلهية وإحاطتها بالجسم ، أما الجزء فهو يتجزأ دائماً فى داخل الجسم ذى «الآخر» وقد أثر هشام بن الحكم فى النظام . وقد وصلت إلينا نصوص النظام ولكن لم يصلنا سوى شذرة أو شذرات قليلة من نقد هشام للمذهب الذرى ويقول البغدادى : «وكان هشام يقوم بنفى نهاية أجزاء الجسم وعنه أخذ النظام إبطال الجزء الذى لا يتجزأ» [٤] كما أثر النظام بدوره فى الإمام ابن حزم فأنكر ابن حزم أيضاً كما أنكر هشام والنظام المذهب الذرى ، ويقول : «ذهب جمهور المتكلمين إلى أن الأجسام تنحل إلى أجزاء صغار لا يمكن ألبتة أن يكون لها جزء ، وأن تلك الأجزاء

---

(١) نفس المصدر : السابق ص ٩ هامش ٣ .

(٢) الدكتور أبو ريده : النظام ص ١١٩ .

(٣) الإسفراييني : التبصير ص ٢٥ .

(٤) البغدادى : الفرق ص ٤٢ .

جواهر لا أجسام لها . وذهب النظام وكل من يحسن القول من الأوائل إلى أنه لا جزء وإن دق إلا وهو يحتمل التجزؤ أبداً بلا نهاية وأنه ليس فى العالم جزء لا يتجزأ (١) وأن كل جزء انقسم الجسم إليه فهو جسم أيضاً وإن رق أبداً ، ويعنينا من هذا النص إشارته إلى فلاسفة ما قبل النظام «وكل من يحسن القول من الأوائل» فلا شك أنه يقصد بهم الفلاسفة وفلاسفة اليونان على وجه الخصوص . فهل تنبه الإمام الظاهرى إلى أنه يأخذ من الفلاسفة وأرسطو بالذات ! ! ؟

أما نقد ابن حزم للقائلين بالجزء الذى لا يتجزأ فهو يعرضه فى صورة ردود على ما أسماه بخمس مشاغب لهم . ويهمنا بالذات المشغب الأول ورد ابن حزم عليه . إذ أنه يتشابه تماماً مع الفقرة الوحيدة التى وصلتنا عن هشام بن الحكم فى نقده لنظرية الجزء الذى لا يتجزأ .

يعرض ابن حزم هذا المشغب كالآتى : فأول مشاغبهم أن قالوا أخبرونا إذا قطع الماشى المسافة التى مشى فيها ، فهل قطع ذا نهاية . فهذا محال . وإن قلتم قطع ذا نهاية ، فهو قولنا .

ورد ابن حزم : إننا لم نرفع النهاية عن الأجسام كل من طريق المساحة ، بل نثبتها ، ونعرفها ، ونقطع على أن كل جسم فله مساحة محدودة أبداً ، وإنما نفينا النهاية عن قدرة الله تعالى على قسمة كل جزء وإن دق ، وأثبتنا قدرة الله تعالى على ذلك ، وهذا هو شيء غير المساحة ، ولم يتكلف القاطع بالمشى أو بالذراع أو بالعمل قسمة ما قطع ولا بتجزئته ، وإنما تكلف عملا ، أو مشى فى مساحة معدودة بالميل أو بالذراع أو الشبر أو الأصبع أو ما أشبه ذلك ، وكل هذا له نهاية ظاهرة ، وهذا غير الذى نفينا وجود النهاية فيه ، هذا فعلا هو اعتراض هشام بن الحكم الوحيد الذى ظفرنا به ، ولكنه هنا مفسر ومفصل . فالجسم له مساحته ينتهى إليها ولكن هو نفسه — تحقيقاً للقدرة الإلهية — ينقسم إلى مالا نهاية . فقدرة الله تقسم الجزء إلى جزء والجزء إلى جزء إلى مالا نهاية . ومن العجب أن يجعل أبو الهذيل القول بالجزء الذى لا يتجزأ أيضاً فرعاً عن القدرة الإلهية فالله القادر على كل شيء ، قادر على تفريق الجسم إلى جزء أو مقدار لا تأليف ولا تركيب فيه . فمنكرو الجزء الذى لا يتجزأ ومثبتوه يتعلقون جميعاً بفكرة تحقيق القدرة الإلهية .

ويبدو أن هشام بن الحكم كان أول من ابتدع فكرة الطفرة وينقل الأشعرى أن أصحاب هشام بن الحكم يقولون إن الجسم يكون فى مكان ثم يصير إلى المكان الثالث من غير أن يمر بالثانى (٢) . فهل تكلم هشام بن الحكم فى الطفرة . ؟ أم أن أصحابه من بعده وافقوا النظام فى قوله بها . . . ؟

(١) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٩٢ .

(٢) الأشعرى · مقالات : ج ١ ص ٢٢٧ .

والبغدادى يصرح بأن قول النظام بالطفرة لم يسبق إليه أحد قبله [١] . كما أن الأشعرى ينسب إليه أيضاً القول بالكمون [٢] .

وينتج عن القول بالكمون فكرة تداخل الأجسام ، ويذكر البغدادى أن هشاماً قال : بمداخلة الأجسام بعضها فى بعض كما أجاز النظام تداخل الجسمين اللطيفين فى حيز واحد [٣] .

وفى نص آخر يقول الأشعرى : إن هشاماً يقول بالمداخلة ويثبت لون الجسمين اللطيفين فى مكان واحد كالحرارة واللون [٤] .

ومعنى المداخلة – فيما يقول الأشعرى « أن يكون حيز أحد الجسمين حيز الآخر ، وأن يكون أحد الشيئين فى الآخر [٥] وليس بين أيدينا نصوص واضحة تفسر لنا نظرية هشام بن الحكم فى التداخل اللهم إلا إذا قلنا إنها نظرية النظام ، وهى تداخل جسمين لطيفين الواحد فى الآخر ، أوجسم لطيف وجسم كثيف . وقد اختلف فى مصدر النظرية – هل أخذها النظام وبالتالى هشام من الرواقية أومن أنكسا غوراس أو من الثنوية .

ويبدو أن نزعة الرجل العلمية الحسية ملكت عليه كل تفسيراته . فيفسر الزلازل بأن الله خلق الأرض من طبائع مختلفة أو أنها مركبة من طبائع مختلفة أو أنها مركبة من طبائع مختلفة يمسك بعضها بعضاً ، فإذا ضعفت طبيعة منها ، غلبت الأخرى ، فكانت الزلزلة ، وإن ازدادت الطبيعة ضعفاً ، كان الخسف [٦]. وهل يمكن أن نربط هذا التفسير بالمداخلة ؟ أى إذا تداخلت طبيعة من الطبائع المكونة للأرض بالطبيعة الأخرى حدثت الزلازل . أم أن هذا فقط تفسير علمى له لحدوث الزلازل والخسف .

وهشام بن الحكم يفسر المطر أيضاً بأنه جائز أن يكون ماء يصعده الله « بخارا » ثم يمطره على الناس ، وجائز أن يخترعه الله فى الجو ثم يمطره . ويقر هشام أن الجو جسم رقيق [٧] .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ٤١ .
(٢) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٤٢٩ .
(٣) البغدادى : الفرق ص ٤٢ .
(٤) الأشعرى : مقالات . . ج ١ ص ٦٠ .
(٥) الأشعرى : مقالات . . ج ١ ص ٥٢٧ .
(٦) الأشعرى : مقالات : ج ١ ص ٦٣ والبغدادى : الفرق ص ٤٢ .
(٧) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٣ .

٣ ــ العالم الإنسانى

(ا) الإنسان :

يقول هشام بن الحكم : الإنسان اسم لمعنيين : لبدن وروح ، فالبدن موات والروح هى [١] الفعالة الحساسة الداركة دون الجسد ، وهو نور من الأنوار ومن العجيب أن يقول هشام بن الحكم ذو النزعة الحسية إن الروح هى الفعالة الحساسة الداركة دون الجسد ، وأن يعتبر الروح نوراً من الأنوار . ولكن يبدو إذا فسرناه فى ضوء تلميذه النظام – أن الروح عنده جسم لطيف يداخل جسما كثيفاً هو البدن . وأن الروح – لأجل لطافتها هى التى تدرك وتحس . هذا تفسير ، ومن ناحية أخرى ما الذى دعا هشاماً إلى قوله هذا ؟ هل هو نقد لعدوه المعتزلى ومعاصره أبى الهذيل العلاف . وهذا الأخير يذهب إلى أن الإنسان هو الشخص الظاهر المرئى الذى له يدان ورجلان ، أى هو الجسد . المكون من أجزاء لا تتجزأ وهل نعتبر ، « نوراً من الأنوار » إشارة إلى مصدر الفكرة الديصانية والمرقونية وهى أن الإنسان هو الروح [٢] وهل هذا ما دعا النظام إلى أن يقرر أن الروح ليست نوراً ولا ظلمة حتى يعارض الأصل الثنوى لفكرة هشام ؟ مع أنه هو نفسه أخذ بجوهر تعريف هشام . وهو أن الإنسان هو الروح . إننا نتوقف عن الحكم . لأن النصوص التى تركت لنا عن هشام قليلة .

غير أن ابن حزم يرى أن مصدر فكرة أن الإنسان هو الروح ، على الحقيقة ، هو القرآن ، كما أن مصدر فكرة أن الإنسان هو الجسم هو القرآن أيضاً . أما أدلة الأولين من القرآن فنها الآية ، « إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً [٣] ويقول ابن حزم : إن الهلع والجزع والمنع صفات النفس لا صفات الجسد ، لأن الجسد موات والنفس هى حياة ، وهى الفعالة المميزة حاملة لهذه الأخلاق وغيرها . ثم يستمد أيضاً سنداً لهذه الفكرة من الحديث حين خاطب الرسول ﷺ يوم بدر قتلى المشركين – وأخيراً أنهم وجدوا ما توعدهم به حقًّا ، قبل أن يكون لهم قبور فقال المسلمون : يا رسول الله أتخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال عليه السلام : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .فلم ينكر عليه الصلاة والسلام على المسلمين قولهم : إنهم قد جيفوا . وأعلمهم أنهم سامعون ،

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٠ . ٦١ ج ٣ ص ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ٣ .

(٣) ابن حزم: الفصل ج ٥ ص ٦٥ – ٦٦ .

فصح أن ذلك لأرواحهم فقط بلا شك وأما الجسد فلا حس له . كما أن فى آثار الصحابة ما يدل على ذلك . فقد دخل عبد الله بن عمر المسجد الحرام فأبصر عبد الله بن الزبير مطروحاً قتيلا وذلك قبل أن يصلبه الحجاج بن يوسف الثقفى وبجانب الجثة أمه أسماء بنت أبى بكر . فقيل له : هذه أسماء بنت أبى بكر . فمال إليها وعزاها وقال : إن هذه الجثث ليست بشىء ، وإن الأرواح عند الله . فقالت أسماء : وما يمنعنى . وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

وينتهى ابن حزم إلى القول بأن « الأرواح باقية عند الله ، وأن الجثث ليست بشىء (١).وهذا يدل على أن تفسير الإنسان بأنه الروح وأنها هى الحساسة الداركة قرآنى المصدر أو على الأقل أنه كان هناك اجتهاد فى النصوص لدى هشام والنظام من بعده .

أما أدلة القائلين بأن الإنسان هو الجسد ، فإن ابن حزم يرى أيضاً أنه اجتهاد فى تفسير الآيات .فالقرآن يقول « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » ويقول : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » وبقوله تعالى « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى » ويرى ابن حزم أن هذه بلاشك صفة للجسد . لا صفة للنفس ، لأن الروح إنما تنفخ بعد تمام خلق الإنسان الذى هو الجسد(٢)ومن المغالاة القول بأن مصدر هذا البحث قرآنى فقط ، وإنما المنهج الصحيح لتفسير مصدر أقوال هشام ، هو أن هشاماً اجتهد فى النصوص ، وكذلك عدوه أبو الهذيل ووصلا إلى نتائج فلسفية ، ثم وجدا – فيما قبلهم من فلسفات ما يؤيد نظرياتهم ، فأخذوا بها .

(ب) الجبرية والحرية :

ماذا كان موقف هشام بن الحكم من المشكلة الأخلاقية . إرادة الإنسان : هل هى جبر أم اختيار؟ إن النصوص قليلة جداً . ولكن الأشعرى ينقل لنا نصًّا هامًّا عنه يقول فيه « إن أعمال العباد مخلوقة لله » (٣) ونصًّا آخر عن جعفر بن حرب المعتزلى أن هشاماً كان يقول « إن أفعال الإنسان اختيار له من وجه ، اضطرار من وجه ، اختيار من جهة أنه أرادها ، واضطرار من جهة أنها لا تكون منه إلا عند حدوث السبب المهيج لها » (٤) . ونرى من هذا أن هشاماً فى النص الأول جبرى ، وفى النص الثانى كسبى أو أقرب إلى كسب الأشاعرة الذين نادوا به من بعد . إن تفسير مذهب هشام هو أن الإنسان يختار الفعل مقترناً بسبب خارجى مثير ، ويفسر موقف هشام فكرته عن الاستطاعة «أن

(١) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ٦٧ – ٦٨ .
(٢) ابن حزم : الفصل ح ٥ ص ٦٦ .
(٣) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤١ .
(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

الاستطاعة خمسة أشياء : الصحة وتخلية الشئون والمدة فى الوقت والآلة التى بها يكون الفعل كاليد التى يكون بها اللطم والفأس التى تكون بها النجارة والإبرة التى تكون بها الخياطة وما أشبه ذلك من الآلات ، والسبب الوارد المهيج الذى من أجله يكون الفعل ، فإذا اجتمعت هذه الأشياء ، كان الفعل واقعاً ، فمن الاستطاعة ما هو قبل الفعل ، موجود ، ومنها ما لا يوجد إلا فى حال الفعل وهو السبب ، وزعم أن الفعل لا يكون إلا بالسبب الحادث ، فإذا وجد ذلك السبب وأحدثه الله ، كان الفعل لا محالة ، وأن الموجب للفعل هو السبب ، وما سوى ذلك من الاستطاعة لا يوجبه . لابد إذن من الاستطاعة ، وهى جسم ، وهى بعض المستطيع ، وهى السلامة عن الآفات ، وصحة الحواس ، والمدة ، ولكن لا يتحقق الفعل ، إلا إذا حدث السبب ، فنحن إذن فى الأسباب وفى متعلقات الأسباب ، فأعمالنا إذن معلومة لعلة ، ولا شىء أكثر . لا جرم بعد ذلك أن يقول الخياط : «فأما جملتهم ومشايخهم (أى الرافضة مثل هشام بن سالم وشيطان الطاق وعلى بن هيثم وهشام بن الحكم وعلى بن منصور والسكاك) فقولهم فى القدر : إن الكافر كفر بعلة وبسبب من قبل الله ألجآه إلى الكفر ، بل ألجآه إلى كفره واضطراه إليه ، وأدخلاه فيه . وإن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية [١] » .

ومن الواضح أن هشام بن الحكم تلميذ أمين هنا لجهم بن صفوان . فقد وافقه فى العلم الحادث ووافقه أيضاً فى الجبر . وفى الحق أن موقفه ينقصه التوازن بين أجزاء المذهب . ولقد أثر هشام بن الحكم فى إبراهيم بن سيار النظام ، وإن من الصعوبة أن ندرج النظام فى سياق المذهب القدرى المعتزلى بل يضطرب رأيه كثيراً فى مسألة الإرادة الإنسانية بحيث يبدو قريباً من الجبر ، وهذا بلا شك أثر من آثار هشام فيه .

(حـ) عصمة الأنبياء والأئمة :

يبدو أن المسألة أثيرت منذ وقت مبكر فى تاريخ الإسلام وقداتهم هشام بن الحكم بأنه يقول بعصمة الأئمة بينما يجوز المعصية على الأنبياء ويذهب الأشعرى إلى أن هشاماً زعم أن النبى ﷺ جائز عليه أن يعصى الله لأن الرسول إذا عصى ، فالوحى يأتيه من قبل الله ، فيرده عن خطئه وعصيانه ، أما الأئمة فلا يوحى إليهم ، ولا تهبط عليهم الملائكة فهم معصومون ، فلا يجوز عليهم أن يسهوا ولا يغلطوا [٢] وقد ردد البغدادى نفس هذا الكلام . وأنه تأول على ذلك قول الله تعالى «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فالرسول إذن يرتكب الذنب ، ولكن الله يرده . [٣]

(١) الخياط : الانتصار.

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤٨ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ٤٢ .

وكذلك الشهر ستانى فإنه يقول «إنه نقل عنه أنه أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة ويفرق بينهما أن النبي يوحى إليه ، فينبه على وجه الخطأ ، فيتوب منه ، والإمام لا يوحى إليه فيجب عصمته (١) .

وليس هناك نص واضح يبين رأى هشام بن الحكم فى علم ومعجزات وأعلام الأئمة . ونحن نعلم أنه كان من خواص جعفر الصادق وابنه موسى الكاظم . وأن الشيعة فى عصرهما زعموا أن الإمام يعلم كل ما كان وكل ما يكون ولا يخرج شيء عن علمه من أمر الدين والدنيا . وأنه يعرف جميع أنواع الكتابة واللغات ، ولكى يبرروا هذا أنكروا أمية الرسول محمد ﷺ ، بل ذهبوا إلى أنه كان كاتباً ويعرف الكتابة وسائر اللغات (٢) ولكن لم يترك لنا نص عن هشام يبين رأيه فى هذا كما أنه لم يترك لنا نص واضح يبين رأيه فى ظهور الكرامات والمعجزات على يد الأئمة . وإن كان قد ترك عنه . أنه كان يجيز المشى على الماء لغير نبى ، ولا يجوز أن تظهر الأعلام المعجزة على غير نبى » (٣) وهذا نص متناقض أو مبتور . ولكن قوله بعصمة الأئمة وعدم تنزل الوحى عليهم ينفى نفياً باتاً أنه يقول بظهور المعجزات على أيديهم . وقد ذكر الشهر ستانى أن هشاماً غلا فى حق على حتى قال «إله واجب الطاعة» وهذا خطأ من الشهرستانى ويجب ألا يلقى إليه بال (٤) .

فإذا انتقلنا إلى الناحية الابستمولوجية فى الإمام ، فالمعرفة كلها باضطرار عند الشيعة بل إن الخلق جميعاً مضطرون وأن القياس والرأى لا يؤديان إلى علم وما تعبد الله العباد بهما . فعلم الإمام علم معصوم ، يقول هشام بن الحكم «إن المعرفة كلها اضطرار بإيجاب الخلقة ، وأنها لا تقع إلا بعد النظر والاستدلال ، يعنون بذلك بما لا يقع منها إلا بعد النظر والاستدلال ، العلم بالله عز وجل (٥) هل هنا تراجع عن موقف الإمامية العامة ، اللجوء إلى النظر والاستدلال لاستكناه المعرفة الاضطرارية . أو هو إشارة إلى عالم الذر حيث ألقى الله المعرفة فى الناس اضطراراً . ! !

ويبدو أنه كان لهشام بن الحكم تفسير قرآنى ، أو أن الرجل كان يستخرج أشياء من لطيف الكلام منه . وهو يفسر لنا الأنواع الثلاثة من الكائنات الغيبية فالنوع الأول هو الجن : ويبدو أن المعتزلة كانت تنكر الجن ، ولكن هشام بن الحكم يثبت وجودهم ويشرح الآيات : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم . إلى . . . فبأى آلاء ربكما تكذبان» فيرى أنهم موجودون ، وأنهم مأمورون منهيون ثم يفسر النوع الثانى وهو الشيطان فيتكلم فى وساوس الشيطان فيقول مفسراً للآية : (الوسواس الخناس الذى

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١١٣ .
(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٥٠ .
(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٦٣ .
(٤) الشهرستانى : الفرق جـ ١ ص ٣١٣ .
(٥) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٢

يوسوس فى صدور الناس) بأنه مجرد خاطر ، ولكن لا يحل الشيطان أبدان الناس . وأن الجو أداة الشيطان حيث يعيش ويصل بالجو إلى القلب ، أى تصل آثاره وخواطره ، بدون أن يدخل فيه . وأن الشيطان يعلم ما يحدث فى القلب ، وليس ذلك بغيب ، لأن الله قد جعل عليه دليلاً ، «مثل ذلك ، أن يشير الرجل إلى الرجل أن أقبل ، أو أدبر ، فيعلم ما يريد ، فكذلك إذا فعل الإنسان فعلاً يريد شيئاً من الخير أو البر عرف الشيطان ذلك ، فينهى الإنسان عنه ويزين له عدم فعله .

والنوع الثالث من الموجودات الخفية هو الملائكة وقد رأى هشام – خلال تفسيره القرآنى «أنهم مأمورون منهيون . فالله يقول «ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . وقال : يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون [١]

وأخيراً حارب الرجل السحر ، وقد كان منتشراً فى أوساط الغلاة ، ينسبونه للأئمة وينسبونه لأنفسهم ، فكان يقول عنه «إنه خديعة ومخاريق ، ولا يجوز أن يقلب الساحر إنساناً حماراً ، أو العصا حية [٢] وهو لا ينكر «قلب العصا حية فيما يذكره القرآن عن سحرة فرعون ، فإن سياق القرآن يدل على أنه خيل إليهم من سحرهم أنها تسعى .

وبعد : فقد أردنا أن نرسم صورة تركيبية متكاملة لهشام بن الحكم ، وقد كان أكبر شخصية فلسفية فى عصره ، أحاط بثقافاتها ، ونزل فى معترك الفرق ، فجادلها أشد جدال ، لم يكن غنوصياً على الإطلاق – ديصانياً أو مرقونياً أو مانوياً بل إنه حارب كل هؤلاء أشد الحرب ، ولكن علق منهم به آثار ، وناقش الفلاسفة المشائين وكتب عليهم ، فاتصلت منهم به رواقية لاشك فيها ، وتتلمذ على جهم ، وترك جهم آثاره فيه ، وأنكر الغلاة وجادلهم ، فاتصلت بعض آثارهم به . كان المقدم فعلاً فى دقيق الكلام وجليله ، كما كان صاحب غور كما قال الشهرستانى . وكرهه المعتزلة ، وشغل شغلهم وشغل مجامعهم وهجاه شعراؤهم فقالوا :

ما بال من ينتحل الإسلاما متخذاً إمامه هشاما [٣]

ثم كان أكبر تلامذته واحداً منهم وهو النظام ، لقد نفذ إلى أعماق المذهب المعتزلى خلال هذا الشيخ الكبير من شيوخ المعتزلة ، كما نفذ أيضاً إلى أعماق أهل الحديث ، فانتشر تجسيمه بينهم كما أثر فى الكرامية وفى السلف المتأخرين من أمثال ابن تيمية ومدرسته ولعل سكوت ابن تيمية عنه ، وهو الذى لم يسلم عالم من علماء المسلمين من قلمه ، أن تجسيمه صادف هوى فى نفس ابن تيمية . ولم يخلص

---

(١) الأشعرى . مقالات ج ١ ص ٦٢ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٣ .

(٣) الخياط : الانتصار ص ١١٩ .

الفكر الكلامى العقائدى من أثره إلا حين تكون المذهب الأشعرى ، فخلص عقائد أهل الحديث من الحشو والتشبيه والتجسيم ، ومن كل ما علق عقائد المسلمين من عناصر أجنبية ، وقد تنبه المستشرق الكبير أوتوبرتزل فى مقاله الممتاز «مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين فى الإسلام فقال : «ورغم أنه منذ العصر الإسلامى الأول قد وجهت حرب شديدة على المعتنقين للمذهب الثنوى المجاهرين بعقيدتهم ، فقد بقى تعارض مستتر بين الدين الإسلامى وبين الآراء الفلسفية الأخرى ، ثم يوضح هذا توضيحاً أكثر فيقول : ، وبعبارة أخرى ، فقد بقيت فى المجتمع الإسلامى آراء الثنوية الذين انتقلوا إلى هذا الدين ، وصارت تفعل ما تفعله الذئاب فى الغنم ولم تزل موجودة حتى أخذ مذهب أهل السنة يتكون على مهل . ويتبين أنها لا تلتئم مع الإسلام ، وأخذ يستبعدها من جملة الآراء الكلامية الإسلامية . وإذا نظرنا للأمر من هذه الجهة ، أمكن أن نتصور أن تكون العقائد الإسلامية لم يكن دخولاً فقط ، بل كان أيضاً خروجاً تدريجيًّا لأفكار مسيحية ومانويه وغنوصية ، وما يتصل بذلك من آراء فلسفية يونانية [١] .

وهذا دليل واضح على ما قام به الأشاعرة من تخليص العقائد الإسلامية مما لحقها من آثار مجادلات هشام وتلامذته والمعتزلة ورجالهم مع الثنوية والفلسفة اليونانية والمسيحية واليهودية . وأيًّا ما كان الأمر ، فقد كان هشام بن الحكم مرحلة حاسمة فى تاريخ الفكر الإسلامى . وسنحاول فى الفصل المقبل تتبع آثاره فى مدرسته الشيعية الإمامية .

---

(١) انظر الترجمة العربية لهذا المقال القيم فى النص العربى لكتاب : مذهب الذرة عند المسلمين ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة .

الفصل الثالث

مدرسة هشام بن الحكم

كان هشام بن الحكم – كما رأينا – رائد التجسيم فى الفكر الفلسفى الإسلامى . ولم يفهم الشيخ المفيد حقيقة فكر هشام بن الحكم ولم ينفذ إلى أعماق مذهبه المتكامل . بل راح تحت تأثير معتزلى متأخر يحاول تبرئة هشام بن الحكم من القول بالجسمية فقال : « لم أقف على وجه مخالفته لسائر الشيعة فى باب أسماء الله الحسنى إلا ما نسب إليه من إطلاق لفظة أنه جسم لا كالأجسام والذى حكى رجوعه عنه »[1] وهذا خطأ بالغ من الشيخ المفيد ، فهشام بن الحكم لم يرجع عن مذهبه الجسمى ، وإلا انهدمت النظرية الهشامية كاملة ، ولم يكن جعفر الصادق فى حاجة إلى أن يأمره بالكف عن مذهبه ، طالما كانت الفرق المختلفة يجادل بعضها البعض فى حقيقة « الوجود » « والله » وكان تصور « الجسم » سائداً لدى بعض الفرق ، تتناوله ببساطة ، وتذكره بدون ما حرج . كما دخل مصطلح « الجوهر أو الماهية » فيما بعد ، واختلف المتكلمون فى نسبتها إلى الله ، فأثبتها بعض وأنكرها الآخر . كما أن إنكار نسبة العلم الحادث إلى هشام أيضاً[2] لا معنى له ، فمن الثابت أن هشام بن الحكم تتلمذ على جهم بن صفوان وعرف آراءه ، وأخذ ببعضها . والعلم الحادث المتجدد بتجدد المحدثات نظرية فلسفية أيضاً . فلا محل إذن لقول الشيخ المفيد : « نقول إن الله تعالى عالم بكل ما يكون قبل كونه وأنه لا حادث إلا وقد علمه قبل حدوثه ولا معلوم إلا وهو عالم بحقيقته . هذا هو مذهبنا ، ولسنا نعرف ما حكاه المعتزلة عن هشام بن الحكم فى خلافه ، وعندنا أنه تخرص منهم عليه ، وغلط من قلدهم ، ومعنا فيما ذهبنا إليه جميع المنتسبين إلى التوحيد سوى الجهم بن صفوان من المجبرة وهشام بن عمرو الفوطى من المعتزلة ، فإنهما يزعمان أن العلم لا يتعلق بالمعدوم ولا يقع إلا مع موجود والله لو علم الأشياء قبل كونها لما حسن منه الامتحان » إن النقد الباطنى لنصوص هشام يثبت أنه بقى أميناً لفكرته ، وبخاصة أنها لا تقدح فى التوحيد إنما هى فقط صورة لاجتهاد فى النصوص . ولكن الشيخ المفيد يتنبه إلى أن هشاماً كان فى أول أمره جهمياً ، ثم رجع عن جهميته بعد ما لقى الإمام الصادق وأن المعتزلة تقولوا عليه هذه الأقاويل ، ثم يذكر الشيخ المفيد أنه من المحتمل جداً أن تكون هذه الحجج قد أوردها هشام إلزاماً للمعتزلة . وهنا يناقض الشيخ نفسه . إنه يقرر أولاً بأن هشاماً آمن بالعلم الحادث خلال

---

(١) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ٣٧ – ٣٨ . (٢) نفس المصدر : ص ٥٦ – ٥٧ .

اتصاله الباكر بالمذهب الجهمى ، ثم يذكر ثانية أنه من المحتمل أنه قال بها إلزاماً للمعتزلة . ثم نسبها المعتزلة إليه كرأى من آرائه . ولعل السبب الرئيسى فى إنكار المفيد لنسبة هذه الآراء لهشام أنه كان هو نفسه قد دخل فى الطور الثانى من أطوار المذهب الإمامى ، وهو الطور الاثنى عشرى الذى تميز بمعتزليته الواضحة . فأخذ ينفى عن هشام ما اتهمه به هؤلاء ، ومهما حاول المجتهدون المتأخرون من محاولات فى هذا السبيل ، فإن مذهب هشام يقف متماسكاً ، مختلفاً تمام الاختلاف عن مذهب المعتزلة ومذهب الاثنى عشرية المعتزلى :

وقد أثر هشام فى معاصريه من متكلمى الإمامية ، فسادت النزعة التجسيمية كتاباتهم ، وكلهم — كما قلت فى السابق — من جلة أصحاب الإمام جعفر الصادق ، ومن أقران هشام بن الحكم .

وأهم رجال هذه المدرسة هو هشام بن سالم الجواليقى ، وقد نسب التجسيم والتشبيه إلى الرجلين معاً : هشام بن الحكم وهشام بن سالم ، واختلطت آراؤهما اختلاطاً كاملاً ، فنسبت الفرقة إليهما معاً — فقيل لها الهشامية ، وقيل عنهما الهشامان . أما اسم هشام بن سالم الكامل فهو هشام بن سالم الجواليقى الجعفى مولى بشر بن مروان ، وكنيته أبو محمد أو أبو الحكم ، من سبى جوزجان ولا نعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته . ولكن يجمع المؤرخون على أنه كان معاصراً لهشام بن الحكم ، وإن كان أكبر منه فى السن ، وقد كتب هشام بن الحكم كتاباً « فى الرد على هشام الجواليقى [١] . ولكن كتب الشيعة تجمع على مدحه . ولم يذكر لنا اسم كتبه ، غير أن ابن النديم يذكر فى الكتب المصنفة فى الأصول كتاب هشام بن سالم [٢] ويبدو أن له أيضاً كتاباً فى الإمامة .

ويذهب الشهرستانى إلى أنه نسج على منوال هشام بن الحكم فى التشبيه [٣] . وكذلك يذهب الخياط [٤] أما البغدادى فيقول : هذا الجواليقى مع رفضه على مذهب الإمامية مفرط فى التجسيم والتشبيه » [٥] .

وقد أعلن هشام بن سالم أن الوجود جسم « وأنه لا شىء فى العالم إلا الأجسام . وأجاز أن يفعل العباد الأجسام » فهو يتابع إذن هشام بن الحكم فى فكرته المجسمة ؛ ولكن ما هى صورة الله عنده ؟ هل هو جسم أم ليس جسماً ، وهل الجسم عنده بمعنى الوجود — كما هو عند هشام بن الحكم ، وأنه لا أجزاء له مؤتلفة وأبعاض متلاصقة ؟ . لا نظفر من هشام بن سالم بنص صريح فى هذا . ولكنه يقدم لنا تفسيراً جديداً لله وهو أن الله على صورة الإنسان ، ويبدو أنه يستند فى هذا على الأثر اليهودى « خلق

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق : ص ٣٣٢ .
(٣) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٠٨ .
(٤) الخياط : الإنتصارى ص ٦ .
(٥) البغدادى : الفرق ٤٣ .

الله آدم على صورته» ولكنه ينكر أن يكون الله لحماً ودماً . ولكنه على صورة إنسان نورانى «هو نور ساطع يتلألأ بياضاً» ويبدو هنا أنه يفسر «الله نور السموات والأرض» وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان ، له يد ورجل وأنف وأذن وعين وفم» أى له اللمس والشم والسمع والبصر والذوق «وهذا إلزام بلا شك» ، ثم إنه يسمع بغير ما يبصر به وكذلك سائر حواسه متغايرة (١) ثم «إن نصفه الأعلى مجوف ونصفه الأعلى مصمت ، ثم إن لله وفرة سوداء ، وأنه نور أسود وباقيه نور أبيض ، وأن له قلباً تنبع منه الحكمة (٢) . وهذا عبث حقيقى نقله إلينا البغدادى عن أبى عيسى الوراق .

إن من الواضح أن التجسيم فى مختلف صوره ساد المدرسة الإمامية إبان ذلك الوقت ، فهشام بن الحكم يدعو الله جسماً لا كالأجسام ، ويرى أن الجسم بمعنى موجود وأن الله مستو على العرش بلا ممارسة ولا كيفية . وفرقة أخرى ولا ينسبها الأشعرى لشخص ترى أن الله على صورة الإنسان وتمنع أن يكون جسماً . وفرقة ثالثة – وهى فرقة هشام بن سالم – وهى تقترب من الفرقة الثانية ، وهى ترى أن الله على صورة الإنسان ولكنه ليس لحماً ولا دماً ، وفرقة رابعة وهى تقترب أيضاً من الفرقة الثالثة ، وهى تقول إن الله ضياء خالص ونور بحت وهو كالمصباح الذى من حيث جئته يلقاك بأمر واحد ، وليس بذى صورة ولا أعضاء ولا اختلاف فى الأجزاء ، وأنكرت هذه الفرقة أن يكون الله على صورة الإنسان أو على صورة شىء من الحيوان ، فهى تقترب إذن من الجواليقية فى زعمها أن الله نور وتختلف عنها فى أنها تنكر أنه على صورة الإنسان .

ثم هناك طائفة أخرى تقول : إنه جسم ، ولكنها تنكر أن يكون موصوفاً بلون أو طعم أو رائحة أو مجسة ، أو شىء مما وصفه به هشام ، غير أنه على العرش مماس له ، وطائفة تثبته ملوناً ولكن لا طعم له ولا رائحة ولا مجسة ، أو أن يكون طويلاً وعريضاً وعميقاً .

وطائفة أخرى تقول إن الله هو الفضاء وهو جسم تحل الأشياء فيه ليس بذى غاية ولا نهاية ، وطائفة أخرى تقول : هو الفضاء وليس بجسم والأشياء قائمة به . من هذا نرى أن فكرة التجسيم هى الأساس فى التفكير الشيعى الإمامى إبان ذلك الوقت ، ولكن أضاف أعداء الإمامية إلزامات ضمنوها مذاهب هؤلاء .

وأخيراً – نتساءل : ما هو مصدر فكرة الإله الإنسانى عند هشام بن سالم ؟ قلنا من قبل : إنه الحديث الإسرائيلى «إن الله خلق آدم على صورته» ويبدو أن مقاتل بن سليمان من قبل وداود الجواربى – والأخير شيعى غال – ذهبوا إلى أن الله جسم ، وأنه جثة على صورة الإنسان له لحم ودم وشعر وعظم ، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين ، وهو مع هذا لا يشبه غيره

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٤ . (٢) البغدادى : الفرق ص ٤٢ ، ١٣٩ .

ولا يشبهه غيره ؛ ثم زادت فكرة التشبيه ووصف الله بصفات المخلوقين . فيذهب داود الجوارنى إلى أن الله أجوف من فيه إلى صدره ، مصمت ما سوى ذلك أما مصمت فهى تأويل لقول الله « الصمد ، المصمت الذى ليس بأجوف [١] » .

أما قول هشام بن سالم فى الإرادة فهو قول هشام بن الحكم : إرادته حركة وهى معنى لا هى الله ولا هى غيره ، وأنها صفة الله ليست غيره ، وأن الله إذا أراد شيئاً ، تحرك ، فكان كما أراد الله . ووافق أبو مالك الحضرمى وعلى بن ميثم الهشامين فى قولهما إن إرادة الله غيره وهى حركة لله ولكنه خالفهما ، وقالا : إن إرادته حركة ، وأنها غير الله بها يتحرك [٢] .

قلنا من قبل إنه قال الوجود جسم ، وليس فى العالم إلا جسم . وأن أفعال العباد أجسام . ومعنى هذا أن الاستطاعة جسم ، وهى بعض المستطيع ، وهذا يؤدى إلى أن الإنسان يستطيع أن يفعل الأجسام . والاستطاعة قبل الفعل .

وينسب إليه الأشعرى كما ينسب إلى شيطان الطاق : أن حركات العباد وأفعالهم وسكناتهم أشياء ، وهى أجسام ، وأنه لا شىء إلا الأجسام وأن العباد يفعلون الأجسام [٣] . هل يريد هشام بن سالم أن يقرر حرية الإنسان . لا نستطيع أن نذهب إلى هذا المدى ، وليس بين أيدينا نصوص كافية .

ثم ينسب إليه الخياط أنه يقول بالبداء ، وأن الله يبدو منه البدوات [٤] . ولا شك أن البداء عقيدة عامة فى المذهب الإمامى اعتنقها مفكروهم جميعاً . .

والشخصية الثانية فى مدرسة هشام بن الحكم هى شخصية زرارة بن أعين ويكنى أبو على (المتوفى عام ١٥٠هـ) .

وقد أجمعت المصادر على أنه كان رومى الأصل . كان أبوه عبداً رومياً ، كما كان جده سنبس راهباً فى بلاد الروم . ونشأ أعين فى الكوفة وتعلم القرآن فأعتقه سيده وكان رجلاً من بنى شيبان وعرض عليه أن يدخله فى نسبه ، فرفض أعين ذلك وقال : أقرنى على ولائى » وقد ولد ثلاثة أبناء : بكير وحمران وزرارة وكان الثلاثة يتشيعون وكان حمران أشدهم تشيعاً ، ولكنه لم يشتهر شهرة زرارة فى الكلام ، وإنما كان نحوياً . وقد تكلم ابن النديم عن آل زرارة بن أعين وذكر أنهم جميعاً من خاصة أصحاب جعفر بن محمد ، فالأسرة إذن كانت أسرة شيعية إمامية ولا يضعه ابن النديم فى ثبت

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢٠٩ .
(٢) الأشعرى : مقالات : ج ١ ص ٢٤ ، ج ٢ ص ٥١٥ .
(٣) المصدر السابق : ج ١ ص ٤٣ ، ٤٥ .
(٤) الخياط : الانتصار ص ٦ .

متكلمى الشيعة ، وإنما يضعه ضمن فقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم [١] . ويبدو أن الرجل – بالرغم من حذقه فى الكلام ، قد شغلته العادة عن الكلام والمتكلمين ، فيما يقول الشيخ المفيد [٢] . كما يذكر أنه كان محدثاً ، وأنه روى عن أبى جعفر كتاباً ، تتبع فيه حديثه ، ولم يره [٣] ويذكر عن جعفر الصادق أنه قال «لولا زرارة لظننت أن أحاديث أبى ستذهب [٤] وكل هذا يدل على رسوخ قدم الرجل فى الحديث ، ولكنه مع ذلك خاض فى الكلام وناقش المتكلمين وترك كتاباً فى الاستطاعة والجبر [٥] . وفى إيجاز يجمع المؤرخون على أنه كان من أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام.

ولم يرد عن زرارة – فيما ترك لنا من أخبار فى كتب العقائد – نصوص صريحة عن التجسيم ، كما ترك لنا عن الهشامين – ولكن ورد له نص فى مقالات الإسلاميين أنه يذهب فى الصفات إلى أن الله لم يزل غير سميع ولا عليم ولا بصير حتى خلق ذلك لنفسه [٦]» والنص واضح فى إنكاره الصفات القديمة . ثم نص ثان فى باب الاستطاعة ، يوافق فيه هشام بن سالم الجواليقى فى الاستطاعة [٧] .

ويذكر الشهرستانى أن زرارة بن أعين وافق هشام بن سالم فى حدوث علم الله وزاد عليه بحدوث قدرته وحياته وسائر صفاته ، وأنه لم يكن قبل خلق هذه الصفات عالماً ولا قادراً ولا حياً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا مريداً ولا متكلماً [٨] .

ولكن البغدادى يمدنا بنصوص أكثر ، فينقل لنا أنه ينسب لزرارة بن أعين أنه قال : «إن الله عز وجل لم يكن حياً ولا قادراً ولا سميعاً ولا بصيراً ولا عالماً ولا مريداً ، حتى خلق لنفسه حياة وقدرة وعلماً وإرادة وسمعاً وبصراً فصار بعد أن خلق لنفسه هذه الصفات حياً قادراً عليماً مريداً سميعاً بصيراً [٩]» .

ويرى البغدادى أنه يذهب إلى حدوث الصفات وأنها من جنس صفاتنا «لأن الله إذا لم يكن فى الأزل حيًّا ولا عالماً ثم أحدث لنفسه الحياة والعلم ، فلم يكن مستحقاً لها إذن حتى أحدثها ، كما أن الواحد منا يصير حيًّا قادراً عند حدوث الحياة والقدرة فيه» [١٠] . وهذا إلزام من البغدادى أراد به أن يضع زرارة بن أعين فى المشبهة ، أى أنه يشبه الله بالموجودات فى قياسه صفاته على صفاتنا.

غير أن البغدادى ينبهنا إلى أثر الرجل العظيم فى فرقتين من الفرق الكلامية عامة . فيقرر أن مدرسة المعتزلة البصرية اعتنقت فكرته فى حدوث كلام الله ، كما أن الكرامية أخذت بقوله فى حدوث قول الله

(١) ابن النديم : الفهرست ٣٢٢ – ٢٣٢ .
(٢) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ١١٦ .
(٣) الطوسى : فهرست ص ٧٤ ؛ ولسان الميزان ج ٢ ص ٢٧٣ .
(٤) العاملى : ج ٢ أعيان الشيعة ص ٢٢٢ .
(٥) الطوسى : فهرست ص ٧٤ .
(٦) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤٦ .
(٧) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤٣ .
(٨) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٤١٣ .
(٩) البغدادى : الفرق ص ٤٣ .
(١٠) المصدر السابق : ص ١٤١ ، ٢٠١ .

وإرادته وإدراكاته [١] ، ويذهب الإسفراييني أيضاً إلى نفس الشيء عنه فيقول «وجرى على قياس قوله قوم من بصرية القدرية فقالوا : كلام الله مخلوق له ، وإرادته مخلوقة له ، وزاد عليه الكرامية قالوا : إن إرادته وإدراكاته [٢] . ويتضح لنا من هذا إلى أى حد أثر الرجل الكبير فى علم الكلام من بعده .

أما آراؤه فى الإمامة فقد آمن بالإمام جعفر الصادق إيماناً كاملاً ، كما آمن بإمامة أبيه من قبل . بل يبدو أنه كان من المؤمنين بعلم الأئمة الغيبى وأنهم يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن . وأنه بعث إلى جعفر الصادق يسأله هل هو من أهل النار أم من أهل الجنة . ويؤكد لمن أرسله لجعفر الصادق أن جعفرا يعلم ذلك [٣] . وإن كان يذكر «أنه التوى على جعفر بعض الالتواء» ويذكر الشهرستانى عنه «أنه لا يسع جهل الأئمة ، فإن معارفهم كلها ضرورية . وكل ما يعرفه غيرهم بالنظر ، فهو عندهم أولى ضرورى» [٤] .

ثم هو يؤمن بالتقية ويسميها جراب النورة ويرى أن جعفراً الصادق كان يكيل منها [٥] . ويورد المؤرخون روايات عن أهل البيت فى ذمه ، ولكن الجاحظ نفسه يذكر أن الرجل كان من رجال الإجماع عند الشيعة وأن روايات ذمه مطروحة مردودة . والعاملى يفسر لنا هذه الروايات بالقصة الآتية : «دخل عبد الله بن زرارة على الإمام الصادق . فقال له : اقرأ منى على والدك السلام ، وقل له ، إنما أعيبك دفاعاً عنك ، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا أمره بإدخال الأذى عليه وقتله ، ويحمدون كل من عبناه ، ويكون ذلك دفع الشر عنه ، وكان العيب كعيب السفينة ، لتسلم من الملك والمقصود بالسفينة [٦] ، سفينة الخضر ، فالتقية كانت سلاح الشيعة ، وكان يستخدمها الإمام فيما يدعى الشيعة ، كما يستخدمها أتباعه ، وقد آمن بها زرارة .

ويذكر المؤرخون أن زرارة بن أعين ذهب إلى الكوفة بعد وفاة جعفر الصادق ، ليلقى الإمام الجديد عبد الله بن جعفر المشهور بالأفطح ، ولكن حين امتحنه هو ووجوه الشيعة بمسائل فى الحلال والحرام ، لم يجدوا عنده شيئاً ، فعادوا عن إمامته إلى إمامة موسى بن جعفر .

بل إن الشهرستانى يذكر أن زرارة أنكر إمامة موسى . وأنه حين عاد إلى الكوفة سأله أصحابه عن الإمام ، وكان المصحف بين يديه فأشار لهم إليه ، وقال لهم : هذا إمامى ، لا إمام لى غيره [٧] ،

---

(١) المصدر السابق : صفحه ٤٣

(٢) الإسفراييني : التبصير صفحة ٢٤

(٣) ابن حجر : لسان الميزان حـ ٢ ٤٧٣

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل حـ ١ ٢١٢

(٥) لسان الميزان : حـ ٢ ص ٤٧٣ والطواسى : الفهرست ص ٧٣

(٦) العاملى : أعيان الشيعة ج ٣٢ ص ١٧٠ ، ٢٢٢ .

(٧) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٣٢ .

ويستنتج كتاب أهل السنة من هذا أنه رجع عن تشيعه ، كما يذكرون هذا أيضاً عن هشام بن سالم. ولم يعمر زرارة بن أعين كثيراً بعد وفاة جعفر الصادق ، فقد مات فى نفس السنة.

أما الشخصية الثالثة فى مدرسة هشام بن الحكم ، فهى شخصية يونس بن عبد الرحمن القمى مولى آل يقطين ، وتنسب إليه فرقة اليونسية ، وكنيته أبو محمد. وتذكر المصادر أنه «كان وجيهاً فى الشيعة متقدماً عظيم المنزلة عندهم»

وقد ولد أيام هشام بن عبد الملك ، ورأى جعفر الصادق بين الصفا والمروة ، ولم يروعنه ، ولكنه روى عن الإمامين موسى الكاظم والرضا. وكان الرضا يشير إليه فى الفتيا ، وكان يطلب من أخص أتباعه أن يأخذوا معالم دينهم عن يونس. وقد ذكر الطوسى له كتباً كثيرة — أهمها «جامع الآثار» ، و«كتاب العلل»(١). وتوفى يونس عام ٢٠٨ هـ.

وقد أجمعت المصادر على أنه كان مشبها ، والتشبيه — هى كلمة أوسع من التجسيم. فقد رأينا كيف أطلقت الجسمية بمعنى الشيئية وبمعنى الوجود — أما التشبيه فهو مماثلة الله للمخلوقات. وقد أفرط يونس فيما يقول مؤرخو أهل السنة فى التشبيه. ويبدو أنه أراد أن يفسر الاستواء ، ففسره بالاستواء المادى (٢) ثم أخذ يفسر الآية «ويحمل عرش ربك فوقهم» فذهب يونس إلى أن الله يحمله حملة عرشه ، وهو أقوى منهم ، كما أن الكركى يحمله رجلان وهو أقوى منهم. إذ أن فى الخبر أن الملائكة تئط أحياناً من وطأة عظمة الله على العرش ويبدو أن هنا إلزاماً من أعدائه ، اعتبر فيما بعد جزءاً من مذهبه (٣) ، وعلى العموم اشتهر هشام بالتشبيه ، بل إنه ألف كتباً للشيعة يدافع فيها عن التشبيه. ولذلك قلما دعى يونس مجسماً بل وصم بالتشبيه. وليس بين أيدينا نصوص كافية تبين مذهب الرجل. هذا مع أن الأشعرى يذكر أنه كان من كبار مؤلفى كتب الشيعة (٤).

أما الشخصية الثالثة ، وهى أهم شخصية فى مدرسة جعفر الصادق ؛ فهى شخصية أبى جعفر الأحول محمد بن على بن النعمان مولى بجيلة ، وقد عاش فى الكوفة ، وعاصر الإمام أبا حنيفة. وقد اشتهر عند الشيعة باسم مؤمن الطاق وعند أهل السنة باسم شيطان الطاق. وكان من خواص أصحاب جعفر الصادق ، وقد روى عنه ، كما روى عن أبيه الباقر وجده زين العابدين. وقد أجمعت المصادر الشيعية على أنه كان أبرز رجال مدرسة هشام الكلامية «وكان حسن الاعتقاد والهدى ، حاذقاً فى

---

(١) الطوسى : الفهرست ص ١٨٢.

(٢) البغدادى : الفرق ص ٤٣ ، ١٣٨.

(٣) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣١٥ ، ٣١٦ ؛ والأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٥ ، ٢١١ — ٢١٢.

(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٦٣.

صناعة الكلام ، سريع الخاطر والجواب وله مع أبى حنيفة مناظرات «وكان رجال الشيعة الكبار يجلونه أعظم إجلال ، ويقال إن هشام بن الحكم هو الذى دعاه مؤمن الطاق . واشتهر أيضاً بشاعريته ، وكان جعفر يقدمه فى الشعراء على غيره» ولكنه شغل نفسه بالكلام . أما كتبه فهى ، كتاب الإمامة ، كتاب فى أمر طلحة والزبير وعائشة ، كتاب المعرفة ، كتاب الرد على المعتزلة فى إمامة المفضول وكتاب إثبات الوصية [١] . كما ذكر الشهرستانى «وقد صنف ابن النعمان كتباً للشيعة منها افعل – لم فعلت ، ومنها افعل ، لا تفعل» [٢] ويبدو أن الرجل كان شديداً على مخالفيه ، فناقش أبا حنيفة نقاشاً عنيفاً ، وفى مناقشاته مع أبى حنيفة يتبين إيمانه الكامل بإمامة جعفر الصادق كما يتبين أيضاً إيمانه بالرجعة والمتعة ، كما ينكر أيضاً فتوى تحليل النبيذ [٣] . ويبدو أيضاً شدة الرجل على الخوارج ، وقد أورد المجلسى مناظرة جرت بين شيطان الطاق وبين أبى خدرة ينكر فيها على الأخير تفضيل أبى بكر على على [٤] .

أما ابن حزم فقد عزا شيطان الطاق إلى الغلو وينقل عنه هذه القصة الغريبة عن الجاحظ أنه قال : «أخبرنى أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنهما قالا لمحمد بن جعفر الراضى المعروف بشيطان الطاق «ويحك أما استحييت من الله أن تقول فى كتابك فى الإمامة إن الله تعالى لم يقل قط فى القرآن : ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . قالا : فضحك والله شيطان الطاق ضحكاً طويلاً حتى كأنا نحن الذين أذنبنا» ويستنتج ابن حزم من هذا أن الإمامية كلها قديماً وحديثاً تقول «إن القرآن مبدل زيد فيه ما ليس منه ، ونقص منه كثير ، وبدل منه كثير [٥] » ولا أستطيع إطلاقاً أن أقبل رواية النظام عن شيطان الطاق ، فالرجل تلميذ أمين لجعفر الصادق ولم يرد عن الإمام جعفر إطلاقاً ذمه ، فلا يعقل إطلاقاً أنه أنكر آية من القرآن أو اعتقد فيه التبديل والزيادة ، ولقد ورد هذا القول الأخير عن الغلاة فقط ، وقد أنكرهم جعفر كما أنكرهم تلاميذه ومريدوه .

كان محمد بن النعمان شيطان الطاق أو مؤمنه مجسماً . فقد ذهب أيضاً كما ذهب الهشامان – ابن الحكم وابن سالم إلى أن الوجود جسم ، ولكن هل الله جسم [٦] . وهنا ينقلب شيطان الطاق مشبها ، .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٨ – ٦٤ ، والطوارى : فهرست ص ١٣٢ – ١٣٣ ولسان الميزان ج ٥ ص ٣٠٠ .

(٢) الشهرسانى : الملل ج ١ ص ٣٤١ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٨ .

(٤) المجلس : بحار الأنوار ج ١ ص ٢٤ ، / ٢٥ ، ٢ / ٣٠٨ .

(٥) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ٢٨١ ، ٢٨٩ .

(٦) البغداد : الفرق ص ٤٤ .

فيقول «إن الله تعالى نور على صورة إنسان ، ويأبى أن يكون جسماً ، لكنه قد ورد فى الخبر – إن الله خلق آدم على صورته وصورة الرحمن ، فلا بد من تصديق الخبر» [١] أى أن محمد بن النعمان توقف – من ناحية عقلية – عن القول بأن الله جسم أو على صورة إنسان ، ولكن الحديث المذكور فجأه ، فاضطر إلى التسليم بجسمية الله ومشابهته للإنسان .

أما عن علم الله ، فهو يقول «إن الله عالم فى نفسه ليس بجاهل ، ولكنه إنما يعلم الأشياء إذا قدرها وأرادها ، فأما قبل أن يقدرها ويريدها فمحال أن يعلمها ، لا لأنه ليس بعالم ، ولكن الشىء لا يكون شيئاً حتى يقدره وينشئه بالتقدير ، والتقدير هو الإرادة» [٢] وفى نص آخر له يوضح فكرته توضيحاً أدق فيقول إن الله لا يعلم شيئاً حتى يؤثر أثره ويقدره ، والتأثير عنده التقدير ، والتقدير الإرادة ، فإذا أراد الشىء فقد علمه ، وإذا لم يرده ، فلم يعلمه ، ومعنى أراده أنه تحرك حركة هى إرادة ، فإذا تحرك تلك الحركة ، علم الشىء ، وإلا لم يجز الوصف له بأنه عالم به ، وإنه لا يوصف بالعلم بما لا يكون [٣] ، وبهذا يكون قد شارك – إلى حد كبير هشام بن الحكم فى فكرته عن العلم الإلهى . وقد تنبه الشهرستانى إلى هذا .

وإذا كان الوجود جسماً ، فإن أفعال الناس أجسام ، وإن الإنسان يصح أن يفعل الجسم . وقد شارك هشام بن سالم فى هذا [٤] .

ويقول الأشعرى «وحكى عن الجواليقية وشيطان الطاق أن الحركات هى أفعال الخلق ، لأن الله عز وجل أمرهم بالفعل ، ولا يكون مفعولاً ، إلا ما كان طويلاً عريضاً عميقاً ، وما كان غير طويل ولا عريض ولا عميق فليس بمفعول [٥]» .

أما عن المعرفة فيقول شيطان الطاق إن المعارف كلها اضطرار ، وقد يجوز أن يمنعها الله بعض الخلق ، فإذا منعها بعض الخلق ، وأعطاها بعضهم ، كلفهم الإقرار مع منعه إياهم المعرفة [٦] .

ولقد قسم شيطان الطاق كبار الفرق الإسلامية ، وذكر أنها أربعة : القدرية والخوارج والعامة والشيعة ، ثم عين الشيعة بالنجاة فى الآخرة من هذه الفرق ، ولكن يبدو أن شيطان الطاق وهشام بن سالم امتنعا فى آخر حياتهما عن الخوض فى دقيق الكلام وجليله ، وأمسكا عن الكلام فى الله . ورويا

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣١٣ .
(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٣٧ .
(٣) نفس المصدر السابق : ج ١ ص ٢١٩ – ٢٢٠ و ج ٢ ص ٤٩٣ .
(٤) البغدادى : الفرق ص ٤٤ .
(٥) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٣٤٦ .
(٦) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٥١ .

الحديث عن النبى ﷺ «سئل عن قول الله – وأن إلى ربك المنتهى – قال : إذا بلغ الكلام إلى الله فأمسكوا» – فأمسكا عن البحث الكلامى حتى ماتا [١] .

ويبدو أن محمد بن النعمان قد عمر طويلاً ، فقد عاصر جعفراً الصادق ، وعاصر موسى الكاظم ، وقطع بموت موسى ، ثم انتظر بعض أسباطه ، فهو إذن ممن يؤمنون كما قلت بالرجعة .

* * *

يتبين لنا – من تلك الصور التى عرضناها – لرجال المدرسة الإمامية فى عصرها الذهبى – إلى أى حد آمن الشيعة الإمامية بالتجسيم ثم بالتشبيه ، وإلى أى حد تختلف شيعة الإمام جعفر الصادق عن شيعة الاثنى عشرية فيما بعد . ويتبين إلى أى حد كان الاعتزال طارئاً على تلك المدرسة من مدارس الفكر الإسلامى .

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣١٥.

الباب الخامس

الشيعة الاثنا عشرية

سنحاول فى هذا الباب أن نلقى الأضواء على أن الشيعة المتأخرة – الاثنى عشرية – منفصلة تمام الانفصال عن الشيعة الإمامية الجعفرية ، آخذة بعقائد لم يعرفها الإمام جعفر الصادق ، ولا تلامذته ، محتضنة المذهب المعتزلى – وقد كان جعفر الصادق أشد أعداء هذا المذهب ، اختلف مع شيخه واصل كما اختلف مع عمه زيد بن على ، لمتابعة زيد لواصل . وقد رأينا من قبل كيف أسرع جعفر الصادق إلى منزل زيد بن على حيث وفد واصل من الكوفة ، وهناك جادله جعفر الصادق أشد المجادلة ، وانبرى زيد بن على متهماً ابن أخيه بالحسد لواصل . عجباً أن تأخذ الشيعة بالمذهب المعتزلى ، ويصبح سمة لها وعنواناً حتى عصورنا الحديثة ، وعجباً أن يعلن الشيعى الاثنا عشرى المعاصر أنه جعفرى على ما فى عقيدته من خلاف بين واضح مع عقيدة الإمام جعفر الصادق . إن ما بقى من آثار جعفر الصادق فى الاثنى عشرية هو الفقه ، فما زال فقه جعفر الصادق هو قانون الاثنا عشرية . ولكن تختلف العقائد الدينية أشد الاختلاف بينه وبين الشيعة الاثنى عشرية .

واحتضنت الشيعة الاثناعشرية–فكرة العدد ، وهى فكرة غنوصية ، أخذتها من الكيسانية وأخذتها الكيسانية من قبل عن القبالا اليهودية ، كما احتضنت فكرة الرجعة ، وهى فكرة يهودية مختلطة بغنوصية واضحة . ولم يعرف جعفر الصادق فكرة العدد ، كما لم يعلن فكرة الرجعة . وهنا نتساءل : هل توضع الاثنا عشرية فى نسق الغلاة أم فى نسق المعتدلين من الشيعة ؟ . إن ابن خلدون – من قبل – اعتبر القائلين بالرجعة من الاثنى عشرية غلاة ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نضع الاثنى عشرية فى فرق الغلاة . إن ما يمكننا أن نقوله هو أنهم فرقة معتدلة من الشيعة ، اعتنقت بعض الآراء الغالية ، امتزجت فيها عقائد المعتزلة بعقائد الغنوص إلى قدر ما . واحتضنت فكرة العدد – الاثنى عشر – متابعة لأثر قرآنى عن عدد النقباء ، نقباء بنى إسرائيل ، ثم متابعة لأثر حديثى عن عدد نقباء رسول الله يوم بيعة العقبة . ولكن سرعان ما صبغ الغنوص هذه الأفكار القرآنية الحديثة بصبغات غنوصية ، لا تمت إلى الإسلام بأدنى صلة . وسنعرض الآن لحياة الأئمة (الستة) وأفكارهم ، وما تركوه من أثر فى تطور المذهب الشيعى .

الفصل الأول

الأئمة الستة

لا نجد فى حياة هؤلاء الأئمة الستة ، ولا فى نتاجهم ، ما نراه فى حياة السابقين من الأئمة ، فلم ينقل عنهم ما نقل عن الأولين من علم سابغ ، ونظرة متعددة واسعة للمجتمع الإسلامى الذى عاشوا فيه . ولم يرد عن واحد منهم فى الرواية العلمية الصحيحة — مذهب خاص ، يجعل الشيعة من بعده ، ينسبون المذهب إليه . لا جرم بعد ذلك أن تعلق الشيعة الاثنا عشرية باسم جعفر الصادق ، فحاولوا نسبة المذهب إليه ، ولم يحاولوا نسبته إلى واحد من هؤلاء الأئمة الستة المتأخرين . ولم يظهر فى هؤلاء من يقارن بجعفر الصادق أو أبيه الباقر . ويبدو أن جعفراً الصادق كان قد وضع كل آماله فى إسماعيل ، ابنه الأكبر ، ويبدو أن إسماعيل كان على علم وذكاء ولكن مات إسماعيل فى حياة أبيه ، وكان جعفر الصادق قد عهد إليه فى حياته ، فلما مات ظهرت فكرة «البداء» مرة أخرى منسوبة إلى جعفر . وانتقل جعفر إلى الرفيق الأعلى . وهنا بدأ الانقسام بين الشيعة الإمامية الفاطمية الحسينية — بل يبدو أن الانقسام نفسه قد حدث أيام جعفر . إذ أن أناساً من أتباع جعفر نفسه توقفوا فى موت إسماعيل ، وستنشأ عنهم فرقة الإسماعيلية ، تبدأ ساذجة بسيطة أول الأمر على يد المبارك الكوفى مولى جعفر الصادق ، ثم تنتهى فلسفية معقدة غالية . وتوقف فريق من الشيعة فى موت الإمام الصادق نفسه وهم أتباع عجلان بن ناووس أعلنوا «أن جعفر بن محمد حى لم يمت حتى يظهر ويتولى أمر الناس ، وأنه هو المهدى ونقلوا عنه أنه قال : «إن رأيتم رأسى قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه — فإنى أنا صاحبكم» وأنه قال : «إن جاءكم من يخبركم عنى أنه مرضنى وغسلنى وكفننى فلا تصدقوه فإنى صاحبكم — صاحب السيف» [1] وفرقة نقلت الإمامة إلى ابنه عبد الله الأفطح — وسموا بالأفطحية وكان أسن أولاد الصادق — ونقلوا أيضاً عن أبيه أنه قال «الإمامة فى أكبر أولاد الإمام» .

وأنه قال : «الإمام من يجلس مجلسى» وهو الذى جلس مجلسه والإمام لا يغسله ولا يصلى عليه ، ولا يأخذ خاتمه ولا يواريه إلا الإمام ، وهو الذى تولى ذلك كله» وتولى الشيعة عبد الله «غير نفر يسير عرفوا الحق فامتحنوا عبد الله بمسائل فى الحلال والحرام من الصلاة والزكاة وغير ذلك فلم يجدوا عنده علماً» فرجعوا عن إمامته وكان فيهم وجوه أصحاب جعفر الصادق مثل — هشام بن الحكم» وعبد الله

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٠ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٦٧ والشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن أبى يعفور ، وعمر بن يزيد بياع السابرى ، ومحمد بن النعمان أبى جعفر الأحول مؤمن الطاق ، وهشام بن سالم ، وعبد الله بن زرارة ، وجميل بن دراج ، وأبان بن تغلب وهؤلاء حقاً وكما يذكر النوبختى «وجوه الشيعة وأهل العلم منهم والنظر والفقه» ثبتوا على إمامة الابن الرابع لجعفر الصادق وهو الإمام موسى الكاظم المولود عام (١٢٨ هـ) ، ثم توفى عبد الله الأفطح ، وعاد معظم أتباعه إلى الائتمام بموسى الكاظم [١] .

وقد رويت الأساطير ، ووضعت الآثار عن الإمام السابع حتى يمكن الشيعة إقدامه مقابلاً لدعوة الإسماعيلية التى بدأت تنتشر فى ذلك الحين . فنقل عن الصادق أنه قال لبعض أصحابه : «عد الأيام» فعدها من الأحد حتى بلغت السبت . فقال له : كم عددت ؟ فقال سبعة . فقال جعفر : «سبت السبوت ، وشمس الدهور ونور الشهور ، من لا يلهو ولا يلعب ، وهو سابعكم قائمكم هذا» وأشار إلى موسى . وقال أيضاً «إنه شبيه بعيسى [٢] » غير أن السبب الحقيقى فى ولاية شيعة جعفر الصادق لموسى الكاظم هو أنه كان أكثر أولاد الإمام جعفر علماً ويبدو هذا تماماً من اجتماع وجوه الشيعة ومتكلميهم وبخاصة هشام بن سالم وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم عليه [٣] .

وقد استمرت إمامة موسى الكاظم مدة ربع قرن من الزمان (من عام ١٤٨ هـ إلى عام ١٨٣ هـ) وبإمامته دخلت الإمامة دورها السرى أيضاً ، ودورها العبادى ، انتهى دور الفقه ، فلا نسمع فقهاً خاصًّا لموسى بن جعفر ، كما لا نسمع أن له دوراً كلاميًّا فى عقائد الإمامية . لقد تنقل موسى الكاظم من سجن إلى سجن ، وصب عليه المهدى والرشيد صنوفاً كبرى من العذاب ، احتملها الإمام بصبر عجيب حتى لقب بالكاظم . وهو فى الحقيقة أقرب إلى جده الأكبر على زين العابدين ، نقلت عنه أوراد الليل ، ودعاؤه المشهور فى جوف الليل ما زال حتى الآن يردده أهل مصر – وهم سنة – «عظم الذنب عندى ، فليحسن العفو من عندك ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة» ولم يرد عنه رواية ، وإن كان يقال إنه حدث ، ولكن الحديث كان ينسب إليه بدون ذكر اسمه . وآخر الأمر كتب الإمام موسى الكاظم صفحة من الشهادة لأهل البيت . فقد قتله الرشيد بالسم فى سجن بغداد ، وأصبح فيما بعد «باب الحوائج» لأهل العراق من الشيعة يلجأون إليه روحياً ، ويلتمسون منه الشفاعة فى اليوم الآخر .

وبالرغم من أن الرشيد أمر – بعد قتله – أن تعرض جثته على الجسر فى بغداد عارية ليعرف الناس أن إمام الرافضة قد مات ، . فقد توقف فى موته مجموعة من أتباعه ، وأعلنوا أنه لم يمت وسيخرج بعد

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٧٢ ، ٧٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٧ .

(٣) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٩ .

الغيبة مستندين على روايات لأبيه جعفر الصادق . أنه قال « هو القائم المهدى فإن يدهده رأسه من جبل ، فلاتصدقوه. فإنه صاحبكم [١] » ولكن جمهرة الشيعة نقلت الإمامة إلى ابنه على المشهور بالرضا

ولقد ولد على الرضا عام ١٥٣ هـ ومات سنة ٢٠٣ هـ وكانت إمامته عشرين عاماً ، وفى السنوات الأخيرة منها استقدمه المأمون وجعله وليًّا لعهده ، ثم قتله بالسم بعد ذلك . ولعلى الرضا قبر بطوس ، يعتبره الشيعة الإمامية من أكبر مزاراتهم . وقد دفن بجوار الرشيد ، قاتل أبيه . وقد توارى قبر الرشيد ، وبقى قبر الرضا حتى الآن .

وتتضح أهمية على الرضا فيما أضافه إليه الشيعة الاثنا عشرية وما حملوه إياه من عقائد وكتب ، فقد نسبوا إليه صحيفة تحوى مجموعة من الأحاديث ، كما أنهم نسبوا له رسالة فى أصول الدين وفروعه .

ويرى الدكتور أحمد صبحى فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية « أنه إذا كان فى عصر الصادق قد اكتمل التشيع مذهباً وعقيدة ، فإنه فى عصر الرضا قد اكتملت صياغة هذه العقائد المذهبية فى عبارات ونصوص تجد سبيلها السريع إلى الحفظ والتصديق وسرعة الإيمان حتى يجتمع عليها المعتنقون فينشأ على حفظها الصغار ويردد نصوصها الكبار فى جوهر المذهب ولب العقيدة .

ولكن ينبغى أن نلاحظ أن رجال المذهب من أمثال هشام بن الحكم وزرارة بن أعين ومؤمن الطاق كانوا صاغوا المذهب وفتقوا الكلام فيه ، بحيث أصبح فى صورته النهائية ، ولكن رسائل وصحف الأئمة مقدسة ، وهذا ما جعل لصحيفة الرضا ورسائله المنسوبة إليه كل هذه القيمة ثم انتقلت الإمامة بعد وفاته إلى ابنه محمد الجواد ، وهو مازال طفلاً فى السابع من عمره ، وقد عددت كتب الشيعة ما أظهره من معجزات وكرامات ، وهو فى طفولته ، وقد اختلفت الشيعة الاثنا عشرية فى علمه ، فالعلم عند الشيعة إنما يكون بالنقل والأخذ عن الإمام الذى سبقه ولكن على الرضا قد ذهب إلى بارئه وترك ابنه وهو ابن أربع سنين وأشهر ، ومن كان فى هذا السن ، فلا يستطيع تعلم « دقيق الدين وجليله » وهو ما يفترض فى الأئمة . أجابت فرقة من الإمامية بأن الله عز وجل علمه ذلك عند البلوغ » بضروب مما يدل على جهات علم الإمام مثل الإلهام والنكت فى القلب ، والنقر فى الأذن والرؤيا الصادقة فى النوم والملك المحدث له ووجوه رفع المنار والعمود والمصباح وعرض الأعمال « أى لجأ هذا الفريق من الشيعة الإمامية إلى المغيبات ، يلتمسون فيها وفى تصورها إقامة علم الإمام . بل يذهبون إلى أن الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد والتى لا يجوز دفعها ولا رد مثلها . قد صحت فى الإمام محمد الجواد [٢] .

---

(١) القمى : كتاب المقالات ص ٩٠ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ص ٨١ ؛ والشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٩٧ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ص ٨٩ .

وطائفة ثانية لم توافق على أن علم الإمام من جهة الإلهام والنكت والملك ، لأن الوحى منقطع بعد النبى ﷺ ، والإلهام إنما هو أن يلحقك عند الخاطر والفكر معرفة بشىء قد كانت تقدمت معرفتك به من الأمور النافعة ، فذكرته ، وذلك لا يعلم به الأحكام وشرائع الدين على كثرة اختلافها وعللها قبل أن يوقف بالسمع منها على شىء ، لأن أصح الناس فكراً ، وأوضحه خاطراً وعقلاً . وأحضره توفيقاً ، لو فكر وهو لا يسمع بأن الظهر أربع والمغرب ثلاث والغداة ركعتان ، ما استخرج ذلك بفكره ولا عرفه بنظره ولا استدل عليه بكمال عقله ولا أدرك ذلك بحضور توفيقه ، ولا لحقه علم ذلك من جهة التوفيق أبداً . ولا يعلم ذلك إلا بالتوقيف والتعليم ، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام والتوفيق . وهنا تنقطع الإمامة . ولكن هذه الطائفة من الإمامية ما تلبث أن تجد مخرجاً فتقول إن محمد الجواد هو« قبل البلوغ إمام على معنى أن الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ ، فإذا بلغ علم من كتب أبيه وما ورثه من العلم فيها ويجده فيها من الأصول والفروع . وذهبت هذه الفرقة إلى إجازة القياس فى الأحكام للإمام خاصة على الأصول التى فى يديه ولكونه معصوماً من الخطأ والزلل ، فلا يخطئ فى القياس أبداً . وبهذا انتهت هذه الطائفة إلى احتضان فكرة القياس ، ونحن نعلم أن الشيعة الاثنى عشرية لا تجيزه إطلاقاً .

أما الفرقة الأخيرة التى اختلفت فى علمه ، فقد أعطت الإمام القداسة العظمى التى تشيع فى فكرة الإمامية عامة ، وهو أن الإمام إمام بالغ أو غير بالغ ، لأنه حجة الله على الأرض ، وقد يجوز أن يعلم وإن كان صبيًّا ، ويجوز عليه الإلهام والنكت والرؤيا والملك المحدث ، فكل ذلك يجوز عليه ، كما جاز على سلفه الماضين ، حجج الله فى الأرض ، وقد حدث هذا ليحيى بن زكريا من قبل ، وأتاه الله الحكم صبيًّا ، وعيسى بن مريم وغيرهما من الحجج [1] ومات محمد الجواد عام ٢١٩ هـ ولم يبلغ الخامسة والعشرين .

وتولى الإمام على الهادى الإمامة بعد وفاة أبيه وهو العاشر فى دورة الأئمة ، وكانت سنه حين توفى الإمام محمد الجواد ثمانية أعوام ، وقد عاصر الإمام على الهادى حكم المتوكل . وكان المتوكل ناصبيًّا ، يكره على بن أبى طالب وأولاده أشد الكراهية وقد هدم قبر الحسين وحاول إخفاءه ، وقد اتخذ مع الإمام على الهادى موقف أبى جعفر المنصور مع الإمام جعفر الصادق ، فكان يستدعيه من المدينة لسؤاله وإحراجه . وحضر الإمام مراراً . ويذكر المسعودى أنه سعى به مرة عند المتوكل ، وقيل له : إن فى منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، فأرسل إليه ليلاً جماعة من حراسه الأتراك وهجموا عليه فى

(١) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .

منزله على غفلة ممن فى داره ، فوجدوه فى بيت وحده مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعره ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة من الصوف ، متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن فى الوعد والوعيد . فأخذوه كما هو إلى المتوكل فى جوف الليل ، وأخبروه بخبره وكان المتوكل فى مجلس شرابه والكأس بين يديه ، فقدم إليه المتوكل الكأس الذى بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمى ودمى قط ، فاعفنى منه ، فأعفاه المتوكل ، ثم أمره بإنشاد شعر.

فقال الإمام :

باتوا على قلل الجبال تحرسهم	غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم	فأودعوا حفر يا بئس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا	أين الأسرة والتيجان والحلـل
أين الوجوه التى كانت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
فلطالما أكلوا دهـراً وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطـالما عمروا دوراً لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهـلين وانتقلوا
وطـالما كنزوا الأموال وادخروا	فخلفوها على الأعـداء وارتحلوا
أضحت منـازلهم قفراً معطـلة	وساكنوها إلى الأحداث قد رحلوا

وحين سمعها المتوكل ، وضع الكأس وبكى [١] .

ولكن المتوكل ما يلبث أن يأمر يحيى بن هرثمة بإشخاص الإمام من المدينة . ويضج أهل المدينة ويعجوا ، ويؤكد لهم يحيى بن هرثمة أنه لم يؤمر فيه بمكروه . ويستجوبه المتوكل ، ولا يجد عليه حرجاً ، ثم يعيده إلى المدينة .

وقد نسبت الشيعة إلى الإمام على الهادى المعجزات ، فالسحاب يظلله ، والمطر طوع يديه ، إلى آخر تلك المعجزات التى تعود الشيعة نسبتها إلى الأئمة . كما أنهم أسندوا إليه أيضاً حديث « الإيمان ما وقرته القلوب وصدقته الأعمال ، والإسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة» وينقل المسعودى أنه كان لديه صحيفة بخط على بن أبى طالب بإملاء رسول الله يتوارثها الأئمة كابراً عن كابر . كما يذكر الشيعة أيضاً خبره مع زينب الكذابة وهى التى ادعت أنها ابنة الحسين عليه السلام وإن الله أطال عمرها إلى ذلك الوقت . وقد أرسل المتوكل للإمام على لكى يحاجها . وقد فعل ، وتحداها أن تنزل بركة السباع فأبت . فنزل هو فتذللت له السباع ورجعت زينب الكذابة عن دعواها [٢] . ومات الإمام

---

(١) المسعودى : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب . ج.٢ ص ٧٤٣ – ٢٤٥ .

على الهادى فى خلافة المعتز سنة أربع وخمسين ومائتين .

وخلفه فى الإمامة الإمام الحادى عشر الحسن العسكرى وقد زوجه أبوه من جارية رومية هى مليكة بنت يشوع بن قيصر ملك الروم ، وقد ذكرت كتب الشيعة الإمامية أن أمها من نسل شمعون - وصى المسيح وهنا أيضاً صورة أخرى لزواج الحسين بن على بابنة كسرى كما ذكرت كتب الإمامية أيضاً قصة اتصالها بالإمام الحسن العسكرى فى أسلوب روائى جميل ، والغاية من هذا كله عند الشيعة الاثنى عشرية هى إعداد الإنسانية جميعاً لتلقى نهاية الدور التام - من الأئمة فى قصة من أروع القصص الإنسانية ، والمزج بين مهدى الإسلام وبين قصة «المهدى» المسيحية أو نزول عيسى فى آخر الزمان مؤتماً بمهدى الإسلام . وقد نسبت المعجزات إلى الحسن العسكرى ، وبالرغم مما كان يحيا من قسوة حتى سمه المعتمد العباسى عام ٢٦٠ هـ وهو ابن تسع وعشرين سنة . وقبل وفاته بخمسة أعوام فى يوم الجمعة منتصف شعبان عام ٢٦٠ هـ - ومن جاريته التى سميت باسم نرجس خاتون أو ريحانة أو صقيل أو سوسن أو خمط على اختلاف ولد الإمام الثانى عشر سنة ٢٥٥ م أو ٢٥٦ - مهدى الزمام وحجة الله على البشر . بشر به القرآن «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» وبشر به النبى «اسمه اسمى واسم أبيه اسم أبى» اسمه محمد وكنيته أبو القاسم «وألقابه المهدى والحجة المنتظر ، وصاحب الزمان» وصاحب الدار والقسيم والمهدى والهادى والصاحب «إنى نبى وعلى وصى . ألا وإن خاتم الأئمة منا القائم المهدى صلوات الله عليه ، ألا إنه الظاهر على الدين ، ألا إنه المنتقم من الظالمين ، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها» .

أما ولادته ، فقد نقل الشيعة إلينا ما فيها من خوارق تتجاوز خوارق عيسى المعروفة ، فقد تكلم فى المهد كما تكلم عيسى من قبل وحمله أبوه فكلمه ، ودعا هو الله أن ينجز وعده ثم دعا طيراً من السماء ، وكان هذا الطير روح القدس ، فحمله إلى أعلى عليين . وبكت أمه ، وهو يودعها إلى القدس الأعظم . وكان يعود بين الفينة والفينة .

ثم مات أبوه وكان عمر القائم خمس سنوات وبقى القائم قليلاً ، ثم غاب الغيبة الصغرى وقد امتدت إحدى وسبعين عاماً ، وقد ظهر فى هذه الآونة لطائفة من كاملى الشيعة . ثم بدأت الغيبة الكبرى ، وسيعود فى آخر الزمن .

هكذا نشأت عقيدة الغيبة ، وعقيدة الرجعة فى صورتها النهائية عند غلاة الشيعة الإمامة أى الاثنى عشرية [١] هى حجب الله للإمام واختفاؤه عن أعين البشر ، وهو حى يلهم العبادة والتسبيح ، ويطلع على خفايا البشر ، والثانية : أن الله سيعيده ، فيحقق للناس كمالاً ، من ناحية تحققه بالصفات التى

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٥٣١ .

تظهر عن إمام العصر ، ويحارب الشيطان حتى يقضى عليه . وهكذا نرى أثر الكيسانية النافذ فى عقائد الاثنى عشرية . أو بمعنى آخر أن الأسطورة التى نشرها الكيسانية عن غيبة محمد بن الحنفية فى جبل رضوى ، وأنه حى يلهم العبادة والتسبيح تعود فى صورة غنوصية أو أشد فى عقائد الاثنى عشرية .

ويعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن المهدى اختفى فى سامرا – بالحلة ، ولذلك يذهبون كل ليلة إلى باب السرداب فى مسجد سامرا . وقد أعدوا مركباً وعليهم السلاح ، ويقرءونه السلام ، ويدعونه للخروج « باسم الله ، يا صاحب الزمان ، اخرج . قد ظهر الفساد وكبر الظلم وقد آن أوان خروجك » ويسلمون عليه منادين « خليفة الله ، ووصى الأوصياء الماضين ، وبغية الله من الصفوة المنتخين ، وباب الله الذى لا يؤتى إلا منه ، ونور الله الذى لا يطفأ » .

انتهى دور الأئمة بالتوقف فى موت الإمام الثانى عشر ، ويبدأ دور الوكلاء الأربعة . وقد عين الإمام الحسن العسكرى أول هؤلاء الوكلاء – وهو عثمان بن سعيد ثم عين عثمان ابنه محمداً . ثم عين محمد الحسن بن روح . وكان الوكيل الأخير هو على السمرى . ولهؤلاء الوكلاء عند الشيعة الاثنى عشرية ما للأئمة من الاحترام والتقديس . وقد سئل الوكيل الأخير أن يعين وكيلاً بعده – وهو يجود بنفسه – فأبى وقال « لله أمر هو بالغه » .

وقد كان هؤلاء الوكلاء الأربعة من خواص الإمام العسكرى ، وكانوا هم الوسطاء بينه وبين شيعته ، يلجأ إليهم فى أصول الدين وفى الأحكام الفقهية . وقد شهد الإمام العسكرى بعد التهم وجعلهم أمناء على شئون الإمام المهدى . وبموت الرابع ، بدأت غيبة الإمام الكبرى .

غاب الإمام ، ولكن لم ينقطع سلطانه على الناس ، إنه حى فى خلود دائم حتى يوم رجعته ، إنه ينظر الناس ويراهم ، وهم لا ينظرونه ولا يرونه . ولكن قد يراه خواص الناس ، إنه هو « المتصرف فى شئون شيعته ، القائم على أمورهم ، المدبر لوجودهم » .

عجباً أن تنتهى قصة الأئمة الاثنى عشرية إلى هذا الحد الأسطورى . وعجباً أن تثير عقائد راسخة متمكنة فى عقائد مجموعة من البشر ، بل أن ينبرى لها جماعة كبرى من متكلمى الإسلام يدافعون عنها وينافحون . وسنحاول أن نتتبع فى الفصل المقبل عقائد الشيعة الاثنى عشرية ، أو بمعنى أدق تطور هذه العقائد حتى تصل إلى صورتها الكاملة ، كما هى بين أيدينا اليوم .

الفصل الثانى

عقائد الشيعة الاثنى عشرية

لم تكن هناك عقائد شيعية واحدة ، بل كان لكل عصر من عصور الأئمة تراث أضيف إلى تراث السابقين ، وكان الأئمة غير متعاصرين ، فكان لكل عصر من عصورهم عقائده وفلسفته واتجاهاته . فامتاز عصر كل إمام بالاتجاهات العلمية السائدة فى عصره ، وامتاز عصر الإمام على زين العابدين بالحديث ، وكان الرجل من خيار التابعين . وامتاز الباقر بالحديث أيضاً ، ولكنه كان فى معترك الفرق ، فوقف تجاهها موقف المحدث ، ينهى عن الكلام والأهواء والخصومات فى الدين ، ويكاد يتشابه مع الإمام مالك بن أنس . ويضخم الفقه والكلام فى عصر الصادق ، ويكون هو مرآة لكل هذا ، فيرسى أسس الفقه الشيعى الإمامى ، ويكاد يتشابه مع الإمام أبى حنيفة ، فأبو حنيفة إمام الفقه ، وخاض فى الكلام ونسبت إليه رسائل ؛ كما نسب إلى جعفر رسائل ، ولم يترك جعفر الصادق كتاباً كاملاً مدوناً ، وكذلك أبو حنيفة ، وكما أثار أبو حنيفة الأبحاث المتعددة فى فقه السنة ، فعل جعفر الصادق هذا فى فقه الشيعة . وكما اختلف الناس فى أبى حنيفة فقالوا إنه قدرى ومرجئ وجبرى ومن القائلين بخلق القرآن ، كذلك اختلفوا فى جعفر الصادق ، فقد نسبوا إليه كل الفرق ، وأضافوا إليه كل الاتجاهات ، وأنطقوه بكل المتناقضات . وبعد جعفر الصادق ، قام علماء المذهب ، كهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهما من علماء الإمامية بالعمل الأكبر فى صوغ مذاهبها . أما الأئمة الستة الآخرون فلم يكن لهم أى دور إيجابى هام فى تصوير العقيدة الشيعية ووضعها فى صورتها النهائية .

والملاحظة الثانية : أن المذهب فى أيدينا الآن غيره فى عهد الأئمة الأولين ولم يقبل الأولون – أئمة وأتباعاً – المذهب المعتزلى ، بل إن محمداً الباقر كان عدوًّا صريحاً للمعتزلة ، وكان من رجال الحديث المتبعين للأثر ، ونرى جعفراً الصادق أقرب إلى أهل السنة والجماعة فى آرائه الكلامية مع اعتزال غير واضح ، بل تورد المصادر حجاجه العنيف مع عمرو بن عبيد من ناحية وواصل بن عطاء من ناحية . إن من « الواضح أن جعفراً الصادق كره الرجلين أشد الكراهية » وكره مذهبهما ، وكره أن يتابع عمه زيد واصلاً فى كثير من أصوله الكلامية . ثم يكاد التجسيم ينبثق من رجاله الأقربين مثل هشام بن سالم الجواليقى وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم . فكيف اعتنق المتأخرون من الشيعة المذهب المعتزلى واعتبروا أصول الدين أربعة : التوحيد والعدل والنبوة والإمامة ، ويترنم شاعرهم المتأخر :

سطران قد خطا بلا كاتب العدل والتوحيد فى جانب
وحب آل البيت فى جانب

ونحن لا نجد أدنى فرق بين أى معتزلى وابن المطهر الحلى عالم الشيعة المتأخر الكبير حين يكتب عن عقائد الاثنى عشرية الكلامية فيقول «إن الله عدل حكيم ، لا يفعل قبيحاً ، ولا يخل بواجب ، وأن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح وحكمة ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف رحيم بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع «وأنه تعالى كلفهم تخييراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ، ولا المعاصى ، وإلا لم يبق وثق بأقوالهم وأفعالهم ، فتنتفى فائدة البعثة»[١] هذا كلام معتزلى واضح ، تبناه مجتهدو الشيعة المتأخرين حين وجدت المعتزلة ملجأ فى الشيعة ، بعد أن أنزل علماء الأشاعرة الضربات الساحقة بهم ، وليس فى قدماء الشيعة شيء من هذا . بل إن الإمام جعفراً الصادق يقول فى الإرادة «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً . وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا ، عما أراده منا» ثم إن رأيه فى القدر هو «أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض» وكان يقول فى الدعاء «اللهم لك الحمد ، إن أطعتك ، ولك الحجة إن عصيتك ، لا صنع لى ولا لغيرى فى إحسان ولا حجة لى ، ولا لغيرى فى إساءة»[٢] وهذا رأى يكاد يقترب من الأشاعرة ، فلم يكن جعفر الصادق إذن معتزليًا مهما حاول الشيعة المتأخرون نسبة العدل والتوحيد إليه . وقد تنبه الشهرستانى إلى هذا ، فقال إن الشيعة بعد أن افترقوا وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروجه على أصحابه ، ونسبه إليه وربطه به ، والسيد برىء من ذلك ومن الاعتزال ومن القدر» ، وفى فقرة أخرى . . «وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه ، وتبرأ منه ولعنهم ، وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم ، من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه»[٣] . وكتاب الانتصار للخياط المعتزلى وثيقة نادرة تثبت تمام الإثبات ما بين المعتزلة والشيعة الإمامية – وبخاصة هشام بن الحكم وهو تلميذ جعفر وصديقه وصفيه – من اختلافات كبرى فى دقيق الكلام ورقيقه .

والإمامية تؤمن باثنى عشر إماماً ، فهل ذكر الأولون من الأئمة – اثنى عشر إماماً ؟ وهل أعلن الإمام على بن أبى طالب استخلاف اثنى عشر إماماً ؟ وهل نادى بهذا على زين العابدين ، أومحمد الباقر أوجعفر الصادق ؟ من المحتمل أن يكون أبو هشام بن محمد بن الحنفية ، قد ذكر شيئاً عن اثنى

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .

(٢) الشهرستانى : الفرق ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل جـ ١ ص ٢٧٢

عشر نقيباً لمحمد بن على العباسى ولكن الشيعة حملوا الأئمة السابقين آثاراً تعلن فكرة العدد الاثنى عشرى كما حملوهم فكرة الإمام الغائب ، غيبته وخلوده ورجعته ، مع أنهم لم يذكروها أبداً .

إن إقامة المذهب الإمامى الاثنى عشرى فى صورته الكاملة إنما كان على يد المجتهدين المتأخرين من علماء المذهب ، الذين قاموا بأخذ مصادره الأولى ، وأخذوا يصوغونها صياغة جديدة ، ويضيفون إليها عناصر متعددة من هنا وهناك ، حتى اكتمل فى أيديهم .

وسنحاول أن نعطى صورة لآراء الاثنى عشرية فى إيجاز .

صاغ مجتهدو الشيعة الاثنى عشرية أصولهم فى أربع : (١) التوحيد (٢) العدل (٣) النبوة (٤) الإمامة .

وقد فصل عالم الشيعة الكبير ابن المطهر الحلى عقائد الإمامية الاثنى عشرية فى الفقرة الرائعة الآتية : « ذهبت الإمامية إلى أن الله عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب ، وإن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع ، وأنه تعالى كلفهم تخييراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ولا المعاصى ، وإلا لم يبق وثوق بأموالهم وأفعالهم ، فتنتفى فائدة البعثة ، ثم أردف الرسالة بعد موت الرسول بالإمامة فنصب أولياء معصومين منصوبين ليأمن الناس من غلطهم وسهوهم وخطئهم ، فينقادون إلى أوامرهم لئلاً يخلى الله العالم من لطفه ورحمته ، وأنه لما بعث الله محمداً ﷺ ، قام بنقل الرسالة ، ونص على أن الخليفة بعده علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، ثم من بعده ولده الحسن الزكى ، ثم ولده الحسين الشهيد ، ثم على علىّ بن الحسن زين العابدين ، ثم على محمد بن على الباقر ثم على جعفر بن محمد الصادق ، ثم على موسى بن جعفر الكاظم ثم على علىّ بن موسى الرضا ، ثم على محمد بن علىّ الجواد ، ثم على علىّ بن محمد الهادى ، ثم على الحسن بن علىّ العسكرى ، ثم على الخلف الحجة محمد بن الحسن المهدى عليهم الصلاة والسلام وأن النبى ﷺ لم يمت إلا عن وصية بالإمامة »[١] .

هذا التعبير الدقيق عن أصول الشيعة الاثنى عشرية يجعل بينه وبين الأئمة الأوائل هوة من أعمق الهوات فى مسألتين من أهم المسائل : وهما التوحيد والعدل ففى هذين الأصلين لجأ الشيعة إلى المعتزلة ، واعتنقوا المذهب المعتزلى كاملاً ، أو بمعنى آخر لجأ المعتزلة إلى الشيعة ، بعد أن نزلت بهم ضربات أهل السنة والجماعة ، واختلطت عقائدهم بعقائد الاثنى عشرية ، كما اختلطت من قبل بعقائد الزيدية .

وهنا نتساءل ما هى العلة فى احتضان الشيعة للمذهب المعتزلى فى التوحيد والعدل ؟ نحن نعلم أن

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .

المذهب المعتزلى عاش فى رحاب العباسيين ، وكان عقيدة الدولة العباسية إجمالاً ، اللهم إلا المتوكل ، كما كان المذهب الجبرى عقيدة الدولة الأموية من قبل اللهم إلا يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص . أما أئمة أهل البيت الكبار وبالأخص محمد الباقر وجعفر الصادق فقد كانوا من رواد المذهب السنى ، إن جعفراً الصادق بالذات كان أقرب فى عقائده الكلامية إلى عقيدة الأشاعرة ، وهى العقيدة التى تكونت بعده على هدى من عقائد السلف . وكان أعظم رجاله الكلاميين كما سنرى بعد – هشام ابن الحكم – مجسماً أو أقرب إلى التجسيم . وسنرى أيضاً كيف هاجم الخياط المعتزلى هشاماً فى كتابه «الانتصار» .

إن الإجابة على هذا التساؤل تنقلنا إلى الترجيحات الآتية : الترجيح الأول : بعد العهد بين المجتهدين الجدد والأئمة ، ولم يكن هناك إمام ذوسلطة دينية يوقف «المجتهدين» فى صوغ آرائهم . فنسى هؤلاء الاتجاه السلفى الواضح لدى الباقر ، كما نسوا الموقف الوسط لجعفر الصادق . وأرادوا أن يتلمسوا أوأن يبنوا قلعة محصنة ضد الأشاعرة – حين ازدهر هؤلاء وقضوا على المذهب المعتزلى – فأرادوا الاستعانة ببقايا هذا المذهب لإيقاف المذهب الأشعرى الذى كان قد تكامل إبان هذا الوقت على يد مشيخة الأشاعرة العظماء . نسى المجتهدون أو تناسوا آراء الباقر وآراء الصادق الكلامية كما مروا سراعاً بهشام بن الحكم وكان عدو المعتزلة ، وند أبى الهذيل العلاف ، كانت غايتهم فقط مخالفة المذهب الأشعرى بحجج أعدائه القدماء . الترجيح الثانى : إن معتزلة بغداد – كانوا أقرب إلى التشيع ووضعوا نظرية فى الإمامة هى مزيج من الإمامية الشيعية العلوية ومن الإمامية الشيعية العباسية ، فهل كانت الاثنى عشرية امتداداً لمعتزلة بغداد ؟ . والترجيح الآخر هو دخول كثير من الزيود فى الإمامية وعودتهم إليها ، فحملوا معهم كثيراً من عناصر مذهبهم ، المعتزلى ، ومزجوه بمذهب الاثنى عشرية ، وكانت الزيدية متكاملة المذهب الكلامى . وينبغى أن نحدد العقائد الشيعية الإمامية المعتدلة ونرسم تاريخها على الشكل الآتى : عقائد سلفية قديمة على يد عالم الإسلام الكبير على بن أبى طالب وحفيديه على زين العابدين ومحمد الباقر ، عقائد كلامية عقلية تتوسط المذاهب وهى أقرب إلى الأشاعرة على يد جعفر الصادق ، وعقائد مجسمة على يد تلامذة جعفر هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقى ومؤمن الطاق ، وانتشر التجسيم ، وظهر كتاب الانتصار المعتزلى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى يؤرخ لنا تلك المرحلة الشيعية المجسمة ، ثم ظهر كتاب الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣ هـ) أوائل المقالات يمثل لنا المرحلة المعتزلية فى عقائد الشيعة . أو يمثل لنا تكون العقائد الشيعية الاثنى عشرية ، وتابع الشيخ المفيد مشيخة من أعلام المذهب الاثنى عشرى كالشريف المرتضى والرضى والطوسى ثم ابن المطهر الحلى فى عصر متأخر . ولا يقدح فى مذهب من المذاهب تطوره العقائدى ، إن هذا التطور إنما

هو دليل على حيوية المذهب ومرونته وقبوله للتطور العقلى المستمر . لا جرم بعد ذلك كان ينسب الشيعة المجتهدون إلى الصادق أنه قال : « الله ليس كمثله شىء ، ليس بجسم ولا صورة ولا تقع عليه الرؤية فى الدنيا والآخرة ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وأنه لا جسم ولا صورة وهو جسم الأجسام ومصور الصور لم يتجزأ ولم يتناه ولم يتزايد ولا يتناقص ومن زعم أن الله فى شىء أو على شىء أو يحول من شىء إلى شىء ، أو يخلو منه شىء ، لا يشتغل به شىء ، فقد وصفه بصفة المخلوقين ، والله خلق كل شىء ، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس ولا يخلو منه مكان . ولا يشتغل به مكان ، قريب فى بعده . بعيد فى قربه . ومن زعم أن الله تعالى من شىء ، فقد جعله محدثاً . ومن زعم أنه فى شىء ، فقد جعله محصوراً ، ومن زعم أنه على شىء فقد جعله محمولاً » .

هذا النص الذى نقله لنا الكافى يدل دلالة واضحة على مزج أقوال جعفر الصادق بكلام معتزلى أو بمعنى أدق بكلام اثنى عشرى متأخر . كانت غايته أولاً وبالذات تدعيم الأصل المعتزلى القديم الذى اعتنقه متأخرو الاثنى عشرية إنكار رؤية الله فى الدنيا وفى الآخرة ، وهكذا فعل المجتهدون الموسومون بمجتهدى المذهب الاثنى عشرى فى نسبة أصول العدل والوعد والوعيد إلى الأئمة .

فإذا انتقلنا إلى الأصل الثالث عند الشيعة الاثنى عشرية وهو النبوة . فلا نجد ثمة اختلافاً كبيراً بينهم وبين أهل السنة والجماعة ، فالفريقان يختمان سلسلة النبوة بمحمد ﷺ ، ولكن يختلف الفريقان اختلافاً جزئيًّا فى مسألة العصمة ، فبينما يذهب الشيعة الإمامية إلى أن الأنبياء معصومون عن الكبائر والصغائر قبل النبوة ، وبعدها ، يذهب أهل السنة فى الجملة ، إلى اعتبار الأنبياء معصومين عن الكبائر قبل النبوة وبعدها ، ولكن غير معصومين عن الصغائر سهواً فى بعض الأحيان . ولكن لم يكن فى هذا خلاف جوهرى .

وإنما يبدأ الخلاف بين الشيعة الاثنى عشرية وبين أهل السنة فى مفهوم الإمامة اختلافاً كبيراً ، اتفق أهل السنة والاثنى عشرية والإسماعيلية فى وجوب نصب الإمام . ولم يشذ عن هذا سوى بعض المعتزلة – فرقة الأصم – التى ذهبت إلى أن الإمامة غير واجبة لا سمعاً ولا عقلاً ، وكذلك النجدات العاذرية من الخوارج فقد ذهبت إلى نفس الرأى ، وقررت أن الإمامة إنما تعود إلى مصالح العباد ، لا إلى لطف من الله يستلزم الأصلح والأكمل .

ولكن هذه آراء شاذة لا نتوقف عندها . فالخلاف الحقيقى إنما كان بين الشيعة وأهل السنة الأشاعرة ، يذهب الأشاعرة إلى أن الإمامة واجبة سمعاً ، بينما يذهب الشيعة إلى أن الإمامة واجبة سمعاً وعقلاً ، والإمامة هى جوهر العقيدة الشيعية عامة – اثنى عشرية وإسماعيلية – والشيعة هى التى خرجت فى فكرتها عن الإمامة عن إجماع الجمهور . والإيمان عند الشيعة إنما يتكون من الاعتراف

بتوحيد الله ونبوة محمد ﷺ وموالاة إمام العصر. فالإيمان بإمام العصر هى قاعدة إمامية تتصل بجوهر العقيدة وتتصل بها أوثق الاتصال. وهذا ما دعا الأشاعرة فيما بعد إلى مناقشة الشيعة فى فكرتهم عن الإمامة فى باب العقائد مع أن الإمامة مشكلة عملية، واعتبار الشيعة الاثنى عشرية «الإمامة» جزءاً من العقيدة أثار ضجة كبرى فى العالم الإسلامى. ونفر علماء أهل السنة يحاربونها ويجادلونها بعنف بالغ، وقد راعهم أن يضاف إلى العقيدة التقليدية أصل لم يرد إطلاقاً من قبل، بل لقد فتش المحدثون فى آثار السلف من أهل البيت فلم يجدوا له مكاناً. إنه من المؤكد أن الإمام على بن أبى طالب كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وكذلك أبناؤه وأحفاده من بعده، ولكن ليس فى آثار هؤلاء ما يجعل الإمامة جزءاً من العقيدة يسوى بينها وبين شهادة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ولوكانت الإمامة جزءاً من العقيدة، ومتممة لشهادة التوحيد، فهل كان على بن أبى طالب يقبل الحياة بعقيدة ناقصة. قد يقول الشيعة إنه اتخذ التقية فى عهد الشيخين. وهذا مرفوض قطعاً. ماكان فارس الإسلام العظيم على بن أبى طالب يأبى الذل، ويتقى فى العقيدة. لقد اتقى فى حقوقه، ولكنه لم يتق أبداً فى حقوق الله.

ولكن المتأخرين من الاثنى عشرية ما لبثوا أن وضعوا الأدلة على الإمامة بأنها واجبة وجزء من العقيدة – ودليلهم الأول أن الإمامة لطف من الله وهذا اتجاه معتزلى واضح ودليلهم الثانى حفظ الشريعة. وهذا اتجاه عملى، ثم تتابعت الأدلة على ذلك.

ولا يكفى الشيعى مجرد الإيمان بالإمام، بل لابد من موالاته، والولاية بمعنى الانتماء للأئمة. وهذا ركن شيعى هام، ويستتبع الولاية البراءة من الأعداء، ولذلك كان لعن أعداء على وغاصبيه، وبخاصة الشيخين فريضة افترضها الشيعة الاثنى عشرية على أنفسهم. ومن الإنصاف للشيعة أن نقول: إن لعن أعداء على وغاصبيه كان رد فعل لما قام به الأمويون من سب على وآل بيته من على منابر المسلمين. وكم كان جزع المسلمين من الأوائل من هذا السب. وقد انتهى الأمويون وانتهى سب على وأولاده، بل إن أهل السنة من قبل والآن يتعبدون على تراث أهل البيت. ففيم لعن الشيخان إذن؟.

والإمام، هو مصدر التشريع بعد القرآن والسنة المؤكدة عن طريق أهل البيت، فلا يقبل الشيعة إسناداً إلا عن طريقهم. فالإمام وارث العلم النبوى، وإنما يعلو على البشر باتصاله الدائم بالعلم الإلهى، ولم يصل إلى هذا عن اكتساب واعتمال دليل، بل ينقدح العلم فى نفسه انقداحاً، إنه منه وفى طبيعته ومادته انتقل إليه العلم الغيبى بعد تسلسل طويل فى أرواح الروحانيين من الملائكة والأنبياء. فى البدء كانت هناك مادة نورانية، انتقلت من نبى إلى نبى حتى وصلت محمداً ومنه إلى على وفاطمة.

واجتمع النور فى الأئمة الفاطميين ، فمادة أرواحهم من هذا النور الخلاب الذى بهر المخلصين والمجتبين من الشيعة ، فآمنوا به إيماناً عجيباً . ولقد آمن من قبل الملائكة حين انتقل هذا النور إلى آدم ، فسجد الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر . وقد أمر الله آدم أن ينظر إلى قمة العرش الإلهى ، حيث شاهد تلك الأجسام النورانية المقدسة منعكسة فى هذا القدس العظيم ، كما تنعكس صورة الوجه فى مرآة صافية . فانعكاسات هذه الأجسام المقدسة محتواة فى العرش الإلهى ، ومنها إمام العصر ، يؤمن به خلص المؤمنين ، بينما يكفر به أتباع الشياطين . فالعلم الغيبى إذن للأئمة ، هو أشبه بالوحى ، بل إن علوم الأئمة أشمل وأعظم من علوم الأنبياء باستثناء النبى محمد ﷺ ويورد الاثنى عشرية قولاً ينسبونه إلى الإمام جعفر الصادق هو قول الله تعالى : «وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا – ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» قال الصادق : منذ نزل ذلك الروح على النبى ما صعد إلى السماء ، وهو فينا» ويحدد الرضا اتصال الإمام بالوحى «أنه يسمع الكلام ولا يرى الشخص «أى يتلقى الوحى ولا يرى الملك» . والإمام فى هذا يختلف عن النبى الذى يتلقى الوحى ويرى الملك .

وأطلق الشيعة أيضاً على لسان جعفر الصادق «ورب الكعبة لوكنت بين موسى والخضر ، لأخبرتهما أنى أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس فى أيديهما ، لأن موسى والخضر أعطيا علم ماكان ، ولم يعطيا علم ما يكون وماكان حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وارثه [1] ولكن جعفراً الصادق كما يروى الكلينى نفسه ، يجيب – حين سئل عن علم الأئمة – أنهم كصاحب موسى وذى القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين ، إذ لهم ما للنبى ، ولكن ليسوا أنبياء ، فلا يتنزل عليهم الوحى ولا يحل لهم ما يحل للنبى من النساء فأما ما خلا ذلك ، فهم بمنزلة رسول الله ، إذ لم يعلم الله نبيه علماً ، إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين ، فهو شريكه فى العلم «وهذا الأصل متصل بولاية الأئمة ، إذ كيف يفرض الله طاعة الإمام على العباد ، ثم يحجب عنه أمر السماء ، فيتصرف فى العباد على غير يقين . فالإمام مرجع الناس جميعاً . أو بمعنى أدق الإمام هو الولى الكامل .

والإمامة تسير فى انتقالها طبقاً لناموس ثابت ، لا تختلف فيه ، قدر الله فى علمه القديم ، فهل تنتقل من إمام إلى إمام –كما خط الله فى اللوح ، لا تغيير ولا تبديل فى علمه ، وهكذا كانت الإمامة نصًّا لا تعييناً ، ولا تترك لنزعات البشر وأهوائهم وإلا فسد أمر الشريعة ، إذ أن حفظها موكول بالإمام المعصوم يقول الصادق : «إن الله تعالى أوضح بأئمة الهدى من أهل بيتنا عن دينه ، وأبلج بهم عن سبيل منهاجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ، فمن عرف واجب حق إمامه ، وجد طعم حلاوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأن الله نصب الإمام علماً لخلقه ، وجعله حجة على أهل مواده

(١) الكلينى : الكافى ص ٥٦ – ٦٠ .

وعالمه» بل يذهب الشيعة الاثنى عشرية إلى منح الإمام سلطة كونية «نحن أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة . ولولا من فى الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تخل منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله ، ولولا ذلك لم يعبد الله [1] . وستنتقل هذه العقيدة إلى الصوفية ، وسيعلن هؤلاء أن الأرض خلقت لأجل محمد وآله .

بل إن الانتفاع أيضاً حادث بالإمام الحجة الغالب . يقول الشيعة على لسان الإمام على زين العابدين : «إننا ننتفع به ، كما تنتفع الشمس المحجوبة بالغيوم ، فنعلم من هذا أن فيوضه وبركاته تعم الخلق حتى فى زى الغيبة» وقد سئل كيف ينتفع الناس بإمام مستور ويكون حجة الله عليهم . قال «كما ينتفع الناس بالشمس إذا سترها السحاب» . وهكذا أنطق الاثنى عشرية الإمام عليا زين العابدين بغيبة الإمام وبالانتفاع منه فى الغيبة أيضاً .

وإذا كان الإمام مصدر المعرفة ومصدر الوجود ، فلا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية .

وكان لا بد لمنطق المذهب الاثنى عشرى أن ينتهى بنسبة العصمة إلى الأئمة . وقد اختلفت أنظار المجتهدين من الشيعة فيها . فبينما يذهب البعض منهم إلى أن المعصوم من الأئمة يفعل الطاعة مع عدم قدرته على المعصية ، يرى البعض أن المعصوم قادر على فعل المعصية وإلا لم يستحق المدح على تركها ولا الثواب ولبطل الثواب والعقاب فى حقه ، فكان خارجاً عن التكليف وأن العصمة ليست مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا ملجئة إليه ، بل هى الشيء الذى يعلم الله تعالى أنه إذا فعله بعبد من عبيده لم يؤثر معه معصية له ، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله ، بل المعلوم منهم ذلك هم الصفوة الأخيار لقوله تعالى «ولقد اخترناهم على علم على العالمين» ، وقوله . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» ولاشك أن فى نسبة العصمة للأئمة مع قدرتهم واختيارهم تناقضاً . وانتهى المجتهدون إلى القول تحت تأثر معتزلى إلى أن العصمة هى أمر يوجده الله للإمام لطفاً منه ، فيهديه إلى الطاعة ، فلا يقدم على المعصية [2] .

ولقد حاول الشيعة الاثنى عشرية تخريج قول على زين العابدين فى المعصوم بأنه «هو من اعتصم بحبل الله المتين» أى القرآن ، فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة .

---

(١) المرتضى : البحر الزخار ج ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) الشيخ المفيد : شرح عقائد الصدوق ص ٦١ س ١١٤ .

فالإمام يهدى الناس إلى القرآن والقرآن يهديهم إلى الإمام لقوله تعالى : «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم» يفسره المجلسى بأن تفسير العصمة بالاعتصام بحبل الله – إما باعتبار أن الله يعصم الأئمة من الذنوب بسبب اعتصامهم بالقرآن أو بأن المراد بأن الله عصمه بالقرآن فيعمل بما جاء به ويعرف معانيه» ولكن هل هذه العصمة – بهذا المعنى – مقصورة على الإمام ، أم أنها فى متناول كل قرآنى اعتصم بالقرآن ؟

وقد يتساءل الإنسان : فيم هذا كله ، وما الذى أثار الشيعة الاثنى عشرية للقول بعصمة الإمام ودفعهم إلى الدفاع عنها وبحثها بحثاً كلاميًّا وفقهيًّا ؟ إن الأسباب لاعتناق الاثنى عشرية لهذا الأصل أولاً : هو أن الإمام صاحب السلطة لا الأمة كما يدعى الأشاعرة ، أو بمعنى أدق بينما يعلن الأشاعرة «عصمة الأمة» مستندين على الأصل المشهور «الإجماع» متخذينه من الحديث المشهور «لا تجتمع أمتى على ضلالة» يعلن الاثنا عشرية عصمة الإمام مستندين أيضاً على أصلهم المشهور «موالاة الإمام» وأن الأرض لا تخلو من قائم بالحق وعلى الحديث الشيعى «من مات ولم يعرف إمامه ، مات ميتة جاهلية» ثانياً – نسب الاثنا عشرية للإمام «العلم الإلهى» وهو علم سرى فى كتب وجوامع – الجفر والجامعة ومصحف فاطمة . . إلخ ، وعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون . إن حامل هذا العلم الإلهى ، هذا المستودع لتراث الأئمة ، عن خاتم الأنبياء ، لابد وأن يكون معصوماً عن الخطأ والنسيان . ثالثاً – النور الإلهى نور محمد ، كيف يكون مستوراً ومستقرًّا فى إمام ويكون هذا الإمام عرضة للخطأ ؟ وهنا مدخل للغنوصية فى مصدرها الأفلوطينى المحدث . ورابعاً – الإمام مصدر الأحكام ، وله وحده مطلق التصرف فى أعناق المسلمين وكل ما يمس حلالهم وحرامهم ، وكما أنهم لم يوافقوا أهل السنة على الإجماع ، لم يوافقوا أكثر وأكثر على القياس . فحين حرموا القياس ، لجأوا إلى الحكم المباشر من الإمام . يلقيه إليهم عن تلق أو عن اجتهاد ، ولابد أن يكون اجتهاده مبرأ من العيوب ، معصوماً من الخطأ .

لا إجماع إذن ولا قياس ، وإنما نص قرآنى أو حديث عن إمام من الأئمة ، أو اجتهاد أشبه بصلصلة الجرس ، ولكن الإمام غائب ، وانتهى عهد الوكلاء ، فأى أصل من الأصول يعود إليه الشيعة الاثنا عشرية ، إذا استحدثت حادثات استحدثوا أصلاً غريباً : كل ما خالف العامة فهو رشاد . وما أعجب هذا الأصل .

وأخيراً – نأتى إلى الإمام الغائب – وقد رأينا نشأة الفكرة من قبل عند السبأية الأوائل ، ثم عند الكيسانية وعند الكثيرين من الغلاة . وقد آمن بها الاثنا عشرية إيماناً كاملاً ، حتى يومنا هذا . وقد تعرضوا لأجلها لأشد أنواع الهجوم العقلى من أعدائهم معتزلة وأشاعرة . بل إن الشيعة الإمامية اختلفت

فيا بينها أشد الاختلاف . وقد نقل لنا النوبختى (١) فى فرق الشيعة عقائد أربع عشرة فرقة ، اختلفت فيا بينها أشد الاختلاف ، حول حقيقة القائم ، وأخيراً انتصرت الفرقة القائلة بإمامة محمد بن الحسن العسكرى ، على أن الشيعة الإمامية لم تسلم من اختلاف حتى بعد ظفر هذه الفرقة الأخيرة . يقول الشهرستانى : «صارت الإمامية متمسكين بالعدلية فى الأصول وبالمشبه فى الصفات ، متحيرين تائهين ، وبين الإخبارية منهم والكلامية سيف وتكفير ، وكذلك بين التفصيلية والوعيدية قتال وتضليل (٢) وما زال لهذا الاختلاف بقايا حتى الآن .

وقد ظهرت لدى الشيعة الاثنى عشرية مشكلة من أدق المشاكل وهى : متى يظهر الإمام المختفى ؟ وقد اختلفوا فى هذا . أما الذين حددوا ظهور الإمام المهدى فى زمن معين ، فقد سموا بالوقاتين وكتبوا — كتباً عدة يحاولون بها تحديد وقت ظهور الإمام الغائب ، بينما آمن الأغلبية العظمى من الشيعة الاثنى عشرية بإنكار الوقت ، ويبدو هذا من دعائها أمام مسجد الإمام الغائب فى سامرا «أشهد أنك الحق الثابت الذى لا ريب فيه ، وأن وعد الله فيك حق . لا أرتاب فيك لطول الغيبة وبعد الأمد ، اللهم طال الانتظار ، وشمت بنا الفجار ، وصعب علينا الانتظار ، اللهم أرناوجه إمامك فى حياتنا وبعد المنون ، اللهم إنى أدين لك بالرجعة بين يدى صاحب هذه البقعة . . الغوث ! الغوث ! الغوث !

ولكن لم تنته فكرة التوقيت فى محيط الشيعة الاثنى عشرية ، لقد ظهرت الشيخية ثم البابية ثم البهائية ، مؤمنة بالوقت ، منسلخة عن الشيعة الاثنى عشرية ، بل منسلخة عن الإسلام كلية ضاغنة على الإسلام أشد الضغن ، مستعدية عليه فى جميع بقاع الأرض اليهودية والنصرانية .

قد رأينا الشيعة تحاول أن تجد مصدراً للرجعة فى الإسلام وتستند فى هذا إلى أحاديث كثيرة منها ما أورده الترمذى ، وابن حجر العسقلانى ، بل إن ابن تيمية نفسه — وهو المحدث الكبير — يوافق على صحة أحاديث المهدى وخروجه فى آخر الزمان . غير أن نسق مذهب الرجعة عند الشيعة يخالف تماماً نسقها عند أهل السنة والجماعة ، وإن كانت الفكرة الشيعية عن المهدية قد أثرت بلا شك فى فكرة مهدى أهل السنة والجماعة ، ويبدو أن أهل السنة اختلفوا فى حقيقة المهدى ورجعته ، وأنكره البعض ، كما أنكره المعتزلة جميعاً .

وأخيراً . . . هل الفكرة يهودية ؟ فالمهدى يوازى المسيح ، والمسيح فكرة أنتجها العقل اليهودى وهى تعنى منقذاً ومخلصاً يظهر لإنقاذ البشر ، وما زال اليهود يتطلعون إلى ظهوره . بل إن اليهودية تؤمن بأن إيليا أيضاً رفع إلى السماء وسيعود وأثرت الفكرة اليهودية فى المسيحية أيضاً ! فالمسيحية وقد اعتقدت

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨.

فى ظهور المسيح ، تؤمن أيضاً بخلوده أولاً ثم ببعثه ثانياً . أم أن المهدى هو ساوسخايانت المهدى الزرادشتى مختلطاً بعناصر مسيحية ويهودية [١] ؟

هل أثرت كل هذه الأساطير اليهودية الزرادشتية فى التراث الشيعى ؟ وكان المهديون فى الإسلام محمداً ﷺ وعلى بن أبى طالب ومحمد بن الحنفية ، وزيد بن على بن الحسين ، ويحيى بن زيد ، هؤلاء من آل البيت . ثم نرى كثيراً من المصلحين ولا سيا فى العصور الحديثة قاموا يحاربون الفساد أو الاستعمار باسم المهدى مثل مهدى السودان ، ومهدى السنوسى ، ومهدى القوقاز إيليا منصور ، ومهدى الأكراد حسن بن عدى . وما زال المسلمون فى القوقاز يأملون فى عودة إيليا منصور ليخلصهم من حكم الروس ، كما أن الأكراد يأملون فى ظهور حسن بن عدى . ويبدو أن فكرة المهدى إنما تعود إلى فترة من فترات الحسرة التى تسود العالم الإسلامى حيناً إذا ما سلبت منه السلطة الدينية فيؤمل الناس فى ظهور رجل أو إمام ينافح عن الدين ويعيد مجده ولعل هذا الضمير القلق هو الذى أبدع فكرة المهدى ، أبدعها من لا شىء ، وبدون استناد على أى من النصوص ، ورأى بقايا اليهود فى العالم الإسلامى إسباغها حينئذ على أئمة الشيعة ، إضراماً للعداوات المتأججة بين المسلمين ، فدخلت فى عقائد الشيعة مؤيدة بالحجج ، ومسلحة بالبراهين وأصبحت جزءاً من العقيدة الشيعية على مر العصور .

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٩٥ .

الباب السادس

تطور الغلو

الفصل الأول

غلاة الجعفرية

الخطابية

بينما كانت الإمامية تشق طريقها المنهجى ، ويفتق كما قلنا مراراً رجالها وعلماؤها المذهب ، ويضعون أركانه ، ويتبنون نظريات فلسفية – رواقية وأرسطاليسية أحياناً ، لتدعيم المذهب –كان الغلو الشيعى يأخذ مداه المخيف فى الكوفة مرة ثانية ، فلم ينته الغلو بمقتل أبى منصور العجلى ، ولا بمقتل عبد الله ابن معاوية ، بل ظهر فى أبشع صورة لدى شخصية احتلت أكبر مركز فى تاريخ الغلاة ، وأقلقت مضجع الدولة ، كما أقلقت مضجع الإمام جعفر الصادق فى بيته الهادئ فى المدينة ، أما هذه الشخصية فهى شخصية أبى الخطاب الأسدى (المقتول عام ١٣٨هـ) .

أما اسمه الكامل فهو محمد بن مقلاص أبو زينب الأسدى الكوفى الأجدع الزراد البزاز– ويكنى تارة أبا الخطاب وأخرى أبا الظبيان وثالثة أبا إسماعيل ، وقد نشأ بالكوفة ، ثم تردد على الإمام جعفر الصادق وأخذ عنه ، وقد وردت روايات متعددة عن مقامه لدى الإمام .

أما الأولى : «قال عنبسة قال لى : أبو عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) : أى شىء سمعت من أبى الخطاب . قال : سمعته يقول : إنك وضعت يدك على صدره وقلت له «عه ولا تنس» وإنك تعلم الغيب . وإنك قلت له : هو غيبة علمنا وموضع سرنا وأمين على أحيائنا وأمواتنا .

أما الثانية فهى للخصيبى النصيرى قال : جعفر قال لأبى الخطاب : يا محمد : أخاطبك بما خاطب به رسول الله ﷺ سلمان . وقد دخل عليه عند أم أيمن وقال : أصبحت يا سلمان غيبة علمنا ، ومعدن سرنا ، ومجمع أمرنا ونهينا ، ومؤدب المؤمنين بآدابنا . أنت والله الباب الذى يؤدى إلى علمنا . وفيك ينبأ علم التأويل والتنزيل وباطن السر وسر السر ، فبوركت أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً وحيًّا وميتاً . فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقلته أنا لك يا أبا محمد [1]

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٧ ، ٤٨ .

والنص الأول عن عنبسة الناووسى والثانى عن الخصيبى النصيرى . وكلاهما غاليان ، وروايتهما مردودة . وفى النصين محاكاة لأسلوب جعفر ، فهل هما لجعفر فعلاً ، حينما كان أبو الخطاب يتردد عليه ويتابعه فى اقتصاد ؟

إن الكشى – وهو مؤرخ رجال الشيعة ، يذكر أن هذه الأخبار التى رواها أبو الخطاب عن جعفر قد عرضت على الإمام نفسه فكذبها وأنكرها ، بل إن الإمام جعفراً قال : ما مس شىء من جسدى جسده إلا يده »(١) . كما يذكر الكشى أن الإمام جعفراً قال : « اللهم العن أبا الخطاب ، فإنه خوفنى قائماً وقاعداً وعلى فراشى اللهم أذقه حر الحديد » ثم أورد روايات متعددة تدل على ذمه (٢) . وأياما كان الأمر ، فإن أبا الخطاب الأسدى قد تردد على جعفر الصادق بعض الوقت ، ثم عاد إلى الكوفة ، وأخذ ينشر مبادئه ويكون فرقته وقد التف حوله وآمن بدعوته بعض فلول المنصورية من أتباع أبى منصور العجلى ، كما أن فلول الجناحية من أتباع عبد الله بن معاوية قد أسرعت إليه ، وكان الرجل على مهارة وذكاء ودقة ومرونة فى تنظيم الدعوة ، وكان يدعو أولاً باسم جعفر الصادق ، ويبدو من رواية الكشى أن أول دعوته هى نسبة العلم الغيبى إلى جعفر ، فلما « وقف الصادق على غلوه الباطل فى حقه ، تبرأ منه ولعنه ، وأخبر أصحابه بالبراءة منه ، وتشدد القول فى ذلك ، وبالغ فى التبرئ منه واللعن عليه » (٣) . وثبت تماماً أن الرجل اتصل بجعفر أول الأمر ، وأن جعفراً قد قربه إليه ما يذكره أحد أتباع جعفر وهو عيسى بن أبى منصور شلقان لإسماعيل بن الإمام جعفر « قلت لأبى الحسن – وهو يومئذ غلام قبل أوان بلوغه : جعلت فداك ما هذا الذى يسمع من أبيك (جعفر) إنه أمرنا بولاية أبى الخطاب ، ثم أمرنا بالبراءة منه . فقال أبو الحسن من تلقاء نفسه : إن الله خلق الأنبياء على النبوة . فلا يكونون إلا أنبياء . وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين . واستودع قوماً إيماناً ، فإن شاء أتمه وإن شاء سلبهم إياه . وإن أبا الخطاب كان ممن أعاره الله الإيمان فلما كذب على أبى سلبه الله الإيمان (٤) . » .

هذه هى أول الدعوة ، وكان جعفر الصادق يكره نسبة العلم الغيبى إليه – وكان أبو الخطاب ينسب إلى جعفر أيضاً معرفة الاسم الأعظم ، وأنه علمه إياه وجعله قيمه ووصيه من بعده (٥) .

ثم حين تبرأ منه جعفر ادعى الأمر لنفسه ، ويذهب القاضى أبو حنيفة النعمان الإسماعيلى إلى أن

---

(١) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٨ وانظر أيضاً الدكتور الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٤٢ .

(٢) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٧ – ١٨٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) الكشى : معرفة الرجال ٢١١ .

(٥) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٢ .

أبا الخطاب كان من أجل دعاة جعفر الصادق «فأصابه ما أصاب المغيرة فكفر وادعى أيضاً النبوة وزعم أن جعفر بن محمد إله ، ثم استحل المحارم كلها ورخص فيها . ويذكر أن أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه . وقالوا : يا أبا الخطاب . خفف علينا ، فيأمرهم بتركها ، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور وقال : من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ، فبلغ أمره جعفر بن محمد ، فلم يقدر عليه أكثر من لعنه وتبرأ منه وجميع أصحابه فعرفهم بذلك ، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه (١) .

أما النوبختى الاثنا عشرى فقد ذهب إلى أن أبا الخطاب كان يدعى أن جعفراً الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده ، وأن جعفراً علمه اسم الله الأعظم ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى أنه من الملائكة وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم » ثم قالوا – أى الخطابية – «إن أبا الخطاب نبى مرسل أرسله جعفر وأمر بطاعته وأحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وتركوا الصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض . وقالوا : من سأله أخوه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه ويشهد له ! فإن ذلك فرض واجب وجعلوا الفرائض رجالاً سموهم والفواحش والمعاصى رجالاً وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا خفف عنا بأبى الخطاب ووضع عنا به الأغلال والآصار – يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج – فمن عرف الرسول النبى الإمام فليصنع ما أحب » (٢) .

ويبدو أن دعوة أبى الخطاب لم تصل إلى هذا الحد فى مرحلتها الأولى . فإذا كان أبو الخطاب حقًّا من أجل دعاة جعفر ، فما كان جعفر يسكت أبداً عنه منذ البداية ، وقد كان لجعفر عيون وأنصار ورجال من كبار المتكلمين فى الكوفة .

بل يبدو أن تلك كانت المرحلة الثانية فى دعوة أبى الخطاب ، حين تبرأ منه جعفر . بدأ ينظم الدعوة لنفسه ، ويستغل كل ما وصل إليه من عقائد الغلاة من قبله ، وبدأ يقيم هذا المجتمع الباطنى الإباحى حوله ، ولم تكن سوى امتداد لمجتمع غال تكرر مراراً فى الكوفة . وأعلن أبو الخطاب ، كما أعلنت الخطابية من بعده أن الإمام جعفر بن محمد الصادق أودعهم الجفر ، وفيه كل مايحتاجون من علم الغيب وتفسير القرآن (٣) . وهذا يدل دلالة واضحة على أن مركز الدائرة فى دعوة أبى الخطاب إنما كانت فى نسبة الغيبى والسرى إلى جعفر ، وأن جعفراً أودعه أبا الخطاب . ثم غلا فى تصويره لحقيقة

---

(١) القاضى النعمان : دعائم السلام ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) النوبختى : الشيعة ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٢ .

الإمام الذى أحبه . ويذكر أبو خلف القمى عنه أنه قال : «رأيت أبا عبد الله (أى جعفراً الصادق)فى الحجون جالساً . فقلت له : يا سيدى أرنى نفسك فى عظمتك وملكوتك فقال له : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبى . قال فبسط يده على الأرض فإذا السموات والأرضون والخلائق فى قبضته . ثم قال : فأرنى ركن الحجر الأسود ، فإذا البيت قد رفعه على أصبعه فى الهواء ، وإذا من حوله قردة وخنازير . وإذا موضع البيت بحيرة قطران أسود . ثم رده كما كان . وقال : هذا مركز الشيطان ومأوى إبليس[١] » . فلما انفصل الرجلان بدأ أبو الخطاب يضع دعوته النهائية ، ويأخذ جملة آراء المغيرية والمنصورية .

آراء أبى الخطاب الأسدى :

يذهب الشهرستانى إلى أن أبا الخطاب كان يعلن أن الأئمة أنبياء ثم انتهى إلى القول بأنهم آلهة . أى أنه نادى بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه . والإلهية نور فى النبوة ، والنبوة نور فى الإمامة ، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار . وزعم أن جعفراً هو الإله فى زمانه ، وليس هو المحسوس الذى يرونه ، لكن لما نزل إلى هذا العالم ، لبس تلك الصورة فرآه الناس[٢] هذا هو نقل الشهر ستانى للمذهب ويبدو أن الرجل كان يؤمن بنظرية «الحلول» أن الله نور من الأنوار ، وأن هذا النور يحل فى الأنبياء والأئمة ، بل إن البغدادى نفسه يضعه فى فرقة الحلولية ، [٣] ونحن نعلم أن نظرية النور المحمدى كانت قد بدأت فى عصر جعفر الصادق ، وتكلمنا عن أصلها الأفلاطونى المحدث ونظرية الكلمة المسيحية اختلط هذا كله فى مذهب أبى الخطاب مع نظرية النور الثنوية الغنوصية .

غير أنه ينبغى أن نتفهم فى ضوء النصوص المتعارضة آراء أبى الخطاب الأسدى فى حقيقة الأئمة . أن الأشعرى ، وهو أقدم من البغدادى والشهر ستانى يقول إن الخطابية تزعم «أن الأئمة أنبياء محدثون ورسل الله وحججه على خلقه ، ولا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت ، فالناطق محمد ﷺ ، والصامت على بن أبى طالب ، فهم فى الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما سيكون وما هو كائن [٤]» . وتكاد تجمع المصادر على أن أبا الخطاب هو أول من نادى بنظرية الإمام الناطق والإمام الصامت ، وتنسب إليه القول بأنه لابد من رسولين فى كل عصر ، ولا تخلو الأرض من واحد ناطق ، وآخر صامت وقال فى ذلك الآية «ثم أرسلنا رسلنا تترى [٥]» .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٥ .
(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٠٠ ٪ ٣٠١ .
(٣) البغدادى : الفرق ١٣٧ .
(٤) البغدادى : الفرق ص ١٣٨ .
(٥) أبو خلف القمى : المقالات ص ٥١ .

ويضيف البغدادى إلى هذا أنهم قالوا إن عليًّا صار بعد النبى ﷺ ناطقاً ، وهكذا يقولون فى الأئمة إلى أن انتهى الأمر إلى جعفر ، وكان أبو الخطاب فى وقته إماماً صامتاً وصار بعده ناطقا [١] .

هل كانت هذه هى دعوة أبى الخطاب ، وهل ادعى أنه حجة الإمام النبى ووصيه وقيمه ؟ أم أنه ادعى أنه نبى ، كما ادعى أن جعفراً هو الإله فى زمانه ، وليس هو المحسوس الذى يرونه ، ولكن لما نزل إلى هذا العالم ، ليس تلك لصورة ، فرآه الناس فيها [٢] » النصوص متعارضة ومتناقضة ، فبينما يذكر أنه كان يقول بأن جعفراً نبى ، وأنه من الرسل فرض على الناس طاعة أبى الخطاب يذكر أن الأئمة آلهة ، وأن أبا الخطاب إله ، ويذكر «ولد الحسين أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب» — ويذكر أنهم تأولوا فى ذلك قول الله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) وهذا آدم ونحن — أى الخطابية أولاده — وأخيرا إن الخطابية عبدوا أبا الخطاب ، وزعموا أنه إله وزعموا أيضاً أن جعفراً إلههم أيضاً ، إلا أن أبا الخطاب أعظم منه وأعظم من على [٣]. ويذكر أقدم مؤرخ شيعى — وهو أبو خلف القمى أن أبا الخطاب ادعى أنه جعفر بن محمد وأنه يتصور فى أى صورة شاء. وذكر بعض الخطابية أن رجلا سأل جعفراً عن مسألة وهو بالمدينـة . فأجابه فيها . ثم انصرف إلى الكوفة . وسأل أبا الخطاب عنها . فقال له : أو لم تسألنى عن هذه المسألة بالمدينة فأجبتك فيها [٤] .

أين الحق فى كل هذا ؟ فالأئمة أولا أنبياء ثم آلهة وأبو الخطاب حجة وقيم ، ثم نبى ، ثم إله . والأئمة أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب .

إن هذا التناقض فيما نقل إلينا من أخبار متعارضة عن أبى الخطاب الأسدى يجعلنى أشك تمام الشك فيما أحيط بالرجل من أساطير غالية ، تكاد تجمع عليها مصادر السنة والشيعة الإمامية معاً ويجعلنى أرجح أن ثمة خلافا كبيراً بين أبى الخطاب نفسه وبين الخطابية من بعده . ونستطيع أن نتبين طريقنا خلال شواهد ثلاثة تركها لنا التاريخ فيما ترك من أخبار .

أما الشاهد الأول : فهو أبو خلف القمى — المؤرخ والمتكلم الشيعى القديم . فبينما يذهب فى نص من النصوص إلى أن أبا الخطاب كان يدعى «أن جعفراً الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده ، وعلمه اسم الله الأعظم ، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى الرسالة ، ثم ادعى أنه من الملائكة ، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم» يذهب فى نصوص أخرى إلى أن الرجل قد نهى عن كل هذا . فهو يشرح لنا قصة معمر بن خيثم أحد الغلاة والمنتسبين إلى الخطابية . فيقول : إن هذه الفرقة جعلت جعفر ابن محمد إلهاً بمعنى أن نور الله نور يدخل فى أبدان الأوصياء فيحل فيها ، فكان ذلك النور فى جعفر ،

---

(١) البغدادى : الفرق ص ٥١ .

(٢) الأشعرى : مقالات : ج ١ ص ٦ .

(٣) الشهرستانى : الفرق ج ١ ص ٣٠٠ / ٣٠١ .

(٤) أبو خلف القمى : المقالات ص ٥١ .

ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب ، فصار جعفر من الملائكة ثم خرج من أبى الخطاب ، فدخل فى معمر وصار أبو الخطاب من الملائكة [١] . ثم خرج أحد أتباع معمر ويدعى بابن اللبان يدعو إليه «وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها ما حل منها وما حرم ، وليس عنده شىء محرم وقال : لم يخلق الله هذا إلا لخلقه ، فكيف يكون محرما ، وأحل الزنا والسرقة وشرب الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات والأخوات ونكاح الرجال ، ووضع عن أصحابه الجنابة وقال :كيف أغتسل من نطفة خلقت منها ، وزعم أن كل شىء أحله الله فى القرآن وحرمه فإنما هو أسماء رجال» [٢] هذه هى آراء تلك الفرقة المعمرية ، عقائدها وعباداتها وطقوسها الوثنية الغنوصية . ومن العجب أن أبا خلف القمى يذكر أن من أنكر على معمر عقائده وتبرأ منه ولعنه هما جعفر الصادق وأبو الخطاب الأسدى فيقول «وخاصمه قوم من الشيعة وقالوا لهم .إن الذين زعمتم أنهما صارا من الملائكة قد برئا من معمر وبزيغ وشهدا عليهما كافران شيطانان وقد لعناهما ، فقالوا إن الذين ترونهما جعفراً وأبا الخطاب شيطانان تمثلا فى صورة جعفر وأبى الخطاب يصدان الناس عن الحق ، وجعفر وأبو الخطاب ملكان عظيمان عند الإله الأعظم إله السماء ومعمر إله الأرض ، وهو مطلع لإله السماء يعرف فضائله وقدره [٣] . ويتبين واضحاً من هذا النص أن أبا الخطاب الأسدى نهى كما نهى جعفر عن دعوى معمر وبزيغ الغالية ، وأن أبا الخطاب تبرأ كما تبرأ جعفر من كل من معمر وبزيغ وقد دعا هذا إلى اعتبار جعفر الصادق وأبا الخطاب شيطانين متمثلين فى صور بشرية .

وأما الشاهد الثانى : فهو قصة القتال الذى حدث بين أتباع أبى الخطاب الأسدى وبين عيسى بن موسى أمير الكوفة من قبل أبى جعفر المنصور . فقد بلغ هذا الأمير أن الخطابية أتباع أبى الخطاب مجتمعون فى المسجد يدعون إلى أبى الخطاب فبعث إليهم ، فحاربوه وامتنعوا عليه ، وكانوا سبعين رجلا فقتلهم رجال عيسى بن موسى جميعا ، ولم ينج منهم إلا رجل واحد أصابته جراحات فعد فى القتلى فتخلص وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجمال الملقب بأبى خديجة ، وسالم بن مكرم كان من رجال الحديث الشيعى ووثقه النجاشى فى رجاله .

ويذكر المؤرخون أن أبا الخطاب وأصحابه حاربوا رجال عيسى بن موسى حربا عنيفة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين ، لأنهم جعلوا القصب مكان الرماح . وقد كان من أبى الخطاب أن قال لهم «قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم

(١) أبو خلف القمى : المقالات ص ٥٣ وانظر أيضا النوبختى : فرق ٤٢ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٣ ؛ والنوبختى : فرق ص ٤٤ .

(٣) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٣ ؛ والنوبختى : ص ٤٢ .

لا تضركم ولا تحل فيكم ، وأخذ يقدم منهم عشرة عشرة للمحاربة ، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلا قالوا له : ما ترى ما يحل بنا من القوم . وما نرى قصبنا يعمل فيهم ولا يؤثر . وقد عمل سلاحهم فينا وقتل من ترى منا ؟ فقال لهم : «إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبى» ثم قال : يا قوم قد بليتم وامتحنتم وأذن فى قتلكم ، فقاتلوا على دينكم وأحسابكم ولا تعطوا بلدتكم فتذلوا ، مع أنكم لا تتخلصون من القتل فموتوا كراما » فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وأسر أبو الخطاب وقتله عيسى بن موسى مع مجموعة من أصحابه ، ثم صلبه وأحرقه (١) .

ويبدو واضحاً من هذه الصورة التى ذكرناها أن الرجل لم يدع ألوهية أو نبوة ، وإنما كان يغلو فى حب آل البيت وأنه حاول محاولة المختار بن أبى عبيد من قبل أو هو صورة منه . اتصل بالإمام الشيعى جعفر الصادق . كما اتصل المختار بمحمد بن الحنفية ، وحاول السيطرة على الكوفة كما حاول المختار . ولكن المختار كان أكثر فاعلية وقوة ، ثم نادى – كما نسب إلى المختار – بالبداء – بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن البداء ظهر على يديه ، وأنه هو أول من بشر به . ثم نلحظ أيضاً أنه كان من أتباعه سالم بن مكرم وهو محدث مشهور وأحد رجال جعفر الصادق ، بل إن جعفراً الصادق هو الذى كناه أبا سلمة ، مستبدلا بها كنيته القديمة ، أبا خديجة ، ولقد بقى أبو سلمة سالم بن مكرم مع أبى الخطاب فى قتاله الأخير حتى النهاية .

أما الشاهد الثالث : فهو أن جميع كتب الفرق بلا استثناء تنسب المذهب إلى أصحابه ولا تطلق على لسان أبى الخطاب إلا القليل . أما تبرؤ جعفر منه ، فقد كانت هذه هى خطة جعفر الصادق ، وهى إعلان التبرى من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه ، وقد فعل هذا مع زرارة بن أعين كما رأينا من قبل – ولعل جعفراً قد مثل مع أبى الخطاب قصة محمد بن الحنفية مع المختار ، فمحمد بن الحنفية تبرأ – فيما يقال – من المختار . ولو ظاهرياً مع أن المختار كان من أخلص رجاله . وكذلك فعل جعفر مع أبى الخطاب . ويؤيد هذا ما يذكره الخطابية – بعد مقتل أبى الخطاب فى تأويل الآية «أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها . . .» أن السفينة أبو الخطاب ، وأن المساكين أصحابه ، وأن الملك الذى وراءهم هو عيسى بن موسى العباسى قاتل أبى الخطاب . وأن جعفرا الصادق أراد أن يعيبهم بلعنهم فى الظاهر وفى الباطن يعنى أضدادهم ومن خالفهم (٢) . وكما نسبت إلى المختار الآراء الكيسانية نسبت إلى الخطاب الآراء الخطابية من بعده . غير أنه يبدو أن ثمة خلافاً حقيقياً قد حدث بين أبى الخطاب الأسدى وبين الإمام جعفر

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٥٥ .

الصادق ، وهو أن أباالخطاب كان من محبى إسماعيل بن الإمام جعفر ، وكان جعفر الصادق يكره صلات ابنه–كما سنرى بعد–بالغلاة مما يجعله يفكر فى عزله عن إمامة الشيعة بعده وقد قتل أبو الخطاب فى نفس السنة التى توفى فيها إسماعيل وحدث الانقسام وسرعان ما انضم الخطابية–منفذين لسياسة زعيمهم – لمحمد بن إسماعيل ونرى أن الإسماعيلية أطلقت أول ما أطلقت على الخطابية . يقول النوبختى «وأما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية أصحاب أبى الخطاب محمد بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة فى فرقة محمد بن إسماعيل وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر فى حياة أبيه» [١] . وقد لاحظنا من قبل أن أبا الخطاب الأسدى تكنى بأبى إسماعيل ، واضعا بذلك أسس فكرة الأبوة الروحية والتبنى الروحى ، مما كان له أثر فى عقائد الإسماعيلية – فيما بعد – علاوة على أنه ينسب إليه فكرة الناطق وفكرة الإمام الصامت .

ولقد كان لأبى الخطاب الأسدى المقام الكبير فى تاريخ الشيعة – غلاة وإسماعيلية – ولقد وضع كما قلنا من قبل فى موازاة «سلمان الفارسى» ولما كان سلمان «من أهل البيت» ، كان أبو الخطاب « مولى بنى هاشم» . كما اعتبر سلمان ممثلا لدور السين –كذلك اعتبر أبو الخطاب ممثلا له . يقول ماسينيون : «وهذا الدور العالى دور السين ، أى دور النقيب الموحى إليه ، هو الذى ادعاه أبو الخطاب – وكان لقبه فى البدء مولى بنى هاشم فى سنة ١٣٨ هجرية بالكوفة قائلا : إن الإمام جعفراً اعترف له به– متخذاً صيغة أخرى مدشنة له– غنوصية زعم أن محمداً استخدمها متحدثاً عن سلمان . وقد أنكر الخطابية أن يكون آل على قد قدر لهم قدراً سابقاً أن يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله . وقالوا إن الاختيار الإلهى بالتبنى الروحى هو وحده المعتبر. وعلى هذا لقبوا سلمان لا بلقب محمدى وإنما بلقب–ابن الإسلام،كما لقبوا خليفته أبا الخطاب بلقب–أبى إسماعيل» [٢] وقد حاول ماسينيون جهده أن يثبت الموازاة بين سلمان وبين أبى الخطاب . يرى ماسينيون أن الإمامية – وهم بصدد تأمل رسالة سلمان الفارسى – إفترضوا صحة القول بأن روح التأويل التى تفتح لنا معانى الكتاب تمتاز سموًّا وعلوًّا من الروح – جبريل – التى نزلت على محمد ﷺ . إنها أعلى وأسمى لأنها روح الأمر المذكورة فى القرآن» وحددوا روح الأمر بأنها هى نوع من الفيض الإلهى يحقق تدريجيًّا مقاصد الله الخفية . ورأت الإمامية أن سلمان إحدى وسائل روح الأمر وإحدى عللها الإلهية لدى الرسول على معاً .

هذه الروح تنفذ الأمور الإلهية ، وتفسر قواعد هذه الأمور الثابتة كهؤلاء الذين تختارهم وسائل لها .

---

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨١ ؛ والنوبختى فرق ص ٦٩ .

(٢) ماسينيون : سلمان الفارس والبواكير الروحية للإسلام فى إيران فى كتاب «شخصيات قلقة فى الإسلام» ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ص ١٩ .

وبينما نجد استعمال التنزيل لا يسمح ولا يغنى سوى مكافحة أحد غير الملاحدة والمشركين ، نجد روح التأويل تسمح بتمييز نفاق المنافقين وأسرار الأفئدة ولعل ماسينيون يشير بأسلوبه الشعرى الخيالى إلى تلك الفكرة الإمامية التى استندت على قول عمار بن ياسر فى صفين « اليوم نقاتلكم على تأويله كما قاتلناكم من قبل على تنزيله » أو على الأثر المشهور « إننا كنا نتعرف على المنافقين على رسول الله ببغضهم لعلى » . وأياً ما كان الأمر فإن ماسينيون يذكر أن الإمامية ترى أن روح الأمر – روح التأويل – تتجسد فى كل جيل فى ممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله وأولئك الذين يتعرفون بالإمام الشرعى ومن ينكرونه دورة بعد دورة وأن هذه النظرية القائلة بدوام التصميم التاريخى وبالعود الدورى للنماذج الكتابية الدينية قد ظهرت سنة ٣٣هـ . حينما أعلن صعصعة بن صوحان أن الإمام – وقد كان فى البدء آدم – يجب أن يتعرف آنئذ فى على » ثم أتى المغيرة من الغلاة قبل عام ١٠٠هـ وأعلن أن المنكر الأول فى حياة على هو عمر ، وهو يوازى إبليس الأول المنكر فى حياة آدم وقد أنكر إبليس الثانى – أو المنكر الأول على على – ميثاق على ، ميثاق الله ، ثم تابعه أبو بكر المنكر الثانى ، ثم عثمان المنكر الثالث وهو يضع عمر أول المنكرين ، لشدة عداوته لعلى وفاطمة .

أما روح الأمر ، وأول المؤمنين فقد كان فى حياة على هو سلمان – كما ترى الإسماعيلية فيما بعد – ويرى ماسينيون أنه « منذ بداية القرن الثانى أدمجت شخصية سلمان التاريخية فى النموذج الإلهى الأعلى الذى تجسدته زمناً والذى سيسمى من بعد باسم سلسل أو بأول حرف منه وهو السين . نعتقد أن أبا الخطاب (المتوفى سنة ١٩٣) هو الذى أدرك فى تلك الفترة رسالة سلمان بكل قوتها . وهو ألا يجعل نفسه روح الأمر مباشرة إنما يوجد بينه وبينها تدريجياً بعملية رفع روحى ، وبهذا يرفعه إلى مرتبة الألوهية فوق مرتبة الإمام . وهذا عنده خماس أعنى من خمسة أشخاص – محمد ، على ، فاطمة ، الحسن والحسين – وفى هذا نشاهد خماس المباهلة » يحاول ماسينيون إذن أن يجعل من أبى الخطاب الأسدى – فى عقيدة الشيعة – صورة أخرى من سلمان ذى الصورة الشيعية أيضاً . وأن أبا الخطاب أدرك قبل الإسماعيلية والدروز فكرة العين والميم والسين . العين هى النموذج الأول للإمام – ومثاله آدم فى مسألة السجود وعلى فى غدير خم – وكان صعصعة بن صوحان أول من أعلن أمام معاوية نفسه سنة ٣٣ هـ النظرة الشيعية التى تجعل من إمامة آدم وإمامة على (العين ، الصامت) شيئاً واحداً فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام على الحقيقى فى ذلك الحين ، وينسب ماسينيون فكرة صعصعة إلى أستاذه سلمان الفارسى . العين يتربع فى الوسط ساكناً صامتاً ، مستوراً عتيداً مثل أمر الله وهو يهيمن على هيئة شخص واحد غالباً ، وأحياناً على هيئة خماس لرئيس القانون الإلهى ، والسين عند غلاة الشيعة هو المعنى الذى يضعه الله فى مركز الجماعة ، والحجاب المستور الذى يكشف

عن حضرة خفية ، وهو الجسد المتوارث للجنس المختار للإمامة ، أهل الاصطفائية بنى الصاد – ولكى يموت المرء مسلماً صحيحاً ، فمن الضرورى الإيمان به ومحبته فى تجليات ظهوره المتقطعة المتواترة هذه التى تبدو بطريقة دور كعودة الهلال عودة العرجون القديم . الذى ينظم وحدة الأعمال الشرعية من صوم وحج . . . إلخ . ويحيا . كما يحيا الهلال بالتلبية والتهليل .

« والميم هو النموذج الأول للنبى – خصوصا محمد ﷺ – متغير وناطق » ينشر بدعوته الأوامر الإلهية ، وهو يعين تشخص العين ويسيمه ، والميم حجاب حاجز يجب اجتيازه ، لأنه يحجب .

والسين – وهو سلمان – هو النموذج الأول للأسباب ، وهى الروابط الخارقة التى بين السماء والأرض ، من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ » والسين – سبب الشدو التلقين ، تدعو إلى سبيل الله بالحسنى والإقناع كما أن نداء المؤمن يذكى القلب بالصلاة ، وهو الباب الذى يدخل منه النور الشعشعانى ، أو منه يتصل المؤمن بالحضرة الإلهية ، ويحقق عمل الله ، ينفخ الروح مولداً الأبدان ، ومعلماً للنفوس ، وهو المقدرة التى تمنح الوجود ، وسلسل أو السين يمنح الحكمة ويؤتى البرهان ، ويرى ماسينيون أن اللفظ سلسل قد تكون عن الكلمة سلسلة الواردة فى القرآن فى قوله « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وصيغت فى حروف المذكور كما يكون حساب الحروف س + ل + س + ل = ١٨٠ = س + ل + م + ن .

ويرى ماسينيون أن من هذا كله تنشأ تصورات ثلاثة مختلفة للروح الإلهى » ويلاحظ أنه على العكس مما تدعيه كتب الفرق السنية ، لم توجد فرقة شيعية مغالية ادعت بأن أحد هذه النماذج الثلاثة يمكن أن يكون الله بجوهره ، فعند جميع الغلاة أن الله لا يمكن معرفته فى ذاته وهو فوق كل وصف وحد ، وإنما الأمر هنا أمر تأليه بالمشاركة ، ونوع هذه المشاركة يختلف وفقاً للنموذج الذى تفضله الفرقة .

حاول ماسينيون أن يثبت أن أبا الخطاب الأسدى قد أدرك هذه النماذج الثلاثة إدراكاً واعياً مطلقاً ، وأنه حاول تحقيقها فى نفسه ، فهو السين كما رأينا . إنه يمثل دور الخضر مع موسى ووصيه ودور آصف مع النبى سليمان . جمع ماسينيون أقوال الإسماعيلية المتأخرين وأقوال الدروز والعليائية ، وحاول أن يبين أن هذا الاتجاه الغنوصى الخطير كان فى يد سلمان الفارسى وتلميذه صعصعة بن صوحان ، ثم بيد أبى الخطاب الأسدى فيما بعد . كان ماسينيون مصوراً بارعاً يرسم بريشته صورة لسلمان ، مضيفاً عليها ما شاء من أصباغ وألوان ، وضعها المتأخرون من الإسماعيلية والدروز على وجه الرجل الصالح ،

المهاجر من فارس، وراء الحقيقية ، والذى أحب على بن أبى طالب ، لأن علياً كان أقرب الناس إلى الرسول .

لقد تناسى ماسينيون صورة أخرى لسلمان ، هى صورته السنية ومحبته لأبى بكر وعمر ، وتوليته المدائن للخليفة الثانى ، تجاهل ماسينيون – عن عمد – كثيراً من الحقائق التاريخية الثابتة عن هذا الصحابى الجليل ، لكى يرسم صورة معينة حدد هو إطارها من قبل ، لا تمت إلى الحقيقة التاريخية الثابتة لسلمان ، ثم حاول أن ينقل هذه الصورة لأبى الخطاب الأسدى ، ومن المؤكد أن كثيراً من الغنوصيات ظهرت فى نظريات أبى الخطاب ، وأنه غلا أشد الغلو فى جعفر الصادق ، غلوًا يأباه أهل السنة والإمامية معاً ومن المحتمل أن يكون أبو الخطاب قد أعلن أن جعفراً الصادق إله ، وأنه نبى ، ثم إنه من المحتمل أيضاً ألا يكون . ولكن ليس فى كتابات الرجل ما يدل على معرفة بالمفهومات الغنوصية الغنية التى نقلها إلينا ماسينيون عن العين والسين والميم ، من كتابات المتأخرين من الإسماعيلية والدروز كما أن ماسينيون نفسه ينكر على الغلاة القول بألوهية تلك العناصر – ثم يعود فيقول إن السينية عند أبى الخطاب معناها أن س . تصبح ، ملكاً ، ثم إلهاً . ولم يذهب بألوهية السين أى سلمان سوى السلمانية ، ثم الدروز .

ثم إذا كان هذا الثالوث قد تحقق فى عهد محمد ﷺ فكان العين «على» هو النموذج الأول للإمام ، وكان الميم «محمد» هو النموذج الأول للنبى وكان السين «سلمان» هو النموذج الأول للأسباب ، فكيف تحقق هذا الثالوث فى عهد أبى الخطاب . إذا كان جعفراً هو العين وسلمان هو «السين» فأين نجد «الميم» . لقد تصيد ماسينيون – مع الأسف – فكرة عبادة الميم والعين والسين أى فكرة عبادة محمد وعلى وسلمان عند الدروز ووضعها فى قالب ثالوث مسيحى وحاول أن يفرضها على آراء الشيعة الغلاة مبتدئاً بعهد الرسول ، متدرجاً بها فى مختلف العهود . وقد فعل هذا بتصنع شديد وتكلف ظاهر – وهو فى هذا يتأثر بعقيدته الكاثوليكية التى سيطرت على أبحاثه هنا ، كما سيطرت على أبحاثه فى الحلاج .

وأياً ما كان الأمر ، فقد أعلنت الشيعة الإمامية ثم خليفتها الاثنا عشرية ، وأعلن أهل السنة والجماعة – وفى هاتين الفرقتين إجماع المسلمين على مدى الدور وهاتان الفرقتان الاثنا عشرية ، وأهل السنة والجماعة ؛ هما الحافظتان لحوزة الإسلام والمنافحتان عن عقائده فى الألوهية والنبوة . أعلنتا البراءة من أبى الخطاب الأسدى وتكفيره وإخراجه من حظيرة الأئمة .

وقتل أبو الخطاب – كما قلنا – ولكن الرجل ترك أتباعاً كثيرين وفرقاً مختلفة اختلفت فيه وزادت . وقد وصف المقريزى هذه الخطابية «بأنهم أتباع أبى الخطاب محمد بن ثور – وقيل محمد بن يزيد الأجدع» وأن مذهبه هو «الغلو فى جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضاً من المشبهة وأتباعه خمسون

فرقة» وهذه مغالاة من المقريزى أو خطأ نسخى فإن عدد فرقه خمس . ثم يرى المقريزى أنهم كلهم متفقون على أن الأئمة – كعلى وأولاده – أنبياء ، وأنه لابد لكل أمة من رسولين أحدهما ناطق والآخر صامت ، فكان محمد ﷺ الرسول الناطق وعلى الرسول الصامت . ثم إنه يجمعهم جميعاً أن جعفراً الصادق كان نبيًّا ، ثم انتقلت النبوة إلى أبى الخطاب ، وأن هؤلاء الأنبياء أى الأئمة – عالمون بما هو كائن إلى يوم القيامة . ويزعم هؤلاء جميعاً أن جعفراً الصادق قد أودعهم جلداً – وهو الجفر ، فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب ، وفيه تفسير القرآن ومن الأمثلة التى قدموها للناس من هذا التفسير الجفرى . قول الله «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» أن البقرة هى عائشة ، وأن الخمر والميسر الواردين فى القرآن هما أبو بكر وعمر ، والجبت والطاغوت هما معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص [١] .

أما الأشعرى فقد اعتبرهم خمس فرق . أما الفرقة الأولى : فهى المعمرية ، (أتباع معمر بن خيثم) وأهم آرائهم : أن الدنيا لا تفنى – أى أنها أزلية سرمدية – وأن الجنة هى ما يصيب الناس من خيرات فى هذه الدنيا ، وأن النار هى ما يصيبهم من بلاء . ثم آمنوا بفكرة التناسخ وأداهم هذا إلى القول بأنهم خالدون لا يموتون ، ولكن ترفع أبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم . ثم استحلوا سائر المحرمات من خمر وزناً ، كما دانوا بترك الصلاة [٢] وهذا هو المذهب السائد الذى ينسب دائماً إلى الغلاة ، مزيج من غنوصية مانوية ، ومسيحية ؛ فالتناسخ غنوصى والرفع مسيحى . وقد ذكرنا من قبل أن المعمرية تذهب إلى أن الله نور دخل فى أبدان الأوصياء ، دخل فى جعفر ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب ، وصار جعفر من الملائكة ، ثم خرج من أبى الخطاب ودخل فى معمر هذه رواية يذكرها النوبختى ثم يضيف النوبختى رواية أخرى : وهى أن النور الذى هو الله دخل فى عبد المطلب ثم انتقل إلى أبى طالب ثم انتقل إلى محمد ، ثم انتقل إلى على ، ثم تناسخ فى الأئمة حتى انتقل إلى معمر . ورواية ثالثة : أن النور دخل فى أبى طالب – فهو إله ، ثم سكن فى محمد ﷺ وكان محمد هو الله الحق ، وكان على بن أبى طالب رسولاً ، فلما مضى محمد خرجت منه الروح ، فلم تزل تتناسخ فى واحد بعد واحد حتى صارت فى معمر . ورواية رابعة تذهب إلى المعمرية تقول : إن قوالب هذه الروح لا تموت ولا تفنى ، ولكنها تتحول إلى ملائكة وأنهم يرفعون إلى السماء ولا يموتون . يرفعون بأبدانهم وأرواحهم [٣] . هذه النقول المتعارضة تجعلنا نشك فى كل ما تتضمنه ، وإنما من الأوفق أن نقول : إن معمراً كان غنوصيًّا بلا شك ، آمن بنظرية النور المحمدى وانتقالها من نبى إلى نبى ، ثم نقلها إلى حجج الإمام أو دعاته ، كما آمن بالتناسخ [٤] .

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ .
(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١١ .
(٣) القمى : المقالات ص ٥٤ .
(٤) الدكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة ص ٣١ .

ويرى ماسينيون أن المعمرية سينية قالت بإله ونبى وإمام والإمام (سبعة أسباب : خماس المباهلة أو أصحاب الكساء المشهورين على وفاطمة والحسن والحسين وسلمان + ٢ أبو طالب وعبد الله) (١) ولكن عبد الله والد الرسول ﷺ ، لم يذكر إطلاقاً ، فهل يقصد ماسينيون عبد المطلب . ولعله أراد بهذا أن يجعل المعمرية أو اليعمرية – كما تدعى أحياناً – سلفاً للإسماعيلية ، ثم يتكرر هذا السباع فى كل دورة وزمان . وهل يكون المذهب هو هذا كما قلت من قبل : النور المحمدى ، يتجلى فى دورة دورة من دورات الأئمة ، على شكل سباع . إن النصوص لا تقدم إلى المذهب واضحاً . أما صلة هذه الفرقة بأبى الخطاب ، فقد قلنا – من قبل – إن أبا الخطاب قد تبرأ منها ، كما تبرأ جعفر ، وشهدا على معمر بأنه كاذب وشيطان .

وننتقل إلى فرقة أخرى (من تلامذة أبى الخطاب) : هى البزيغية أصحاب بزيغ بن موسى . ويذهبون أيضاً إلى أن جعفراً إله ، ولكنه ليس هو الظاهر المرئى ، وإنما تشبه للناس بهذه الصورة . وهذا يعنى أيضاً فى لغة محايدة أنه يرى أن النور الإلهى قد حل فيه . وأن جعفراً بعث أبا الخطاب بالرسالة ، ثم بعث بزيغا ، فأبو الخطاب وبزيغ نبيان . بل ينقل الأشعرى أن البزيغية تقول : «إن كل مؤمن يوحى إليه» واستندوا فى هذا إلى تأويل الآيات «وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله» أى بوحى من الله . والآية «وأوحى ربك إلى النحل» والآية «وإذا أوحيت إلى الحواريين» ويبدو واضحاً أننا أمام تفسير غنوصى للقرآن ، ونحن نعلم أن «الغنوص» هو إلقاء المعرفة اللدنية فى النفس وأن دائرته مفتوحة لمن أراد من البشر أن يسلك طريقه . فهذا إذن نداء غنوصى واضح فى العالم الإسلامى . وقد أداهم القول بالغنوص إلى أنهم أعلنوا أن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد ، وأنهم خالدون ، وأن أحدهم إذا بلغت عبادته مبلغها الأكمل ، رفع إلى الملكوت ، وادعوا معاينة أمواتهم وأنهم يرونهم بكرة وعشيًّا (٢) . وكل هذه أصول غنوصية ، نفذ الكثير منها بعد إلى التصوف الفلسفى ، وكانت الكوفة فعلاً بيئة سبخة لكل هذا . وقد تبرأ جعفر الصادق ، كما تبرأ أبو الخطاب من بزيغ (٣) .

وأما الفرقة الثالثة : فهى العميرية أصحاب عمرو بن بيان العجلى ، ويبدو أن هؤلاء كانوا تلامذة أمناء لأبى الخطاب الأسدى ، لقد أنكرت هذه الفرقة التناسخ ، كما أنكرت الخلود فى هذه الدنيا ، ولكنهم – ولعلها زيادة من مؤرخى السنة – قالوا بنبوة الأئمة ثم عبدوا جعفراً . وأنهم نصبوا خيمة فى

---

(١) النوبختى : فرق . . ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٢ ؛ والشهرستانى : ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) النوبختى : فرق . . . ص ٤٣ ، ٤٤ .

كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر ، وقد نمى خبرهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى ، فأخذا عميراً ، فصلبه فى كناسة الكوفة عام ١٢٨هـ. وسجن بعض أصحابه وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالعجلية (١) .

وأما الفرقة الرابعة : فهى «فرقة السرى» ومن العجيب أن فهرس فرق الشيعة يدعوه بالسرى بن منصور ويجعل وفاته عام ٢٠٠ هـ فى عهد المأمون وأنه قتل بيد الحسن بن سهل بينما يذكر أصحاب الطبقات كمنهج المقال ومنتهى المقال أن الإمام جعفراً الصادق قد لعنه فيمن لعن من الغلاة وأن الصادق قال : إن بناناً والسرى وبزيغا لعنهم الله تراءى لهم الشيطان فى أحسن ما يكون صورة آدمى من قرنه إلى سرته (٢) .

أما آراء هذه الفرقة فهى . . أن السرى رسول مثل أبى الخطاب ، أرسله جعفر وقال : إنه قوى أمين ، فهو موسى القوى الأمين ، إشارة إلى الآية القرآنية ، «إن خير من استأجرت القوى الأمين» ، «وهو فيه تلك الروح» . ثم إن جعفراً هو الإسلام ، والإسلام هو السلام ، وهو الله ، ونحن بنو الإسلام ، أى بنو الله ، كما قالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه وكما قال رسول الله : سلمان ابن الإسلام وقد قام أتباع السرى بالصيام والصلاة والحج لجعفر ، وكانوا يلبون له مرددين «لبيك يا جعفر لبيك» (٣) . وهذه التلبية والتهليل لدليل على أن غلو السرى لم يصل إلى حد نسبة الألوهية إلى جعفر ، بل إنه يدل فقط على أنهم آمنوا به كإمام غنوصى يتلقى من الله الأمر ، وهو هنا عودة الهلال ، أو عودة العرجون ، هذه فكرة غنوصية لا شك تجعل منه آدم أو تجلى آدم الأول فيه .

أما الفرقة الخامسة : فهى المفضلية أتباع المفضل بن عمر الجعفى (المتوفى سنة ١٧٠ تقريباً) وكان صيرفيًّا فى الكوفة . وقد آمن فيما يرى الأشعرى – بألوهية جعفر الصادق (٤) . وقد تولى ابنه محمد بن المفضل الدعوة من بعده . وقد كان للاثنين فى تاريخ الغلاة مقام كبير ، بحيث اعتبرا فيما بعد «الباب» ويذكر الشاعر الغالى أبو الغمر الثمالى الديكى (١٩٠ هـ) – رامزاً لهما :

أنا أبصرت ديك العرش فى صورة أنسى   أنا أبصرت ربى قاعداً فى حى جعفى

وعند ماسينيون أن الباب – السين – ديك العرش أى المؤذن ، لأنه أول من سلم على الإمام بالتهليل «أنت أنت» (٥)

---

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢١ ، والشهرستانى ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٣ .

(٥) الدكتور بدوى : شخصيات قلقة ص ٤١ .

كانت الخطابية إذن حركة ضخمة سياسية وعقائدية ، ويبدو لى أنها بدأت بعقيدة بسيطة غالية فى حب الإمام ، وقد حدث هذا على يد أبى الخطاب ، ثم بدأ الغلو يفشو فيها ويفشو ، ويدخل الغنوص شيئاً فشيئاً ، حتى امتلكها امتلاكاً كاملاً ، ولم يجد الداعية أبو الخطاب وسيلة للسيطرة عليها فسار معها ، وكره منه جعفر هذا فتبرأ منه ، كما تبرأ هو من غلاة فرقته ، وحين قتل انضم بعض أتباعه لمعاصره الحسين بن أبى منصور ودخلوا فى طائفة الخناقين ، وانضم الأتباع الآخرون للإسماعيلية ، بل هناك – كما رأينا – من يذهب إلى أن أبا الخطاب مؤسس الإسماعيلية الحقيقية وأنه دعى بأبى إسماعيل . وسنبحث هذا فى الفصل الخاص بالإسماعيلية ، وقد بقى أبو الخطاب يشغل الأجيال من بعده ، وعاشت ذكراه لدى الغلاة حتى وقت متأخر .

لقد تفرق أتباعه فيما يقول ابن الأثير – وتعلموا الشعبذة والنيرنجات والنجوم والكيمياء ، وأنهم يحتالون على كل قوم « بما يتفق عليهم » أى ينشرون دعوتهم ويدخلونها على الناس بما يتفق مع ميل كل واحد ممن يقابلونه – ثم أظهروا الزهد للعوام [1] . وكأن ابن الأثير يريد أن يربط الغلو بالزهد ثم بالتصوف .

وأخيراً يلاحظ الدكتور الشيبى ببراعة أن « حركة أبى الخطاب لم تمت بهذه السهولة ، وإنما وجدنا محمد بن عبد الله بن مهران يكتب فى القرن الثالث كتاب مناقب أبى الخطاب ووجدنا كتاباً فى الرد على الخطابية بقلم رجل من أنصار الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة « ٢٦٠ » وهذا يدل على أن الحركة الخطابية بقى لها أنصارها حتى النصف الثانى من القرن الثالث .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢١ .

الفصل الثانى

ظهور الفرق الميمية والعينية والسينية

بدأ الغلو كما رأينا بقداسة أسبغت على الإمام على بن أبى طالب . وحيكت الأسطورة حول هذا الغلو ، ونسبت إلى شخصية يهودية هى شخصية عبد الله بن سبأ ، وأصبح دعاء السبئية وتهليلهم «أنت أنت» . «أنت الخالق البارى» عنواناً على كل حركة غالية [1] . وسواء – كما قلت من قبل – صح وجود عبد الله بن سبأ أو لم يصح ، فقد وجد الغلو – قاسياً وعنيفاً – فى قلب المذهب الشيعى ، وقدم لهذا المذهب أضراراً كبرى فى أرجاء العالم الإسلامى . بل إن حركة المختار بن عبيد ، وهى حركة من أجل الحركات فى تاريخ الإسلام ، قد شوهت أشد التشويه حين نسب إليها الزبيرية والأموية الغلو ، واعتبروها حركة خارجة على الإسلام ، ومزج بينها وبين الكيسانية ، وقد حاول ماسينيون أن يعتبر الكيسانية أو المختارية فرقة عينية تقول بنوع من الألوهية لابن الحنفية ولوكيله المختار ثم للسادن : حوشب البرسمى [2] .

وقد قدمنا للقارئ صوراً من هذا الغلو وأصحابه ، وسنقدم للقارئ فى هذا الفصل صوراً أخرى غريبة ، كانت أصولها أيضاً فى هذا الغلو الذى قدمنا صوره من قبل : بل زادت فى الغلو . ويبدأ هذا الغلو بإسباغ الألوهية على النبى محمد ﷺ ؛ بمعنى أن روح القدس كانت فى النبى ﷺ ، ثم فى على وأولاده حتى الإمام الثانى عشر . لعل هذه هى الفرقة الميمية الأولى ، وقد وجدت أصولها فى السبئية القديمة . ويعلق الأشعرى عليها بأنها ذهبت إلى ألوهية «كل واحد من هؤلاء» أى النبى ﷺ والأئمة الاثنى عشر «كل واحد منهم إله عن التناسخ ، والإله عندهم يدخل فى الهياكل [3] . ويقصد بهذا أن روح القدس تحل وتتناسخ فى الأجسام . ولم يتنبه ماسينيون إلى هذه الفرقة العينية الاثنى عشرية الغالية فى عرضه الفرق الميمية . ومن المؤكد أن المقصود بالألوهية هنا حلول الكلمة فى النبى محمد ، ثم انتقالها فى الأئمة . فالغنوص المسيحى واضح هنا تمام الوضوح . مع نزعة صابئية حرنانية تتضح فى قول هذه الفرقة بأن الإله يدخل فى الهياكل .

---

(١) الملطى : التنبيه ص ٢٥ .

(٢) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٠ – ٤٢ ؛ والطبرى : تاريخ ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٣) الأشعرى : مقالات : ج ص ١٤ .

ويمكن أن يدرج فى اتجاه هذه الفرقة الكاميلية أو الكميلية . وقد نسبت هذه الفرقة إلى كميل بن زياد صاحب الإمام على ، ونسب إليه أنه يقول «بأن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص ، وذلك النور فى شخص يكون نبوة ، وفى شخص يكون إمامة وربما تتناسخ الإمامة فتكون نبوة» . وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت (١) . وقد كان بشار بن برد الشاعر من أتباع هذه الفرقة الأخيرة ، وهذه الفرقة وإن كانت لا تقول بألوهية اثنى عشر إلا أنها تقول بحلول نور فى النبى ، ومنه إلى الأئمة . وقد نتساءل هل كان كميل بن زياد (المقتول عام ٨٣) بيد الحجاج والذى وثقه ابن سعد وابن معين (٢) ، ممن ذهبوا إلى القول بالتناسخ فى هذا الوقت المبكر . أم أنه كان هناك كميل بن زياد آخر ومتأخر .

وأضع أيضاً تحت هذه الفرقة (المفوضة) وهى تقول إن الله خلق محمداً ﷺ ، ووكل الأمور وفوضها إليه فخلق الدنيا دون الله تعالى ، ثم فوض محمد ﷺ تدبير العالم إلى على بن أبى طالب – فهو المدبر الثانى بعد محمد ولا ينسبون الحسن والحسين إلى على ، لأن الإله لا يكون له ولد ولا والد . وكانوا يسمون محمداً وموسى الخائنين لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعليًّا أرسل محمداً ، فخاناهما . ويزعمون أن عليًّا أمهل محمداً عدة سنين ، مدة أصحاب الكهف . فإذا انقضت هذه المدة ، وهى ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة .

ويقولون إن الملائكة ، كل من ملك نفسه ، وعرف الحق ، وأن الجنة معرفة الإمام وانتحال مذهبه ، والنار الجهل به والعدول عن مذهبه .

أما فخر الدين الرازى فيقول فى كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٥٩) : أن المفوضة هم الذين يقولون إن الله خلق روح على وأرواح أولاده ، وفوض العالم إليهم ، فخلقوا هم الأرضين والسماوات ، وقالوا من هنا قلنا فى الركوع سبحان ربى العظيم وفى السجود سبحان ربى الأعلى . فالإله الأعلى هو على وأولاده ، والإله الأعظم هو الذى فوض إليهم العالم .

ويقابل هذه الفرقة الميمية الغالية الاثنى عشرية فرقة عينية وتنسب إلى العلياء بن ذراع الدوسى أو الأسدى ، وهذه الفرقة تؤمن بأن «روح الإله» قد حلت فى على وأنه بعث محمداً رسولاً ، فدعا إلى نفسه ، وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالذمية لأنها تذم الرسول محمداً ﷺ . وأضع تحت هذه الفرقة أيضاً الغرابية أتباع ابن جمهور الغرابى الذى ادعى أن جبريل أخطأ وأزاغ الرسالة من على إلى محمد

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٤٥ .

ﷺ (١) . ويرى الشهرستانى أن من يقدمون عليًّا فى أحكام الإلهية يسمون العينية ، ومن يقدمون محمداً ﷺ يسمون الميمية .

غير أن هناك تفسيراً آخر لهذه الفرقة العليائية أو العلياوية أورده ماسينيون عن الكشى وغيره عن مقالة بشار (أى بشار الشعيرى المتوفى حوالى سنة ١٨٠ هـ) هى مقالة العلياوية . يقولون إن عليًّا عليه السلام رب وظهر بالعلوية الهاشمية ، وأظهر به عبده ورسوله بالمحمدية . ووافق أصحاب أبى الخطاب فى أربعة أشخاص : على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وأن معنى الأشخاص الثلاثة : فاطمة والحسن والحسين تلبيس ، وفى الحقيقة شخص على ، لأنه أول هذه الأشخاص فى الإمامة والكثرة ، وأنكروا شخص محمد عليه السلام ، وزعموا أن محمداً عبد وعليا رب . وأقاموا محمداً مقام سلمان عند المخمسة . وجعلوه – أى سلمان – رسولاً لمحمد صلوات الله عليه . فوافقهم أى بشار فى الإباحات والتعطيل والتناسخ . والعلياوية سمتها المخمسة عليائية وزعموا أن بشاراً الشعيرى لما أنكر ربوبية محمد وجعلها فى على وجعل محمداً عبد على وأنكر (٢) رسالة سلمان – مسخ فى صورة طير يقال له عليا ، يكون فى البحر فلذلك سموهم العليائية .

ويتصل بهاتين الفرقتين «السينية» وهم القائلون بإلهية سلمان الفارسى (٣) . ويرى أبو خلف القمى أنهم غلاة أظهروا التشيع واستبطنوا المجوسية ، وأنهم زعموا أن سلمان هو الرب ، وأن محمداً داع إليه ، وأن سلمان لم يزل يظهر نفسه لأهل كل دين (٤) . ويقول أبو حاتم الرازى : إن السلمانية ؛ وهم الذين قالوا بنبوة سلمان الفارسى وتغالى قوم منهم فأعلنوا ألوهيتـه . أما الذين يؤمنون بنبوته فيؤولون قول الله عز وجل «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قالوا : إنما هو سلمان «أرسلنا قبلك من رسلنا» وإنما كانت الكتابة فى المصحف . الميم ملصقة بالنون بلا ألف وهو سلمان كما كتبوا لقمن وعثمن بلا ألف . وغلا فيه قوم حتى فضلوه على أمير المؤمنين – على – «صلوات الله عليه (٥) » . فسلمان هنا أحد الأنبياء القرآنيين ، وسيأتى الإسماعيلية ويقولون : إنه حامل القرآن . وسنرى ما يشبهه عند محمد بن على الشلمغانى الكاتب المعروف بابن أبى العزاقر وصاحب فرقة العزاقرية . (قتل حرقاً عام ٣٢٢ هـ) وهو شخصية هامة لم تدرس بعد ، وله كتب متعددة منها كتاب فى المباهلة وكتاب فى الحسن السادس

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٩٣ ؛ والبغدادى : الفرق ص ١٥٢ ؛ والملطى : التنبيه ص ٢٩ ؛ والرازى : اعتقادات ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ماسينيون : شخصيات ص ٤١ .

(٣) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٣١ .

(٤) أبو خلف القمى : المقالات ص ٦١ ٪ ٦٢ .

(٥) نقل الأستاذ ماسينيون النص عن أبى حاتم الرازى – فى شخصيات قلقة ص ٤٥ .

ويذكر ابن الأثير أنه أحدث مذهباً غالياً فى التشيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه . ويبدو أنه ادعى لنفسه مقام سلمان وهو يساوى عنده ميكائيل وقد تسمى بالباب ، أى ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر وقد ذكر أنه أعلن أنه إله الآلهة بحق الحق ، وأنه الأول القديم الظاهر الباطن الرازق التام الموماً إليه بكل شىء .

ويبدو أنه ادعى فقط حلول الإلهية فيه وأن الله يحل فى كل شىء على قدر ما يحتمل . وأنه خلق الضد ليدل على المضدود . فمن ذلك أنه حل فى آدم لما خلقه ، وفى إبليسه أيضاً . وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه فى معناه . ويرى الشلمغانى أن الدليل على الحق أفضل من الحق وأن الضد أقرب إلى الشىء من شبيهه . وأن الله إذا حل فى جسد ناسوتى ظهر من القيدة والمعجزة ما يدل على أنه هو — أى الله ، وأنه لما غاب آدم ظهرت اللاهوتية فى خمسة ناسوتية كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر . وفى خمسة أبالسة أضداد لتلك الخمسة ثم اجتمعت اللاهوتية فى إدريس وإبليسه وتفرقت بعدهما كما تفرقت بعد آدم . . . إلى أن انتهت إلى على بن أبى طالب فاجتمعت فيه اللاهوتية وفى إبليسه . ثم إن الله يظهر فى كل شىء . وكل معنى وأنه فى كل أحد بالخاطر الذى يخطر فى قلبه فيتصور له ما يغيب عنه حتى كأنه يشاهده وأن الله اسم لمعنى . وأن من احتاج الناس إليه فهو إله . ولهذا المعنى يستوجب على كل أحد أن يسمى إلهاً . وأن كل أحد من أشياعه يقول : إنه رب لمن هو دونه فى درجته . وكان الرجل منهم يقول : أنا رب لفلان ولفلان ، وفلان رب ربى حتى ينتهى إلى الشلمغانى فيقول : إنه رب الأرباب ، لا رب غيره ولا ربوبية بعده [١] .

ويذكر المسعودى أنه قتل معه رجل من أتباعه يقال له ابن أبى عون ويعرف بابن المنجم الكاتب [٢] .

ونحن قد رأينا من قبل أن هناك من أنكر على سلمان — أى جبرئيل — أمانته وأنه خان ، وأزاغ الرسالة من على إلى محمد ﷺ ولكن ما لبثت أن ظهرت فرقة من أكثر الفرق غلوًّا ، وهى فرقة المخمسة . وهذه الفرقة تستند على حديث الكساء المشهور فى قصة المباهلة بين محمد رسول الله ﷺ ووفد نصارى نجران . فقد أتى وفد من نصارى نجران يسألون الرسول عن اعتقاد الإسلام فى المسيح . وكان الوحى قد نزل يقول «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» ووصل الوفد النجرانى إلى المدينة . وأكرم الرسول وفادته ، وناقش الوفد الرسول ، وأصر كل على رأيه فى المسيح . وهنا نزلت الآية «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل . فنجعل لعنة الله على الكاذبين» وقبل الوفد النجرانى

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٥٩ — ١٦٠ . (٢) المسعودى · التنبيه والإشراف ص ٣٤٣ .

المباهلة وأتى محمد ﷺ برهائن المباهلة وهم فاطمة والحسن والحسين وعلى ثم الرسول نفسه وعلى «الكثيب الأحمر» بجوار المدينة ، فى الموعد الذى اتفق فيه الفريقان على المباهلة ألقى رسول الله ﷺ بكساء أسود على شجرتين صغيرتين وتحت الكساء وفى ظلاله جلس وبجانبه على وأمامه الحسن والحسين وخلفه فاطمة . . . هؤلاء أصحاب الكساء ينتظرون مقدم الوفد النصرانى للمباهلة . وأقبل أسقف نجران والوفد متقدمين نحو أصحاب الكساء . ورآهم محمد ﷺ ، وبدأ يرفع يديه ممدودتين فوق رأسه وظهرت الأضواء الصاعقة ، وتلألأت السماء ، وانحنت الأشجار وبدا الكون ، وكأن صاعقة من السماء تكاد أن تنقض على الأرض . وولى الأسقف ووفد نجران هاربين . . . وأعلنوا تخليهم عن المباهلة .

أما أهل السنة والجماعة ، فقد رأوا فى حادثة الكساء ، معجزة لمحمد ﷺ ، قام بها تنفيذاً للأمر القرآنى الوارد من السماء . ولكن ما لبث الشيعة المعتدلة أن رأوا فيها ركيزة من ركائز عقيدتهم فى الحق الإلهى لعلى وأولاده من بعده فى إمامة المسلمين . واقتن الشيعة فى وصف الكثيب الأحمر ، وعليه أصحاب الكساء ، وهالات الجمال الإلهى تحيط بهم .

وكان لابد أن يتناول الغلاة من الشيعة هذه الحادثة بكل أنواع التفاسير ، ويحيكون حولها الأساطير . ومن هنا تكونت «المخمسة» من غلاة الشيعة .

ويبدو أن الفرقة المخمسة ظهرت فى أصحاب أبى الخطاب . والفرق المخمسة تنقسم إلى ثلاث : ميمية ، وعينية ، وسينية .

وبالرغم من أن ماسينيون يزعم تحت تأثير عقيدته الكاثوليكية – أن أبا الخطاب والخطابية كانوا سينية يؤمنون بالسين – سلمان – المسيحى فى نظره ، فإن أقدم مؤرخ شيعى وهو أبو خلف القمى – يذكر لنا المخمسة أصحاب أبى الخطاب ميمية آمنوا أولاً – وبالذات – بمحمد ، وأن الله جل وعز هو محمد . وأن محمداً ظهر فى خمسة أشباح وخمس صور مختلفة . ظهر فى صورة محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . وأن الأربعة الأخيرين من هذه الخمسة تلبيس لا حقيقة لها . «والمعنى شخص محمد» لأنه أول شخص ظهر وأول ناطق نطق . لم يزل بين خلقه موجوداً بذاته يتكون فى أى صورة شاء . يظهر نفسه لخلقه فى شتى الصور . يظهر فى الشيوخ وفى النساء وفى الأطفال . يكون مرة والداً ومرة مولوداً وما هو بوالد ولا مولود وهو يظهر فى الزوج والزوجة . أما العلة فى أنه أظهر نفسه بالإنسانية والبشرانية ، فذلك لكى يأنس به الخلق ولا يستوحشوا ربهم .

وكان محمد – فى نظر هؤلاء المخمسة – آدم ونوحاً وإبراهيم وعيسى . ينتقل فى الصور لدى العرب والعجم ، ظهر لدى العرب فى صورته وفى صورة هؤلاء الأربعة ، كما ظهر لدى العجم فى صورة

الأكاسرة والملوك ، الذين ملكوا الدنيا . أن معناهم محمد لا غيره . أو بمعنى أدق هنا نظرية « المعنى والاسم » المشهورة فى تاريخ الباطنية عامة . المعنى واحد ويتعدد الأسماء .

كان محمد يظهر نفسه لخلقه فى كل الأدوار والدهور . إنه تراءى لهم بالنورانية فدعاهم إلى الإقرار بوحدانيته ، فأنكروه . فتراءى لهم من باب النبوة والرسالة ، فأنكروه أيضاً . فتراءى لهم من باب الإمامة ، فقبلوه . فظاهر الله الإمامة وباطنه ، الذى معناه محمد ، يدركه من كان من صفوته بالنورانية . أما من لم يكن من صفوته فيدركه بالبشرانية اللحمانية الدموية ، وهو الإمام . أما محمد نفسه فلا جسم له ، هو معنى ولكنه يتغير ، فالأنبياء تجليات له من لدن آدم إلى ظهور محمد الأخير ، مقامهم مقام محمد القديم المعنى ، ثم انتقل المعنى إلى فاطمة ، فهى محمد ، وهى الرب ، جعلت سورة التوحيد لها « قل هو الله أحد » إنها واحدة مهدية وفسروا « لم يلد » بالحسن ، ولم يولد « بالحسين » « ولم يكن له كفواً أحد » هو محمد . ثم نزل فى أزواجه ، إنه كان يظهر فى صورة الزوج والزوجة » كما يظهر فى صورة الوالد والولد .

ثم ظهر فى الأئمة ، وإنما هو محمد بغير جسم وبتبديل اسم « ثم ظهر فى الأبواب » وهم أبو الخطاب وبيان بن سمعان وصائد النهدى ، والمغيرة بن سعيد وحمزة بن عمار وبزيغ والسرى ومحمد بن بشير هم أنبياء أبواب لسلمان « بتغيير الجسم وبتبديل الاسم » والمعنى واحد هو سلمان وهو الباب الرسول لمحمد » يظهر معه فى كل حال ، فى العرب والعجم . فمتى ما ظهر محمد ، ظهر معه الباب سلمان ، فى أى صورة ظهر ، هو رسول محمد الرب ، متصل به . ومع الباب ، الأيتام والنجباء والنقباء والمصطفون والمختصون ، والممتحنون والمؤمنون واليتيم الأول ، هو المقداد بن عمرو الصحابى المشهور ، وسمى يتيماً ، لقربه من الباب وتفرده بالاتصال به . وهناك يتيمان ، يتيم كبير ويتيم صغير — الأول هو المقداد — كما ذكرنا — والصغير هو أبو ذر .

وأخيراً — إن من عرف هؤلاء بهذه المعانى فهو مؤمن ممتحن ، وضعت عنه جميع الشرائع ، وهى استعباد لغير المؤمنين الممتحنين ، فإذا ارتفعت الشرائع أبيح للمؤمن الممتحن جميع ما حرم الله فى كتابه وعلى لسان نبيه . إن هذه الحرمات رجال ونساء ، ممن جحدوا وأنكروا الإمام ، وأن جميع ما أمر الله به من تكاليف — الصلاة والزكاة والحج والصوم والعبادات جميعاً هى الآصار والأغلال ، هى على أهل الجحود فقط ؛ عقوبة لهم . وأن المحرمات — من الزنا والخمر والسرقة واللواط وكل الكبائر ، وكذلك الوضوء وغسل الجنابة والتيمم ، فكلها اجتناب رجال ونساء واجتناب توليتهم ، فإذا حرمت على نفسك توليتهم ، فقد اجتنبت محارم الله .

ويذكر أبو خلف القمى أن هذه الفرقة المخمسة عاشت عيشة شيوعية جنسية وأنهم أبطلوا الزواج

والطلاق . وتأولوا معانيها فالزواج باطنه مواصلة أخيك المؤمن ، والصداق هو أن تطلعه على ما عندك من العلم ، والطلاق هو أن تعتزل أضدادك المقصرة ، ولا تطلعهم على أمرك . والمرأة سواء أكانت فى حوزتك أم فى حوزة أخيك المؤمن هى « بمنزلة الريحانة تقلعها إذا اشتهيت ، فإذا شممتها حييت بها أخاك المؤمن » .

ثم آمنت المخمسة بالتناسخ – على خلاف غيرهم من الغلاة – فيما يقول القمى . فأرواح الجاحدين تتقلب فى جميع الصور إنسانية وغير إنسانية . يتقلبون فى كل شىء ، حتى لا يبقى فى السموات والأرضين دواب ولا ساكن ولا متحرك إلا جرت فيه الأرواح ، حتى النجوم والكواكب ، فإذا تم ذلك كله ، صاروا جماداً أوحجرة أوحديداً . وتأولوا فى ذلك قول الله : « قل كونوا حجارة أو حديداً أوخلقاً مما يكبر فى صدوركم » ، فسيقولون من يعيدنا : قل الله الذى خلقكم . فذلك جهنم عند المخمسة ، يعذب المقصر الجاحد بها أبد الآبدين .

أما المؤمن العارف منهم ، فلا تنتقل روحه فى شىء من الأشياء ، إنما يلبس سبعة أبدان ، هى بمنزلة سبعة أقمصة ، إذا تعدى من قميص ، يقمص آخر وذلك أن الإيمان سبع درجات ، أو سبع أدوار – والدور عشرة آلاف سنة ، والكور سبعة أدوار . والكور سبعون ألف سنة . يقمص فى كل دور قميصاً أوقالباً ، غير القالب الأول . وفى الدرجة السابعة يكون الارتقاء إلى معرفة الغاية ، فيكشف له فى نهاية الكور الغطاء ، فيصير عارفاً ، ويرفع عنه التلبيس ، فيدرك الله محمداً بذاته ، بالنورانية لا بالبشرية اللحمانية (١) .

هؤلاء هم أقدم « مخمسة » من أتباع أبى الخطاب ، وهم فرقة ميمية كما رأينا تمثل الآراء الباطنية فى أول ظهورها الحقيقى . استخدمت فكرة النور المحمدى التى عرفت فى محيط الإمام جعفر الصادق فى صورة معتدلة ، فوضعتها فى صورة مغالية ، ثم خلطتها بعناصر مسيحية ماندائية ومانوية ومزدكية . ثم أخذت بفكرة رفع التكاليف – وهى متأثرة بالمزدكية والخرمية وربطها بالتناسخ الأفلاطونى . واستخدمت مصطلحات أفلاطونية مثل « القالب والقميص » ولعلها أن تكون قد أخذت التناسخ عن الحرنانية الأفلاطونية . إن هذه الفرقة المخمسة الميمية كانت ذات أثر كبير فى فرقة الباطنية التى تكونت فيما بعد ، وهى التى تكون الجناح الأيسر المتطرف للإسماعيلية ، وتظهر كثيراً باسمها ثم زرعت الشر الخطير فيمن أتى بعدها من فرق كالنصيرية والدروز والعليائية وما زالت هذه الأفكار تعيش فى صورة أو فى أخرى لدى النصيرية والدروز والإسماعيلية المعاصرة . كما أنها كانت أيضاً ذات أثر خطير فى زنادقه الصوفية ، ثم فى التصوف الفلسفى عامة .

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات .

ولكن سرعان ما نجد فرقة من فرق الغلاة المخمسة تجمع بين العين والميم بل تنادى بإلهية خمسة أشخاص — أصحاب الكساء — وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . واعتبرت خمستهم شيئاً واحداً ، والروح حالة فيهم بالسوية ، لا فضل لواحد على الآخر . ويقول شاعرهم :

توليت بعد الله فى الدين خمسة نبيًّا وسبطيه وشيخاً وفاطما(١)

وهنا فقط إعلان للتولى ولكن ما يلبث هذا التولى أن يأخذ صوره الغالية على يد شريع أو الشريعى فهو — يؤمن بألوهية الخمسة ، ولهذه الخمسة خمسة إبليسية مضادة هى أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمرو بن العاص . ثم ينتهى الشريعى كعادة الغلاة إلى أن يقر أن روح الإله حل فيه (٢) .

وكان أهم تلامذة الشريعى رجلان من أشد غلاة الشيعة هما محمد بن نصير النميرى — وقد كون فرقته النصيرية وإسحق بن زيد بن الحرث صاحب فرقة الإسحاقية . وقد كان هذا الأخير من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وصاحب فرقة الجناحية الإباحية . وأما فكرتهما فهى « ظهور الروحانى بالجسمانى » وقد ظهر جبريل ببعض الأشخاص ، وتمثل بصور البشر ، وكذلك الشيطان . لذلك ظهر الله بصورة الأشخاص — وهم الخمسة المشهورون ، محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين « هم خير البرية ظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم » هذا هو معنى التأليه عند المخمسة هو نوع من التأييد الربانى ، لاعتبارهم آلهة خالقين وقادرين . وأما السبب فى اختصاص على بإطلاق اسم الإلهية عليه ، لأنه كان مخصوصاً بتأييد من الله مما يتعلق بباطن الأسرار ، وسينشأ عن هذا فكرة « المخصص » عند الإسماعيلية والدروز ، أى أنه المعلل — أى صاحب العلل . فمحمد صلى الله عليه وسلم صاحب الظواهر — وعلى صاحب السرائر « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . وقتال المشركين كان إلى النبى ، وقتال المنافقين إلى على . واستندوا فى صفة على الباطنية إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا فى عيسى بن مريم ، وإلا لقلت فيك مقالاً » وأخيراً — إن محمداً صاحب التنزيل ، وعلى صاحب التأويل ، واستندوا فى هذا إلى الحديث « فيكم من يقاتل على تأويله ، كما قاتلت على تنزيله ، ألا وهو خاصف النعل » فكل هذه العلوم ، علم التأويل وغيرها من علوم ، وقتال المنافقين ، والخوارق من مكالمة الجن وقلع باب خيبر ، وعلمه بما سيكون ، كل هذا لا « بقوة جسدانية » دليل على أن فيه جزءاً إلهيًّا وقوة ربانية ، أو يكون هو الذى ظهر الإله بصورته وخلق بيده وأمره بلسانه .

وكان على عند النصيرية والإسحاقية موجوداً قبل خلق السموات والأرض واستندوا فى هذا على أثر

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

له « كنا أظلة – على يمين العرش ، فسبحنا – فسبحت الملائكة بتسبيحنا » فتلك الظلال وتلك الصور العرية عن الإظلال هى حقيقة وهى مشرقة بنور الله إشراقاً لا ينفصل عنها سواء كانت فى هذا العالم أو فى ذلك . وأطلقوا على لسان على « أنا من أحمد كالضوء من الضوء ، ولا فرق بين النورين إلا أن أحدهما أسبق ، والثانى لاحق به تال له وهذا يدل على نوع شركة » .

ويرى الشهرستانى أن الخلاف بين النصيرية والإسحاقية ، هو فى أن الأولى ترى أن محمداً وعليًّا يتشاركان فى الإلهية ، ففى كل منهما جزء إلهى ، والثانية ترى أنهما يتشاركان فى النبوة فكل منهما نبى [١]. وقد ذكر الملطى هذه الفرقة فقال « والفرقة الثامنة من الحلولية زعموا أن عليًّا ومحمداً عليهما السلام شريكان فى النبوة وأن الرسالة إليهما ، وأن طاعتهما ومعصيتهما واحد لا فرق بينهما ، وأن عليا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقول النبى عليه السلام « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » [٢] ولعل هذه الفرقة هى الإسحاقية ، وقد ذهب فخر الدين الرازى إلى أن الإسحاقية – وهى تتفق مع النصيرية فى القول بأن الله تعالى كان يحل فى على فى بعض الأوقات ، كانت باقية حتى عصره فى حلب وبعض نواحى الشام [٣] .

أما النصيرية – فما زالت تعيش حتى الآن فى سوريا وبعض أجزاء من شمال فلسطين وبالرغم من أنها تحتفظ باسم النصيرية ، غير أن كثيراً من العقائد الأخرى قد دخلت فى المذهب بحيث يختلف المذهب الآن عن المذهب الأول الذى ينسب إلى معلمها الأول محمد بن نصير النميرى أو الخصيبى النصيرى (المتوفى عام ٣٤٦) . وقد كتب ماسينيون فى دائرة المعارف الإسلامية مقالاً طويلاً عن النصيرية وتطورها .

ثم يذكر لنا فخر الدين الرازى فرقة عينية أسماها الأزلية [٤] وكان من الأولى أن نربطها بالعليائية ، « إنها تدعى أن عليًّا قديم أزلى ، وكذلك عمر بن الخطاب إلا أن عليًّا كان خيراً محضاً وعمر كان شرًّا محضاً » . ويرى الرازى أنهم اقتبسوا هذه المقالة من المجوس . وهذه فرقة بلا شك عينية ، ولكن نظام التقابل فيها أى مقابلة الخير للشر – تذكرنا بالخمسة الخيرة عند الشريعية ومقابلتهم بالخمسة الشريرة .

وبعد : فإننا نتساءل ما هو مصدر الخمسة أو القول بالخمسة الخيرة أو بالخمسة الشريرة ، هل هى الجواهر الخمسة المنسوبة خطأ إلى أنبادوقليس ، أو إلى الحرنانية . إننى أرى – كما قلت من قبل – أنها نزعة فيثاغورية محدثة مختلطة بمختلف أنواع الغنوص .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣١٦ – ٣١٨ .
(٢) الملطى : التنبيه ص ٩ .
(٣) الرازى : اعتقادات ص ٦١ .
(٤) الرازى : نفس المصدر – والصحيفة .

الفصل الثالث

الغلو العباسى

لم يكن العباس بن عبد المطلب من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وإن كان المؤرخون فى العهد العباسى قد حاولوا – ما وسعهم الأمر – أن يضفوا عليه الكثير من القدسية ، وأن يعتبروه ممن كتم إيمانه ليكون عيناً للرسول على كفار قريش وأنه قد فعل هذا باتفاق مع رسول الله ﷺ . غير أن من الثابت تاريخيًا أنه حضر موقعة بدر مع المشركين . وأنه أسر ومن عليه الرسول بالفداء . وإننا لنرى بعد كيف صاح عبد الله بن الحسن فى المنصور العباسى – وعبد الله تحت العذاب – « ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر » . وكان العباس بن عبد المطلب نديماً لأبى سفيان ، وقد أردفه على بغلته ، لكى يقابل الرسول قبل فتح مكة لينقذه من القتل .

ولا شك أن العباس أخلص للرسول سواء فى جاهليته – عصبية لبنى هاشم – أو فى إسلامه . وثبت مع الرسول يوم حنين حين تخلى عنه الناس وكان بجوار على بن أبى طالب يوم بيعة السقيفة . وكان يرى أن عليًا أحق الناس بالخلافة . ولكنه ظل مخلصاً للنظام الإسلامى فى ظل أبى بكر وعمر وتورد لنا الروايات أن عمراً استسقى به السماء ، فنزل المطر وسقى الناس . وهكذا عاش العباس – عم الرسول ﷺ – بعده .

وكان عبد الله ابنه – فيما تجمع المصادر السنية حبر الأمة وعالمها ، وكان أول مفسر للقرآن مصداقاً لدعوة الرسول « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » أما الشيعة فيعتبرونه من أصحاب على ، وأنه أخذ التفسير عنه ، ونحن نعلم أنه اختلف مع على بعض الاختلاف حين تصرف ابن عباس بأموال المسلمين ، وأنه عاد إلى الحجاز غاضباً ، وكان من أسباب خذلان على فى يوم التحكيم أنه لم يرسل عبد الله بن عباس لمفاوضة عمرو بن العاص يوم الحكمين بل بعث تحت إلحاح القراء من جيشه أبا موسى الأشعرى . ويبدو أن الشيعة نفسها بعد زمن طويل من التحكيم كانت تتدارس الأمر وترى كيف أخطأت حين نزلت على رأى طائفة من القراء انقلبوا بعد إلى الخوارج . وبعثوا أبا موسى . ويتضح هذا من سؤالهم لعبد الله بن عباس : ما منع عليًا أن يبعثك مكان أبى موسى فى يوم الحكمين ؟ فقال ابن عباس : منعه من ذلك حائل القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء . أما والله لو بعثنى مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ومبرماً لما نقض أسف إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ،

وبقى أسف ، ومع اليوم غداً ، وللآخرة خير للمتقين [١] .

وعاش عبد الله بن عباس بعد مقتل على فى حزن دائم مقيم ، يعنى فقط بالعلم الإسلامى من تفسير وفقه وحديث ، ووفد على معاوية – فيمن وفد من بنى هاشم ، ولكن لم تكن صلاته بالبيت الأموى صلات محبة ، بل صلة كاره مبغض مرغم ، ثم كره أشد الكره بيعة يزيد وإن كان قد بايع . ولكنه نصح الحسين بن على ألا يخرج إلى الكوفة ، وطلب منه أن يشخص إلى اليمن « فإنها فى عزلة ؛ ولك فيها أنصار وإخوان ؛ فأقم بها ، وبث دعاتك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالعراق » [٢] فالرجل كان داهية ، وذا عقلية سياسية مستنيرة ، ونراه يستخدم مصطلح الدعاة ، ولم يستمع إليه الحسين ، وقتل الحسين . ثم قامت فتنة الزبير – وقد ذكرنا من قبل كيف اختلف ابن الزبير مع محمد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس ، وكيف حبسها فى حجرة زمزم ، وكاد أن يحرقها ، حتى أنقذهما أبو عبد الله الجدلى من قبل المختار بن أبى عبيد [٣] ، ومات عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ وصلاته على خير ما يكون بالبيت العلوى . بل تميز أيضاً عبد الله بن عباس بصلات قوية بمحمد بن الحنفية وأولاده .

وكان على بن عبد الله أصغر أولاده ، ولكنه كان أعظم قدراً ، وكان على ، هذا – من دون أولاد عبد الله بن عباس – الجد الأكبر لخلفاء بنى العباس من بعد ، ولم يرد عن على بن عبد الله علم أو مشاركة فى السياسة اللهم إلا ما يذكر من أن أخواله من بنى كندة قد منعوه بعد الحرة من مسلم بن عقبة [٤] . فهل شارك على بن عبد الله فى حرب جيش يزيد ؟. ليس هناك إشارة إلى مشاركته فيها . ولكن يبدو أنه انتقل بعد استتباب الأمر للأمويين إلى الحميمة – وهى قرية بالشراة – صقع من أصقاع الشام فى طريق المدينة إلى دمشق .

وقد ذهب بعض المؤرخين كالكامل فى المبرد أنه كان يدعى « بالسجاد » وكان يدعى بذى الثفنات . لا شك أن هذه دعاية من العباسيين لكى يضعوه مقابلاً للإمام العلوى زيد بن على المشهور بالسجاد وبذى الثفنات . كما أعلن العباسيون أيضاً أن عليًّا بن أبى طالب هو الذى سماه عليًّا وكناه أبا الحسن ودعاه بأبى الأملاك ، بينا يذهب الواقدى إلى أنه ولد فى الليلة التى قتل فيها على بن أبى طالب . وقد مات محمد بن عبد الله بن العباس سنة ثمانى عشرة ومائة وقيل أربع عشرة ومائة أو ثمانى

---

(١) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٤ .

(٣) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) المسعودى : مروج ج ٣ ص ١٨ .

عشرة أو تسع عشرة (١) .

ويبدو أن الحركة العباسية لم تبدأ فى عهد على بن عبد الله . أو على الأقل لم يكن هو معنيًّا بها . ولكن قام ابنه محمد بن على بأمر الدعوة ، وبدأ بتنظيمها . وقد ذهب بعض المؤرخين كما قلنا من قبل إلى أن « الوصية » و « الإمامة » انتقلت إلى محمد بن على عن طريق غنوصى . فيذكرون أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية – سم وهو فى طريقه إلى فلسطين – بإيعاز من سليمان بن عبد الملك . وكان أبو هاشم أخطر رجال البيت الهاشمى ، ويبدو أنه كان يعد العدة لانقلاب كبير فلما علم سليمان – أرسل بعض رجاله – كما قلت من قبل – وانتظروه فى الطريق ودعوه إلى أخبيتهم وسقوه لبناً مسموماً ، فلما أحس أبو هاشم بالموت ، قال لمرافقيه : « ميلوا بى إلى ابن عمى محمد بن على بالحميمة من أرض الشراة » فلما قدم عليه قال له : يا ابن عم . أنا ميت وقد صرت إليك وهذه وصية أبى وفيها « أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك والوقت الذى يكون ذلك والعلامة . وما ينبغى لكم العمل به على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبى طالب عليه السلام . فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعاتك وأنصارك ، فاستبطنهم ، فإنى قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك . ثم هذا الرجل ميسرة فاجعله صاحبك بالعراق ، فأما الشام فليست لكم ببلاد ، وهؤلاء رسله إلى خراسان وإليك ، ولتكن دعوتكم بخراسان ... فإنى أرجو أن تتم دعوتكم ، ويظهر الله أموركم . واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية ثم عبد الله أخوه الذى أكبر منه . فإذا مضت سنة الحمار ، فوجه رسلك بكتبك ، ووطد الأمر قبل ذلك بلا رسول ولا حجة ... ثم اختر دعاتك ، فليكونوا اثنى عشر نقيباً . فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بنى إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم ، فإن النبى ﷺ إنما اتخذ اثنى عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك » . ولما سأله محمد بن على : يا أبا هاشم . . وما سنة الحمار؟ قال : لم يمض مائة من نبوة قط إلا انقضت أمورها لقول الله تعالى « أو كالذى مر على قرية ... الآية ، فإذا دخلت مائة سنة ، فابعث رسلك ودعاتك ، فإن الله متمم أمرك » (٢) .

تلك هى الوصية التى يذكر اليعقوبى أن أبا هاشم قد دفعها ، كما دفع وثائق الدعوة ، إلى محمد بن على قبل وفاة أبى هاشم عام ٩٧ هـ . ومن المحتمل أن أبا هاشم – وقد أحس بالموت يقترب منه بعد أن قدم له السم – أمر أتباعه بحمله إلى أقرب الناس إليه فى الشام وهو محمد بن على ، وأنه أفضى إليه قبل موته بأسرار الدعوة التى كان يقوم بها وتنظيماتها السرية ، ولكنى أشك فى صيغة الوصية وأسلوبها . فلم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٧٩–٥٨٣ .
وانظر اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ .. ص ٤٠–٤١ .

يكن أبو هاشم غنوصيًّا ، بل هو أقرب إلى المعتزلة ، ولم يكن أبو هاشم من السذاجة بأن ينقل الحق الشرعى لأولاد عمه الأقربين أولاد فاطمة إلى أولاد عمه البعيدين أولاد عبد الله بن عباس . إن الأرجح أنه ترك لهم وثائق الدعوة وتنظيماتها ، لكى يقوموا بها « للرضا من آل محمد » أى لأبناء فاطمة . وقد اتخذ أبوه من قبل نفسه درءاً لحركة المختار لكى ينتقم من قاتلى أخيه الحسين ، ولم يقحم ابن أخيه عليًّا زين العابدين فى أية حركة خوفاً عليه من المصير الذى لاقاه أبوه من قبل وإخوته فى سهل كربلاء . وقد ادعى الوصاية من أبى هاشم فرق متعددة كما ذكرنا من قبل ، بل انقسمت الكيسانية فرقاً ولكن أهمها كانت العباسية وسميت فيما بعد بالعباسية الراوندية . وقد ذهبت إلى أن أبا هاشم أوصى إلى محمد ابن على وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبى العباس السفاح [1] .

وكان محمد بن على العباسى من أذكى رجال التاريخ ، وأوتى حظًّا من البراعة والمهارة السياسية . فسرعان ما انتشرت بين الشيعة فى الكوفة وخراسان دعوته الغنوصية وأن الوصية انتقلت إليه عن طريق إمام علوى هو أبو هاشم .

وفى عام ١٠٠ هـ وإتباعاً لوصية أبى هاشم ، أرسل محمد بن على بن عبد الله بن عباس أكبر أتباع أبى هاشم ميسرة أبا رباح النبال مولى الأزد إلى العراق وأرسل محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان . يقول اليعقوبى « فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرسوا غرساً » [2] وقد كان هذا فى عهد عمر بن عبد العزيز . ولم يكن عمر بن عبد العزيز فى قسوة أسلافه ، فأحس المسلمون فى عهده ببعض الحرية ولكن حين تولى يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ هـ . بدأ مرة أخرى فى مراقبة الهاشميين ، فوجه والى خراسان سعيد بن عبد العزيز رسلاً لأبى رباح ميسرة داعية بنى هاشم متنكرين فى زى التجار ، فدعاهم وسألهم عن حالهم . فقالوا : نحن تجار . فخلى سبيلهم فخرجوا من خراسان وقد سرت الدعوة فيها سرياناً بطيئاً منظماً حتى قام سليمان بن كثير الخزاعى وبعض من رجاله يدعون إلى بنى هاشم سنة ١١١ هـ . وظهرت دعوتهم وكثر من أجابهم ، ثم قدم داعية آخر لمحمد بن على وهو بكير بن ماهان فأجابه كثير من الناس إلى خلع بنى أمية وبيعة بنى هاشم ، وكثر أشياعهم ، ثم حين حضرت ابن ماهان الوفاة استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم وزير آل محمد . وأرسل بكير إلى محمد بن على ، أنه استخلف أبا سلمة الخلال ، فأقره وكتب إلى أصحابه يأمرهم بالسمع والطاعة له ، فأجابوه جميعاً إلى ذلك [3] . ولكن خالد بن عبد الله القسرى

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣–٢٤٤ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ... ص ٥٠ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦٠ .

فى خلافة هشام بن عبد الملك أرسل أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان فأخذ جماعة منهم وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قتلهم ، فانتكست الحركة إلى حد ما ، وفى هذه الأثناء انضم إلى الحركة العباسية أبو مسلم الخراسانى .

وفى عام ١٢٥ هـ . قدم سليمان بن كثير وجماعة من وجوه الشيعة العباسية على محمد بن على ومعهم أبو مسلم الخراسانى ، فقال لهم محمد «لن تلقونى بعد وقتى هذا وأنا ميت فى سنتى هذه ، وصاحبكم ابنى إبراهيم مقتول» فإذا قضى الله فيه قضاءه فصاحبكم عبد الله بن الحارثية فإنه القائم بهذا الأمر وصاحب هذه الدعوة الذى يؤتيه الله الملك ، ويكون على يديه هلاك بنى أمية ، ثم خرج إليهم ابنه أبا العباس – حتى رأوه وقبلوا يديه ورجليه ثم قال لهم «إن عبد الرحمن صاحبكم – يعنى أبا مسلم – فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه القائم بهذه الدولة» [1] .

وهكذا جعل العباسيون من محمد بن على موازياً ومقابلاً لجعفر الصادق ، فإذا كانت الشيعة الإمامية يعتبرون جعفراً ملهماً ، وأن الله أطلق على لسانه كثيراً من الغيبيات ، فكذلك الشيعة العباسية أطلقت على لسان محمد بن على الكثير من هذه الأمور المغيبة .

ومات محمد بن على فى آخر سنة ١٢٥ هـ ، فلما بلغ وجوه شيعته وفاته ، قدموا على ابنه إبراهيم وبايعوه إماماً لهم ، وهو أول عباسى أطلق عليه لقب الإمام ، فكان يدعى إبراهيم الإمام . ونسب إليه شيعته العلم اللدنى ، والتنبؤ بالمستقبل . ولما ظهر أمر الدعوة قبض مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية على إبراهيم الإمام وحبسه بحران ، ولما علم إبراهيم أن مروان سيقتله ، أرسل مولاه سابقاً الخوارزمى إلى أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد بالوصية ، وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والنقباء وأمره بترك الحميمة بأرض الشراة وأن يتوجه إلى الكوفة فوراً .

وقتل إبراهيم الإمام عام ١٤٢ هـ وتوجه أبو العباس مسرعاً إلى الكوفة إلى وزير آل محمد أبى سلمة حفص بن سليمان . ولكن أبا سلمة كان يفكر فى واد آخر بعد وفاة إبراهيم الإمام ؛ كان عهده – فيما يبدو – لإبراهيم الإمام فقط . وكانت الدعوة «للرضا من آل محمد» وهذا يعنى لأبناء فاطمة فى نهاية الأمر . وخشى أبو سلمة من انتقاض أمر الشيعة – بعد وفاة إبراهيم الإمام . فحين وصل أبو العباس السفاح وأهل بيته أخفاهم فى الكوفة ، وراسل الإمام جعفراً الصادق وعبد الله الحسن . ورفض جعفر الصادق أن يكون له فى الأمر شىء وتلاحى مع عبد الله بن الحسن حين أراد الأخير أن يبايع آل بيت الرسول لأبنه محمد بن عبد الله – وبينما أبو سلمة فى انتظار رسله لجعفر الصادق ولمحمد بن عبد الله ،

(١) اليعقوبى : ج ٣ ص ٧٢ .

إذ بجماعة من شيعة خراسان يخرجون أبا العباس السفاح إلى مسجد الكوفة الجامع ويبايعونه بالخلافة ، ورضخ أبوسلمة وبايع .

ويتبين لنا من هذا أن شيعة خراسان آمنوا بالوصاية العباسية فحين علموا أن إبراهيم الإمام قد مات سألوا : لمن الوصية بعد؟ ! ! فلما علموا أنها لأبى العباس السفاح بايعوه فوراً .

ويتضح هذا الاتجاه السياسى – من خطبة داود بن على عم السفاح إمام الخليفة الجديد على منبر الكوفة « . . . إنه والله – أيها الناس ما وقف هذا الموقف بعد رسول الله ﷺ أولى به من على بن أبى طالب ، وهذا القائم خلفى » (١) .

وهذه هى النظرية العباسية الأولى فى الخلافة ، لا تعترف بالشيخين وإنما ترى أن الخلافة بعد رسول الله إنما كانت لعلى ، ويستند العباسيون الأوائل حتى عن الخليفة المهدى فى هذا إلى أن العباس نفسه طلب من على أن يمد يده ليبايعه قائلاً : « يا ابن أخى – هلم إلى أن أبايعك ، فلا يختلف عليك اثنان » .

غير أن الخليفة المهدى – محمد بن عبد الله بن جعفر المنصور – أعلن نظرية سياسية جديدة تنكر أحقية على وتنكر الوصية وتستند على الإرث . أنكر المهدى انتقال الإمامة للعباسيين عن هذا الطريق الغنوصى خلال محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم . بل قرر أن الإمامة بعد الرسول ﷺ كانت للعباس ابن عبد المطلب وكان العباس عمه ووارثه وأولى الناس به . والخلفاء الأربعة كانوا غاصبين متوثبين . فعقد المهدى الإمامة للعباس بن عبد المطلب ، وقد أنشد أحد شعراء العباسيين هذه النظرية الجديدة التى تستند على الإرث فقال :

أنى يكون وليس ذاك بكائن … لبنى البنات وراثة الأعمام

ثم عقدها المهدى بعد العباس لعبد الله بن العباس – عالم الأمة وحبرها ، ثم عقدها بعد عبد الله لابنه على المعروف « بالسجاد » عند العباسيين ، ثم لمحمد بن على ، ثم لإبراهيم « الإمام » وعقدها إبراهيم الإمام لأخيه عبد الله أبى العباس ، ثم لأخيه أبى جعفر المنصور ، ثم عقدت للمهدى نفسه (٢) .

ونحن نتساءل : ما الذى دفع المهدى إلى إعلان هذه النظرية الجديدة ؟ كان المهدى تقياً متديناً ، ونحن نعلم أنه تتبع الزنادقة ، وقتلهم حيثما كانوا ، كما تتبع الغلاة من المنصورية والخناقين ، وقتل الحسين بن منصور العجلى . ومن المرجح أن الفكرة الغنوصية التى تبنتها الكيسانية ومن خلالها نفذت

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٨٧ ، ٨٨ ؛ والمسعودى : مروج الذهب ج٣ ص١٨٥ .

(٢) النوبختى : الشيعة ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

إلى الدعوة العباسية أقلقت الرجل كثيراً ، فرأى فكرة انتقال الوصية إلى العباسيين خلال أسطورة العلم السرى المنسوب إلى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية إنما تشبه تماماً انتقال الوصية إلى أبى منصور العجلى وغيره من الغلاة ، وقد جعل هو حياته وقفاً على محاربة هذا الاتجاه الغنوصى ، فرأى ابتداع نظرية سياسية تستند على الفقه وتتلمس فيه مصدراً لأحقية البيت العباسى بتولى الخلافة . ووجد فى نظرية « الوراثة الإسلامية » مخرجاً له ومستنداً . فأقرب الناس إلى محمد ﷺ وأحقهم بوراثة الإمامة بعد الرسول هو عمه العباس لا ابن عمه على ولا أولاد فاطمة ، لأنه عمه ووارثه وعصبته ، لقول الله عز وجل « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (١) . ثم إذا أخذنا بمبدأ الوصية . فإن تولى المهدى للخلافة يكون بدون مسوغ ، لقد أوصى أبو العباس السفاح لأخيه المنصور ثم لابن أخيه عيسى ابن موسى من بعده ، ولكن المنصور ألغى هذه الوصية ، واستخلف ابنه المهدى . فكان لابد للمهدى من أن يضع نظرية تدعم خلافته ، وهى أن الخلافة « إرث » وهو وارثها عن أبيه ، مادامت أحقية الخلافة لمن هو أقرب الناس للخليفة ، فإن كان العباس بن عبد المطلب أقرب الناس للرسول وبالتالى هو أحق بالخلافة من على ، فالمهدى أقرب الناس للمنصور ، وهو أحق بالخلافة من عيسى بن موسى .

وقد انقسمت العباسية المعتدلة فعلاً فى أيام المهدى إلى فريقين : فريق آمن بتقديم المهدى وانضوى تحت إمامته ، وفريق آخر ثبت على إمامة عيسى بن موسى وأنكر إمامة المهدى ، وأجراها فى ولد عيسى (٢) .

وكان يجمع شيعة بنى العباس اسم الراوندية — ويبدو أن الراوندية نسبة إلى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندى الراوندى ، وكان يذهب إلى أن روح الله تناسخت فى الأنبياء والأئمة إلى أن انتهت إلى أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت إليه (٣) ، ويبدو أنه بعد وفاة عبد الله بن عمرو حرب انضم أتباعه إلى الكيسانية — والتفوا جميعاً حول الإمام العباسى ولكن غلب الاسم الراوندية على شيعة بنى العباس .

ويذهب المسعودى « إلى أن من تأخر من الراوندية وانتقل وتحير عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية — وهم الحريانية أصحاب أبى مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية — وكان يلقب بحريان — أن محمد بن الحنفية هو الإمام بعد على بن أبى طالب ، وأن محمداً أوصى إلى

(١) المسعودى : مروج ج ٣ ص ١٦٦ .
(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٠–٥١ .
(٣) البغدادى : الفرق ص ١٤٩ .

ابنه أبى هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى إلى على بن عبد الله بن العباس . . . إلى أن انتهت الوصاية إلى أبى عبد الله السفاح .

وهنا تقابلنا شخصية أبى مسلم الخراسانى . ولقد أحاط الغموض بهذه الشخصية الكبرى فى تاريخ الإسلام . هل هو أعجمى أم عربى أم كردى ؟ هل هو من نسل بنى العباس أنفسهم أى هل هو ابن لسليط بن عبد الله بن العباس أم هو مولى ؟ هل هو شخصية سياسية حربية ، أم هو وجه غنوصى استخدم الغنوص القاسى القائم المكبوت فى خراسان البعيدة عن موطن الخليفة دمشق . أم أنه كل هذا – وأنه استخدم التقاة من المسلمين ، كما استخدم الغنوص ، وجذب إليه العرب كما جذب إليها علوج العجم ، وخرج بهذا كله ليقضى على دولة بنى مروان ويقيم أعظم دولة عرفتها العصور الوسطى . وهى دولة العباسيين . وفعل كل ما أراد ، ثم مات ميتة دنيئة فى غدر وخسة على يد الخليفة الوحشى أبى جعفر المنصور بعد أن وطأ له ملكه ؟

إننا لا نرى غلوًّا فى أيامه أو حركات ناشزة فى خراسان أو عقائد غنوصية تظل ظاهرة باسمه . ولكن بعد موته ، قام بعض الراوندية وأعلنوا أن المنصور إله وأبا مسلم نبى ، وأنه يعلم سرهم ونجواهم . ولعلهم استندوا فى هذا إلى خطبة المنصور نفسه بعد مقتل أبى مسلم «أيها الناس لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه [١] ، وأعلنوا أيضاً أن أبا مسلم نبى مرسل ، ولما بلغ المنصور قولهم ، وقبض على جماعة منهم وطلب منهم التوبة أبوا وقالوا للمنصور ربنا يقتلنا شهداء ، كما قتل أنبياءه ورسله ؛ فقتل المنصور الكثيرين منهم [٢] .

ولكن تحركت فرقة «الأبى مسلمية أو المسلمية» فى خراسان على يد الخرمية – نسبة إلى خرم آباد قرية من قرى الرى كان يسكن فيها الغلاة – وأعلن البعض منهم أن أبا مسلم لم يمت ولن يموت ، بل سيظهر ويملأ الأرض عدلاً . وقطعت فرقة أخرى بموته ونادت بإمامة ابنته فاطمة بل وبتأليهها ويسمى هؤلاء بالفاطمية – اجتمعوا جميعاً تحت قيادة «يستفاد» أو «سنباذ» واستولوا على الرى فقاتلهم المنصور وقتل معظم جيش يستفاد عام ١٣٨ هـ [٣] . ثم قامت الأبومسلمية مرة أخرى بقيادة استاذيس . وقد قتل عام ١٤٩ وكان أيضاً خرميًّا .

ما هى آراء الخرمية ؟ ، يرى النوبختى أن بدء الغلو كان منهم ، وأن الكيسانية والعباسية والحارثية

---

(١) النوبختى : الشيعة ص ٥٢ المسعودى : مروج ج ٣ ص ٢١٩ .

(٢) النوبختى : فرق الشيعة ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) المسعودى : مروج ج ٣ ص ٣٢٠–٣٢١ .

انتهت إليهم . ويسميهم أحياناً الخرمدينية .

وقد أعلنوا أن الأئمة آلهة وأنهم أنبياء ورسل وملائكة . وأن الخرمية أول من تكلم فى الأظلة والتناسخ والدور فى هذه الدنيا . وأبطلوا العقائد الإسلامية – القيامة والبعث والحساب . وقالوا إنه لا دار إلا هذه الدنيا ، وفسروا القيامة بأنها خروج الروح من البدن ودخوله فى بدن آخر غيره ، إن خيراً فخيراً وإن شرًّا فشرًّا . وأنهم مسرورون فى هذه الأبدان أو معذبون فيها . وأن الأبدان هى الجنات وهى النار . الأولى هى الإثابة فى الأجسام الحسنة الإنسية المنعمة فى الحياة والثانية هى العذاب فى الأجسام الرديئة المشوهة من كلاب وقردة وخنازير وحيات وعقارب وخنافس ، محولين من بدن إلى بدن ، معذبين فيها هكذا أبد الأبد ، فهى الجنة والنار – «لا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار غير هذا على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأئمتهم ومعصيتهم لهم ، فإنما تسقط الأبدان وتخرب . إذ هى مساكنهم فتتلاشى الأبدان وتفنى وترجع الروح فى قالب آخر منعم أو معذب» ويرى النوبختى أن هذا هو معنى الرجعة عندهم ، فالأبدان قوالب ومساكن بمنزلة الثياب التى يلبسها الناس فتبلى وتطرح ويلبس غيرها وبمنزلة البيوت يعمرها الناس فإذا تركوها وعمروا غيرها ، خربت ، والثواب والعقاب على الأرواح دون الأجساد ثم تأولوا هذا كله فى ضوء القرآن – فأوردوا لتدعيم فكرتهم الآية «فى أى صورة ماشاء ركبك» وقوله تعالى : «وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم» وقوله «وإن من أمة إلا خلا فيها نذير» فجميع الحيوانات إذن من طير ودواب وسباع كانوا أمماً مصداقاً للآية القرآنية ، خلت فيهم النذر من الله تعالى ، واتخذ بهم عليهم الحجة ، فأما من كان صالحاً ، فقد جعل الله روحه بعد وفاته وإخراب قالبه وهدم مسكنه فى جسد صالح ، وهذا هو النعيم ، ومن كان منهم كافراً عاصياً ، نقل روحه إلى جسد خبيث مشوه يعذبه فيه بالدنيا ، وجعله فى أقبح صورة وأنتن رزق وأقذره . ولقد فعل الخرمدينية هذا فى ضوء التفسير الغنوصى للقرآن . فتأولوا الآية «فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمَن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربى أهانن» فكذب الله تعالى هؤلاء ، ورد عليهم فى قولهم لمعصيتهم إياه فقال : «كلا بل لا تكرمون اليتيم : واليتيم هو النبى ﷺ ، ولا تحاضون على طعام المسكين : وهو الإمام وتأكلون التراث أكلاً لما ، ولا تخرجون حق الإمام مما رزقكم وأجراه لكم [1] » .

وهكذا فسر الخرمية الآيات القرآنية ، تفسيراً غنوصيًّا بحتاً ، مازجين العقائد الثنوية القديمة – مانوية وديصانية وماندائية وبما تحتويها من عناصر أفلاطونية وفيثاغورية محدثة بالإسلام أو بالعقيدة الشيعية فى بنى العباس .

---

(١) النوبختى : الشيعة ص ٣٧–٣٨ .

ونلاحظ أن هذه الفرقة ميمية ، لأن عنصرها الأول الوجودى هو محمد ﷺ ، ثم تفرع عنه عمه العباس وأولاده حتى انتهى الأمر إلى أبى مسلم الخراسانى . ونلاحظ أيضاً أنه لا توجد هنا دعوى للألوهية ، وإنما هم يؤمنون فقط بالتناسخ ، ويسميهم الملطى أصحاب التناسخ ، ويعتبرهم فرقة من الحلولية ويفسر مذهبهم «بأن الله عز وجل نور على الأبدان والأماكن ، وأن أرواحهم متولدة من الله القديم ، وأن الجسد لباس لا روح فيه ولا ألم عليه ولا لذة له ، وأن الإنسان إذا فعل الخير ومات ، انتقلت روحه إلى حيوان ناعم ، يتنعم فيه ، ثم يرجع إلى جسم الإنسان بعد مدة ، وإذا فعل الشر ومات ، صارت روحه فى بدن حمار دبر أو كلب جرب يعذب فيه مدة ثم يعود إلى جسم الإنسان ، ولم تزل الدنيا هكذا ، ولا تزال تكون هكذا»[١] .

نستنتج من هذا أن الكيسانية تحولت فى خراسان إلى عباسية راوندية ، أى «العباسية الخلص» . ثم أتى الدعاة السريون من كل مكان واستخدمهم أبو مسلم الخراسانى – على مختلف مشاربهم ، ويجمعهم جميعاً اسم الراوندية – والمسودة «للبسهم السوداء» – وسار هذا الخليط ليقضى على بنى أمية . ولعل هذا ما دعا نصر بن سيار عامل مروان بن محمد على خراسان فى قصيدته المشهورة للخليفة مروان بن محمد فى حران ، أن يذكر أن الحركة ستقضى على العرب والإسلام ، وقد تبين له ما فيها من عقائد سرية غنوصية متناقضة ، وما يجمع جيش أبى مسلم من أجناس متعددة متباينة :

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى ... وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها تجن حرباً ... مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعرى ... أأيقاظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى ... على الإسلام والعرب السلام[٢]

وكان أبو مسلم الخراسانى واسطة العقد بين هؤلاء جميعاً ، فلما قتل أبو مسلم توزعت العباسية الراوندية : فجمهرة شيعة خراسان بقيت على ولائها للمنصور ، والرزامية – وأصل مذهبها الكيسانية فيما يقول النوبختى – أقامت على ولاية أسلافها وولاية أبى مسلم سرًّا[٣] .

ويرى البغدادى أنهم قوم بمرو أفرطوا فى ولاية أبى مسلم الخراسانى وأنهم اعتقدوا أن الإمامة انتقلت إليه بعد أبى العباس السفاح[٤] ويبدو أن أبا مسلم كان يغذى هذه الفرقة ويؤمن بآرائها «لأنهم ساقوا

---

(١) الملطى : التنبيه .. ص ٢٩ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٠٢ .
(٣) النوبختى : الشيعة ص ٣٧ – ٣٨
(٤) البغدادى : الفرق ص ١٥٥ .

الإمامة إليه » (١) ثم إن مجموعة الرزامية أقرت بقتله ، غير فرقة هى الأبو مسلمية تغالت فيه أشد الغلو وقالوا له حظ من الإمامة وأن روح الإله حلت فيه وأنه خير من جبرائيل وميكائيل وسائر الملائكة وهو حى لم يمت وهم على انتظاره . ويقول البغدادى « وهؤلاء بمرو وهراة يعرفون بالبركوكية ، فإذا سئل هؤلاء عن الذى قتله المنصور قالوا : كان شيطاناً تصور للناس فى صورة أبى مسلم » (٢) .

وقد تنبه الشهر ستانى إلى حقيقة أبى مسلم الخراسانى فيقول : « كان على مذهب الكيسانية فى الأول ، اقتبس من دعاتهم العلوم التى اختصوا بها ، وأحس منهم أن هذه العلوم مستودعة فيهم ، فطلب المستقر فيه » أى أنه تنبه إلى أن محمد بن الحنفية وأولاده ثم العباسيين من بعدهم كانوا الأئمة المستودعين ، وكان أولاد فاطمة ، هم الأئمة المستقرين فهل عرفت نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر وهى نظرية غالية – إبان ذلك الوقت ؟ وهناك رواية تذكر أن أبا مسلم أنفذ إلى الإمام جعفر الصادق « إنى قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاة بنى أميه إلى موالاة أهل البيت ، فإن رغبت فيه ، فلا مزيد عليك » فكتب إليه جعفر الصادق « ما أنت من رجالى ولا الزمان زمانى » . فحينئذ حاد إلى أبى العباس بن محمد وقلده الخلافة (٣) .

ونحن نعلم أن أبا سلمة الخلال – هو الذى فعل هذا ، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون أبو مسلم – وهو كيسانى فى حقيقته – قد فهم تماماً أن وصية أبى هاشم لمحمد بن على العباسى إنما كانت للدعوة « للرضا من آل محمد » أى لأبناء فاطمة وأن إبراهيم الإمام قد أسر بهذا لأبى مسلم ، وأن الدعاة السريين إنما كانوا « يدعون للرضا من آل محمد » وكان يفعل هذا أيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبى طالب ، معلناً أنه يدعو للرضا من آل محمد ، ثم استقل بنفسه . من المحتمل كثيراً أن الدعوة كانت تتركز حول الفواطم من أول الأمر ، فهل لعبت فكرة الإمام المستودع والإمام المستقر دورهما ؟ فالدعوة لإبراهيم الإمام المستودع ، حتى تنقل فيما بعد إلى الإمام المستقر سواء كان جعفراً الصادق أو غيره من أبناء فاطمة . وهل ظهرت حقاً هذه الفكرة فى حركة المختار ؟ فالمختار بن أبى عبيد كان يعمل باسم محمد بن الحنفية ، ولكن لتدعيم إمامة على زين العابدين فى آخر الأمر ، وقتل المختار قتلة الحسين باسم محمد بن الحنفية وحارب باسمه ، وذلك حفاظاً على البقية الباقية من أولاد فاطمة أن يمسهم سوء إذا ما فشلت الحركة ، ونحن نجد أيضاً صالح بن على يقتل بنى أمية ، ويعلن أنه يفعل هذا انتقاماً لمقتل الحسين بن على وزيد بن على بن الحسين فى حديثه مع ابنة مروان الكبرى (٤) . إننى أستبعد ظهور نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر إبان هذه الأوقات جميعاً . من المحتمل أن الفكرة – فكرة الإمام

---

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٥٥ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) المسعودى : ج ٣ ص ١٣ ص ٢٠٦ .

المستودع والإمام المستقر – قد تحققت صورتها ومادتها فى حركة المختار وفى حركة العباسيين ولكن بغير أن تصاغ هذه الصياغة المنهجية فى نظرية : كما كانت نظرية الإسماعيلية المتأخرة .

حقًّا إننا نرى أنه حين جمع عبد الله بن على الأمويين بنهر أبى فطرس بين فلسطين والأردن ، وعلموا أنه سيقتلهم جميعاً ، استعطفوه واسترحموه بالقرابة والرحم فقال «هيهات ، قطع ذلك قتل الحسين» (١) . ولكن العباسيين لم يكونوا أبداً عملاء لبنى فاطمة ، ولم يفكروا قطعاً فى نقل الخلافة إليهم ، فالحركة العباسية إذن إنما كانت فى أول الأمر تدعى أنها تعمل لبنى فاطمة تحت اسم الرضا من آل محمد ، ولكنهم استقلوا بالأمر دونهم فى آخر الأمر . من المحتمل كثيراً أن يكون أبو مسلم قد عرف هذا ، فلما رأى جعفراً الصادق يرفض الأمر ويأباه وتحول الأمر إلى بنى العباس ، رأى أن يدعو إلى نفسه ، وأن يمهد السبيل للأمر . وهذا سر ازدرائه لأبى جعفر المنصور فى حياة السفاح ، ولعله كان يأمل فى القيام بانقلاب فى خراسان يتولى به هو خلافة المسلمين ، ولكن المنصور كان من المهارة السياسية والحنكة بحيث تمكن من اغتياله ، ثم القضاء على حركة تابعيه سنباذ أو يستفاد واستاذيس (٢) . وبقيت الحركة كامنة . والغنوص يعمل فى أنحاء خراسان حتى ظهر فى أبشع صورة عند المقنع الخراسانى وفى عهد ابن المنصور الخليفة محمد بن عبد الله الملقب بالمهدى . وقد نسبت فرقة إليه فسميت بالمقنعية . وقد اختلف فى اسم المقنع ، فقيل هو عطاء وقيل هو هاشم بن حكيم المروزى كان قصاراً من أهل مرو . ويبدو أنه كان ينتمى إلى الرزامية فى بادئ الأمر – أى أنه كان كيسانيًّا كأبى مسلم والمقدسى يوضح هذا فيقول إن المقنع كان يؤمن بأن روح الله التى كانت فى آدم تحولت إلى آدم ثم تتابعت فى الأنبياء ثم تحولت إلى محمد بن الحنفية (٣) ثم إليه هو فهو كيسانى ثم اعتنق الرزامية وكان من دعاتها السريين ، وأخلص لأبى مسلم ، وقد تعلم المقنع العلوم السرية وكان من عادة الدعاة السريين معرفة الهندسة والحيل والنيرنجات والكيمياء (٤) .

وقتل أبو مسلم الخراسانى وبقى الرجل يبث دعوته فى عهد المنصور ، ولكنه خشى الظهور أو لم تكن دعوته قد نضجت حينئذ . ثم أعلنها ، يقول ابن خلكان إنه ادعى الربوبية على طريق المناسخة ، أى أن النور الإلهى حل فيه عن طريق التناسخ . أما هذا الطريق التناسخى فكان كالآتى : انتقل النور إلى صورة آدم – ولذلك قال الله للملائكة «اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى» فاستحق لذلك

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٩٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ١٠٤ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٦ ص ٩٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٥٧٣ ؛ والبيرونى : الآثار الباقية ص ٢١١ .

السخط ولم يتنبه المؤرخون المسلمون إلى أن هذه هى فكرة الخلافة المشهورة «إنى جاعل فى الأرض خليفة» ، وقد أثرت هذه الفكرة فى الصوفية الفلسفية ، وهى تستند أيضاً على الحديث الموضوع ذى الصبغة اليهودية «خلق الله آدم على صورته» وهى فكرة غنوصية مستمدة من فيلون الفيلسوف اليهودى . ثم أعلن المقنع أن الصورة الإلهية تحولت إلى نوح ثم إلى صورة واحد واحد من الأنبياء والحكماء «ولعل قوله بأن الروح تناسخت فى الحكماء» دليل على معرفته الواسعة بالفلسفة والغنوص – ثم يقرر أنها تحولت إلى صورة أبى مسلم ثم ظهرت فيه هو (١) .

أما البغدادى فيعرض المذهب فى صورة أخرى ، فيصله بالبيت العلوى . وأنه يزعم لأتباعه أنه هو الإله ، وإن كان قد تصور مرة فى صورة آدم ، ثم تصور فى وقت آخر بصورة نوح ، وفى وقت آخر بصورة إبراهيم ثم تردد فى صورة الأنبياء إلى محمد ، ثم تصور بعده فى صورة على ، وانتقل بعد ذلك فى صور أولاده ، ثم تصور بعد ذلك فى صورة أبى مسلم ، ثم إنه زعم أنه فى زمانه الذى كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم . وكان اسمه هشام بن حكيم . وقال : إنى إننا أنتقل فى الصور لأن عبادى لا يطيقون رؤيتى التى أنا عليها ، ومن رآنى احترق بنورى (٢) .

من الواضح إذن أنه لا يقول بألوهية هؤلاء ولا بألوهيته هو ، وإنما هو غنوصى يؤمن بالحقيقة المحمدية ، وأنها انتقلت من نبى إلى نبى ، حتى انتهت إليه ، وهى نظرية طالما رأيناها لدى غلاة الشيعة الغنوصيين ، ونراها فى نفس الصورة التى ظهرت عند المقنع لدى البهاء مؤسس البهائية الحديثة ، وقد تقنع هو أيضاً ، خوفاً على أتباعه من أن يحرقهم سبحات الوجه . فالمذهب إذن مزيج من فلسفة غنوصية ومسيحية ويهودية وإسلام .

ويرى ابن خلكان أن قوماً قبلوا دعواه وحاربوا دونه «مع ما عاينوا من عظيم ادعائه وقبح صورته ، لأنه كان مشوه الخلق أعوراً لكن قصيراً ، وكان لا يسفر عن وجهه ، بل اتخذ وجهاً من ذهب «فتقنع به ، فلذلك قيل له المقنع» ويرى أنه أثر فيهم بالسحر والشعوذة والتمويهات ، بل يبدو أن الرجل كان يستخدم الحيل الفلكية والهندسية ، بحيث صنع «قمراً» يطلع ويراه الناس من مسافة شهر من موضعه ، ثم يغيب فعظم اعتقادهم فيه» وقد ذكر هذا القمر أبو العلاء المعرى فقال :

أفق إنما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع

وكذلك ذكره سناء الملك :

إليك فما بدر المقنع طالعا بأسحر من ألحاظ بدر المعمم

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥٣ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وقد افتتن الناس به وأقبلوا على قريته بمرو «كازه كيمن دات» فبنى حصناً كبيراً بناحية كسن ونخشب يقال له سيام وأقبل إليه عدد كبير من أهل الصغد والأتراك الخلجية [١] ، واحتجب عن الناس كما قلت بقناع من ذهب أحياناً ومن حرير أحياناً أخرى وكون لأتباعه مجتمعاً إباحيًّا ، فحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات . وانضم إليه كثيرون من كفرة الأتراك الخلجية ودامت فتنته أربعة عشر عاماً يغير على المسلمين ويقتل ويسبي . وكان أتباعه يلبسون الملابس البيض ، وسمو بالمبيضة لتبييضهم ثيابهم مخالفة للمسودة من العباسيين .

وأرسل إليهم المهدى قائده معاذ بن مسلم فى سبعين ألفاً من المقاتلة ثم أتبعه بقائد آخر هو سعيد بن عمرو الجرشى فقاتلهم هذا الآخر سنوات قتالاً عنيفاً . وكان المقنع يحيط بحصنه خندق كبير ، وقاتل جنده من وراء خندقه ، ولما عبر المسلمون الخندق استأمن من جند المقنع ثلاثون ألفاً ، خلا من قتل من قبل ، ولما أحس المقنع بالنهاية ، جمع نساءه وسقاهم السم ، فتن منه ، أما هو فقد أحرق نفسه فى تنور كان قد أعده ، وأذاب النحاس مع القطران ، حتى ذاب فيه . وقد افتتن به أصحابه بعد ذلك حين لم يجدوا له جثة ولا تراباً . وزعموا أنه صعد إلى السماء .

ويرى البغدادى أنه حتى عصره هو – أى القرن الخامس الهجرى – كان أتباع المقنع ينتشرون فى جبال إيلاق بخراسان ، ولهم فى كل قرية من قرى خراسان مسجد لا يصلون فيه ، وهم يستحلون الميتة والخنزير ، وأنهم يعيشون معيشة إباحية ، فيستمتع الرجل منهم بامرأة غيره .

ويرى أيضاً أنهم يقتلون المسلمين خفية ، أى أنهم نوع من الخناقين . ولكنه يرى «أنهم مقهورون بعامة المسلمين فى ناحيتهم» [٢] .

ثم ظهر فيروز – حفيد أبى مسلم – ثم بابك وكان فى أرجح الأقوال من نسل أبى مسلم .

غير أن ابن النديم يعطينا صورة عن أبى مسلم الخراسانى تختلف عن صورة الرجل الذى يمالئ الغنوصية ويذهب إليها ، بل على العكس ، إنه يحاربها ويقضى عليها . فيخبرنا أنه ظهر فى صدر الدولة العباسية ، وقبل تولى أبى العباس السفاح للخلافة ، رجل يقال له فريد من قرية روى من أبر شهر ، وكان فريد مجوسيًّا «يصلى الصلوات الخمس بلا سجود ، متياسر عن القبلة أى أنه وضع صلاة خاصة ، وألغى الصلاة نحو القبلة ، ثم تكهن ودعا المجوس إلى مذهبه ، فاستجاب له خلق كثير . فوجه أبو مسلم الخراسانى – شبيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضا عليه الإسلام ، فأسلم وسود ،

(١) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٥٧٣ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٥٦ ، والبيرونى : الآثار ص ٢١٠

أى انضوى تحت لواء جيش أبى مسلم .ولكن أبا مسلم لم يقبل إسلامه لتكهنه فقتله . ويذكر ابن النديم أنه إلى وقته كان على مذهبه جماعة بخراسان .

ويذكر لنا ابن النديم أيضاً أن الأبا مسلمية هى من الاعتقادات التى حدثت بخراسان ، وأنها ظهرت بعد مقتله ، فقد حدث بعد قتل أبى مسلم أن هرب دعاته والملتفون به إلى مختلف البلاد ، معلنين إمامته وأنه ما زال حيًّا يرزق ويخص بالذكر منهم رجلاً يعرف بإسحق الترك ، فإنه رحل إلى بلاد ما وراء النهر ، وادعى أن أبا مسلم محبوس فى جبال الرى ، وأنه سيخرج فى وقت حدده لهم . محاكياً فى ذلك لقول الكيسانية فى محمد بن الحنفية .

ويذكر ابن النديم أنه إسحق الترك هذا ، فى بعض الروايات علوى من ولد يحيى بن على ، وأنه خرج إلى بلاد الترك فاراً من بنى أمية ، ثم تستر بمذهب الأبى مسلمية ، وفى روايات أخرى أنه رجل من وراء النهر ، وكان أميًّا ، وله تابع من الجن ، فكان إذا سئل عن شىء ، أجاب بعد ليلة ، فلما قتل أبو مسلم ، دعا الناس إليه ثم تحول إلى الزرادشتية ، وادعى أن «زرادشت حى» «وأصحابه يعتقدون أنه حى لا يموت ، وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم ، وهذا من أسرار الأبى مسلمية» فكأن هذه الروايات الأخيرة تقول إن الأبا مسلمية هى بقايا المجوس من زرادشتية ومزدكية [1] .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٦ .

البَابُ السَّابعُ

الإسماعيلية

الفصل الأول

الإسماعيلية الأولى

كانت الإسماعيلية هى المنحنى الأكبر الخطير للشيعة الإمامية ، وإحدى الضربات القاصمة التى وجهت للمذهب الإمامى المتطور إلى اثنى عشرى . حقًّا إن الإسماعيلية كانت تجد مادتها من الأتباع من شيعة الاثنى عشرية ، الذين كانوا يفضلون إماماً حيًّا ذا حجج ودعاة ويعمل للدنيا من إمام مختف فى سرداب ، ينتظرون قيامه بدون أمل كبير ، كما كانوا يفضلون عقائده السرية ونظامه الغنوصى أكثر من عقيدة فى معظمها ظاهرية ، تقترب فى عباداتها وطقوسها من عقائد أعدائهم اللد : أهل السنة والجماعة .

ولقد تعددت الأقوال فى الإسماعيلية ، أصلها ومنشئها أئمتها وحججها ، دعاتها وجزائرها — إذا تكلمنا بالأسلوب الإسماعيلى ، هل هى دعوة إسلامية تدخل فى نحل المسلمين وفرقهم ؟ أم هى ملة جديدة انفصلت عن الإسلام نهائيًّا ، وكونت دينا جديداً ؟ .

وإذا كانت الكيسانية — شيعة محمد بن الحنفية القديمة — قد أنشأت دولة — هى الدولة العباسية — مستندة على أحقية رجل من بنى هاشم فى الخلافة — هو العباس بن عبد المطلب وإذا كانت الزيدية — قد أنشأت دولة — هى دولة الزيود — فى اليمن — مستندة على أحقية أئمة زيديين ينتسبون إلى أولاد الحسن فإن الإسماعيلية أنشأت — خلال جهاد ودعوة صابرة مريرة — دولة الفواطم فى مصر ، مستندة إن حقًّا وإن باطلاً على أئمة ينتسبون إلى فاطمة الزهراء . أما الشيعة الاثنى عشرية فلم تنشئ دولة قام بها أحد أئمتهم ، لأن الإمام الأخير انتهى عقبه ، أو اختفى ليعود فى آخر الزمان .

وإذا كان المذهب الإمامى يعلن أنه ينبثق من جعفر الصادق ، وينتسب إليه ، والمذهب الاثنى عشرى يعلن — إن حقًّا وإن باطلاً — أنه صدر من الإمام والأئمة من قبله ، والأئمة من بعده ، عن لسانهم وبشروا به فى آثارهم ، فإن الإسماعيلية — ناقضة لكل هذا — تستند أيضاً على هذا الإمام جعفر الصادق ، معلنة أنه هو الذى أنشأ الدعوة الإسماعيلية ونظمها ووضع أصولها وأن سياسته البعيدة المرمى هى التى مكنت لها النجاح الكامل فى اليمن وفى المغرب ثم فى مصر.

ولكى نتفهم العلل التى أدت إلى قيام الإسماعيلية ، علينا أن نعرض فى إيجاز للخطوط الرئيسية ، وهى التى تكلمنا عنها من قبل ، للحركات الشيعية حول جعفر الصادق ، وفى صدر الدولة العباسية .

كانت الشيعة الحسنية تحارب بعنف بالغ الدولة العباسية ، وقد سقطت صرعى لضربات المنصور وخلفائه من بعده فى المدينة والبصرة وفخ وغيرها ، وقد صدقت فراسة جعفر الصادق فى إيمانه بأن حركة الحسنيين ستنتهى إلى كارثة مدمرة لهم ، ولا شك أن أتباع الحسنيين أو الكثيرين منهم عادوا إلى حظيرته ، وفر البعض منهم إلى اليمن وغيرها وأنشأوا دويلات زيدية . أما الشيعة الكيسانية ، فقد رأينا كيف كونت هى فى مجموعها الراوندية ، وانفصلت الراوندية نهائيًا عن البيت العلوى ، ولكن بقيت من الكيسانية بقية كبيرة تؤمن بإمامة محمد بن الحنفية . وكانت مجالاً لغنوص كبير . وسنرى أنه بعد فشل ثورات الكيسانية المتعددة أنهم عادوا إلى سواد الكوفة ، وعاشوا فيها ، وظهر منهم حمدان قرمط ، وسيكون أكبر عون للحركة الإسماعيلية [1] ، مدة من الزمن ثم ينقلب عليها ويعود لعقيدة الكيسانية .

وبجانب هؤلاء جميعاً من حسنية وراوندية وأبى هاشمية وأبى مسلمية ظهرت الخطابية متعلقة بأذيال الإمام العظيم نفسه .

وفى هذا المعترك العنيف كان جعفر الصادق « نسل النبوة العظيم ، وعلى هدى أسلافه الأطهار ، قابضاً على كتاب الله وسنة رسول الله ، يؤدى رسالته الروحية للمسلمين جميعاً ولشيعته على وجه الخصوص ، عاملاً بكل جهده على تنقية عقيدة مريديه وأتباعه من أى مذهب خارج عن الإسلام » محارباً للغنوص فى جميع مظاهره ؛ ومجالداً أشد وأشد للطمع الدنيوى فى نفوس كثيرين من الحسنيين والزيود ، كان جعفر الصادق يمثل الأسرة النبوية أعظم تمثيل ، ويضرب المثل الأعلى لما يكون عليه الأثر الباقى لعترة رسول الله وابن فاطمة الزهراء ، فنأى بنفسه عن خلافات الدنيا ، مدعماً فقط لإمامته الروحية للمسلمين بل إن عدوه اللدود أبا جعفر المنصور يقول حين بلغه موت الإمام : إن جعفراً كان ممن قال الله فيه « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات [2] .

ولكن الرجل كان يعانى أزمة داخلية تمس أشد المساس حياته كأب وكإمام للمسلمين فى الآن عينه . كان الإمام جعفر يعد ابنه الأكبر إسماعيل – وكان يعرف بإسماعيل الأعرج – للإمامة الروحية

(١) الدكتوران حسن ابراهيم ، وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٣ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . . ج ٣ ص ١١٧ .

للمسلمين من بعده ، وكان الإمام يحب ابنه حبًّا جما ، كما يحب الرجل ابنه الأكبر .

وقد وردت بعض الأخبار التاريخية أن إسماعيل اتصل بالغلاة ، وبخاصة الخطابية أو أن الغلاة اتصلوا به ، وقد وردت بعض الروايات أيضاً أن إسماعيل شرب الخمر ، فأسقط أبوه إمامته فى حياته . أما أنه اتصل بالغلاة ، ليعد الأمر لنفسه ولأولاده من بعده . فأنا أشك كل الشك فى هذا ، فإن محبة الإمام لإسماعيل وحدبه عليه وجزعه لوفاته يدل دلالة واضحة على أن الابن كان بريئاً مما اتهم به بعد من غلو ، أو بما ألصقه به بعض المتأخرين من تهمة شرب الخمر ، حتى يحلوا لأنفسهم هذا الشرب بدعوى أن الإمام وأتباعه لا يخضعون للتكاليف الشرعية . وقد نسب إلى إسماعيل مزاملته وصداقته للمفضل بن عمر الجعفى الصيرفى ، وأورد الكشى أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل بن عمر الجعفى الصيرفى ، وأورد الكشى أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل لابنه إسماعيل وأنه قال له : ياكافر يا مشرك – مالك ولابنى – تريد أن تقتله »[1] ولاشك فى هذا فقد كان المفضل الصيرفى من أجل أصحاب الصادق ، ثم تابع أبا الخطاب وكون فرقة . ولكن ما لبث أن تحول إلى موسى الكاظم وخدمه . وكتب كتاب توحيد المفضل . وهو من أحسن من كتب فى الرد على الدهرية [2]

ويبدو أن الغلاة اتصلوا بإسماعيل ، وذلك حين غضب عليه أبوه ، وأنهم حاولوا التأثير فيه وجذبه إلى صفوفهم وكان إسماعيل فى ميعة الصبا ، وكما خدع فيهم أبوه من قبل ، خدع أيضاً ، فلما تدخل أبوه ، خلص منهم ، وعاد إلى رحابه كاملاً ، أما قصة شربة الخمر ، فهى قصة متهافتة . وقد أورد بعض كتاب الإمامية القصة للقدح فى أحقية إسماعيل للإمامية . ووردت على هذه الصورة الآتية قال عنبسة الناووسى : «كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، فى باب الخليفة أبى جعفر بالحيرة حين أتى ببسام – وكان غالياً – وإسماعيل بن جعفر بن محمد فأدخلا على أبى جعفر ، فأخرج بسام مقتولاً ، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فرفع جعفر رأسه إليه وقال . أفعلتها يا فاسق ؟ أبشر بالنار ! » وواضح تماماً أن القصة موضوعة ، فلم يكن أبو جعفر المنصور من الكرم النفسى مع جعفر الصادق ، بحيث لا يهتبل تلك الفرصة النادرة ، ويقتل إسماعيل باسم الشريعة ، وبخاصة أنه أتى به إليه فى صحبة غال زنديق . وكان جعفر الصادق «شجا» فى حلق المنصور على حد تعبيره هو ، يتخوف منه الخوائف ويتربص به الدوائر .

أما الامامية الاثنا عشرية فى مجموعها فقد اعتبرته رجلاً صالحاً «وكان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام» أى ممن أخذ عنه ، وكان أبوه شديد المحبة والبر به . وترى أن البعض من أتباع

---

(١) الكشى : ٢٠٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٣ والبغدادى : الفرق ص ٢٣٦ .

الإمام كانوا يعتقدون فى حياة أبيه «أنه القائم بعده والخليفة له دائماً . فلما مات فى حياة أبيه ، حزن الإمام حزناً شديداً «وتقدم إلى سريره بغير حذاء ولا رداء» ثم لما حمل إلى البقيع أمر أبوه مراراً أن يوضع نعشه على الأرض . قبل دفنه – حتى يتحقق الناس من وفاته ، ويقطع الطريق على من ظنوا خلاف ذلك.(١) .

وكأن جعفراً خشى أن ينتقص الأمر بعد على ابنه موسى أو أن يقول بعض الناس بمهدية إسماعيل ، وكانت الفكرة منتشرة والغلو ذائعاً . ولكن لم يمنع ما فعله جعفر من أن تقوم الإسماعيلية «الخالصة» على حد تعبير النوبختى . فكان إسماعيل لديهم الإمام السابع .

وقد عللوا هذا بأنه ابن الصادق الأكبر المنصوص عليه فى بدء الأمر وأن أمه فاطمة بنت الحسين ابن الحسن بن على بن أبى طالب ، فهى فاطمة علوية أيضاً . ولم يتزوج الإمام جعفر الصادق على أمه بواحدة من النساء – ولا تسرى عليها ، كسنة رسول الله ﷺ فى خديجة ، وكسنة على فى فاطمة .

أما عن موته فقد اختلفت الإسماعيلية الأولى ، فالبعض منهم أقر بموته . إنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة ، كما نص موسى على هارون ، ثم مات هارون فى حياة أخيه . فانتقلت الوصاية بعد موت موسى إلى أولاد هارون ، فنص عليه لكى تكون لأولاده «فإن النص لا يرجع قهقرى (٢) والقول بالبداء محال . وأورد الإسماعيلية قول الصادق «إن البداء والمشيئة لله إلى كل شىء إلا فى الإمام» (٣) ثم إن الإمام لا ينص على واحد من ولده إلا بالسماع من آبائه ، والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة . والإمامية لا تنتقل من أخ لأخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا فى الأعقاب ولم يكن لأخوى إسماعيل ، عبد الله وموسى حق فى الإمامة كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع على بن الحسين (٤) .

أما من قالوا بأنه لم يمت ، فإنهم عللوا هذا بأن جعفراً الصادق أظهر موته تقية عليه ، حتى لا يقصده أبو جعفر المنصور بالقتل . وأنه قال «لو جاءكم أحد بدماغ ابنى هذا «إسماعيل» فلا تشكوا أنه الإمام من بعدى» وكان يقول : «هذا هو الإمام من بعدى . فما أخذتموه عنه ، فهو عنى» (٥) وأنه فتح عينيه وحركها وهو على فراش الموت ، وأن إسماعيل رؤى بالبصرة عام ١٥١ ومر على مقعد ، فدعا له ، فشفاه بإذن الله . وهم ينسبون له معجزات المسيح» ويرى الإسماعيليون فيما بعد أنه قد فعل

(١) النوبختى : الشيعة ص ٦٧ هامش (٢) .
(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٣٠–٣٣١ .
(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .
(٤) النوبختى : الشيعة ص ٦٨–٦٩ .
(٥) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .

هذا إعجازاً للخلائق ؛ بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة فى عقبة الطاهرين من بيته لأن تتم الحكمة ، وتتصل إلى الخلاق رحمة وتكمل الحجة ، وتتم النعمة » فنسبوا إليه إذن الغيبة – غيب شخصه فى حياة أبيه سرًّا من أعدائه ومحنة لأوليائه » (١) .

ولما رفع إلى المنصور بأن إسماعيل مازال حيًّا، أرسل إلى جعفر الصادق يخبره أن إسماعيل فى الأحياء ، وأنكر جعفر هذا ، وأنفذ السجل إليه ، وعليه شهادة عامله أى عامل المنصور على المدينة . ويتساءل الإسماعيلية « ما السبب فى الإشهاد على موته ، وكتب المحضر عليه ، ولم نعهد ميتاً سجل على موته » (٢) .

ويريد الإسماعيلية بهذا أن جعفراً فعله تقية ، حتى لا يعرض ابنه للقتل . وفى الحق أن جعفراً فعل هذا خوفاً من ادعاء الغلاة بغيبته ورجعته . لا خوفاً عليه من المنصور .

وسرعان ما نادى قوم – من خواص إسماعيل بالمدينة – بعد وفاة الإمام جعفر بمهديته (٣) ، وبخاصة أن ابنه الأكبر – عبد الله الأفطح – لم يكن على علم وفقه ، ثم توفى بعد سبعين يوماً من وفاة الإمام ، وتحولت جماهير الشيعة إلى موسى الابن الأصغر الذى عرف باسم الكاظم ، هنا ظهر المبارك – خادم إسماعيل – والمبارك شخصية غامضة – قيل إنه حجازى – وأنه كان خادماً لمحمد بن إسماعيل . وأنه كان يجيد نوعاً من الخط انتشر فى هذه الأيام يسمى مقرمط . ولذلك عرف باسم قرمطويه . وسنجد حين بحثنا للقرامطة أن هذا خطأ . وأن قرمطويه شخص آخر من أتباع المبارك . وقيل إنه كوفى ومن المحتمل أن يكون هو محمد بن إسماعيل . وعلى أية حال فقد ظهرت المباركية وهى الفرقة الأولى الموسومة باسم الإسماعيلية ، ومن الواضح أنها ليست فرقة غالية والبغدادى يذكرها من بين فرق الشيعة غير الغالية ويقول إن المباركية تريد الإمامة فى ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر كدعوى الباطنية فيه .

ويبدو أن الرجل – إن صح وجوده – كان خادماً مخلصاً لإسماعيل وكان يحبه ، كما كان يحب ابنه محمداً . فلما مات الإمام جعفر عمل على تثبيت الإمامة لابن سيده – محمد – ، ومن المحتمل أنه اتصل بالغلاة بالكوفة ، وبخاصة أنه كان كوفيًّا ليقوى الدعوة الجديدة . وقد بقيت اسم المباركية فى التاريخ ، مختلطة أحياناً باسم الإسماعيلية الحديثة وأحياناً أخرى باسم الباطنية . وما زال للمباركية أنصارها فى سلطان بوهر الحالى وأتباعه الإسماعيلية ، وهم يسمون أحياناً بالمباركية .

والاسم الثانى الذى يختلط باسم منشئ الإسماعيلية هو اسم أبى الخطاب الأسدى . وقد رأينا من

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٤٩ .
(٢) الشهرستانى : الملل.. ج ١ ص ٣٣١ .
(٣) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ .

قبل أن أبا الخطاب لقب بكنية أبي إسماعيل ، وفى هذا دليل على الصلة بين أبى الخطاب وإسماعيل ، وأن تلقيبه بهذه الكنية – إنما معناه أن الخطابية أصل للإسماعيلية ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن أبا الخطاب – فى الفترة الثانية من حياته ، وبعد تبرؤ الإمام جعفر منه ، وتبرؤ إسماعيل أيضاً – قد نقل الإمامة إلى نفسه كما يقول ماسينيون باعتبار أن الاختيار الإلهى بالتبنى الروحى هو وحده المعتبر. قد تكون فكرة التبنى الروحى الخطابية ملهمة للقداحية – فيما بعد – حينما سلبوا – فى رأى أغلب مفكرى أهل السنة – آل محمد – الإمامة أو النبوة والألوهية ونسبوها إلى أنفسهم ، ولكنها لم تكن أبداً فى هذا الوقت المبكر سنداً لفكرة الإسماعيلية ، ولاشك أن الكثير من أصول الخطابية قد دخلت فى عقائد الإسماعيلية فيما بعد ، ولكن تم هذا بعد مقتل أبى الخطاب ، واعتناق كثير من أتباعه للإسماعيلية فى عهد عبد الله بن ميمون القداح . وقد لاحظ ماسينيون أننا نستطيع أن نربط بين فكرة السين عند أبى الخطاب الأسدى وبين فهم الإسماعيلية للدور الذى قام به سلمان حين حمل القرآن كله إلى محمد . فأبو الخطاب – عند ماسينيون – هو أول من فهم دور السين – دور سلمان – حين حاول أن يحققه فى نفسه .

ثم أتت الإسماعيلية وفهمت نفس هذا الدور . والإسماعيلية مسلمون يؤمنون بالوحى على نحو خاص فيه يستبدل بإملاء ملك خفى تعليماً ينتقل من نفس إلى نفس ، نقله بامر الله إلى النبى صاحبه سلمان ، فسلمان هو الملك جبريل ، وهو الاسم الذى أطلق على سلمان باعتباره حامل الرسالة الإلهية . فهو إذن سبب الشد والتلقين [١] .

وقد قلت من قبل إن هذا هو تفسير ماسينيون لموقف أبى الخطاب أولاً ، ثم لاعتباره ثانياً سلفاً للإسماعيلية ، أومؤسساً لها . ولكنه لا يصور الواقع أبداً .

إن الوضع الحقيقى للمسألة أن الخطابية بعد مقتل رئيسها توزعت . دخل البعض فى طائفة الخناقين ، ودخل البعض الثانى فى الكيسانية ، ودخل البعض الثالث فى الإسماعيلية أو الائتمام بإمامة محمد بن إسماعيل . ولعل البعض الثالث هذا كان أكثر الخطابية .

ولذلك نرى أبا خلف القمى يقول «فأما الإسماعيلية فهم الخطابية أصحاب أبى الخطاب بن أبى زينب الأسدى الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة فى فرقة محمد بن إسماعيل ، وأقروا بموت إسماعيل ابن جعفر» [٢] .

ولكن انتشار الدعوة لإسماعيل ثم لابنه إنما بدأت على يد مولى لجعفر الصادق هو ميمون القداح

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٣٣ (ترجمة عبدالرحمن بدوى) .
(٢) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٦٩ .

وابنه عبد الله بن ميمون وذهبت بعض المصادر إلى أنهما كانا تلميذين لأبى الخطاب . وهذا محتمل ؛ ولكن يبدو أن صلتهما به قد انقطعت حين تبرأ منه الإمام جعفر . وقد اتهمت دوائر أهل السنة والجماعة الاثنين بأنهما ديصانيان ، وأن ميمونا هو ابن ديصان بن سعيد غضبان ، وقيل إنهما يهوديان ، وأنهما أنشآ المذهب الإسماعيلى للقضاء على الإسلام . وهذا خطأ كبير فميمون القداح كان مولى للباقر وجعفر الصادق ، ووثق به الإمام الأخير ، وكان من رواة حديثه ، ويبدو أنه اختص بإسماعيل وأحبه ، ثم اختص بابنه محمد بن إسماعيل .

ويبدو أن ميموناً — وقد عاش فى هذا الوسط العلمى وتتلمذ على شيخى المذهب الإماميين الكبيرين الباقر والصادق — كان على علم نفاذ وحنكة سياسية ، وأخذ ينتقل مع إمامه محمد بن إسماعيل إلى طبرستان وغيرها متخذاً نفسه حجة له ، وقد قبض المنصور فى أواخر أيامه على ميمون وسجنه ، وفى السجن اجتمع مع جماعة من وجوه الشيعة ، واتفقوا على نشر المذهب بعد خروجهم من السجن [1] .

ويقول ابن الأثير . إنهم تفرقوا فى البلاد ، وتعلموا الشعبذة والسحر والنجوم والكيمياء فهم يحتالون على كل قوم بما يتفق عليهم ، ويخدعون العامة بإظهار الزهد والتقشف .

وخرج ميمون من السجن واجتمع بإمامه محمد بن إسماعيل مرة ثانية منتقلاً معه من مكان إلى مكان ، ويقال إنه ذهب إلى فلسطين ، وهناك أظهر النسك والتعبد ، ثم قصد إلى سورية وطبرستان ، وقيل أيضاً إنهما ذهبا إلى بلاد الروم [2] ، وقد نشأت فكرة غيبة محمد بن إسماعيل هناك . وفى كل مكان كان يجمع حوله فلول المباركية والخطابية والجعفرية ، ويعد العدة للمذهب الجديد .

ويذكر المؤرخون السنيون أن له كتاب «الميزان» وأنه كتب هذا الكتاب فى نصرة الزندقة . وهذا مستبعد جدًّا فلم يكن الرجل زنديقاً أو ديصانيًّا ، فى أول أمره على الأقل . بل كان أولاً — وبالذات — من محبى ومتشيعى إسماعيل بن جعفر وابنه ثم من المحتمل — وقد كان الرجل عارفاً بالمذاهب الفلسفية والغنوصية والأديان — أنه كان يحاول تدعيم إمامة إسماعيل وابنه بمختلف العناصر الفلسفية وبخاصة أنه تتلمذ مدة على أبى الخطاب . وإن كنا نلحظ أن الإمام جعفراً الصادق لم يتبرأ منه فى حياته بل كان يثق فيه ، وقد جعله قيماً على حفيده ، وكان أيضاً من رواته ورواة أبيه ، ولم يرد عن جعفر الصادق حتى موته ما يقدح فيه ، كل هذا يجعلنا نتوقف كثيراً فى الحكم على الرجل بالزندقة أو بالديصانية . من المحتمل أن يكون الكتاب فى التأويل الباطنى ، وأنه أخذ يؤول الآيات القرآنية بما يتفق مع عقيدته فى إمامة إسماعيل وابنه محمد . وأن يسبغ عليهما القداسة التى أضفتها الإمامية على أئمتها ، وأنه تغالى إلى

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٦٩ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم ، والدكتور طه شرف : عبيدالله المهدى ص ٤٨ .

حد كبير فى فضائل هذين الإمامين . والغلو فى الأئمة خروج على الإسلام فعلاً – نصه وروحه – ولكنه يختلف عن الديصانية الخالصة أو الزندقة الخالصة ، وإن كان هذا النوع من الغلو أشد خطراً على الإسلام ووحدته من كل ثنوى سافر .

وأخيراً . إلى من كان ينتسب ميمون ؟ . . ذكر بعض الباحثين أن ميموناً كان مولى لجعفر الصادق ، وأنه كان يسمى ميموناً القداح المكى ، وأحياناً ينسب إلى الأهواز فيقال له الأهوازى . وأحياناً ينتسب إلى عقيل بن أبى طالب ، أو إلى باهلة ومرة يعلن أنه من نسل سلمان الفارسى . أما كونه مكيًّا أو أهوازيًّا أو ينتسب ولاء إلى عقيل بن أبى طالب ؛ فمن السهولة بمكان تفسيره . أما ادعاؤه أنه من نسل سلمان الفارسى ، فقد ظن كثيرون من الباحثين أنه يدعى أنه من نسل الصحابى الكبير دماً . وهذا خطأ . إن ما يقصده ميمون أنه لصلته بالإمامين الباقر والصادق ثم بإسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل ولوصاية جعفر الصادق له أن يكون قيماً على حفيده محمد بن إسماعيل ، فهو من آل البيت ، كما قال رسول الله ﷺ لسلمان « أنت منا آل البيت » فهو من نسل سلمان الروحى ، وعلى مثاله ونسقه ، ولم يتنبه ماسينيون إلى هذا ، ولعله إن فعل ، لوضعه فى فرق السين ، غير أن ميموناً لم يعلن أنه حامل القرآن – كما ادعت الإسماعيلية فيما بعد ، ولا أنه سبب الشد والتلقين ، ولا أنه رسول أو نبى . وإنما أعلن أنه حجة الإمام محمد بن إسماعيل ونائبه ، وداعيه .

وأخيراً – إن الصورة التى قدمتها مختلف الفرق لميمون القداح : أنه كان محدثاً شيعياً عند الإمامية ، حجة ونائباً وستراً للإمام محمد بن إسماعيل عند الإسماعيلية ، ثنويًّا ديصانيًّا عند أهل السنة والجماعة . بل لقد ذهبوا إلى أن ميمون القداح هو أبو شاكر ميمون الديصانى . أما الصورة المتكاملة له : أنه كان محدثاً وراوياً ومولى لجعفر الصادق ، أحبه الإمام واحتضنه واعتبره من آل البيت ولاء ، كما فعل جعفر مع أبى الخطاب ثم إن ميموناً كان من تلامذة أبى الخطاب . وقد ارتبط ميمون بإسماعيل الابن الأكبر للإمام ، وكان للابن من الفضائل النفسية والروحية والعلمية ما جذب إليه مولى أبيه ، ثم جعله الإمام جعفر وصيًّا على حفيده ، ولما انتقل جعفر إلى جوار ربه ، نقل ميمون الإمامة لمحمد بن إسماعيل ، وبدأ ينشر الدعوة له ، ثم انتقل معه من مكان إلى مكان ، وأخذ يضع أصول الدعوة محتملاً السجن والاضطهاد والتشريد .

ومن الملاحظ أنه لم يتعرض لهجمات الإمامية كما تعرض أبو الخطاب الأسدى ، ولم يحاول الرجل تقويض دعائم الإسلام – كما ذهب مؤرخو العقائد الإسلامية من أهل السنة – فلم يعمل على وضع مذهب باطنى يخرج المسلم من إسلامه كلية ، إنما كان يضع المذهب الإسماعيلى ، وفى المذهب – وهو يكافح السلطان نواح باطنية بلا شك ، ولم يكن يرمى إلى سلخ المسلمين باطنيًّا من العقيدة الإسلامية

بل إلى سلخهم من عقيدتى أهل السنة والجماعة ومن عقيدة الإمامية . وقد لجأ إلى منهج التأويل وكان محمد بن إسماعيل أيضاً من أئمة مذهب التأويل . ولعل كتابه الميزان إنما كان فى التأويل القرآنى .

ومات ميمون بعد عام ١٩٨ هـ – فيما يرجح – أى بعد وفاة محمد بن إسماعيل وتذهب روايات أهل السنة إلى أن محمد بن إسماعيل مات بدون عقب ، وأن ميموناً القداح أدعى أن محمد والد ابنه هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن الصعوبة بمكان أن نجزم بهذا .

وأخيراً – أن هذا القداح – والقداحة هى تطبيب العين من الماء النازل بها ، وهو نوع من طب العيون انتشر فى ذلك العصر – قد وضع البذرة الأولى لحركة من أكبر حركات التاريخ فى العصور الوسطى – لعبت دورها العجيب على المسرح الإسلامى ، وأخذت صوراً مختلفة تغاير ما وضعها هذا القداح ، وتفرعت عنها المذاهب ، وتطورت وتغيرت .

ويحاول بعض الباحثين مثل مامور أن يثبت أن ميموناً القداح هو هو محمد بن إسماعيل . ويذهب إيفانوف إلى أن محمد بن إسماعيل كان يعرف باسمه السرى «الميمون» ، وأحياناً بعبد الله بن الميمون (١). ومن هنا خلط الباحثون السنيون بينه وبين ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون ، وظن الباحثون أن هذا الأخير هو جد الخلفاء الفاطميين . ولإيفانوف أبحاث طويلة وكثيرة ومستفيضة ، وهو حجة فى مسائل الإسماعيلية ولن نناقش نحن هنا كتبه وما فيها من آراء متعددة وبخاصة كتابيه : The alleged of Ismailism و Rise Of The Fatimide بل نؤخر هذا لفرصة أخرى غير أن أهم ما قدمه لنا إيفانوف فى كتابه «المؤسس المزعوم للإسماعيلية» هى جملة الأحاديث التى رواها ميمون عن الباقر والصادق ، وهى تبين أنه كان خادماً أميناً للباقر يرحل معه فى كل مكان ويستند عليه فى سيره ، ثم صحب جعفراً الصادق نفس الصحبة ، ثم إثباته أن اسم عبد الله بن ميمون ورد فى كتب أهل السنة من المحدثين كابن النجار والذهبى وابن حجر ولم تنسب إليه تهمة الإلحاد . فميمون إذن كان من رجال الباقر والصادق المخلصين وكان أولاده عبد الله وأبان وإبراهيم من خواص خدم وموالى جعفر الصادق ، وكان أبان مقرئاً – ويقرأ القرآن أمام الإمام ، وكان عبد الله محدثاً يكتب أحاديث الإمام .

ثم أنكر إيفانوف إنكاراً تامًّا ما ذاع من أن ميموناً القداح وابنه عبد الله كان أئمة مستودعين للإمام ، وأثبت أن هذا النظام لم يكن معروفاً فى عهدهما وإنما هو من ابتداعات القرن الرابع الهجرى .

وكل ما يمكننا أن نقوله الآن هو أن أبحاث إيفانوف تمتاز بالخصوبة والعمق ، ولكن الرجل كان يقف دائماً بجوار الفكرة الإسماعيلية ويجعل نفسه أسيراً لها . ولا يرى سواها . وقد بين لنا الكثير من الأخطاء التى وقع فيها مؤرخو الإسماعيلية من أهل السنة والجماعة والاثنى عشرية ، ولكنه وقع هو نفسه

(١) Ivanov: The alleged of Ismailism. P 75,76.

فى أخطاء كثيرة لا محل لمناقشتها فى هذا الخبر المختصر [١] .

وقد رأينا أن مامور ذهب إلى أن ميموناً القداح هو محمد بن إسماعيل ، فهل نحن أمام قصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر مرة أخرى . وقد قيل إن المعز لدين الله ذكر أن كلمة الميمون هو لقب لجده عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه كان يدعى بالميمون النقيبة ، وأن هذا اللقب كان يطلق أيضاً على محمد بن إسماعيل وكذلك أضيف إلى إسماعيل بن جعفر ، كما كان يطلق المبارك على الإمام إسماعيل كما أن القداح كان لقباً لها ، ذلك أن القداح هو الذى ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . أو هو الذى تنقدح فيه ومنه الحكمة اللدنية .

لم يتنبه مامور أو إيفانوف إلى موازاة هذه القصة لقصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر ، فالأبحاث الحديثة تنكر وجود بن سبأ وتعتبر اسمه رمزاً على عمار بن ياسر ، ثم حمله الأمويون والنواصب أقوال غلاة الكوفة من بعده ، فهل فعل العباسيون هذا أيضاً ؟ ولم تكن هناك شخصية حقيقية تدعى شخصية «المبارك» أو شخصية حقيقية تدعى ميموناً القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون ، وإنما وجد الأئمة فقط . هذا مجرد ترجيح لأننا نرى داعياً إسماعيليًّا هو الداعى عماد الدين إدريس (توفى عام ٨٧٢) يقول : «وقام إسماعيل بن جعفر صلوات الله عليه — المبارك الميمون فى كنف أبيه وعهد بمحمد ابن إسماعيل وهو ابن ثلاث سنين إلى ميمون القداح قدس الله روحه ، وهو كفيل له ومستودع أمره ، وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد يعقوب بن إسحق» .

ثم يذكر أن جعفراً الصادق أقام موسى بن جعفر حجاباً على محمد بن إسماعيل وعلى من جعله بابا له أى «ميمون» ، الستر عليه والكفيل له ، وكتم الصادق منزلة ابن ابنه ، وأقام له ميموناً القداح وابنه عبد الله بن الميمون كفلاء ، وأخفى أمر ذلك عن الخاص والعام إلا على المخلصين العارفين من أتباعه [٢] .

إن مسألة القداحين تحتاج إلى بحث أكبر ، ومناقشة علمية أدق . غير أنه يمكن القول إن ميموناً القداح إنما يرتبط اسمه سواء صح وجوده أم لم يصح بإسماعيل بن جعفر وابنه ، كما يرتبط عبد الله ابن ميمون بهما وبأولادهما ، وكما ذكرت من قبل فى قصة عبد الله بن سبأ : إننا سواء أنكرنا وجوده كحقيقة تاريخية أو لم ننكره فإن الآراء السبئية قد وجدت ، وهنا أيضاً وجدت الآراء القداحية الميمونة ، والميمونية الأول أو إسماعيلية عصر ميمون — القداح الأول — تؤمن كالإمامية بالعصمة اللامتناهية

---

(١) ناقش الأستاذ محمد عبد الله عنان بعض حجج إيفانوف فى كتابه الحاكم بأمر الله وتحتاج المسألة إلى مناقشة أكثر ، علاوة على أن الكثير من حجج إيفانوف التى ناقشها الأستاذ محمد عبد الله عنان صحيحة على غير ما تصورها هو.

(٢) انظر الأستاذ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٦٤ وإيفانوف «نشأة الفاطميين» من ص ٤٧-٤٩ .

للإمام ، وتعتقد أن الإمامة لقب من الله ، وأنها واجبة لحفظ الشريعة وجوباً أزلياً فى علم الله القديم ، وتعتقد أيضاً بوجود هذا النور الأول الأزلى الذى انتقل من نبى إلى نبى ومن إمام إلى إمام ، ولكن الخلاف الوحيد بين الإسماعيلية الأولى وبين الاثنى عشرية هو أن الاثنى عشرية تتوقف عند الإمام الثانى عشر بينما الدور الأعظم للأئمة عند الإسماعيلية ينتهى عند الإمام السابع ، ليبدأ دورة أخرى للأئمة . هكذا كانت فكرة الإسماعيلية فى أول الأمر ثم ما لبثت الإسماعيلية أن خاضت الفلسفة الغنوصية كاملة بما فيها من فيثاغورية محدثة وأفلاطونية محدثة مختلطة بغنوص المذاهب الفارسية آخذة من كل مصدر ، داخلة فى الدور الباطنى المخيف ، داخل الإمام الإسماعيلى فى دور الستر . كما دخل الفكر الإسماعيلى فى دور الباطن .

وهذا ما سنتحدث عنه فى الفصول المقبلة .

الفصل الثانى

الإسماعيلية الباطنية

وظهور رسائل إخوان الصفا

كان «إسماعيل» مسجى على سرير الموت سنة وفاته عام ١٣٥ عند البعض و ١٤٥ عند البعض الآخر ، والإمام جعفر الصادق يعيش فى مأساة حزينة ، تاخذ نفسه ، وتعتلج فى صدره الآلام النوافذ ، ويمشى إلى سرير ابنه مرتين حافى القدمين ، كان يبكى ابنه الأكبر ، ولكن هل شعر الرجل العظيم بما ستؤدى إليه وفاة إسماعيل من كوارث قاتلة ، وأعاصير وزعازع تكاد تهز كيان العالم الإسلامى باسم إسماعيل .

هذا «الإمام الصامت» الذى حيكت الأساطير حوله فى حياته ، كان فى موته أقوى منه فى حياته . كان ينظر إليه وهو مسجى على الفراش اثنان من موالى أبيه أحباه وآمنا به حيًّا وميتاً . أما أحدهما فهو «المبارك الكوفى» مؤسس المباركية فى الكوفة ، حين مات الإمام جعفر ، ذهب إلى الكوفة مبشراً بإمامته وبإمامة ابنه من بعده ، أما الآخر فهو ميمون القداح ، هذا المولى الفارسى طبيب العيون ، وقداح الحكمة ، وراوية الحديث وخادم الإمام الباقر . ثم غلام الصادق ، ميمون بن غيلان بن مهران بن سلمان الفارسى ، من ولد إسحاق بن يعقوب أهل الاستيداع ، والقائمين بالبلاغ ، على مدى الأجيال السحيقة إلى عهد إمام الأئمة وسيد العترة الطاهرة جعفر الصادق . «والإمام الصامت» حيًّا وميتاً فى فراشه ، وفى جنبات البيت الحزين ، ابنه الصغير محمد بن إسماعيل فى الثالثة من عمره ورأى الإمام جعفر أن يعهد بحفيده لأحب مواليه إليه ، وهو ميمون . ومات جعفر الصادق بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة ابنه إسماعيل .

ورأى المبارك – كما رأى ميمون – كيف اختلف أولاد جعفر على إمامة أبيهم ورأى أن الثلاثة لا يصلحون «أما الأفطح أو الأفلح عند الشيعة فلم يكن على علم وكان حشويًّا مرجئاً ، وأما محمد الديباج فكان زيديًّا ثم خضع للعباسيين وأقر على نفسه بالخطأ ، وأما موسى الكاظم ؛ فكان أصغر خوته وفى سن محمد بن إسماعيل . وهنا أعلن المبارك فى الكوفة إمامة محمد بن إسماعيل ، وأما ميمون فقد رأى أيضاً أن الأحق بالإمامة هو محمد بن إسماعيل «ابن سيده القديم» ، وقد كان يعده للإمامة بعد جده ، بل أعلن الإسماعيلية كما قلنا من قبل – أن موسى كان وصيًّا على ابن أخيه محمد بن

إسماعيل ، فكان موسى إماماً مستودعاً لابن أخيه الإمام المستقر محمد بن إسماعيل . ولكن موسى طمع فى الإمامة له ولأولاده من بعده أو أنه فعل هذا تقية ، حتى يعمل الإمام الحقيقى محمد بن إسماعيل فى صمت وهدوء .

كان سن محمد بن إسماعيل . كما قلت – حين توفى جده ستة عشر عاماً ، وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسى القوى يحكم العالم الإسلامى بيد من جديد ، ويتتبع أعداء البيت العباسى بالقتل ويبدو أنه حتى وفاة أبى جعفر عام ١٨٥ هـ ، لم يقم محمد بن إسماعيل بأى نشاط ، بل إنه كان فعلاً فى سن لا يسمح له بالقيام بالدعوة لنفسه . إن من الأرجح أن يقال : إن ميموناً كان يعده للإمام . ثم تولى الخليفة المهدى ، (المتوفى عام ١٦٩ هـ) ، بعد أبيه جعفر المنصور وتتبع هو أيضاً الزنادقة ، وقضى على الخناقين من أتباع الحسين بن منصور ، وكذلك قام ابنه موسى الهادى (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) بنفس الشىء وقتل أيضاً الحسنيين فى فخ ، وحارب الزندقة ، وتابع الرشيد (المتوفى عام ١٩٣ هـ) سياسة أخيه وأبيه ، وحارب الإمامية ، فسجن إمامها موسى الكاظم . وقتله بالسم عام ١٨٣ هـ . وترى الإمامية أن محمد بن إسماعيل هو الذى أوقع بعمه موسى الكاظم لدى الرشيد حتى حبسه ، وأن الخليفة أجازه على وشايته بمبلغ من المال . ولكنه طعن فى نفس الليلة [1] . وهذا يعنى أن محمد بن إسماعيل مات فى بغداد وفى ضيافة الرشيد والقصة كلها مختلفة . إن من الثابت أن محمد بن إسماعيل مات عام ١٩٨ هـ ، أى أنه حضر جانباً من عهد المأمون نفسه . وأن صلاته لم تكن على وفاق مع الخليفة هارون .

لقد مضى عهد المهدى والهادى ، وفترة كبيرة من عهد الرشيد ، ومحمد بن إسماعيل آمن فى الحجاز ودعاته يعملون فى سرية وغموض ، المبارك من ناحية ، وميمون من ناحية ، يقتنصان فلول الخطابية والأبى مسلمية والأبى هاشمية والزيدية والإمامية نفسها . وتسير الدعوة فى مرسومة ، ولكن هارون يفتح أذنيه ، ويلتمس الفرص للإيقاع بمحمد بن إسماعيل . وهنا رأى محمد أن يدخل فى الدور الهام الذى عرفته الإسماعيلية بدور الستر ، فيهرب من الحجاز ، متنقلاً من مكان إلى مكان ، إلى فرغانة وإلى نيسابور ، حيث استقر فى قرية من قرى الرى هى سمــلا ، وقد نسبت إليه فيما بعد وسميت بمحمد آباد . وكان يرجو من رحلته هذه :

أولاً : اتخاذ دار هجرة وقد أصبحت هذه عقيدة عند الإسماعيلية .

ثانياً : أن يكون بعيداً عن عيون الخليفة فى الحجاز ، فيستطيع بسهولة أن يبث دعاته .

ثالثاً : فشله فى الحجاز أمام عمه القوى موسى الكاظم والإمامية ، ولم تستجب له الإمامية كثيراً .

(١) النوبختى : الشيعة هامش ١ ص ٦٨ .

رابعاً : كانت الحجاز مليئة بالعلماء والفقهاء فى عصر العباسيين الزاهر ، ولاشك أن محمد بن إسماعيل كان من أصحاب منهج التأويل الباطنى – وإن كنت أعتقد أنه لم يذهب فيه إلى المدى الذى ذهب إليه أتباعه فيما بعد وغلوا فيه ، إلا أن هذا المنهج لم يكن ليجد أذناً صاغية فى مدينة الرسول أو فى مكة .

خامساً : يبدو أن دعاته كانوا قد انتشروا فى شرق المملكة الإسلامية ونشروا الدعوة هناك . فذهب محمد بن إسماعيل إلى أرض زرعت له من قبل .

وحين مات محمد بن إسماعيل ادعى قوم من أتباعه أنه مهدى الأمة وأنه تغيب فى بلاد الروم . وأنه القائم المهدى وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ . وأن محمد بن إسماعيل من أول العزم . وأولو العزم عند هذه الطائفة – سبعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى عليه السلام ومحمد بن إسماعيل . أما علة كونهم سبعة ، فذلك لأن النظام الكونى والنظام الإنسانى كذلك . فأما عن النظام الكونى ، فإن السموات سبع والأرضين سبع ، وأما عن النظام الإنسانى : فإن الجسد الإنسانى سبع : يدان ورجلان ، وظهر وبطن وقلب ، والرأس الإنسانى سبع : عينان وأذنان وأنف وفم ولسان والأئمة سبعة ، وقلبهم محمد بن إسماعيل .

ثم حاولت هذه الطائفة أن تعلل نسخ الشريعة الإسلامية بأحاديث نقلية رووها عن الإمام جعفر : منها أنه قال : لو قام قائمنا لعلمتم القرآن جديداً . وأنه قال : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء .

كما أعلنت هذه الطائفة أيضاً أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ، ومعناها : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق فى هذه الدنيا . والدليل النقلى «فكلا منها رغداً حيث شئتما» وفى هذا إباحة للدنيا وإبطال لكل تحريم «ولا تقربا هذه الشجرة» أى موسى بن جعفر وولده من بعده ، من ادعى منهم الإمامة . ثم إن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين «وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة فى كل جزيرة حجة ، وأن الحجج اثنا عشر ، ولكل حجة داعية ولكل داعية يد . واليد هو رجل له دلائل وبراهين يقيمها . ويسمى رجال تلك الفرقة الحجة الأب والداعية الأم واليد الابن . ويرى أبو خلف القمى أن عقائد هذه الفرقة الإسماعيلية تضاهى ثالوث النصارى : الله ومريم والمسيح .

وترى هذه الإسماعيلية أيضاً أن الفرائض والسنن التى أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن «وأن جميع ما استعبد الله به العباد فى الظاهر من الكتاب والسنة هى أمثال مضروبة وتحتها معان هى بطونها» وأن هذه البطون هى التى عليها العمل وفيها النجاة ، وأما الظواهر ففى استعمالها الهلاك والشقاء ، «وهى جزء

من العقاب الأدنى عذب الله به قوماً إذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به » فالشريعة إذن عقاب يكلف به من لم يعرف إمام زمانه ، الذى يرفعها عنه . وقد تنبه النوبختى وهو يعرض لهذا المذهب إلى أن « هذا أيضاً مذهب عامة أصحاب أبى الخطاب » (١) ونحن نعلم أن الخطابية رفعت عن أنفسها التكاليف بأبى الخطاب .

هذه هى العقائد الباطنية الإسماعيلية الأولى أو بمعنى أدق هى تصور بقايا الخطابية لها مزيج من المسيحية الغنوصية والإسلام مع فيثاغورية محدثة تتلاعب بالأعداد ، وبخاصة العدد سبع والعدد اثنى عشر .

وقد أسماهم فخر الدين الرازى بالسبعية ومذهبهم : أن الدور التام سبعة ، بدليل أن السموات والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع والأعضاء سبع والدور التام للأنبياء سبعة فالأول آدم ووصيه شيت والثانى نوح ووصيه سام ، والثالث إبراهيم ووصيه إسماعيل وإسحق الرابع موسى ووصيه هارون ، والخامس عيسى ووصيه شمعون والسادس محمد عليه السلام ووصيه على . والإمام الأول على والثانى الحسن والثالث الحسين والرابع زين العابدين والخامس محمد الباقر والسادس جعفر الصادق والسابع إسماعيل بن جعفر . والمقصود عندهم بالرسالة «أن يلحق الجثمانيون من نوع الأنس بالروحانيين . فلما انتهت التوبة إلى محمد بن إسماعيل ارتفع التكليف الظاهر عن الناس» (٢) .

غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن هذه الفرقة ليست هى الإسماعيلية الأولى الخاصة ولا المباركة أو بمعنى أدق ليست هى الميمونة ولا المباركية . ولقد تنبه فخر الدين الرازى إلى هذا فوضع الفرقتين الأوليتين فى فرق الإسلام ، ووضع السبعية فى الفرق التى تتظاهر بالإسلام ، وليست مسلمة على الحقيقة .

انتقل محمد بن إسماعيل إلى جوار ربه والعالم الإسلامى ، تتقدح فيه الآراء المتبانية فيهما : الإسماعيلية الأولى ، والمباركية ، والإسماعيلية والخطابية . . . وتولى الإمامة الإسماعيلية من بعده ابنه عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعروف بالرضى أو الناصر أو العطار ، وقام بحجته ميمون القداح لفترة قصيرة ، ثم توفى ميمون بعد أن أوصى بها لابنه عبد الله بن ميمون .

وسنرى إلى أى حد تطورت العقيدة الإسماعيلية فى عهد هذا الإمام وعهد حجته وأنها أخذت تجمع وتلفق ين مختلف الآراء . وكيف صبغت محمد بن إسماعيل نفسه بصبغة الغنوصى . وكيف أخذت طريقها كدعوة مسلحة بالفلسفة اليونانية والغنوصية ، مكونة مزيجاً لا مثيل له فى تاريخ الإسلام الفكرى .

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٥ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٧٤ .

(٢) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٨٠ و ٨١ .

أما الإمام عبد الله الرضى ، فقد تتبع الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف فى كتابهما الرائع عبيد الله المهدى ميلاد الإمام ورحلاته . ولد فى نيسابور ، وتولى الإمامة الإسماعيلية سنة (١٦٩ هـ) وهو أول الخلفاء عند الإسماعيلية اسمه الحقيقى عبد الرحمن ولكنه تسمى باسم حجته عبد الله بن ميمون إمعاناً فى التخفى ، بل اتخذ أبوه محمد بن إسماعيل له حجباً وحججاً ، وأمر كل واحد من هؤلاء الحجج والحجب أن يتسمى باسم الإمام «فمن أخذ العهد على مستجيب سمى له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه ستراً على صاحب الأمر ، ولذلك صعب على الناس التفريق بين الإمام وبين حججه وحجبه ، وقد أدى هذا إلى أن رؤساء الدعوة فى جزرها وبحورها ، أى فى أقاليمها المتعددة كانوا يختلفون فيما بينهم فى ذكر أسماء الأئمة وقد حفظ هذا الأئمة المستورين وجعلهم فى منجاة من يد العباسيين . يقول الداعى إدريس : «وكان استتاره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الحق على الباطل ، ولشدة دولة الظلمة من آل العباس وعظم الريب والوسواس ، وكان لشدة استتار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولى الأمر ، ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق» [(١)] .

وأخذ الإمام عبد الله الرضى أو عبد الله الأكبر ينتقل من بلد إلى بلد فراراً من المأمون ، وكان المأمون يدرك خطر الدعوة الإسماعيلية فأراد أن يقضى عليها ، فقرب إليه الإمام على الرضا وعهد إليه بالخلافه بعده ، وتتبع الإمام عبد الله الرضى فقتل أغلب أسرته وأبنائه ، ولكن الإمام عبد الله تمكن من الوصول سالماً آخر الأمر إلى سلمية بالشام هو وابنه أحمد ، وكانت الدعوة قد نجحت فيها نجاحاً باهراً ، ولكنه بالرغم من هذا عاش هناك مدعياً أنه هاشمى ، ووجد دعاته وحججه مشقة كبرى فى الوصول إليه . ولم يعرف عن الإمام عبد الله علم ظاهر ، أى أنه لم يظهر علمه لأحد ولا اطلع عليه ، ولا عرفه إلا حملة العرش ، القائمون بأمر الله أمناء خليفته وفضلاء حججه المنصوبون فى دعوته ، والمقصود بحملة العرش هنا ، حججه وكبار دعاته .

وفى سلمية نص الإمام عبد الله الرضى على إمامة ابنه أحمد على مشهد من رجال دعوته . ثم انتقل بعد ذلك إلى بلدة مصياف حيث توفى بها عام ٢١٢ هـ .

وقام ابنه أحمد بالإمامة من بعده ، وقد أخذ أحمد أيضاً ينتقل من بلد إلى بلد . يقول الداعى نور الدين أحمد المتوفى سنة ٨١٧ هـ إن الإمام أحمد الملقب بأحمد التقى كان كثير التنقل فى البلدان يحب

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٥٩ وانظر أيضاً الدكتور حسن ابراهيم والدكتور طه شرف : عبيدالله المهدى ص ٤٢

التبشير بالدعوة بنفسه . فوضع الوكلاء والدعاة بمركز دعوته فى سلمية وسار متنقلاً فى بلاد الشام ، ثم انتقل إلى الرى وإلى همدان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء إلى إستانبول حيث توفى فيها عام ٢٢٩ هـ .

ظهور رسائل إخوان الصفا :

وفى عهد هذا الإمام كانت الحركة العقلية الإسلامية قد بلغت مداها ، وقطعت الترجمة على علوم اليونان شوطاً كبيراً . وكان الخليفة العباسى المأمون وراء هذه الحركة العقلية الكبرى .

وقد اختلفت التفسيرات والتعديلات لهذه الحركة ، وضعت لها الحلول المتناقضة . فالبعض يرى أن المأمون قام بها لأنه كان ملحداً عريقاً ، فنقل علوم اليونان إلى المسلمين . ويذهب الإسماعيلية إلى هذا الرأى . ويقول الداعى إدريس : إن المأمون أراد أن يظهر علم الهيئة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيئة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، وليرى الحق الذى جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك ، عملوا بعلى عليه السلام ما عملوا ، وأنهم فى ذلك مصيبون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم فى قتل ذرية النبوة بما قتل من دماء قريش [١] » .

ويذهب البعض الآخر من الباحثين من أمثال بيكر إلى أن السبب فى نقل المأمون لعلوم اليونان هو أن يحارب المأمون الغنوص بفلسفة عقلية ، أراد أن يحطم الفلسفة الباطنية التى كان ينشرها الإسماعيليون بفلسفة تستند على العقل ، فطلب علوم اليونان – وبخاصة الفلسفة لتوقف هذا التيار الغنوصى . ومما يرجح هذا الرأى موقف المأمون وخلفائه من المعتزلة ، فقد احتضنوا المذهب العقلى المعتزلى ، وكانوا أمناء له ، بل جعلوه المذهب الرسمى للدولة . وأياما كان الأمر ، فقد خاض الإمام الإسماعيلى أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعركة العقلية التى قامت فى عصره ، وإليه ينسب وضع المذهب الإسماعيلى الباطنى ، كما ينسب إليه تأليف رسائل إخوان الصفا المشهورة . ويقول الداعى اليمنى الإسماعيلى إدريس عماد الدين (توفى عام ٨٧٢ هـ) : «وقام الإمام التقى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بعد أبيه بأمر الإمامة ، وبث دعاته فى الآفاق من سلمية ، واتصل به الدعاة ، ودعوا إليه ، وهم مخفون لمقامه كاتمون لاسمه . وكان المأمون حين احتال على على بن موسى الرضا بن جعفر ظن أن أمر الله قد انقطع ، وحجته على الأرض قد ارتفعت ، فحين ظن المأمون العباسى ذلك الظن ، ووهم ذلك الوهم سعى فى تبديل شريعة محمد ﷺ وتغيرها ، وأن يرد الناس إلى الفلسفة وعلم

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ٦٠–٦١ .

اليونانيين ، وخشى الإمام عليه السلام أن يميل الناس إلى ما زخرف المأمون عن شريعة جده ، فألف رسائل إخوان الصفا » .

ويذكر فى موضع آخر أن الإمام أحمد ألف تلك الرسائل لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انحرفوا عن علم النبوة ، ثم إن الإمام أمر أن تبث تلك الرسائل فى المساجد ، فحين وقع عليها الناس ، رفعت إلى المأمون فعلم أنه لم يصنع شيئاً ، وأن إمارته من قطع حبل الإمامة لا يكون [1] .

والدلائل كلها تشير إلى أن وضع هذه الرسائل كان فى عهد الإمام أحمد سواء أكانت من وضعه أم بتوجيهه وأنها اعتبرت قرآناً بعد القرآن ، أو هى قرآن العلم كما أن القرآن هو قرآن الوحى ، أو هى قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة . وتعلق مختلف الدعاة بها ، واعتبروها وحياً «قام الإمام أحمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأمر الله ووحيه وهو الثانى من الخلفاء وحجته عبد الله بن ميمون وأحمد بن عبد الله ممثول النطقة فى دورهم مقابل لنوح ثانى النطقاء ولجده الحسين بن على ثانى الأئماء ، فنشر العلوم ظاهراً وباطناً ، وصنف الرسائل ، وجعلها على العلوم الأربعة [2] » .

ويذهب الداعى الإسماعيلى شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (توفى سنة ٨٣٤) إلى ما يأتى : «حتى هم المتسمى بالمأمون أن يرد الأمة إلى القول بالنجوم وقال : ما جاء محمد ﷺ إلا بناموس ملك به الناس . وحقيقة وأساس حتى أظهر ولى الله وابن رسول الله «رسائل إخوان الصفا» وفيها ما تميز فيه جميع العالم من العلوم فى كل فن ، والاستشهاد على شريعة الرسول ﷺ . إن ذلك وهو فى كهف التقية مستتر ، ودعاته الباقون مفرقون لتلك الرسائل فى كل شهر وقطر . . . فرجع اللعين عما هم به» [3] .

ولاشك أن رسائل إخوان الصفا هى إسماعيلية ، سواء وضعها الإمام أحمد نفسه أم وضعها أتباعه تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية ، مما يتسق دائماً مع المذهب الإسماعيلى . وقد جهد الأستاذ عارف تامر الإسماعيلى فى محاولة إثبات هذا الاتجاه ، وتوصل خلال نشراته المتعددة المخطوطات الإسماعيلية إلى أن الرسائل قد وضعت فى عهد الإمام أحمد .

أرادت الإسماعيلية بوضع هذه الرسائل أن تثبت معرفة الأئمة بعلوم باطنية لا يعرفها سواهم ، ويبدو هذا من محاولة هذه الرسائل الإلمام بجميع نواحى الفلسفة الغنوصية من أفلاطونية محدثة وفيثاغورية مختلطة مع العقائد الإسلامية وقد أعلن إخوان الصفا «أن هذه الوصاية المخصوصة لأهل

---

(١) الداعى إدريس : عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن حمزة : الرسالة الموقظة ، وانظر أيضاً عارف تامر .. حقيقة إخوان الصفاء وخلان الوفاء ص١٨ .

بيت الرسالة عليهم السلام ، لا يحتاجون فيها إلى مديرى غيرهم وإلى علماء سواهم ولا يطلع الناس على أسرارهم ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها وأعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم » ،

ثم دعوة الناس أن يأتوا باب العلم – وهو الإمام «قيل : يارسول الله من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ فقال نعم ، من قالها مخلصاً دخل الجنة ، قيل له : وما إخلاصها ؟ قال : معرفة حدودها وأداء حقوقها . فقيل يارسول الله : ما معرفة حدودها وأداء حقوقها ؟ فقال : أنا مدينة العلم ، وعلى بابها . فمن أرادها فى المدينة فليأت الباب » .

ثم توضح إخوان الصفا المذهب السبعى ، ودورة السبعة فى الناطقين من الأئمة : أعيادنا أيها الأخ هى أشخاص ناطقة وأنفس فعالة ، تفعل بإذن ربها ما يوحيه إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال » ثم يحدد إخوان الصفا هذه الأعياد أو هذه الأشخاص الناطقة كما يلى :

اليوم الأول : من هذه الأعياد بل أفضل الأعياد هو يوم خروج أول القائمين . ويكون اليوم الموافق لنزول الشمس برج الحمل وهو مجىء الربيع والخصب والنعمة ونزول الرحمة والظهور والانتشار وهو يوم فرح وسرور .

واليوم الثانى : هو يوم قيام القائم الثانى الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان فى تناهى طول الليل وقصر النهار . وكان تصرم دولة أهل الجور وانقضائها ، وهو أيضاً يوم فرح وسرور وانتشار .

واليوم الثالث : هو يوم قيام القائم الثالث الموافق لنزول الشمس أو الميزان واستواء الليل والنهار ودخول الخريف وهى مقاومة الباطل الحق ، وكون الأمر على خلاف ماكان عليه .

واليوم الرابع : يوم الحزن والكآبة ، يوم الرجوع إلى الكهف ، كهف التقية والاستتار ، «فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه فى وقتنا إلى وقت البروز والخروج بعد الذهاب ، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل [1] .

ونحن سنرى أن النطقاء سبعة عند الإسماعيلية ، ستة وأساس ، وقد انتهت الدورة الأولى بمحمد بن إسماعيل ، وقد جمع قوى الأئمة الستة التى قبله ، فهو الأساس ونهاية الدور ، ثم أتى الإمام الثامن ، وهو قائم لأنه الأول فى الدور الجديد ، وانتهى الدور الثانى بالإمام الفاطمى «المعز لدين الله» وهو أيضاً أساس ومتم للدور . ثم أتت الأعياد – العيد الأول بعد الدور الثانى – هو العزيز والعيد الثانى الحاكم بأمر الله ، وأما العيد الرابع فهو يوم الحزن والكآبة – يوم ذهاب الدولة الفاطمية حين توفى الإمام المستنصر ، ووقعت الفتنة ، وذهب الفرح والسرور ، وعاد الأئمة إلى كهف التقية والاستتار [2] .

---

(١) رسائل إخوان الصفاء ج ٤ ص ٢٤٤ .

(٢) عارف تامر : ص ٢٢ .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفا عمل إسماعيلى بحت ، وكان يتخذ أداة لنشر الدعوة الإسماعيلية . ولن نعرض هنا لمحتويات رسائل إخوان الصفا الفلسفى . بل سنفعل هذا فى الجزء الرابع من كتابنا هذا الذى سيفحص نشأة الفلسفة بالمعنى اليونانى أو الغنوصى عند المسلمين ، ولكن ما أود أن أقوله الآن هو أن فلسفة هذه الرسائل ليست فلسفة إسلامية أصيلة ، إنما هى محاولة لمزج العقائد الإسلامية بغنوص أفلوطين ثم بغنوص الفيثاغورية المحدثة ، مع عملية توفيق . ليست فى هذه الوسائل أصالة فكرية تعبر عن فلسفة المجتمع الإسلامى ، كما تعبر عنها فلسفة أهل السنة والجماعة والمعتزلة والشيعة الإمامية والاثنى عشرية . إنها بلا شك محاولة فلسفية منسقة ولكنها بعيدة عن الروح الإسلامى وليست فيها أصالة ولا جدة .

ولكن السؤال الهام هو من الذى كتب الرسائل ، الإمام أم جماعة من حججه ؟ يذهب الداعى السورى الإسماعيلى نور الدين أحمد إلى أن الإمام أحمد هو الذى شرع فى كتابة هذه الرسائل ، ثم طلب من حرمه – ومعنى الحرم فى التعريف الإسماعيلى الدعاة الأربعة الذين يرافقون الإمام ، ويسمون الأبدال – وأمرهم بأن يكتبوا – كل من ناحيته ما عنده من علوم باطنية ، وأن يرسلها إليه . يقول زهر الدين : «ولما علم – أى الإمام – بما آلت إليه الشريعة فى العباسيين من الانحطاط والضعف ، شرع بتأليف كتاب «رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا» وهو كتاب وضعه لتأييد الشريعة والحقيقة معاً ، وقد أمر حدوده الأربعة الحرم (ويسمى هؤلاء كما قلنا الأبدال ، وأفضلهم يسمى الباب) وكان مقرهم فى سلمية وهم أقرب الحدود إليه – أن يكتبوا ما ينصه عليهم ، ويصل منه إليهم ، فأخذ كل واحد بكتابة ما يشير به عليه من العلوم ، أو يرسله إليه إذا كان غائباً فى مكان بعيد ، حتى جاء عدد رسائل الكتاب مطابقاً لعدد ركعات صلوات الفريضة والسنة والنوافل» .

واضح إذن من هذا المصدر الإسماعيلى أن الإمام كلف أبداله الأربعة بكتابة هذه الرسائل ، وكانت ترسل إليه ، فيراجعها . ولكن من هم هؤلاء الأبدال الأربعة ؟ يقول الداعى ابن زهرة : «فلما انتقل محمد بن إسماعيل إلى دار البقاء تسلمها ولده المستور . وهو أول من ستر نفسه عن الأضداد من أهل عصره المخالفين ، لأن زمانه كان زمان فترة ومحنة ، وكان المتغلبون من ولد بنى العباس يطلبون من يشار إليهم حسداً وبغضاً لأولياء الله تعالى ، فأوجب ذلك الاستتار المعروف للأئمة ، وكنيت الدعاة بأسمائهم تقية عليهم مما هم فيه ويليق بهم ، وتاهت فيهم أولو الضلال ، حتى قالوا إن الإمام من ولد محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون المعروف بقداح الحكمة وزيد الهداية . وزعم البعض أنه عبد الله بن المبارك أو عبد الله بن سعيد بن الحسن أو عبد الله بن حمدان ، وأن هؤلاء الأربعة قد

اجتمعوا مع غيرهم ، وصنفوا رسائل طويلة فى شتى العلوم والفنون وعددها اثنان وخمسون رسالة » (١)هؤلاء هم الدعاة الذين صنفوا رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا لتكون سلاحاً بين يدى الإسماعيلية يحاربون به العباسية .

عبد الله بن ميمون القداح :

ونحن نلحظ أن اسم عبد الله بن ميمون القداح يظهر هنا ، واحداً من الحرم ، وهو أفضلهم فهو الباب ، باب مدينة العلم ، علم الإمام ، كعلى للرسول . وعبد الله بن القداح الأول – ميمون – شخصية من أغمض شخصيات التاريخ الإسلامى كوالده . اختلط أيضاً اسمه وزمانه باسم والده وزمانه ، فهو خادم أيضاً للباقر وللصادق وراوية الحديث لهذا الأخير . واختلط اسمه بمحمد بن إسماعيل ، فهو هو محمد بن إسماعيل عند البعض ، وهو منتحل لشخصيته . واختلط اسمه بالإمام عبد الله الرضى ، فهو هو عبد الله الرضى أو هو منتحل لشخصيته .

أما أهل السنة والجماعة ، وروايتهم ينبغى أن تؤخذ بحذر فأول رواية لهم عنه ، يقدمها لنا ابن النديم فى الفهرست عن أبى عبد الله بن رزام أقدم مؤلف سنى كتب كتاباً فى الرد على الإسماعيلية وكشف مذاهبهم ويورد نصوص ابن رزام ويبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه وأما هذه النصوص فهى : «إن عبد الله بن ميمون ويعرف بميمون القداح ، وكان من أهل قورح العباس بقرب مدينة الأهواز– وأبوه ميمون الذى ينسب إليه الفرقة الميمونية التى أظهرت أتباع أبى الخطاب محمد بن زينب الأسدى الذى دعا إلى إلهية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان ميمون وابنه ديصانيين وأدعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيذ ، ويذكر أن الأرض تطوى له ، فيمضى إلى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث الكائنة فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونون على نواميسه ، ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذى فيه بيت عبد الله ، فيخبر من حضره بما يكون ، فيتموه ذلك عليهم» (٢) .

هذه هى أقدم رواية من كاتب سنى عن عبد الله بن ميمون القداح . ثم أخذها البغدادى صاحب الفرق بين الفرق ، وذكرها – ولكنه يخلط بين عبد الله وأبيه ميمون . يقول : «إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم : ميمون بن ديصان المعروف بالقداح . وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق . وكان من الأهواز ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان . اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان فى

(١) الداعى ابن زهرة : رسالة الأصول والأحكام فى خمس رسائل إسماعيلية ص ١٢١ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٨ .

سجن والى العراق ، فأسسوا فى ذلك السجن مذاهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان ، وابتدأ بالدعوة فى ناحية تور ، فدخل فى دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين ، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب ، وانتسب فى تلك الناحية إلى عقيل بن أبى طالب وزعم أنه من نسله ، فلما دخل فى دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ، ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب (١) » .

انتشرت رواية ابن رزام ، ثم البغدادى ، كما ردد الكثير من هذا الغزالى . نحن أمام رواية تمثل لنا الرجل على أنه ديصانى ثنوى ، شعوبى خطير ، مزور مغتصب ، مؤسس لمذهب باطنى يحاول به هدم الإسلام مع مجموعة من موالى العجم . وأنه – كما فعل أبوه من قبل – اتخذ التشيع ، فى صورة شاذة لا صورة معتدلة ستاراً يخفى به عداوته الضارية للإسلام .

وقد أورد النويرى فى نهاية الأرب أن الرجل كان ضاغناً حتى على العلويين أنفسهم بحيث كان يقول لدعاته « ولا ترحم علويًّا ، فلو تمكن علوى كتمكين غيره من الأنبياء للقينا منه جهداً ، وغيره بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الحمير بما هو أكثر مما غيره جده وإياك والإغضاء عمن تجده من ولد على : يعنى اقتله إذا تمكنت من قتله » .

بل يذكر مؤرخو السنة أن عبد الله بن ميمون انقلب على المذهب الإسماعيلى نفسه والشاهد على هذا ما يذكره أبو العلاء المعرى من أن عبد الله كان يقول :

هات اسقنى الخمرة يا قنبر فليس عندى أننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنة يغرها من دينها جعفر
قد كنت مغروراً به برهة ثم بدا لى خبر يستر

وأنه كان يقول :

مشيت إلى جعفر برهة فألفيته خادعاً يخلب
يجر العلاء إلى نفسه وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقاً لما ظل مقتولكم يسحب
ولا عض منكم عتيق ولا سما عمر فوقكم يخطب (١)

ومن العجب أن يأتى الذهبى فى ميزان الاعتدال – وهو من كتب نقد الرجال فيذكر عبد الله بن ميمون القداح المكى ، وأنه كان مولى لجعفر الصادق – وأنه كان محدثاً موثوقاً به فى كثير من روايات

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٩٦ .

(٢) المعرى : رسالة الغفران ص ١٥٦ .

الحديث . ويذكر الذهبي أسماء بعض من رووا عنه الحديث[١] فهل حدث هذا فى حياة جعفر وقبل أن يتحول الرجل من عقيدته الإمامية إلى الإسماعيلية ؟ وأبو العلاء نفسه يذكر أنه كان محدثاً إمامياً فى أول حياته ثم انقلب غالياً .

ويقابل هذا روايات الشيعة : اثنى عشرية وإسماعيلية .

أما الروايات الإمامية فتجمع على أنه كان من موالى جعفر الصادق ومن محدثيه . كما ذكروا أنه صنف كتابين هما مبعث النبوة ، وصفات الجنة والنار وأنه كان محدثاً اثنى عشريًّا ، ومات على ولاء لموسى الكاظم وهذه الأخبار كما قلت – تنطبق على ميمون أيضاً ، بل إن القول بأنه – أى ميمون وابنه عبد الله – كانا على ولاء ووفاء لموسى الكاظم لا يقدح إطلاقاً فى ولايتهما للإمام محمد بن إسماعيل فلا شك أن ميموناً كان من خواص جعفر الصادق ، وقد أحبه وأحب أبناءه جميعاً . ولكنه اختص بإسماعيل وأولاده . ونستخلص من هذا أن الروايات الإمامية الاثنى عشرية لا يمدنا بشىء واضح عن عبد الله بن ميمون ، اللهم إلا مصدراً واحداً – هو تبصرة العوام الذى يذكر أن عبد الله بن ميمون غتصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل ثم دعا لابنه لا لنفسه » وهذا هو النص الذى أورده الدكتور حسن إبراهيم ولم يتنبه إلى أهميته . إنه الدليل القاطع على أنه كان لمحمد بن إسماعيل عقب وذرية . أما اغتصاب عبد الله بن ميمون للإمامة منهم ، فإنه موضع نظر . إنه – كحجة الإمام – تسمى باسم الإمام ، حتى يحافظ على سلامته ويجعله فى مأمن كامل فى كهف الاستتار .

إن هذه النصوص والروايات تقربنا إلى حد ما من الحقيقة . إنه ابن ميمون القداح ، أو هو القداح الثانى ، ورث القداحة عن أبيه ، وكان راوية لجعفر الصادق ولم يكن حجة لمحمد بن إسماعيل ، ولم يتخذه أبوه ميمون بديلاً لابن محمد بن إسماعيل حين مات هذا الأخير ، بل سلمه أبوه أمانة الدعوة بعد أن بقى الأب حجة مدة قصيرة لعبد الله الرضى . فلما مات الأب ، ورث الابن رتبة حجة الإمام ، وكان أحد الدعاة الحرم الأربع ، وكان باب الإمام . وسار بالدعوة سيراً حثيثاً ، مستخدماً كل أداة يراها ، وكل مجموعة يقابلها .

لا شك أن الشعوبية والمجوسية كانت تطل برأسها . يقول ابن رزام « قد كان قبل بنى القداح قريب ممن يتعصب للمجوس ودولتها ، ويجتهد لردها فى أوقات ، منها بالمجاهرة ومنها بالحيلة سرًّا . فأحدثوا ذلك فى الإسلام حوادث منكرة » ويرى ابن رزام أن أبا مسلم الخراسانى رام ذلك وعمل عليه ، فاخترم ذلك ، وأظهر وكاشف بابك الخرمى .

وفى خلال دعوة عبد الله بن ميمون ، ومحاولاته المستميتة فى جذب أية مجموعة من الناس للبيعة

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٨١ .

لإمامه قابل الشعوبى الخطير الثرى محمد بن الحسين كاتب أبى دلف والمشهور بدندان . وكان هذا الرجل فيما يذكر ابن رزام – متفلسفاً حاذقاً بعلم النجوم شعوبياً شديد الغيظ من دولة الإسلام» ويذكر ابن رزام مذهبه وهو إثبات النفس والعقل والزمان والمكان والهيولى – أى مذهب القدماء الخمسة – وقد نسب هذا المذهب إلى الصابئة الحرنانية ، وهو فى الحقيقة مذهب أفلاطونى ، كان يدين به أيضاً محمد بن زكريا الرازى . وكان دندان يرى أن للكواكب تدابير روحانية ، وأنه وجد فى الحكم النجومى انتقال دولة الإسلام إلى دولة الفرس ودينهم المجوسية وكان يرجو أن يكون رجل الفرس (١) ، فلما قابل عبد الله بن ميمون أراد كلا الرجلين استخدام الآخر ، هذا للمجوس ، وذاك للإسماعيلية ، فأعطى عبد الله بن ميمون مليونى دينار . ولكنه ما لبث أن مات ، وسار عبد الله بن ميمون بدعوته . ولكن ماسينيون وبرنارد لويس أثبتا تهافت هذه القصة . فإن محمد بن الحسين الملقب دندان قد توفى حوالى عام ٢٥٠ هـ ،فلا يمكن إطلاقاً أن يتصور معاصرته أو مقابلته لعبد الله بن ميمون . ويرى ماسينيون أن دندان هذا كان من الموالين للحركة الإسماعيلية ولكنه لم يكن أبداً من أصحاب عبد الله (٢).

ورأى عبد الله بن ميمون العباسيين يتتبعونه ، وبعد رحلات متعددة عاد إلى سلميه يعيش فى حمى الإمام المستور أحمد بن عبد الله حتى مات فى عهد هذا الإمام .

كان العمل الأكبر الذى قام به عبد الله بن ميمون هو الدعوة للإمام الإسماعيلى وكان أجل دعاته ولذلك حظى – كما قلنا – برتبة الباب . ولكن هل وضع عبد الله بن ميمون أصول المذهب . لقد رأينا من قبل أنه شارك فى وضع رسائل إخوان الصفا ، ولكنه لم يكن منفرداً ، بل شاركه ثلاثة آخرون . وتم العمل تحت إشراف الإمام أحمد ، بحيث نسب إليه عند الكثيرين من المؤرخين . وكذلك يبدو لى أن أساليب الدعوة نفسها كانت عملاً مشتركاً أيضاً ، وكذلك تكوين العقائد الإسماعيلية نفسها التى يدعى إليها . وإذا كان للقداح الجانب الأكبر فلم يكن الأئمة سلبيين إطلاقاً ، بل كان الإمام أحمد خاصة هو اليد المحركة للدعوة ولوضع الأفكار الإسماعيلية . أما القول بأن عبد الله بن ميمون القداح قد وضع أساليب الدعوة فى يده ، ثم رسم العقيدة الإسماعيلية بنفسه ، وأنه فعل كل هذا لكى يضع الدعوة فى يده ثم يتولى الإمامة هو وأولاده فلا ظل له من الحقيقة . إن الرجل وأباه من قبل وأولاده من بعده كانوا مخلصين للبيت الإسماعيلى أعظم إخلاص ، تفانوا فى حب إسماعيل وأولاده ونرى «أخو محسن» – وهو عدو للإسماعيلية وللبيت القداحى – وقد اتهم عبد الله بن ميمون بأشد التهم ، واعتبره خارجاً مارقاً على الإسلام ، إلا أنه كان يؤكد دائماً ؛ أنه كان مخلصاً لأئمة الإسماعيليين .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٥٨–١٥٩ .

انتشر عبد الله بن ميمون ورجاله – يدعون إلى الإمام الإسماعيلى ، والإمام فى «كهف الستر» لا يعلم اسمه إلا الأقربون الدعاة الحرم الأربعة والإمام «حى» «موجود» فى انتظار التفاف المسلمين حوله لكى يظهر من دور الاختفاء يملأ الأرض عدلاً ، بعد أن ملأها الظلمة من آل أمية وآل عباس جوراً وفجراً . والإمام المستورد من «آل محمد» أنوار البرية ونجومها ، نجوم السموات ، وأمان أهل الأرض .

ووجد عبد الله بن ميمون الحقل المريع الغالى . من أنصار أبى الخطاب الأسدى ثم المنصورية : أتباع الحسين بن أبى منصور العجلى ، ثم الكيسانية وفروعها . ثم الأبى مسلمية ، وبقايا الثورة المقنعية ، كانت الفلول الضاغنة الحاقدة تتلمس قيادة جديدة ونقطة ارتكاز جديدة ، تنقض بها على عدوها الحاكم ، ثم قام بابك الخرمى بأعنف الثورات فى تاريخ الإسلام ، وقضى بعد عناء على ثورته . وقد عاصر عبد الله بن ميمون كل هذه الحركات وقد تخلف عنها اتجاه جديد هو الاتجاه الشعوبى وفى سهولة نادرة وبعين حذرة وضع عبد الله بن ميمون يده فى أيدى هؤلاء الشعوبيين المتلمسين الفرص ، أى فرصة كانت للقضاء على العرب والإسلام جميعاً . واتخذ المذهب الإسماعيلى «التصوف» ستاراً له فكان الدعاة يتستّرون بالزهد وبالتقشف ويظهرون فى صورة الصوفى الغارق فى تأملاته . ومن الصعوبة بمكان تحديد الأثر والمؤثر هنا . هل أثر التصوف فى الإسماعيلية ، فاستمد الدعاة منه بعض أساليبه . أم أثرت الإسماعيلية فى التصوف فحاكاها وأخذ منها مصطلحاتها ؟ وما زال الباحثون حتّى الآن وراء الآثار الإسماعيلية فى فلسفة ذى النون المصرى . أو الحسين بن منصور الحلاج . إنه من الثابت أن دعاة الإسماعيلية – وعلى رأسهم عبد الله بن ميمون – قد استخدموا التصوف الفلسفى كأداة فى دعوتهم .

وكان السحر والشعوذة والنيرنجات منتشرة فى أوساط الغلاة ، فكان على الدعاية أيضاً إتقانها واستخدامها ، حتّى يموهوا على عوام الناس كما استخدموا أيضاً الحيل الهندسية . وما لا يسبر غوره الجماهير الغافلة . استخدم الدعاة كل شىء كان فى متناولهم حتّى الفلسفة اليونانية ، وبخاصة الجزء الخاص منها بالأسرار فلسفة أفلوطين وفلسفة الفيثاغورية الحديثة . بل استخدم الدعاة الإسماعيليون المذهب المعتزلى ، فدخل أيضاً فى أعماق المذهب الإسماعيلى مزيج غريب من الآراء والمعتقدات أراد به الدعاة أن يشبعوا رغبات ومعتقدات المزيج الغريب من البشر الذى حاولوا جذبه إلى موالاة الإمام الإسماعيلى . وقد حدث هذا كله فى سرية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . وقد دعا هذا إلى تعدد أسماء المذهب الإسماعيلى ، فهو المذهب الباطنى ، وهو الخرمية وهو السبعية ، وهو الفارسية القديمة ، وهو الغلو الشيعى ، وهو الخطابية والمباركية . وهو فعلاً مزيج من هذا أو بمعنى أدق كان هوكذلك فى دور الاستتار فلما ظهر الإمام ، فى مغرب الأرض باسم عبيد الله المهدى . قدم للناس مذهباً إسماعيليًّا فقط ، أى موالاة الإمام الإسماعيلى باسم الإسلام .

ولقد استند المذهب فى دور الستر –كما استند فى دور الظهور– على التأويل الباطنى للقرآن. أعلنت الإسماعيلية أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن الأخذ بالظاهر فقط دون الباطن ، خروج على روح الإسلام . وبهذا المنهج استطاعوا تفسير القرآن وتأويله طبقاً لما يريدون . فالسموات السبع والأرضون السبع إشارة إلى الأئمة السبعة ، والمدبرات أمراً – ليست هى الكوكب والنجوم ، وإنما هى إشارة إلى الأئمة . وقول الله «إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم» هى «جعل صفوة الصفوة من العالمين الجسمانى النطقاء السبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم صلوات الله عليه وجعلهم أصحاب شرائع وأحكام وحلال وحرام ، ثم جعل بين هؤلاء النطقاء الستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثلاثين نبيًّا مرسلين ومبشرين ومنذرين ، ما شرعوا شريعة ولا حولوا قبلة ولا بدلوا أحكاماً ، غير أنهم متبعون لما جاء به النطقاء صلوات الله عليهم ، وعلى الأئمة من ذريتهم» ثم جعل الإسماعيليون بين الناطق السادس وبين القائم السابع – أى محمد بن إسماعيل – أئمة ظاهرين – هم على والحسن والحسين وعلى ومحمد وجعفر ، وإسماعيل . وهؤلاء لم يغيروا ولم يبدلوا شريعة وهم يشبهون النطقاء الخمسة قبل محمد ﷺ . وقد قال القرآن : «ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم» ، فقال النبى ﷺ : «لم يؤتهن أحد قبلى ، ثم جعل منها الأنبياء والأئمة فى كل عصر وزمان أربعاً وعشرين حجة ظاهرة ومثلها اثنتا عشرة حجة باطنة ، ثم مراتب الإيمان وهى المؤمن والمحرم والمأذون والمباح والحجة ، فذلك تسعة وتسعون حدًّا – عدة تفسير أسماء الله الحسنى [(١)] » هكذا فسر الإسماعيلية أسماء الله الحسنى ومن عرف هذه الأسماء الحسنى أى من عرف الأنبياء الناطقين والأئمة الناطقين رفع عنه التكليف – وهذا ما لم ينادبه الإسماعيلية ، ولكنهم غضوا البصر عنه وهم فى دور الستر ، جذباً للأتباع ، وقد أدى إلى أفظع النتائج.

العقيدة الإسماعيلية فى دورها الباطنى :

لم تسبغ الإسماعيلية الألوهية أبداً على الأئمة لقد حارب الإسماعيليون الغلاة الذين ألهوا أو اعتبروا الإمام إلهاً وأعلنوا أن الأئمة عباد مخلوقين . وكائنات مربوبة ، خلقوا من الطين ولكنهم من طينة أسمى من البشر . واختارهم الله اختياراً أزليًّا ، حجة على الخلائق .

ثم استخدموا فى الدور السرى فكرة العقول الأفلوطينية المحدثة فى براعة نادرة حتى يحققوا فكرة السبعة . فرأوا أنه يتحكم فى الكون دائماً سباع أى سبعة من الناطقين : آدم ونوح وموسى وعيسى ومحمد وعلى وينتهى الدور بالقائم محمد بن إسماعيل . هؤلاء السبعة هم السبعة الناطقون الذين تجلى

(١) القاضى النعمان : (فى خمس رسائل إسماعيلية) ص ٣٧ .

فيهم العقل الكلى الموجود ولم يخل العالم فى فتراته المختلفة بين كل ناطق وناطق من موجودات أو كائنات ، تقوم مقام الناطقين ، وتملأ تلك الفترات ، وفيهم أيضاً أعظم مظاهر تجلى العقل الكلى فى نظام بديع وتسلسل فذ . وكل قائم من هؤلاء القائمين يفيض عليه ما فاض على من سبقه ، فهو المظهر الأكمل لكل رسالة سبقته أو نبوة أو علم . وكل ناطق يحمل ما حمله من قبله من ناطقين وقائمين حتى يصل إلى أكمل الصور الكونية . وانتهت دائرة الناطقين الأولين بمحمد بن إسماعيل ، انتهى دور هؤلاء السبعة ، ليبدأ دور السبعة المستورين ، وهكذا دواليك .

لم يعلن الإسماعيليون أبداً أن محمد بن إسماعيل نبى أو أنه أتى بدين جديد ينسخ به الشريعة المحمدية . ولكنهم أعلنوا أنه الولى القائم الذى أتى ليفسر القرآن باطنيًا ، أتى بالتأويل . أما دوائر أهل السنة والجماعة فترى أن الإسماعيلية تصل إلى أفظع النتائج التى يمكن أن ترتبها على فكرة الفيض . الفيض دائم وباق ومستمر ، ودائرته لم تغلق على الإطلاق ، وفى لغة دينية بسيطة لم يكن محمد ﷺ فى المذهب الإسماعيلى خاتم النبيين ولا آخر من يمثل اكتمال الوحى الإلهى – كما يعلن أهل السنة والجماعة . وبهذا رأوا أن الإسماعيلية فى صورتها الفلسفية قد ابتعدت عن الإسلام ابتعاداً كليًا وانتهت إلى مذهب فى المعرفة يتصل بالغنوصيات المتعددة المنتشرة فى العالم الإسلامى وبخاصة غنوص الأفلاطونية المحدثة . ولذلك نرى أهل السنة والجماعة يعتبرون الإسماعيلية من المذاهب الخارجة عن الإسلام ، ويعرضونها تحت اسم الباطنية –فيرى الشهرستانى[1] أنهم فى الحقيقة قرامطة ومزدكية فى العراق ، وبخراسان التعليمية والملحدة وهم يقولون نحن إسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وبهذا الشخص .

وقد قلت من قبل إن الإسماعيلية ليست مزدكية على الإطلاق وليست ثانوية وإنما هى مذهب فلسفى أخذ يتضخم شيئاً فشيئاً ، مبتعداً عن روح الإسلام السنى وعن روح الإسلام الاثنى عشرى ، وقد عرضنا صوراً منه وسنعرض الآن لتطوره فى صورة أكثر فلسفة ، ويعتبر الشهرستانى هذه الصورة هى صورة الباطنية القديمة : وهى هى الإسماعيلية فى صورة أكثر عمقاً . لقد تنبه الشهرستانى إلى تطور المذهب الإسماعيلى وأخذ بصور متعددة فقال «وكانت لهم دعوة فى كل زمان ومكان جديدة بكل لسان [2] » .

ذهبت الباطنية القديمة ، إلى أنه لا يمكن أن تخلو الأرض من إمام حى قاهر ، وهذا الإمام إما أن يكون ظاهراً مكشوفاً ، وإما باطناً مستوراً ، وإذا كان الإمام مستوراً ، فلابد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ . (٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

وتدور أحكام الأئمة عند الباطنة على سبعة : أى أن أدوار الإمامة سبع ، وأن السابع هو آخر الدور ، والدور الأول انقضى بإسماعيل بن جعفر وابتدأ الدور الثانى بمحمد بن إسماعيل . والدور يتم بسبعة بعد الناطق – وهو الرسول محمد ﷺ . ويبتدئ بالأساس وأساس الناطق هو الوصى على بن أبى طالب ، ثم من القائمين بعد الأساس ، فمتى انقضى هذا الدور تلاه دور آخر فيه ناطق ناسخ لشريعة من قبله وأساس ، يتلوهم أئمة ، ثم كذلك إلى ما لا انقضاء له ولا نهاية .

أما عدد النقباء فاثنا عشر . وقد أخطأت الإمامية القطعية – أى الاثنا عشرية – حيث قرروا عدد النقباء للأئمة . وهنا خلاف بين مع الإمامية الاثنى عشرية . ثم يقررون «إن من مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية ، وكذلك من مات ولم يكن فى عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية .

أما نظريتهم فى الألوهية فهى نظرية كلامية تثبت تمام الإثبات أن الإسماعيلية تؤمن بوجود إله واحد على طريقة إسلامية ، وقد نقل إلينا تقى الدين بن تيمية طريقتهم فى التدليل على وجود الله وموقفهم من الصفات عن كتاب مفقود اسمه الأقاليد الملكوتية لأبى سليمان السجستانى المعروف بالمنطقى ، وقد اعتبره إسماعيليًّا وقرمطيًّا . ثم ظهرت المخطوطات الإسماعيلية التى نشرت حديثاً . وفيها أيضاً نفس الفكرة فى نظرية الصفات التى عرضها ابن تيمية عن السجستانى . وقد حاولت الإسماعيلية أن تنزه الله عن النفى والإثبات . وقد كان منهج الباقر ، ثم منهج الصادق بعده . وهاكم ملخص فكرة الإسماعيلية فى هذا الدور الناضج من أدوار حياتها .

الله واحد قدير عالم . . . إلى آخر تلك الصفات . هو لا موجود ولالا موجود لا عالم ولا جاهل ، لا قادر ولا عاجز ، وفكرتهم فى ذلك أن الإثبات الحقيقى يقضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقت الصفة فيها عليه ، وهذا تشبيه عند الباطنية ، أنهم نزهوا الذات الإلهية عن الحكم بالإثبات المطلق ، كما أن النفى إنما هو سلب صفات عن الله ، ولا يجوز أن يوصف الله بالسلب ، أى لا يجوز أن يحكم عليه بالنفى المطلق ، فهو إله المتقابلين وخالق الخصمين والحاكم بين المتضادين ، أو بمعنى أدق تعلو الذات الإلهية عن كل صفة وعن سلب هذه الصفة ، أو تعلو عنها سلباً وإيجاباً ، أى نفياً وإثباتاً [1] .

حاول ابن تيمية أن يعلل المسألة تعليلاً منطقيًّا طريفاً ، وهو ينقل إلينا نصوصاً على جانب كبير من الأهمية من هذا الكتاب : الله لا يوصف بالنفى ولا بالإثبات ، فهو لا ! ولالا ! ، فإذا رجعنا إلى القانون المنطقى البديهى ، قانون عدم التناقض نجد أن أبا سليمان السجستانى الباطنى قد تنكب هذا الطريق ، ومجاحدة البديهيات أمر لا يستسيغه عقل إنسانى .

(١) ابن تيمية : العقيدة الاصفهانية ص ٧ و ٢١ .

وكأن أبا سليمان السجستانى لديه الرد الكامل على ابن تيمية إذ ذكر «إننا لم نجمع بين متناقضين بل رفعناهما [١] » . وثمة فرق بين الجمع المتناقضين وبين رفعهما ، إن كان الأول غير ممكن عقلاً وفعلاً ، ويبدو أن أبا سليمان السجستانى ، وقد فهم ابن تيمية هذا أيضاً ، غالط ، أو لم يفهم الأمر ، فقد كان من قوانين اليونان التى عرفها المسلمون أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فقانون الثالث المرفوع قانون منطقى ، لا شك فى ذلك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن قانون الثالث المرفوع هو الصيغة الشرطية لقانون عدم التناقض ، وعلى أى حال نجد الباطنية فى فكرتهم عن الصفات الإلهية قد خرجوا خروجاً واضحاً على قانون من بديهيات المنطق الأرسططاليسى ، ويدل هذا على عبقرية عقلية ناضجة وقد شعروا بهذا الخروج ، وهذا دليل واضح على أن الخروج على تلك القوانين فى العالم الإسلامى كان أمراً مستساغاً ، ونحن نرى هذا الخروج عند المعتزلة ، وعند مفكرى أهل السنة والجماعة كإمام الحرمين وأبى بكر الباقلانى فى مبحث الحال المشهور – صفات الله هى صفات وراء الذات لا موجودة ولا معدومة .

المهم أننا نرى مفكراً كابن تيمية ، وهو يتلمس جميع الحجج لمهاجمة الباطنية ،يلجأ إلى المنطق اليونانى وهو عدوه الأكبر فيعرض عليه منهاجاً باطناً فى الاستدلال ويبين تهافته تهافتاً تامًّا ، وإذا ما هاجم طائفة أخرى من طوائف المسلمين فى خروجها على هذا المبدأ ، أعلن أنهم يتشبهون بالباطنية فى هجماتهم على بديهيات المنطق الأرسططاليسى .

أما كيفية نسبة صفة من الصفات إلى الله فيتخلص منها الباطنية بتحليل لطيف نسبوه إلى الإمام محمد بن على الباقر : لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم وقادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة . ولذلك هاجمهم أهل السنة والجماعة بأنهم نفاة للصفة الحقيقية ، وبأنهم معطلة لذاته عن جميع صفاته . وقد تناول نفيهم صفة القدم ، فقالوا : إنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته [٢] .

كيف أبدع الخلق؟ هنا نجد الباطنية يتجهون إلى الأفلاطونية المحدثة يلتمسون منها أساساً لفكرتهم ، أبدع الله أول الأمر العقل الأول ، والعقل الأول تام بالفعل ، ثم بتوسط هذا العقل أبدع النفس ، والنفس غير تامة ، ونسبة العقل إلى النفس نسبة النطفة إلى تمام الخلقة . ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، والحركة تحتاج إلى وسيلة ، فوجدت وسيلة ، أوحدثت ، وهى الأفلاك السماوية ، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس .

(١) ابن تيمية : العقيدة الاصفهانية ص ٧-٢١ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

نتزل درجة فى سلم الموجودات ، فحدثت الطبائع البسيطة بعد حدوث الأفلاك ، وتحركت هذه الطبائع بفعل النفس فتركبت عن تلك الحركة المركبات من المعادن ، والنبات والحيوان والإنسان ، والحركة فيما نعلم كثرة وتعدد ، وفاضت من النفس نفوس جزئية سرعان ما اتصلت بالأبدان ، وهنا كان نوع الإنسان وحده متميزاً بالاستعداد لفيض الأنوار العليا عليه ، لأن مادته من مادة النفس العاشقة التى تتجه نحو المعشوق بحركات مختلفة تتفاوت كمالاً ونقصاً ، ولابد أن يكون فى هذا العالم الأرضى ما يقابل نظام العالم الكلى الكونى .

ينبغى أن يكون ثمة عقل ونفس ، أما العقل فهو عقل شخص هوكل ، أما حكم هذا الشخص إذا ما حاولنا أن نضعه فى لغة أرضية نفهمها فهو حكم الشخص الكامل البالغ ، هو الناطق ، وأسماه أهل الشريعة النبى ، أما النفس فهى نفس مشخصة ، هى كل أيضاً ، حكمها هو حكم الطفل الناقص الذى يصبو إلى الكمال ، أو حكم النطفة التى تتجه إلى النضج والتمام ، وأسماه الباطنية الأساس ، وهو ما يقابل عند جمهور الشيعة الوصى ، فالناطق إذن ، والأساس فى العالم الأرضى ، يقابلان العقل والنفس فى العالم العلوى ، وإذا كانت الأفلاك والطبائع تحركت بحركة من النفس ، وبالتالى من العقل كذلك تحركت النفوس الجزئية وأشخاصها الجسمانية بفعل الناطق والوصى بواسطة الشرائع فى آنات معينة دائرة على سبعة سبعة حتى تنتهى إلى الدور الأخير ، وفيه ، أى فى الدور السابع من الأدوار . ترتفع التكاليف ، لا سنة ولا شريعة ولا قانون ، إنما يطل زمان القيامة بأشراطه ، وفى هذا الدور الأخير تعود النفس الجزئية بواسطة الشرائع التى أظهرتها ، ثم انحلت عنها ، حالما قاربت الكمال ، تعود مرة أخرى إلى النفس الكلية ، كذلك هذه الحركات الفلكية الطبيعية تعود كثرتها بعد إلى الوحدة ، كانت غايتها بلوغ النفس إلى حال كمالها بحركة شوق إلى الاتصال بالعقل واتحادها به ووصولها إلى أعلى مرتبة كونية إلى العقل بالفعل ، فإذا ما أتمت الحركات الفلكية دوراتها السبعة الأخيرة وقام آخر ناطق ، وآخر وصى ، بتحريك النفوس حركتها الأخيرة ، عادت النفس عقلاً بالفعل « وذلك هو القيامة الكبرى فتنحل تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات ، وتتناثر الكواكب وتبدل الأرض غير الأرض وتطوى السماء كطى السجل للكتاب المرقوم فيه » . هنا يبدأ الحساب ، ويتميز الخير من الشر وتتصل جزئيات الحق بالفعل الكلى ، وجزئيات الباطل بالشيطان المبطل [١] .

وتعود الحركة سكوناً ، وتعود الكثرة وحدة ، ولم يعد إلا العقل الفعال يتأمل ذاته فى نعيم أبدى سرمدى ، وهنا الكمال « من وقت الحركة إلى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون إلى ما لا نهاية له هو الكمال » [٢] .

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٨ .

تلك هى الصورة التى قدمها لنا مفكر أشعرى عن النظرية الإسماعيلية فى النظام الكونى . وسنقدم الآن للقارئ صورة من التراث الإسماعيلى نفسه – وهى صورة يرسمها لنا الداعى الإسماعيلى حاتم بن عمران بن زهرة المتوفى عام ٤٩٧ هـ فى رسالة الأصول والأحكام وأبو يعقوب السجزى فى رسالته تحفة المستجيبين .

«كان الله ولا شىء» وهذا الأصل مأخوذ من الحديث كان الله ولا شىء معه – ثم أوجد الموجود الأول وقد سمى أولاً ، لأنه الأولية التى ظهرت منها الموجودات ، لأن كل أيس أى كل جوهر فهو مطبوع عليه وهو عند الحكماء العقل . يقول السجزى «العقل هو أول خلق ظهر من أمر الله . . .» ولم يوجد الله فى أول الخلقة غير العقل وحصر فى جوهره صور المبدعات كلها ، كى لا يذهب شىء منها[1] .

وتستند الإسماعيلية هنا على الحديث الفلسفى «أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل ، فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر . . . إلخ» وهذا الموجود الأول ويسمى العقل أحياناً بالقلم ، لأن بالقلم تظهر نقوش الخلقة من الابتداء إلى الانتهاء – من العقل ينفطر التأييد فى النفوس الزكية ، ومن القلم تنفطر الحروف الجامعة للكلام . ويسمى العقل أيضاً بالعرش ، ومعناه «أن إقرار معرفة التوحيد ، هو ما يتقرر فى العقل من الإثبات والنفى . وبالعقل تعرف جلالة الله وعظمته عن سمات بريته ، كذلك العرش ، هو مقر لمن جلس عليه ، وبجلوسه عليه تعرف جلالته عن من هو منحط دونه ، ويقال للعقل السابق . ومعناه أن العقل أسبق لقبول آثار الكلمة قبل سائر الحدود لقربه منها ، واتحادها به . وهى ، والعلم والأمر – اللذان هما بمعنى واحد قد يجوز أن العقل فعله سبق قوته . ولم توجد هذه الفضيلة فى أنسى سواه لأن جميع الحدود من دونه تسبق قواتهم أفعالهم ، أما العقل وحده ، هو الذى يسبق فعله – كما قلنا قوته . وهذه خاصية للعقل وحده ليكون بها تامًّا كاملاً . ويستند الإسماعيلية هنا على مبدأ أرسطاليس : وهو أن من تسبق قوته فعله لا يكمل إلا بخروجه من القوة إلى الفعل .

ويسمى العقل أيضاً عند الإسماعيلية بالقضاء . وذلك النفس – وهى الخلق الثانى بعد العقل – تقتضى – بالعقل – إدراك المعلومات ، وأن تظفر بما هو مطلوب أو سميت بالقضاء ، لأنه قضاء الله بين خلقه ويسمى العقل أيضاً بالهيولى ، لأن «بالعقل قوام ما ينبجس من الصور المستفادة ، كما أن الهيولى هى قوام الصور المستفادة من الطبيعة .

ويسمى العقل بالشمس ، لأن بالعقل نبصر الحقائق ، كما أن بالشمس نبصر المحسوسات من الصور والألوان[2] هو المبادئ العقلية أو القوة القابلة للطائف المبروزة المنبثة دفعة واحدة فيضا» ثم

(١) السجزى : تحفة المستجيبين ص ١٤٦–١٥٥ .
(٢) السجزى : تحفة المستجيبين ص ١٤٦–١٥٥ .

أوجد الموجود الأول من العقل أثراً منفعلا هى النفس الكلية أو نفس العالم . والنفس – وهى الخلق الثانى المنبجس من الخلق الأول ، وإنما سميت نفساً « لأنها تتنفس دائماً للاستعادة ليكون بتواتر تنفسها قوام الخلقة » وتسمى أيضاً باللوح ، لأن الذى انفطر من العقل من أنوار الكلمة بتسطر فى النفس ، ومن النفس يتصل بجريانها المنبعثة منها على مقدار صفاتها ولطافتها ، وتسمى النفس « بالملك » ومعنى ذلك أن النفس هى ملك العقل وعبدته ، لأن بالنفس ظهرت فضيلة العقل ، كما أن بالملك تظهر فضيلة الملك . وتسمى النفس لأنها الحال الثانى لجميع المخلوقين . ويقال لها التالى ، أى أنها تتلو العقل فى قبول آثار الحكمة ويقال للنفس القدر ومعنى هذه التسمية أن الذى يتحد بالنفس من فوائد العقل ، فإن التقدير والتحديد محاطان به . وتسمى النفس الصورة ومعنى هذا أنها تصورت من جوهر العقل الذى به تقف على فوائده . وهى العمر ، فتستفيد من أنوار العقل وضيائه ، وأنها متى همت أن تلحق به ، لتنزل منزلته ، محق نورها ، كما أن القمر يستفيد نوره من نور الشمس ، وإذا اجتمع مع الشمس فى المنزلة محقت نوره . والعقل والنفس هما الأصلان ، إليهما مرجع الأشياء جميعا روحانيًّا أو جسمانيًّا، وهما الهيولى والصورة [1] .

وتؤثر النفس أى الصورة فى المادة الأرضية بقوالبها الإبداعية وجواهرها العقلية إنها صور الأشياء الطبيعية والجسمانية ، فظهرت الأفلاك والعناصر والأرض والسماء فى أربع وعشرين ساعة بحركة كلية ، وتناهت – أى انتهت – بعد ظهورها . أو بمعنى أدق لم يعد خلق جديد . ثم إن لكل جنس من الحيوان صورة روحانية تظهر وجودها فى الأجسام الهيولانية . ودارت الأفلاك واقترنت المدبرات ، فنزلت الأمطار وتصاعدت البخارات ، فأثار السحاب باختلاط الاستقصات (العناصر الأربعة) وامتزاج الأمهات (الأصول) فأمطرت الأرض ماء ، ثم أخرجت جثث الحيوان والبشر جميعاً وكل ما ظهر فى العالم من الكثيف واللطيف والمركب – ويستند الإسماعيلية فى هذا إلى قول الله « والله أنبتكم من الأرض نباتا » أى بظهور الأجساد التى هى من غير نطفة ، والأرواح بالقوة الإلهية المتكونة بالعالم الإلهى المعتدل الشريف .

أما أول بدء الكون فهو عرش الرحمن على الماء ، وقد تصاعد البخار وظهر الدخان ، فخلق من طبعه السموات والكواكب ، ومن أفعال هذه الكواكب خلق الأرض والمركبات . ويستند الإسماعيلية إلى قول الله « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

وأوجد الله الخلق دفعة واحدة وأظهر ما فى القوة إلى الفعل ، فعادت النفس الناطقة إلى أسبابها

(١) نفس المصدر ص ١٤٦–١٥٥ .

التى لا تفسد ولا تموت ، أما النفس البهيمية ، فقد جذبتها وغلبت عليها اللذة الأرضية . فإذا تخلصت من هذه اللذة ارتقت إلى العالم الشريف – عالم العقل ، واستقرت به ولحقت بعنصرها الأعظم الذى منه بدت . وفارقت الكدورات والظلمات ، وصارت صورة لطيفة دراكة ذات أنوار مضيئة .

أما بدء الأوائل فى العالم فستة (١) العقل مع الدهر (٢) النفس مع الزمان (٣) الهيولى مع الأركان (٤) الطبيعة مع الأجسام . ويقابل هذه الأوائل الأصلان العليان المنبعثان وهما (٥) الكلمة (٦) والأمر . فهناك إذن ستة أوائل من عالم الربوبية ويقابلهم من البشر خلق ظاهرون أى يتملكون القوة الإلهية فى كل عصر وزمان ، يخرجون من البهيمية وبحر الندم . ويسميهم الإسماعيلية الملائكة – وهم على الترتيب . أناس عالمون وأمناء مقربون ورسل مصطفون وخيرة روحانيون وأملاك مرسلون وعباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقد أخبر الله عنهم « وما منا إلا له مقام معلوم » أوكما قال تعالى « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ثم خلق الله الأرض فى ستة أيام ، وخلق السابع يوم التمام « ودل عليه بخمس حدود علوية ، وأصلين بهما تم الوجود ، ثم خلق الله لهذه الأرضين والسموات أنبياء لهم مقامات وظهور فى الأزمنة والأدوار إلى تمام الميقات . ثم جعل الشمس والقمر دليلين على هذه الأرضين ، فهما أبوا هذه العوالم . وهما رمزان لمحمد ﷺ ، وعلى وقد قال الرسول لعلى « أنا وأنت يا على أبوا هذه الأمة وعلى عاتقنا لعنة الله [١] » .

فالشمس – أى محمد – هو الدليل على النور ، يخرج منه التأثير لعلى ، فيقبل القمر النور من الشمس . أى يقبل على النور من محمد . وهنا نجد أيضا عليا العرجون القديم فى دوراته وحركاته .

ولما ابتدأ الأمر ، فاض على عالم العقل بأمر الله ، وفاض العقل على عالم النفس بأنواره ، وفاضت النفس على من دونها فامتلأ عالمها من فيض العقل الممتلئ من فيض الله ، فاضت أقطار السموات بالسموات ، وبدأت الحركات والمدبرات من الأوامر ، فقبلت فيض الأمر بما دونه من عالم الكون والفساد حتى ظهر الإنسان :

ظهر الإنسان ، مزيجا من روح وجسد ، فخص الله بذكر الأنوار العقلية أصحاب الأنوار السنية الذين عندهم علم الكتاب : الأنبياء والأوصياء والأئمة ، فأشرقت نور الرسالة بنفوسهم المقدسة وعقولهم المنورة ، ونزل الوحى بالفيض الأمرى على قلوبهم المنبهة . وتجمعت هذه الأنوار فى الناطق ، توالت عليه الأنوار الفلكية بمواد النفس الكلية لكى يشرف على النفوس الجزئية ويظهر فيها السعادة العظمى المنبثة من العلة الأولى وليطهرها من دنس الخطيئة . فقام بالشريعة ونشر قواعدها « وهذه سنة النبيين وبداية الأمر ونزول الروحانيين إلى الجسمانيين » .

---

(١) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٣ .

وكان آدم صاحب الدور الأول أول « جسمانى » تعبد الله وأظهر أمره وهو صاحب الخلافة «وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » وكانت حجته زوجته حواء ونقباؤه اثنا عشر ملاكاً ، وهم الذين سجدوا له .

وكان نوح صاحب الدور الثانى ثم على التوالى إبراهيم وموسى وعيسى . وأخيراً أتى محمد ﷺ — وهو صاحب الدور السادس ، فنسخ شريعة من قبله من النطقاء ، وقام بباطن شرائع من تقدم قبله ، « والأئمة من بعده متممون لشريعته ومحيون لسنته » — قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » فليس بعد شريعته شريعة تنسخها . ثم نصب أساسه على بن أبى طالب ، ويأتى بعده القائم السابع متمما « دور القرآن العظيم » وهو خاتم الواترات العظمى ومنتهى السدود (١) .

وهذه هى أيضا أفلاطونية محدثة واضحه نجد فيها نظرية الفيض المشهورة ، وإن كان يعبر عنها بالانبجاس . ونلاحظ أنه لا يوجد ثمة اختلاف بين هذا العرض الإسماعيلى لنظريتهم الميتافيزيقية إنه لا يختلف كثيراً عن تصور الشهرستانى له .

ثم نرى إسماعيليًا متأخراً وهو الكرمانى — الداعى المشهور فى عهد الحاكم والذى ينسب إليه كتابة رسائل إخوان الصفا يستخدم نفس النظرية — ويعبر عن الفيض بالإبداع والانبثاث. وترى الأفلاطونية المحدثة واضحة فى كتابه « راحة العقل » .

وقد تنبه الشهرستانى بمنهجه المقارن إلى أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة . وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج (٢) . ومن الواضح تماماً أن أحد مصادرهم الرئيسية الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

أما البغدادى فيحاول أن يرد كتاباتهم إلى مصدر واحد هو المصدر الثنوى فيقرر أن الباطنية تذهب إلى أن الإله خلق النفس . فالإله هو الأول ، والنفس هى الثانى والاثنان يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبع والطبائع الأربعة ويرى البغدادى أن هذا هو قول الثانوية إن النور والظلمة يدبران أمر العالم وقولهم إن الأول والثانى يدبران أمر العالم وهو عين قول المجوس الذين يضيفون الحوادث إلى صانعين (٣) .

وهذا تفسير بعيد كل البعد عن المذهب الإسماعيلى . إنه مذهب غير ثنوى قطعا . حقًّا إنه تأثر بالمجوسية أو بالثنوية فى بعض جزئياته ولكن جوهر المذهب ليس مجوسيًّا . ويبدو أن من الخطأ الشديد أن نرد العقائد الإسماعيلية إلى مصدر واحد . لقد أخذت مادتها من الفلسفة اليونانية — كما صورها

(١) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٧ .

(٢) الشهرستانى :الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ١٧١—١٧٢ .

المسلمون ، مزيجاً من فلسفات أفلوطين وأرسطو والفيثاغورية الجديدة وعقائد مسيحية ويهودية . ولا شك أن بعض العناصر المجوسية دخلت فى خلال هذا . ولكن القول بأن نظرية العقل الكلى والنفس الكلية هى نظرية ثانوية فليس بحقيق . إنها نظرية أفلاطونية محدثة . استخدمها دعاة الإسماعيلية ، كما استخدموا نظرية الفيض الأفلاطونية . أما أهم المصادر لـلإسماعيلية ، فى مختلف صورها ، فهو الفيثاغورية المحدثة مختلطة بأفلوطينية .

ويتضح هذا من تفسيرهم الهام للشرائع نفسها فى صور أعداد ترمز إلى أئمة وحجج وأسس ، وتولية هؤلاء « قالوا ما من فريضة أو سنة أو حكم من أحكام الشرع – من بيع وإجارة وهبة ونكاح وطلاق ، إلا وله وزان من العالم عدداً فى مقابلة عدد ، وحكماً فى مطابقة حكم ، فإن الشرائع عوالم روحانية أمرية ، والعوالم شرائع جسمانية خلقية ، وكذلك التركيبات فى الحروف والكلمات على وزان تركيبات الصور والأجسام والحروف المفردة نسبتها إلى المركبات من الكلمات كالبسائط المجردة إلى المركبات من الأجسام ، ولكل حرف وزان فى العالم وطبيعة يخصها ، وتأثير من حيث تلك الخاصية فى النفوس » وترى الإسماعيلية الباطنية أن معرفة أسرار الأعداد ، وما ترمز إليه من شريعة أصبحت « علما تعليميا » أى يؤخذ من الإمام ، وهذا العلم المستفاد من الإمام هو غذاء النفوس ، كما أن الأغذية المستفادة من الطبائع الخلقية غذاء للأبدان ، وقد قدر الله تعالى أن يكون غذاء كل موجود مما خلقه منه . وقد أدى هذا العلم التعليمى إلى قيام الأئمة الباطنية الإسماعيلية وحججهم « بذكر أعداد الكلمات والآيات ، وأن التسمية مركبة من سبعة واثنى عشر » أى الأئمة السبعة والنقباء الاثنا عشر . » وكذلك فى كل آية أمكنهم استخراج ذلك » . وهذا هو تأثير القبالا اليهودية فى المذهب الإسماعيلى وقد كانت القبالا منتشرة فى العالم الإسلامى .

كان هذا المنهج الباطنى فى تفسير الآيات ديدن الأئمة الإسماعيلية ، وقد أرجعوه إلى علم إمام الزمان الذى يعرف وحده « موازنات هذه العلوم ، ويهتدى إلى مدارج هذه الأوضاع والرسوم [١] .

كان هذا المنهج الباطنى سلاحا ذا حدين ، هو إما أن يتجه إلى تثبيت الإسلام الشيعى الإسماعيلى أو الاثنى عشرية وإما إلى محاولة القضاء على الإسلام كله ، وبخاصة فى الأماكن البعيدة عن مركزالدعوة فى سلمية كاليمن مثلا أو الجهات البعيدة فى فارس . بل سنراه أيضا قريباً من سلمية فى جنوب العراق وشمالها يتخذ تلك الصورة الفريدة فى نوعها وهى صورة حركة هزت العالم الإسلامى – وهى صورة القرامطة ، كما سنرى فى أيدى الدعاة كأحد الكيال حركة فلسفية خطيرة . وسنتابع فى الفصول المقبلة الصور المختلفة للفلسفة الإسماعيلية أو للفلسفات الإسماعيلية .

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٩ .

الفصل الثالث

الإسماعيلية فى اليمن

تولى الإمامة الإسماعيلية بعد الإمام أحمد ابنه الحسين ، وقد تلقب بالمقتدى وبالزكى . وقد اختلفت آراء الباحثين فى حجته – كما نرى بعد . ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن ميمون كان حجته فى أخريات حياته – ويقال إن ابنه حسين بن عبد الله بن ميمون كان هو حجته ، ولكن المؤرخين يذكرون أن حسيناً مات فى حياة أبيه عبد الله بن ميمون – والبعض يرى أن حجته كان أحمد بن عبد الله بن ميمون والآخرون يرون أن حجته هو محمد بن أبى الشلعلع – من أبناء عبد الله أيضا ، وإن فحص هذه الأسماء إنما يهم البحث التاريخى – أما نحن هنا ونحن وراء الأفكار الفلسفية ، فيمكننا أن نقول إن الإمام الحسين تولى زعامة الإسماعيلية ، وكان أحمد بن عبد الله القداح حجته ، سواء أكان أحمد هذا الابن الأكبر لعبد الله بن ميمون أم لا ، أم كان هو أبا الشلعلع وإن هذا الإمام كان على جانب كبير من العلم والثقافة ، وأنه كتب « الجامعة » شرحا لرسائل إخوان الصفا . وقد تمكن هذا الإمام بواسطة دعاته وحججه أن ينشر دعوته فى أرض سبخة للمذهب الإسماعيلى على الخصوص – وهى اليمن .

وقد اختار عبد الله بن ميمون القداح للدعوة رجلين كان لهما شأن كبير فى تاريخ اليمن . أما أولهما : فهو القاسم ، رستم بن الحسين حبيب بن زادان [1] النجار الكوفى المشهور بابن حوشب . كان أبوه من الشيعة الإمامية ، وكان يدعى الانتساب أيضاً إلى ولد مسلم بن عقيل كما فعل عبد الله بن ميمون من قبل من الانتساب إلى بنى عقيل [2] تمكن عبد الله بن ميمون ، ثم ابنه حسين من بعده من جذب الرجل إلى المذهب الإسماعيلى ، وقد لقناه علم النجوم وعلوم الفلسفة حتى برع الرجل فى كل تلك العلوم . وكان أبناء القداح يعدونه للدعوة فى اليمن . وكانت الدعوة فى اليمن تسير بحذر وبطء ، ولكن كان لها بعض المراكز ، وبعض العيون ، وما لبث عبد الله بن ميمون أن علم بزيارة أحد كبار رجال الشيعة الإمامية اليمنيين للمشاهد المقدسة فى كربلاء وهو على بن فضل الجدنى – وهو ينتسب إلى قبيلة يمنية كبيرة . وخرج الإمام حسين الإسماعيلى لمقابلته . وأمام قبر الحسين كان على بن فضل يبكى الحسين ابن فاطمة وينوح ويقول : بأبى أنت يا ابن الزهراء المضرج بالدماء ، الممنوع من شرب الماء :

---

(١) يرى بعض المؤرخين أنه ابن دندان وأنه ابن حفيد لدندان الشعوبى الخطير .

(٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٧ .

وما لبث عبد الله بن ميمون وابنه الحسين أن قابلاه – وقابل على بن فضل – فيما بعد – الإمام حسين . واعتنق ابن فضل الدعوة الإسماعيلية وجمع ابن ميمون الاثنين ابن حوشب وابن فضل وأخذ يلقنهما دروس الدعوة .

يذكر اليمانى أن ابن ميمون قال لابن حوشب : يا أبا القاسم إن الدين يمانى والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من اليمن ، فإن يكون ثابتا كثبوت نجم النجم ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى أقاليم الدنيا ، ولا بد من خروجك إلى هناك أنت وأخوك على بن فضل اليمانى (١) ، فسيكون لكما شأن وملك وسلطان فى اليمن فكونا على أهبة ، وخرج الاثنان إلى اليمن عام ٢٦٧هـ – وهو عام افتتاح الدعوة الإسماعيلية الرسمى ، وأخذ كل منهما يدعو فى ناحية منها وما لبث ابن حوشب أن اتخذ « دار هجرة » كما يفعل الدعاة الإسماعيليون عادة ثم نجح نجاحا باهرا ، وتسمى بمنصور اليمن ، وملك معظم أراضيها بحيث يقول الداعى الخطاب بن الحسين « كان بمثابة الفجر المتنفس ، وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة ، وأنار حنادس الظلمة (٢) » .

وقد أصبحت إمارة بن حوشب بعد ذلك مدرسة للدعاة ، ومنها أرسل ابن حوشب الداعيين المشهورين الحلوانى وأبا سفيان إلى المغرب وقد تعلما فى مدرسة الدعوة فى اليمن أصولها : كما تعلما التفسير الباطنى للقرآن. ثم ودعهما ابن حوشب بقوله « قولا لكل شىء باطن . واذهبا فالمغرب أرض بور ، فاحرثاها وأكرياها ، حتى يأتى صاحب البذر » وصاحب البذر هو الداعى الأكبر أبو عبيد الله الشيعى . وقد استجاب لهما أهل كتامة . فلما توفى الداعيان، أرسل ابن حوشب أبا عبد الله الشيعى المشهور . وقد مهدت له الأرض ، فكان ثمرة مجهوداته إنشاء الدولة الفاطمية . وقد بقى ابن حوشب مخلصاً للدعوة الإسماعيلية ، ثم لعبيد الله المهدى حتى وفاته .

وينبغى أن نلاحظ أن ابن حوشب اتخذ فى أول الأمر ستاراً سنيًّا ، ثم بدأ يبث دعوة التأويل ، وحين جذب الأتباع ، وأقام دار الهجرة أعلن عقيدته الإسماعيلية كاملة ، وهى موالاة الإمام الإسماعيلى ، طبقاً لفكرة الدور السبعى ، ثم بقية المذهب فى صورة معتدلة ، ولكنها لم تمنع اليمانى من أن يدعوه بالقرمطى . وكان اليمانى من أشد الناس على الإسماعيلية . إنه يرى أن ظهور الميمونية القداحية كان فى الكوفة على يد عبد الله بن ميمون القداح عام ٢٧٦ هـ « وما كان له من الأخبار المعروفة والمنكرات المشهورة الموصوفة ودخوله فى طرق الفلسفة ، واستعماله الكتب المزخرفة ، وتمشيته إياها على الطغام ومكيدته لأهل الإسلام » .

(١) اليمانى : كشف.. ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الخطاب بن الحسين : غاية المواليد ص ٣٩ .

ويرى أنه جعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً ، ولكل حديث عن رسول الله ﷺ تأويلا ، وزخرف الأقوال ، وضرب الأمثال ، وجعل لآى القرآن شكلا يوازيه ، ومثلا يضاهيه ، وأنه كان على علم بعلم التنجيم والفلك .

أما أساس دعوته فهى الدعاء إلى الله وإلى رسوله فى ظاهر الأمر ، ويحتج بالقرآن ومعرفة مثله وممثوله ، كما كان يقرر موالاة على بن أبى طالب بالتقديم والإمامة ، والطعن على جميع الصحابة بالسب والأذى .

تلك هى الدعوة التى حملها ابن حوشب إلى اليمن عن أستاذه عبد الله بن ميمون أو ابنه الحسين بن عبد الله أو ابنه عبيد الله – أو الإمام الحسين نفسه الإسماعيلى . ولكن هل كان ابن حوشب – فيما سوى ذلك يبيح الفروج . إن اليمانى يذكر أنه كان يقول بعد انتصاراته الكثيرة « والله ما أخذت هذا الأمر بمالى ولا بكثرة رجالى وإنما أنا داعى المهدى الذى بشر به النبى ﷺ » ولكنه يذكر أنه حين استولى على جبل مسور بنى حصناً وبنى فيه داراً أسماها دار التحية « فعند ذلك أحل ما حرم الله ، وكان يجمع أصحابه فى ذلك القصر ونساءهم يرتكبون الفواحش [1] .

هل من السهولة بمكان أن نصدق هذا . وهل يعقل أن يفعل هذا فى وسط بطون عربية يمانية ؟ .

وهل كان ابن حوشب داعياً للقداح أو داعياً للإمام الحسين نفسه ؟ ولماذا بقى على ولائه للفاطميين وكانوا بعيدين عنه ، وكان هو صاحب السلطان فى اليمن ؟ هل كان يعلم أنه يعمل لرجل يقول عنه اليمانى : كان القداح يعتنق اليهودية ويظهر الإسلام ، وهو من اليهود ومن ولد الشلعلع من مدينة بالشام يقال لها سلمية وكان من أحبار اليهود وأهل الفلسفة الذين عرفوا جميع المذاهب وكان صانعاً يخدم شيعة إسماعيل بن جعفر وكان حريصاً على هدم الشريعة المحمدية لما ركب الله فى اليهود من عداوة الإسلام وأهله والبغضاء لرسول الله [2].

هل كان ابن حوشب من الجهالة والحماقة بحيث يتبع رجلا يهوديًّا لمجرد أنه عارف بالفلسفة وأحكام النجوم ، فيخرج إلى بلد بعيد ، يحارب ويقاتل وينشىء دولة لأجله ولأجل أولاده . إن الحل الصحيح أن ابن حوشب أرسل من لدن الإمام الحسين نفسه بعقيدة إسماعيلية خاصة ، ولو لم يكن معتقدا أنه على الحق لاحتذى حذو على بن فضل حين خرج على المهدى عبيد الله وادعى الأمر لنفسه وأعلن نبوته . إنه لم يفعل هذا ، بل حارب غلو على بن فضل . وهذا يدل على أن الرجل لم يكن غالياً إسماعيليًّا ، وإنما كان من رجال الإسماعيلية المعتدلة .

* * *

---

(١) الحمادى اليمانى : كشف.. ص ٢٦–٢٧ . (٢) الحمادى اليمانى : كشف أسرار.. ص ١٧ ، ١٨ .

أما الشخصية الثانية : وهى شخصية على بن فضل الجدنى ، وبينما كان ابن حوشب عراقيًا ، كان ابن فضل يمنيًا . وقد قال هو نفسه للقداح حين دعاه فى الكوفية« والله إن الفرصة ممكنة باليمن ، وإن الذى تدعو إليه جائز هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم ، وذلك لما أعرف فيهم من ضعف الأحلام وتشتيت الرأى وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية »(١) . وحين عاد على بن فضل إلى اليمن ، ذهب إلى سرو يافع وبنى مسجداً على رأس جبل فيها ، « وأخذ بالنسك والعبادة فكان نهاره صائماً وليله قائماً . فأنسوا إليه وأحبوه وافتتنوا به ، ثم إنهم قلدوه أمرهم وجعلوا حكمهم إليه ، فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل ، ويسكن بينهم . فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال ضلال ، إلا أن يعطونى العهود والمواثيق أن لا يشربوا الخمر – ففعلوا ذلك وأنهم ينكرون المنكر وينكرون على أهل المعاصى بأجمعهم ، فلم يزل يخدعهم بعبارته حتى بلغ إلى إرادته »(٢) .

ونحن نعلم أن غلاة الشيعة دائماً يدعون التقشف والتزهد ، ولذلك أطاعه اليمنيون ، فاتخذ دار هجرة فى سريافع وبدءوا يتخطفون بلاد اليمن « جهاداً لأهل المعاصى حتى يدخلوا فى دين الله طوعاً وكرهاً » وأخذ أيضاً « القرمطى » يتحكم فى الجانب الآخر من اليمن .

وكان ابن فضل يعمل باسم الإمام المستور الحسين ، فلما مات الإمام الحسين – كما سنرى بعد – واستخلف حجته عبيد الله المعروف بالمهدى – وهو ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وجعله إماماً مستودعاً لابنه القائم – لم يرض ابن فضل ، كما لم يرض حمدان بن الأشعث المشهور بحمدان قرمط ، ولذلك حين أتى فيروز – باب أبواب الدعوة – منقلباً على عبيد الله المهدى ، وهاربا من ابن حوشب وجد لدى على بن فضل أمنا وحماية . ولسنا نتكلم هنا عن الدوافع التى أدت إلى هرب فيروز – باب الأبواب وكبير الدعاة وأستاذ ابن حوشب داعى اليمن وأستاذ أبى عبد الله داعى مصر وصهره – ولسنا نهتم هنا بمحاولة فيروز إغراء ابن حوشب . إنما ما يهمنا هنا أن على بن فضل الجدنى أعلن ثورته عام ٢٩٩ هـ – منفصلا عن الخلافة الفاطمية الجديدة – وحاربه ابن حوشب ، ولكن ابن فضل تغلب عليه . وحين أعلن ابن فضل دعوته تبرأ منه أيضا فيروز .

ولكن ما هى هذه الدعوة التى أعلنها على بن فضل ؟ إن مصدرنا الهام فى هذه الفترة وهو محمد بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى –وهو أحد فقهاء السنة فى أواسط المائة للهجرة ، عاصر الصليحيين ، وهم بقايا إسماعيلية ابن حوشب وابن فضل – يقدم لنا أخباراً على جانب كبير من الأهمية عن انسلاخ على بن فضل عن الدعوة الإسماعيلية ، ثم عن الإسلام نفسه .

(١) اليمانى : كشف.. ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

إن الرجل الذى بدأ إماميًّا ثم انقلب إسماعيليًّا ، ما لبث أن خلع كل عقيدة وأعلن نبوته ، فكتب إليه ابن حوشب يعاتبه ، فأرسل إليه على بن فضل «إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ولى بأبى سعيد الجنابى أسوة ، لأنه خلع ميموناً وابنه ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسى . فإما نزلت على حكمى ودخلت فى طاعتى وإلا خرجت إليك» [1] .

أعلن على بن فضل – فيما تقول المصادر السنية والشيعية التى بين أيدينا – نبوته ثم ألوهيته وتسمى باسم «رب العزة كما تسمى ابنه باسم «ابن رب العزة» .

بل يذكر اليمنى الحمادى – أنه أنشأ مجتمعاً إباحيًّا أحل فيه البنات والأخوات . ووقف شاعره على منبر الجامع يقول للجند :

خذى الدف يا هذه والعبى	وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم	وهذا نبى بنى يعرب
لكل نبى مضى شرعة	وهذى شرائع هذا النبى
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى	وإن صاموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا	ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسين	من أقربى ومن أجنبى
فكيف تحلى لهذا الغريب	وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه	وسقاه فى الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء	حلالا فقدست من مذهب [2]

أعلن على بن فضل نبوته . كما أعلن انتهاء الشريعة الإسلامية وأحكامها ، إن صح هذا الشعر المنسوب إلى شاعره . فهو إذن صورة من غلاة الكوفة ، الذين أقاموا فى عهود سابقة مجتمعات إباحية .

ولكن نلاحظ أن على بن فضل كان يعيش فى بيئة عربية خالصة ، بيئة تحافظ على العرض وتقدسه . فهل من البساطة أن نقبل أنه «كان لهم المشهد الأعظم ، لا يشهده إلا من دفع للداعى قربانه ، فإذا جن الليل ، ودارت الكؤوس ، وطابت النفوس . وقد أحضر جميع أهل الدعوة نساءهم وحريمهم فيدخلن عليهم وقد أطفئوا السرج ، فيأخذ كل واحد من تقع فى يده – ويقع عليها ، فتنطلق بشكر الداعى على من أفاء من فضل ، : ليس إلا من فضل أمير المؤمنين ، فاشكروه ولا تكفروه على

---

(١) اليمانى : كشف ص ٣٣ .

(٢) اليمانى : كشف... ص ٣١ .

ما أطلق من وثاقكم ، ووضع عنكم أوزاركم ،وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالكم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، نستطيع أن نفهم حدوث هذا فى مجتمع مختلط كالكوفة وسوادها لدى القرامطة – وإن لم يصح هذا فعلاً عنهم ، أو فى البحرين ، ولم يصح أيضاً هذا عنهم – وفى بقايا الثنوية الغنوصية فى فارس . وقد صح هذا عنهم – ولكن لا نستطيع إطلاقاً أن نصدق أن يعلن على بن فضل مذهب الإباحة فى المجتمع العربى اليمنى ، إن من الثابت ادعاءه للنبوة – فهو صورة أخرى من المتنبى القديم «مسيلمة الكذاب» ولكن لا نستطيع أن نصم الرجل بالإباحة . وقد أدى عداؤه للفاطميين وللحواشب إلى قتله بالسم عام ٣٠٣هـ بعد وفاة زميله القديم وعدوه الجديد ابن حوشب عام ٣٠٢هـ .

مات القرمطيان إذن بعد أن اختلفا . وتولى الفأفأ بن على بن فضل والمدعو «بابن رب العزة» الإمارة بعد أبيه ولكن هجمات السنة والزيدية عليه قد اشتدت وقد انتهت بمقتله وسبى بنات على بن فضل .

أما إمارة منصور اليمن ابن حوشب فقد ولى عبيد الله المهدى تابع ابن حوشب عبد الله بن عباس الشاورى الإمارة ، فقتله أبو الحسن بن حوشب وعاد إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وتتبع القرامطة من أتباع أبيه فقتلهم «ثم قتل أولاد ابن حوشب وأسرته فى تاريخ لا يعنينا كثيراً .

ولكن هل ماتت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، لقد عادت مرة ثانية إلى كهف الاستتار . «وانكتم أمرهم عن الحكام» وأول من نعرف من الدعاة الجدد هو ابن رحيم فى عهد المعز «وكان لا يستقر فى موضع واحد . . وهو يكاتب بنى عبيد وذلك بعد خروج المعز من القيروان إلى بلاد مصر . . فلم يزل ابن رحيم يكاتب أهل مصر والمعز ومن بعده وينهى أخبار أهل اليمن حتى مات واستخلف على من بقى من القرامطة يوسف بن الأمشح – وكان يدعو للحاكم ويبايع له سرًّا ، حتى مات يوسف . واستخلف على مذهبه سليمان بن عبد الله الرواحى من حمير – وكان يدعو إلى الحاكم وإلى المستنصر ، وكان سليمان من أغنياء أهل اليمن ، فتمكن بغناه وثروته من أن يجذب إليه كثيرين من الأتباع ويقيم مجتمعاً إسماعيليًّا للمرة الثانية فى اليمن .

وقد استطاع سليمان أن يجذب إليه أبا الحسن على بن محمد الصليحى ، وكان على بن محمد ابناً لقاضى سنى مشهور باليمن وهو محمد بن على الصليحى ، وقد استطاع الرواحى التأثير فى الابن – وهو دون البلوغ . وكان يدرسه الذخائر القديمة ويخبره أن أمره بهذه الكتب ، وأنه سيملك اليمن [1] . ثم مات الرواحى ، وأوصى بالدعوة للصليحى ثم اجتمع الإسماعيلية حواليه ، وأرسل يستأذن المستنصر

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٨٣ .

بالخروج ، فأذن له ، فملك اليمن وأنشأ الدولة الصليحية .

وهنا نرى الدعوة الإسماعيلية تعود مرة أخرى وتحكم اليمن عام ٤٣٩ . وقد بقيت الدولة الصليحية حتى قضى عليها صلاح الدين الأيوبى ولم يبق من آثارها إلا قبيلة يام وهى إلى اليوم باطنية تنتمى إلى بهرة الهند .

ما هى الدعوة الإسماعيلية الصليحية ؟ يبدو أنها هى الدعوة الإسماعيلية الفاطمية ، ويقول اليمانى عن الصليحى وقد عاصره « إن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالمكلبين » تشبيهاً لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبائل . . » وأنه رفع الشرائع الإسلامية من الصلاة والزكاة والصيام . وهذا بعيد التصديق . ثم يخدعون الناس بروايات عن النبى ﷺ محرفة وأقوال مزخرفة ، ويتلون عليهم القرآن على غير وجهة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه » أى أنهم لجأوا إلى منهج التأويل الباطنى للقرآن » فيبينون للناس رموز القرآن ومثله وممثوله ومعانى الصلاة والطهارة . ثم يخبرون من يدعونه « إن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لممثولات محجوبة ، فاعرف الصلاة وما فيها ، وقف على باطنها ، ومعانيها فإن العمل بغير علم ، لا ينتفع به صاحبه فالزكاة مفروضة فى كل عام ، وكذلك الصلاة ، من صلاها مرة فى السنة ، فقد أقام الصلاة بغير تكرار » وللصلاة وللزكاة باطن ، لأن الصلاة صلاتان والحج حجان . واحد باطن وواحد ظاهر ، وما من ظاهر إلا وله باطن . إن الله يقول « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » ويقول « إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » فلكل شىء ظاهر وباطن . والظهر ما تساوى به الناس وعرفه الجميع خاصهم وعامهم ، أما الباطن فلا يعرفه إلا الخاصة المختارون « وما آمن معه إلا قليل » « وقليل ما هم » « وقليل من عباد الشكور » فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم . وهذا يذكرنا بقول عبد الله بن ميمون عن الجمهور إنهم الحمير .

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل على محمد صلى الله عليه وعلى على . فالمعنى بالصلاة ، الزكاة ولاية الرسول وابن عمه . فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة . ويقول اليمانى — إنهم بهذا يؤثرون فى خلق كبير من الناس « لأنه مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ويبيح لهم ما خطر عليهم من محارم الله » .

فإذا قبل المدعو هذه العقائد ، يطلب الداعى منه قرباناً « يكون لك سلماً ونجوى ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذا الإصر » فإذا دفع رفعت عنه الصلاة . ويقرأ الداعى له « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » ثم يقبل أهل الدعوة الآخرون فيهنئونه ويقولون : الحمد لله الذى وضع عنك وزرك الذى أنقض ظهرك .

ثم يرفع عنه تحريم الخمر والميسر، و يخبره الداعى أنهما رمزان لأبى بكر وعمر لمخالفتهما لعلى وظلمها

له وأخذهما الخلافة منه . أما الخمر المعصورة فهى حلال ، ويتلو «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ويتلو «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا» فأحل لهم الميتة ولحم الخنزير .

أما الصوم فيفسره الداعى بأنه «الكتمان»وتفسيره الآية : «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» أى كتمان الأئمة فى وقت الاستتار خوفاً من الظلمة . ويجدون مصداقاً لقولهم قول مريم «إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيًّا» ، فلوكان الله عنى بالصيام ، ترك الطعام ، لقال : فلن أطعم اليوم شيئاً ، فالصيام إذن هو الصموت عن الكلام .

أما الطهارة ، فهى طهارة القلب فى التأويل الصليحى «إن المؤمن طاهر بذاته ، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره» أما الجنابة فهى موالاة أضداد الأنبياء والأئمة وعدم معرفة العلم الباطن . ويفسر الداعى معنى «وإن كنتم جنبا فاطهروا» معناه «فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا والعلم الباطن هو حياة الأرواح – وهو كالماء الذى هو حياة الأبدان . قال الله تعالى «وجعلنا من الماء كل شىء حى» وقول الله «فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق» فلما سماه الله بهذا ، دل على طهارته .

ثم تأتى المرحلة الأخيرة – منتهى الأمر وغاية السعادة – فيتلو الداعى «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين» فيقول المخدوع «ألهمنى إياها ودلنى عليها» فيتلو عليه «قد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ثم يقول له «أتحب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا ؟فيقول : وكيف لى ذلك ؟فيتلو عليه «وإن لنا للآخرة والأولى» ، ويتلو عليه «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» والزينة هنا ما خفى على الناس من أسرار النساء التى لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك. وذلك قوله «ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن» والزينة مستورة . غير مشهورة . ثم يتلو قول الله «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون» . فمن لم ينل الجنة فى الدنيا – فى نظر الباطنية الصليحية – لم ينلها فى الآخرة ، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب وأهل العقول ، لأن المستحسن من الأشياء ما خفى . ولذلك سميت الجنة جنة ، لأنها مستجنة ، وسميت الجن جنًّا لاختفائهم عن الناس ، والجنة المقبرة لأنها تستر من فيها ، والترس المجن لأنه يستتر به . فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل . ثم يدعى هو وزوجته وبناته إلى المشهد الأعظم [1] – وقد سبق أن وصفناه فى عقائد بن فضل – حيث يفترس الرجل أى امرأة يقع عليها .

هذا ما نقله إلينا اليمانى عن الصليحيين ، كما نقله عن ابن حوشب وابن فضل . والمشكلة : هل

---

(١) الحمادى اليمنى : كشف ص ١١-١٥ .

نستطيع ببساطة أن نصدق قيام المذهب الإباحى فى اليمن ؟ وهل يمكن للصليحى أن ينشئ دولة هو وأولاده فى بقعة عربية صميمة على هذا الأساس ؟ وهل من المعقول أن يقاتل أتباعه فى هذه القرون السحيقة دفاعاً عن عقيدة إباحية ؟ وهل كان المستنصر فى مصر يقر هذا ، وفقهاء السنة ومشايخهم وفقهاء الشيعة الإمامية والزيدية له بالمرصاد ؟

ومن العجب أن ابن خلكان وهو ينقل لنا حياة على بن محمد الصليحى ، يقول عنه «كان فقيهاً فى مذهب الإمامية مستبصراً فى علم التأويل ، ثم إنه صار يحج بالناس دليلا على طريق السراة» ثم حين استولى على اليمن –ذهب إلى الحج . فقتله سعيد بن نجاح صاحب تهامة فى الطريق [1] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٢ ص ٧٣–٧٥ .

الفصل الرابع

القرامطة

أو تطور الكيسانية

اختلف الباحثون فى تفسير كلمة «القرامطة» والتفسير الشائع لها أنها نسبة إلى حمدان بن الأشعث الكوفى الملقب بقرمط ، وأنه سمى بقرمط لقرمطة فى مشيته . أو أنه كان يتقارب فى خطاه . وقيل إنه أحمر البشرة فلقب بقرمط ، وكرمت هى الآجر فى لغة الروم والعرب فقيل قرمد من قرمط ، ويذكر أيضاً أنه كان أجارًا أى صانع الآجر.

وقد ذكر ابن الجوزى الروايات المتعددة التى ذكرت فى سبب التسمية بالقرامطة [1] . ولكن ظهور بعض الرسائل الدرزية الأخيرة ، وسنعود إلى هاتين الرسالتين فيما بعد – سيلقى الضوء الحاسم على ظهور اسم القرامطة فى أواخر القرن الرابع الهجرى وفى أوائل القرن الخامس . وعلى أية حال فالقرامطة إن لم تكن باسمها ، بل بمعناها إنما نشأت على يد حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط فى سواد الكوفة فى العقود الأخيرة من القرن الثالث الهجرى وأصبحت فى كتب أهل السنة والجماعة تمثل الهرطقة والإلحاد والتحلل والفوضى ، وتشير إلى المذهب الإسماعيلى ، بالرغم من اختلافاتها الجوهرية مع الإسماعيلية فى كثير من الفترات . أما القرامطة أنفسهم فقد اعتبروا القرمطة الحركة العظيمة التى تظهر بين الحين والحين ، تلقى فى العالم الإسلامى بذور الإصلاح . وقد اختلفت آراء الباحثين قديماً وحديثاً فى حقيقة هذه الحركة ، والباعث عليها ، هل هى حركة عقائدية فارسية آرية تجاه الدين السامى – الإسلام – وقد تهافتت هذه الفكرة أمام الحقيقة الواضحة وهى أن العدد العديد من العرب فى العراق والشام واليمن قد أيدوها تأييداً كاملاً . أم هى حركة شيعية إسماعيلية آمنت بأحقية الفرع الإسماعيلى وقامت للدفاع عنه . ولكن يبدو أنها اعتنقت فى فترات المذهب الإسماعيلى ، ثم اختلفت معه . أشد الاختلاف حين استطاع الأئمة فى سلمية إقامة الدولة الفاطمية فى المغرب ، ومهما قيل فى أصل الأئمة ، ومهما قيل إنهم أظهروا فى أثناء خلافتهم المذهب الظاهر وأخفوا المذهب الباطن ، فإن الدولة الفاطمية كانت دولة إسلامية شيعية ، لم تخرج أبداً عن نطاق الإسلام ، اللهم إلا فى عهد الحاكم – وقد قتله الفاطميون أنفسهم .

---

(١) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٠٤–١٠٥ .

وأخيراً – يحاول سيد المؤرخين المعاصرين العرب الباحث العراقى الممتاز الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى أن يبين أهمية العامل الاقتصادى فى قيام الحركات الشيعية المتطرفة فى أواخر الدولة العباسية. وهو يتفق مع الأستاذ برنارد لويس فى «أن التمايز بين العرب والموالى حل محله تمايز على أساس اقتصادى وصار الحزب الشيعى الثورى يضم تحت لوائه كل الطبقات المظلومة ، فالنبلاء الفرس اعتنقوا مذهب السنة ، بينما العرب الفقراء فى العراق والشام والبحرين اتبعوا الغلاة من الشيعة ، ثم يرى الدكتور الدورى أن لويس يتطرق فى كتابه أصول الإسماعيلية إلى التدابير الاشتراكية التى اتخذها القرامطة فى العراق والبحرين ولكنه لم يبحث الأسس الاقتصادية ، ولم يتعد تلخيص ما ذكره ابن رزام عن تدابير حمدان فى العراق وما ذكره ناصر خسرو عن تدابير قرامطة البحرين ، إذ أن الأستاذ لويس لم يعن بالناحية الاقتصادية – على خطورتها – العناية اللازمة فالدكتور الدورى يوجه الأنظار إلى أهمية العامل الاقتصادى الهام فى ظهور حركة القرامطة فى كتابيه «الحياة الاقتصادية فى العراق فى القرن الرابع الهجرى» و «دراسات فى العصور العباسية المتأخرة» [1] وإنى أوجه أنظار الباحثين فى مصر بالذات إلى أبحاث الدورى التاريخية المتعددة.

وإذا انتقلنا إلى الكوفة وسوادها – مسرح القرامطة الأول – لو صح أن حمدان بن الأشعث هو أول من لقب بقرمط – لكانت الكوفة إمامية فى مجموعها لاشك. ولكن الغلاة كانوا هناك دائماً ، غير أن هناك فرقة من الغلاة كانت لا تقل أهمية فى العدد عن المجموعة الإمامية الكبرى – وهى الكيسانية حنفية كانت أو أبا هاشمية – وقد شاركت الكيسانية فى كل الحركات الغالية ، ورأينا كيف وقعت فى يد الراوندية أو الأبى مسلمية. وفى كل مرة يعود الثائرون المنهزمون إلى ديارهم فى سواد الكوفة يعملون فى الحرف والصناعات. وتكونت منهم النقابات ، ونحن نعلم أن النقابات كانت شيعية أو أقرب إلى الشيعية ، وقد اتخذت شفيعاً لها سلمان – الركن الشيعى القديم.

وكان حمدان بن الأشعث على رأس هذه النقابات وقد اشتهر – ككثير من رؤساء النقابات ومن يحملون على عاتقهم مسئولية الطبقات الفقيرة العاملة – بزهده ، كما اشتهر أيضاً بقصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه ، فدعى بقرمط فى بعض الروايات كما قلنا. كما اشتهر باسم صاحب الخال والمدثر والمطوق وكان المبارك المشهور قد أتى وبث دعوته فى الكوفة ،لإسماعيل ولمحمد بن إسماعيل ولذريته ، ولا شك أنه رنا بعينيه إلى السواد وإلى الكيسانية أو الحنفية المنتشرة فيها. ولكن لا يبدو أنه اتصل بهم اتصالا مباشراً أو أن مؤسس الإسماعيلية ميمون القداح قد اتصل بهم ، وإنما تم على يد الحسين الأهوازى – مبعوثاً من قبل أبيه عبد الله بن ميمون.

---

(١) مقدمة الدكتور عبدالعزيز الدورى لأصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (الترجمة العربية) ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦.

ولقد بقيت لنا عقائد الحنفية أو الكيسانية فى هذه وهى العقائد التى بدأت على يد هند الناعطية وليلى بنت قمامة المزنية وغيرها من الغاليات والغلاة فى محمد بن الحنفية وأولاده . فلم يكن مقتل المختار إذن نهاية لعصر محمد بن الحنفية وأولاده ، ولم يكن تسليم أبى هاشم بن محمد الحنفية الوصية للعباسيين كما ادعى العباسيون – نهاية الكيسانية .

وينقل إلينا الطبرى شذوراً من هذه العقائد عن كتاب للحنفية جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : يقول الفرج بن عثمان – وهو من قرية يقال لها نصرانه داعية إلى المسيح : وهو عيسى وهو الكلمة ، وهو المهدى أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل . وذكر (أى فى الكتاب) أن المسيح تصور فى جسم إنسان . وقال له : إنك الداعية وإنك الحاجة . ولك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحيى بن زكريا » .

ثم يقدم لنا الكتاب فرائض جديدة « عرفه أن الصلاة أربع ركعات – ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها . وأن الآذان فى كل صلاة أن يقول : الله أكبر – الله أكبر – أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن آدم رسول الله . وأشهد أن نوحا رسول الله . وأشهد أن إبراهيم رسول الله . وأشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وهى أن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح . ويذكر أنها من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية . ومعنى هذا أنه وجد أيضاً كتاب منزل على أحمد بن محمد بن الحنفية .

ثم يذكر الكتاب أن القبلة هى إلى بيت المقدس والحج إليه والسورة أى الاستفتاح من هذا الكتاب المنزل « الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه . قل إن الأهلة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والشهور والأيام ، وباطنها أوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى اتقونى يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم . وأنا الذى أحمد عبادى وأمتحن خلقى ، فمن صبر على بلائى ومحنتى واختبارى ألقيته فى جنتى ، وأخلدته فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى – وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على ألسنة رسلى وأنا الذى لم يعل على جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذللته ، وليس الذى أصر على أمره وداوم على جهالته وقالوا لن نبرح عليه عاكفين ، وبه مؤمنين ، أولئك هم الكافرون . ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان ربى رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون . يقولها مرتين . فإذا سجد قال الله أعلى الله أعلى – الله أعظم . ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة وهما المهرجان والنوروز وأن النبيذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة إلا الوضوء

كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله ومن يحاربه ممن يخالفه ، أخذت منه الجزية ولا يؤكل كل ذى ناب ، ولا كل ذى مخلب [١] .

هذه هى صورة من هذا الكتاب الحنفى ، انتشر فى جنوب العراق ، كما انتشر فى البحرين – فيما بعد – وهذه هى العقائد التى كانت تدين بها الكيسانية أو الحنفية فى سواد الكوفة حين أتى حسين الأهوازى عام ٢٦٣ هـ يدعو حمدان الأشعث إلى المذهب الإسماعيلى .

ومن الخطأ الكبير أن يقال إن المبارك هو حمدان قرمط على ما ورد فى سياسة نامه لنظام الملك . وقد تنبه لويس إلى هذا فقال : كان المبارك على ما ورد فى سياسة نامه حجازيا وكان خادما لمحمد بن إسماعيل ، وكان يجيد نوعا من الخط يسمى «مقرمط» ولذلك عرف باسم قرمطويه . وقد أغراه عبد الله بن ميمون القداح فأنشأ فرقة ونشراها وهى الفرقة التى عرفت بالمباركية أو القرمطية نسبة إلى اسمه . وإنى لأعتقد بوجوب رفض هذا الزعم الذى يرى المبارك وقرمطويه شخصا واحداً للبيانات والدلائل القديمة الموثوق بها التى تنافيه كالأشعرى والبغدادى والمقريزى» [٢] .

ومن الواضح أن لويس – تنبه وإن لم يذكر هذا – إلى أن ابتداء أمر حمدان قرمط كان فى عام ٢٦٤ . وكان المبارك من موالى جعفر الصادق ، فهناك إذن استحالة تاريخية أن يكونا شخصا واحداً . وقد كان القمى أكثر دقة من صاحب سياسة نامه فقد اعتبر المباركة فرقة شيعية غير غالية ، ولكن افترق عنها فرقة غالية تسمى القرامطة ، وإنما سميت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الأنباط كان يلقب قرمطويه [٣] .

والمجلسى فى بحار الأنوار يؤيد أيضاً القمى . . فيرى أن فرقة قالت بوفاة إسماعيل فى حياة أبيه ، وهؤلاء القرامطة وهم المباركية وسمى القرامطة برئيس لهم من أهل السواد يسمى قرمطويه ، أما المباركية فبرجل يدعى المبارك مولى إسماعيل والقرامطة أخلاف المباركية والمباركية سلفهم [٤] .

قلنا إن الحسين الأهوازى أو الحسين بن عبد الله بن ميمون قد ذهب إلى مقابلة حمدان . وتذكر لنا قصة مقابلة الحسين الأهوازى لحمدان وكأنها مصادفة بحتة «وكان حمدان من أهل الكوفة ، وكان يميل إلى الزهد . فصادفه أحد دعاة الباطنية فى فريق ، وهو متوجه إلى قرية وبين يديه بقر يسوقها . فقال حمدان لذلك الداعى وهو لا يعرفه : أين مقصدك ؟ فذكر قرية حمدان فقال له : اركب بقرة

---

(١) الطبرى : ٢١٢٢–٢١٣٢ .

(٢) برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) القمى : كتاب المقالات ص ٨٣ ؛ والنوبختى : فرق الشيعة ص ٧٢ .

(٤) المجلسى : بحار الأنوار ٩ / ١٧ وانظر لويس : أصول ص ١١٢ .

من هذه لئلا تتعب . فقال ؛ إنى لم أؤمر بذلك . فقال ؛ وكأنك لا تعمل إلا بأمر . قال : نعم . قال . وبأمر من تعمل ؟ قال . بأمر مالكى ومالكك ومالك الدنيا والآخرة . فقال : ذلك إذن هو رب العالمين . قال : صدقت . قال . فما غرضك فى هذه القرية التى تقصدها ؟ فقال : أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة . وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر وأملكهم ما يستغنون به عن الكد . فقال حمدان : أنقذنى أنقذك الله وأفض على من العلم ما تحيينى به ، فما أشد احتياجى إلى مثل هذا . فقال : ما أمرت أن أخرج السر المخزون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به والعهد إليه فقال : اذكر عهدك ، فإنى ملتزم به . فقال له : أن تجعل لى وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه ، ألا تخرج سر الإمام الذى ألقيه إليك ولا تفش سرى أيضاً ، فالتزم حمدان عهده ، واندفع الداعى فى تعليمه فنون جهله ، حتى استغواه ، فاستجاب له ، ثم انتدب للدعاء ، وصار أصلا من أصول هذه البدعة ، فسمى أتباعه القرامطة والقرمطية» [1] .

وهكذا صور المؤرخون مقابلة الحسين الأهوازى لحمدان قرمط وتحوله إلى الإسماعيلية . ولكن من الثابت أن دعوة حمدان قرمط إلى المذهب الإسماعيلى كانت أخطر من هذا بكثير ، إذ أن عبد الله بن ميمون وضع ابنه على بن عبد الله فى الطالقان ليكون نقطة الاتصال بينه وبين حمدان وعينا فى الوقت نفسه عليه . يقول ابن رزام : «بعث عبد الله بن ميمون الدعاة إلى سواد الكوفة ، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط ، لقصر كان فى متنه وساقه ، وكان قرمط هذا أكاراً بقاراً فى القرية المعروفة بقس بهرام ورأى قرمط ، وكان داهيا . ونصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة ، وأكثرها منحول ، وفرق عبدان الدعاة فى سواد الكوفة . وأقام قرمط بكلوذاى ونصب له عبد الله بن ميمون رجلا من ولده يكاتبه من الطالقان [2] .

أما السبب فى هذا ، فهو أن حمدان قرمط لم يأخذ بالدعوة الإسماعيلية كاملة . وإنما أخذها فى صورة كيسانية .

كانت الكيسانية فى عهد حمدان قرمط تؤمن بمهدية أحمد بن محمد بن الحنفية وتوقفت فيه ، وآمنت أنه المسيح المنتظر . فلما اتصل حمدان قرمط بالإسماعيلية قدم نفس المذهب ، غير أنه استبدل أحمد بن محمد بن الحنفية بمحمد بن إسماعيل والقمى وهو من أدق من يحدثنا عن عقائد الشيعة يقول إن القرامطة خالفوا المباركية الإسماعيلية فى أنهم قالوا «لا يكون بعد محمد النبى ﷺ إلا سبعة أئمة : على بن أبى طالب وهو إمام رسول والحسن والحسين وعلى بن الحسين . ومحمد بن على وجعفر بن محمد

(١) ابن الجوزى : تلبيس ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٩ .

ومحمد بن إسماعيل بن جعفر «وهو الإمام القائم المهدى وهو رسول» وزعموا أن النبى ﷺ انقطعت عنه الرسالة فى حياته فى اليوم الذى أمر فيه بنصب على بن أبى طالب عليه السلام للناس بغدير خم ، فصارت الرسالة فى ذلك اليوم فى على بن أبى طالب واعتلوا فى ذلك بقول رسول الله ﷺ وآله «من كنت مولاه فعلى مولاه» وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة وتسليم منه فى ذلك لعلى بن أبى طالب بأمر الله عز وجل ، وأن النبى ﷺ بعد ذلك كان مأموما لعلى محجوجاً له ، ولما مضى عليه السلام انتقلت الإمامة إلى الحسن ثم إلى الحسين، ثم إلى على بن الحسين ، ثم فى محمد الباقر ، ثم كانت فى جعفر الصادق . وانقطعت الرسالة عن جعفر فى حياته ، كما انقطعت عن النبى ﷺ ، فى حياته ، ثم إن الله بدا له فى إمامة جعفر وإسماعيل «فصيرها فى محمد بن إسماعيل «وزعموا أن محمد بن إسماعيل حى لم يمت وأنه فى بلاد الروم . وأنه القائم المهدى ، وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ ، وأن محمد بن إسماعيل من أولى العزم وأولو العزم عندهم سبعة ، (وهذا ما أخذوه من الإسماعيلية) نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلى ومحمد بن إسماعيل ، على معنى أن السموات سبع وأن الأرضين سبع . . . إلخ . ويذكر النوبختى أنهم آمنوا بالقائم إيماناً تاماً وأنهم أوردوا الأخبار عن الصادق فى هذا «لو قام قائمنا علمتم القرآن جديداً» (١) .

هنا تتبين لنا صورة العقائد القرمطية الأولى ، وهى توازى تماماً عقائد الكيسانية أو الحنفية التى أوردناها من كتابهم فى أول هذا الفصل ، فلما ظهر عبيد الله المهدى حجة الإمام ، مدعيا أنه المهدى المنتظر ، ثار حمدان قرمط وداعيته عبدان . ولم يتنبه معظم الباحثين – إن لم يكن كلهم – إلى أن إسماعيلية القرامطة كانت مختلفة عن إسماعيلية المركز الرئيسى فى سلمية ، كان المركز يعلم أن هناك إماما حيا ، وأن هناك حجة له فلما تنازل الإمام الحسين عن الإمامة لسعيد بن الحسين بن عبيد الله القداح ليكون ستراً أو مستودعاً لابنه القائم ، كما سنفسر هذا فيما بعد ، انتقض قرامطة السواد وعلى رأسهم حمدان قرمط ، أول زعيم للقرامطة وصهره عبدان المؤلف والداعية القرمطى المشهور ، وسافر عبدا لمقابلة سعيد المعروف بعد ذلك بعبد الله المهدى . وسأله عن الحجة وعن الإمام من بعده فقال سعي أى المهدى لعبدان : ومن الإمام ؟ فرد عبدان بعقيدة القرامطة «محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذى كان أبوك يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبى وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه» (٢) .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن قرامطة السواد كانوا لا يؤمنون سوى بمحمد بن إسماعيل مهديا

(١) القمى : كتاب المقالات ص ٨٣ ؛ النوبختى : فرق الشيعة ص ٧٣–٧٤ .

(٢) نقل هذه النصوص إلينا الدكتوران حسن إبراهيم ، وطه شرف عن النويرى : نهاية الأرب المخطوط : ص ٧٨٥

الأمة . وستبقى هذه العقيدة مدة طويلة بعد عند بعض طوائف قرامطة البحرين ، كما ستبقى الحنفية أى موالاة محمد بن الحنفية وأولاده لديهم منتشرة بعنف .

وقد حاول الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أن يستنتجا من انتقاض حمدان وعبدان على سعيد القداح نتيجة هامة وهى أن الإمام المستور لم يكن معروفاً للقرامطة ، على حين أن الذى كان يتراسل معهم هو الحجة الذى كان يقر فى مكاتباته معهم بأنه نائب عن الإمام لا الإمام . وهذه النتيجة غير صحيحة بإطلاق ، بل تحتاج إلى تعديل كبير وهى : أن قرامطة السواد لم يعرفوا أبداً إماما مستوراً، بل كانوا يعرفون إماماً واحداً غائباً ، إماماً مهديّا ، هو محمد بن إسماعيل .

أما القسم الثانى من دعوة حمدان بن الأشعث ، فكان التنظيم النقابى أو التنظيم الاجتماعى لحياة أتباعه ، ففرض عليهم عدة ضرائب وجبايات تصاعدية أو متدرجة . ثم فرض عليهم الألفة وهو أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا أسرة واحدة ، لا يفضل واحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه وتلا قوله تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا» وتلا عليهم قوله تعالى «لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم» وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال لهم : هذه محنتكم التى امتحنتم بها ، لنعلم كيف تعلمون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك فى سنة ست وسبعين ومائتين. وأقام الدعاة ، فى كل قرية ، رجلا مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال قريته من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . فكان يكسو عاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم . وأخذ كل رجل منهم بالانكفاء على صناعته والتكسب بجده ، كيلا يكون له الفضل فى رتبته . وكانت المرأة تجمع إليها كسبها من مغزلها والصبى أجر نطارته الطير . فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه . فلما استقام له ذلك كله ، وصبوا إليه ، وعملوا به . أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ، ويختلطن بالرجال . وقال : إن ذلك من صحة الود والألفة منهم [١] .

وقد عدد المقريزى هذه الضرائب ، ضريبة الفطرة ، وضريبة الهجرة وضريبة البغلة ثم ضريبة الخمس [٢] .

وقد أراد حمدان بهذه الاشتراكية المالية نشر السلام بين أتباعه ، وأن يكون «دولة الله» أما الاشتراكية الاجتماعية فقد نسبها أهل السنة إلى القرامطة والإسماعيلية ، فقد ربطوا بين المزدكية وبين القرامطة والإسماعيلية . وقد ذهب نظام الملك – مؤلف سياسة نامة – إلى أن الإسماعيلية هى استمرار

(١) النويرى : نهاية الأرب – مقتطفات عن لويس فى أصول الإسماعيلية ص ٢٠١ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٤ .

للمزدكية فى العصر الساسانى . ويرى أن خرمة امرأة مزدك هى التى أنشأت الفرقة الخرميدينية فى أواخر الدولة الأموية ، وأن عمار بن بديل المعروف بخداش – وهو داعية العباسى فى فارس – كان من أتباعها ، وأن آراءه الإباحية لم تنته بقتله ، بل ظهرت لدى الفاطمية أتباع فاطمة بنت أبى مسلم الخراسانى وابنها فيروز ، ثم لدى فرق الأبى مسلمية أتباع مسلم نفسه . بل إن أبا مسلم فى رأى كثيرين من أهل السنة كان خرميا ، مزدكيا ، ثم سنباذ المجوسى ، وقد قام بثورته المشهورة ، كان خرميا وكذلك يستفاد أو المقنع الخراسانى . ثم ظهر بابك الخرمى مؤسس الخرمية أو الخرميدينية الأواخر ، محدداً لآراء الخرمية الأوائل أتباع خرما .

وقد بقيت آراء مزدك الاشتراكية فى العصر الأموى كامنة ، ثم ظهرت فى العصر العباسى الأول ، لدى فرق الأبى مسلمية ، وفى العصر العباسى الثانى نفذت إلى أعماق المذهب الإسماعيلى عامة والقرمطى خاصة . ومن المؤكد أن مزدكا نادى باشتراكية المال ، ولكن من المشكوك فيه أنه نادى باشتراكية النساء . ولا يوجد نصوص واضحة تؤكد هذا . ومن المشكوك فيه أيضاً أن ينادى حمدان ابن الأشعث بهذه الاشتراكية الاجتماعية ، أى اشتراكية النساء . إنه ينبغى أن نعترف أن النظام المالى الاشتراكى الذى أقامه حمدان قرمط نجح أكبر نجاح فى سواد الكوفة ، كما نجح فى البحرين فيما بعد . وأقام مجتمعاً قويًّا أقلق الدولة العباسية التى كانت غارقة فى الملذات ، وفى الفوضى ، وكاد أن يقضى عليها .

ومن الخطأ البالغ أن يقال إن هذا النظام الاشتراكى كان من صنع الأئمة فى سلمية – إنه لم يكن إسماعيليًّا على الإطلاق . لقد كان قرمطيًّا فقط ، وضعه حمدان قرمط ، ثم انتشر فى البحرين ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد انتشر فى اليمن ، بعد أن شق على بن فضل عصا الطاعة على عبيد الله المهدى – وأنشأ مجتمعاً قرمطيًّا بحتاً .

أخذ حمدان بن الأشعث يرسل الدعاة إلى البلاد القريبة منه – فأرسل أبا سعيد الجنابى «وكان من مستجيبة حمدان كما يذكر البغدادى – إلى البحرين [1] وتغلب عليها كما أرسل زكرويه بن مهرويه الدندانى إلى شمال العراق «وكان من تلامذة حمدان» وظهر مأمون أخو حمدان بأرض فارس – وقرامطة فارس يقال لهم المأمونية لأجل ذلك [2] .

أما أهم دعاته ، فقد كان صديقه وصهره الداعى عبدان . وقد أنشآ سويا «دار الهجرة» حين تحولا إلى المذهب الإسماعيلى القطعى – أى القطع بإمامة محمد بن إسماعيل . وكانت دار الهجرة أو «مدينة الله» مثلا من أكبر الأمثلة فى إدارتها واشتراكيتها . وكان أمر الدعوة إلى عبدان ، صاحب الكتب

(١) البغدادى : الفرق ١٦٩ .
(٢) نفس المصدر : ص ١٧٠ .

المصنفة كما يسميه ابن رزام . ويذهب ابن رزام أيضاً إلى أن الدعاة إلى اليمن وفارس والأحساء صاروا من جهة عبدان خليفة قرمط وصهره . وقد كتب عبدان كتباً كثيرة . ويذكر ابن النديم أن لعبدان فهرساً يحتوى على ما صنفه من كتب علاوة على أن «كل من عمل كتبا نحله إياها» وهذا يدل على أن الرجل كان داعية القرامطة الأول .

ويذكر له ابن النديم من الكتب – كتاب الرحا والدولاب ، كتاب الحدود والإسناد ، كتاب الزاهر ، كتاب الميدان ، ومن كتبه الكبار – كتاب النيران وكتاب الملاحم ، وكتاب المقصد . ويقول ابن النديم إن هذه الكتب هى الموجودة والمتداولة – أما باقى ما فى الفهرست ، فقل مارآه أو عرفه إنسان أنه رآه . ثم يذكر كتاب البلاغات السبعة . ويذكر أنه قرأه ، ورأى فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها »[1] . ولكن ابن النديم لا ينسبه إلى عبدان ، بل ذكره بين قائمة كتب عبدان منسوباً للإسماعيلية .

وحين انتقض حمدان على عبيد الله المهدى صديقه عبدان كما قلنا لسلمية ، ثم يسرع على ابن عبدالله بن ميمون إلى سواد الكوفة ، ليلقى عبدان ، ويدور الحديث بينهم فى شدة واحتداد – ويخبره عبدان أنهم قطعوا الدعوة الإسماعيلية وأنهم لا يعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم ، وادعى نسبه إلى عقيل بن أبى طالب كذبا ، ودعا إلى المهدى ، فكنا نعمل لذلك ، فلما تبينا أنه لا أصل له ، وعرفنا أن أباك من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر ، تبنا إلى الله مما تحملنا ، وحسبنا ماكفرنا أبوك ، فتريد أن تردنا كفاراً ، انصرف عنا إلى موضعك »[2] .

ولكن هل عاد القرامطة فى سواد الكوفة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة ، كما تساءل الدكتور حسن إبراهيم إنه يقول : لو أنه فعل ذلك لما سكت المؤرخون السنيون » . والرأى الصحيح عندى أن أتباع حمدان وعبدان عادوا إلى الكيسانية المسالمة إلى عقيدة مهدية أحمد بن محمد بن الحنفية .

ولكن على بن عبد الله بن ميمون قداح الطالقان أسرع إلى الميدن ، وأتى بذكرويه بن مهرويه داعية حمدان قرمط وعبدان حوالى سنة ٢٨٦ هـ وقتل حمدان أو اختفى ، ولعله أراد أن يتغيب ، كما تغيب إمامه القديم مهدى الزمان محمد بن الحنفية وأبناؤه ثم قتل عبدان بيد أبناء زكرويه . وبالرغم من تخلى حمدان وعبدان وأتباعهما عن الإسماعيلية ، وعودتهما إلى الكيسانية ، فقد بقيت مجموعة من القرامطة تدين بالولاء لحمدان ولعبدان ولكنها تؤمن بمحمد بن إسماعيل فنرى الداعى بن مليح يبقى موالياً للإسماعيلية وقد قام هذا الفريق الموالى بثورة على العباسين بسواد الكوفة فى سنة ٢٨٧ ، ٢٨٩

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١–٢٨٢ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٣ ، ورقة ٧٠ ، وانظر الدكتور حسن إبراهيم : عبيدالله المهدى ص ٩٥ .

تحت قيادة أبى الفوارس وكان من أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، كما قام أبو حاتم البورانى – زعيم البورانية الإسماعيلية وخليفة أبى الفوارس بثورة عامة فى سواد الكوفة على العباسيين.

قرامطة الشمال : دفع قداح الطالقان زكرويه بن مهرويه إلى قتل سيده عبدان ، وقد كان زكرويه من دعاة عبدان المباشرين ، ثم عينه على بن عبد الله رئيساً للقرامطة السواد ، ولكنه اضطر إلى الفرار واختفى فى قرية من قرى السواد . وقد رأى أن أعداءه يحيطون به من كل جانب فالعباسيون فى أثره ، وأنصار حمدان وعبدان وراءه يتتبعونه ، والمهدى فى سلمية لا يريده ، فقد عين بغير أمره . علاوة على أن استتاره كان يخفى وراءه غاية أخرى – وهو إعلان إمامته هو . وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ، كما انتسب أولاده ، وأن يحاول إنشاء دولة فاطمية فى سوريا .

اختفى أبو محمد زكرويه داعى الكوفة عام ٢٨٦ هـ . وتقدم أولاده الثلاثة للعمل وهم أبو القاسم يحيى : صاحب الناقة ، وأبو مهزول الحسين صاحب الشامة وأبو العباس . ولما عزلهم أبو الحسين بن الأسود داعى المهدى سعيد القداح من دعوة الكوفة اجتمع الإخوة الثلاثة وتعاهدو على الذهاب إلى سلمية لقتل ابن البصرى – أى المهدى « هذا الذى كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا نتركه . وقالوا : حتى ينقطع ذكر على بن أبى طالب من هذه الدنيا . ونقتل بعده أبا الحسين » .

أما عقائد زكرويه وأولاده ، فيبدو أنها قريبة جداً من آراء قرامطة السواد . ولا غرابة فى هذا فقد كان زكرويه من دعاة عبدان : وهذه الآراء هى إمامة محمد بن إسماعيل ونبوته أى أنهم توقفوا فيما بعده من الأئمة ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن سعيداً الخير هو حجة الإمام الغائب ، فلما أعلن سعيد إمامته هو ، انضم إليه زكرويه وأولاده طمعا فى المناصب وأملا فى أن يخلفوا هم حمدان وعبدان ، وقتلوهما ، فلما عزلهم سعيد الخير بواسطة أبى الحسين بن الأسود داعيه ، عادوا إلى مذهبهم القرمطى ، وانتسبوا هم أنفسهم إلى محمد بن إسماعيل . وأعلن يحيى بن زكرويه أو القاسم بن محمد عام ٢٨٩ أنه صاحب الزمان وأنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه مهدى آخر الزمان ، وأن ناقته مأمورة ، فإن تبعوها ظفروا – فسمى بصاحب الناقة ، وأن أباه المعروف بأبى محمود داعية له . ودعاه أتباعه « بالشيخ » [١] . وألاحظ هنا أنه يستخدم مصطلحاً كيسانيًّا حنفيًّا وهو مصطلح صاحب الناقة . وقد رد هذا المصطلح فى كتاب الحنفية الذى أوردنا بعض عبارته من قبل .

وهكذا نرى أن مهدى الزمان قد ظهر فى الكوفة . ثم انتقل إلى بادية الشام ، وكانت إسماعيلية ، محاولا إنشاء الدولة الفاطمية فى سوريا . ظهرت أسرة أخرى منافسة لعبيد الله المهدى سعيد القداح وأسرة القداح فى ادعائها حجية الأئمة المستورين . فهم إذن كيسانية إسماعيلية ، أى آمنوا بمحمد بن

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ٢٢١٨ .

إسماعيل على طريقة الكيسانية ، أى أنه القائم الذى سيعود ، ثم حين ادعى سعيد الخير القداحى الإمامة وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ادعوها هم أيضاً وقبل وصول إناء زكرويه إلى سورية ، غادر المهدى سلمية عام ٢٨٦ مع الإمام المستقر أبى القاسم ، الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد سعيد الخير فيما بعد .

أعلن أبناء زكرويه آراءهم فى شمال سوريا ، وأباحوا أيضاً الأموال لأتباعهم «وحملوا بنى العليص على صريحيهم ، فقتلوا جماعة منهم واستذلوهم . وضرب يحيى بن زكرويه نقوداً نقش على وجه منها «قل جاء الحق وزهق الباطل ، وعلى الوجه الآخر «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى» ويقول المسعودى إن دعوته نالت كثيراً من النجاح حتى تقرمط أكثر من كان حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها »[1] .

وقد أورد برنارد لويس عن ثابت بن سفيان الصابئ الخطبة التى ألقيت فى حمص بعد أن احتلها يحيى الشيخ سنة ٢٩٠ هـ . وها هى نصها «اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدى صاحب الوقت أمير المؤمنين المهدى . اللهم املأ الأرض به عدلا وقسطا ودمر أعداءه – اللهم دمر أعداءه»[2] وظن لويس أن هذه الخطبة إسماعيلية خالصة وبخاصة أن أبناء زكرويه أعلنوا فى سوريا أنهم فواطم كما يذكر الطبرى[3] . وهذا خطأ . فأبناء زكرويه أتو إلى سوريا لقتل عبيد الله سعيد القداح الذى ادعى المهدية ، فالخطبة قطعاً ليست له . علاوة على أن التأمل الذاتى أو النقد الباطنى للخطبة ، إنما يدل على روح كيسانية أو حنفية وهى التى تؤمن بانتظار المهدى الغائب ، وهو محمد بن الحنفية أو أبناؤه من بعده ، ثم صبغت بصبغة إسماعيلية . أما الإسماعيلية الخالصة فهى لا تنادى بغائب على مر الأجيال ، وإنما بمستتر حى ، لم يأن أوان ظهوره بعده . فالخطبة ذات أساس كيسانى حنفى فى الباطن ، مع مسحة إسماعيلية ظاهرة .

أما انتساب أبناء زكرويه إلى الفاطميين وتسمية الحسين بن زكرويه باسم محمد أو أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل وابن عمه باسم عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل ، فقد فعلوا هذا فقط كسباً للأنصار فى منطقة سلمية وبقية المدن السورية ، وكانت الدعوة الإسماعيلية منتشرة فيها ، وبخاصة أحياء كلب فى بادية الشام ومحاربة المهدى عبيد الله الذى فر منهم هارباً إلى الرملة وادعى أيضاً نسباً لمحمد بن إسماعيل وقد أخطأ لويس مرة أخرى حين قال «أما زكرويه وأبناؤه – فإما أن يكونوا قداحيين أو

---

(١) المسعودى : التنبيه ص ٣٢٢ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ.. ص ٢٢١٩ ، ٢٢٥٧ .

أن الأئمة – وهى الأرجح – قد خولوا لهم التسمى بالإمامة ليجسوا النبض ويميطوا العقبات الأولية» ومن الثابت أن زكرويه كان من دعاة عبدان وعلى صلة مباشرة به ، ثم انقلب عليه بإيحاء قداح الطالقان ثم انقلب على القداحية كلها حين عزل هو وأبناؤه من دعوة الكوفة وأرسل أولاده لقتل عبيد الله المهدى أو سعيد القداح فى سلمية . وتجمع المراجع الإسماعيلية على لعن زكرويه وأبنائه ، واعتبارهم خونة . ونرى النيسابورى الإسماعيلى يقول فى كتابه «استتارة الإمام» إنه لما اتصل خبر عزم انتقال أبناء زكرويه إلى بادية الشام بدعاة سعيد القداح – عبيد الله المهدى – فى بغداد «كتبوا إلى المهدى عليه السلام أن بنى أبى محمد (أى أبناء زكرويه) قد عزموا على قتلك وقتل أهلك . فإن كنت قاعداً فإنهم زحفوا إليك ، وهم عازمون على قتلك . فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلا ، وشوا بك إلى هارون بن أحمد بن طولون وهم يقولون إنك مخالف للمذهب ويشهرون أمرك ، فاعمل على خلاص نفسك ولا تقم ساعة واحدة» (١) . وإذن أعلن زكرويه وأبناؤه أن المهدى مخالف للمذهب ، أى أنه خرج على ما عرفوه من المذهب الإسماعيلى ، وهو أن محمد بن إسماعيل هو الإمام الأخير المهدى ، فلا يحق لإنسان أن يدعى نفسه إماماً ، وأعلن أبناء زكرويه أنهم عازمون على أن يشهروا أمر «سعيد الخير» أى أنه ليس هو المهدى ، بل هو من ولد القداح .

وقتل يحيى الشيخ على أبواب دمشق ، وتولى زعامة القرامطة أخوه حسين أبو مهزول . وقد اتخذ الحسين حمص عاصمة له . وأنشأ الدولة الفاطمية الأولى قبل إنشاء الدولة الأخرى فى المغرب . وولى أقاربه ، فجعل ابن عمه قائد الجيوش وولى عهده : وسماه المدثر . وخطب الحسين على منابر دمشق باسم أمير المؤمنين وهذا دليل آخر على أن أبناء زكرويه لم يكونوا إسماعيلية خالصة . ثم قتل الحسين بن زكرويه داعى الدعاة أبا الحسين ، ثم قتل أهل عبيد المهدى جميعاً .

ولا يهمنا حروبه بعد ذلك فى الشام ولا حروب أخيه بعده . ولا قتله على أيدى العباسيين عام ٢٩٤ . وإنما يهمنا أن نبين أن قرامطة الشمال لم يكونوا على الإطلاق إسماعيلية خالصة ، بل كانوا أولا وبالذات حنفية كيسانية ، آمنت فى فترة بالمذهب الإسماعيلى على طريقة كيسانية أيضاً ، ثم انتهى بهم الأمر إلى الارتداد عن المذهب ، وحاولوا بكل الوسائل القضاء على الإمام الإسماعيلى المستودع – كما سنرى بعد – عبيد الله المهدى . وأنهم لم يكونوا من أحفاد ميمون بن ديصان كما ذكر البغدادى (٢)

أما نهاية زكرويه بن مهرويه نفسه ، فإن المقدسى فى البدء والتاريخ يذكر أن زكرويه خرج فى أيام المعتضد بالله فى قبيلة كلب على الحاج «فقتلهم وسباهم وقصد الكوفة ، فأنهض إليه السلطان جيشاً

(١) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور طه شرف : عبيد الله المهدى ص ١٠٦

(٢) البغدادى : الفرق ١٧٤

فأرسهم خمسة أشهر ، ثم ظفروا به فحملوه إلى بغداد على طريق الشهرة والنكال ، فمات فى الحبس ، ثم أخرج فصلب ، فسرقه القرامطة عن خشبته» (١) وهذا يدل على أن زكرويه نفسه لم يتوقف عن الحركة وهو مستتر ، بل حاول أن يشغل جيوش الخليفة فى الجنوب فى الوقت الذى كان يحارب فيه أولاده فى الشمال ، وتدل سرقة جثته على أيدى قرامطة بغداد أن للقرامطة كانوا أيضاً منتشرين فى عاصمة العباسيين ، وأنهم كانوا على إيمان مطلق بعقائدهم ، وعلى استعداد للتضحية فى سبيلها .

قرامطة البحرين :

ويبدو أن حمدان بن الأشعث أو حمدان قرمط كان أكبر شخصية باطنية فى أواخر القرن الثالث ، وأن القول بأنه كان جاهلاً أكاراً أو بقاراً ليس من الصحة فى شىء ، كان الرجل منظما من الدرجة الأولى ، وقد قام – كما رأينا بتنظيم ما يقال له حركة القرمطة فى سواد الكوفة على أساس عقائدى أولا ثم على أساس نقابى أو اقتصادى ، وأنه هو وعبدان قد أرسلا الدعاة لشمال العراق ، كما أرسلا الدعاة لجنوبى فارس والبحرين . ومن العجب أن يذكر بعض المؤرخين أنه كان صابئيًّا يقول البغدادى «ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية . واستدل أيضاً أن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم . والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد إحلافهم إياهم على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم» (٢) ومع شكى فى أن يكون حمدان قرمط صابئيًّا حرانيًّا ، إلا أن هذا دليل على أن الرجل كان على علم بمذاهب الصابئة الحرنانية ونحن نعلم أن هذا المذهب مذهب أفلاطونى فلسفى مع عناصر غنوصية . ثم إن نص البغدادى يذكر أن حمدان قرمط كان صاحب الدعوة بعد ميمون بن ديصان ، وبهذا جعله البغدادى موازياً لعبد الله بن ميمون ومن أصحابه . وقد تصرف الرجل تماماً كمستقبل حتى بعد تحوله من الكيسانية الخالصة إلى نوع من الإسماعيلية . يهمنا بوجه خاص هنا أن نشير إلى مجهوداته فى الأحساء والقطيف والبحرين .

كان أول داعية باطنى للبحرين هو يحيى بن المهدى ، ويبدو أن يحيى هذا كان هو على بن عبد الله ابن ميمون – قداح الطالقان ، وقد تسمى – على عادة الباطنية – بأسماء مختلفة منها أبو زكريا الطمامى ، ويحيى الطمامى ويحيى بن على . وأرسل حمدان قرمط فى الوقت عينه داعياً آخر هو أبو سعيد الجنابى ،

(١) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٢٦

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٧٧ .

ومن مدينة جَنّابة على الخليج الفارسى شرقا ، وظهر بعده (بعد حمدان قرمط) فى الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجنابى وكان من مستجيبه حمدان وتغلب على ناحية البحرين ودخل فى دعوته بنوسنبر» [١]

وحين انتقض حمدان على عبيد المهدى ، تابعه أبو سعيد الجنابى وقتل يحيى بن المهدى – قداح الطالقان ، واستولى على الإمارة – وبخاصة بعد اختفاء حمدان وقتل عبدان – «وأعلن أنه ممثل الإمام المهدى الذى وعد بظهوره عام ٣١٠ هـ وهو الإمام محمد بن عبد الله بن الحنفية» [٢] .

وبهذا عاد أبو سعيد الجنابى إلى عقيدة الكيسانية أو عقيدة الحنفية ، كما فعل أستاذه وزعيمه حمدان قرمط حين عرف هذا الأخير بخديعة عبيد الله المهدى – ابن القداح – وكما فعل أيضاً زكرويه بن مهرويه حين رأى أن عبيد الله المهدى قد خدعهم ، ولم يبقهم حتى فى مركز الدعوة بالكوفة – فالمستشرق – كازانوفا كان على حق ، حين ذكر الإمام الذى قاتل لأجله القرامطة الأولون كان إماماً حنفيًّا من سلالة محمد بن الحنفية ، ولكنه لم يتنبه إلى أنهم صبأوا إلى إسماعيلية خاصة مقيدة ، ثم ما لبثوا أن رجعوا عنها جميعاً ، حمدان بن الأشعث وأبو سعد (الحسن بن بهرام) لأسباب عقائدية ، وزكرويه (الفرج بن عثمان القاشانى) وأولاده لأسباب مادية . وأيًّا ما كان الأمر ، فقد أعلن أبو سعيد الجنابى استقلاله عن الدعوة الفاطمية . وقد رأينا من قبل أن على بن فضل الجدنى قد ذكر فى خطابه لابن حوشب أنه ينهج نهج أبى سعيد الجنابى فى خلعه طاعة ميمون وابنه من بنى القداح ويؤيد ذلك قول ابن حوقل «وكان حمدان قرمط وأبو سعيد إذ ذاك فى دعوة السلطان حذاء أمير المؤمنين المهدى بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفا ذلك . وجرت خبوط وتخاليط كثيرة فى بعض الروايات» [٣]

أما المسعودى فيسمى قرامطة الكوفة بالبقلية ويقول إنه اسم ديانى عندهم [٤] .

فالحركة القرمطية إذن عادت إلى الحنفية فى سواد الكوفة وفى شمال العراق وكذلك فى البحرين . وفى نص ابن حوقل نفسه ، وهو إسماعيلى ، ما يثبت أن أبا سعيد الجنابى قد رجع عن معتقداته الإسماعيلية . وأقام مجتمعاً قرمطيًّا خالصاً ، سواء فى معتقداته أو فى نظامه المالى فطبق اشتراكية كاملة لا فى المال وحده ؛ بل فى نظام العمل والمجتمع كذلك . وقتل أبو سعيد الجنابى عام ٣٠٠ هـ . وتولى إمارة القرامطة ابنه سعيد ، وسرعان ما أعلن عودته إلى حظيرة أهل السنة والجماعة فى خطابه

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٩ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٠ عن نص للقاضى عبد الجبار ولم يستفد لويس بهذا النص استفادة حاسمة ؛

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٠–٢١١ .

(٤) المسعودى : التنبيه ص ٣٩٨ .

إلى على بن عيسى وزير المقتدر «إنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة فحن – أيدك الله – لم ننفرد عن الطاعة والجماعة بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا ، واستحل دماءنا . . . كان قديم أمرنا أنا كنا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا . ننزه أنفسنا عن المعاصى ، ونحافظ على الفرائض . فنقم علينا سفهاء الناس وفجارهم ممن لا يعرف بدين ، وأكثروا التشنيع علينا بيننا بالسوية وأنا لا نحرم حراما ولا نحل حلالا ، فخرجنا هاربين ، ومن بقى منا جعلوا فى رقابهم الحبال والسلاسل ، فألجأونا إلى جزيرة ، فأرسلنا فى طلب أموالنا وحريمنا ، فمنعونا ، وعزموا على حربنا ، فحاكمناهم إلى السيف . قال تعالى «ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله» فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة . فنحن تائبون مؤمنون بالله» هذا ما أرسله سعيد بن أبى سعيد إلى وزير الخليفة يعلن تبرؤ القرامطة من أى مذهب إباحى أو اشتراكى اجتماعى .

ولكن حكم سعيد السنى لم يطل أكثر من أربع سنوات ، ويذهب النويرى فى نهاية الأرب (١) إلى أن سعيداً سلم الأمر إلى أخيه الأصغر أبى طاهر بناء على وصية والده «أوصى إليهم : أى أبو سعيد–إن حدث ، أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر ، وكان سعيد أكبر سناًس أبى طاهر فإذا كبر أبو طاهر كان المدبر لهم ، ولما قتل – أى أبو سعيد – جرى الأمر على ما وصاهم به وكان أبو طاهر سبّ سعيد ، وكان أبو سعيد قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبى طاهر . فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة ، ثم سلم الأمر لأخيه أبى طاهر – فعمل أشياء موه بها على أصحابه – فقبلوه وعظموا أمره» .

أما ابن خلدون فيذكر «ثاربه – أى سعيد – أخوه الأصغر أبو طاهر ، فقام بأمرهم – وبايعه العقدانية – وجاءه كتاب عبيد الله المهدى بالولاية» (٢) والروايتان متعارضتان إلى حد ما . فبينما تذكر الرواية الأولى أن سعيداً سلم بنفسه الأمر إلى أخيه ، وكان هو بلغة الباطنية إماماً مستودعاً لأبى طاهر وكان أبوهم أبو سعيد قد تنبأ له بالسلطان – وسنرى صورة من الأساطير والتنبؤات التى أحيطت بقيام أبى طاهر – تذكر الرواية الثانية أن ثمة ثورة حدثت وأن «العقدانية» أى كبار مشيخة المذهب قد بايعوا أبا طاهر ، ثم التأييد من عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالقيروان .

ويستنتج الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أنه كان هناك فريق من القرامطة ما زال يؤمن بالمذهب الإسماعيلى . وأن هذا الفريق قام بالثورة على سعيد ووضع أبا طاهر أميراً على القرامطة عام

(١) النويرى : نهاية الأرب ، وحسن إبراهيم وطه شرف : عبيدالله المهدى ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ح ٥ ص ٨٨–٨٩ .

٢٠٥ هـ . ولكن الدكتور حسن إبراهيم وزميله ، أخطآ (كما أخطأ دوزى معهما) حين يقولان «ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ حتى نهاية حكم أبى طاهر سنة ٣٣٢ هـ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلات طيبة مع عبيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله ، أضف إلى ذلك أنه كان – كما يقول دوزى – على اتصال سرى بعبيد الله ، يقر له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة – خمس الإمام ويطيعه ولا يعصى له أمرا» (١) .

. وهذا خطأ كبير وتغال فى وصف طبيعة العلائق بين أبى طاهر وبين عبيد الله . ولا شك أن أبا طاهر حاول فى الظاهر فقط أن يقيم علاقات ود بينه وبين عبيد الله ، ولعله فعل هذا إرضاء لمجموعة من أتباعه بقوا على ولائهم للإسماعيلية . ولكنه نهج فى الحقيقة منهج والده أبى سعيد . وسيتبين لنا هذا من سياق الحوادث ، كما سيتبين لنا أن أبا طاهر الجنابى – سليمان بن الحسن – بقى ، بالرغم من ادعائه الظاهر أنه يؤمن بالمهدى عبيد الله – مخلصاً لآراء الكيسانية أو الحنفية ومخلصاً لمذهب أبيه أبى سعيد . الحسن بن بهرام وأستاذيه حمدان قرمط وعبدان . ولم يبحث مؤرخو هذه الفترة من دولة القرامطة حقيقتهم فى ضوء عقائدهم ، بل أهملوا هذه الناحية ، مع أنها هى التى تحدد لنا حركتهم : جوهر مبادئها وأغراضها .

أما عن اتصالات عبيد الله بن الحسين (أى عبيد الله المهدى) بأبى طاهر . فيقدم لنا البغدادى صورة منه ، وهى صورة رسائل أرسلها عبيد الله إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابى ، ويقول إنه قرأها فى كتابهم المترجم «بالسياسة والبلاغ الأكيد» .

يقول عبيد الله – فيما يذكر البغدادى : ادع الناس ، بأن نتقرب إليهم بما يميلون إليه . وأوهم كل واحد منهم . فمن آنست منه رشداً ، فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به . فعلى الفلاسفة معولنا . وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا نعرفه» .

ثم يذكر البغدادى أن هذا الكتاب يبطل بعد ذلك القول بالميعاد والعقاب . ويعلن أن الجنة هى نعيم الدنيا . وأن العذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد ثم يورد الفقرات الآتية من الرسالة أو من كتاب عبيد الله «إن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم . وأكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم» .

ويشير البغدادى أن هذا تحقيق لنسبة الباطنية إلى الدهرية ثم يقارن بين الاثنين من خلال هذا الخطاب الذى يدعو فيه عبيد الله إلى محاولة جذب أصحاب المذاهب الفلسفية من الناس كما يحاول

(١) الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ٢١٨ .

أيضاً جذب الدهرية . فيقول « إن المجوس يدعون نبوة زرادشت ونزول الوحى عليه من الله تعالى . وإن الصابئين يدعون نبوة هرمس وواليس (طاليس) وذريثوس وأفلاطون وجماعة من الفلاسفة . وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بنزول الوحى من السماء على الذين أقروا بنبوتهم . ويقولون إن ذلك الوحى شامل للأمر والنهى والخبر عن عاقبة بعد الموت ، وعن ثواب وعقاب وجنة ونار يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة .

ثم يرى البغدادى أن الباطنية يرفضون المعجزات ، ونزول الملائكة من السماء بالوحى والأمر والنهى ، بل ينكرون أن يكون فى السماء ، وإنما يتأولون الملائكة على دعاتهم ، ويتأولون الشياطين والأبالسة على مخالفيهم ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العالم بالنواميس والحيل بدعوى النبوة والإمامة ، وأن كل نبى فيهم صاحب دور مسبع ، إذا انقضى دور سبعة ، تبعهم سبعة فى دور آخر .

ويفسرون النبى والوحى : بأن النبى هو الناطق ، والوحى أساسه الفاتق . وإلى الفاتق تأويل نطق الناطق ، على ما تراه يميل إليه هواه فمن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة الأبرار ، ومن عمل بالظاهر ، فهو من الشياطين الكفرة وأنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا ، يخرجه عن حقيقته ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة الإمام ، والحج زيارة وإدمان خدمته والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام والزنا عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وزعموا أن من عرف معنى العبادة ، سقط عنه فرضها وتأولوا فى ذلك قوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل .

ثم يقدم لنا البغدادى – بعد هذا الشرح للفقرة التى ذكرها من رسالة عبيد الله المهدى لأبى طاهر ، فقرة أخرى من هذه الرسالة يقول فيها عبيد الله المهدى : إنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال الميعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة فى السماء وإبطال الجن فى الأرض . وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم » .

ويعلق البغدادى بأن فى هذا إثبات لفكرته هو أن فى الباطنية دهرية يؤمنون بقدم العالم وينكرون الصانع ويبطلون الشرائع .

ثم يقدم إلينا البغدادى فقرة أخرى من الرسالة عن متناقضات الأنبياء وينبغى أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت ، وأباح العمل فى السبت ، وأبدل قبلة موسى بخلاف جهتها ، ولهذا

قتلته اليهود لما اختلفت كلمته . ثم قال : ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة ، حين سألوه عن الروح . فقال : الروح من أمر ربى ، لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة . ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن له عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعبذة ولما لم يجد المحق فى زمانه عنده برهاناً . قال : لئن اتخذت إلهاً غيرى . وقال لقومه . أنا ربكم الأعلى ، لأنه كان صاحب الزمان فى وقته .

«وقال فى آخر رسالته : وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليس له زوجة فى حسنها ، فيحرمها على نفسه ، وينكحها من أجنبى ، ولو عقل العاقل ليعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى. ماوجه ذلك إلا أن صاحبهم (أى محمداً عليه الصلاة والسلام) حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإله الذى يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يرونه أبداً من البعث فى القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدهم بذلك عاجلا ، وجعلهم له فى حياته ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله «لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى» فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج .

«وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس . وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس ، فهنيئاً لكم ما نلتم من الراحة فى أمرهم» .

وينتهى البغدادى إلى القول «وفى هذا الذى ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهرية واستباحة المحرمات وترك العبادات [1] » .

هذا هو نص الخطاب الذى أورده البغدادى منسوباً إلى عبيد الله المهدى القيروانى ، ويؤكد البغدادى أن عبيد الله أرسله إلى أبى طاهر الجنابى . ومن الواضح أن الرسالة باطنية وأنها مأخوذة من هذا الكتاب الذى عرفه ابن النديم وهو كتاب «البلاغات السبعة» . وقد قال ابن النديم كما ذكرنا من قبل «قد قرأته ، فرأيت فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها» [2] ويبدو أنه كتاب باطنى يتحدث عن عقيدة الباطنية الفارسية وهى منفصلة تماماً عن الباطنية الإسماعيلية ، وإن كانت هناك عناصر مشتركة ، غير أن الإسماعيلية لا تقدح فى النبوات ، ولا تهاجم الرسول محمداً ﷺ وذريته ، وكذلك القرامطة ، وإنما هذا الكتاب — وهو ينسب إلى عبدان — إنما هو تعبير عن آراء الفرس الشعوبيين الذين تمثلوا فى فرق الخرمية والخرمدينية وبقايا المانوية والمزدكية والماندائية والكثير من الفرق الغنوصية الخالصة التى لا تتصل بالإسلام أى اتصال .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٧ — ١٧٩ . (٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٢ .

ولم يكن عبيد الله المهدى من السذاجة بمكان أن يرسل لأبى طاهر خطاباً يربطه بالمجوسية الفارسية عامة ، وبإنكار للحق الإلهى الذى أضفاه هو على نفسه وأضفاه أتباعه عليه ، بانتمائه للبيت الإسماعيلى العلوى ، وهذا البيت ينتهى آخر الأمر إلى محمد ﷺ . والرسالة تهاجمه أشد هجوم ، كما تهاجم الأنبياء من قبله . فالرسالة رسالة مجوسية واضحة ، تشترك بعض عناصرها الجزئية مع جزئيات للمذهب الإسماعيلى ، ولكنها ليست إسماعيلية قطعاً ، ولم تصدر من إمام القيروان إلى أمير القرامطة .

ومن الخطأ البالغ أن يقال : إن أبا طاهر الجنابى خالف سياسة أبيه أبى سعيد ، فعمل للفاطميين ، إنه ادعى فى الظاهر فقط موالاتهم ، أما فى حقيقة الأمر ، فقد كان يعمل لنفسه ، وكما باءت حملة الفاطميين الأولى على مصر (عام ٣٠٠ – ٣٠١ هـ) بالفشل – لأن أبا سعيد الجنابى لم يفعل من ناحيته على نجاحها ، فأرسل حملة شكلية إلى الكوفة ، فلم يشغل جيوش الخليفة العباسى ، وبهذا خلا للعباسيين الأمر وفتكوا بجيش المهدى الزاحف على مصر ، فعل أبو طاهر نفس الشىء عام ٣٠٧ فقد وصل القائم (ابن المهدى – وأول الخلفاء الفاطميين على الحقيقة) إلى مصر «واستدعى أبا طاهر القرمطى وانتظره» على حد ما يقول ابن خلدون فى العبر [١] . ولكن أبا طاهر لم يحضر ، وإنما قام بحملة شكلية فاشلة على جنوب العراق كحملة والده تماماً وهزم مؤنس الخادم قائد الخليفة القائم وأعاده إلى المغرب .

وفى عام ٣١٢ هـ يتبين لنا تماماً أن أبا طاهر الجنابى كان يعمل لنفسه فى الحقيقة لا لمهدى القيروان ، فقد بدأ حملات مريعة على قوافل الحجاج ، يقتل ويسبى ويهدم المساجد السنية [٢] ، وقد ارتاع الخليفة المقتدر من هذا العمل الجرىء ، وأقلقه أن يحدث لأول مرة فى تاريخ الإسلام فكتب إلى أبى طاهر الجنابى عام ٣١٣ هـ «يتوعده على ما استحل فأجابه أبو طاهر بالخطاب الآتى ، وسيتبين منه إلى أى حد تتضح عقائد الرجل .

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين – من أبى طاهر سليمان بن الحسن الجنابى الداعى إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بآثار رسول الله ﷺ إلى قائد الأرجاس المسمى بولد العباس .

أما بعد : عرفك الله مراشد الأمور ، وجنبك التمسك بحبل الغرور . فإنه وصل كتابك بوعيدك وتهديدك ، وذكرك ما وضعته من نظم كلامك ، وتمت به من فخامة إعظامك من التعلق بالأباطيل – والإصغاء إلى فحش الأقاويل ، من الذين يصدون عن السبيل . فبشرهم بعذاب أليم ، على حين

(١) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٨٩ .

زوال دولتك ، ونفاذ منتهى طلباتك ، وتمكن أولياء الله من رقبتك ، وهجومهم على معاقل أوطانك صغرا ، وسبيهم حرمك قسراً ، وقتل جموعك صبراً . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ، وجند الله هم الغالبون .

«هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، كالأسد الغضنفر ، فى سرابيل الظفر ، متقلداً سيف الغضب ، مستغنياً عن نصر العرب ، لا يأخذه فى الله لومة لائم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . قد اكتنفه العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها ، وانقشعت طغا الظلمة ودجنة الضلالة ، وغاضت بحار الجهالة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

«تالله ، غرتك نفسك وأطمعتك فيما لست نائله ، وسولت لك ما لست واصله . فكتبت لى بما أجمعت عليه أذهان كتابك ، ذكرتنى بالعيوب الشنيعة وقذفتنى بالمثالب السمجة . تالله لتسألن عما كنتم تعملون .

«فأما ما ذكرت من قتل الحجيج وإخراب الأمصار وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس . وادعى طوائف منهم أنهم أبرار ، ومعاينتى منهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

«خبرنى أيها المحتج لهم ، والمناظر عنهم ، فى أى آية من كتاب الله أو أى خبر عن رسول الله ﷺ إباحة شرب الخمور ، وضرب الطنبور ، وعزف القيان ، ومعانقة الغلمان ، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام ، واحتووها من وجوه الحرام .

«وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها ، سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بأسانيد عن مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة .

وأما تخويفك لى بالله وأمرك بمراقبته ، فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك أترى أنى أجهل بالله منك ، وصرفك أموال المسلمين للصفاعنة والضراطين ومنعها عن مستحقيها . يدعى على المنابر للصبيان ، ويخطب للخصيان . آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟

«وأما ما ذكرت أنى تسميت بسمة عدوان ، فليس أعظم من تسميك بالمغيث لله ، أمير المؤمنين ، أى جيش صدمك فاقتدرت عليه ، أم أى عدو ساقك فابتدرت إليه . لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين ، وإنك لتقلد بعض خدمك شيئاً من أمرك ، فيكاتبه الشريف والرئيس بالسيد

والمولى ، فأى الأمرين أقرب للتقوى ، أو ما علمت أنه من انقاد له نفر من عشيرته وعصابة من بنى عمه وأسرته ، فقد سادهم وعلا فيهم .

«وبعد – فالك وللوعيد ، وللإبراق والتهديد . اعزم على ما أنت عليه عازم ، وأقدم على ما أنت عليه قادم ، والله من ورائى ظهير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله وصلى الله على خير بريته وآله وعترته» (١) .

وقد أوردت النص الكامل لخطاب أبى طاهر لكى أبين أنه لا يحتوى على عقيدة غير إسلامية ، بل إنه يهاجم الخليفة لفساده وفساد حاشيته ، ثم يبرر ما يفعله هو ، بأنه يهاجم مساجد لا يذكر فيها اسم الله . أو بمعنى أدق إنه يتكلم – كشيعى خارجى ينكر أسانيد الشيوخ – ونحن نعلم أنها أسانيد السنة ويرى أنهم يخفون الحق بفعلهم هذا . ثم ينكر فجور الناس وتهتكهم وخمرهم وزناهم ولواطهم . وعجباً أن يفعل هذا وأن ينقله إلينا الحمادى اليمانى ، وهو الذى اتهمهم بالتحلل والتهتك والزنا واللواط .ولقد كان المسعودى – شاهد عيان لحركتهم ، بل كان فى هيث ، حين حاصرها أبو طاهر . ويذكر المسعودى أنه «كلم غير واحد من دعاتهم ، وذوى المعرفة منهم . فلم أر مثله دراية وتحصيلا وتديناً بما هو عليه» وحسن إتقان للسياسة التى تكون مع الدعاة (٢) .

ولم يذكر أبو طاهر فى خطابه شيئاً من عبيد الله ، ومن الخطأ الكبير أن يتصور باحث ممتاز كالدكتور حسن إبراهيم حسن أن أبا طاهر إنما يشير بفقرته «وقد خرج عليك الإمام المنتظر كالأسد الغضنفر» إلى عبيد الله المهدى . ولم يتنبه الدكتور حسن إبراهيم وزميله الدكتور طه شرف إلى أن أبا طاهر ، إنما يقصد نفسه هو : وأنه هو هذا الإمام ، أو حجة الإمام وسيتبين هذا بوضوح أكثر – بعد قليل .

كانت الأساطير تتناقل فى هذا الوقت بظهور المنتظر ، ويذكر المقدسى أنه سمع المجوس يذكرون واحداً منهم يخرج ، فيرد الملك إليهم (٣) ويذكر البغدادى أنه لم يجد على ظهر الأرض مجوسيًّا إلا وهو موال للباطنية منتظر لظهورهم وظفرهم على البلاد الإسلامية «يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك . وبما استدل أغمرهم على ذلك بما يرويه المجوس عن زرادشت أنه قال – لكشتاسف : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ، ثم يعود إلى الفرس ، ثم يزول عن الفرس إلى العرب . ثم يعود إلى

---

(١) اليمانى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٣ ، ٢٥ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٣ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ جـ ٢ ص ١٩٤ .

الفرس : وساعده جاماسب المنجم على ذلك . وزعم أن الملك يعود إلى العجم لتمام ألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زرادشت » .(١)

وقد أورد البيرونى هذه الأسطورة أيضا . فقال « ولئن كان هذا الوقت هو الذى عناه جاماسف وزرادشت فقد أصابا فى الوقت ، فقد كان ذلك فى آخر سنة ألف ومائتين وأربعين للإسكندر ، وقد تم لزرادشت ألف وخمسمائة سنة ، ولئن أخطآ فى عودة الدولة للمجوس » (٢) ويذكر البغدادى أنه كان فى الباطنية رجل يعرف بأبى عبد الله العردى – ويسميه البيرونى العدى – يدعى علم النجوم ويتعصب للمجوس ، وقد ألف كتابا ذكر فيه أن القران الثامن عشر من مولد محمد ﷺ يوافق الألف العاشر وهو نوبة المشترى والقوس وأنه عند ذلك يخرج إنسان يعيد الدولة المجوسية ويستولى على الأرض كلها . وادعى أنه يملك مدة سبع قرانات ويستند فى هذا على نبوءة لزرادشت وجاماسب فى زوال ملك العجم إلى الروم واليونانية فى أيام الإسكندر ، وقد تحقق هذا ثم عاد إلى العجم بعد ثلاثمائة سنة ، ثم زال بعد ذلك ملك العجم إلى العرب ، وسيعود إلى العجم لتمام المدة التى ذكرها جاماسب وقد وافق الذى ذكروه أيام المكتفى والمقتدر ولكن أخلف موعدهم ، وما رجع الملك فيه إلى المجوس ثم كانت القرامطة قبل هذا الميقات يتواعدون فيما بينهم ظهور المنتظر فى القرن السابع فى المثلثة النارية ، وخرج منهم سليمان بن الحسن من الإحساء على هذه الدعوى (٣) .

وهذا يثبت تمام الإثبات أن أبا طاهر خرج داعياً لنفسه لا لعبيد الله ، وأن القرامطة كانوا ينتظرون خروج الإمام ، وأن أبا سعيد نفسه قد قرأ بعض هذه الأساطير واعتبرها منطبقة على ابنه أبى طاهر « فأخبرهم أنه سيملك الأرض . وقد ذكر الحمادى أن أبا سعيد كان فيلسوفاً ملعوناً ملك البحرين واليمامة والإحساء ، وادعى فيها أنه المهدى القائم بدين الله (٤) .

أما البيرونى ، فقد ذكر أيضاً رواية عبد الله العدى فقال « أخطأ أبو عبد الله العدى المتعصب للمجوسية جهلا ، والراجى لخروج القائم دهراً . وذلك أنه صنف كتاباً فى الأدوار والقرانات ، ذكر فيه أن القران الثامن عشر من مولد محمد عليه الصلاة والسلام يوافق الألف العاشر وهو للمشترى والقوس ، فحكم على أنه يخرج إنسان يعيد دولة المجوسية . ويستولى على الأرض كلها ويزيل ملك

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٢ .
(٢) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٣ .
(٣) البغدادى : الفرق ص ١٧٣ .
(٤) اليمانى : كشف أسرار . . . ص ٢٠ .

العرب وغيرهم ، ويجمع الخلق على دين واحد وأمر واحد ، ويزيل الشر ويملك مدة سبع قرانات ونصف ، ونص على أنه لا يملك من العرب ملك بعد الذى يجلس فى القرن السابع عشر ، وليس يقتضي الوقت الذى أشار إليه إلا المكتفى والمقتدر ، ولم يف بالموعود بعدهما [١] » .

ويرد البيرونى أن عقيدة القرامطة كانت مزيجاً من بعض مذاهب أهل الباطن والتشيع لآل البيت عليهم السلام ، ويتواعدون ظهور المنتظر فى القرن السابع فى المثلثة النارية ، ثم يذكر أن أبا طاهر اعتقد أنه هو هذا المنتظر وهذا دليل على أنه لم يؤمن أبداً هو ومجموعة القرامطة الكبرى بعبيد الله إماماً منتظراً . ولقد أخطأ برنارد لويس ، كما أخطأ حسن إبراهيم خطأ كبيراً فى اعتبارهما للقرامطة إسماعيلية أو أتباعاً لهم . وكذلك ماسينيون الذى اعتبر الحركتين واحدة .

وفى عام ٣١٧ هـ هجم أبو طاهر على مكة ، وقتل وسبى ، واقتلع الحجر الأسود وحمله من مكة إلى الإحساء وقال :

ولو كان هذا البيت لله ربنا ... لصب علينا النار من فوقنا صبا

لأنا حججنا حجة جاهلية ... محللة لم نبق شرقا ولا غربا

وإنا تركنا بين زمزم والصفا ... جنائز لا تبغى سوى ربها ربا

ولكن رب العرش جل جلاله ... لم يتخذ بيتا ولم يتخذ حجبا [٢]

وضرب أحد كبار رجال أبى طاهر الحجر الأسود وقال «كم تعبد فى الأرض وآل محمد لا يظهرون» وهنا يتبين لنا بوضوح وجلاء أن القرامطة هاجموا الكعبة وحملوا الحجر الأسود لاعتقادهم أن الحج باطل بدون ظهور الإمام من آل محمد ، ومعنى هذا أنهم لم يعتبروا عبيد الله مهدى الزمان بل كانوا فى الانتظار بعد .

ومن المهم أن نلاحظ أن عبيد الله المهدى أعلن هو نفسه تبرؤه من أبى طاهر ومن أخذه للحجر الأسود وقتل الحجيج . فبعث إليه منكراً لاعناً قائلا : «قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت . وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة . فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة» [٣] .

ولم يستجب أبو طاهر لهذا الأمر ، بل بقى الحجر الأسود فى هجر عاصمة أبى طاهر اثنتين وعشرين سنة ، أى بقى بعد موت أبى طاهر بسبع سنوات وبعد موت عبيد الله المهدى نفسه بسبع عشرة سنة .

---

(١) البيرونى : تحقيق . . ص ٢١٤ .
(٢) اليمانى : كشف أسرار . . ص ٢٠ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٧١ .

ثم نقل إلى الكوفة حيث رده عام ٣٣٩ أبوإسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى [١]

وقد حاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين أن يثبتوا أن اقتلاع أبى طاهر للحجر الأسود إنما كان بأمر عبيد الله وإيحائه . وأنه إنما أرسل رسالتين لأبى طاهر — إحداها ظاهرية ينكر عليه فعله والثانية سرية يأمره فيها بعدم إعادة الحجر الأسود إلى مكانه [٢] . ولكنى أشك كل الشك فى هذا . فلم يكن اقتلاع الحجر الأسود مما يفيد فى شىء ، بل على العكس كان يثير عليهم ثائرة العالم الإسلامى كله وبخاصة مصر ، وكان الفاطميون على وشك معاودة الكرة على العباسيين فيها ؛ بل إن اقتلاع الحجر الأسود سبب فعلاً إثارة نوع من الجهاد المقدس ضد عبيد الله نفسه ، وتسبب أيضاً فى فشل حملته الثالثة . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية العقائدية ، فليس فى عقائد الإسماعيلية هدم الكعبة . ولو أرادوا الاعتداء على الكعبة لأمروا على بن فضل أو ابن حوشب أن يقوما بهذا العمل . حقًّا إن الدروز يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله سيعود وسيهدم الكعبة ، وينقل القبلة إلى بيت المقدس ، ولكن العقائد الدرزية ليست عقائد إسماعيلية معتلة وهى متأخرة عن هذا العصر الذى نعيش فيه .

وهنا نتساءل : ماذا كانت غاية أبى طاهر الجنابى من اقتلاع الحجر الأسود ؟ يذهب مؤرخو السنة إلى أنه فعل هذا تدعيماً للفكرة الباطنية المجوسية من إبطال الحج ، وهدم الكعبة ، وإظهار عبادة النار ، وأنهم لما لم يتمكنوا من إظهار هذه العبادة ، احتالوا وقالوا للمسلمين «ينبغى أن تجمر المساجد كلها . وأن تكون فى كل مسجد مجمرة يوضع عليها الند والعود فى كل حال .

وكانت البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً . فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار [٣] » ومما يؤيد هذا الرأى ظهور زكريا المجوسى عام ٣١٧ وتوليته أمر القرامطة . غير أنه من البعيد أن تكون هذه غاية أبى طاهر . فلم نسمع أنه أقام فى الكعبة شعائر أو طقوساً مجوسية ، كما أنه لم يفكر فى هدم البيت الحرام . بل إننا نرى أنه بعد أن حمل الحجر إلى هجر ، نقله إلى مسجد الكوفة الجامع وعلقه به . فكان غاية أبى طاهر إذن أن يوقف فريضة الحج ، وأن يعرقلها ، ذلك لأن الحج إنما كان يؤدى على طريقة أهل السنة . وباسم الخليفة العباسى عدو آل البيت . وكان أبو طاهر وأتباعه على يقين من أن دور الإمام المنتظر ، سواء أكان هو أو أحد أفراد البيت العلوى ، قد أطل زمانه .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٥ .

(٢) الدكتوران حسن ابراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدى ص ٢٢٤ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ١٧٢ .

والحج عند الشيعة – وكل اجتماع خطبة وصلاة جمعة – إنما باسم الإمام ، ولما كان الإمام لم يظهر بعد . فلا حج ولا جماعة .

هذا هو السبب الحقيقى لنقل الحجر الأسود إلى هجر ثم إلى الكوفة . وإن كان هذا السبب لا يمنع من أن عدداً لا يستهان به من أتباع أبى طاهر كانوا مجوساً وكانوا يرون فى نقل الحجر الأسود انتقاماً من الإسلام ونبيه ، ومحاولة للقضاء عليه وعلى طقوسه ، ولكن لم تكن هذه أبداً غاية أبى طاهر . ولقد أفزع اقتلاع الحجر الأسود من مكانه فى الكعبة العالم الإسلامى كما قلنا شيعة اثنا عشرية وسنة بل فاطمية إسماعيلية . واستنكره عبيد الله فى خطاب شديد اللهجة إلى أبى طاهر .

وفى عامى ٣١٥ – ٣١٦ بدأ أبوطاهر الجنابى مهاجمته للعراق . وسار حتى شمالها . ولكنه ارتد منهزما حتى عاصمة ملكه هجر . فكتب لأهل العراق قصيدة يقول فيها :

أغركم منى رجوعى إلى هجر	وعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ فى أرض بابل	وقارنه النجمان فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة	بأنى أنا الموهوب فى البدو والحضر
فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة	يساقون سوق الشاة للذبح والبقر
ألست أنا المذكور فى الكتب كلها	ألست أنا المنعوت فى سورة الزمر
سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً	إلى قيروان الروم والترك والخزر
أكيل لهم بالسيف حتى أبيدهم	فلا أبقين من نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعى للمهدى لاشك أننى	أنا الضيغم الضرغام والفارس الذكر
ولكنه حتم علينا مقدر	فنفنى ويبقى خالق الخلق والبشر
وأعمر حتى يأتى عيسى بن مريم	فيحمد آثارى ويرضى بما أمر
فنى جنة الفردوس لاشك مربعى	وغيرى يصلى فى الجحيم وفى سقر [1]

ويبدو أن كثيرين من المؤرخين المحدثين لم يتبينوا حقيقة هذه الأبيات وظنوا أنها إشارة إلى عبيد الله المهدى . وهذا خطأ فاحش .

فالقصيدة كيسانية أو حنفية بحتة . وقد تنبه البغدادى إلى هذه الحقيقة وإن كان لم يوضحها – فقال «أراد بالنجمين زحل والمشترى . وقد وجد هذا القرآن فى سنى ظهوره . ولم يملك سبع قرانات ،

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٤ ؛ والبغدادى : الفرق ١٧٣ .

وما ملك سبع سنين . بل قتل بهيت رمته امرأة من سطحها بلبنة على رأسه فدمغته ، وقتل النساء أخس قتيل وأهون فقيد (١) .

ومن الواضح أن البغدادى يشير إلى أن أبا طاهر إنما يرمز إلى نفسه ويعلن أنه الداعى إلى المنتظر أو المنتظر ذاته . وكذلك البيرونى يذهب إلى نفس الأمر فيقول إن القرامطة كانوا يتواعدون ظهور المنتظر فى القرن السابع ، وأنهم اعتقدوا أنه أبو طاهر . وقد قلت إن أباه أبا سعيد كان يشير إليه أيضاً على أنه المنتظر . بل إن أبا طاهر نفسه فيما يرى الحمادى اليمانى «كان فليسوفا ملعونا ملك البحرين والأحساء وادعى فيها أنه المهدى القائم بدين الله ، واستفتح ودخل مكة وقتل الناس فى المسجد من الحج واقتلع الركن ، وراح به إلى الأحساء (٢) .

وإذا تأملنا شعره – من ناحية النقد الداخلى للنص – لتبين لنا أنه يعلن نفسه المبعوث المنتظر مستنداً على ظواهر فلكية ، ثم على تفسيرات باطنية للكتب المقدسة عن المهدى ، ثم يذكر أنه المنعوت أو المبعوث فى سورة الزمر . والآية الثامنة من السورة تتكلم عن القائم وقد أولها أبو طاهر – فيما يبدو – بأنه هو هذا السجاد القائم «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة به. قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الالباب» ثم الآية «قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين» وقد حول كل هذه الآيات التى خص الله بها الرسول إليه هو.

أما أنه سيملك الأرض فهو يستمدها أيضاً من تفسيره الباطنى للآية «وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين» أما أن مربعة جنة الفردوس وغيره فى سقر فتأويل للآية «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا – قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جنهم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين» .

يبدو أن أبا طاهر مزج كل هذه التأويلات بأقوال المنجمين والمجوس وآمن بها عن يقين ، ولكن هناك شاهداً واضحاً حاسماً فى قصيدته يثبت أنه حنفى . إنه يذكر أنه داعية للمسيح ، وأنه سيعمر حتى يأتى ويشهد له . ونحن قد ذكرنا من قبل هذا الكتاب الحنفى الوارد عن أحمد بن محمد بن الحنفية ،

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٣ .

(٢) اليمانى : كشف . . جـ ١ ص ٢٠ .

والذى انتشر بين قرامطة السواد ثم حمله بدون شك معه أبو سعيد الجنابى والد أبى طاهر ويبدأ الكتاب بأنه «داعية للمسيح عيسى بن مريم» . فهو إذن الفار قليط الآتى من روح القدس والذى بشر به الإنجيل وهذا ما يحسم الأمر فى أن عقائد القرامطة الرسمية كانت كيسانية حنفية .

ونلاحظ أيضا أن أبا طاهر حارب يوسف بن أبى الساج – القائد العباسى الكبير – وكان هذا القائد على عقيدة فاطمية مستترة وقد أسره أبو طاهر – وقتله – مع علمه الكامل بأنه فاطمى ، يدين بالولاء لحاكم القيروان . فأبو طاهر لم يكن يأبه بعبيد الله ولا بأوامره – اللهم إلا إذا حققت له وللقرامطة مأرباً خاصًا .

وما لبث أن قام أبو طاهر بحركة من أعجب الحركات فى تاريخ القرامطة بل فى تاريخ الإسلام «فقد ظهر فى البحرين فى ظروف غريبة مريبة فى أول شهر رمضان عام ٣١٩ هـ . ابن أبى زكريا الطامى –كما يدعوه البيرونى[١] . أو زكريا الأصفهانى المجوسى أو الدجال الفارسى كما يقول ابن الأثير[٢] أو «الغلام المعروف بالذكرى من أبناء ملوك الأعاجم من بلاد أصبهان كما يقول المسعودى[٣]

وقد دعا إلى ألوهيته . يقول البيرونى «وكان غلاما فاجراً ، فدعا إلى ربوبيته وسن لهم هذا الغلام أن تشق بطون الموتى وتغسل وتحشى خمرا . وقطع يد من أطفأ ناراً بيده ، وقطع لسان من أطفأها بنفخة ،ثم أمرهم بالفجور بالغلمان . . . وأمرهم بعبادة النيران وتعظيمها ولعن من مضى من الأنبياء وأصحابهم » ويذكر القاضى عبد الجبار «أن أبا طاهر رحب بالدجال زكريا الأصفهانى وثار معه على الفاطميين وفضح أسرارهم المذهبية ، وأن الدعاة أمثال أبى القاسم عيسى بن موسى وأبى مسلم بن محمد الموصلى وأبى بكر وأخيه حاتم بن حمدان الرازى الكلاعى وآخرين قد ماتوا أسفاً وحزناً على فضح أبى طاهر للدعوة» بل يذهب عبد الجبار إلى أن «القرامطة أعلنوا أثناء حكم زكريا بأن جميع تعاليمهم السابقة عن المهدى والنسب النبوى ما هى إلا لغو وكشفوا عن أسرار فرقتهم كلها ، ونشروا لأول مرة قصة عبد الله بن ميمون ودنان وغيرهما ، وخططهم فى خداع المسلمين ، وطعنوا فى جميع الأديان . وأحرقوا الكتب الدينية كلها ، ونادوا بابن زكريا إلهاً . واستحلوا المحرمات[٤] . وقد أثار هذا الدعاة كما قلت وقتل زكريا داعية القرامطة الكبير . . أبا حفص بن زرقان ، وكان زوج أخت أبى طاهر ، وكان يدعى الشريك وكان أكملهم عقلا وأحسنهم علماً .

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٣ .
(٢) ابن الأثير : تاريخ جـ ٨ ص ٢٦٣ .
(٣) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .
(٤) لويس : أصول . . . ص ١٨٦ .

وهذا دليل آخر أكثر حسما على أن أبا طاهر لم يهتم بالإسماعيلية اهتماماً حقيقيًّا . وأن كل ما اهتم به هو تدعيم سلطانه هو وسلطان القرامطة ، فلما هزم فى العراق ورجع إلى هجر ، أصابه بعض اليأس ، فضعف أمام المجوس الفرس من شيعته ، ورحب بأبى زكريا المجوسى ، وأطلق له الأمر ، ومكث زكريا هذا ثمانين يوماً يحكم القرامطة «إلى أن سلط عليه من كان تولى إظهاره فذبحه» [١] أى قام أبو طاهر نفسه بقتله ، ورجع القرامطة إلى عقيدتهم القديمة . ويذكر المسعودى « أن رأى زكريا أظهر فى العسكر من المذاهب الشنيعة والسير القبيحة التى لم تعهد ، ولا عرفت فى عسكر هؤلاء القوم منذ استولى أبو سعيد على هذه البلاد وولده» وبعد قتله زالت ورجعوا عنها ، واعتذروا أشد الاعتذار [٢] .

وفى عام ٣٢١ هـ . قام أبو طاهر بحملته الأخيرة ، على جنوبى غرب فارس وقد فشلت حملته أيضا . ومات أبو طاهر الجنابى عام **٣٣٣** هـ . أى بعد عشرة أعوام من وفاة عبيد الله المهدى (المتوفى عام ٣٢٢) وعاصر حكم القائم (المتوفى عام ٣٣٤ هـ) ، ولم تكن بين الاثنين علاقات . ولم يستطع القائم أن يجعل أبا طاهر يعيد الحجر الأسود إلى مكانه .

تولى زعامة القرامطة بعد أبى طاهر أخوه أحمد ، على أن يكون ولى عهده سابور بن طاهر . وقد سار أحمد بن أبى سعيد على سياسة أبيه وأخيه . العمل لخير القرامطة وحدهم ، فما غزا الشام عام ٣٥٨ ، وعرض عليه الحسين بن عبيد الله بن طغج الأخشيد والى الشام الصلح ، قبل فورا بدون مراعاة لصالح الفاطميين ، وهم على وشك الانقضاض على مصر . ويبدو أن سابور بن أبى طاهر كان على ولاء للفاطميين ، فلما توفى عمه عام ٣٥٨ ، وحاول سابور تولى رئاسة القرامطة ، لم يقبل معظمهم . وقاموا بثورة عليه ، وقتلوه ونفوا أنصاره إلى جزيرة أوال . وكان يقود الثورة الحسن بن أحمد الأعظم .

وسرعان ما انقض الحسن الأعظم على دمشق وقتل جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الكتامى (٣٦٠ هـ) وقام الحسن الأعصم على منبر جامع دمشق ولعن الخليفة الفاطمى وأعلن أن « هؤلاء من ولد القداح ، كذابون ممخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم . ومن عندنا خرج جدهم القداح [٣] » .

وهكذا نرى الحسن الأعظم يسير على سياسة أبيه وعمه وجده لا يؤمن بالفاطميين ، بل يحاربهم أشد حرب ويعلن أنهم كذابون ممخرقون ، وأن عبد الله بن ميمون إنما خرج من عندهم ، أى أنه لم يكن منتسباً للبيت العلوى . بل إن الحسن الأعصم يحاول بكل الوسائل التقرب من الخليفة العباسى

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ٢١٤ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٤ .

المطيع ، ويحاول العودة كما فعل عمه سعيد إلى حظيرة السنة . وحارب الحسن الأعصم الفاطميين . وكاد أن يفتح مصر ، لولا أن قام العزيز ، الخليفة الفاطمى على رأس الجيش لمحاربته وانتصر على الحسن الأعصم فى عام ٣٦٦ هـ . وقد حالت وفاة الحسن الأعصم عام ٣٦٧ هـ من معاودة القرامطة الكرة على مصر .

أما أن المعز قد أرسل إلى الحسن الأعصم خطابا طويلا ملأه بالاصطلاحات الإسماعيلية ، والتعبيرات الغنوصية ، وذكره فيه بسنة آبائه وأسلافه ، وأنهم كانوا عبيداً للفاطميين وخولا لهم ، فإنه من نوع المراء الذى جبل عليه المعز وأصحاب الدعوات السرية جميعاً ، علاوة على أن أبا سعيد على الأقل لم يكن أبداً فاطمياً أو مخلصاً للفاطمية ، وكذلك أبو طاهر . إنما استخدم المعز هذا الأسلوب للتأثير فى بعض أتباع الرجل من الإسماعيلية . وقد رد الحسن الأعصم على خطاب المعز حينئذ «من الحسن بن أحمد الأعصم – بسم الله الرحمن الرحيم . وصل إلينا كتابك الذى كثر تفصيله ، وقل تحصيله . ونحن سائرون على أثره والسلام . وحسبنا الله ونعم الوكيل[1] .

فالقرامطة ، فى مجموعهم لم يكونوا إسماعيلية ، وإن كان البعض منهم قد بقى مؤمناً بها بعد اعتناق حمدان قرمط لمبادئها مدة من الزمن – بل إننا نجد داعيا من أقرب الناس إلى عبدان – وهو عيسى بن موسى ابن أخته ، وحريث بن مسعود تلميذه يبقيان على عقيدتها الإسماعيلية المقيدة ، وهى الإيمان بمحمد بن إسماعيل فقط ويذهب عيسى بن موسى إلى بغداد ، ويعيش فيها . ويذكر النويرى أن عيسى ابن موسى نظم الدعوة فى بغداد ، وأخذ يؤلف الكتب وينسبها إلى عبدان ، وقد جمع فى هذه الكتب ولفق المذاهب حتى توهم الناس أن عبدان أعلم أهل الأرض .

وقد حاول برنارد لويس جاهداً أن يثبت التشابه بين القرامطة والإسماعيلية مستنداً على أخبار متأخرة فى رسالتين درزيتين نقلها دى ساسى : أولاهما : السيرة المستقيمة بشأن القرامطة لحمزة الأصفهانى .

ويبدو أن هذه الرسالة قد كتبت سنة ٤٠٩ هـ . ويتكلم حمزة فى هذه الرسالة عن تأسيس الدعوة فى هجر على يد رجل اسمه شاتنيل بن دانيال «ويذهب أهل الإحساء عادة إلى صرنا – هجر – ليبيعوا ويشتروا . فجاء إلى صرنا رجل من علماء الإحساء اسمه صرصر ، فأدخله أحد الدعاة مذهبه ، وأخذ عليه العهود والمواثيق ، وجاء به إلى آدم الذى هو شاتنيل ، فعينه آدم داعية للاحساء وما جاورها ، فانطلق صرصر إلى الأحساء وما يتبعها ، وأخذ اليمين من قوم كثيرين ، وأوصاهم أن يخلصوا لعقيدة وحدانية مولانا وعبادته ، ويعترفوا بشاتنيل وإمامته ، ويكفروا بإبليس وأتباعه ، وقال لهم : إذا دخلتم

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٤ – ١٤٤

هجر ، فقرمطوا أنوفكم على أهلها ، لأن فيها رجلا اسمه الحارث بن طرماح الأصفهانى له أتباع كثيرون ثائرون جميعهم على مولانا العليم ، ولا يعتقدون بأفضلية الإمام ولا تحدثوا أحداً من أهلها عن الدعوة إلا الذين معكم فى حضرة الحكم شانتيل . فاستجابوا بصرصر وأطاعوا ما أمرهم به ، وتظاهروا كما قال لهم بالقرامطة ، فسموا بالقرامطة واتسموا بها إلى الآن .

وهذه رواية جديدة عن ظهور اسم القرامطة ، وتعنى أنه ظهر فى أوائل القرن الخامس ثم انتشر هذا الاسم فى أهالى خراسان وفارس ، وصاروا إذا وصفوا رجلا بالتوحيد . قالوا : هذا قرمطى . وقد كان أبو طاهر وسعيد وآخرون كثيرون دعاة مخلصين لمولانا ، خدموه وعرفوا وحدانيته وإجلاله وعظموه ، واعتقدوا أنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه . وقد انضم عليهم المولى بلقب سيد ، وعملوا ما لم يعمله غيرهم من الدعاة فى نشر عقيدة التوحيد ، وقتلوا من المشركين أكثر مما فعل غيرهم . ولكن مولانا لم ير إظهار نفسه بينهم ، لعلمه أن ذلك يوقع الخلاف بينهم حتما ، وتضيع عقيدة التوحيد ، فينتشر الضلال ، ويتبع أطفال بنى عباس أهواءهم ، فيسقطون فى الخطيئة والغواية .

«ولكن يوم الظهور قريب ، وساعة إشارة السيف والثورة وتقتيل الكافرين وإبادة قواتهم آتية تكاد تظهر . ولا شك فى أن أهل الإحساء وهجر وفارس سيعودون إلى معرفة مولانا وعبادته — كما كانوا من قبل — سيخرون سجداً لمولانا وعظمته ، وسيؤمنون بأنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه وسيصبحون حماة عقيدة التوحيد ، كما كان آباؤهم من قبل وسأبعث فيهم دعاة التوحيد ، وأجمع بقايا الأصدقاء والعبيد ، وسوف أنتصر بسيف مولانا على كل ثائر» .

أما الرسالة الثانية التى استند عليها لويس برنارد فهى رسالة للمقتنى أبى الحسن على بن أحمد السموقى المكنى بالمقتنى بهاء الدين . أحد أصحاب حمزة وقد دعاه حمزة نفسه جناحه الأيسر . واسم الرسالة رسالة السفر إلى السادة فى الدعوة لطاعة ولى الحق الإمام القائم المنتظر ، وفيها يخاطب الداعى المقتنى شيوخ البحرين — وهم ما يسميهم السادة ، ويطلب منهم العودة إلى حظيرة التوحيد — أى إلى عبادة الحاكم بأمر الله الإسماعيلى ، ويلومهم على ردتهم .

وينتهى لويس إلى القول بأن «شهادة هاتين الرسالتين الدرزيتين تعززهما بينة المصادر السنية ، لا تترك شكًّا فى امتزاج القرامطة والفاطميين برهة من الزمن على الأقل ، وليس من الصعب أن نعترف بما جاء فى رسالة حمزة بصدد نشوء القرامطة من البحرين ، وإن كان بأسلوب خرافى» [1] .

ومن العجب أن يستند برنارد لويس على كتب الدروز فى توضيح العلاقات التاريخية الصحيحة بين القرامطة والإسماعيلية . إن الكتب الدرزية لا يمكن أبداً أن تكون أساسا علميًّا للحقائق التاريخية ،

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٦ — ١٨٠ .

فقد كتبت – وقد لاحظ هو نفسه ذلك – بأسلوب أسطورى . ثم ينبغى أن نلاحظ أن حمزة هو داعى الحاكم بأمر الله ، ومتكلم عصره . ونرى بوضوح من مضمون رسالته أن يدعو عبادة مولانا فهو إذن يتكلم عن محاولة جديدة لإدخال الحاكمية أو ما عرف فيما بعد باسم مذهب الدروز إلى البحرين . لم تكن الإسماعيلية تؤمن بعبادة مولانا ووحدانيته ، ولم تعرف هذه المصطلحات إلا فى عهد الحاكم وعلى يد داعية حمزة ثم الدروز فيما بعد .

ونحن نعلم أن القرامطة فى البحرين عادوا إلى التشيع العلوى على طريقة كيسانية بعد وفاة الحسن الأعصم – فيما يقول ابن خلدون فى العبر [1] . فحاول الحاكم أن ينشر بينهم الدعوة إلى ألوهيته ، واستخدم داعى دعاته حمزة ، وأرسل المقتنى أحد الأركان ، ويبدو أنه بدأ دعوته هناك ، ولم ينجح ، فكتبها حمزة فى صورة رمزية .

ومن الدلائل القاطعة على أن شيوخ البحرين لم يتابعوا المذهب الفاطمى رسالة تحتفظ بها المكتبة الأهلية بالقاهرة فى مجموعة مخطوطات حمزة ، هذه الرسالة – هى صورة كتاب أرسله زعيم القرامطة إلى الحاكم بأمر الله يتهدده ويتوعده ويطلب إليه الخضوع للقرامطة . فالعلاقة إذن بين القرامطة والفاطمية لم تكن أبداً علاقة مودة فى جوهرها ، واستمر النزاع العقائدى بين الاثنين أمداً طويلا . وقد أحس لويس بأن القول بالتشابه بين الاثنين لا يمكن قبوله على إطلاقه ولكنه – وهو يحاول تدعيم فكرة التشابه رأى أن القرامطة – كانوا حنفية ، ثم صبأوا جميعا إلى الإسماعيلية وهذا وضع خاطئ للمسألة : إن القرامطة بقوا دائماً حنفية كيسانية إلا فى آنات تحولوا فيها ظاهرياً للمذهب الإسماعيلى ، أو استخدموه ثم عادوا إلى الحنفية أو الكيسانية .

ولقد وصف ناصر خسرو فى كتاب سفر نامه مجتمعهم ، « لا صيام ولا صلاة ولكن مع إيمان بنبوة محمد ﷺ . وتحريم للخمر مهما كان نوعها . وحياة نقابية كاملة ، ثم افترقوا دويلات » حتى قضى عليهم المذهب السنى عام ٤٧٠ وانتهو من الأرض انتهاء كاملا .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩١ .

الفصل الخامس

أحمد الكيال

فيلسوف الإسماعيلية الكبير

تكلمنا فى الفصل السابق عن مجهودات الدعاة الإسماعيليين - وبخاصة الحسين الأهوازى - بين القرامطة . ورأينا أنه انبثق عن هذه الدعوة التحام القرامطة حيناً بالإسماعيلية ، ثم افتراقها عنها فى أغلب الأحايين . وليس بين أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نعرض لآراء مفكرى القرامطة بالتفصيل وبخاصة عبدان ، على كثرة ما ذكر اسمه فى الأحداث السياسية بين القرامطة وبين الإسماعيلية ونحن الآن هنا فى هذا الفصل نعرض لفيلسوف من فلاسفة الإسماعيلية ، لم يترك عنه إلا شذور غامضة ، وأخبار قليلة نادرة : وهو أحمد الكيال .

لم يذكر مؤرخو الفرق شيئاً على الإطلاق عن تاريخ مولده أو وفاته . غير أنه من الممكن أن نصل على وجه التقريب إلى عصره خلال النقد الخارجى والداخلى لبعض النصوص التى بين أيدينا . فنصل خلال النقد الخارجى إلى أنه كان معاصراً للفيلسوف الملحد المشهور محمد بن أبى بكر الرازى (المتوفى فى عام ٣١٣ هـ) . إن ابن النديم يذكر فى قائمة كتب الرازى «كتاب النقض على الكيال فى الإمامة» [١] ويذكر هذا النص نفسه ابن أبى أصيبعة [٢] . فالرجل إذن شغل المجامع الفكرية الإسلامية فى عصره . ومن المرجح كثيراً أن يكون قد عاصر الرازى ، بحيث عنى هذا الفيلسوف الكبير الملحد بكتاب الكيال ، فكتب فى نقضه وفى الرد عليه . وأما النقد الباطنى - لفقرات الكيال التى حفظها لنا الشهرستانى من كتاب هذا الأول - فيرجح أن صاحبها عاصر إخوان الصفا . ذلك أنه يتضح فى هذه الفقرات مشابهة كبرى بينها وبين رسائل إخوان الصفا .

أما الشهرستانى [٣] - وهو أكثر المفكرين كتابة عنه - فقد أدرج فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة ، وأوردها بعد الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى . وذكره تحت اسم أحمد بن الكيال أحيانا . وأحمد الكيال أحيانا أخرى . ويقول عنه «وكان من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٣٣ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون . ج ١ ص ٤١٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٤ .

الصادق – وأظنه من الأئمة المستورين» ويبدو أن عبارة «من الأئمة المستورين» إنما تتعلق بواحد من أهل البيت لا بالكيال – فالعبارة فى ظاهرها إذن تعنى أن أحمد الكيال كان من دعاة واحد من أهل البيت من الأئمة المستورين بعد الإمام الصادق. ولكن من الممكن تخريج العبارة بأن أحمد الكيال نفسه كان من المستورين. وقد يقوى هذا التخريج إلى حد ما ادعاه الكيال بعد ذلك أنه الإمام ثم أنه القائم. والنص يحدثنا أنه عاش بعد جعفر الصادق وفى نطاق الأئمة المستورين، أى ينبغى أن يوضع فى فلك الأئمة الإسماعيلية – فى دور الستر – منذ أن أعلن الإمام محمد بن إسماعيل استتاره.

وهذا ينقلنا إلى احتمال آخر: هل أحمد الكيال هو الإمام الإسماعيلى المستور أحمد بن عبد الله بن محمد إسماعيل، وقد عرف هذا الإمام بتضلعه فى الفلسفة اليونانية، حتى إن بعض المؤرخين ينسبون إليه رسائل إخوان الصفا. وحينئذ يقرأ نص الشهرستانى السالف الذكر على الوجه الثانى الذى ذكرته: وهو أن أحمد الكيال كان هو نفسه من الأئمة المستورين. ولكن ينقض هذا الرأى ما يذكره الشهرستانى نفسه «ولعله سمع كلمات علمية، فخالطها برأية القائل، وفكره العاطل، وأبدع مقالة فى كل باب علمى على قاعدة غير مسموعة ولا معقولة. وربما عاند الحس فى بعض المواضع، ولما وقفوا على بدعته، تبرأوا منه ولعنوه، وأمروا شيعتهم بمنابذته وترك مخالطته، ولما عرف الكيال ذلك، صرف الدعوة إلى نفسه، وادعى الإمامية أولا، ثم أدعى أنه القائم ثانيا»[1] فإذا كان المستورون قد تبرأوا منه فهو ليس إذن الإمام أحمد.

وهنا يقابلنا نص قد يكشف القناع عن حقيقة أحمد الكيال «يقول الداعى إدريس: كان حجة ثالث الخلفاء – أى الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل – أحمد الملقب بالحكيم – من ولد مولانا الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ، تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون – قدس الله روحه – وهو أحمد الحكيم، الحجة الجليل قدرها، العظيم خطرها، وأرفع الحجج وأسماها، وأبطنها وأعلاها»[2].

ولم يتنبه الباحثون فى تاريخ الإسماعيلية إلى حقيقة هذا الحجة «أحمد الحكيم» وظنوا أنه أحمد بن عبد الله بن ميمون. ولو كان هذا صحيحاً، لذكر الداعى إدريس أن عبد الله بن ميمون سلم مرتبة الحجة قبل وفاته إلى ابنه أحمد. ولكن النص لا يذكر هذا علاوة على أنه يقرر أن أحمد الحكيم هذا هو من نسل الحسين بن على. ونحن نتساءل: من هو أحمد الحكيم هذا؟ إن الاحتمال الأكثر صوابا أنه أحمد الكيال، وأنه كان حجة للإمام الحسين لمدة من الزمن، ثم اختلف معه، وانفصل عنه، وكون فرقته هو، وبخاصة أنه كان يدعى الانتساب للعلويين أو أنه كان واحدا منهم. ولما انفصل عن الإمام الحسين، عاد هذا الأخير إلى التماس حججه من أولاد القداح، فعين كحجة له – محمدا أبا

(١) الشهرستانى: الملل: ج ١ ص ٣٠٤. (٢) الداعى إدريس: زهر المعانى.. ٦٤.

الشلعلع ويلاحظ أن كتب الإسماعيلية قد أهملتَ ذكر أحمد الحكيم إهمالا تاما . والسر فى هذا اختلافه مع الإمام وإعلان نفسه إماماً وقائماً . وبهذا تكون وجهه النظر الثانية وجهة أقرب إلى الصحة .

وهنا تقابلنا مشكلة أخرى : وهى اسم الكيال نفسه ، وقد أطلق على أتباع هذا الرجل أيضاً فقيل لهم الكيالية ، ماذا يعنى هذا الاسم ؟ هل هو اسم صنعة كالقداح والعلاف والإسكافى . . إلخ . أم أنه كيالْ الحكمة أى الذى يكيل الحكمة للناس ؟ وقد رأينا تفسيراً مثل هذا لاسم القداح نفسه ، فقيل إنه سمى بهذا ، لأن الحكمة تنقدح فيه ومنه .

غير أننى أقترح قراءة أخرى للاسم : وهى الكبال بدلا من الكيال ، وتكون الفرقة اسمها الكبالية لا الكيالية . والكبالية أو القبالية – هى فرقة يهودية صوفية نسبة إلى الكبالا .

والكبالا : فرقة غنوصية يهودية ، وقد انتشرت فى العالم الإسلامى ، ويعرفها فيدا بأنها تشوق إلى معرفة العالم ، معرفة أصله ، معرفة الحكومة الكونية التى تحكمه ، ثم غاية هذا العالم . ولكن هذه المعرفة لا تكون عن طريق البحث المنهجى للواقع المحسوس ، ولا يستند على جدل تصورى . إنها تتحقق متجاوزة المعقول ، متخذة طريق التأمل والإشراق . وقد اتخذت الكبالا طرقا متعددة لتدشين المريدين .

وفى أساس الكبالا ، وإذا نظرنا إليها من داخل ، نجد الغرابة العجيبة فى تجاور فكرة الذوق وفكرة السنة . إنها تنعكس إذا حللنا اسم الكبالا لغوياً . إن معنى الكبالا : السنة [1] .

وقد أصبحت الكبالا تحتوى – بجانب مذهبها الصوفى – الطلاسم والسحر والنيرنجات .

والاعتقاد فى قيمة الحروف والأرقام ، واستخدم القيم العددية للحروف الأبجدية . وقد انتشر القباليون فى العالم الإسلامى ، وعرفت الكبالا معرفة تامة . ويبدو أن ميمونا القداح نفسه كان على معرفة تامة بها . وقد أوردنا من قبل أن الحمادى اليمانى يتّهمه بأنه كان يهودياً صائغا يخدم أولاد إسماعيل ابن جعفر ، وأنه كان يعيش فى سلمية . ويوجد لا شك عنصر يهودى فى هذه التأويلات الكثيرة التى وضعها الإسماعيليون للقرآن ، وهناك اتجاه كبالى واضح إلى أقصى حد فى اعتقادهم فى الحروف والأرقام فى استخدام القيم العددية للحروف الأبجدية . وأكبر مثال لكل هذا أو أول مثال : هو أحمد الكيال ، ثم إخوان الصفا ، ثم كتب الدعاة الإسماعيليين جميعا . ولكن إن صحت هذه القراءة ، هل يمكن أن نفترض أن أحمد الكيال أو الكبال كان يهوديا ، ادعى الانتساب إلى البيت الحسينى ؟ من المحتمل هذا ، ومن المحتمل أنه لم يكن وأنه كان يدعى فقط فى درجات الدعوة العليا بالكبال ، لبراعته فى علم الطلسمات ومعرفته لخفايا ولمزايا القيم العددية للحروف ، كما سنراه واضحاً فى مقالته .

---

(١) Vajda: Introduction a La Pensee Juine Du Mpyen age, P.P. 197-198.

وأنا أميل إلى القول بأنه لم يكن يهودياً ، وإنما لقب بالكيال لمعرفته بعلم الكبالا . ولم يذكر الشهرستانى عنه أنه كان يهوديا . وكذلك فخر الدين الرازى بل كان ما ذكره هذا الأخير هو «أحمد الكيال الملحد ، وكان ضالا مضلا . وقد صنف كتابا فى الضلالة والترهات [١] » .

أما ابن طاهر المقدسى فقد ذكر فى كتابه الهام «البدء والتاريخ» فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة [٢] وسكت عنها بعد ذلك فلم يذكر شيئاً إطلاقا لا عن الكيال ولا عن عقائد الكيالية .

وهنا ننتقل إلى كتاباته . كتب أحمد الكيال كتاباً فى «الإمامة» وهو الكتاب الذى نقضه عليه محمد بن أبى بكر الرازى . كما ذكر فخر الدين الرازى هذا الكتاب أيضاً . أما الشهرستانى فيذكر أنه «أبدع مقالة فى كل باب علمى» ثم يذكر أيضاً «وبقيت من مقالته فى العالم تصانيف عربية وعجمية» ويبدو من هذا أنه كتب بالعربية والفارسية ويبدو أن الكثيرين قد آمنوا بدعوته بحيث يذكر الشهرستانى «وإنما قبله من انتمى إليه أولا على بدعته ذلك ، أنه الإمام ثم القائم [٣] » .

فلسفة أحمد الكيال :

يبدأ أحمد الكيال فلسفته بفكرة العلم الغنوصى الذى يحققه القائم فى نفسه . وقد سبق أن قلنا إن هذه الفكرة ظهرت أول الأمر منسوبة إلى محمد بن الحنفية ، أو أن الهاشمية نسبوها إلى محمد بن الحنفية . وقد قرروا أن محمدا أفضى بأسرار العلوم إلى ابنه هاشم ، وأطلعه على «تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن . وأن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا ، ولكل مثال فى هذا العالم حقيقة فى ذلك العالم ، وأن كل ماينشر فى الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع فى الشخص الإنسانى . وترى الهاشمية — كما قلنا قبلا إن هذا العلم كان لعلى بن أبى طالب ، وأنه خص به ابنه محمداً ، ثم أفضى محمد به إلى ابنه أبى هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام . أخذ أحمد الكيال فكرة الهاشمية أو الحنفية القديمة أو بمعنى أدق الفكرة الغنوصية المنتشرة فى أوساط الكوفة عن الإمام ورددها بقوله «إن كل من قدر الآفاق على الأنفس وأمكنه أن يبين مناهج العالمين أعنى — عالم الآفاق — وعالم الأنفس وهو العالم السفلى ، كان هو الإمام وهذه أول مرحلة من مراحل العلم الغنوصى السرى — يعقبها مرحلة أكبر وأدق وهى مرحلة القائم «إن من قرر الكل فى ذاته وأمكنه أن يبين كل كلى فى شخصه المعين الجزئى ، كان هو القائم» فالإمام إذن أدنى من القائم ، الأول

---

(١) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦١ .

(٢) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٠٤ .

يبين مناهج العالمين ، أما الثانى فهو يحقق فى ذاته الجزئية كمالات العالم العلوى . وسيعلن أحمد الكيال – كما سنرى فيما بعد – أنه أعظم مثال لهذا التقرير أو هذا التحقق ، وأنه استطاع أن يحقق فى نفسه تحققاً كاملا كل ما فى هذا العالم العلوى من كمالات ، بل إنه حقق فى هذا المضمار ما لم يحققه أحد قبله من القائمين [1] .

ويقسم الكيال الكون إلى عوالم ثلاثة : العالم الأعلى والعالم الأدنى والعالم الإنسانى .

١ – العالم الأعلى :

وفى العالم الأعلى عنده خمسة أماكن . الأول : مكان الأماكن : فارغ لا يسكنه موجود ولا يدبره روحانى ، وهو محيط بالكل ، أى أنه خلاء ممتد يحيط بالكون فى عوالمه المختلفة ، وكنهه غير معروف لنا ، وهو ما يسميه أهل الشرع بالعرش . والثانى : مكان النفس الإنسانية الأعلى وهو يلى مكان الأماكن ، ثم بالترتيب ، والثالث : مكان النفس الحيوانية . ومن الواضح أن هنا أفلاطونية محدثة مختلطة بعقائد إسلامية . ولكنه ما يلبث أن يطويه غنوص الأفلاطونية المحدثة طيًّا كاملا . فيقدم لنا معراجاً للنفس ، أفلاطونيًّا محدثاً بحتاً .

تشوقت النفس الإنسانية إلى الصعود إلى عالم النفس الأعلى ، فصعدت وخرقت المكانين : مكان الحيوانية ومكان الناطقية ، وحين قاربت الوصول إلى عالم النفس الأعلى ، كان الكلل والتعب والملل قد حل بها ، ذلك أنها لم تكن قد اكتملت بالعلم وتحققت بالمعرفة ، فتعفنت واستحالت أجزاؤها ، فهبطت إلى العالم الأسفل ومضت عليها أكوار وأدوار ، وهى فى حالتها تلك من عفونة واستحالة – وأخيراً ساحت عليها النفس الأعلى وأفاضت عليها النفس نوراً من أنوارها ، جزءاً من هذا النور .

وحدثت التراكيب فى هذا العالم ، حدثت السموات والأرض والمركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، ووقعت النفس الإنسانية فى بلايا هذا التركيب تارة سروراً وتارة غمًّا ، وتارة فرحاً ، وتارة ترحاً ، وطوراً سلامة وعافية ، وطوراً بلية ، ومحنة » أى مرت عليها أدوار وأكوار مرة أخرى ، وهى لم تتمكن من التوصل إلى جزء هذا النور بأكمله ، ووصلت إليها تلك التراكيب التى فيها الخير والشر ، وهى فى كل مرة تحاول التخلص من عالم الشرور والباطل إلى عالم السعادة والحق ، ولكن دون جدوى .

ثم ظهر القائم وكان عليه أن يردها إلى حال الكمال ويحل التراكيب الباطلة من غير الباطلة ، وأن يطهر طبيعة المضادات ، ويبين أن الضد لا ينبغى أن يلحق بالضد وكان وجود القائم لإظهار الروحانى

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٤ .

على الجسمانى ، وتغلب أحدهما على الآخر (١) .

القائم إذن هو الغنوص بأجلى مظاهره وأوضح معانيه ، وقد ظهر هذا الغنوص فى قائمين من قبل حتى انتهى إلى أحمد الكيال . أما العلة فى أنه انتهى إليه فهو سبب حروفى كبالى .

لجأ الكيال إلى الفكرة الحرفية الكبالية لكى يدلل دلالة قاطعة على أنه ذلك الغنوص أو ذلك القائم الذى ظهر ليهدى الإنسان إلى الحقيقة . أو بمعنى فلسفى لكى يعيد النفس الإنسانية إلى عالم النفس الأعلى . وتفصيل ذلك أن أحمد عنده يطابق العوالم الأربعة : الألف من اسمه يقابل النفس الأعلى . والحاء تقابل النفس الناطقة ، والميم تقابل النفس الحيوانية . والدال تقابل النفس الإنسانية . والعوالم الأربعة هى المبادئ والبسائط ، ويتوافق أحمد الكيال مع مذهبه حين يقول إن مكان الأماكن لا وجود فيه ألبتة . إذ أنه خلاء مطلق ثم أثبت فى مقابلة العوالم العلوية العالم الأدنى (٢) .

٢ – العالم الأدنى :

يضع أحمد الكيال نظاماً يتقابل فيه هذا العالم بالعالم الآخر . ولكل قسم من أقسام هذا النظام صفات تشابه تمام المشابهة صفات ما يقابلها من العالم الأعلى تشابهها مشابهة عرضية . ولكنها فى الجواهر تختلف عنها ، وأول هذه الأقسام السماء ، والسماء خالية تقابل مكان الأماكن ثم تليها النار . فالهواء فالأرض ، فالماء وهذه الأربعة أجزاء فى مقابلة العوالم الأربعة ، الإنسان فى مقابلة النار ، والطائر فى مقابلة الهواء ، والحيوان فى مقابلة الأرض ، والحوت فى مقابلة الماء ، ويستخلص من هذا أن مركز الماء أسفل المراكز ، والحوت أخس المركبات .

العالم الإنسانى :

ثم قابل الكيال العالم الإنسانى مع الآفاق التى ذكرها من العالمين الروحانى والجسمانى . فحواس الإنسان خمس ، كل واحدة منها فى مقابل أفق من آفاق العوالم السابقة ، فالسمع فى مقابلة مكان الأماكن من العالم الروحانى والسماء فى العالم الجسمانى ، وذلك لأن السمع خلاء فارغ كمكان الأماكن والسماء والبصر ، فى مقابلة النفس الأعلى من العالم الروحانى وفى مقابلة النار من العالم الجسمانى وفى البصر إنسان العين ، وهذا الإنسان مختص بالنار . والشم فى مقابلة الناطق من الروحانى والهواء من الجسمانى «لأن الشم من الهواء يتراوح ويتنسم ، والذوق فى مقابلة الحيوان من الروحانى ، والأرض من

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل نفس الجزء والصحيفة .

الجسمانى ، « والحيوان مختص بالأرض . والطعم بالحيوان » واللمس فى مقابلة الإنسان من الروحانى والماء من الجسمانى . والحوت مختص بالماء واللمس بالحوت . وربما عبر عن اللمس الكناية » .

ثم حاول مطابقة اسمه على هذه العوالم فاعتبر اسمه : أحمد : ألف وحاء وميم دالا فى مقابلة العوالم الثلاثة السابقة متخذاً كما قلت الكبالا منهاجاً له .

أما عن الروحانى ، فقد تكلمنا عن مقابلات حروف اسمه أحمد لآفاق هذا العالم .

أما فى مقابلة العالم السفلى الجسمانى . فالألف يدل على الإنسان . والحاء على الحيوان ، والميم على الطائر والدال على الحوت . فالألف يشبه الإنسان من حيث استقامة القامة فى كل منهما ، والحاء كالحيوان لأنه معوج محدودب منكوس ، واسم الحيوان يبدأ بالحاء ، والميم يشبه رأس الطائر « والدال يشبه ذنب الحوت .

ويرى الكيال أن الله خلق الإنسان على شكل اسم أحمد ، فالقامة مثل الألف ، واليدان مثل الحاء والبطن مثل الميم ، والرجلان مثل الدال . وهى فكرة كبالية واضحة .

ويرى البيرونى أن الكبالا اليهودية وشعبذاتها انتشرت بين المسيحيين والمسلمين أيضاً . فحاول المسيحيون الغنوصيون أن يحققوا فكرة الصليب من أشكال النجوم وأوضاعها ، فذكروا أن كواكب الدلفين اجتمعت على شكل صليب إبان صلب المسيح .

ويعجب البيرونى من هذا . ويقول « والعجب منهم حيث لا يتدبرون ، حتى يعرفوا أن فى العالم أمماً من شأنهم رصد الكواكب وامتحان أسبابها منذ أحقاب ودهور ، يتوارثون فيما بينهم خلفاً عن سلف : أن كواكب الدلفين من الثوابت التى وجدها أسلافهم المعتنون بأمرهم على هذه الهيئة » ويرى البيرونى أن الكبالا أيضاً انتشرت عند المسيحيين وكثيراً ما تستعمل هذه الفرق الكبالية من النصارى لصنوف التمويهات والهوس فى تعظيم الصليب كاستدلالهم بما أمر الله به بنى إسرائيل من عمل حية من نحاس ، وتعليقها من خشبة منصوبة لدفع أذى الحيات لما كثرت عندهم فى التيه ، فيقولون إنه بشارة على الصليب وذكر له . كما ادعوا أن آية موسى كانت عصاه — والعصا خط مستطيل ، فلما جاء المسيح طرح عصاه عليها فحدث منها صليب . وقد كملت شريعة موسى بمجىء المسيح ، والدليل على ذلك ، أنه لو ألقى عصاً ثالثة على الصليب من أى جهة كان ، صار منه حرف لا — أى لا زيادة ولا نقصان .

ثم يرى البيرونى — ولعله يشير إلى أحمد الكيال — أن هذا التهوس من النصارى — مثل ما يتهوس به الفرقة من المسلمين المشتغلة بالتأويلات من تشبيه اسم محمد (وأحمد بالتالى) بصورة الإنسان وقولهم : إن الميم نظير رأسه والحاء نظير بدنه والميم الثانى نظير بطنه ، والدال نظير رجليه . ويعلق البيرونى على هذا بقوله : وأظن هؤلاء جاهلين بالتصاوير فى تسويتهم بين مقدار الرأس والبطن وكمية الأعضاء الناتئة

من حملة البدن ، ونسيانهم ما به قوام النسل ، ولعلهم قصدوا الإناث دون الذكران ثم يعلق على هذه التفسيرات كلها بأنها أشبه بالمزاح والسخرية [١] .

ثم يضع الكيال بعد ذلك الفكرة المشهورة التى ترددت فى كتب الإسماعيلية وهى أن القائم خير من النبى ، وأن الأنبياء قادة أهل التقليد ، وأهل التقليد عميان ، والقائم قائد أهل البصيرة ، وأهل البصيرة أولو الألباب والعقول وإنما يحصلون البصائر بمقابلة الآفاق والأنفس . ثم يدخل فى الفروع فيقابل بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية وبين موجودات عالمى الآفاق والأنفس . ويقول الشهرستانى «إنه ادعى أنه متفرد بها ، وكيف يصح له ذلك وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك لا على الوجه المزيف الذى قرره الكيال» ويذكر الشهرستانى أنه أول الميزان بالعالمين ، والصراط بنفسه والجنة بالوصول إلى علم القائم ، والنار بما يضاد هذا الوصول» [٢] .

وبعد : فهذه صورة من فلسفة أحمد الكيال مزيج من الأفلاطونية المحدثة والقبالة اليهودية . وتفسير حروفى لاسمه . ومن العجب أن يعتنق عقائده مجموعة من الناس ، ولولا هذا ما عنى مؤرخ العقائد الكبير الشهرستانى من إيرادها وهو يخاطب القارئ ، فيقول «والمقالة – كما سمعتها – من أخس المقالات وأوهى المقابلات ، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسمعها . فكيف يرضى أن يعتقدها» ولكن اعتنقها مجموعة من البشر . وعاشت زمناً طويلا ، ومازال الإسماعيلية يؤمنون بنفس العقائد ، أو بما يشبهها .

---

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢٩٧ .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٧ .

الفصل السادس

النظريات الإسماعيلية فى الإمامة

(ا) نظرية التبنى الروحى :

كان من أهم نظريات الإسماعيلية «نظرية التبنى الروحى ونظرية الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة» وقد وجه أنظارنا إلى أهميتها فى تاريخ الإسماعيلية الفلسفى والسياسى الأستاذان ماسينيون وبرناردلويس ، وسنرى كيف استغلا هاتين النظريتين فى إلقاء حل جديد لمشكلة الفاطميين الكبرى وهى نسبهم ، وقد تغالى لويس وماسينيون على الأقل فى توضيح هاتين النظريتين وتأكيد أهميتهما فى التراث الإسماعيلى .

أما نظرية التبنى الروحى أو الأبوة الروحانية أو النكاح الروحى . فيعبر عنها لويس بما يأتى : إن الحركة الباطنية ، بما لها من ميول غنوصية قوية وبتمويلها الشديد على النواحى الباطنية للأشياء دون المادية للتظاهرية منها بلغت بسهولة وبشكل طبيعى جدا اعتبرت فيه العلاقة المادية بين الأب وابنه . . وهى التى تتصل بالبدن التافه الزائل وحده – أقل أهمية وحقيقة من العلاقة الروحانية بين المعلم والتلميذ ، المنبعثة من النفس الخالدة . وينتج عن هذه العقيدة أن التلميذ أحرى بأن يكون الابن والوارث الحقيقى من النسل الطبيعى للإنسان . حتى لقد ارتأى بعضهم أن كلمتى أب وابن فى الأعلام الإسماعيلية إنما استعملتا بهذا المعنى أحيانا [1] .

وقد كتب ماسينيون مقاله الهام عن «سلمان» – وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال من قبل – يحاول فيه تدعيم فكرة التبنى الروحى ممثلا فى سلمان عن طريق الحديث المشهور «سلمان منا أهل البيت» . ومن ثم أصبح سلمان بن محمد ﷺ أوابن الإسلام جميعا . والنظرية غنوصية واضحة ، إن من ينتقل إليه الغنوص ، سواء أكان ابنا جسديا أو غير ابن لسالفه صاحب الغنوص ، يكون هو الابن الحقيقى ، حامل الغنوص الجديد ، وخليفة السالف . ولكن إذا كان سلمان الابن الحقيقى لمحمد ﷺ عن طريق الغنوص – فلم لم يدع الأمر بعده ؟ ثم إنى أتساءل : ألا تهدم نظرية التبنى الروحى آراء الشيعة جميعا فى الإمامة ، حتى الفاطميين منهم ؟

من يكون إذن أحق بالخلافة بعد على – إذا كانت التلمذة الروحية على أساس العلم الغنوصى

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٧ .

المنتقل أساساً للإمامة – هل يكون الحسن إذن أم الحسين ، أم هذا العدد الكبير من تلاميذ الإمام على الذين نبغوا فى العلم الباطن والظاهر وفاقوا الحسن والحسين ؟ بل إن المصادر تجمع على أن محمد بن الحنفية كان أعلم من أخويه ، وأن أباه أطلعه على العلم اللدنى الباطنى ، وأنه سلمه إلى ابنه أبى هاشم وأن أبا هاشم نقله إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . إن نظرية التبنى الروحى تقضى على حق أولاد فاطمة فى الإمامة وهم لم يستحقوها فى نظر الشيعة القديمة والحديثة إلا لخروجهم من صلب فاطمة ، وأن أمر ولايتهم مقررة أزلا «وجعلها كلمة باقية فى عقبه» .

وهنا ننتقل إلى الغلاة ، ونحن نعلم أن من بين الغلاة من ادعى أنه صاحب الأمر – فعل بيان هذا وأبو منصور العجلى ثم أبو الخطاب الأسدى ، ثم إن أبا الخطاب ادعى بعد أنه هو «أبو إسماعيل» ثم إن عبد الله بن ميمون هو الابن الروحى لمحمد بن إسماعيل ، فنشأه . وعملية التنشئة عملية خطيرة فى المذهب الإسماعيلى ، ثم دعا إلى نفسه ولم تعترض الشيعة . وليس معنى هذا أن عبد الله بن ميمون هو الابن الوحيد لمحمد بن إسماعيل ، هو الابن الروحى فقط ، بينما كان هناك ابن روحى وجسمانى هو عبد الله الرضا ، كما أن هناك أبناء جسديين لا روحيين ، ونقل إلينا إيفانوف عبارة عن نصير الدين الطوسى ويذكر أنها موجودة فى كتب إسماعيلية أخرى : أن ذرية الإمام على أربعة أنواع : روحانية أو دار معنى مثل سلمان الفارسى – وجسمانية أو بالشكل مثل المستعلى أو روحانية وجسمانية معا مثل الحسن إمام الشيعة الثانى – وجسمانية وروحانية ودار حقيقة مثل الإمام الحسين[1]

ويرى الإسماعيليون أن المسيح كان ابن يوسف النجار فعلا جسدياً ، وأن قول القرآن «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه» أى إنكار أن يكون ولداً جسدياً لله ، بل هو ولد على سبيل التعليم[2] .

ولكن ليس معنى هذا أن المذهب الإسماعيلى الشيعى قد احتضن فكرة التبنى الروحانى أو عرفها فى هذا العصر الأول ، إن من المؤكد أنها تكونت فى أوائل العصر الفاطمى لتبرير حالة معينة أو حالات معينة . أما أن النصيرية والدروز قد نادوا بها ، فذلك أيضاً لتبرير تولى أحد أولاد القداح عرش الفاطميين الأول كان نادوا أيضاً – وبخاصة الدروز – لادعاء حمزة والدرزى بعده أنهما ابنان روحانيان للحاكم المختفى . إن حمزة بن على داعى دعاة الحاكم بأمر الله يعلن فى مواطن متعددة فى رسالته السيرة المستقيمة بشأن القرامطة أن الحاكم استخلفه حجة له ، وأنه أخذ تعاليمه من الحاكم ، فهو الابن الروحى له ، فلما قتل الحاكم أعلن حمزة أنه استتر ولم يقتل ، وأنه هو نائب عنه . وقد أداه هذا

(١) ماسينيون : سلمان شخصيات قلقة فى الإسلام – ص ١٦ .

(٢) لويس : أصول ص ١٢٠ .

إلى بحث غريب وهو أن لآدم الأول . آدم صف – أول الأوادم فى عالم البشر أباً وأمًّا . ولكن نحن لا نبحث فى هذا الكتاب فى عقائد الدروز فهى عقائد ونظريات متأخرة عن العصر الذى حددناه لهذا الكتاب .

إن نظرية التبنى الروحى – فى إيجاز تعلن أن الإمام يستطيع بواسطة عملية رفع روحى – أن يسمو بتلميذه أو تابعه أو مريده إلى درجة أو مقام قريب من درجته أو مقامه ، بحيث يستطيع أن يترك له وديعته – وديعة علمه الخاص وأن يدعو هذا المستخلف لنفسه .

والنظرية – هكذا كما عرضها ماسينيون – خاطئة تماماً . إن ماسينيون ومن أخذوا بفكرته خلطوا النظرية الصوفية ، نظرية الشيخ والمريد ، بالآراء الإسماعيلية . إن النظرية الصوفية «الشيخ والمريد» تقوم فعلا على فكرته التبنى الروحى فالمريد يعتقد تماماً أنه ابن للشيخ . يلازمه ويخدمه ويأخذ عنه معالم الطريق . ويؤمن المريد بأن من «لا شيخ له ، فلا دين له» حتى إذا تمكن المريد من مقامه ، وانتقل الشيخ ، حل المريد مكانه فى رئاسة القوم . ولم نسمع إلا فى القليل النادر أن ابناً لصوفى من صوفية الإسلام العظماء أخذ مكانة أبيه الصوفية أو اشتهر شهرة أبيه فى هذا العلم اللدنى . فنظرية التبنى الروحى صحيحة من هذه الناحية ، ثم ما لبثت أن انهدمت حين أخذ أبناء شيوخ الصوفية الجسديون يتوارثون إمامة طريق آبائهم ، وتكونت شياخات الطرق الصوفية على أساس التبنى الجسدى . أما النظرية الشيعية عامة فتقوم على التبنى الجسدى أولا وبالذات ، وأن أولاد على أو فاطمة بالذات هم أصحاب الحق الشرعى فى الإمامة يتوارثونها باصطفائهم أزلا على العالمين لهذه المهمة السامية والنظرية الإسماعيلية واضحة تماماً فى هذه الناحية ، بل إنها جعلتها فى عقب إسماعيل فقط . ففرق كبير بين «من لا شيخ له لا دين له» وبين «من مات وليس فى عنقه بيعة إمام مات كافراً» إن بيعة الإمام هنا – فى منطق المذهب الإسماعيلى – هو إمام من نسل فاطمة ، وإسماعيل بالذات ، إمام جسدى لا شك فى ذلك . أما أن الأئمة قد تبنوا بعض أتباعهم ، فلا ينكره أحد أما أنهم تركوا لهم وديعة العلم ، فكان هذا استخلافاً لهم بالإمامة . فهذا خطأ ، إنما تركوا لهم – وهذا ما لم يتبينه ماسينيون «وديعة الولد أى وديعة الولد الجسدى – للمحافظة عليه والذود عنه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، إما أن يكبر الولد ويعقب أولاد الآخرين ، وإما أن يصل إلى الإمامة . فالإمامة حق جسدى ، لمن فيه دم فاطمة الزهراء ، هذا الدم الغالى المقدس . وفى الحقيقة إن أبناء القداح فعلوا هذا بكل وسيلة ، منذ أن ترك جعفر الصادق ميموناً القداح ، وهو أحد مريديه وتلامذته حجة لابنه أو حجابا أو ولياً أو خادماً . وحافظ ميمون على الوديعة ، هو وأولاده من بعده ، بل ارتكبوا فى سبيل المحافظة عليها أشنع الجرائم وأكبر الآثام ، وفى سبيل هذه المحافظة ، تخلوا عن كل معانى الصدق والحق والخير ، فخدعوا

مجموعات هائلة من البشر ، وشوهوا عقائد الملايين ، وأثاروا النزاع والشر فى أرجاء العالم الإسلامى ، بإخلاص حاسم فذ لأبناء فاطمة من إسماعيل . حتى وضع آخر أبناء القداح عبيد الله المهدى القائم بأمر الله خليفة على القيروان . ثم انتقل إلى جوار ربه – مختتماً عمل أسرة القداح من الوجود ، بل مختتماً ذكراهم إلى الأبد .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن نظرية التبنى الروحى قد اخترعها متأخرو الإسماعيلية لتبرير عمل عبيد الله فى توليه العرش الفاطمى فى القيروان – وهو من أولاد القداح ، بينما القائم الفاطمى فى كنفه «فهى نظرية متأخرة من نظريات الإسماعيلية ، لم تعرفها الإسماعيلية الأولى ولم تحتضنها ، ولم يترك إمام علوى وديعة بمعنى علمه وبالتالى أحقية الإمامة لابن غير علوى . بل تركوا أحيانا الوديعة – الابن الجسدى – لتابع مخلص من أتباعهم ، سواء أكان هذا التابع علويا أو غير علوى وللمحافظة على الوديعة الجسدية . وهذه هى نظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . وليس معنى هذا أن فكرة الإمام المستقر وفكرة الإمام المستودع قد ظهرت فى وقت مبكر كنظرية ، ولكن لا شك أنها تحققت فى صور ساذجة» أو بمعنى أدق فى صورة المحافظة على الابن اليتيم الذى فقد أباه فى صورة مؤلمة حزينة . فقد بدأت الفكرة إذن بنوع من الوصاية الإسلامية المعروفة من عم علىٰ ابن أخيه كوصاية محمد بن الحنفية على ابن أخيه على زين العابدين ، أو كتابع أمين كميمون القداح حين أمره سيده جعفر الصادق بالمحافظة على حفيده محمد بن إسماعيل وسنعرض الآن لتطور الفكرة أو نشأتها عند الشيعة .

(ب) نظرية الاستيداع والاستقرار :

قدم لنا الأستاذ لويس نصا هاما إسماعيليا عن التفريق بين الإمام المستودع والإمام المستقر «الإمام المستودع هو ابن الإمام وأكبر أبنائه ، إن كان له كثيرون والعارف بأسرار الإمام كلها ، وأعظم أهل زمانه مادام قائما بالأمر إلا أنه لاحق له فى تفويض الإمامة إلى ذريته الذين يكونون سادة ولا يكونون أئمة أبدا . أما الإمام المستقر فهو الذى يتمتع بامتيازات الإمامة كلها . وله الحق فى أن يفوضها لأخلافه»[1] .

والنص هنا واضح فى أن الإمام المستودع لابد وأن يكون من صلب الإمام أى لابد وأن يكون ابنا جسمانيا له .

وفى هذا النص هدم لنظريات ماسينيون وللويس نفسه : الأول فيما يخص نظريته عن سلمان والثانى فيما يخص نظريته عن عبيد الله المهدى . إذن علينا أن نعدل تعريف الإمام المستقر والإمام المستودع .

---

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

إن الإمام المستودع : هو الإمام الذى يتلقى الإمامة ويزاولها – وله كل حقوقها ، ولكنه لا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه ، والإمام المستقر فهو الإمام الذى يتلقى الإمامة ويزاولها ، ثم ينقلها إلى أبنائه من بعده ولكن نلاحظ أن الأئمة المستودعين فى قائمة الشيعة الإسماعيلية كانوا جميعا علويين – اللهم إلا إذا وافقنا من يذهب من المؤرخين إلى أن عبيد الله المهدى كان قداحيا ولم يكن علوياً . ولنعرض الآن فى إيجاز لقوائم الأئمة المستودعين .

يرى الإسماعيلية أن مرتبة الاستيداع هى مرتبة النبوة والرسالة ، أما مرتبة الاستقرار فهى مرتبة الإمامة والوصاية والولاية وأن أول مستودع هو النبى إبراهيم ، وقد اؤتمن على مرتبة الاستقرار . وقد أورث إبراهيم ابنه إسحق مرتبة الاستيداع وإسماعيل مرتبة الاستقرار وتوالت المرتبتان فى أولاد كل منهما حتى انتهت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب واستودع أيضا مرتبة الاستيداع فهو إذن إبراهيم الثانى . ويورد الإسماعيلية حديثا عن الرسول ﷺ « لم أزل أنا وأنت يا على من نور واحد ننتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية كلما ضمنا صلب ورحم ، ظهر لنا قدرة وعلم ، حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب ، فانقسم ذلك النور نصفين فى عبد الله وأبى طالب ، فقال الله تعالى – كن يا هذا محمداً ، وكن يا هذا عليا » .

وقد مات عبد الله ، فاستودع عبد المطلب مرتبة النبوة والرسالة لمحمد ، واستودع أبا طالب مرتبة الوصاية والإمامة ، فلما مات أبو طالب ، اجتمعت كل هذه المراتب لمحمد ﷺ ، فكان إليه جماع الرتب جميعها : النبوة والرسالة والإمامة والولاية والوصاية ، فهو أكمل البشر جميعا ، وأسمى الموجودات كلها ، فهو محمد الأعلى ، وهو محمد الأسمى ، وهو أول البشر ، وهو آدم الأول ، وفى يوم غدير خم سلم الرسول محمد مرتبة الاستقرار إلى على بن أبى طالب ولأولاده الأئمة من بعده ، ولإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا فى الرسالة والنبوة . وستجتمع المرحلتان نهائيا ، وفى قائم القيامة ، فيكون محمدا الثانى .

ولكن ماذا كانت حقيقة على قبل غدير خم . كان محمد الإمام الناطق وعلى الإمام الصامت . وحين أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة فى على أصبح على الإمام الناطق . وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى . وترك إمامين إماما صامتا هو القرآن وإماما ناطقا هو على واستندوا فى هذا إلى أن عليا كان يتلو فى المصحف حتى قرأ « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » فوضع المصحف على رأسه وصاح ثلاث مرات « ياكتاب الله انطق [1] » معلنا أنه الكتاب الناطق وأن القرآن الكتاب الصامت ، أو بمعنى أدق أن عليا هو التأويل ، والقرآن هو التنزيل والتنزيل كلام الله ، والتنزيل روح الله ، أليس

(١) ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (مقدمة الدكتور محمد كامل حسين) ص٧٥ ، ٨١ .

التنزيل هو روح التأويل والناطق والمستقر نور الله «أنا ومحمد من نور الله ، ومحمد هو «القلم» هو السابق وعلى هو اللوح وهو التالى . وهو المسيح . وهو وجه الله . ويد الله . وفى إيجاز لقد انتهت إلى الإمام المستقر ، كل فضائل وصفات السابقين . ولكن الإسماعيلين أعلنوا فى حسم وإصرار أن مقام الوصى : مقام على ، مقام الإمام المستقر أدنى من مقام الرسول ﷺ .

وانتقل على إلى الآخرة ، واستودع الإمامة ابنه الحسن ، على أن يودعها فى الإمام المستقر وهو الحسين . وبهذا حرم الإسماعيليون الحسنيين من الإمامة .

واستشهد الحسين فى سهل كربلاء ، واستودع الإمامة أخاه محمد بن الحنفية لينقلها إلى على بن الحسين وبهذا حرم الإسماعيليون أيضا الحنفيين من الإمامة . وانتقلت الإمامة المستقرة إلى محمد الباقر . ولا نجد هنا ذكراً لإمام مستودع . وانتقلت الإمامة إلى جعفر الصادق .

ويرى الإسماعيليون أن نظرية الاستيداع والاستقرار وتطبيقها ظهر على أقوى صورة لدى الإمام جعفر الصادق .

فقد مات إسماعيل ومحمد ابنه فى حال الطفولة «ولم تكن الإمامة ترجع القهقرى منه كما لم ترجع من غيره ، فأودع حجته المنصوبة بين يديه ميمونا القداح مقامه لولده ، وأقامه ستّرا عليه ، وقدمه بين يديه واستكفله إياه إلى بلوغه أشده ، ولما بلغ أشده ، تسلم وديعته ثم جرى الأمر فى عقبه خلفا عن سلف [1] .

ولكن يبدو أن عددا لا يستهان به من الإسماعيليين يرون أن الامام المستودع لم يكن ميمونا ، وإنما كان موسى الكاظم ؛ لأنه لابد أن يكون المستودع من الدوحة العلوية . وبهذا يكون ميمون حجة فقط لمحمد بن إسماعيل لا إماما مستودعا .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخل محمد بن إسماعيل فى دور الستر ، دور الخطر وحين أظهر الغيبة ، أى توفى ، تولى إمامة الإسماعيلية كما قلنا ابنه عبد الله ، وخلف أحمد عبد الله حتى انتهت الإمامة إلى الحسين بن أحمد .

وكان عهد الإمام الحسين بن أحمد الإسماعيلى فترة حاسمة فى تاريخ الإسماعيلية لقد قام هذا الإمام وحجته عبد الله بن ميمون القداح أولا ثم أبناؤه الحسين ومحمد أبو الشلعلع وأحمد وعلى ثانيا بنشر الدعوة فى أرجاء العالم الإسلامى . وكان الحسين روح الدعوة العلمية والسياسية – كما قلنا . فكتب الجامعة – كما قلنا – ليشرح بها رسائل إخوان الصفا . وأخذ يبث العلوم الشيعية ، ويعلم كبار الدعاة

(١) الخطاب بن الحسين : غاية المواليد ٣٧ .

منهج التأويل . ثم قام بحركة سياسية خطيرة – وهى إرسال الداعيين ابن حوشب وابن فضل إلى اليمن كما اتصل بالكيسانية فى الكوفة بواسطة الحسين الأهوازى ، وأرسل الدعاة إلى فارس. ومات الإمام الحسين بن أحمد . وتولى الإمامة ابنه على بن الحسين .

وهنا ندخل فى أعمق أدوار الستر غموضا . لقد عمر الحسين بن أحمد الإمام الإسماعيلى كثيرا ، بحيث مات وابنه على فى سن متقدمة ، وفى عهد الإمام على حدثت الأحداث الكبرى السريعة ، وأصبح النصر النهائى للإسماعيليين وشيك الوقوع ، ويبدو أن الإمام عليا أراد السفر إلى اليمن أو إلى المغرب فمات فى الطريق وقبل موته استخلف حجته سعيدا إماما مستودعا لابنه محمد .

يقول صاحب كتاب غاية المواليد «إنه لما ظهر النور باسقا باليمن وبلاد المغرب ، سار ولى الله فى أرضه على بن الحسين صلوات الله عليه يريد بلاد المغرب حتى كان فى بعض الطريق ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجته سعيداً الملقب بالمهدى سلام الله عليه ، فثبت قواعد الدعوة ، وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ما جرى . ووقى الله وليه سلام الله عليه كيده . لما كان من زحف أبى عبد الله عليه وظفره . واستخراج ولى الله سلام الله عليه من سجنه فلما حضرت المهدى النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها . وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الإمامة فى عقبه ، حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، وطمأنت بموضعها وبموطنها »[1] . وهنا يظهر تطبيق آخر لنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . ويؤيد هذا النص السابق الخطير نص للداعى إدريس عمادالدين اليمنى «إن الإمام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب ، والمهدى فى كنفه فأظهر النقلة فى سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير . وتسمى بالإمامة بأمر من نص عليه ، سترا على ولى الله وإخفاء لمقامه على أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره ، وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكنوه بالشمس الطالعة ، سترا على ولى الله ولده القائم من بعده . ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية – سلام الله على وليها – بالمهدية وظهر أهل الكهف من كهف التقية وآن الأجل ، وانقضى المهل وسلم الإمام المهدى إلى ولده القائم رتبته وأدى إليه وديعته وأمانته وأظهر الغيبة ، وانتقل إلى جوار ربه والقدوم عليه »[2] .

لقد كان نشر هذه النصوص من مكامنها فى الهند ولدى طائفة البهرة حافزا للباحثين على حل المشكلة العتيدة – نسب الفاطميين فى ضوء النظرية الفلسفية الإسماعيلية – الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة .

---

(١) غاية المواليد : ص ٣٧ .

(٢) النيسابورى : استتار الإمام ص ٦٦ – ٧١ .

وقد اختلف الباحثون فى هذا . فبينما يذهب كثيرون من المؤرخين الإسماعيليين القدامى وإيفانوف من المحدثين إلى أن سعيد الخير هذا هو بن الإمام الحسين الإسماعيلى يذهب لويس وقلة من الإسماعيلية والدروز إلى أنه سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح كما يذهب بعض الإسماعيلية إلى أن عبيد الله هو الإمام الثانى عشر محمد المهدى المنتظر عند الشيعة الاثنى عشرية أو أخوه : أو بمعنى أدق أنه ابن الإمام الحسن العسكرى .

يؤمن معظم المؤرخين الإسماعيليين بأن سعيد الخير أوعبيد الله المهدى هو الإمام المستودع الأخير من الأئمة الإسماعيليين وأنه ابن الإمام الحسين ، وأن الإمام على بن الحسين قد أقامه سترا على ابنه أبى القاسم القائم ، وليس فى نص غاية المواليد ما يثبت أن سعيد الخير هو سعيد بن الحسن بن عبيد الله بن ميمون ، بل إنه يذكر فقط استخلاف على بن الحسن لحجته . أما النص الثانى – نص الداعى إدريس – فهو يثبت أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين . وقد ذهب النيسابورى فى كتابه استتار الإمام [١] ، كما ذهب الداعى إدريس فى زهر المعانى إلى أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين المستور . بل يصرح النيسابورى . ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو ولد المهدى وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدى عليه السلام . فلما أتته نقلته استودع له أخاه سعيد الخير . إذ كان ولده يومئذ فى حال الطفولة .ويذهب إيفانوف موافقا الجمهور الكبير من الإسماعيليين إلى أن سعيد الخير هو ابن الحسين الإسماعيلى وشقيق على بن الحسين وعم القائم . ويؤكد إيفانوف أنه لم يحدث قط أن الإمامة انتقلت إلى شخص ليس من سلالة على ، علاوة على أن نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر لم تظهر إلا فى القرن الخامس أو السادس أى أنها نظرية حديثة .

وفى الحق إن بعضاً من حجج إيفانوف باطلة وبعضاً منها صحيحة .أما الصحيحة منها فهو أن نظرية الاستقرار لم تعرف فى التراث الإسماعيلى إلا متأخراً . ولكن لم يتنبه إيفانوف إلى أن ما يشبه هذه النظرية كان موجوداً ، وأن المتأخرين من الإسماعيلية عبروا عن أحوال المتقدمين فى صيغ حديثة ، وكبر المتأخرون المسائل وضخموها ، وصبغوها بالغنوصية وغير الغنوصية . إن من المؤكد أن على بن أبى طالب قد ورث عن رسول الله ﷺ علماً فقهيًّا وتراثاً دينيًّا . فاعتبر الشيعة عامة أن رسول الله ﷺ أطلعه على أسرار الكون ومغيبات الأمور ، وأنه أباح له هذا السر وحده ، فكان العلم السرى خاصية من خصائصه . وكبرت الصورة وكبرت ، فانطلقوا عليًّا بحكمة العرب والفرس والهند وفلسفة اليونان . وكان على بن أبى طالب ربانيًّا كبيراً وتلميذاً كبيراً لمحمد ﷺ ، ولكن فى نطاق الإسلام فقط ، فأتى الغنوصيون من الغلاة ، والإسماعيليون المتقدمون والمتأخرون ، فصبغوه بصورة المسيح وأفلوطين

(١) النيسابورى : استتار الإمام ص ٩٥–٩٦ .

وزرادشت وبوذا وديصان . كل تبعاً لدرجة قربه أو بعده من الغلو » .

واختلف المسلمون فيمن يكون الإمام ، عليّا أو أبا بكر ووردت عن الرسول أحاديث وسنن فسرها الشيعة والسنة – كل على طريقته . . . لا بدع بعد ذلك أن يأتى الإسماعيليون المتأخرون وأن يقولوا إن الإمامة نقلها رسول الله إلى إمام تستقر فيه الإمامة ، وأن يورثها من يشاء من أولاده .

وقام محمد بن الحنفية بحركة من أخطر الحركات فى تاريخ الشيعة ، وهى الانتقام من قتلة الحسين على يد تابعه المختار بن أبى عبيد ، واختفى اسم على زين العابدين أو عمل محمد بن الحنفية على إخفائه ، محافظة على نسل أخيه الحسين من الانقراض ، فكان إماماً حافظاً وعبر الإسماعيلية المتأخرون عن محاولته المحافظة على ابن أخيه ، وحفيد فاطمة الزهراء بأنه استودع الإمامة حتى نقلها إلى مستقرها .

ومات إسماعيل ، أحب أبناء جعفر الصادق إليه ، فوكل جعفر الصادق بحفيده أحب أتباعه إليه – ميموناً القداح ، رجل على محبه ، وتشيع لآل البيت وعلى علم وحكمة ، وكان محمد طفلاً صغيراً . وأتى الإسماعيليون المتأخرون – وقالوا إن ميموناً كان الإمام المستودع ومحمداً الإمام المستقر .

وتنتهى الصفحة الأخيرة من الاستيداع والاستقرار بسعيد الخير والقائم ، عم وابن أخ عند غالبية الإسماعيلية . فالنظرية إذن إسماعيلية حديثة ، ولكن وجد ما يشابه عناصرها إلى حد ما فى تاريخ الأئمة من قبل . بل إن جميع من قاموا بالمطالبة بالحق العلوى ، لم يذكروا اسم إمام معين . بل كانوا يعلنون أنهم يدعون إلى « الرضا من آل محمد » ستراً على سلالة الرسول وحماية لهم . إن الدعاة العباسيين أنفسهم بدأوا الدعوة إلى الرضا من آل محمد . كان إيفانوف على حق فى أن النظرية حديثة ، ولكنه لم يتنبه إلى تحققها فى عصور مختلفة من تاريخ الأئمة . وإيفانوف على حق فى أن كلمة الإمام لم تطلق فى تاريخ الشيعة إلا على أفراد من البيت العلوى ، فكيف إذن يطلق لفظ الإمام والمهدى على عبيد الله إذا لم يكن فعلا من نسل العلويين .[1]

وأخيراً – نرى الإسماعيليين المتأخرين يؤمنون بنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع ، بل يحاولون استخراجها من الآيات القرآنية فى محاولة تأويلية متعسفة وأهم الآيات التى تؤيد نظرياتهم هما : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » فهنا المستقر والمستودع وهما يتحققان فى كتاب مبين ، أى إمام واضح كفلق الشمس . والآية « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وهنا أيضاً فى نظر الإسماعيلية إشارة إلى الإمام المستقر والمستودع ، وأنه لا يدرك ما يفصل بينهما إلا من فتح الله بصيرته ، وما أعجب هذا التأويل ، وما أبعده عن حقيقة الآيتين .

---

(١) Ivanow : The Rise of the Fatimids, P.P. 153-155

أما القائلون بنظرية التبنى الروحى ونظرية الإمامة المستودعة والمستقرة ، ومنهم لويس ، فيرون من نص الداعى الخطاب صاحب غاية المواليد أن عبيد الله المهدى هو آخر القداحين ، وأنه كان الابن الروحى للإمام على بن الحسين ، والأب الروحى لابن على – محمد بن على القائم بأمر الله . فعبيد الله المهدى ، كان قداحا – أى الحفيد الأخير لميمون القداح – حمل إمامة الاستيداع من إمامه وأبيه الروحى على بن الحسين – ثم نقلها إلى الإمام المستقر أبى القاسم محمد بن على ابنه الروحى .

كان للويس فضل التوصل إلى هذه النظرية الخطيرة وقد حاول إثباتها بكل ما لديه من حجج ، فأورد لنا نص غاية المواليد ، ثم يثبت نظرية بنصوص درزية منها : أن حمزة رئيس فرقة الدورز يذكر أنه كان لدى المهدى عبيد الله ، شيء مستودع ، وأن الحاكم (أى القائم) استرجعه ، ثم ينقل لنا لويس النص الآتى من رسالة تقسيم العلوم لحمزة بن على – وهو يتكلم عن سعيد المهدى : «وهو الذى استودعه المولى المعل جل اسمه الوديعة وأمره بخدمة مولانا القائم جل اسمه ، وكان أول ظهور المولى للعالم بصورة أسماها القائم ، وأول ما ظهر بمملكة الدنيا فى ذلك الوقت» كما أن رسالة تقسيم العلوم والدوائر ، وهى رسالة درزية تقول «لما طهر الناطق سعيد المهدى ، وأعطاه المعل الوديعة الذى هو القائم يربيه وهو فى ظاهر الأمر طفل ، حاشاه من الأبوة والنبوة ، فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة ، وهى السلطة ، والخلافة ، وهى دين التأويل ، والإمامة المجازية التى تظاهر الرب بها وهى بالحقيقة لقائم الحق – ﷺ . قيل إن المهدى مات» .

ويستنتج دى ساسى ويوافقه لويس أن المهدى لم يظفر بقداسة إلهية فى كتب الدروز ، بينما أضفى الدروز الإلهية على «المولى المعل جل اسمه» وهو على بن الحسين ، ثم على ابنه القائم جل اسمه ، وهو محمد بن على القائم بأمر الله وثانى الخلفاء الفاطميين . بينما احتل سعيد المهدى ، أى عبيد الله المهدى ، مرتبة أدنى من المعل والقائم وينتهى لويس إلى القول» وهكذا يتضح لنا أن هناك فرعين لنسب الأئمة : أحدهما العلويون المستقرون وثانيهما القداحون المستدعون – وذلك خلال عهد الغيبة المبتدئ بمحمد بن إسماعيل وعبد الله بن ميمون القداح والمنتهى بسعيد الخير والقائم الخليفة الفاطمى الشرعى الأول»[1]

وينبغى أن نقرر أنه خلال التحليل البارع الذكى الذى قدمه لنا لويس ، تكاد تكون مشكلة النسب الفاطمى قد حلت إلى حد ما ومن المحتمل أن عبيد الله المهدى كان قداحياً ، وأنه تولى حجابة الإمام وحجته ، ثم أعلن مهديته أيضا ، وأنه احتمل المخاطر فى سبيل إقامة الدولة الفاطمية ، سواء فعل هذا لنفسه هو أو لابن الإمام على الصغير الذى أخذه معه – دون أهله – حين فر من سلمية ،

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٢ .

ولكنه لم يفعل هذا تطبيقا لنظرية الإمام المستودع والإمام المستقر فلم تكن النظرية قد عرفت ، ولم تكن عناصرها قد توضحت .

إن الحل الصحيح للمسألة ، أن عبيد الله المهدى أعلن مهديته ، لكى يحمى الإمام الصغير الذى كان يعيش فى كنفه ، وقد اشتد الخطر به . ثم خرج به من سلمية ومضى به متنقلا من مكان إلى مكان ، محافظا على وديعة جده الأكبر ميمون ، الوديعة التى تسلمها من إمام الشيعة « والد الأئمة جميعا جعفر الصادق ، أعلن إمامته ستراً له ، وتولى الخلافة لكى يمهد الأمر للقائم ، ووضعه على رأس الجيوش ، لكى يخلق منه زعيما من الطراز الأول . ولم يعرف فى هذا الوقت نظرية استقرار أو استيداع . كان عبيد الله أول من ادعى الإمامة من غير العلويين ، فعلها مرة واحدة فى تاريخ الشيعة ، حين كان المذهب الإسماعيلى فى دور الخطر . ولم يضع القائم على عرش القيروان حتى يمهد له الدولة وتسكن الفتنة .

كان أولاد القداح وآخرهم عبيد الله المهدى فرسا ، ولكنهم لم يقيموا دولة للفرس ، واتهموا بأنهم يدينون بالمجوسية أحياناً وبالديصانية أحيانا ، ولكنهم لم يقيموا دولة للمجوس أو لديصان « وإنما أقاموا دولة لبنى الفواطم من نسل إسماعيل ، واستخدموا لتنفيذ غايتهم كل وسيلة ممكنة – كما قلت .

وأخيرا – نسب بعض الإسماعيليين المتأخرين عبيد الله المهدى إلى موسى الكاظم ، واعتبروه الإمام الثانى عشر – مهدى الزمان عند الشيعة الإمامية الاثنى عشرية ، بل أنطقوا موسى الكاظم بالحديث الآتى « سئل موسى الكاظم بن جعفر الصادق عن ظهور القائم متى يكون ؟ فقال ؛ إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور ، سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالمشرق » وقد وضعت هذه الأحاديث لإثبات نسبة عبيد الله للعلويين عن طريق النسب الموسوى . فذكر أنه ابن الحسن العسكرى الإمام الحادى عشر ، وقيل إنه محمد المنتظر ، الإمام الثانى عشر .

وهذه النظرية أيضاً متأخرة . ولعلها محاولة من محاولات الإسماعيليين المتأخرين للتوفيق بين المذهب الإسماعيلى والمذهب الاثنى عشرى وإدماج الفرقتين سويًا .

وأخيراً – دخل عبيد الله المهدى أرض المغرب ، حيث كان المذهب الإسماعيلى يسود ظافرا فى كثير من أرجائها على يد الداعى أبى عبد الله الشيعى – وسنرى فى الفصل التالى – كيف نشر أبو عبيد الله الفلسفة الشيعية ، وأنشأ دار هجرة إسماعيلية ، وبنى لبنى فاطمة ملكا شامخا خلال دعوته إلى آل رسول الله .

الفصل السابع

دور الظهور

كانت الدعوة الإسماعيلية فى دور الستر، دور الخطر، ثم مالبثت أن انتقلت إلى دور الظهور، دور الأمان، فى بلاد المغرب البعيدة. فكيف حدث هذا، وهل سادت الفلسفة الإسماعيلية حقا هذه البلاد؟

إن قيام دولة شيعية يحكمها أحد أبناء فاطمة كان الحلم الذهبى لأجيال متعاقبة من المسلمين، ولذلك نرى كثيرين من مؤرخى الفكر الإسماعيلى يحاولون حين تحقق الحلم الذهبى فى بلاد المغرب أن ينسبوا إلى رجل الشيعة الأكبر جعفر الصادق أنه أول من أرسل الدعاة إلى المغرب، واختار لهذا داعيين عرفا فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية باسم الحلوانى وأبى سفيان. وتذكر المصادر أن جعفرا الصادق علمهما وسائل الدعوة السرية، ثم ودعهما إلى المغرب قائلا: «قولا لكل شىء باطن. واذهبا، فالمغرب أرض بور. فاحرثاها واكرياها، حتى يأتى صاحب البذر» [1] على أنه من الواضح أن جعفراً الصادق (المتوفى عام ١٤٨ هـ) لم يناد بفكر الظاهر والباطن، وأنها لم تعرف فى عهده، ثم إن فكرة صاحب البذر فكرة متأخرة.

وقد ثبت تاريخيا أن الإمام الحسين بن أحمد – وهو ابن حفيد جعفر الصادق، والمتوفى بعد أكثر من قرن من وفاة جده الأكبر، هو الذى أمر بإرسال الداعيين – الحلوانى وأبى سفيان إلى المغرب ليغرسا فيها غرسا، وقد فعلا. ويبدو أن اتصالها المباشر كان بابن حوشب منصور اليمن. بل يبدو أنهما تعلما الدعوة فى مدرسته، وأتقنا فيها فكرة التأويل، والتفسير الباطنى والظاهرى. وسارا إلى أرض كتامة بتونس، وهى قبيلة بربرية ذات سطوة ونفوذ، وهناك بشرا بظهور المهدى وقيام دولته. وكان كل منهما – تبعاً لتعاليم ابن حوشب يعمل منفردا. فلما ماتا اختار ابن حوشب – بموافقة إمامه الحسين وحجته محمد أبى الشلعلع – أبا عبد الله الشيعى لهذه المهمة الكبرى، ليكون صاحب البذر. وقد كان، كما سنرى بعد قليل.

نشأ الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الملقب بأبى عبد الله الشيعى، بصنعاء باليمن، وقد عرف باسم الصنعانى، وكانت أسرته شيعية اثنى عشرية، وقد رحل أبو عبد الله الشيعى وأسرته إلى العراق

(١) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١١، المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٢١.

إحدى مراكز الشيعة الاثنى عشرية حينئذ ، وعاش فى البصرة أو أحد أعمال بغداد ، وكان الرجل على تدين كبير ويسير فى زى الصوفية ، يرتدى الصوف الخشن ، والأردية الغلاظ ، بل ينسب عنه أنه كان يلبس المرقعة وهى وسم الصوفية كما نعلم ، ولذلك لقب بالصوفى ، وكان ينشر الدعوة الاثنى عشرية ، ويعلمها فلقب أيضاً بالمعلم . هذه هى نشأة الرجل الأولى حتى قابله أحد دعاة الإسماعيلية وهو أبو على – داعى مصر بعدئذ ، فحوله إلى الإسماعيلية . والإسماعيلية – كما قلنا – قريبة من الاثنى عشرية ، فكلتاهما شيعة تؤمن الأولى بإمام مستور ، وتؤمن الثانية بإمام غائب . والأمل فى إمام مستور أعظم من الأمل فى إمام غائب . فكانت الإسماعيلية إذن «منحنى» ينحرف إليه الاثنا عشرى الطامح أو العجل الذى يتشوف إلى ظهور الإمام .

وكانت الإسماعيلية تعلن اقتراب الفجر ، ظهور المهدى كالشمس الواضحة ، أما أن أبا عبد الله كان صوفيًّا ، وأنه كان يلبس المرقعة . فنلاحظ ما يأتى : أن كثيرين من غلاة الشيعة : الجعفرية والبيانية والمغيرية والمنصورية كانوا يدعون التقشف والزهد ، فلا جرم أن يفعل هذا إمامى اثنا عشرى سواء أكان غاليًا أم لم يكن ، علاوة على أننا قلنا من قبل إن عبد الله بن ميمون ، وقد تابعه أولاده على هذا ، استخدموا التصوف ، كما استخدموا الشعوذة ، والكيمياء والحيل الهندسية للدعوة للإمام الإسماعيلى .

ويذكر النويرى هذا حين ينقل إلينا الحديث المشهور بين عبد الله بن ميمون القداح ومحمد بن الحسن بن جهار نجان المعروف بدندان وهو الشعوبى المشهور فيقول : «كان من كبار الشعوبية رجل يسمى محمد بن جهار نجان الملقب دندان ، وهو بنواحى الكرج وأصبهان – له حال واسعة وضياع عظيمة وهو المتولى على تلك المواضع ، وكان يبغض العرب ويذمهم ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع فى نواله تقدم إليه بذم العرب. فسمع به عبد الله بن ميمون القداح ومايتنحله من بغض العرب وصنعه النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العيون ويقدح الماء النازل فيها ، ويظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة وتقربا إلى الله عز وجل بنواحى أصفهان الجبل . فأحضره دندان وفاتحه الحديث فوجده كما يحب ويهوى . وأظهر له عبد الله من مساوئ العرب والطعن عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال : مثلك لا ينبغى أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك . فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما فى نفسك إلى العرب ومن تعصب لهذا الدين . فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس ولا الهند مع بأسهم ونجدتهم .

وقد علمت شدة بابك صاحب الخرمية وكثرة عساكره ، وأنه تنسك والتزم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ،

ويقول : هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام . فإنك إذا سببتهما ، سببت صاحبهما ، فإذا استوى لك الطعن عليهما ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك فى استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأى . ثم قال عبد الله : إن لى أصحابا وأتباعا أبثهم فى البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع . ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك [1] ومع شكى فى كثير مما جاء فى هذا الحديث ، فإنه من المؤكد أنه كان فى منهج الدعوة الإسماعيلية إظهار التقشف والتصوف . وقد قلنا من قبل إن الداعية الحسين الأهوازى – أو بمعنى أدق الحسين بن عبد الله بن ميمون قد قابل حمدان قرمط فى لباس متصوف زاهد قانت . وكذلك الأمر مع أبى عبد الله الشيعى ، فقد لقب بالصوفى سواء أكان صوفيًّا حقيقة أم أنه اتخذ التصوف ادعاء . غير أننا نرى فى حياة الرجل فى ظروف قاسية فى صحراء المغرب ، ما يدل على روح صوفية متمكنة ، وسنراه أيضا ينكر على كثيرين من الإسماعيليين فى المغرب خروجهم على قواعد الشريعة الإسلامية ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن سبب مقتله الحقيقى هو عدم رضائه عن خرق بعض التكاليف الإسلامية من رجال عبيد الله .

والصلة بين التصوف الفلسفى والإسماعيلية مجال لبحث ، لا نريد أن نقول فيه كلمتنا الآن ، ولكن من المؤكد أن هناك صلات بين الاثنين .

صحب أبو عبد الله الداعى – أبا عبد الله الشيعى إلى سلمية . وقد ذهبت بعض المصادر التاريخية إلى أن أبا عبد الله الشيعى اتصل بمحمد الحبيب أبى الإمام الحسين الإسماعيلى وأنه هو الذى أوفده إلى اليمن – إلى ابن حوشب – ليعده للدعوة فى المغرب ، وذهبت بعض المصادر إلى أن محمد الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذى أرسله إلى هناك . وسواء أكان هذا أو ذاك فقد سافر أبو عبد الله الشيعى إلى بلده الأصلى اليمن عام ٢٧٨ هـ . وهناك صحب ابن حوشب لمدة عشرة أعوام وأصبح موضع ثقته . ونمى إلى ابن حوشب موت الداعى الثانى أبى سفيان ، ويبدو أن الحلوانى الداعى الآخر كان قد مات قبلا . ورأى ابن حوشب أن يعهد إلى أبى عبد الله الشيعى بالدعوة فى المغرب . ويبدو أن هذا قد تم بموافقة الإمام الحسين وحجته محمد أبى الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون ، وقد

(١) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٥ ص ٣٥–٣٦ .

حفظ المؤرخون لنا كلمات ابن حوشب له «إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر ، فإنها موطأة ممهدة لك» .

وانتظر أبو عبد الله موسم الحج ، ثم غادر اليمن متجها نحو مكة . وسأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم . وكان الحلوانى وأبو سفيان قد ملآ أرض كتامة بالأحاديث عن قرب ظهور المهدى ، وأن دولة العلويين ستقوم من بلاد المغرب . أى أنهما حرثا الأرض لصاحب البذر . فلما قابل أبو عبد الله الشيعى الكتاميين فى مكة رآهم يتحدثون عن مآثر أهل البيت ، ويذكرون قيام المهدى فى بلاد المغرب أفاض هو أيضا بعبارته الخلابة وحديثه الممتع فى فضائل أهل البيت ، وقرب ظهور المهدى منهم ، وكان الرجل ذا شخصية ساحرة نفاذة . فدعوه إلى زيارة بلدهم وصحبهم أبو عبد الله الشيعى – فى قصة طويلة لا تعنينا – إلى كتامة . وحين وصل أبو عبد الله أرض كتامة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ . مع حجيج كتامة أقبل الكتاميون عليه ، وتنافسوا فى إكرامه . لكن الرجل – فى حركة مسرحية ، رفض ، وسألهم أين فج الأخيار ؟ فدلوه عليه . فقصده وسار إلى جبل إيكجان ، فنزل بفج الأخيار . وهناك قال لهم «هذا فج الأخيار ، وما سمى إلا بكم . ولقد جاء فى الآثار : للمهدى هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتمان ، ولخروجكم من هذا الفج ، سمى فج الأخيار» . (١)

وتسامعت البربر به ، فأتته من كل مكان ، وهنا أعلن «أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى» ولم يكن البربر يدركون مدى تنظيم الدعوة الإسماعيلية فى بلادهم . ولا تنسيقها على هاتين الدرجتين ، درجة الحرث والكراية ثم درجة صاحب البذر ، وإنما اعتبروا حضور أبى عبيد الله ، من المغيبات التى تعلو عن الأفهام ، وكانوا قوما على جانب كبير من السذاجة . فاعتبروا حضور أبى عبد الله ، وكما أعلن هو لهم – بشارات غيبية بظهور المهدى ، فتهافتوا على أبى عبد الله مبايعين منتظرين «المخلص» الذى سيخلصهم من قسوة حكام البلاد العرب ، وقسوة الضرائب والمكوس ، وطالما شكوا إلى الخليفة العباسى فى بغداد ، فلم يأبه لهم ، فكان الأمل الوردى : أن يخلصهم منقذ مستور من آل البيت .

اتخذ أبو عبد الله الشيعى «دار هجرته» فى فج الأخيار ، وقد ذكرنا من قبل أن تلك كانت عادة الإسماعيلية مستنين سنة الرسول فى اتخاذ المدينة «دار هجرة» بعد أن ضاق به الأمر فى مكة . ثم استنها للإسماعيلية محمد بن إسماعيل ، حين فر من المدينة متخذاً دار هجرة فى فارس ، ثم الدعاة جميعاً فى

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٨ ص ١٢ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٢٧–٣٢ .

مختلف عهود الأئمة المستورين .

تهافت البربر على أبى عبد الله ، فما هى المبادئ التى كان يدعو إليها ، هذا الصوفى ، والمعلم ، والاثنا عشرى القديم ؟ والداعية الذى لم يعرف التاريخ له مثيلا ، بطون كتامة ، والرجل الذى قيل إنه لم يتجاوز فى الدعوة – الدرجة السادسة فقط من درجاتها أى أنه لم يطلع على الدرجات السابعة والثامنة والتاسعة – الدرجات الأخيرة من الدعوة الإسماعيلية السرية .

أعلن أبو عبد الله الشيعى : أن الأمام – صاحب الزمان – من آل بيت رسول الله ﷺ ومن أبناء فاطمة حى مستتر ؛ وأنه المهدى المنتظر ، وقد أطل زمانه . وهنا نتساءل ، أى الأئمة كان يدعو إليهم ؟ والإجابة عن هذا السؤال أنه كان أولا للإمام الحسين ثم لابنه الإمام على . ثم نقل الدعوة للإمام القداحى ، أو الحجة والإمام : عبيدالله المهدى. ولكن كتامة لم تعرف أبداً أن عبيدالله لم يكن فاطمياً. ولم يكن أبو عبد الله الشيعى فى حاجة إلى تفسير تولى حجة الإمام ، للإمامة ، سترا على صاحب الحق : القائم . كان أبو عبد الله – كابن حوشب – مخلصاً تمام الإخلاص للأئمة الإسماعيليين . وكان يعلم أن تولى عبيد الله للإمامة إنما كان حفظاً وستراً على ولى الأمر القائم بأمر الله . وأنه لا يمكن أن يوضع القائم على كرسى الخلافة حتى تستقر الأمور تماما فى المغرب . فكانت الدعوة إذن تتلخص فى إمام مستتر ، على وشك الظهور ، لإقامة « دولة الله » الدولة التى طالما حلم بها المسلمون فى بقاع الأرض ، حين افتقدوا على ابن أبى طالب فى يوم نحس قاتم . ومات أبناؤه من فاطمة واحداً بعد واحد تحت ظلال السيوف وبكأس السم . لإقامة دولة الله . كان الناس – والدولة العباسية تلفظ أنفاسها ببطء فى انتظار المنقذ . وأعلن أبو عبد الله الشيعى للبربر من كتامة أن المنقذ على وشك الظهور .

ولكن ما هى حقيقة المنقذ عندهم ؟ لقد حاول كثيرون من الباحثين أن يثبتوا أن أبا عبد الله الشيعى لم يذكر حقيقة الفكرة الإسماعيلية فى الإمام . وهذا خطأ . لقد أضفى عليه الرجل كل هالات القدسية بل وضّح للكتاميين أنه مظهر محمد ، ومجمع الأنبياء ، وظهور العقل الكلى ، ومجلى الله أو بمعنى أدق أعلن نظرية حلول العقل الكلى ، أو بصيغة أخف ، حلول صفات الله فى الإمام .

ولما غادر عبد الله المهدى سلمية فى طريقه إلى المغرب أذاع أبو عبد الله الشيعى ين الناس « المهدى يخرج فى هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فياطوبى لمن هاجر إلى وأطاعنى » ويذكر حديث الإمام الحسين للمهدى : أنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة ، تنبو بها عن الأوطان ، وتلاقى محناً شديدة » وفسرها أبو عبد الله الشيعى بأنها رحلة إلى المغرب . ولما وصل عبيد الله إلى سلجماسة ، وقبض عليه أميرها وسجنه ، كان أبو عبد الله الشيعى مؤمناً تمام الإيمان بأن « الله سيحفظ المهدى ويقيه ، ويدفع

عنه حتى يظهره ويعز نصره » ولم يعلن أبو عبد الله اسمه – خوفاً عليه من أمير سلجماسة بل أمر فقط « بالصلاة على رسول الله ﷺ وعلى الحسين وفاطمة » وأخيراً – دخل أبو عبد الله الشيعى ظافراً إلى سلجماسة وأخرج المهدى وأبا القاسم – القائم بأمر الله .

وظهر الإمام المنتظر « والمؤمنون فى فرح عارم ، يصيحون » يا خيل الله اركبى . وأبو عبد الله يمشى بين يدى المهدى يقول للمؤمنين « هذا مولاى ومولاكم أيها المؤمنون » .

ظهر العقل الكلى إذن فى الإمام ووقف محمد البديل كاتب قضاعة – يقول للإمام وقد دخل مدينة رقادة :

حـــل برقـادة المسيح حـل بهـا آدم ونـوح
حـل بهـا أحمد المصطفى حـل بهـا الكبش الذبيح
حـل بهـا الله ذو المعـالى وكـل شىء سـواه ريح

وهذا يثبت تماماً أن البربر عرفوا المبادئ الإسماعيلية الفلسفية ، وأن أبا عبد الله الشيعى نشرها بينهم ، بل إن يمينهم كانت « وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدى الذى برقادة (١) .

ويقول ابن عذارى المراكشى إن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول مبادئ التشيع وعناصره ، والتبرؤ من الصحابة وأزواج الرسول ، ثم طبقوا الفقه الشيعى كاملا (٢) . ويسرف مؤرخو أهل السنة فى تصوير الفاطميين لإمامهم . فيذكر القاضى عبد الجبار أن البعض منهم كانوا يدعونه : المهدى بن رسول الله وحجة الله على الخلق ، وكان البعض الآخر يدعونه : رسول الله ، والبعض الثالث يذكرون « هو الله الخالق الرازق » (٣) .

ويذهب الإسماعيلية إلى العكس من ذلك ويقررون أن أبا عبد الله الشيعى لم يعلن قداسة الأئمة وتأليههم وحلول روح الله فيهم ، وأنه إنما أراد فقط إقامة نظام دينى على رأسه إمام من أولاد فاطمة . وأن عبيد الله بعد ذلك أنكر الغلو وأعلن أنه لن يحكم بخلاف ما أنزل الله .

ظهر الإمام : فهل قبل عقائد التأليه ، ونظرية الحلول ؟ ولم يقبل عبيد الله المهدى ، وقد أصبح مسئولا عن الدولة باسم آل البيت هذه العقائد أبداً : إنه لم يقبل « التشريق » أى الغلو فى الأئمة ، وقد سجن كل من نادى به ، حتى ماتوا فى سجنه مقيدين . وقد ذهب ابن عذارى إلى أن كثيرين من أتباع

---

(١) ابن حماد : أخبار بنى عبيد وسيرهم ص ١٦ .

(٢) ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨–١٥٩ .

(٣) القاضى عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة (كتاب مخطوط سينشر قريباً–وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين بعض فقراته ج ١ ص ٢٠١) .

عبيد الله ، كانوا يعبدونه عن يقين وأن واحداً منهم كان يصلى إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها ، وهى منه فى المغرب ، فلما انتقل عبيد الله إلى المهدية ، وهى فى الشرق ، صلى إليها وكان يقول : لست ممن يعبد من لا يرى . وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : ارق إلى السماء . كم تقيم فى الأرض وتمشى فى الأسواق . وكان يقول القيروانى فى عبيد الله : إنه يعلم سركم ونجواكم» (١) .

ولكن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول تخليهم عن كل أفكار التأليه ، ولاشك أن هذه الأفكار لحقت بهم – وهم فى دور الاستتار ، وكانوا يتطلبون تأييد كل الطوائف ، ويجمعون إلى صفوف المذهب الإسماعيلى كل ما يمكن جمعه وجذبه من الفرق . فاحتضنوا كل الأفكار معتدلة وغالية ، حتى يتمكنوا من إقامة الدولة والانتقام من أعداء أهل البيت ، فاستخدموا التشيع البحت لآل البيت ، كما استخدموا الفلسفة والغنوص . فلما بدأت الدولة ، وانتصر حق آل البيت ، رأينا دولة إسلامية متشيعة معتدلة فى عقائدها إلى حد كبير .

أما القول بأن أبا عبد الله الشيعى ثار على المهدى حين أعلن هذا الأخير تأليه نفسه ، وأباح الخمر والغناء ، وأنه حينئذ قال : ما على هذا خرجنا . فقول مردود . إن أبا عبد الله الشيعى هو نفسه فى دور الستر ، أضفى على الإمام كل صفات القداسة ، بل إنه اتهم بالقول بالحلول ، ومن المحتمل كثيراً أنه نادى به وكانت فكرة الحلول توافق عقيدته الصوفية .

لقد ثار أبو عبد الله الشيعى وأخوه أبو العباس حين سلب المهدى السلطة من أيديهما ووضعها فى يديه هو . وقد استغل المهدى فكرة القداسة التى أضفاها أبو عبد الله الشيعى عليه . فأمر عروبة بن يوسف – أحد تلامذة أبى عبد الله – وممن آمنوا بقداسة الإمام بقتل أبى عبد الله الشيعى نفسه ، وحين هم بقتله صاح به أبو عبد الله «لا تفعل . فأجابه : إن الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك (٢) . وقتله فى منتصف جمادى الآخر سنة ٢٩٨ هـ . كما قتل أخاه أبا العباس وهو الذى أثار أخاه أبا عبد الله على المهدى .

وأعلن عبيد الله أنه «المطهر» أنه يطهر بالسيف أخطاء الناس . إنه يعلن للإسماعيلية فى المشرق والمغرب أنه قتل أبا عبد الله ليطهره من الرجس الذى تردى فيه لاتباعه أخاه أبا العباس . وأن قتل أبى العباس كان لتخليص الدعوة من المستكبر المصر على الإبلاس (٣) ، فطهر المهدى منه دعوته ، وتبرأ منه . وترحم المهدى على أبى عبد الله وقال : رحمك الله يا أبا عبد الله ، وجازاك فى الآخرة بقديم

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٧ .

(٣) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٦٩ .

سعيك ، ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك : «ثم قرأ المهدى الآية : «ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون» .

وكتب إلى شيعته بالمشارق يقول «قد علمتم محل أبى عبد الله وأبى العباس من الإسلام . فاستزلها الشيطان ، وطهرتها بالسيف والسلام» (١) .

إننا نعلم أن الأمويين من قبل قتلوا الحسين بن فاطمة وزيد بن على وابنه يحيى لخروجهم على حكم بنى أمية الجائر ، وحقق الأمويون بذلك قانوناً قبليّا جاهليّا ، ثم أتى العباسيون ، وقتلوا فى عهود مختلفة العترة الطيبة من آل رسول الله ، تنفيذاً أيضاً لهذا القانون القبلى ، الخروج على فخذ من قبيلة بنى هاشم . ثم أتى عبيد الله ، فاتخذ فى ضوء تعاليم أبى عبد الله نفسه – مبدأ غنوصياً ، تطهير الإنسان من الآثام بقتل الجسد – فقتل الخارج على سلطة الإمام المعصوم ، قتل جسده لتحيا روحه مطهرة من الآثام فى عالم الروح الباق . فعلى عبيد الله هذا ، واتخذ دور المطهر ، وهو الدور الذى آمن به المقتول نفسه ، أبو عبيد الله الشيعى .

وهذا الدور – دور المطهر ، يستلزم صفة أخرى من صفات الإمام – وهى العصمة . وقد آمنت الشيعة جميعاً اثنا عشرية وإسماعيلية وغلاة بعصمة الأئمة ، مثلهم فى ذلك مثل الأنبياء ، فلا يصدر عنهم خطأ ، ولا يرتكب واحد منهم معصية . بل ذهبت مجموعة من الإسماعيلية . إلى أنهم لا يخضعون للتكاليف الشرعية فإذا ارتكب واحد منهم معصية ، فلا ضرر ولا ضرار ولا جناح عليهم فيما فعلوا . ويبدو أن هذا بسبب الرواية الزائفة عن شرب إسماعيل للخمر ، ولكن الإسماعيلية فى مجموعها – تنكر هذه الرواية ولا تقبلها ، كذلك معظم مؤرخى الإمامية ينكرون شرب إسماعيل للخمر ، ويعتبرونه من جلة أصحاب أبيه الإمام جعفر الصادق . وآمنت الإسماعيلية أيضاً بضرورة وجود إمام فى كل عصر. يرجع إليه فى أمور الدين والدنيا ، ويبين للناس ما استبهم من معضلات الدين .

وقد نشأ عن هذه القاعدة نظرية التعليم . أى أن الدين يؤخذ من الإمام لا من قياس ولا من رأى ويتشارك الإسماعيلية والاثنا عشرية فى هذا الأصل فالإمام عنصر إبستيمولوجى منه وحده المعرفة والعلم وقد نشأ عنه فى القرن الخامس والسادس نظرية التعليم وقد أفاض فى نقدها حجة الإسلام الغزالى وبين تهافتها ، ونظرية التعليم – نظرية متأخرة – وإن كانت بذورها قد نشأت فى عصر متقدم .

والإمام يعين بالنص . فالإمامة مستمرة مدى الحياة عند الإسماعيلية لا تتوقف عند إمام معين ، كما

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٦٤ .

يذهب الاثنا عشرية ، بل لابد من إمام معصوم مستتر أو ظاهر ، ولولا وجود الإمام ، لساحت الأرض بمن فيها ، فالإمام إذن عنصر وجودى كوزمولوجى ، خلق الكون لأجله ، ولا يوجد الكون بدونه ، ولو لم يوجد ، لما وجد الكون ، فهو مركز الكون ونقطة الوجود .

والإمام – كما قلنا – إما مستتر وإما ظاهر . سن الاستتار الإمام محمد بن إسماعيل ، وقد استتر كالليلة الظلماء ، وعبثاً حاول العباسيون الوصول إليه . وانتشر حجبه وحججه يدعون إليه ، وبلغ التخفى مداه خوفاً من «الأضداد» الذين يناهضون إقامة دولة الله ، ويحاربون ظهور القائم المنقذ من بنى فاطمة . فاتخذ الحجب والدعاة كل الوسائل الممكنة لإخفاء الإمام : «كان لشدة استتار الإمام عليه السلام ، إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولى العصر . ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح فى العلم وعلت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف اسم إمامه . ولا يدينه بإشارة ولا عبارة فى كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى[١] .

وصيغة القسم الإسماعيلى نفسه غامضة «إن كان ما أقوله كذباً ولم أقل بانتقال الإمامة إلى السيد الحسين . ثم إلى بنيه بالنص الجلى موصلة إلى جعفر الصادق ثم إلى إسماعيل صاحب الدعوة الهادية والأثرة الباقية وإلا قدحت القداح وأتمت الداعى الأول[٢] » . وكان الحجج يتسمون بأسماء الأئمة ، وكذلك كان يفعل كثير من الحدود ، فاختلف الناس فى أسمائهم فى دور الستر – إمعاناً فى المحافظة عليهم ، وعدم كشفهم للظلمة من ولد العباس . وكان هذا الستر كما قلت – ذريعة ومدخلا للأسطورة ، التى حاكت حول الإمام المستور ميزات غيبية وصفات من قداسة ورموز كبالية . ثم استخدم الإسماعيليون لدور الستر الاصطلاح الأرسطاليسى «القوة» فهو إمام بالقوة .

وأقبل دور الظهور – وبلغة أرسطو دور الفعل ، فكان للإمام فى هذا الدور ما كان له فى دور الستر – دور القوة من ميزات وصفات وقداسة ، وكان المعز فيما بعد يعلن أن الأئمة عباد مربون وخلائق فانون ، ولكن الدعاة البعيدين يعلنون تأليه أو مشاركته للألوهية بنوع . ثم استتر الحاكم بأمر الله عند الدورز ، ولكن هذا استتار غلاة لا يسير فى النسق الإسماعيلى لدور الستر . إنما الستر عندهم هو اختفاء إمام حى ، أو هو نوع من التقية التى عرفت عن الشيعة عامة ، فلكى يتقى أعداءه ويحافظ على حياته ، يختفى الإمام ويستتر حياً . وكان ابن حوشب يدعو إلى الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل

---

(١) الداعى إدريس : زهر المعانى ص ٩ .

(٢) شهاب الدين بن العمرى : التعريف ص ١٥٧–١٥٨ .

ابن جعفر الصادق» أو إلى المهدى المنتظر فقط .

الإمامة مستقرة أبد الآبدين فى الستر أو فى الظهور . ويختلف أدوار الستر والظهور بين مختلف الفرق الإسماعيلية . على أن أهم أدوارها يعرف بالدعوة القديمة . بدأت الدورة الأولى فيها باستتار محمد بن إسماعيل وانتهت بنشأة دورة ثانية بتولى عبيد الله المهدى عرش الفاطميين عام ٢٩٦ هـ . ثم تبدأ الدورة الثالثة دور الستر الجديد حين اختفى الإمام الطيب بن الآمر سنة ٥٢٦ هـ وأتباع هذه الدعوة هم طائفة البهرة فى الهند . أما كيف نشأوا – فقد تولى إمامة الإسماعيلية بعد المستنصر ابنه المستعلى ، وقتل خاله ووزيره الوزير الأفضل بن بدر الجمالى الوريث الشرعى للإمامة نزاراً وابنه ، وسرعان ما تكونت الإسماعيلية النزارية على يد الحسن بن المصباح فى قلعة ألموت ، وتكونت المستعلية فى مصر ، ثم مات المستعلى وتولى الإمامة ابنه الآمر ، ولكن ما لبث النزاريون أن قتلوه ، فتولى الحافظ عبد المجيد بن المستنصر ليكون إماماً مستودعاً للطيب بن الآمر ، ولكنه ما لبث أن استبد بالأمر ، فأرسل أحد الدعاة الإمام الطيب إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن ، فأخفته هذه الملكة ، وأعلنت نفسها كفيلته وحجته ، واتخذت لنفسها لقب «كفيلة الإمام المستور الطيب ابن الآمر» ودخل الطيب بن الآمر دور الستر ، فيما يدعى الطيبيون . ثم انتقلت الدعوة إلى الهند بعد انتهاء الدولة الصليحية ، وداعيها الأكبر سلطان البوهرا ، ولكن ما زال يمثلها داع يمنى .

أما الدعوة الجديدة ، وهى دعوة النزارية – وهى التى انتهت اليوم إلى كريم خان . وبحث طائفة البهرة وطائفة الخوجات الإسماعيلية الأغاخانية ليس فى نطاق هذا الكتاب ، ونحن نبحث فقط نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام لا أواسطه ولا نهاياته ، ونؤجل الكلام فيه لبحث آخر .

وأخيراً – أختتم هذا الفصل بأن الدعوة الإسماعيلية انتشرت فى كتامة ، ثم فى بقية بلاد المغرب ، بل إنها انتشرت أيضاً فى الأندلس ، واعتنق الفلسفة الباطنية الفيلسوف الصوفى ابن مسرة ومدرسته ، وأنتقل إلى الفصل الأخير من هذا الباب ، وهو البحث فى إيجاز فى الدعوة فى بلاد فارس .

الفصل الثامن

الفلسفة الإسماعيلية فى فارس

كانت فارس أول بلاد فكّر محمد بن إسماعيل فى الاستتار بها . وأرسل إليها دعاته السريين . ونحن قد رأينا من قبل أن حجته وحافظه ميمون القداح كان فارسيًّا . ويدعى الانتماء لسلمان الفارسى . ولا عجب إذن أن اتخذ محمد بن إسماعيل فارس دار هجرة له . ولا عجب إذن أن « دعاته السيارة » كانت قد غرست غرساً فى هذه الجزيرة – أى فى هذا الإقليم من أقاليم الدعوة . فأقيمت الدعوة أول الأمر باسم محمد بن إسماعيل فى فارس فغمرت الأرض ، وانتشر الأمر ، وأقبل كثير من أتباعه على السياحة إليها لنصب دار هجرة لهم فيها .

وكان لمحمد بن إسماعيل – وبتأثير أستاذه الفارسى ميمون – مزاج فارسى ، يتضح فى منهجه التأويلى وفى إحاطته بالفلسفة . وكانت فارس مرتعاً خصباً لآراء الغلاة من الكوفة ، علاة على تمكن الغنوص فى مختلف صوره منها ، كما تخلفت فيها ركائز الفلسفة اليونانية منذ عهد بعيد . وفى فارس كانت الإمامية تنتشر انتشار الهشيم . وفى فارس أيضاً ومن فرس صيغ الإسلام صيغة المعتزلية . وكان أعظم فلاسفة المعتزلة فرساً . وفى فارس أيضاً وعلى أيدى علماء فرس أخذ المذهب الأشعرى – مذهب أهل السنة والجماعة صورته النهائية . فرنا ميمون القداح بعينيه إليها . وحمل ابن سيده محمد بن إسماعيل مستتراً فيها ، وهو يعلم أن عشيرته وأهله سيتقبلون المذهب الإسماعيلى أكثر مما يتقبله أهل المغرب ، سيتفهمون فكرة النطقاء أكثر من غيرهم ، وسيقبلون على عقيدة تجمع بين فلسفة الإسلام وفلسفة اليونان وكثير من غنوصيات الفرس . والفرس يؤمنون بالحق الإلهى المقدس للملوك ، وقد طال انتظارهم للمنقذ والمخلص من سلطان الأمويين والعباسيين الجائر . وهذا هو المخلص من آل فاطمة ، ومن أبناء ابنة كسرى ، الناطق السابع وخاتم الأسبوع ، القائم الناسخ لشريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها . « ولى الأولياء » ، ابن محمد ﷺ ، لم يأت بإبطال قرآنه ، بل بتفسيره وتأويله ، وإضفاء روح جديدة عليه . تعطل به ظاهر شريعة محمد ﷺ ، فيبين معانيها ويكشف أسرارها ويجليها ، ويزيل ظواهر التشبيه والتعطيل .

وكان محمد بن إسماعيل وتابعه الفارسى – وهو يمشى معه فى صورة سلمان ومعلناً أنه من نسله ، أول

دعاة المذهب الإسماعيلي فى فارس . واستتر محمد بن إسماعيل . ثم مات ومات ميمون – وتابع أئمة دور الستر وحججهم دعوتهم فى أعماق فارس وفى عمق أكثر من أى بلد آخر من بلاد المسلمين.

وكانت نيسابور حيث استقر محمد بن إسماعيل وميمون القداح من أهم مراكز الدعوة الإسماعيلية ، وفيها ولد الإمام عبد الله الرضا ونشأ وترعرع ، ثم انتقل عبد الله الرضا بعد وفاة أبيه إلى مازندران ثم الأهواز . وهو يغرس الدعوة حيثما ذهب . بل كانت دار هجرته الأولى فى خوزستان – والأهواز بالذات . وتفرق إخوته وأولاده فى نهاوند والرى ونيسابور وخوارزم . ونحن نعلم أن العباسيين تتبعوا أفراد الأسرة الإسماعيلية بالقتل وانتقل الإمام عبد الله هو وحجته عبد الله بن ميمون إلى سلمية حيث توفيا هناك .

ولم تترك فارس أبداً بدون دعوة – بعد محنة آل إسماعيل فيها وقتل معظم أفراد الأسرة ، بل سرعان ما وجه عبد الله بن ميمون داعية من أهم دعاته هو الداعى خلف . ويبدو أن «أول من قدم من بنى القداح إلى الرى وأذربيجان وطبرستان رجل – يسمى حلاج القطن» وأن حلاج القطن هذا هو الداعى خلف ، وأنه كان يقوم بحياكة الملابس وحلج القطن ، وتمكن الرجل من إنشاء فرقة الخليفة الإسماعيلية فى بلاد الرى وقم وفانشان [١] . ومات خلف فتولى رئاسة الخليفة ابنه أحمد بن خلف . ولما مات أحمد بن خلف تولى الدعوة الداعى غياث .

ثم أرسل عبيد الله المهدى الداعى أبا سعيد الشعرانى (عام ٢٩٧) ويبدو أنه كان على قدر كبير من العلم ، فاستطاع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من القواد وذوى الجاه فى خراسان . يقول ابن رزام «كان عبيد الله قد أنفذ فى سنة سبع وثلاثين أبا سعيد الشعرانى إلى خراسان فموه على القواد بذكر التشيع واستغوى خلقاً كثيراً ثم قتل فى ولاية أبى بكر بن الحجاج ، فخلفه الحسين بن على المروزى» وكان الحسين بن على المروزى أميراً وكان ذا نفوذ وسطوة فى خراسان . فأقبل الناس على اعتناق المذهب الإسماعيلى [٢]

ولكن نصر بن محمد السامانى – أمير خراسان وما وراء النهر – تنبه إلى خطر الأمير حسين المروزى فقبض عليه ومات فى سجنه ، وكان أكبر تلامذة المروزى هو أبو عبد الله بن أحمد النسفى البرذعى (قتل عام ٣٣٠) بل كان النسفى أكبر دعاة المذهب الإسماعيلى فى فارس ، ويكونان هو وأبو حاتم الرازى أساس الفلسفة الإسماعيلية ، ويضعانها فى صورتها النهائية فى عهد عبيد الله . ونلاحظ أن الإسماعيلية فى فارس لم تنجح كحركة حربية . وإنما سادت فقط كنوع من الفلسفة فى بعض أوساط المسلمين

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٧٠ .

ولدى كثيرين من الأمراء وذوى السلطان ولكنها لم تؤثر فى مجموعة البلاد ، التى بقيت سنة وإمامية حتى انتصر فيها المذهب الاثنا عشرى الانتصار الحاسم حتى أيامنا هذه .

أما النسفى ، فقد تابع أستاذه حسين بن على المروزى فى نشر الدعوة بين كبار قواد وأمراء خراسان ، حتى إنه جذب نصر بن أحمد السامانى ، ولكن نوحاً بن نصر قتله فى غضون عام ٣٣١ هـ . وهو المسمى بعام المحنة . ويذكر البغدادى أن له كتاب المحصول (١) . ونقل منه نصاً واحداً – هو : أن المبدع الأول أبدع النفس . ثم إن الأول والثانى مدبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع (٢) . وقد سبق أن أوردنا هذا النص من قبل ومحاولة البغدادى رده إلى أصل مجوسى . وقلت إنه متأثر بأصل أفلاطونى محدث . كما يذكر ابن النديم أن له من الكتب – كتاب عنوان الدين ، وكتاب أصول الشرع ، وكتاب الدعوة المنجية (٣) . ويذكر إيفانوف فى كتابه A Guide to Ismailite Literature أن له كتاباً آخر هو «كون العالم» وهو فى رأى إيفانوف محاولة لمزج العقائد الإسلامية بفكرة الأكوان والعوالم . ويبدو أنه محاولة لتفسير الآثار الفلكية فى ضوء الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

وقد رأينا طرازاً من هذا لدى أحمد الكيال من قبل . وقد عثر إيفانوف على هذا الكتاب . وقد اختفت كتب النسفى الأخرى ولا نجد لها ذكراً لدى الإسماعيلية ، اللهم إلا ما استفاد به الكرمانى من كتاب المحصول فى كتابه «الرياض» .

كان مقتل الفلسفى – كما قلت – إيذاناً ببدء المحنة الكبرى التى تعرض لها الإسماعيليون فى فارس . وقد كادت الحركة الإسماعيلية أن تتوقف تماماً فى بلاد ما وراء منذ ذلك الحين ، حتى أحياها بعد قرن ونصف من الزمان الداعى الإسماعيلى المشهور ، والمؤلف الفيلسوف ناصر خسرو (المتوفى عام ٤٥٢ أو ٤٥٣ هـ) وهو يمثل الدعوة القديمة ، وقد عينه المستنصر نائباً له وحجة ، وقام بنشر المذهب الإسماعيلى فى إيران وكون فرقة الناصرية المشهورة . وقد مهد السبيل للحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس النزاوية فى العراق والشام وإيران أما فيلسوف الإسماعيلية الهام فى هذه المرحلة ، فهو أبو حاتم الرازى (المتوفى فى عام ٣٢٢ هـ) وأما اسمه الكامل فهو أبو حاتم عبد الرحمن الرازى الورسنانى ، وكان الداعى الإسماعيلى لعبيد الله فى الرى .

---

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٦ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

وقد احتل أبو حاتم الرازى مكانة كبرى فى تاريخ الإسماعيلية . ويذكره المؤرخون والكتاب الإسماعيليون تحت اسم «سيدنا» . وقد عمل على نشر الدعوة أيضاً فى شكلها الفلسفى لدى كبراء الرى وأمرائهم . ونجح نجاحاً باهراً . ويبدو أن أبا حاتم الرازى كان من أشد الناس على أهل السنة . ولذلك هاجموه هجوماً عنيفاً واعتبروه باطنياً خبيثاً .

يقول ابن رزام إن أبا حاتم الورسنانى كان ثنوياً ثم صار دهرياً،ثم تزندق وحصل على الشك[١] وهــذا يخــالف الواقع . فإن أبا حاتم الرازى كان فيلسوفاً إسماعيليًا اشتهر بأنه من رجال التأويل ، وله كتاب الإصلاح ، وقد استفاد به حميد الدين الكرمانى – داعى الحاكم بأمر الله – وذكر بعضاً من تأويلاته القرآنية ، كما أن ابن النديم يذكر أيضاً أن له كتاب الجامع . وقد فقد هذا الكتاب أما أهم كتب أبى حاتم الرازى ، فهو كتاب «أعلام النبوة» . وقد بقى هذا الكتاب حتى الآن . وتبدو أهميته الكبرى فى أنه يرد فيه على الفيلسوف الملحد محمد بن أبى بكر الرازى . بل كانت هذه هى غاية الكتاب الكبرى . وهذا ما يدحض قول البغدادى بأن أبا حاتم الرازى كان زنديقاً ووثنيًا ودهريًا .

إن النظرية الإسماعيلية التى تتضح فى كتابات أبى حاتم الرازى ثم فى كتابات ناصر خسرو – فيما بعد – هى أن الطريق إلى العلم الحق ليس هو الفلسفة بل الدين وأن قائد الناس إلى السعادة ليس الفلاسفة ، بل الأئمة المعصومون من نسل فاطمة . وقد اتضحت محاربة الفلسفة أو على اعتبارها غير موصلة إلى الحقيقة لدى أبى حاتم الرازى ثم ناصر خسرو فيما بعد . وكان ناصر خسرو بالذات يرى أن ما يعارض فلسفة الفلاسفة هو حكماء الدين وأهل التأييد . وقد اختلفت الفلسفة مع علم الكلام كما نعلم . وسرعان ما أخذ دعاة الإسماعيلية جانب الكلام . وقام النقاش العنيف وقامت الحملات القاسية المستمرة بين الفلاسفة وعلماء الكلام ، وأخذت الإسماعيلية مكانها الكبير فى النقاش ، فانبرى أبو حاتم الرازى فى أعلام النبوة لمحمد بن زكريا الرازى ، كما انبرى لآرائه فيما بعد ناصر خسرو فى زاد المسافرين . وإن كان الاختلاف عنيفاً بين آراء الفلاسفة وآراء الإسماعيلية فى مسائل هامة وبالأخص مسألة «حدوث العالم» «والخلق» حيث وقف الإسماعيليون – كفرقة دينية إسلامية مع فلسفة الكلام ، فإن الإسماعيلية – خلال تبادل الأسلحة – أخذت من الفلسفة اليونانية بعض عناصرها ، بل إن أبا حاتم الرازى وناصر خسرو يعارضان أحياناً مذهب محمد بن أبى بكر الرازى الأفلاطونى بأرسطو . كما يأخذ الكثيرون من الإسماعيلية بالأفلاطونية المحدثة .

ويرى بينيس أن الإسماعيلية موقف وسط بين الفلسفة والكلام . فبينما أخذوا من الفلسفة بعض

---

(١) ابن النديم : الفهرست .

الأسلحة فإنهم أخذوا من الكلام جوهره – كحدوث العالم مثلا – بل أخذوا أيضاً مصطلحه . فالدعاة الإسماعيليون – وناصر خسرو بالذات – ينكرون أن يوصف الله بأنه علة «ويرون أنه لا يجوز أن يسمى بالعلة الأولى إلا العقل وحده ، أما الله فهو يسمى عالا أو مخصصاً ويرى بينيس أن اللفظ الأول قد انتشر عند الدروز ، أما اللفظ الثانى – وهو المخصص فهو مصطلح كلامى بحت – استخدمه المتكلمون الأوائل ثم ظهر لدى إمام الحرمين والغزالى . فهؤلاء جميعاً يصفون الله بأنه مخصص فى مقابلة وصف الله بأنه علة . وقد ظهر هذا المصطلح مطلقا على الله – حين ثارت مشكلة خلق الزمان : هل خصص الله زماناً معيناً دون سائر الأزمنة لخلق العالم ؟ أما الأشاعرة فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الإجابة على هذا السؤال . فلله الحرية المطلقة والإرادة الكاملة والاختيار التام بينما يذهب أبو القاسم البلخى إلى رأى متأثر بالفلسفة اليونانية إلى أن الله خصص ذلك الوقت على سبيل الوجوب ، وأن حدوث العالم غير ذلك الوقت كان يصلح لذلك [1] .

ولسنا هنا نحاول شرح نظريات ناصر خسرو فهى فى جملتها إسماعيلية مع أخذ بنظريات أرسطو فى المسائل الطبيعية وإنما نعود إلى فيلسوف الفترة التى نؤرخ لها وهو أبو حاتم الرازى وموقفه من فيلسوف الإلحاد الكبير محمد بن أبى بكر الرازى .

كان محمد بن أبى بكر الرازى يدين بمذهب أصحاب الهيولى القديمة ، ويذهب إلى القول بأن القدماء أو الجواهر خمسة : البارى والنفس والهيولى والزمان والمكان وقد انتهى الباحثون إلى القول بأن آراء محمد بن أبى بكر الرازى أفلاطونية فى جوهرها أو أنها على الأقل تعود إلى الأقوال المأثورة عن أفلاطون فى العالم الإسلامى . ووقف أبو حاتم الرازى لمحمد بن أبى بكر الرازى مدافعا عن وحدانية الله ، وتفرده وحده بالقدمية وقد أورد أبو حاتم الرازى فى أعلام النبوة مناقشته لمحمد بن أبى بكر الرازى فى قدم الخمسة وقدم الزمان بالذات . يقول أبو حاتم : «وطالبته أى الرازى فى مجلس من مجالسنا – وقلت له : أخبرنى . ألست تزعم أن الخمسة قديمة ، لا قديم غيرها ؟ قال . نعم . قلت : فإنا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمر الأيام والليالى وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟ قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة ، لأن هذه كلها مقدرة على حركات الأفلاك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها . والفلك وما فيه محدث وهذا قول أرسطاليس فى الزمان ، وقد يخالفه غيره . وقالوا فيه أقاويل مختلفة وأنا أقول : إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور . فالمطلق هو المدة والدهر وهو القديم ، وهو متحرك غير ثابت ، والمحصور وهو الذى يعرف بحركات الأفلاك ويجرى

---

(١) بينيس : مذهب الذرة .. ص ٢٩ ، ٤٠ .

الشمس والكواكب . وإذا ميزت هذا وتوهمت حركة الدهر فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد والسرمد . وإن توهمت حركة الفلك . فقد توهمت الزمان المحصور ، هذا هو رأى محمد بن زكريا الرازى فى الزمان المطلق ، الزمان القديم ولكن أبا حاتم – وهو يؤمن بحدوث الزمان ، وأن الله لا فى زمان – يتساءل «أوجدنى للزمان حقيقة نتوهمها ، فإنا إذا رفعنا حركات الفلك ومر الأيام والليالى وانقضاء الساعات عن الوهم ، ارتفع الزمان عن الوهم فلا يعرف له حقيقة ، فأوجدنى حركة الدهر الذى ذكرت أنه الزمان المطلق – قال : ألا ترى كيف ينقضى أمر هذا العالم بمر الزمان . طف طف طف هو شىء لا ينقضى ولا يفنى . وهكذا حركة الدهر إذا توهمت الزمان المطلق» .

ولكن إذا كان الزمان – المطلق من حيث هو مبدأ أزلى ينطبق على الله ، وأن الله فى زمان ، وقد مضى هذا الزمان الذى كان فيه الله ولا عالم معه وانتهى ، فالله إذن أول ، إذا سلمنا بحدوث العالم ، وسيكون له آخر ، فالله متناه (١) .

ويتبين من المناقشة موقف أبى حاتم الرازى من الرازى الآخر الملحد . الأول يدافع عن تنزيه الله ويثبت حدوث العالم ، والآخر يثبت أن القدماء خمسة ، وأن الزمان المطلق قديم .

إن من الواضح أنه يمكننا أن نقول الآن : إن المذهب الإسماعيلى فى فارس كان ذا صورة فلسفية ، تحاول أن تدعم المذهب الإسماعيلى أولا أمام أهل السنة وأمام الشيعة الإمامية ، ثم أن تناقش الملاحدة من فلاسفة ومجوس مناقشة عقلية ، ولذلك لم يتميز المذهب بحماس حربى فى هذه الفترة ، ولكنه أنتج فى تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام تراثاً ضخماً . وأشعل حركة فكرية ممتازة كان من نتاجها أبو يعقوب السجزى السجستانى المشهور ببندانه أو دندان والذى ذكر إيفانوف والدكتور حسن إبراهيم خطأ أنه توفى عام (٣٣١ هـ) بينما من الثابت أنه وضع كتابه الأفكار سنة (٣٦٠ هـ) وأن الكرمانى تتلمذ عليه . وقد توفى الكرمانى بعد عام ٤١١ هـ فالسجستانى إذن لم يكن من رجال النشأة – أو رجال عصر عبيد الله المهدى ، بل من المؤكد أنه كان من دعاة الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله الفاطمى – هذا العصر الذى أخرج أيضاً علماء كباراً كجعفر بن منصور اليمنى والقاضى النعمان (المتوفى عام ٣٦٣ هـ) .

وتتابع دعاة المذهب وفلاسفته – كالكرمانى داعى الحاكم بأمر الله فى فارس والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى المستنصر المتوفى عام (٤٧٠) ثم المتأخرون كناصر خسرو ، والحسن الصباح

(١) بينيس : مذهب الذرة .. ص ٥٥–٥٦ .

(٥١٨ هـ) ثم أبو الحسين سنان بن سلمان بن محمد. راشد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل (٥٩٠ هـ).

تلك هى الدعوة الإسماعيلية فى فارس منذ نشأتها حتى عهد عبيد الله: مذهب شيعى استخدم الكلام من ناحية ونظرية الإمامة من ناحية وبشكل خاص، ثم مزج هذا بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة أحياناً وبالفيثاغورية أحياناً أخرى على قدر تطرف الدائرة الإسماعيلية أو عدم تطرفها. ولجأت الإسماعيلية إلى التأويل الباطنى للقرآن مع المحافظة على الظاهر، وهذا ما يجعل الإسماعيلية – على خلاف ما ذهب الكثيرون من الباحثين – مختلفة تمام الاختلاف عن الباطنية الخالصة. تؤمن الباطنية بالباطن فقط، بينما تؤمن الإسماعيلية بالظاهر وبالباطن وقد أدى هذا الخلط إلى قيام مؤرخى الإسماعيلية من أهل السنة بالمزج بين الاثنين فنسب إلى الإسماعيلية كل طوائف الباطنية والمجوسية التى انتشرت فى فارس وكثيراً ما اعتبر أهل السنة والجماعة الخرمية إسماعيلية كما نسبوا إلى الإسماعيلية التناسخ والحلول.

أما التناسخ – فلم تقل به الإسماعيلية قطعاً. بل حاربته حرباً عنيفة. حقا: لقد ذكر عن أبى يعقوب السجزى نوع من التناسخ. فذكر البيرونى أن أبا يعقوب يقول «إن الأنواع محفوظة وأن التناسخ فى كل واحد منها غير متعد إلى نوع آخر [1]. أى أن أبا يعقوب يرى أنه من الممكن أن تتناسخ روح إنسانى فى جسد إنسانى آخر، وأنه من المستحيل أن تتناسخ روح إنسانى فى جسد حيوانى أو نباتى ولكن لم تكن هذه أبداً عقيدة الإسماعيلية. ومن المحتمل كثيراً أن تكون بعض عقائد التناسخ دخلت بشكل ما فى عقائد المتأخرين من كتاب الإسماعيلية – كالسجزى وغيره.

أما الحلول – أى حلول الله فى الأئمة – فلم يذهب إليه الإسماعيلية. بل أنكر الأئمة الظاهرون فكرة تألههم تمام الإنكار. كما أننا لا نجد فى كتابات فلاسفة المذهب، التى بين أيدينا اعتقاد ألوهية الأئمة: ولكن لاشك أنه كان هناك غلاة فى الأماكن البعيدة فى فارس نادوا بألوهية الأئمة أو بحلول روح مقدس فيهم. لقد حدث هذا من قبل لدى غلاة الإمامية، ثم حدث من بعد لدى الدروز – حين ألهوا الحاكم بأمر الله. ولكن الإسماعيلية ذهبوا إلى تجلى العقل الكلى تجليّا كاملا فى الأئمة، فكان الإمام مصدر معرفة، والمقصود بالمعرفة هنا ما يفيض من علوم على أتباعه وقد كان مركز الدائرة فى هذه العلوم «التأويل القرآنى» ولكن لم تنسب المعرفة الغيبية ولا الاطلاع على عوالم الغيب للأئمة. بل أنكرها هؤلاء. وقد حاول بعض الباحثين فى حياة المعز وفى عصره، أن يثبتوا أن عقيدة تأليهه سادت

(١) البيرونى: تحقيق.. ص ٤٩.

فارس . وهذا عصر متأخر – كما قلت عن العصر الذى نؤرخ له . ولكن من الثابت أنه لا المعز نفسه ولا دعاته أعلنوا ألوهيته . وفى عصر متأخر عن عصر المعز أى فى عصر الحاكم – سيعلن حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير أن الحاكم نفسه بشر ولاحظ له من الألوهية . وقد حارب الكرمانى جميع دعاة ألوهية الحاكم حرباً فكرية عنيفة . كان هناك إذن غلاة ومعتدلون . وكان المذهب المعتدل ينتصر دائماً .

كما أن ثمة دعوة خطيرة تنسب إلى الإسماعيلية – وهى دعوة – وحدة الأديان وهذه الدعوة تنسب أيضاً للصوفية فيما بعد ، وقد قيل إن هذه كانت الغاية الأولى من دعوة محمد بن إسماعيل نفسه ، إنه الناطق السابع الذى أتى بدين جديد – هو الدين السابع – ناسخا لدين محمد ﷺ . وأنه لذلك أعلن أو أعلن الإسماعيليون : للزرادشتيين أن عليًا هو زرادشت وللمانويين أنه مانى وللمزدكيين أنه مزدك ولليهود أنه موسى وللمسيحيين أنه عيسى وللمسلمين أنه محمد . فعلى هو مظهر حلول هؤلاء جميعاً . والإسماعيلية تحوى مذاهبهم جميعاً وقد سمى لويس هذه العقيدة باسم مذهب الشمول Interconfessionalism .

ويرى لويس أن « الدعوة الإسماعيلية صادفت هوى فى نفوس جماعات مختلفة فى العنصر الدينى : مزدكيين ومانويين وصابئيين وشيعة وسنة ومسيحيين ويهود من كل نوع . فأنشأت بحكم الضرورة نطاقاً قويا من مذهب الشمول فى العقيدة تقرب أحياناً من مذهب عقلى خالص . وقد سبقتهم إلى هذا ، وربما تأثروا بها عيسوية أصفهان ، وهى فرقة يهودية أدعت فى أثناء خلافة عبد الملك الأموى بأن محمداً وعيسى كانا نبيين صادقين بالنسبة إلى وطنيهما وشعبيهما اللذين ظهرا منها . فطور الإسماعيليون هذه الفكرة وصاغوها نظاماً محكماً ، أصبحت بموجبه الصحة النسبية لجميع الأديان معترفاً بها [١] » فلويس إذن يقرر أن الإسماعيلية نادت بصحة الأديان جميعاً ، وأنها تأثرت فى هذا خطى فرقة يهودية هرطوقية تنسب إلى أبى عيسى ، وكان يحترف الخياطة فى أصفهان . وادعى أنه المسيح فى أيام الملك بن مروان (٥ – ٨٦) وكان يحرم الخمور ويعتقد فى تطور الإنسان وأوصى أتباعه بقراءة الأنجيل والقرآن . ولما قضى عليه قال أتباعه : إنه فى الغيبة [٢] .

ويرى لويس أنه وضع منذ ذلك التاريخ القديم – عقيدة الإسماعيلية المتأخرة فى نسبية الأديان والنبوة .

---

(١) لويس : أصول... ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ٩٦ .

ويذكر لويس أن العيسوية أثرت فى الإسماعيلية وأنها أخذت بعقيدتها الشاملة لجميع العقائد ولكن لويس كعادته يتكلم عن المرحلة المتأخرة للإسماعيلية ويستند على كتب الدروز. فيقول «ونجد فى كتب الدروز إشارات للتوراة والإنجيل ، بل هناك ترجمة فارسية لموعظة الجبل بتفسير إسماعيل . وقد ذكر بنيامين التطيلى أن الدروز فى سورية كانوا أصدقاء مخلصين لليهود ، وكان فى فارس مجتمع يهودى يعيش تحت حكم الإسماعيليين ويصحبهم كلما ذهبوا للحرب»[١] ثم يذكر أن حمزة بن على يقول فى رسالة السفر إلى السادة بأن عقيدة الوحدانية — أى عقيدة تأليه الحاكم نسخت جميع العقائد الأخرى كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والإسلام ، وما اتصل بهذه الأديان من نحل وفرق.

وليس بين شمولها هذه الأديان وبين قيامها مقامها إلا خطوة واحدة . بل إن الإسماعيلية نفسها وضعت أحاديث عن الباقر أنه قال «إذا قام قائمنا أهل البيت ، قسم بالسوية ، وعدل فى خلق الرحمن ، البر منهم والفاجر منهم ، من أطاعه أطاع الله ، ومن عصاه عصى الله ، ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية ، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل القرآن بقرآنهم» .

ونلاحظ أن المزاج اليهودى للويس غلب عليه ، فراح ينسب الإسماعيلية إلى العيسوية اليهودية ، ثم يثبت فكرته من شواهد متأخرة درزية ، والدرزية من غلاة الإسماعيلية ، وليست إسماعيلية خالصة . ويحاول لويس أن يثبت أثر اليهودية والمسيحية فى حميد الدين الكرمانى لمجرد إلمامه باللغتين العبرية والسوريانية واستفادته من أقوال من العهدين القديم والجديد .

إن الإسماعيلية مذهب شيعى اعتنق العقيدة المعتزلية . ولكنه وهو فى خلال السرّ دعا الجميع إلى عقيدته — عقيدة شيعية لفرع من فروع البيت العلوى الفاطمى ولا شك أن طوائف متعددة قد استجابت للدعوة ، وحاولت أن تضعها فى صورة عقائدها السابقة . كما أن الدعاة وصلوا إلى الجزر البعيدة أى الأقاليم البعيدة وفى هذه الأقاليم البعيدة صوروا الدعوة صوراً تخالف الدعوة الرئيسية . وطالما تبرأ الأئمة من هذا الغلو كما تبرأ منه من قبل الباقر والصادق وغيرهما من الأئمة الأوائل . ثم إن الكثير من الفرق الباطنية الإلحادية قد تسترت باسم الإسماعيلية ولم يجد بعض الدعاة ضيراً فى محاولة ضم هذه الفرق إلى المذهب الإسماعيلى الخالص ، ويبدو أن الدعوة الإسماعيلية الخالصة لم تنجح نجاحاً كاملا لدى البعض من هذه الفرق . وبقيت هذه الفرق — كما هى — فى باطنها مزدكية أو مانوية أو زرادشتية أو ديصانية مع مسحة إسماعيلية ظاهرية .

---

(١) لويس : أصول.. ص ١٦ .

أما موقف الإسماعيلية من المسيحية واليهودية . فهو تماما يشبه موقف الإمامية وأهل السنة . أنكروا ألوهية المسيح وحلول الله فيه كما أنكروا صلبه أما الغلاة من الإسماعيلية ، ثم الدروز والنصيرية ، فلهم عقائدهم الخاصة التى تتميز وتختلف تمام الاختلاف عن عقائد وفلسفة الإسماعيلية .

ولا شك أن فكرة نسبية الأديان ، وصحتها جميعها ، وتعبير كل واحدة منها عن وجهة نظر ، قد عرفت لدى بعض فلاسفة الصوفية ، وبخاصة لدى الحلاج والشلمغانى . وهؤلاء من ضحايا النصوص الباطنى الخالص مع مسحة شيعية ظاهرة ثم ظهرت الفكرة لدى محيى الدين بن عربى . وقد كان محيى الدين بن عربى يعتبر «دين الحب» — وهو الإسلام عنده — يشمل الأديان جميعا ، وقد قرر الإسلام فعلا أن الدين واحد ، ولكن على أساس أن الأديان السابقة قد حرفت وغيرت وبدلت ، وأن عقيدة التوحيد هى أساس النبوة والرسالة فى كل دورة من دورات الرسالة والنبوة . ولكن الباطنية استغلوا هذا المبدأ — وقالوا : إن كل عقيدة — مهما كانت صورتها الحالية — صحيحة . وبينما الفكرة القرآنية فكرة دينية بحتة ، نرى فكرة وحدة الأديان عند الباطنية وعند فلاسفة الصوفية غنوصية مجمعة ملفقة .

وقد استندت «البهائية» المتأخرة فى الظهور إلى محيى الدين بن عربى . وقررت فى نصوص تكاد تكون هى نص عباراته صحة الأديان جميعا — الزرادشتية واليهودية والمسيحية . . إلخ . لقد ظهرت الفكرة إذن فى أجزاء من فارس — موطن الأديان القديمة — وترعرعت ونمت ، إما باسم الباطنية المجوسية الفارسية القديمة ، وإما باسم التشيع إماميا كان أو إسماعيليا . ولكنها لم تكن عقائد الإسماعيلية الحقيقية : لا فى نشأة الإسماعيلية ولا فى تطورها . أما الإسماعيلية فى عهد الظهور فقد تناولها الغلو من ناحية والاعتدال من ناحية . الغلو حيث ابتعد الدعاة عن الإمام . والاقتصاد حيث عاش الإمام . وقد رأينا كيف أعلن الدعاة فى فارس تأليه المعز الفاطمى ، والمعز الفاطمى على منابر القاهرة يعلن أنه عبد مربوب وبشر مخلوق . فلم تناد الإسماعيلية إذن بشمول العقيدة ولا بنسبية الأديان .

ومن المضحك أن يذكر بعض ثقاة المؤرخين من أمثال لويس والدكتور حسن إبراهيم أن من الدلائل على إيمان الفاطميين بشمول العقيدة وصحة كل العقائد استخدام الفاطميين فى عهد ظهورهم لليهود وللنصارى . ونسوا أن خلفاء بنى العباس بل والأمويين من قبل استخدموا اليهود والنصارى والصابئة . وكان لهم النفوذ الأكبر فى قصور بنى أمية وبنى العباس . ومن العجب أيضا أن يقال : إن فارس كانت موطن الغلو فى الأئمة الفاطميين . ثم يأتى حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير إلى مصر ليحارب تأليه الحاكم وغلو أتباعه كحمزة والأخرم والدرزى ، ويكتب الكتب الكبيرة فى هذا . ولم تنجح الدعوة الإسماعيلية فى فارس ، بل نجحت فى الشام ومصر والمغرب واليمن — وكلها

بلاد عربية ، وفشلت فى فارس التى بقيت سنية إلى عصر متأخر ، ثم ساد فيها المذهب الاثنا عشرى حتى الآن .

وكما نسبت نظرية الدين الكلى للإسماعيلية مأخوذة عن اليهودية العيسوية ، نسبت الشيوعية الدينية إلى الإسماعيلية مأخوذة عن المزدكية . ونسب الكتاب السنيون هذه الشيوعية إلى مزدك . وقد ذهب نظام الملك فى سياسة نامة كما قلنا من قبل إلى أن حلقة الوصل بين المزدكية والإسماعيلية كانت «خرمة» امرأة مزدك التى أسست الفرقة الخرمدينية . وأن هذه الحركة الخرمدينية تحولت إسماعيلية أو متسترة بالإسماعيلية لأسباب انتهازية . وظهرت العبارة «وقد أصبح مزدك شيوعيًا» ولكن لويس نفسه يشك فى اتصالات الخرمدينية بالإسماعيلية ، ولم تكن الإسماعيلية – وهى حركة تتجه نحو جذب العالم الإسلامى كله إليها – من الحماقة بحيث تربط عجلتها بحركة مجوسية ذات عداوة ضارية للإسلام وللمسلمين . لاشك أن القرامطة أقاموا مجتمعا تعاونيا نقابيا . وقد وصفه لنا ابن حوقل وناصر خسرو . ولكن الإسماعيلية الخالصة لم تعرف هذا النوع من الجمهورية الأولجرجية ولم تعرف الشيوعية . ونسبت إلى الإسماعيلية مراتب الدعوة السبعة أو التسعة ، وهى باطنية بحتة ، حاول المؤرخون السنيون صبغها بصبغة إسماعيلية وهى أبعد ما تكون عن الإسماعيلية .

ولقد صدق البغدادى حين قال «الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ، كما صدق حين قال «إن الباطنية لهم فى اصطياد الأغنام ودعوتهم إلى بدعتهم حيل على مراتب سموها ، التفرس والتأنيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالإيمان والعهود ، وآخرها الخلع والسلخ» كل هذا حق . ولكن من الخطأ الشنيع أن يقال إن هذه الباطنية هى الإسماعيلية ، هى أبعد ما تكون عن الإسماعيلية ، وإن كانت قد شابتها مسحة إسماعيلية .

ونهاية الأمر : إن الإسماعيلية مذهب شيعى ، انحرف بلا شك عن الإسلام السنى والإسلام الاثنى عشرى . وفيه الغلو وفيه الاعتدال . وقد كان فى دور الستر من أخطر المذاهب على وحدة الإسلام الدينية والسياسية فلما دخل فى دور الظهور كون دولة من أعظم دول الإسلام – وهى الدولة الفاطمية ، ولما عاد إلى دور الستر ، حيث يعيش الآن ، أصبح مذهبا سريا يمزق فى عصورنا الحاضرة وحدة المسلمين ، ويلحق أفدح الأضرار بمستقبل الإسلام وكيانه .

تم بحمد الله

تعليقات نقدية

على مصادر الكتاب

شغلت الشيعة قديماً وحديثا العدد العديد من الكتاب والمؤرخين والباحثين ، وكتبت عنها كتب مختلفة ذات مشارب متباينة . ولما كانت أغلب فرق الشيعة– اللهم إلا الإمامية ثم خليفتها الاثنى عشرية– فرقاً سرية ، فقد تناول الغموض كثيراً من عقائدها وأسرارها وطقوسها . كما أن كتب بعض مفكرى الشيعة أنفسهم قد باد أو اختفى ، فلم نعد نعرف الكثير عن كتابات هؤلاء المفكرين . ومن الغريب أن الشيعة الاثنى عشرية لا تحتفظ فيما لدى من معلومات بكتاب من كتب «هشام بن الحكم» فيلسوف الشيعة الكبير والممثل الأعظم للفكر الكلامى الإسلامى فى عصره وفيما تلاه من عصور ، ولمدة طويلة من الزمن . فلا نعرف من آراء هذا الفيلسوف الكبير إلا ما نقل إلينا خلال إلزامات أعدائه من المعتزلة وأهل السنة ولعل السبب إغفال الشيعة الاثنى عشرية له ، وعدم اهتمامهم به نزعة التجسيم التى تخالف اتجاههم العقلى المعتزلى فلم يظفر هشام بن الحكم بالكثير من اهتمامهم ، ولم يحتفظوا بكتبه . وهذا بالرغم من أنهم أرخوا له .

بل إن كتب الشيعة– وهم رواد الكتاب العربى الأوائل فى العالم الإسلامى – لا تمدنا أيضا بمعلومات مؤكدة عن كثير من عناصر المذهب فى أول نشأته ، إن الحماس الدينى جعل كتاب الشيعة يتخبطون فى تحديد نشأة المذهب .

ثم نرى أيضا أن روح التمحيص والبحث ينقص هذه الكتب إن قصة عبد الله بن سبأ ، وهى قصة– ابتدعها فيما يرجح الأمويون فى الشام ، لا تناقش فى كتب الشيعة الأقدمين . إنما اكتفوا فقط بالقول بأن عبد الله بن سبأ كان من الغلاة ، وأن الإمام عليا قد تبرأ منه .

كما أننى لا أجد أيضا موقفا معينا واضحا للشيعة تجاه المختار بن أبى عبيد . اللهم إلا ما ورد فى كتب بعض الطبقات من أن الأئمة كالباقر والصادق وغيرهما – قد ذكره بخير وترحم عليه وقد حمل الآن أفظع الآراء ، وكتبت قصة حياته وجهاده واستشهاده على أسوأ ما يكون . والرجل من كل هذا براء ، كما بينت فى بحثى ولقد كان المختار رجلا من محبى آل البيت ، وضحى بحياته فى سبيلهم ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يتولى الشيخين .

وتأتى المشكلة الكبرى – وهى مشكلة الرواية . فقد اختلفت رواية الحديث عند كل من الشيعة والسنة . فلكل طائفة رواتها وأسانيدها . وتختلف الأسانيد اختلافا بينا . وتناولت الطائفتان – بالجرح – أسانيد الرواة ، بحيث يقف الإنسان فى حيرة أمام التعارض العنيف بين أحاديث الطائفتين . غير أن النظرة الفاحصة سرعان ما تتصل إلى عناصر مشابهة فى قواعد الجرح والتعديل لدى الطائفتين ، بحيث تبقى فقط مشكلة التأويل : تأويل الحديث أو الأثر . هذا يؤول بطريقته ، وذاك يؤول بطريقته .

أما كتب العقائد – وما أوفرها فى التراث العربى – فقد أمدتنا بمعلومات كثيرة ، ولكنها فى غالب الأمر فى صورة « إلزامات » فاختفى المذهب الحقيقى . أو فى صورة جدل ، والمنهج الجدلى لا يوصل إلى حقيقة .

فإذا انتقلنا إلى كتب التاريخ ، فنرى كل مؤرخ قديم يكتب على طريقته . وأعنى بطريقته هنا – مذهبه العقائدى فكتابات اليعقوبى والمسعودى الشيعيين تختلف عن كتابات الطبرى وابن كثير السنين . وكتابات ابن حوقل ناصر خسرو الإسماعيليين تختلف عن كتابات ابن خلدون السنى المعتدل والمقريزى ذى النزعة الشيعية المعتدلة .

ومن الأفضل أن نقسم مصادر هذا الكتاب القديمة إلى القسمين الآتيين : مصادر سنية ، مصادر شيعية ، وقد امتلأت هوامش الكتاب بهذه المصادر ولن نكرر أسماءها هنا ، ولكننا سنقدم تعليقات موجهة على بعض منها .

المصادر السنية

١ – أول كتاب من كتب أهل السنة يحدثنا عن العقائد الشيعية هو كتاب أبى الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملطى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، وهو كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (نشر عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٤٩ م) .

ويعتبر هذا الكتاب من أقدم كتب العقائد الإسلامية . كاتبه « حشوى » ولكنه قدم لنا معلومات طريفة عن عقائد الشيعة الأوائل . وبخاصة فرق السبئية كما أنه كتب فصلا عن عقائد القرامطة والديلم ، وهذا الفصل يمثل العقائد الباطنية المنتشرة فى فارس والتى لصقت بالإسماعيلية – وهذه صورة منه « القرامطة والديلم – وهم يقولون : إن الله نور علوى لا تشبهه الأنوار ، ولا يمازجه الظلام ، وأنه تولد من النور العلوى النور الشعشعانى ، فكان منه الأنبياء والأئمة ، فهم بخلاف طبائع الناس وهم

يعلمون الغيب ، ويقدرون على كل شيء ولا يعجزهم شيء ، ويقهرون ولا يقهرون ، ويعلمون ولا يعلمون ولهم علامات معجزات . وأمارات ومقدمات . قبل بحثهم وظهورهم . وبعد ظهورهم يعرفون بها . وهم مباينون لسائر الناس فى صورهم وطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم » .

« وزعموا أنه تولد من النور الشعشعانى نور ظلامى . وهو النور الذى تراه فى الشمس والقمر والكواكب والنار والجواهر. الذى يخالطه الظلام وتجوز عليه الآفات والنقصان وتحل عليه الآلام والأوصاب ، ويجوز عليه السهو والغفلات والنسيان والسيئات والشهوات والمنكرات » .

« غير أن الخلق كله تولد من القديم البارى ، وهو النور العلوى الذى لم يزل ولا يزول ، سبق الحوادث ، وأبدع الخلق من غير شيء كان قبله . قدره نافذ ، وعلمه سابق . وأنه حى لا بحياة ، وقادر لا بقدرة ، وسميع بصير لا يسمع ولا يبصر ، ومدبر لا بجوارح ولا آلة فيصفون الإله جل وعز – كما يصفه الموحدون مع قولهم إنه نور لا يشبه الأنوار » .

« ثم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض وإنما هو شكر للمنعم ، وأن الرب لا يحتاج إلى عبادة خلقه ، وإنما ذلك شكرهم ، فمن شاء فعل ومن شاء لم يفعل ، والاختيار فى ذلك إليهم . وزعموا أنه لا جنة ولا نار ، ولا بعث ولا نشور ، وأن من مات بلى جسده ، ولحق روحه بالنور الذى تولد منه ، حتى يرجع كما كان . . . إلخ .

هذا فصل من أهم الفصول – وهو يحدثنا عن عقائد الباطنية التى تسربت باسم الإسماعيلية فى فارس . ويعطى الملطى مقارنات دقيقة بين عقائد هذه الفرقة وبين النصارى فى بعض أجزاء المذهب . ثم ينتهى إلى القول بأن « سبيلهم سبيل المنانيةسواء . والرد عليهم فى النور كالرد على المنانية» ٢٦ – ٢٩ فالرجل ذو منهج مقارن وله نظرات نقدية رائعة . ولكن يؤخذ عليه فى كثير من المواضع خلط الفرق بعضها ببعض وكثرة الإلزامات .

٢ – أبو الحسن الأشعرى . .مقالات الإسلاميين ، واختلافات المصلين ، وهذا كتاب أيضا من أقدم كتب العقائد . كتبه شيخ المذهب الأشعرى . ولم يكتبه فى صورة جدلية . كبقية كتبه الأخرى . وهذا ما دعانى إلى الشك فى أنه الصورة الحقيقية للكتاب . وأيا كان الأمر – فالكتاب يمدنا بمعلومات ممتازة عن فرق الشيعة ونشأتها . بل تنقل إلينا هذه المعلومات بأمانة .

٣ – البغدادى – أبو منصور عبد القاهر (المتوفى – ٤٢٩هـ = ١٠٣٧ م) وهو من أهم الكتب فى معرفة عقائد الشيعة . ولكن البغدادى كثيراً ما يخرج عن جادة التاريخ ، وينقل إلينا الإلزامات

فقط غير أن النقد الداخلى للنصوص يبين حقيقتها . وقد استند الإسفرايينى فى التبصير على كتاب البغدادى .

٤ – ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م الفصل فى الملل والأهواء والنحل . نقل إلينا ابن حزم – وهو فيلسوف المظهر الظاهرى – كثيراً من عقائد الشيعة ، وقدم لنا نظرات نقدية هامة . ولكن يقلل من أهمية كتابه كمصدر تاريخى – مزاجه الحاد وهجومه الدائم على المخالفين .

٥ – الشهرستانى (المتوفى سنة ٥٤٨هـ – ١١٥٣ م) الملل والنحل . يكاد يكون أهم كتاب للفرق الإسلامية ، ولا يقلل من قيمة كتابه – كما ذكر فخر الدين الرازى – أنه نقل عن البغدادى – والبغدادى فى نظر الرازى لا ينقل بأمانة . إن الشهرستانى ناقد وفيلسوف بالإضافة إلى شهرته كمؤرخ للفلسفة الإسلامية . ولا شك أنه استند على البغدادى ولكن هناك فصولا كاملة تدل على أصالته . ولا يزال كتاب الشهرستانى . « الملل والنحل » فى حاجة إلى نشرة علمية ضخمة تحدد المصادر والمآخذ التى أخذ عنها . ومن الفصول الرائعة فى كتابه – ما كتبه عن الشيعة عامة والباطنية خاصة . وقد ترك لنا نصوصا – نقلها عن الفارسية من كتب الحسن الصباح . كما أنه من القلائل الذين كتبوا بإفاضة عن أحمد الكيال .

٦ – الرازى ، فخر الدين : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين وهو كتاب صغير ولكنه قيم . يكاد يكون ثبتا دقيقا بأسماء الفرق وأصحابه ثم يقدم لنا أحيانا نظرات فاحصة .

هذه صورة من كتب العقائد الإسلامية . وقد ذكرت غيرها فى هوامش الكتاب ، ولا حاجة لتكرارها هنا . غير أن هناك كتاباً هاما يكاد يكون فى التاريخ . ولكن يحتوى جزء كامل منه على تاريخ العقائد والفلسفة . وهو كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن المطهر المقدسى (عاش حوالى منتصف القرن الرابع) ، وقد وصل الكتاب مطبوعا إلى أيدينا حديثاً . والكتاب ممتع فى جميع أجزائه . ويحتاج الجزء الخاص بالعقائد إلى دراسة مقارنة مع غيره من كتب العقائد وتاريخها . وقد استفدت منه استفادات قيمة فى هذا الكتاب .

وهناك كتب تاريخية كثيرة بعضها كتب من وجهة نظر السنة – ومن أهمها تاريخ الأمم والملوك للطبرى – (والمتوفى سنة ٣١٠ = ٩٢٢ م) وبعضها كتب من وجهة نظر الشيعة مثل تاريخ اليعقوبى – لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) والمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ٩٥٧ م صاحب مروج الذهب والتنبيه والإشراف ثم الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) كل هذه الكتب – كانت ذات أهمية كبرى فى تقديم معلومات قيمة عن الشيعة ، وبخاصة الشيعة الاثنى

عشرية . ويتميز اليعقوبى بالاختصار والتمكن – كما يتميز المسعودى بالإطالة وعيبه الاستطراد .

كما أن كتب البيرونى وهو عالم ناقد فاحص سنى المذهب (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨م) مصدر ممتاز لكثير من الأخبار عن الشيعة . فأما كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة ، ففيه نظرات نقدية ممتازة عن الشيعة الباطنية ، ومقارنة بعض كلام أبى يعقوب السجزى بالتناسخ عند الهنود . أما الآثار الباقية » فيحوى معلومات ممتازة عن القرامطة ، وعن الغنوصيات التى دخلت العالم الإسلامى ، كما أنه أمدنى أيضاً بالصيغ الكيالة التى استخدمها أحمد الكيال .

وعالم آخر سلفى – وهو ابن تيمية ، يعتبر مصدرا عارما لعقائد الشيعة . وكتابه « منهاج السنة » وثيقة فريدة تنقل إلينا صورا متعددة من عقائدهم . وميزة ابن تيمية أنه ينقل لنا نقلا صادقاما يناقشه بعد ذلك فى حدة وقسوة . وما يفسد كتابات ابن تيمية هو حقده الملتهب على المخالفين لعقيدته السلفية . وكمجسم نراه هينا لينا تجاه هشام بن الحكم .

الكتب الشيعية

١ – أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) فرق الشيعة . وهو من أهم كتب العقائد الشيعية . وبه أدق المعلومات عن نشأة التشيع وتطوره وفرقه ، تكلم عن أنواع التشيع . اثنى عشرى أو عباسى أو حنفى أو أبى هاشمى . ثم قدم لنا معلومات وثيقة عن الغلاة ، ثم تحدث عن أوائل الحركة الإسماعيلية .

٢ – أبو خلف الأشعرى القمى : كتاب المقالات والفرق . (توفى القمى عام ٣٠٠ أى قبل وفاة النوبختى) ولكن أثبت الدكتور محمد جواد مشكور فى نشرته الرائعة لكتاب الأشعرى القمى أن الكتاب الأخير يستند على كتاب النوبختى . ولكن به زيادات وإضافات عن الكتاب الأخير وقد استند عليه كثيراً .

٣ – ابن المطهر الحلى (المتوفى سنة ٧٢٦هـ) . كتاب منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة . كتبه علامة الشيعة الكبير . وفيه أخبار هامة عن المذهب ومهاجمة لأعداء الشيعة الأثنى عشرية . وقد رد عليه عالم السلف الكبير تقى الدين بن تيمية بكتابه المشهور « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية . وابن تيمية بجانب مذهبه الكلامى ونظراته الفلسفية ، بحيث يعتبر فيلسوف المذهب السلفى

المتأخر ، هو أكثر مؤرخى الفلسفة الإسلامية دقة ، يورد النقول كما هى –والآراء كما وردت ثم يناقشها مناقشة من وجهة نظره . وفى الحق أن كتاب منهاج الكرامة وكتاب منهاج السنة مصدران من أهم المصادر لدراسة المذهب الشيعى وآراء الإمامية وأهل السنة فى كثير من عقائدهم .

٣ – رجال الكشى : أو طبقات الكشى – من رجال القرن الرابع الهجرى (طبعة كربلاء – نشرة السيد أحمد الحسينى) من أقدم كتاب طبقات الرجال عند الشيعة . وبه فصول قيمة وبخاصة عن المختار بن أبى عبيد وهشام بن الحكم وأبى الخطاب الأسدى ويحتاج هذا الكتاب إلى دراسة خاصة .

٤ – الشيخ المفيد محمد بن النعمان المتوفى عام (٤١٣ هـ) : أوائل المقالات فى المذاهب والمختارات وهو من أهم كتاب الأئمة المجتهدين فى معرفة عقائد الاثنى عشرية . . وله أيضا شرح عقائد الصدوق (فى مجلد واحد) .

كتب الإسماعيلية

كان استناد الباحثين فى معرفة كتب الإسماعيلية إلى ما كتبه أعداء الإسماعيلية فقط ، ومن أهم الأمثلة الواضحة على مقدار الفهم الخاطئ للإسماعيلية أن عدداً من الباحثين – استندوا لمدة طويلة على آراء ابن رزام فى معرفة حقيقة الإسماعيلية كما فعل ابن النديم صاحب الفهرست ، كما عرفت آراء الإسماعيلية عن نقل عدو لهم هو « أخو محسن » ونقل أيضا بعض آرائهم النويرى فى نهاية الأرب ولكن مالبث أن نشر عدد من كتب الإسماعيلية ، أنارت لنا الطريق إلى أكبر حد فى معرفة آرائهم وأذكر على سبيل المثال .

١ – نشرات الأستاذ عارف تامر : وأهمها : خمس رسائل إسماعيلية لمفكرين إسماعيليين . ثلاث رسائل إسماعيلية . والأستاذ عارف تامر إسماعيلى متعصب للإسماعيلية . ولا يميز بين الإسماعيلية الأولى والإسماعيلية المتأخرة بينما هناك فروق جوهرية بين الفرقتين .

٢ – نشرة شترو تمان لأربعة كتب إسماعيلية – وهى من أهم الكتب فى معرفة نظرية الإمامة المستقرة والمستودعة .

٣ – نشرات الأستاذ إيفانوف الكثيرة – وكتبه المتعددة عن المذهب الإسماعيلى . وقد قدم إيفانوف خدمات جليلة فى توضيح هذا المذهب وتطوره مع حماس ظاهر له أضاع كثيراً من قيمة هذه الأبحاث العلمية .

٤ – نشرات المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقد قدم لنا عدداً كبيراً من مخطوطات الإسماعيلية فى نشرات علمية . وقد أجهد الدكتور محمد كامل حسين نفسه فى سبيل توضيح عناصر هذا المذهب . غير أننى ألاحظ أنه – فيما خلا كتب الكرمانى التى نشرها الدكتور محمد كامل حسين فإن الكتب التى قدمها لنا ليست من الكتب السرية .

٥ – الأبحاث المختلفة الفلسفية والتاريخية عن الإسماعيلية وأكبر من تصدى لهذا الموضوع الأستاذ ماسينيون . ومقالته عن القرامطة فى دائرة المعارف الإسلامية مثال واضح عن تضلع ماسينيون فى هذا النطاق . كما أن مقالته عن سلمان الفارسى لدليل واضح على أصالة الرجل فى البحث . وكذلك مقالته عن النصيرية وعن المباهلة .

غير أن أبحاث ماسينيون أبحاث كتبت من وجهة نظر خاصة . لقد سيطرت على الرجل عقيدته الكاثوليكية – فحاول أن يصور الشخصيات التى كتب عنها فى صورة هذه العقيدة . فالحلاج مسيح آخر » وسلمان صورة غنوصية مسيحية فى العالم الإسلامى ، وغاية الإسماعيلية هى إعادة مجد بيت المقدس . والدروز مسيحيون . وهكذا يسير ماسينيون وراء تدعيم هذه الفكرة .

وكما سبق أن قلت فى صلب الكتاب – إنه لكى نتفهم عقائد الشيعة ينبغى دراسة تاريخ العراق السياسى والاقتصادى وأهم مصدر فى هذا الموضوع كتابات سيد مؤرخى العرب المعاصرين الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى – وبخاصة فى كتابه دراسات فى العصور العباسية المتأخرة والحياة الاقتصادية فى العراق فى القرن الرابع الهجرى .

ثم نجد عالما آخر يكتب كتابا هاما عن « أصول الإسماعيلية » وهو الأستاذ برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى والأوسط فى جامعة لندن . والكتاب قطعة ذكية من البحث العلمى أو محاولة لبقة لإلقاء الضوء على نسب الفاطميين . ولكن فكرته ليست حلا نهائيا لمشكلة الفاطميين . وقد استند عليه استناداً كاملا الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف فى كتابهما « عبيد الله المهدى » غير أن أبحاث لويس يسودها اتجاهه المذهبى . فيرى أن الإسماعيلية تأثرت خطى العيسوية الأصفهانية اليهودية فى مشكلة التأويل . ولكن كان للويس فضل الكشف عن عدد من المخطوطات الهامة التى استند عليها فى بحثه مثل قسم من تاريخ مفقود لثابت بن سنان الصابى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٤ م . وقد أمده بمعلومات محايدة عن الإسماعيلية . كما استفاد أيضا من كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضى عبد الجبار (المتوفى سنة ٤١٥ أو ٤١٦ هـ = ١٠٢٤ أو ١٠٢٥ م) ، وهذا المخطوط يعد للنشر الآن فى القاهرة .

غير أن خطأ لويس أنه استند على مخطوطات درزية – كرسالة حمزة «الرسالة المستقيمة» وغيرها من رسائل بشأن القرامطة والفاطمية» وحاول أن يحل مشكلة اسم القرامطة بناء على معلومات فى هذه المخطوطات . كما وجه أنظار الباحثين إلى مجموعة من المخطوطات الدرزية فى مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ولكنه نسى أن كتب الدروز كتب أسطورية لا تقدم لنا أبداً تاريخاً وإنما أساطير وعقائد غنوصية وأسراراً خفية .

٦ – نشرات الدكتور الهمدانى . وقد قدم هذا العالم خدمات جليلة لفهم المذهب الإسماعيلى بنشراته لعدد من المخطوطات الإسماعيلية . وكذلك بما كتبه من مقالات هامة عن الإسماعيلية .

٧ – الدكتور كامل مصطفى الشيبى الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد : فهو كتاب «الصلة بين التصوف والتشيع» وقد نشر الجزء الأول والثانى من هذا الكتاب .

وقد حاول الدكتور الشيبى أن يكشف عن الصلات بين التصوف والتشيع بعمق نادر المثال وأن يقيم مقارنات بين أقوال الصوفية ، ثم أن يصل بين النظريات الشيعية والنظريات الصوفية . وعاونه على دراسته ثقافته الشيعية الواسعة ثم دراساته الفلسفية فى مصر وفى كمبردج .

٨ – ثم هناك كتابان آخران : أولهما «جعفر الصادق رائد الشيعة والسنة» للدكتور عبد القادر محمود – وهو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة – فرع الخرطوم . وقد طبع الكتاب . والكتاب كان رسالة جامعية تحت إشرافى فى كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . والبحث يتناول الإمام جعفر الصادق من مختلف نواحيه . وثانيهما «نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية – للدكتور أحمد صبحى – وهو بحث كبير ممتاز يتناول نظرية الإمامة الاثنى عشرية من جميع نواحيها بنزاهة وإخلاص . وقد نشرته دار المعارف بطبعه .

٩ – الأستاذ هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية (الترجمة العربية عام ١٩٦٦) . ولقد خلف الأستاذ كورباب ماسينيون ، فى السوربون وتشبه محاولته لتأريخ الشيعة ، محاولة ماسينيون لتأريخ الحلاج . وهو متأثر باتجاهه بلا شك . مع تطبيق مذهب الظواهر . للفيلسوف هسرل فى مختلف مباحث الكتاب ، وبخاصة الجزء الخاص بالتشيع . وهو جوهر الكتاب . وفى الكتاب لمحات جميلة ، ولكن هل هى تعبر فعلا عن تاريخ التشيع ، أم هى آراء المتأخرين من كتاب الشيعة من أمثال حيدر أملى – وغيره ، حاول بنظرة ظواهرية أن يفسر لها نشأة الفكر الفلسفى لدى الشيعة . إن الملاحظات القيمة التى

أوردها الإمام موسى الصدر فى مقدمته ، ثم الكثير من ملاحظات الأستاذين المترجمين ، تثبت تماماً أن كوربان كان شيعيًّا أكثر من الشيعة . كان يعانى تجر هو الذاتية خلال ماكتبه الشيعة المتأخرون عن الأئمة ، أو ما حملوه الأئمة من أقوال وآثار لم تصدر عهم أبداً . وما أبعد هذا عن تاريخ الفلسفة تاريخاً صحيحاً .

تم الجزء الثانى من الكتاب

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

تم بحمد الله

رقم الإيداع	١٩٩٦/٢٣٤٨
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5229-8

١/٩٥/٦١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

في هذا الكتاب يتتبع المؤلف الجليل نشأة الفكر الفلسفي لدى المسلمين ، ويرصد بدقة العالم وحماسة المؤمن ، هذا الفيض الهائل من الأفكار والنظرات والفلسفات التى نشأت من تمازج أفكار المسلمين فى شتى أقطار الأرض انتصارًا للقرآن والإسلام فى مواجهة فلاسفة اليونان .

والكتاب يقدم صورًا فاتنةً لفلاسفة المعتزلة : واصل بن عطاء وأبى الهذيل العلاف والنظّام ومعمر بن عبّاد السلمى ، والمشبهة وأفكارها والمجسمة ومصادر فكرة التجسيم ، ويعالج فى الجزء الثانى نشأة التشيع ، ويكشف عن الحركات الشيعية الأولى . الكيسانية والمختارية ويتابع تطور التشيع فى فرق الغلاة ويكشف حقيقة القرامطة .

وفى الجزء الثالث يبحث نشأة الزهد ويبين أنه كان ذا طابع اسلامى وينبثق من روح القرآن والسّنة ، كما يتناول التصوف والعوامل الإسلامية فى نشأته وتطوره.

كتاب بالغ الأهمية تفخر دار المعارف بتقديمه فى طبعة جديدة لقراء جدد .



٠٢٤٠٥١/٠١